

الأعمال الكاملة

فتحي غانم



الرجل

الذي فقد

ظله



الجزء الأول

مبروكة - سامية

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

فتحي غانم

**الرجل
الذي فقد
ظله**

القسم الاول تروييه :

مبروكية

القسم الثاني تروييه

سامية

يناير ١٩٨٨

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>



الإهداء

... إلى صلاح جاهين



المدير الفني : عدلي فهم
رسوم : المؤلف : الفنان جمال كامل
الرسوم الداخلية : للفنانين جمال كامل • مأمون
التصميم : ماري ميخائيل • مشيرة صبرى





القسم الأول تروييه :

مـبـرـوكة

أنا مبروكة ..

مبروكة عبد التواب .. أرملة عبد الحميد الفندي السويدي الذي كان مدرساً في المدرسة الابتدائية ، مازلت شابة ، وحلوة ، قوامي ممشوق ، ردفاي ممثلتان قليلا ، وهذا يعجبني ، أما صديقي الصغير ، وهذا يضايقني ، الرجال ينظرون إليّ بعين مفتوحة ، فأشعر بسعادة وحيوية ورغبة دائمة في الحركة ، لا أهدأ أبداً حتى في الأيام التي استريح فيها في البيت ، أطبخ وأغسل وأكنس ، وأخرج إلى الشارع ساعة الغروب أبحث عن ولدي إبراهيم ، فأجده يلعب الكرة الشراة فأجذبه من جلابيه وأجره أمامي إلى البيت ليذاكر دروسه . بينما استعم وأمشط شعري ، ثم أجد بعد ذلك وقتاً طويلاً أتوه فيه مع الحقد الذي يشتعل في صدري .

قلبي لا يعرف سوى عاطفة واحدة هي الحقد ، أحقد بكل شبابي ، أحقد بعمرى .

أحقد على رجل أتمنى موته ، موتاً بطيئاً يتعذب فيه ، أتمنى لو فتحت بطني بسكين ، ومديت يدي في جرحه ، وأنتزعت كبده ونهشتها بأسناني ، أتمنى لو دفعت ظفري في عينيه وفقتاهما ، لو شربت من دمه .

اسمه يوسف ، يوسف عبد الحميد ابن المرحوم من زوجته الأولى .



أحياناً أسأل نفسي كيف وصلت إلى هذا الحد . وما هي آخرته . إنه يكتم
أنفاسي ويلاحقني ليل نهار . حتى وأنا أنظر إلى وجه إبراهيم . تتقضى
صورته . وأرى وجه يوسف . وأردت لو قمت وحطمت ضلوعه . لولا صوت
خافت يهيم في أذني « كوني عاقلة يا مبروكه » هذا أبتك إبراهيم .
لا تعسبي . ابتسمي في وجهه . إنه ليس يوسف .

واترك إبراهيم وأذهب إلى مريسي . أرقد عليه . وأهبط في سقف
الحجرة . وصدرتي يلهث . وصورة يوسف ترققني . وتحرمني من النوم .
أول مرة رأيت فيها يوسف . كانت منذ زمن بعيد . وأنا صبية صغيرة .
لا أدري عن الدنيا شيئاً . كان عمري في ذلك الوقت لا يزيد على عشر سنوات
وكنت أعمل خادمة في بيت كبير بالحيزة . لم أكن أعلم أيامها طبيعة عملي .
ولا معنى أن أكون خادمة . كل ما كنت أعلمه أن أمي حملتني ذات يوم من
قرينتنا . وركبنا القطار مع الشيخ دسوقي الذي لم يكف عن الحديث مع أمي
طوال الطريق . وأنا لأهية عنهما بالأشياء المجيبة التي تحدث لي .. القطار
الذي أركبه لأول مرة في حياتي والدنيا الواسعة التي تجري أمام القطار .
والمحطات التي يقف عندها فيصعد ناس ويهبط ناس . ثم تلك الرجل المغليظ
الذي ما كان يظهر بملابسه الزرقاء .. حتى جذبتني أمي وجعلتني أتكشف
جوارها . وجاء الرجل وحدجني بنظرات قاسية أفرغتني . وسأل الشيخ
دسوقي عن عمري وهو يفحص نذاكرنا . ثم مضى لحاله وهو ما زال يصوب إلى
نظراته المادية التي لم أفهم لها سبباً .

في تلك اللحظة شعرت بالخوف . ولأزمني هذا الشعور وأنا أهبط من القطار
إلى المدينة الكبيرة . خفت من الطريق الواسع الذي تتزاحم فيه السيارات .
خفت من المباني العالية كأنها بيوت المردة والشياطين . خفت من الناس .
كانوا يذكروني برجل القطار . وكانهم سيمسكون بي في أية لحظة . ويسألون
عن عمري . لسبب مجهول لا أعلمه .

وركبنا الترام . وأنا أظن أنه قطار آخر . وعيناي زائغتان لا ترويان شيئاً

عما يدور حولي . فجلست القرفصاء عند قدمي أمي . وأمسكت بذيل ثوبها
الأسود . لا أرفع رأسي مهما حدث من شيء . وقاومت رغبة البكاء . خفت أن
أبكي فيسمعني أحد . وينتبه الناس إلى وجودي .

وهبطنا من الترام . وسرنا في طريق واسع تحف به بيوت لها حدائق .
فشعرت ببعض الراحة وأنا أرى للخضرة من جديد . وأمي مازالت تتحدث مع
الشيخ دسوقي . لا توجه إلا كلمة واحدة . وقد أسرع الاثنان الخطى .
فأجري خلفها . واتشبث بثوب أمي . خشي أن تنساني فأضيع منها ...
ووصلنا إلى بيت له حديقة .. ويجلس عند بابها رجل أسود يضع على رأسه
عمامة كبيرة . سأل الشيخ دسوقي :

- راتب بيه موجود يا عم عثمان ؟

فأجابوه وهو ينقل عينيه بيني وبين أمي :

- البية خرج ولمسه ما جاش ..

- وعاد الشيخ دسوقي يسأله :

- والسك الكبيرة ؟

- موجودة

- طبيب أدخل أسلم عليها ..

وتركتنا الشيخ دسوقي . ودخل الحديقة . ولم يصعد السلم الأبيض
المضي إلى الباب كما كنت أتوقع وأنا أرقبه . دار حول البيت وأخفى وراءه
بينما جلست أنا وأمي القرفصاء إلى جانب الدكة التي يجلس عليها عم
عثمان .

ولا حسنت أن عم عثمان يليل النظر إلينا . ثم قال فجأة :

- ما تقعدوش قدام الباب .. خشوا جوه ..

قالت له أمي :

- نجعد جوه فين ؟

فأشار إلى التلحية التي ذهب إليها الشيخ دسوقي وراء البيت وقال :

- هناك ..

ونظرت إليه أمي في حيرة ، فقام متكاسلاً قائلاً :
- تعالوا معاً ..

ومضى أمامنا حتى منتصف الحديقة وأشار إلى ممر يجانب البيت ، وطلب منا أن نسير إلى نهايته ، ونجلس في آخره ، فنفذنا طلبه ، ووجدنا خلف البيت فناء صغيراً فيه عشة للفراخ جلستنا إلى جوارها .. وكان أمامنا باب ضيق مفتوح .. ونالذة يبدو من داخلها رجل يلبس فوق رأسه طرطوراً أبيض يقف أمام أوان فوق النار تتصاعد منها أبخرة طعام حرك أحشائي وأسأل اللعاب في فمي ..

مضى بعض الوقت ، وأنا أرتب الفراخ ، وأتشم رائحة الطعام ، وأعجب لمنظر الطرطور فوق رأس الرجل . وكان ينظر إلينا بين وقت وآخر دون أن يخاطبنا بكلمة واحدة ، ثم ظهر الشيخ دسوقي خارجاً من الباب الضيق ، وما كاد يرانا حتى أقبل على أمي متهلل الوجه وقال لها :
- الست الكبيرة رضية يا نفيسة .. أو عجبنا ح تدفع ثمانين جرش وهلني الرقم . ثمانين قرشاً ، إنها ثروة كبيرة ، ولكن هذه الثروة لن تدفعها الست الكبيرة .

وقامت أمي وجذبتني من يدي ودخلنا الباب وراء الشيخ دسوقي ، وغادرنى الشعور بالخوف ، لم أقم ما أراه كائني أدخل عالماً مسجوراً ، وصعدنا سلماً طويلاً ، حتى وصلنا إلى باب مفتوح ، تمنح أمامه الشيخ دسوقي ، وطرقه ثم التفت إلينا وطلب منا الدخول .

رايت سيدة عجوزاً وجهها مضاء كأنه البدر ، تلف رأسها بطرحة بيضاء وتجلس على أريكة عريضة ، وغطت أمي يدها بطرحتها السوداء وصالحمت السيدة وأنحنت على يدها تقبلها وهي تدعو لها بطول العمر ودوام العز .. ثم التفتت إلى ولكرتني في كتفي قائلة :

- ما تحبي على أيد ستك يا بنت ..

وقبلت يدها التي مسحتها بسرعة قبل أن تلمسها شفطاي ، وسألتني بصوت ضعيف .

- اسمك إيه يا شاطرة ؟

- وأسرت أمي تلكرتني في كتفي :

- جولي لست اسمك يا بنت

فاطرت براسي وقالت :

- اسمي ميروكة .

ولكرتني أمي من جديد وكأني ارتكبت جرماً كبيراً وقالت :

- خدامك ميروكة .. وكنتا خداميك يا ست ، وطول عمرنا عابشين بنفسك

ونفس اليه الكبير .

وانطلقت أمي في دعواتها للسيدة العجوز التي التفتت إلى الشيخ دسوقي

وقالت له بصوتها الضعيف :

- خلاص اتفقنا يا شيخ دسوقي .

ومدت السيدة يدها إلى شيء بجانبها لم أعرف ما هو ، نظرت فيه ثم قالت :

- لسه الضهر ما جاش ..

وكما صعدنا السلم مبهطنا منه ، وعدنا إلى مكاننا بجوار عشة الفراخ بينما

تركنا الشيخ دسوقي ونعجب ليجلس مع عم عثمان في انتظار حضور راتب

بييه ..

وطال غياب الشيخ دسوقي ، ورائحة الطعام تنفذ إلى أنفي فينبش الجوع

أممطي . ولكني لا أستطيع أن أسأل أمي متى سناكل ، لو سألتها ستطعنني

على وجهي ، فهذه هي عاداتها معي ومع أخوتي ، يجب ألا نسالها أبداً متى

سناكل ، أو نشكر لها الجوع ، تعودنا أن ننتظر حتى تأتينا بالطعام ، فإذا لم

تأت به ، يتنا ليقتنا جائعين صابرين

ورأيت رجلاً آخر يتضم إلى الرجل الذي يلبس الطرطور ، والاثنان

يتحركان في نشاط ، ثم وضع الرجل الآخر حزاماً أحمر حول خصره . وبدأ

يوقع أطباقاً عليها كميات ضخمة من الطعام .. كلها لحم وطبيخ وأرز يخرج

بها ثم يعود ليحمل غيرها .

زائفة وأنا مبهورة . لا أدع منظره يفلت من عيني حتى يغيب وراء اليلبي

والجوع يقرصني فكأدأ أمسك بحفنة من الطين وانضمها بإسنتني ..

ولكن عذابي لم يمل . إذ خرج الرجل ثم رأيته يعبر الباب إلينا وهو يحمل بين يديه صينية عليها أطباق مليئة بالطعام وأرغلة . وضعها أمامنا وانصرف دون أن ينس بكلمة .

أذهلني منظر الطعام . زأغت عينايا وأنا أرى قطع اللحم والخضرة والأرز واختلطت أمني رغيفاً مزقته بإسنتنها . وقالت لي بقم يملأه الطعام :
- كلي يا بت ..

واكلت واكلت . حتى لم يبق أمامي غير الصحون خاوية نظيفة . وبطني قفزني من النخمة . ولكن سعادتي كانت عظيمة . وقالت لنفسي متى سأكل مثل هذه الأكلة مرة ثانية ..

وقالت لي أمني :

- بت يا مبروكة .. أنت ج تعجدي هنا ..

ولم أفهم ماذا تريد من كلامها . انسكت بينما مضت هي تقول :

- ج تعجدي مع الست الكبيرة وتخدمها .. سامعة يا بت ..

قلت لي المضطرب :

- وح تعجدي معالي يا أمه ..

قالت علي الملمور :

- ج أجدد أعمل إيه .. أنا مروحة لأخواتك ..

- خ تسيبيني يا أمه ..

قلت لها وأنا على وشك البكاء .. فعدجتي بنظرة قاسية وقلت :

- يا بت تاكلي زغر كل يوم .. وتلبسي هدوم نفسية

وأيقنت أنها ستضربني لو تصادبت في الكلام .. وكنت خائفة منها . ولكن خولي من هذا البيت كان أكبر . ونسيت فرحتي بالطعام الذي أكلته إنه لا يعوضني عن أمني وأخوتي وفريقي . ولا يمنع عني الخوف .

قلت وأنا أرتجف :

.. أنا خايفة يا أمه ..

فشدتني . وقالت لي : إننا تمسديني وأولا أخوتي لهجرتنا وتركتنا وحدنا في القرية للفقر والجوع . وجاءت هي إلى هذا البيت حيث الطعام والنعيم وجاء الشيخ نسوتي . تبدو على أسارير وجهه علامات الانشراح . وقال لأمني : إن موعد الرجل قد أذن لجمعت عينايا . وتشبثت بها . طوقتها بذراعي واحتضنتها بقوة .. فشدتني بقوة . وصفعتني . ثم هجعت هجراً واجتذنتني وقيلتني .. ورأيتهما تتلفت حولها في حيرة . ثم نادى علي الرجل الذي أتى لنا بالطعام وكان يراقبنا من النافذة . وأوصت بي وهي تستحلف باسم الله والنبي وسيدى إبراهيم النسوتي ..

فأقبل الرجل علينا . وأمسك بيدي وجذبني إلى داخل البيت . بينما انصرفت أمني مع الشيخ نسوتي .. وهي تتعتم بدعوات لي .



ومرت أيام وأيام . ومرت شهور وشهور . والدنيا من حولي تتغير .. وما كنت أدري أنني أيضاً أتغير .. البيت الذي كنت أظنه علماً مسجوراً تحول شيئاً فشيئاً إلى ثلاثة طوابق . وحجرات للنوم والجلوس والأكل . والرجل الذي يلبس الطرطور عرفت أنه الطاهي . والرجل الذي يضع الحزام الأحمر حول خصره عرفت أنه خادم مثلي . وعم عثمان عرفت أنه البواب . والشيء الذي تضعه السيدة العجوز إلى جانبها وتنتظر فيه بين وقت وآخر اسمه « المنبة » وهي تحمله معها ولا تفارقه أبداً حتى لا تفوتها مواعيد الصلاة . وعرفت أن السيدة العجوز ليست المرأة الوحيدة في البيت . إنها لم راتب بك . وأناديهما « ستي الكبيرة » وهناك « ستي الصغيرة » زوجة راتب بك . وسني سعد أبنة راتب بك . وكانت تكبرني قليلاً . ثم هناك سيدي الصغير مدحت وهو في مثل سني . يذهب كل صباح هو وسعد إلى المدرسة ويعودان ساعة العصر . فيملآن البيت ضجيجاً .. ويصعدان إلى جدتهما في الطابق الأعلى .

يجلسن منها . ويأخذ كل واحد منهما قرش صناع . ثم يخرجان إلى السطوح وهو جزء من الطابق الأعلى ويلعبان بكرة بيضاء صغيرة فوق منضدة خضراء . مضت شهور طويلة قبل أن اعرف اسمها « بنج بنج » .

وساعة الغروب يكتان عن اللعب ، ويأتي المدرس ، رجل سمين أحمر الوجه له شارب أصفر ، كان يخلع مع منضدة حجرة في السطوح ويذكره .. وأحياناً كان يأتي مع المدرس ابنه وهو في مثل سن محدث ، ليذكر الاثنان معاً ، وفي بعض الاوقات يأتي ابن المدرس ميكراً ، ويلعب البنج بنج مع منضدة في انتظار والده .

وكنت أقف أرقبهما ، وإذا سقطت الكرة من فوق السطوح ، طلب مني محدث أن أحضرها ، فأسرع إلى الست الكبيرة واستأنتها ، ثم أجرى إلى الحديقة وأحضر الكرة .

أهو حلم أم علم ، أم قدر مكتوب أن يكون هذا المدرس هو عبد الحميد أفندي السويغي ، زوجي الذي مات وترك لي ابنه منى ، ولدي إبراهيم ؟
حلم أم علم ...

أن يكون يوسف عبد الحميد السويغي هو الرجل الذي أحتقد عليه اليوم وأتمنى موته بعد أن أشرب من ندمه .

مرت سنوات ، ومرت سنوات ، وأنا أخدم الست الكبيرة ، أحمل لها النبه أيتها سارت ، وأدلك لها قدميها بعد أن تصل العشاء ، وأغسل لها ملابسها ، وأكنس وأنظف الطابق الأعلى والسطوح ، كنت لا أستريح أبداً ، ولا اعرف ما هي الراحة ، فإذا بقي لي بعض الوقت ، ذهبت إلى الست الصغيرة أرقبها وهي تحيك بيجامات محدث وقمصان نوم سعاد ، وكانت تشجعني فتعلمت منها الحياكة وشغل الإبرة .

كبرت ... وأدركت مع كل هذه السنوات مركزي الحقيقي في البيت خافعة نسيت ماضيتها ، تذكر أمها وأخواتها وقريتها ، كانتا حلم قديم حيالتهما كلها . أفرأحها وأحزانها ، مرتبطة بما يدور في البيت ، كنت أفرح يوم أحصل على

فستان قديم لسعاد ، وأحياناً يوم تخرس سني الكبيرة ، وأفكر كما لو كان هذا البيت هو الدنيا كلها ، أما خارج البيت فعالم آخر لا صلة لي به

ومع مرور السنين ، لم يعد محدث في حاجة إلى دروس عبد الحميد أفندي ولكنه كان لا يزال يتردد على البيت في فترات متباعدة ، وعلمت أنه قريب لراتب يك ، وكان يوسف يتردد هو الآخر ، ولكنه يصعد إلى السطوح ويقف مع سعاد يطلان على الشارع ويتهللسان أو يفرقان في صمت طويل فإذا أحس بوجودي التفتا لي في قلق وتأمري سعاد بأن أذهب لأحضر لها كوب ماء أو أشتري لها قرطاس لب وكنت أحياناً أراقبهما خفية فأتستروا باب السطوح ، وأجلس في ظلام الغروب أختلس النظر إليهما ، وذات مرة رأيت يوسف يقترب بوجهه من سعاد حتى التصق خده بخدها وقبلها قبلة سريعة فوق جبينها ، فلم تتحرك سعاد ، وابتعد هو عنها ، وظلا واقفين صامتين حتى سمعت صوت أقدام محدث وهو يصعد السلم ، وكان في الخارج ، فلما عاد إلى البيت رأى عبد الحميد أفندي في زيارة والده وعلم أن يوسف قد جاء معه ، فأسرع إليه .. وعندئذ خرجت من مكشئ وفاجأت سعاد ويوسف قائلة لهما في لهفة غير عادية :

- سيدي محدث طالع على السلم فظهر عليهما الارتباك ، وارتبكت أنا أيضاً ، فوقفت مكاني حتى جاء محدث ووقف معهما ، ثم التفتت سعاد إليّ ونهرتني في حدة :

- واقفه بتعلم أبي يابث .. ياللا أمشي من هنا ..

فأطردت براسي وهشيت ..

كنت اعرف أن ما بين سعاد ويوسف هو الحب ، وكنت أشعر بالغيرة نحو سعاد وأقارب بيتها ويبيتي ، إنها ستزوج يوسف وسيصبح لها بيت مثل هذا البيت ، وخدم يلبون طلباتها ويترأون رعايتها . أما أنا فمن يحبني ومن يتزوجني ، كان هذا السؤال يطوف برأسي كلما رأيت سعاد ، فأحاول أن أتخلص منه فلا أستطيع ونظ السؤال يلاحقني ويطلق طرقات عنيفة في

راسي ، وبجاءة خطري خاطر مجنون تشبثت به واسترحت له ، رغم اني واثقة انه جنون في جنون .

عاد مدحت إلى البيت ذات يوم ودخل حجرته ، ثم سمعته يصرخ منادياً على إسماعيل الخادم ، كان ينادي في الحاح كأنه يستغيث ، فذهبت وطرقت بابه ، ودخلت عليه فوجدته قد خلع بطلته وأمسك بها بين يديه ، ووقف وسط الصجرة بملابسه الداخلية ، وما كاد يراني حتى بدا عليه الارتباك ، وتخضض بصره وقال لي في خجل :

- هو إسماعيل فين ؟

قلت له :

- موش عارفه ..

فشدت إسماعيل ، ثم أعطاني البدلة وطلب أن أسرع بها إلى الكواملينظفها من بقع حبر تناثرت عليها .

نظرت إلى البدلة وصمت دون وعي :

- واية التي عمل كده ياسي مدحت .. دي البدلة باطلت .

ونظرت إليه كأنني ألومه فرائيته ينظر إلى الأرض ، وشعرت انني تجرأت بسؤال ، واني اطيل الوقوف داخل حجرته وهو شبه عار ، فبق قلبى وخرجت بسرعة لا ارى شيئاً أمامي من الخجل ..

وفي تلك اللحظة ، خطر لي ذلك خاطر المجنون ، خطري أن مدحت شاب وأنا فتاة ، وأنه قد يجنني ويرغب في الزواج مني . كما أحب يوسف سعاد ، ويستمدني مدحت أهله ويصمم على زواج مني ، وسأترك معه هذا البيت إلى بيت آخر مثله ويكون لنا خدم وخدامات ، لماذا لا يحدث هذا هو أكثر على الله أن يحققه ..

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول للتقرب من مدحت ، واهتمت بمظهرى واعتنيت بملابسى ، كنت دائماً نظيفة اختلس الصابون ذا الرائحة المعطرة من الحمام وأستحم به ، وتعلمت كيف أقف أمام المرأة لامشط شعري ، وأزاده ثقة في جمالي . وكنت أسرع إلى تلبية أى نداء لمدحت وأتعمد الوقوف في طريقه

وتخطفه بصوت ناعم رقيق ، ولكنه لم ينتبه إلا وإذا نذعت إليه قال لي :
- رويحي شوي العصبية إسماعيل ..

ولفقت من لحلامي ذات يوم على صوت عوض الكواء وهو يغارزنى ، كنت قد تعوبت التردد على مكان الكواء ، وهناك رأتني عوض ، شاب أسمر نحيف كبرت الشعر ، صوته جميل ، يردد مع مذياع الدكان أغاني عبد الوهاب ، وفريد الأطرش ، وإيلي مراد ، وأسمهان ، وكان من عادة عوض أن يستقبل كل خادمة باغنية ، واحدة يغنى لها « ياندنيا ياغرانى .. يانمعى يابتناسمى » وواحدة يغنى لها « الحب حد يعرف ايه معنى الحب » أما أنا فكان يغنى لي أغنية فريد الأطرش « بأحب من غير أمل وقلبي راضى وسعيد » .. كنت أتجاهل عوض وأرفض أن أتعامل معه وأخاطب زميله حسين وهو أكبر منه وأقل منه وزوج وله أربعة عيال ، ولكن لم ييأس أبداً ، بل زاده تجاهلي جرأة ووقاحة ..

في تلك الأيام كنت أسمعهم يتحدثون عن الحرب ، فلا أفهم عن أى شيء يتكلمون . وأعجب للقلق البادئ على الوجوه ، فلما ساد الظلام شارعنا ، وظهر فيه شبان يلبسون المعاطف الصفراء ويصيحون أمام البيوت « اطفى النور .. اطفى النور » خيل لي أن الحرب فيها عذائريت وجنيات وأنها شيء يحدث في الظلام ، ولاحظت أن سنى الصغيرة تهتم بتخزين السكر والجاز ، وأنها تكثر من دخول المطبخ والشجار مع الطاهى ، وحرمانا من أكل اللحم في بعض الأيام وأصبحت العشة ما تكاد تمتلئ بالفراخ حتى تغرق منها .

كنت أشعر أن حياتنا تتغير ، ثم تعد هي نفس حياتنا السابقة ، وبين وقت وآخر نسمع صراخ مدحت وهو يردد نباحه في المذياع ، فيصعد السلم ويهبطها قائلاً لكل من يقابله الألمان كسروا الفرنسيين .. الألمان دخلوا مصر .. فيسود الوجوه وجوم تغلي ، وتتخذ الأصوات حدة لم أعود سماعها ، وتكثر سنى الكبيرة من رفع يديها إلى السماء .

وكانت الحرب سيئاً في فترة زيارات عبد الحميد أفندي ، أما يوسف فكان يتردد علينا بين وقت وآخر عند عودته من الجامعة مع مدحت ، كان يوسف في

كلية الحقوق ، وكان مدحت في كلية الهندسة ، أما سعاد فلم تدخل الجامعة .
وبقيت في البيت بعد أن رسبت في الشهادة مرتين ..

وكنت ألاحظ قلق يوسف ، وهو يبحث بعينه عن سعاد ، ويقتظر دخولها عليه وهو جالس مع مدحت ، وكانت سعاد قلقة هي الأخرى .. لا تستقر في مكان بمجرد أن تعلم بوجود يوسف في البيت ، تدور حول أمها وجبتها ، وتخرج من حجرة لتدخل حجرة ، وتتلوى بأعلى صوتها ، ثم تذهب إلى الحجرة التي يجلس فيها يوسف ، وتدخلها وتحببه ثم تصرخ إلى غرفتها وتغلق الباب ، لتفتحه من جديد وتدور كالنحلة في البيت .

أحياناً كانت تمسك بكتاب وتدخل على يوسف وتحدثه عن شيء قرأته ، وأحياناً كان يوسف يحضر لها كتاباً من عنده ، وكنت أسأل نفسي ، لماذا لا يتقدم يوسف للزواج منها ، ما الذي يمنعه ، ما الذي يعطله .
إلى أن جاء يوم صعد فيه راتب إلى ستي الكبيرة ، وهو نادراً ما يصعد إليها ، وقال لها :

- مبروك يا أمي .. سعاد انضبطت لندكتور من عيلة ثروت .. جراح قصده مستقبل بمستشفى في القصر العيني وعنده عيادة كمان ..
قالت له الست الكبيرة :

- ألف مبروك يا ابني .. دول ناس طيبين .. جيراننا وأرضهم جنب أرضنا ..
فقال ما نلوح بمدحت ..
وتتحدث وقالت من قلبها :

- نفسي أشرفه يتجوز قبل ما أموت
ضممني فرح طائش وأنا أسمع بزواج سعاد ، لم أفرح لها ، فرحت لمصبتها . لأنها لن تتزوج يوسف وستتزوج رجلاً لا تحبه .

لم تعترض سعاد على الزواج ، ولكنها كانت واجمة شاردة ، ينسكب الحزن من عينيها ، وكنت وحدي في البيت كله ، أعرف سرها .

وجاء يوسف صباح يوم في موعد لم تتعود استقباله فيه ، رأيته يدخل الحديقة ، وأنا أطل على الشارع من السلموح بعد أن فرغت من نشر اللبسيل

فجريت إلى السلم ، وهبطت درجته قفزاً ولحقت به وهو يدخل من الباب .
قلت له :

- سيدي منحت لسه ماجاش ..

فقال لي في وجهي :

- أنا عايز منك سعاد .. روحى اندهي لها ..

وجريت إلى سعاد وقلت لها إن يوسف في البيت ، فلم تصدقني ، وارتبكت وجعلت تسألني أكثر من مرة :

- هوقين .. هنا في البيت .. قال لي إنه عايزني .

ثم تركتني وذهبت إلى يوسف ، وكان واقفاً في البهو ، وتبعته .. ما كان يراها حتى قال لها بصوت حزين :

- أنا مثاسف .. بس المكتبة عايزه مني الكتاب ..

وذكر لها اسم الكتاب .

قلت له :

- طيب ما تتفضل تلعد ..

فقال بسرعة :

- معلوش أنا مستعجل ..

وشعرت بخيبة أمل ..

ولكني سمعته يقول وهو يحاول أن يضحك :

- مبروك يا سعاد ..

قالت له بصوت خفيض :

- اه يبارك فيك ..

وصمتا برهة ، ثم سمعته وهو يضحك ضحكة غريبة ، ضحكة مشروعة :

- خلاص ح تتجوزي ..

فقالت له :

- أبوه ..

- ميسومة ..

- على إيه ؟

- طيب ح تتجوزى ليه ؟

قالت بعد صمت

- أعمل إيه يعنى ؟

وسكتا

ثم قالت سعاد بلهجة كأنها غاضبة :

- أنا رايحه أجيپ لك الكتاب .

- إذا كنت مخلصتهش بلاش ..

فكالت بعدة :

- لا .. أنا موش عايزاه .

وصعدت سعاد إلى غرفتها ، وأنا منزوية خلف باب حجرة الطعام ..

وارتجفت وأنا أسمعها تنادى على :

- مبروكة .. مبروكة ..

صعدت لها ، فلما رأتنى صرخت :

- بتعملى إيه تحت ؟

لثت لها بسرعة :

- كنت عند الأسطى علشان اللين الزبائى يتاح ستى الكبيرة .

فنظرت إلى نظرة طويلة ، وهى تمد يدها إلى بالكتاب ، ثم هزمت وسمعت

يدها وقالت لى لى لهجة أمرة :

- طيب أنجى على فوق ..

وهبطت هى السلم ومعها الكتاب ولم تغب ، عادت بسرعة إلى غرفتها

وأغلقت الباب ..

كانت ستى الصغيرة فى الخارج فلما عادت سألت عنها ، وذهبت إليها فى

غرفتها . ولم تترك سعاد العرفة ساعة الغداء وظلت محبوسة داخلها حتى

أخرجتها القنابل .

فى تلك الليلة أطلقت صفارات الإنذار وكنا قد تعودنا عليها ، ثم سمعنا لأول مرة دوى القنابل فوق رؤوسنا ، وهبطت مع ستى الكبيرة وأنا لأعمل لها المنبه وسجادة الصلاة واجتمعنا كلنا فى البدرين . وكانت ستى تردد آية الكرسي بلا انقطاع ومدهت يحاول أن يضحك فينهره وأتب بك فى عصبية وهو يدهش سيجارة وراء سيجارة ، ويطلب من إسماعيل أن يخرج إلى الحديقة ليتأكد أن ضوء السيجارة لا يرى من الخارج . ويطلب منى فى كل دقيقة أن أحكم إسدال الستائر على النوافذ ، وكان يجلس تحت عامود اختاره حتى لا تنهار عليه الانقاض لو سقط البيت .

كنا جميعاً خائفين ما عدا سعاد .. جلست ساهمة ، وقد وضعت يدها على خدها ، كأنه لا يعنيه أن تحيا أو تموت ..

ولما أطلقت صفارات الأمان ، صعدوا جميعاً إلى الطابق الأول وقد طار الغرم من عيونهم ، وجلسوا معاً . أما سعاد فصعدت وحدها إلى غرفتها وهى تقول كأنها تحدث نفسها :

- لو حصلت غارة ثانية أنا موش نازلة ..

فكالت لها أنها ساخرة :

- أبوه علشان تسولى ويبيعك هريسك يتفانق معانا .. لا لازم لنزلى .

ونظرت ستى الكبيرة إلى المنبه وقالت :

- يوه يا لولاد .. دة الفجر قرب وكانت جالسة على أريكة ، ومدت قدميها ،

وطلبت منى أن ادلكهما ، وانطلقت تحدثهم عن هوجة عرابى والإنجليز وأيام

كانت تخرج إلى الشارع وهى طفلة صغيرة وتهتف .. يا عزيز يا عزيز كبة

تأخذ الإنجليز .

كنت أستمع إليها بشغف وأنا فرحانة لأن مدهت يجلس قريباً منى

وينصت معى إلى أحاديث جدته ..

وتجرات وسألت منى :

- اللهجة دى تبقى إيه يا منى ..

فتفتحوها ، حتى راتب بك ضحك كأنهم يضحون عن أي شيء يضحكهم .
وقال لي مدحت
- يعني ثورة .

فشعرت بزهو كبير لأنه رضى أن يجيب على سؤال . وقلت لنفسي إن هذه الغارة رغم بشاعتها جعلتني أجلس وأتحدث في حجرة واحدة مع راتب بك ومدحت وكأنني واحدة منهم ..

فلما حكّت ستي الكبيرة عن أبيها الضابط الذي اشترك مع عرابي . وكيف كان يعيب عن البيت سنوات فهذا عاد لم تعرفه . ووقفت من بعيد تختلس النظر إليه وهو جالس مع رجال العائلة ، وتسأل نفسها : أهذا هو أبوها . وتجري إلى أمها وتسألها أهذا حقاً هو أبي ، عندما سمعتها تروي هذه الحكاية . نسيت أبي الذي مات وتركنا ، وتخلّلت أبي هو هذا الضابط الذي تمكّن عنه ستي الكبيرة .

كنت أخاف الغارات ، ولكنني أنظرها ، واخترطُ خوفي منها بفرحي باجتماع العائلة وأنا بينهم ، إلى أن وقعت غارة مفاجئة وأنا في مكان الكواء أنتظر قمصان مدحت لأنه سيسافر في الفجر في رحلة .

كانت الساعة التاسعة مساء عندما انطلقت صافرات الإنذار ، فلهجت : ولذكريت ستي الكبيرة ، وأردت أن أجري في الشارع لألق بهم في الديرين ولكن صوت المدافع انطلق قبل أن تنتهي الصافرات ، وجذبني عوض من يدي وأغلق الدكان علينا .

الفصل الثاني

فرّعت من صوت الباب وهو ينزلق إلى الأرض . أكثر من فزعي من صوت المدافع ، أصبحت وحدي في الدكان مع عوض ، يستطيع أن يفعل بي ما يشاء ، ولو استغثت فلن ينقذني أحد ..

كنت ارتجف من الخوف ، وقد التصقت بالباب ، أريد أن أنفذ منه وهو مغلق ، وظن عوض أنني خائفة من الغارة ، فأكّد يواسيني من بعيد فلا أفهم ما يقول ، وعيناي تلاحقان إشارات يديه ، وقلبي يبدل مع كل حركة تهدر منه ، أتوقع أن يقترب مني في أية لحظة ، ويعدّ يده إلي .

ولكن عوض لم يقترب مني ، وشيئاً فشيئاً بدأت أفهم كلامه ، كان صوته جاداً حزيناً وفيه نبرة سفرية ، كان يهتمني بأني أتكبر عليه رغم أن معه تقويّاً كثيرة ، وغرضه شريف ، فهو يحميني ويريد أن يثري جنسي .

ودارت رأسي ، لم أعد أدري هل الدوي الذي أسمعته هو صوت الأفكار أو صوت القنابل في الخارج ، ولاحظت عوض صمتي ، فتشجع واقترب مني قلقل :

— أه لو شمعني كلامي يا مبروكة .. وأنا أشيلك في عنيه الاتنين دول .

صحت في دعر :

— أبعد عني .. أوعى تقرب لي .

فجمد مكانه ونظر إليّ ساخراً وقال :

— يايت مالك خايقة كده .. هو لانا ح لكل مقله حته .

وانتقلتني صفارات الامار التي انطلقت تزغرد قبل ان تتحول سقرينه إلى غصب كان الله وحده يعرف نتاجه .

ورفع عوض الباب ، وودعني في الدب ، وكان قد فرغ من قمصان مدحت .
ماختلفتها منه وحررت في الشارع هاربة ..

ولكن عرض الرواج ظل يبدو في رأسي ، ومع الايام ايقنت ان عوض صادق في كلامه ، فقد رايت لا يقابل الخدمات بأغنياته المعتادة ، ولم يعد يمشي لي . كان يهتم بان يبدو أمامي وقوراً عاكساً مثل زميله حسنين . واشفقت عليه .. ثم ازنحت الخواطر في رأسي ، كنت اسأل نفسي ، لماذا ارفض الزواج منه ، وهل اجد زوجاً احسن منه ، أم انتظر وانتظر حتى اصبح عانساً ، وانتزوج واحداً من شبان قريتنا فاعود إلى عيشة الفقر والفك مثل أمي .

انتزعني هذه الخواطر من أحلامي للعبوة عن مدحت ، وكنت مازلت اكارن بيني وبين سعاد ، فقلت لنفسي إنها تحب يوسف ، ولكنها ستتزوج الطبيب ، وأنا احلم بالزواج من مدحت ولكنني سأتزوج عوض .
ورضيت بهذه المقارنة ، واستقرت لها ..

وكانت سعاد قد بدأت تستعد للفرح ، وتخرج هي وأنها كل يوم لشراء أشياء كثيرة ، وعادت بسعاد في أحد الايام ومعها القمصة كثيرة وكانت في قمة سعادتها وهي تفتح اللطافات وتلخص الاقمصة وتلفها حول جسدها وتتأمل نفسها في المرآة .

أكلتني الغيرة وأنا اراقبها ، وفي تلك اللحظة قررت ان اتزوج عوض .. وشعرت برغبة جارفة ان أعلم جميع من في البيت أنني سأتزوج ، فصعدت إلى سني الكبيرة وجلست عند قدميها أدلكهما ، وحكيت لها عن عوض .
اهتمت سني اهتماماً كبيراً ولم تقاطعني حتى سمعت الحكاية كلها ، كان اهتمامها وهي تنصت إلى أشد من اهتمامها وهي تسمع من راتب يك خبر خطوبة سعاد .

سألتني في لهفة .

— هو سته قد إيه ياسبروك ؟

فأجبته :

— ييجي عشرين ..

فعدلت تسألني :

— بس يقدر يصرف على بيت ..

هو عنده فلوس ؟

قلت لها :

— يقول كده .

فقلت لي فجأة :

— خليه ييجي هنا علشان أشوفه .

وأطرفت برأسي ، أحسست برغبة كيف يجيء عوض إلى البيت ويصعد إلى فوق أمام سيدي راتب ومدحت والجميع لوراء راتب بك فسيطرده وأنا لا أريد ان يراه مدحت فيسخر منه ويراه سعاد فتقارن بينه وبين عريسها الطبيب الفنى . أريد ان يظل عوض صورة غامضة لي أذهانهم ، مجرد عريس يسمعون عنه ، ولا يرونه على حقيقته بجلابيه الرخيص .

وثبتت أني تويحت ، وأني يجب ان اذهب إلى عوض وأقول له إنني راضية الزواج منه ، وقطعت سني الكبيرة أفكارني بأن قالت لي مدخرة ، إنها تريد ان اتصرف بمثل مع عوض فلا أتزكه يقابلني وحدي ، وعجبت وهي تحدثني بصراحة عن أشياء لم أكن أتصور أنها تعرفها .

قالت لي :

— أروحي تسببه يد ابيه عليكى .. وألا يأخذك في حته لو حدكم ويقول لك ما هو انتي هراتي ياكل عقلك ويعمل فيكي لا قدر الله حاجة .

قلت لها في عصبية :

— لانا موش ح شوفه خالص ..

عوض عايزه أخرج من البيت .

فلم تستمع في رضاء ، كأنها ترحب بما أقول .

ولكني رغم ذلك خرجت ، ولم تفتح لي على خروجي . وكانت تسيت ما وعدتها به ، وكانت تسألني كل يوم عن عرض ومتى سأحضره إلى البيت لثراء .

وعرف عرض أنني راضية الزواج منه ، بعد أن لاحظت كثرة ترددي عليه وخجل وأنا أكله ، وطريقتي في الإجابة على أسئلته ، كنت اتصت إليه وهو يحدثني عن مشاريعه ، وعن الحجرة التي سيتم تاجرها لنا ، وكيف أنه لن يرضي لي أن أعيش مع أمه ، ثم يلتفت إلى حسنين ويسأله :
— مش كده برضه الأصول يا حسنين .

وقبل أن يجيبه حسنين أكون قد صمت فيه :

— آمال يعني هايزني أعيش مع أمك فيضحك عرض من قلبه ، ويفهم أنني راضية به ..

وتجرات ذات يوم قالت لعرض إن ألسنت الكبيرة تريد أن تراه فوافق لدعشتي في الحال ، وخرج وقال مهلاً :
— لازم ح تديكي حاجة تتجوز بيها .

وتعمدت أن يجيء عرض إلى البيت في الصباح أثناء غياب أهل البيت ، وصعدت به إلى ستي الكبيرة دون أن يلحظنا أحد .

وكان متعلكاً لتفلسه . طلب براسه في أرجاء البيت ، ويتعجب للثراء الذي نعيش فيه ، ويقول لي في حيرة .

— وأنا هاو ديكي فين بعد الجنة التي أنت عايشه فيها .. دي مرايا يا مبروكة .

وقابلته ستي الكبيرة ، وكانت تعرفه من سنوات ، قالت له :

— أنت عايز تتجوز مبروكة يا ابني فاقسم لها عرض بحرارة ، إنه سيحافظ على كمالو كنت عيني ، وأنه لا يريد إلا رضاءها عليه ، وأنه سيدفع لي أي مهر تشترطه عليه .

وصمتت ستي الكبيرة وكان صمتها يثير قلبي ، لم تملأ أنها موافقة أو غير

موافقة ، تركت عرض يتكلم ، ثم قالت في هدوء :

— طيب روح أنت يا ابني .. وربنا يعمل اللي فيه الخير .

وظهر التردد على عرض ثم سألتها :

— يعني راضية عنى يا ست ..

فأطرفت برأسها وتمتمت من جديد .

— ربنا يعمل اللي فيه الخير .

ونظر إلى عرض في حيرة ، كأنه يسألني ماذا فهمت من كلامها ثم غادر الحجرة وتبعته إلى الباب دون أن ينبس بكلمة ، ولكنه فهم قبل أن يخرج إلى الحديقة :

— أنا مفعمش منها حاجة .

كان يتكلم بهيظ ، وورعني بأصبعه في كتفي قائلاً :

— كلميها .. قول لها تديكي قرشين ينفعموكي ..

وصعدت إلى ستي الكبيرة ، فوجدتها تصل ، فلما فرغت من الصلاة

مسحت على وجهها ثم التفتت إلى وقالت بصوت خنون :

— ح تتجوزي يا مبروكة وتسيبييني .

فأجبتها على الفور .

— بلاش تتجوز ياستي .

فأبتسمت قائلة :

— ربنا يعمل اللي فيه الخير يا ابنتي

وانتظرت منها أن تقول شيئاً عن عرض ، ولكنها فرقت في صمت عميق ،

حتى شعرت مثل عرض بالغيظ نحوها .

لماذا لا تحدثني من عرض ؟ !

لقد رأته ، وسمعته ، ألم ترض عنه ، أم هي تريد أن أظل في خدمتها وأضحى بنفسه ولا أتزوج ، وعجبت لحماسها الأول وهي تسمع حكايته مع عرض ، ثم هذا التحول والعموص المفاجيء الذي تحدثني به الآن ، وكانت

تستدريجني لتعرف سرى . ويدأت اشعر انها ليست بريئة تماما كللاك وإن فيها شيئاً من مكر المجانز .

وهبت إلى عوض . وقلت له لا غلظة من ستى الكبيرة . وانها لم تظهر لي أى استعداد لماونتى في الزواج . فغضب عوض . وجعل يسب ويشتم الاغنياء . وأخذ يستعيد صور الثراء التي شاهدها في البيت . وقال لي فجأة

كانه ينصحنى :

— أنا لو منك .. أعامل الناس دول بشكل ثانى ..

قلت له :

— أهمل ايه ؟

— فنظر إلى نظرة غريبة وقال :

— خدى حلك بايدك .

— إزاي يا عوض ..

فلكرنى قائلاً :

— شوقى اى حاجة .. أسورة .. ساعة ذهب .

وقبل أن يكمل كلامه . كان وجهى أسفر في لون الليعين . وقلت له في دهشة :

— ياند امتى .. عايزنى اسرق .

فصمكه شصكة جريئة وقال مؤنباً :

— ماتيقيش مغلطة .. أنا عايز أخصك من الناس دول بعد ما تاخدنى حلق .

فسرت ما قال لي عوض . بأنه كان في حالة غضب . ولكنى بدأت أفكر في حقولى .. كنت قد ادخرت أربعة وثلاثين جنيهها عند ستى الكبيرة خلال هذه السنوات . فطلبت منها أن تعطينى عشرة جنيهات لأشترى بعض الأشياء لبينى الجديد .

فسألتنى في دهشة كأنها لا تعلم عن زواجى كذبتاً .

— ح تعمل إيه بالفلوس يا بنتى ؟

قلت لها :

— ح أشتري حاجات علشان عوض مستعمل على الجواز .

فأعطينى النقود وعلامات الصبق تبدو على وجهها . وخرحت لأشترى فوجدت الاسعار غالية . والنقود لا تكفى لشراء بعض ما كنت أرغب في شرائه . وعدت إلى البيت حزينة أفكر في فكرى . والفكر في كل الأشياء التي أشتريتها سعاد .

وفوجئت عند عودتى باستقبال فرع عادى من زوجة راتبك وسعاد .. كانت ستى الكبيرة قد قلت لهما إنى سأزوج . وإنى أخذت عشرة جنيهات لأشترى بعض الملابس . فالتقا حولى بمسألتي عن عوض . ويفتحان اللغافات القليلة التي حملتها معي ويحصان القماش . ويسالان عن سعره .. وسعاد تردد في حسد :

— والله عرفنى تشترى بامبروك . جهتي الحاجات دى منين .

ثم تصمكه وتقول لأمها :

— شوقى قصصان النوم يلماها .. وطلتت إلى وتقول ساخرة :

— ح تلبسى كمان قصصان نوم .. والله اتمدنتى ..

كنت أبتسم لهما لأخفى القهقهة الذي يملأنى . وكرتتهما يسفران منى . ثم جمعت القماش . وصعدت به إلى السطوح . وجلست جواره أتمسسه وأتمنى اليوم الذي أذهب فيه مع عوض إلى غرفتى وأتوج من هذا البيت . ورايت وأنا جالسة . ملامتين منشورتين . نظرت ليعما في بلاعة ولم أحول عينى عنهما . وفى يدي رغبة تدفعنى إلى أن أنهى وأتمسهما كما أتمسس للقماش .

وتخيلت للسرير الذي سأنام فيه والحرية فوقه . والملاعة .

وهتف في داخل صوت .. لماذا لا تكون ملاعة سريري إحدى هاتين الملامتين . ما أكثر الملاعات في هذا البيت . ولو أخذت واحدة فلن يصح بها لحد . وسأوفر لهنها . ونقل رأسى يدور . وعينائى لا تتحولان عن الملامتين

حتى قمت فجأة ونرعت إحداهما ، وطويتها وأخفيتيها في الحجرة التي كان
يذكر فيها مدحت ، والتي أصبحت الآن مخزناً مهجوراً .

لم أتصور أن تقوم كل هذه الصجة في البيت بسبب لفتقاء الملامة .. فقلت
سنى الصغيرة الدنيا وأقعدتها وسألت إسماعيل وسألتني ، ولم ترض
بالتكسير الذي قدمه لها الجميع وهو أن الريح أطارت الملامة فسقطت في
الشارع الخلفي ، وذهبت بنفسى إلى الحديقة وإلى الشارع أفتش عن الملامة ،
وأسال عنها في بيت الجيران .

ولما تعبت سنى الصغيرة من الصراخ والزعيق ، وتأكدت أنها لا تتهمنى
بسرقه الملامة ، ذهبت إلى المخزن وأخرجتها منه ، وطويتها تحت جلبابى فوق
بطنى وجريت إلى عوض .

سألتنى عوض وهو ينظر إلى نظرة مأكرة :

— جيتي الملامة دي منين يايت ؟

قلت له :

— اشتريتها ..

فصمت وقال في خبث .

— ما تشدولى حاجة عليها الطلا .. ملقيتيش غير ملامة .. أنا أجيب لك ألف
واحدة زيبا .

وأدركت أنه فهم كل شيء ، فخفضت عيني في ارتباك ..

كنت أستمع إليه ، وقلبي يبدى بشدة وعيناي مشدودتان إلى الأرض ورأسى
ثقل ، وصوته الهامس يدرى في أذنى ، كأن الدنيا كلها تسمعه .

وظل صوته يلاحقنى وأنا في البيت فكان ثورة هائلة تصدى إلى أمرأ
لا يمكننى مقاومته ، فتدور عيناى رما على تقششان عن شيء أخذه .

فكرت أن أأخذ فسنتين سعاد ، ومصاغها . وتسلسلت إلى حجرتها في إحدى
المرات وفتحت الدولاب ، ووقفت أنظر إلى الفساتين ، ولكن يدي جمعتا ،
وأمنلا قلبي بالخوف ، فخرحت مسرعة . والعرق يسيل ظهرى ، والغيظ

يصرخ في أصغلى ، لانى مغلطة ، لانى جيت ولم أمد يدي .

لست أدرى ماذا كان سيحدث لو أن يدي امتدت إلى الفساتين في تلك
اللحظة ، كانت حياتى كلها تغيرت ، لقد مضت سنوات طويلة على ذلك اليوم ،
ولكنى مازلت أتذكره ، فيرتجف جسدى ، وتسرى تشعيرية في ظهري .

خرجت من حجرة سعاد ، وصعدت إلى سنى الكبيرة ، فوجدتها نائمة في
جلستها ، ويدها قابضة على المذبة ، خيل إلى من حوى ، أنها تخشى أن أمد
يدي إليه .

وجلست أهدق فيها ، وقد أخذتني الرهبة ، كان وجهها المزمع يشع بنور
بيهرنى ، ويملأ قلبي رعبا . كأنه يفضح أفكارى ، ويعبرينى .. ومضى وقت
طويل وأنا جالسة مكاني وقد لفنا الظلام ، ففتحت لأغادر الحجرة وما كنت
أصل إلى الباب ، حتى طعننى صوتها :

— رايحة فين يا مبروكة .

قلت لها وبكى في صدري يتمزق :

— أتيت صحتي يا سنى .

فقال لي فجأة :

— اسمعى يا مبروكة .. الواد عوض ده أنا موش مستريحة له .. أنا خائفة
عليكى يا بنتى .

وهبط قلبي إلى قدمي ، إنها تعلم ، كيف عرفت .. وأيقنت أنها على صلة
عظيمة بأحد .

وتحول يقينى إلى إيمان .

بعد أربع ليال من حديثها .. صعد إلينا مدحت وهو يصرخ :

— يا مبروكة .. يا مبروكة .. البوابيس قبض على عوض .

استمعت إليه في غياء ، وقد تصلبت عروقى ، ولم أعد أدرى هل أنا واقفة
أم طائرة في الهواء ، لم أحس بالأرض من تحتى ، حتى أمسكت بى سنى
الكبيرة ، واحتضنتنى ، وطلبت لى كوب ماء ، أحضره مدحت ، جعلتني
أرشف منه ، ثم رشت الماء على وجهي .

ذهب عرض إلى السجن ، بعد أن هاجم اليوليس بيته ، فوجد مسروقات كثيرة .

ولم أذهب من يومها إلى الدكان .

عشت في ياس- حبيسة البيت ، وقد اختلط كل شيء في عقلي ، افكر أحياناً في أن أستمز في المرقعة .. وأقدم أحياناً على الملاعة التي امتدت يدي إليها وأصبحت أعمل ستي الكبيرة ، وكانت قوة خارقة تحقق المعجزات ، كانت السيدة زينب

واحتमित بستي الكبيرة ، لا أمارقها أبداً ، لعل هذا يفر لي نسيبي عند الله وزادني قرباً منها ، أنها بدأت تشك في الأما قاسية في بطنها ، وجاء أكثر من طبيب يكشف عليها ، ويفحص معها ، ثم يخرج ويتهاوس مع راتب بك ، ولاهفت وجوماً غير عادي في البيت ، وأدهشني أن راتب بك أصبح يتردد على ستي صباح ومساء كل يوم ، ويظيل الجلوس معها ، كذلك كانت تصعد ستي الصغرى وسعاد وهدت ، وإذا وقعت غارة رقصوا أن يهبطوا إلى البديون ، وصعدوا إليها لأنهم لا يريدون منها أن تتحرك وتتكم .

ووسط هذا الجو المقتبس ، كتبت أشعر بأن نهاية ستي الكبيرة قد اقتربت ، فالتفتي بنفسى وأبكي في صمت ، واتساءل ماذا يكون مصيري بعد وفاتها . ورائي راتب بك أن يسرع بزواج سعاد قبل وفاة أمه ، وكانت الأمها قد أشتدت ، ولم تعد تنام الليل ، وتصل في مستشفى بظهرها على السرير ، كان راتب بك يخشى أن تموت فيؤجل زواج سعاد لفترة طويلة ، وكان يريد أن يقسم الفرح في حياتها .

وازدهم البيت ليلة الفرح بعد عشرين كثيرين ، كان بينهم عبد الحميد العنزي السويطي وابنه يوسف الذي جلس محتقن الوجه لا يتحدث مع أحد ، وعندما تكاثرت المدعوون انصحب إلى البهو ووقف متردداً ، يخطو بضع خطوات نحو الباب المغني إلى الحديقة ، ويقف يحدق في الظلام ، ثم يشعر بالمرء فيعود إلى البهو يتلفت حوله في حركات عصبية ..

رايت إسماعيل يقدم له كوب الشربات ، فأخذه منه ، ولم يشرب منه ، ووقف والكوب في يده برهة ، ثم ذهب إلى منضدة منزوية وتلفت حوله ، ثم وضع الكوب ملقاً ..

ولم أشهد ما فعله يوسف بعد ذلك ، إذ كان على أن أصدق وأجلس مع ستي الكبيرة وحدنا ، وكانت سعاد وعريسها قد صعدا إليها ساعة المغرب بعد أن تم كذب المكتب ، فأخذت تنظر إليهما بوجه يفيض بالبشر والدموع ، وظلت منهما أن يقتربا منها ، ومسحت بيدها على رأسيهما وتلت بعض الدعوات ، وبعد ذلك تركها للجميع واشتقوا بالمدعين .

كنت أجلس عند باب حجرة ستي ، عندما سمعت صوت أقدام مدهت وهي يصعد إلينا ، ولما رأني سألني في صوت خفيض .

— ستيك نائمة ولا صاحبة يا مبروك .

قلت له

— لا أشوف ...

وفتحت الباب ، فوجدتها نائمة وشعرت بانفاس مدهت في رجلي ، كان يلف خلفي يعل على جنته .. وفمض في أذني ..

أقفلي الباب أحسن تصعي . وأغلقت الباب والتفت إليه ، فإذا به ينظر إلى ويسهم وقال لي :

— مادام نائمة .. ما نزلت شوية ..

قلت له

— خليني جنبها يمكن تصعي لقال لي مشجعاً :

— انزلي شوية صغرة .. ح يبقى الفرح تحت وأنت لوحدك هنا .. وجذبني من يدي على غير عادته ، وكانت مفاجئة لي ، كنت أرمي في أحضانه ، وأمسك بتراعي بكتنا يديه ، وفل برهة يحدق في وجهي وأنا أنظر في عيني ، ثم خفضت بصري وصدرى يلهث . وشعرت بمساعدته بطوقاني فاستسلمت له ، كان ما يقعله شيئاً طبيعياً ، وتمررت شهواه على خدي ، فلما وصلت إلى شفتي ، همت في خوف .

— لا يا سيدي .. والنبي يأميري .

فلم يكثر يا حنظلجي كان همسي دعوة له ، وبعثت يده بصدرى كان يزلنى وهو يعصرتنى بيديه ، فتراجعت حتى استند ظهرى إلى الحائط ، وأنا عاجزة عن دفعه ، كان يدعى مشلولتان .

وهست من جديد

— يوه يلى مدحت .. والنبي بلاش .. اعزل معروف .. فهمس في انفعال وهو بضغط جسمى في الحائط

— أنا باحيك يا مبروكة .. صنيقتى لنا يلحيك ..

فهمست ، ولعل صحت بصوت عال ... أنا لا أتهم ماذا يقول .

— بعدين ستى تصمى

وكانت لكلماتى أثرها المفاجئ عليه ، فتراجع وأدار لي ظهره وهبط السلم مسرعاً ، وقد تركنى ألثت وأرتعد وقلبي يظهر بنشوة فيها لى ومراة .

وبعد دقائق ، انسحبت برغبة جارفة في أن أرى مدحت ، كانى لا أصدق ما حدث ، كنت أريد أن أنظر إلى وجهه من جديد ، وأجعله يرانى ، وشعرت بحزنٍ إليه ، ولأى صوته وهو يهمس « أنا بعيك يا مبروكة » .

وهبطت السلم وقد نسيت ستى الكبيرة ، ووقفت في نهاية الدرجات لبعث بعينى عن مدحت ، حتى خرج إلى البهو فرانى ففهم وجهه ، وأدار لي ظهره ، ولكنه عاد والتفت إلى .. ثم ثلث حوله ، فرأى كوب الشربات الذى تركه يونس ، ونادانى .

— خدى يا مبروكة كياية الشربات دى ..

فجريت نحوه وأخذت الكوب ، وسرت في اتجاه الطبخ .. فصاح في انفعال ..

ما توديهاش الطبخ .. دى عشانك اشربيها ..

قلت في صوت مفعم بالفرح :

— حاضري يا سيدي .

خذت تلك الليلة ، وهدعت يحملى ، وأنا أسهل له مهمته ، فيصعد إلى ويقلبني ويحتمضني ، وأنا أقاومه ولا أريد أن أقاومه .

وعاد إلى حلمي القديم ، أن يتزوجني مدحت ، ويحملى إلى بيت كبير مثل هذا البيت ، وأصبحت كالجنونة ، ساعة فرحانة وساعة حزينة ، وفي كلتا الحالين قلقة غير مستقرة . كنت في حرب مع نفسي ومع مدحت ، أقاوم الحاحه الشديد بأن استسلم له ، ولا يمنعني عن الاستسلام سوى حلمي بالزواج منه .

وقررت أن أصارحه ، قررت أن أسأله وهو يمد يده ويعيث بجسدى ، ماذا يريد مني ، وأن أقول له إن ما يريد هو من حق زوجي وحده .

وصعد إلى مدحت عصر يوم بعد أن نام جميع أهل البيت ، وبدأت أقاومه كعادتي حتى حاصرني بجسده والحائط ، واعتصر خصرى بساعديه ، وكاد يلقيني على الأرض ، وركعنا نحن الاثنين ، وأنا أتوسل إليه وعقل يدور بسرعة باحثاً عن الكلمات التي أعددتها ، وإذا بباب حجرة ستى الكبيرة يُفتح ، وأسمع ستى الصغيرة وهي خارجة من الحجرة تصرخ :

— مدحت .. ايه التى يتعملوه ده ؟ !!

انخفضت واقفة على صراخ ستى الصغيرة ، والأذع ياكلنى ، وابتعد عني مدحت .. وظل واقفاً مكانه وقد فقد قدرته على الحراك .

وصرخت فيه أمه :

— أمشى على أودك ..

فنكس رأسه وهبط السلم ، بينما تقدمت هي مني وصغعتني على وجهي وجذبتني من شعري ، فرمعت على الأرض عند قدميها ، وأنا أشعر بخصلات شعري تتمزق في يدها . وركلتني بقدمها في جذون ، كانت تضرب صدرى وفخذى ورأسى بلا وعى فأردد خَوْفاً وأتكشف في ردتى . أصدرت أينا خافتاً .

ولمكت يدها إلى شعري من جديد وجذبتني لثلاثة :

— قومي يا بت .. قومي ..

ورفعتني عن الأرض ، ودفعتني امامها على السلم فتخرجت عليه ، ونظت
تدفعني وتركني حتى ادخلتني حجرتها ، واغلقت الباب .
ايقنت انها ستقتلني ، فتوصلت اليها باكية :
— أنا في عرضك يا ستي .. والنبي يا ستي .. سي محدث هو اللي مسكتني
غصب عني ..

فقاطعتني بصفعة قوية ، وصاحت في حراسة :
— اهرسي يا مجرمة ..

وانفجرت ابكي بصوت مرتفع ، والطم خدي والاول :
— يا مصيبتني .. يا مصيبتني .. يا مصيبتني ..
فصلحت في صوت مرتفع :

— ولى صوتك يايت .. انت غايبة تفضحيننا ..

لرفعت صوتي اكثر .. وقد اندركت انها خائفة من صراخي ..
وتخلفت من صوتها ، وقالت في حدة :
— اسكتي يا بت .. اسكتي ..

وسالتني :

— هو مملك إيه ؟ ..

للت لها وأنا أبكي :

— أنا عارية يا ستي .. ما انت شفتي بعينك اللي حصل ..
فسالتني وهي تكتم غضبها :

— ومن امنى ده بيحصل بينكم ؟

أجبته في حدة :

— أساليه هوه ..

قالت في قلبي :

— أنا عايزه أعرف منك .. عملك إيه ؟ ..

وفهمت سر قلقها ، انها خائفة أن يكون محدث قد تورط معي ، وربما ظنت
أنه حصل على جسمي .



قلت لها والغضب يختلط بخوف

— كل ما يشوقني لوحدي .. يمسنكى .. وأنا أقول له عيب يا مى مدحت ..

حرام عليك

فقاطعتنى في خوف

— وحصل حاجة بينكم ؟

أجبتها في كدرياء

— لا يا ستنى ..

ولكن محاورفها كانت قد اشتدت فلم تصدقنى ، حتى تكلمت بنفسها اتنى

مازلت كما أنا لم يمسننى أحد ..

كنت أعلم أنها ليست خائفة عزى ، وإنما هى خائفة على ابنها ، فلما

اطمانت ، تنهدت في ارتياح ، وملاّت صدرها بالهواء ، وكان روحها عابت

إليها ، وتبعثت لهجاة ، فانطلقت تسبى وتشتمنى وقالت لي :

— يا سلة .. يا مجرمة .. اتنى مالكيش عيش في البيت ده .. أنا ح أبعث

لامك تيجى تافدك .

وأمرتني أن أهبط إلى البديرون . وأحبس نفسي فيه ، فتركبتها وهبطت إلى

البديرون ، واتزويت في أحد الأركان والدموع تنهمر من عيني . وجامنى

الطهاخ وإسماعيل يسألانني دهشة من سرىكائى ، فلا أقول لهما شيئاً ..

ولم أتحرك من مكانى ، ولم ألق طعاماً ، حتى لحقت لقوائى ، وتأخر الليل

فغلبنى الإعياء ، ونمت ..

فتحت عيني لى الصباح فوجدت جسدى كله يشكو من الألم ، وتذكرت

مأحدث بالأمس ، فظلمت رائدة أهذى بصور مختلفة تنموج في رأسى عن أمى

التي ستأتى وتأخذنى معها ، ومضى الكبيرة المريضة ، ومدحت .. ترى ماذا

فعل ..

وخطر لى أن أقوم وأخرج من البيت وأهرب منه ..

أهرب إلى أين ؟ ..

تذكرت عوفى وأخايقه ، لولم يدخل السجن لذهبت إليه ، إلى من الجا

الآن ، وتذكرت يوسف وآياه عبد الحميد أفتدى السويفى ، وقلت لنفسى

الذهب إليهما ، وأطلب منهما أن يأتياى ، وسأخدمهما حتى لولم يعطينى

تقدياً ، سأعمل جارية عندهما ولا أعود مع أمى إلى القرية .

ولكنى لا أعلم أين يسكنان .. سأسأل إسماعيل عن عنوان بيتهما وأقصد

إليهما الآن .

ومضت ساعة وساعة ، وإسماعيل يروح وييجى أمامى ، والسؤال عن

عنوان عبد الحميد أفتدى السويفى على طرف لسائى ، لا أقوى على النطق به

حتى جاعنى إسماعيل ، وكان هابطاً من فوق ، وقال لي :

— اطلعى ياسبروكة .. البية هايزك ..

قلت له لهجة ولّى عناد :

— لا موش طالعة ..

فنظر لى دهشة ، قال لي في لهجة أمرة :

— اطلعى يايت .. البية لابس وعاييز يخرج :

أجبت في حدة :

— أنا موش ح اشتغل عندهم ..

أنا ماشيه ..

قال لي في غير تصديق :

— ماشيه على فين ؟

قلت له :

— ماشيه وخلص ..

فتردد برهة ثم قال :

— يعنى أطلع أقول للبيه كده ، فاطوقت برأسى ولم أجبه ، وشعرت به يبتعد

عنى ، فانتابنى الغزع ، وقلت له بصوت مثبم :

— استتنى .. أنا طالعة ..

وصعدت متهاكة إلى فوق ، وكان راتب بكه واقفاً في البهو وإلى جانبه ستنى

الصغيرة ، فلما رأتني نظر إلي نظرة طويلة وهو صامت ، ثم قال في صوت هادئ :-

— اسمعي يا بنت .. لو حصل منك أي حاجة بعد التي حصل أمبارح لنا ح أموتك .. ح أسلخ جلدك .. فاهمة ..

قلت له والبكاء محتبس في حلقي :

— أنا عايزه أرجع لأمي ،

فقال في حدة :

— أمك لو عرفت ح تموتك وتبالي فضيحة .. أنتي تطلعي لسنتك فوق وتقعدي معانا .. وإياك أشوف خلقك دي تحت .. فاهمة .

قلت له بلا وعي :

— حاضر ياسيدي ..

فقال في صوت خفيض :

— وموش عايزك تقول حاجة لسنتك هي سألت عنك أمبارح والنهارده الصبح .. وقلنا لها إنك عيانه ..

ونظر إلي في غضب ويسألني

— فاهمة تقول لها إيه .

أجبت :

— حاضر ياسيدي .

فأردف يقول كأنه يخاطب نفسه

— دي واحدة عيانه .. بموت .. ولو لا كده كنت عرفت ازاي لوريكي .

قلت له والعناد يعاودني :

— موش ذنبني ياسيدي ..

فصاح في صياح :

— أحرسي .. أنتي تعمل ياكله التي ياقول لك عليه .. واحنا كلنا مفتحين

عينينا . لو شفتك بتكلمى حد غير منك ح يبقى بموتك .

لماذا يرفض أن يتطرق باسم مدحت .. لماذا لا يقول لي « لو شفتك بتكلمى مدحت » أيتجاهل اسم ابنته لأنه خجل من أن يقرتن أسمه بي ، خجل مما كان بيننا مدحت هو السيد ابن السيد ، وأنا الخادمة ، أنا التي تلوث مدحت ، حتى لو فقت كل شيء ، وضحييت بكل شيء .

شعرت بالاحقد نحو راتبك . وشعرت بالاحقد نحو سنتي الصغيرة ، التي كانت تقف صامتة تنظر إلي باذراء ، وتكاد عيناها تقتلاني بما تشعنان من احتقار .

ولكني لم أستطع أن أشعر بالاحقد على مدحت ، ماكدت اطعن إلى أني بالية في هذا البيت حتى أحسست بالحنين إليه ، وخطرت أني سأقبله رغم كل شيء . أنهم مهما راقيونني فلن يستطيعوا أبدا أن يمنعوا لقائنا خلسة سأتحداهم وأنزوجه ، وأرتفع من مكاني الحليز كخادمة إلى مكاني المترم كزوجة أبهم .

تصارعت هذه الخواطر في قلبي وأنا واقفة أمام راتبك وسنتي الصغيرة ، فلما امرني بالصعود ذهبت إلى السلم في نشاط وقد ضاع الألم من جسمي .. كان حقدى أقوى من الألم ..

ودخلت على سنتي الكبيرة ، فوجدتها كما هي راقدة على ظهرها ، ثلثت وتزفر أنفاسها بصعوبة ، فلما أحسست باقترابي منها ، حاولت عينيها إلي وهيمت :

— مالك يا مبروكة ..

قلت لها : ولا حاجة يا سنتي ...

قللت بصوت ضعيف

— يبقواوا إنك عيانه يا بنتي ..

قلت لها .

خلاص خفيت يا سنتي

فعدت يدها إلى رأسى ، فاحسنت لها ، وتحسست جبهتى ثم قالت في
اطمنئن

— معدتكش حارة .

ولم أغادر حجرتها طوال النهار ، وحلست أرباب الموت وهو يتنفسها في غير
رحمة ، وكلما شهقت في ألم ، أيقنت أن أيامى في هذا البيت تقصر وأن مستقبلى
في يد هذا الجسد الضعيف الذى لم يعد قادراً على المقاومة .

ماذا يكون مصيرى بعد موتى . إنى واثقة أنهم سيسيطروننى في الحال
سيشيعون جسدى إلى القابر ..
وسيشيعون جسدى إلى الشارع .
وتملكنى الخوف .

أصبحت قلقلة على نقودى التى أدرهأ معها ، فما يدرينى أنهم
سيعطوننى هذه النقود بعد وفاتى . والقماش الذى اشتريته لاتزوج عوض ،
هل يسمحون لى أن أخرج به ، أم يتهموننى بسرقة ..

سيطر الشك عى ، ففكرت أن أعمل بسرعة ، وأدير أمرى قبل أن تموت .
وطليت من ستى الكبيرة صباح يوم أن تعطينى النقود .
فسألتنى في دهشة عن سبب طلبى ، فكذبت عليها وقلت لها إن رجلاً جاء
من القرية قال لى إن أمى مريضة ولى حاجة إلى هذه النقود
فقلت لى فى عجب .

— ح تبغنى لأمك كل الفلوس يامبروكة .

قلت لها وأنا أتتهد فى أسى :

— ح أعمل إيه يا ستى .. امرى ده .

وأخذت منها النقود .

أما القماش ، فقد أخفيتى فى البدرين فى انتظار أية فرصة لأخرجه من
البيت .

وكان مدحت طوال هذا الوقت ، وكأنه قد اختفى من البيت ، كنت لا أراه
ولا أسمع صوته ، وكنت أقف أحياناً عند رأس السلم فى مواعيد حضوره من

الكلية لعل أسمعوه وهو يدخل البيت ، فلا أظفر بشيء ينمئنى عن وجوده .
ولكن قلبى كان يحدثنى أتى ساراه قريباً ، ساراه يصعد السلم فجأة ،
ويقلبأتى ، ويستأنف معى مكاناً قد بدأنه ، كان مدحت هو الأمل الوحيد لى
بعد وفاة ستى الكبيرة ، هو الذى سيحمينى ، لأنه يحبنى .

وحدث أن جاء راتب بك ليزور ستى الكبيرة فسألته عن مدحت .. وقالت له
إنها غائبة منه لأنه لا يصعد ليراه .

فأجابها راتب بك ضاحكاً :

— أصله مشغول فى الذاكرة ..

فقلت له محتجة :

— يعنى مايطلعش يشوفنى .

فقال لها فى بساطة

— حاضر .. أنا ح أخليه يطلع لك .

وبعد قليل صعد مدحت رعبه أمه وماكنت أراهها حتى هرب الدم من
عروقتى ..

وغادرت المجرة هاربة إلى السطوح ولت نفسى لأنى لم أنظر إليه جيداً
حتى تبين حاله ، كنت أتمنى لو التقت عينائى بعينيه ، ولكنى أقسدت كل شيء
بغوى وانسحابى السريع .

ونفذ صبرى ، فانتهزت فرصة مدحت فى عصر يوم ، إذ خرج راتب بك
وعتى الصغيرة ليزورا ابنتهما سعداً فى بيتها ، كان كل شيء هادئاً صامتاً فى
البيت ، وسترى الكبيرة ممددة فى سريرها لاتكاد تحس بما حولها . وكان القلق
قد عصف بى ، ولم أعد أعرف معنى الراحة ، أنظر حولى فيكاد يخفى
الهدوء ، وتلفتت أتى لورأتى مدحت فسأستريح ، وسيفوى الأمل الذى يخو
فى صدرى ، ففقت وهبطت السلم ، وأنا أتتعد أن أخبط بكل ثقلى على
الدرجات ، حتى أحدث صوتاً ينبه مدحت ، ولما بلغت الطابق الذى فيه حجرته
وقفت مكانى أبحت عنه ، وانتظر خروجه إلى ..

ولكنه لم يخرج ، فلم اطلق الانتظار كنت يائسة ، فصرخت صرخة مسموعة
وجلست على الأرض .

وفتح مدحت باب حورته ووقف ينظر إلى ، وأنا لذلك ساقى ، وانتهر
علامات الألم على وجهي ، فاقترب مني وسألني بصوت متفعل :

— مالك

قلت له

— رجلي انتوت وأنا نازلة على السلم ..

وحاولت النهوض ، وأنا اتصنع الألم الحاد . ثم سقطت ثانية على الأرض
مدعية أن ساقى لا تقوى على حمل ..

ونظر إلى مدحت في حيرة ، ثم انحنى محاولاً مساعدتي على النهوض
فوضعت يدي على كتفه وامسك هو بضمري وحاول رفعني .

وفجأة سيطر علي شعور مفاجيء بالحقد عليه ، صرخت فيه .

— أوعى تلرب مني .. والله اقول لستي .. كفاية اللي حصل منك .

لفزع وتراجع بسرعة ، وانتصبت قائمة ، وتركتني وهبطت إلى البديرون وأنا
مازلت اتصنع الألم ، وإن كنت اتحرك بسرعة .

لماذا فعلت كل هذا ، لماذا صرخت في وجهه ، لماذا حقدت عليه ، هل أنا
مجنونة أم هناك شيء فاهر يحركني رغم إرادتي ..

لقد مضت سنوات عديدة قبل أن أستطيع تفسير تحول المفاجيء عن
مدحت ، إنني أعلم الآن أنني صرخت فيه بعد أن كنت استسلم له ، لأنني كنت
أعلم عن يقين أنه لن يتزوجني كان مدحت مجرد حلم ، قد أحلم به كما شاء ،
أحلم به كزوج غني يعيش معي في قصر كبير . ولكن لمسة من يده كانت كقيلة
بأن تطرد الحلم من رأسي ، وتواجهني بالحقيقة .. إنه لن يتزوجني ..
مستحيل .. كل ما يستطيع أن يفعل .. هو أن يلهو معي بعض الوقت .

ولاحظت على نفسي منذ صرخت في مدحت ، إنني لم أعد أحلم به ، ولكنني
بدأت أحلم بشيء آخر وهو أن أكون سيدة محترمة ، مثل سعاد ، ومثل ستي

الصغيرة ، وكنت اقول انقصي . لامعنى للحياة إذا لم أحقق هذا الحلم ولكن .
كيف .. كيف أحقق ما أريد ..

وعلمني ياسي إسمان اليكاه ، تعوبت أن اقضي نهاري إلى جانب سريري
الكبيرة ، أبكي في صمت ، وظن أهل البيت أنني أبكي حزناً عليها ، أما أنا فلم
أكن أعرف سبباً محدداً لبكائي ، قد تكون بعض دموعي حزناً عليها ، ولكنني
وأنفة أن دموعاً غزيرة انهمرت من عيني حزناً على نفسي .

ونهرني راتب بك ذات مساء .. كان قد صعد مع الطبيب إلى ستي الكبيرة ،
فراثنى أبكي ، فلم يلتفت إلى ، ولما فرغ الطبيب من إعطاء حقنة لستي ، خاطب
راتب بك بلغة لم أفهمها ، فأنصت إليه في وجوم ، ثم انفجر صارخاً في :

— اسكتي يا بنت انت .. أنا موشر عايز أسمع حسك .

وسكت في الحال ، كان في صوته قسوة أزعجتني ، وغادر الحجرة مع
الطبيب ، ثم عاد ووقف يراقب ستي الكبيرة ، ول عيني ألم ، وجلس إلى
جوارها وهي غائبة عن الوعي .. وبكى .

وماتت ستي الكبيرة في الصباح وما كاد الطبيب يسبل جفونها ويقطئ
وجهها ، حتى صرخت كالجنونة .. وألمعت وجهي ، ومزقت شعري .. ولم أعد
أبصر بما يحدث لي ، حتى اكتشفت أنهم يرفعوني إلى البديرون ، فصمعت على
الصعود إلى ستي .. كنت أريد أن أجلس معها كما تعودت كنت أخشى
اللعظات القاسية ، وأتوقع أن يهملوني في البديرون تمهيداً للطردى وحاولت أن
أصعد ، فلمست أثير تمنعني ، فأصرخ وأهجم على السلم ، فيشدوني إلى
الوراء ، وسمعت صوت راتب بك وهو يمشط في إسماعيل حتى لا يدعني أفلت
منه ، ورغم ذلك ففرتهم جميعاً ، وصعدت إليها .. وتركوني يائسين ..

جلست لحق في جثمانها وقد تجمدت دموعي ، وخواطر غريبة تدور
برأسي ، إنها لم تمت .. وستستيقظ في أية لحظة ، إنها ماتت ولكن جسدها
سيطير في الهواء ..

عزرائيل مازال في الحجرة وسيبقى روي ، إنها مصممة على أن تأخذني
معها ..

ثم أترك هذه الخواطر .. وأفكر في الهرب من البيت ، بما معنى من تقود واقعشة ، وأفكر في العودة إلى أمي ، وأتحدى لو أسمع لخبارها في هذه اللحظة ، وأخشى أن تكون قد ماتت . وأفكر في عرضي ، ترى ما الذي يفعله في السجن الآن عقل يدور ويدور ولا توقف حتى يكاد رأسي ينفجر ، فأصرخ وأولول في حجرة وغل ..

ولما جعلوا ستي الكبيرة في النعش طار عقلي وخربت وراعا إلى الشارع فראيت زحاما وسراقا كبيراً .. واحتفظتني الأيدي إلى الداخل والقوابي مرة أخرى في البديريين .

ولم أجري هذه المرة عن الصعود

ومرت أيام دون أن يلتفت إلى أحد ولا عمل لي سوى البكاء ، والتفجع على السيدات المعزيات لستي الصغيرة ، ومرت أيام أخرى لهذا كل شيء في البيت ، وكان أحدا لا يسكن فيه .

ونادتني ستي الصغيرة ومالتني بصوت خافت حزين :

ناويه تعملي إيه يا مبروكه ؟

أدق قلبي وشمرت بسفونة في رأسي .. ولت لها وأنا خائفة .

— يعني ح اعمل إيه يا ستي ؟

قالت بصوت يظن رأسي

— أنا صعبان علينا تسببتنا .. لكن الست الكبيرة ..

ومسكت فجأة ..

ثم عادت تقول وقد رفعت صوتها :

— شوقي يا بنتي .. لو عندك كيش حاجة .. شغل ثانيه يعني .. فاحنا عندنا ناس قرايب البية محتاجين لك

كنت أحس بالضياع لقد وضعت نفسي طوال الفترة الأخيرة على أن حصري هو الخروج من البيت ، ورغم ذلك لم أصدق ما أسمع .. كيف أترك هذا البيت ، بأي حق يطردونني منه ، وتذكرت عرضي عندما أحضرته لآترام ستي الكبيرة وتذكرته وهو يطلع حوله ويهمس في ذهول وحسرة .

« وأنا حاوليكي فحين يعد الجنة إلى أنت عايشة فيها .. دي سرايا يامبروكه » .

ماتت ستي الكبيرة لتدخل هي الجنة ، وأخرج أنا من الجنة .

وفكرت أن أتوسل إليها ، لتبقيني في البيت ، فكرت أن أرتضى عند قدميها ، وأقبلهما عليا متبلي .. ولكنني لم أحرق ، كان عنادي أقوى من إحساسي بالضياع ، فلزمت الصمت .

واستطردت ستي الصغيرة تقول :

— أنت عرفاهم .. عبد الحميد أفندي السويدي .. راجل عجوز ومعتدوش حد في البيت .. الست بتاعته ماتت .

وأطارت برأسها ، ثم رفعتها .. وصورت إلى عيني فاحصتين وقالت :

— ما عندوش غير يوسف ابنه .. وأنت برضه عارفاه .. وده ولد عاقل ..

كنت أستمع إليها بغير اهتمام .. إن لآزال يشغلني صراع عتيق في داخلي ، بين رغبتي في التوسل إليها لتبقيني ، وعنادي المتزايد الذي يهتف بي ألا أنهار أمامها ولزم الصمت .

— وأنت برضه لازم تبقى عاقلة يامبروكه .. أنت رايحة في بيت مفهوش سنك ، ولو لا أن عبد الحميد أفندي راجل على المعاش ومحتاج لواحدة زيك تخدمه كان بقي مرواحك عيب ..

لم يكن يعني ما تقول ، كأنها تتحدث إلى شخص آخر غربي ، وكأنني لا أصدق أنني سأخرج من هنا إلى بيت آخر ..

وسمعتها تسألني بصوت مرتفع :

— هيه .. موافقة ؟

فلم أتوعل الكلام .. وتوسلت إليها بعيني .. وشعرت بعنادي يضغط وقالت هي في هدوء :

— عبد الحميد أفندي جاي ياخداك العمر .

كنت أحس يدوخة خفيفة ، وفي رأسي سؤال غريب أحاول الإجابة عليه .. لماذا تقول عبد الحميد أفندي ولا تقول عبد الحميد بك ؟

وبضت الساعات الباقية والدمعة تلازمتي ورأسي ثقيل كأتى لعمل فوقه البيت كله ، وكانت نظراتي تدور حول فتسلط على قطع الأثاث والجدران ودرجات السلم ، فأكاد أشعر بهذه الأشياء تنهش عيني .. وتخطف النظر منهما .

إن هذا البيت يعرفني أكثر من أى مخلوق آخر يسكن فيه ، أنه يعرف قبضتي أنى أشدهم حاجة إليه ، وأكثرهم إحساساً به ، كالأوى وكألمن ، ومع ذلك فأننا مضطرة إلى مفادرتة ، إنى أحب هذا البيت .. إنى أحبه .. أحبه .. أحب ..

إنى أكرمه ..

وجاء عبد الحميد الفندى فى العصر وكان وجهه مستنقلاً بيدى عليه الإرهاق ولم يقابله راتب بك إذا كان دائماً ، وجاءت سنى الصغيرة ، فجلست معه برفة قصيرة ثم نادتنى ، وما كادت ترائى حتى صاحت فى غضب ،

— أنت لسه مالمستيش .. ياللا ألبسى بسرعة وهاتى حاجتك .. متمطيش عبد الحميد الفندى .

فقال لها فى طيبة شديدة :

— معطوش .. خليفها على مهله .

فصهكت ساخرة .. وقالت :

— لا يا عبد الحميد الفندى ، ماتيوظهاش .. لأحسن تتعب معاماً .. لو سبقتها على كيلها ، وأله ماهى عاملة حاجة فى سنتها .

ثم التفقت لى .. وكنت أنظر إليها ، وأنا أود لو أطبق على رقبتها وأختلها .. كان حقدى القديم قد عاد لى .. وصرخت فى .

— أنت مستتية إيه .. إن كان على فلوسك بتاعة الشهر ده ح ادبها لك دالوقتى و أنت حارجه .. ياللا روحى .

فجريت إلى البديون ، وأسرت بارتداء فستان أزرق أعطته لى سعاد من ملابسها القديمة قبل الزواج .. ووضعت فى قدمى حذاء قديماً كنت قد اشتريته منذ سنتين ، وأحسيت نقوى وصبرتها فى متدبل ، وربطت بحمالة

للحميص الذى ألبسه وبفسته فى صدرى ، ثم جمعت أقمشتى وحاجاتى فى صرة كبيرة ، وثقلت حولى أبحث عن الطباخ وإسماعيل ، فلم أجدهما ، فصعدت إلى فوق .

ونهبى عبد الحميد الفندى عندما رانى ، وأستأذن من سنى الصغيرة ، ثم التفت إلى وقال :

— ياللا بينا يامبروكة ..

فقلت لى سنى فى حنن مفاجيء :

— استنى لى أدليك فلوسك .. ومدت لى يدها بالنقود وهى تقول :

— ابقى زودينا يامبروكة .. أوعى تنسى ..

ثم أردفت قائلة :

— أنا مديلكى خمسين قرش زيادة ..

كنت أتمتم بكلام لأعياه ، وأنا أعجب بينى وبين نفسى .. كيف أترك البيت ، دون أن أودع سيدى راتب بك ، وسيدى مدحت ، والطباخ وإسماعيل .. أين هم .. أين ذهبوا ، لماذا لم تبق إلا سنى الصغيرة ؟

ورفعت عيني إلى فوق .. فى اتجاه حجرتها .. حجرة سنى الكبيرة ، وأرسلت لها فى صمت شكوى من هذا الوداع ..

وخرجت إلى المديقة .. وصافحت عم عثمان الذى لم يفهم لماذا أصابحه ، وحارات أن أقول له إنى تاركة البيت إلى غير عودة ، فرفض أن يفهم ما أقول .. وسرت وراء عبد الحميد الفندى إلى محطة الأتوبيس .

بنى آدم مخلوق غريب ..

بعد دقائق ، ربما بعد لحظات من خروجي من بيت راتب بك كنت قد نسيت
 حقدي عليهم ، ما كان الاتوبيس يبتعد بنا ، أنا وعبد الحميد الهندى
 السوفى ، حتى شعرت بحزين جارف إليهم ، تذكرتهم جميعاً في حب ومن
 خلال دموع مترددة في عيني ، تذكرت سنى الكبيرة وكانها لمزالت حية ،
 تجلس هناك في حجرتها بالطابق الأعلى ، وأنا جالسة عند قدميها ، تذكرت
 ليالينا في الليديون في انتظار انتهاء العارة وراتب بك يجلس بيننا كأنه واحد
 منا ، وأنا أجلس بينهم كأنى واحدة منهم .

لم تعد سنى الصغيرة هي المسئولة عن خروجي من البيت ، تحول غضبي
 عليها إلى عبد الحميد الهندى ، هو السبب في خروجي من البيت ، هو الذى
 اشتغلنى من هناك ، هو الذى انتزعنى من بيتي ، من حياتي ..

شعرت نحوه يتعالى وكبرياء ، كأنى من طبقة أرفع منه ، كأنى راتب بك
 ورفضت أن أصفق أنى ذاعبة معه لأعمل خادمة في بيته ، أقنعت نفسى أنى
 ذاعبة في زيارة له ، زيارة ربما طالعت لبعض الوقت ، ولكنها لن تدوم .

هبطنا من الاتوبيس في ميدان مزدحم يكاد يحقق بعربات القرام والحنطور
 والسيارات التى تخوض بحرأ من الماس ، كانت الضجة عالية .. ولكن صوت
 عبد الحميد الهندى ارتفع فوقها ..



وقف على الرصيف وصاح كأنه يخاطب عشرات معي :

— اسمعي يا بنتي .. خذي بالك كويس .. الميدان اللي لحنا فيه اسمه إيه ؟

وتعلقت عيناه بشعتي ينتظر مني الجواب ، فلما لاحظت ترددي .. صاح :

— اه .. إيه .. تبقى متعرفيش .. أما أقول لك ده اسمه ميدان الأزهار ، ميدان

إيه .. الأزهار .. تهمني بقى اسمه إيه ؟

وأطرق برأسه مقرباً أذنه مني ينتظر الإجابة ..

كان مسطره يثر سخريتي ، وعجيب للفارق الكبير بينه وبين راتب بك

وأجبت على سؤاله مرعدة وراه .

— ميدان الأزهار ..

فتهاول وجهه بفرح صباياني ، ثم لجم وجهه فجأة ، كأنه قد تذكر شيئاً

معيماً .. ونظر إلى في قلبي .. ثم قال :

— وكمان اسمه ميدان باب اللوق .. ميدان باب اللوق ..

وسألني وهو يرقبني في حذر .

— اسمه إيه ثاني ؟

أجبت :

— باب اللوق ..

فتهاول وقد انتفخ وجهه الأحمر وأعت عيناه :

— عظيم ..

وتنهَّد في ارتياح كبير ، ونظر حوله في زهو .. ووقع صوته قائلاً :

— أنا يا بنتي بأفهمك كل حاجة .. خايف تتوهي ..

ولم أسمع بقية كلامه ..

احتسني صوته من أذني ، وذابت ضجة الميدان ، وصحرت بخيالي إلى

مدحت أيام كان يجلس مع عبد الحميد الهندى في حجرة السطوح . كنت

أسمع في ذلك الوقت نفس الصوت المرتفع ، صوت عبد الحميد الهندى ، وهو

يشرح الدروس ، ويعيد الشرح مرة ومرتين ثم يقطع شرحه صائحاً في منبعت .

— أنا يا بنتي بأفهمك كل حاجة علشان تنجح ولا تكسفينش قدام البية

الوالد ..

قلت لنفسى ، إته يمايلنى كاتى تلميذة وهو مدرس ، واستقرحت .

لهذا خاطر طمأنيتى ، وجعلنى لحس أبى فهمت سره .

وعدت انصت إليه وأنا ألتفج عليه أنطلق يشرح لى فى حماس مشيراً إلى

سوق الخضار فى الميدان ، وحذرتى من الشراء منه لأن أسعاره غالية .

سوق لا يشتري منه إلا « الفواجات » كل شيء فيه يزيد ثمنه قرشاً أو

قرشين ..

وتقدمنى في نشاط إلى شارع يخرج من الميدان قائلاً :

— تعالى .. أنا ح لوريكى تشتري كل حاجة مدين .. وصرتا في الشارع ..

كانت عربات اليد تزحمة على الجانبين وفوقها كل شيء ، من الخبز والطماطم

والفاصوليا والكوسة والمخلل إلى أواني الطهر ومطابك الفسيل ، وعلى

الرصيف أقفاص الطيور الحلوى وكؤام البرتقال واليوسفى ، وكان يردد مع

كل خطوة أن كل شيء أشتريه من هنا أرخص من السوق ولو بطليم .

وأشار إلى مكان جزر في الرصيف الآخر ، وكان الدكان مطلقاً ، ولكنه

اقتسم الشارع ، وقف أمام الدكان يشرح في كيف أحامل المعلم الحاج أمين

وكيف أقول له إني قادمة من عند عبد الحميد الهندى ، وأنه يرسل إليه تعيانه

ويطلب منه أن يتوصى به وإلا أعاد له اللحم ..

كان يتكلم في انفعال ، ويكرر كل كلمة ينطق بها ، ويطلب مني أن أرددها

بعده ، حتى يتأكد أنى حفظت ما يقول ، فابتعد ويملا صدره بالهواء ويتلفت

حوله ويشب على قدميه كأنه يبحث عن اثر كلماته في المارة أيضاً ..

وعاد يسي إلى الميدان وهو يلوح بيديه مشيراً إلى الشارع الذى خرج منه وإلى

الميدان الذى ندخله ليؤكد أسي أن أتوه إذا جئت وحدى ، حتى وصلنا إلى

سوق الخضار الذى بدأنا منه جولتنا ، فأتجه إلى شارع بجانب السوق ،

وقف مطمناً بصوت خطر .

— أهم شيء .. هو اسم الشارع ده .. اللي لحنا واقفين فيه .. ده اسمه

شارع الفلكي . الف لكى .. ده هو الشارع اللي احنا مكنين فيه ..
وانصت الى انا اردد الاسم . وانفاسه لاهنة ، وعيناه قلفتان ، خشية ان
أخطئ النطق به ، فلما اطمأن سرى قليلاً وعبرنا شارعاً أشار فيه إلى بناء قل
عنه إنه محطة للسكة الحديد التي تذهب إلى حلوان ثم سرنا حتى وصلنا إلى
عمارة لونها بنى ، وقف أمامها وقال :

— هنا البيت .. خلاص وصلنا .. احنا في أول دور .. يعنى موش ح تتعبي
من الطلوع والنزول ، كلهم اربعتاشر سلمة .

وهتف

— يا إبراهيم .. يا إبراهيم ..

فخرج من مدخل العمارة المعتم البواب ، فصاح فيه .

— دى ميروكة يا إبراهيم . جايه تشتغل عندنا ..

ثم هتف :

— آه .. لنا نسيت المكنجى .

وجذبني من يدي إلى وسط الشارع وأشار إلى مكان تحت الأرض على بعد
خطوات من البيت وقال :

— أهو .. ده المكنجى .

والتفت إلى إبراهيم : وقال له :

— اعمل معروف يا إبراهيم . ابقي قول لها على السكة لحسن تنو .

وحمدت الله أنه لم يذهب بي إلى دكان الكراء .. منذ قبض البوليس على
موش . وأنا ارتجف كلما اقتربت من دكان كراء ..

وصعدنا إلى الشقة

فتح عبد الحميد أفندي الباب بفتحاح صغير في سلسلة بها مفاتيح كثيرة
فقابلتني صالة ضيقة معشمة

وعند باب مفتوح على يسار الصالة وقف يوسف كأنه شبح ، مرتديا
البهجة وشعره منكوش ، وفي يده كتاب .

التقت عيناى بعينيه . فحولهما بسرعة ، وأطرق برأسه .

شعرت أنه خجل منى . فزاد كبريائى . ونظرت حولي في ترفع ، كان البيت
مقبضاً سلكاً لا حياة فيه واحسست أنى أكبر من هذا البيت ، أقوى منه ،
غرفة واحدة في بيت راتب بك أكبر من هذه الشقة كلها .. الديرين هناك أحسن
من هذا الجحر الذي يسكنان فيه ..

وقال لي عبد الحميد أفندي في لهجة اعتذار :

— البيت مكركب زى ما أنت شايقة .. موش زى البيت اللي كنت فيه احنا
ناس على قد حالنا يابنتى .. إنما أهو البركة فيك .

وارتمت الصمت ، تقبلت اعتذاره في صمت ، وكأنه شيء طبيعي ، ونظرت
إلى يوسف فجأة فضبطة يهدق في ، ولما التقت عيناى بعينيه تغير وجهه .

كانه يتألم ، ويحرك رأسه في عصبية كأنه يطرد شيئاً يهجم حولها ..

ودخلت الحجرات الثلاث التي تتكون منها الشقة وراء عبد الحميد
أفندي .

حجرة نوم فيها سرير نحاسي بأربعة أعمدة ، ودولاب عتيق ، ومقعد بيزنت
الاسلاك من ظهره ، ومنضدة فوقها تماثيل صغيرة بيضاء وسوداء فوق رفعة

فيها مربعات من نفس اللونين ..

وأشار عبد الحميد أفندي إلى التماثيل ، وقال في اهتمام كبير :

شوق يابنتى .. تعمل أى حاجة في الأوده .. إنما الشطرنج ده أوعى
تلمسيه .. ده أهم حاجة عندى في البيت ..

ولم أمش لكلامه ، كنت بعد جولتي معه في السوق . أتوقع منه أن يهتم
بأى شيء ، وإن يقول كلاماً ساذجاً كالأطفال .

ورأيت في حجرة يوسف مريراً أبيض كالذى ينام عليه إسماعيل في
الديرين ، ومنضدة عليها مرآة وكتب وفرشاة ومشط ، وصحن فيه بقايا حلوة

طحينة وفتاقيت خبز ، وملابسه معلقة في مسامير مثبتة في الحائط

صرخ صوت في داخل لي لم سمعه أحد ، ياخيتنى عليك . وكنت عليز تتجوز
سعاد بنت راتب بك .

وشعرت بالارتاء له . عرفت لماذا هو خجل منى ، إنه يرى في وجودى أهل

بيت راتب بك ، كأنهم جاسوا إلى هنا ليشهدوا فقره ، وليسألوه كيف يجزى على التفكير في الزواج من سعاد وهو ينام في هذا السريد الطير .
خيل إلى أنى اقتحم غربة يوسف وأنه كان يتمنى الموت .. ولا يراى يوماً أدخل عليه والفضحه في بيته .

وتذكرت فجأة أمى ارتدى فستان سعاد ، لا يد أنه يذكر هذا الفستان المسكين .. ليكون هذا هو سبب الألم الذى يرتسم على وجهه .

كان يوسف مازال واقفاً عند باب الحجرة الثالثة ، فلما عدنا إليها تنحى إلى الداخل ، ودخلت وراء عبد الحميد أفندى ، كان بالحجرة مائدة للطعام عليها مفرش من المشمع وحولها خمسة مقاعد تمزق جلدها ، وإلى الحائط بجوار النافذة بوليه قديم عليه رخام مشرور وفوقه رداير وكتب وزلى جانبى على الأرض كتبة أخرى يطوها التراب وصناديق بداخلها ملابس قديمة وفرق وأوراق وكراكيب .

وذهبتا إلى المطبخ ، فتحول كبرياتى إلى نور وارف ، الأرائى على الأرض والصمون المتسفة في حوض بالوعة مسدودة فارفع الماء القذرحى غطى الصمون ، وراير جاز أسود أخرج رائحة نثنة تبتعت من صفيحة زبالة ودارت رأسى ..

هل هذا هو البيت الذى سأكش فيه ، الموت أهون من الحياة هنا .. هذه عشة دجاج زربية .. ماذا يتوقعان منى ؟ أن أمد يدى إلى هذه القذارة ؟ إلى لا أجد مكاناً أستطيع أن أضع فيه حاجاتى وملابسى النظيفة . كل شيء قذر ، قذر ، مستحيل أن أبقى في هذا البيت .

كدت أصرخ فيهما قائلة أنى لا أستطيع أن أشاركهما هذه التعاسة ، فاض بي اليأس فلم يعد يعنينا أن أبقى هنا أو يأرينا الشوارع . وتجمعت الكلمات على طرف لساني لأقذف بها في وجه عبد الحميد أفندى ، أولاً خاطر مفاجئ حزينى .

اكتشفت أن ثورتى ، وكبرياتى الذى أشعره الآن شيء جديد على لم أكن أعرفه وأنا في بيت راتب بك هناك ما كنت لطعم بأن أصرخ في أحد ، هناك

ما كنت أفسر على النظر في عيونهم كما أفعل الآن مع يوسف إلى أشعر لأول مرة بشيء يتعدى في داخل ، شيء يتطابق ، شيء حقيقى لا مجرد وهم .. إنه شعور لاذية مريح ، شعور بأنى مسيطرة على نفسى ، مسيطرة على ما حولى ، لا تخفىنى قوة هائلة تضغط على كبائى ، مثلما كنت أحس وأنا ألقب أمام راتب بك .

وماتت الكلمات اللثائرة على طرف لساني ..

وقال لي عبد الحميد أفندى ..

— تحبى تنامى حين يابتنى ؟

وتحركت عيناه ناحية المطبخ ففصمت الإجابة التى يريد بها منى أنه خائف لا يستطيع أن يأمرنى بما يريد .

قلت له وأنا أشير إلى حجرة الطعام :

— ح أنام في الأوضة دى ..

فبدأ الهجوم على وجهه ، ونظر إلى يوسف ، ثم قال في ارتباك :

— يس يوسف بيذاكر فيها .

فانطلق يوسف يتكلم في انفعال .. كانت هذه أول مرة أسمع فيها صوته منذ دخلت البيت :

— معلوش بابايا .. أنا ح أذاكر في أودتى ..

ثم قال بصوت ضعيف كأنه لا يريدنى أن أسمع :

— أصل ما فيش حته ثانية تنام فيها .

وتحركت عيناه عبد الحميد أفندى ناحية المطبخ من جديد . ثم احتكن وجهه وقال بصعوبة :

— والراديو ..

وقطع كلامه .. ثم قال ليوسف في استسلام :

— على رايك يرضه تنام في الأوضة أحسن .. يعنى مين بيسمع الراديو ، أنت بتذاكر ، وأنا بإنام بدرى ..

ثم التفت إلى قائلاً في ارتباك :

— احنا نسيك بقى عشان تغيرى الفستان ده .. وتلجى حلجة الليبت .
وتبادل النظرات مع يوسف .

وذهب كل واحد منهما إلى غرفته وأغلق بابها .
وقفت فى الصالة وحدى لا أريد الحراك ، كنت مترددة فى خلق فسنتى
كانى لو خلعت ساقى جزءاً من مبيتى عندهما . كاتى أريد تأجيل اعترافى
بأنى استسلمت لمصيرى فى هذا البيت .

وفكرت فى الجاوس على أحد المقاعد وأضغ سائلاً فوق سائى مثلاً كانت تفعل
سعاد ، وفكرت فى أن أذهب إلى حجرة الطعام وأفتح للرايو وأفتح للنافذة .
لماذا يعيشان فى هذا الجو القاتم ، للكتيب ..

وذهبت إلى حجرة الطعام .. واخترت النظر من بين فتحات الأضفة
الشبيهة للنافذة . فوجدت أنها تطل على بيت آخر بيننا وبينه ثلاثة أو أربعة
أمتار ، وتواجه البيت الآخر مغلفة أيضاً ، لو فتح السكان نافذة فسبحرهم
الجيران .

وابتعدت عن النافذة ، ووقفت وسط الحجرة لا أدري ماذا أفعل ، ثم
ذهبت إلى مفتاح النور وأضمت الحجرة كانت العتمة تزدهاء بسرعة ، والظلام
يطبق على كل شيء يقبضته السوداء يطبق على صدرى وعقلى .
لا فائدة .. إنى لا أستطيع أن أقاوم ، لابد أن أخلق الفستان .

خلعت والكتيب به على المائدة فوق كتب يوسف ، وأخرجت من صرتى جلابية
أرتديتها ، وقلعت حذائى ، ووضعت الشبشب فى قدمى .

وعدت إلى النافذة ، كان زجاجها مغلى من أحد جانبيه بوريق لزرق حتى
لا ينفذ الضوء إلى الخارج ، فنظرت إلى الجانب الآخر إلى وجهى ، أريد أن
أعرف كيف يبدو وأنا أدا حياتى فى هذا البيت .
ورأيت وجهاً جميلاً حزناً .. وابتسمت .

●●

لست أدري ماذا حدث لى فى الأيام التالية .. كان عفريناً وكينى ..

أصبحت كل حركة ونشاط ، ولم أعد أفكر فى حالى ، ولا فى عبد الحميد القندى
ويوسف ، كأنهما غير موجودين فى البيت ، كان البيت بيتى .. أنا صاحبة
وليس لأحد كلمة على .

كلما مريم وجفتى أيدل جهداً أكبر فى الكنس والمسح وتلميع الحوص
وتنقى الفبا عن سجادة الصالة . كنت أعمل كالمحمومة .. كاتى أريد أن
أحقق معجزة ، فأحول الجحر إلى بيت كبير أتبق مثل بيت راتب بك .

وكان عبد الحميد أقندى يديى إعجابه بعملى ، ويقضى معى أحياناً
الصباح يساعنى فى حمل السجادة إلى النافذة . أو نقل مضد أو مقعد أو
تصليح البالوعة ، وكان يرغب أن يتركنى أخرج لأشترى اللحم والخضار
فيذهب إلى السوق بنفسه ويعود مسرعاً ليكف معى فى المطبخ يقشر البطاطس أو
يخرط البصل ، وكان يقول لى أحياناً :

— أنا أكلت يامبروكة مرة طبق مشى معشر فى بيت راتب بك . عمرى
ما أكلت فى حياتى مشى زيه ثم ينظر إلها متوسلاً :

— تمرى لعملية يامبروكة ..

— أعرف .

فيفرح فرحاً شديداً أو يساعنى فى إعداد المشى ، ويقف يرأبى فى فضول
شديد ، ولى عينيه نهم وجوع كأنه لم يأكل منذ أعوام .

توطدت الصداقة بينى وبين عبد الحميد القندى . فلم تكن بيننا كلفة ،
لا أقول له ياسيدى ولا أشعر بنحوه بفجل ، أدخل عليه فى غرفته فى أى وقت ،
لأثبت له زرار قميص أو أرتق له ثقباً فى جويوب أو أنظف له بقعة فى بدلته ..
وكان ينادينى « يا بنى » ومع ذلك لم أحس أبداً أنه فى سن أبى . إلا أن نظره
فهو عجوز ، ولكن عقله عبقير طفل . يتحدث معى بالساعات فى أى شيء ، يثرثر
بكلام مريح لفهمه ، وكان حديثه المفضل أن يسألنى ياهتمام عن أخبار بيت
راتب بك ، كيف يعيشون . وماذا يأكلون فى الإفطار وفى الغداء وفى العشاء
وما هو الطبق المفضل عند راتب بك والطبق المفضل عند سنى الصغيرة .
وكل يوم يروى لى عن بعض أسرارهم التى لا أعرفها ، فقال لى إن راتب بك ورت

من أمه سنى الكبيرة أربعة وخمسة فداناً وبيتاً في العباسية ، وهكى لي عن سنى الكبيرة أيام شبابها . استمعت إليه في دهشة وهو يتحدث عن جمالها ، والخطاب الذين كانوا يتنافسون على طلب يدها ، ورفضت أن تصدقه عندما قال إنها كانت تضرب زوجها أبو راتب بك بالشبشب لأنه كان سكيراً لا يفيق من الخمر .

قلت له

- يا شيخ حرام عليك .. والنبى دى ست طيبة روح تروح للجنة حنف . فضحك قائلاً :
- أنا قلت حاجة .. ما الكلام ده كان قبل ماتج وتعمل شيخة .
- وسالته فجأة :
- وأنت ما تبصليش ليه ؟

فارتبك وأحمر وجهه وقال :

- والله أنا نفسي أصل بامبروكة . لكن أعمل إيه في المدعوق ده اللي اسمه الشطرنج .. وأخذ عاقل وولتى وصحنى ودينى وفلوسى .. أخذ كل حاجة ..

قلت له :

- ما تبطله ..

فقال في استسلام .

- مقدرش .. اتعويت عليه .. بحبه .

ثم لمحت عيناه وقال في زهو :

- أصل الشطرنج دا لعبة عايزه مخ .. ما يلصوش إلا الأذكيا .

قلت له ساخرة :

- وإيه يعنى .. تفكر مقدرش اتعلمه أنا كمان .

فمطر إليّ في استخفاف وقال :

- أدى اللي ناقص ..

ثم أرفف قائلاً وكأنه يهمس بسر

- تعرق أنا ففتح مدرسة .. موش بتشوفينى أنزل ومعايا كتب . كلها كتب شطرنج . أروح على القهوة ولجمع اللعبي حواليه وأدرس لهم . قلت له :

- واللى تعلمنى ..

قال بصوت جاد :

- بلاش .. أحسن يتلفه منك .

كنت أجد عبد الحميد أفندى شخصاً مسلياً ، أثر معه في غير حرج . والحس نحوه بمشاعر مختلطة من الشفقة والحنان والأمانة والدلع . وكنت أتبادل الحديث معه في الصباح ويوسف في الجامعة ، وكنت أتعمد الوقوف وأرفض أن أجلس أمامه على الأرض كما كنت أفعل مع سنى الكبيرة . وحدث مرة أن طال حديثنا فتململت في وقفى .. وشعر هو بانى متعباً فقلت له :

- ما تقعدى

فجلست .

جلست على المقعد ، ولم يبد عليه أى شيء اعتبر جلوسى على المقعد وكأنه شيء طبيعى ، أما أنا فكان قلبي يلفز بين ضلوعى من الاتفعال والفرح .. ورغم ذلك كنت خائفة من يوسف فلم أجلس أمامه أبداً على مقعد .. ومنذ اللحظة التى يعود فيها من الجامعة أبتعد عن عبد الحميد أفندى وأتبادل بآى شيء . وكان عبد الحميد يساعدنى في التفلس من الحرج ، فيخرج كل عصر ومعه كتيبه إلى المقهى ، وعندما يعود في المساء أحضر له العشاء ، ثم أحضر له رقعة الشطرنج فيضعها على المائدة ويحركه القطع وهو ينظر في كتاب . ويحب حرج وأخر يمسك بقلم أحمر يدين به ملاحظات في هامش الكتاب ، وأجلس أنا بالقرب منه أنصت إلى الرأى ويأذن . وأنصت إلى باب حجرة يوسف بالأذن الثانية .. حتى إذا فتح يوسف الباب ، قامت من مقعدى متطاهرة بآى عمل فلا يرانى وأنا جالسة مع أبيه .

وكانت ساعات العصر التى أكون فيها وحدى مع يوسف في الشقة . ساعات غريبة . كنت أشعر بوجوده في كل لحظة ، أقرب خطواته في قلبي وأعجب

للكلمات القليلة التي تتبادلها وأفكر في مصحت وأقول لنفسى ماذا كان يحدث لو أن مدحت هو الذى يعيش معى في الشقة بدلا من يوسف .

لم يحاول يوسف أبداً يفارنى أبداً ولكنى كنت واثقة أنه يشعر بأنوثتى فهو دائماً يخضع بصره أو يحوله عن وجهى لو صبرنى وإذا حدث أن تلامست يدانا ، سحب يده برجة غير عادية كأنه مذعور ، وإذا خاطبته ، قصوته حار ، وكلماته مقتضبة على غير عادته عندما يتحدث مع والده .

وكان وجهه متجهماً دائماً لا يضحك أبداً ، حتى لو حاولت أن أشجعه وأبتسمت لى وجهه .

وإذا ركت أن أخجله ليس بسبب قدومى من بيت راتب بك ، بيت العز الذى يذكره بفقره ، وإنما هو يخجل أيضاً من أنوثتى .

ولم يعجبنى خجله ، أشعرنى بأنه ضعيف وغليان ، وتغل مدحت في خيالى الشباب الذى أحلم به ..

استقرزنى ضعف يوسف ، وشجعنى على أن اتحداه ..

ذات يوم وكنا ساعة العصر ، خرج عبد الحميد أئندى إلى المقهى كعادته ، وتركنا وحدنا .

ورأيت يوسف يذهب إلى حجرة الطعام ، ويعتد بمفاتح الراديو حتى انطلقت منه موسيقى أفريقية تصحبها خشخشة وصغير وأزيز ، وجلس ينصت إليها وقد أطرق برأسه وكأنه يسمع أم كلثوم

لم تعجبنى هذه الضجة التى يسمعها ، فدخلت عليه ووقفت بالقرب منه ولكنته تجاهلنى ..

قلت له حياة :

- والنسب ايه الى عاجبك في دوشة الدماغ دى ..

أرفع إني عيني في دهشة ، وقال في حدة .

- وأنت مالك .

قلت له في عتاد :

- ما تشوف محطة مصر ..

فصرخ في عيظ ..

- بقول لك ملكيش دعوة . روحى شوقى شغلك ..

نظرت إليه في تحدو قلقة :

- طيب ما تشخطش كده . أعمل اللي أنت عايزه .

وهزنت كتفى في سخرة ، فارتفع الدم إلى وجهه ، وجعلت عباءه .. وقال

في هياج :

- أنت ازاي تكلمينى بالشكل ده .. فأكره نفسك مع .. أنت خدامة .

قلت له في هدوء :

- اه يسألك .. أنا موش أكره عليك ..

فصرخ :

- أنت قليلة الإلب ..

فلم أكل شيئاً ، وفادرت الحجرة وأنا في عجب من نفسى ، كنت أشعر براحة كبيرة لأنى أثرت وجعلته يصرخ كالجنون ، ولم أكتف بقلوبه إني خادمة . لم تجرحنى الكلمة رغم زففى لها ..

ودخلت الحمام ، وخررت لى الاستحمام ثم ارتديت ملابسى ، وفلحت الباب ، ووقفت أمام مرآة الحوض أمطحت شعرى وأغشى .

كان قد أفلل الراديو وسمت صوت أقدامه وهو يتنقل في الشقة ثم اقترب صوت خطواته ، ورأيت خلفاً عند باب الحمام ينظر إني في غضب وصاح :

- بلاش غنا .. أنا عايز أذكر .

قلت له ويدي تحرك الشط في شعرى المرسل المبلل :

- ليه .. موش عاجبك حزين .

- وأبتسمت عيتائى ..

فارتبك وخفض عينيه ، ثم عد ورفعهما إني وقال بصوت مرتعش يفضح خجله .

- أنا موش عارف أذكر :

- فقطاعته بصوت مروح :

- أعمل لك شائى ..

وتقدمت منه . ومددت يدي إليه لأزيجه عن اليلب في طريقي إلى المطبخ
فانتفض متراجعا وقال في صوت متحرج :

- موش ضروري .

قلت له ضاحكة

- لا .. والنبي لانا عامله على طول .. عشان تعرف تذاكر .

وذميت إلى المطبخ أصنع الشاي ، وأنا فرحانة كاتني الهوى لعبة مسلية ،
كانت بي رغبة ملحة في أن أسدده حتى يغازلني ، أريد أن أتحداه باتوشتي ،
حتى يستسلم لها فيمد يده إلى جسمي ، وعندئذ أسدده وأشعره باتني أقوى
منه

وجعلت كوب الشاي إليه في حجرته ووضعت أمامه على المنضدة ، وقلت له
ويدي تعبت بشعري المبلول ..

- لسه زعلان مني ..

فانكش في جلسته ونكس رأسه ولم يقل على الكلام .

قلت له بلهجة عتاب :

- يعني هو عيب لما أبقي خدامة ، الكلمة دي عمرى ماسمعتها من سني
الكبيرة ولا سني الصغيرة ، ولا سي مدحت ، ولا حتى من راتب بك .. عمر
ما حد منهم قالها لي .

فاهتزت رأسه ، يريد أن ينظر إلى ولا يستطيع . وقال بصوت خفيض
مضطرب :

- أنا موش قصدى .. لكن ما يصحش تكلميني بالطريقة التي كنتي
بتكلمي بيها ..

نظرت إليه في غيظ ، لماذا لا يرفع عينيه إلى وجهي ، لماذا لا يريد أن يرى
شعري وابتناسمة عريضة على شفتي ولا يتبسط معي في الصديث رغم
تشجيعي له ..

قلت له في وحوم :

- حقا عليه .. أنا غلطانة .. وتركت الحجرة وأنا لشعر بهزيمتي ..

هزمني ضعفة لا قوته ..

وفي صباح اليوم التالي انتظرت حتى خرج يوسف ، وبقيت وحدي مع
عبد الحميد أقندي ، وكان في الحمام ، مخرج منه ليجدني جالسة في الصلاة
أيكي ..

صاح في نعر :

- الله .. إيه اللي جرى .. حصل إيه .. بتعطيني ليه .

فاشتد بكائي ، واقترب مني يربت على كتفي ويحاول أن يهدئي
بلا فائدة .. كنت أيكي بحرقه والدموع تنهمر من عيني بغزارة ، وهو انزع
يريد أن يفهم ما حدث . فجلس إلى جوارى وخطوكت يذراعه ، وأخذ
يتوسل لي أن أفسره له سر بكائي .

قلت له أخيرا بصوت يمزله البكاء :

- يوسف شتمني ..

صاح في انفعال :

- يوسف ابني ..

قلت له في ألم :

- أيوه ..

هتف :

- لازم ما يقصدهش .. هو يعرف يشتم .. قال لك إيه ..

وارتفع بكائي من جديد .. ثم قلت له :

- قال لي .. يا خدامة ..

فصاح في استنكار :

- لا .. هو غلطان .. حقه عليه وعدت إلى البكاء ، وهو حائر لا يدري ماذا

يفعل . ثم قال فجأة :

- خلاص باه .. عشان خاطرني .

وارتفعت يده إلى رأسي ، وحذبه إليه وقبلني في شعري . فشعرت براحة

كبيرة وأنا بين ذراعيه ، وضعت لمحات قبل أن أشعر بشفتيه تتصمقان
بخدي ، فتركته يقبلني ، ثم انتفضت واقفة ، وذهبت إلى المطبخ وأنا أسمع
دموعي .

الفصل الرابع

جبرتني قبيلات عبد الحميد الهندي .. حدثني غريزتي كامرأة بأن هذه
القبيلات تعنى أكثر من الرغبة في مصالحتي وإظهار العطف عليّ ، كنت واقفة
أن شيئاً ما قد حدثاً عليّ وهو يحتضنني ويقبلني . ما هو هذا الشيء ..
أهي رغبة مفاجئة انتابته ، أهي عاطفة يشعر بها شعوى منذ زمن .. كان
يكنمها ثم انطلقت وانفجرت نفسها .

كنت حائرة ، واكنني لم أشغل نفسي بالتفكير ، قلت لنفسي إن الأيام وحدها
هي التي ستكشف لي سر هذه القبيلات .

كأن ما يشغلني ويسيطر عليّ عقلي هو موقف يوسف مني ، عندما بكيت
أدركت أنني لم أفكره وصفاً لباني خادمة . لقد حاولت أن أداخه عن نفسي ،
فشجعتة لبقائتي ، ليعاملني كامرأة ، ليعاملني وكأنني سعاد .. ولكنني
فشلت ، تجاهلني فعلم عليّ باني ما زلت خادمة ، حكم عليّ باني لست
سعاد .

ما الذي أعجبه في سعاد ، ولم يعجبه في ، أهي أجمل مني ، أبدأ ، أنا
لجمل منها ألف مرة ، وأصغر منها ، عجوز تكبر يوسف بسنتين ولو تزوجته
لتحوّلت إلى شمعطاء وهو ما زال في شبابه . كل ما كان يجذبه إلى سعاد هو
غناها ، وكل ما ليعده عني هو فقرى ، هو أنني خادمة .

قبيلات عبد الحميد افندى ، ومصالحته لى ، وعواطفه للكينة نحرى ، لن
تمحو حكم يوسف على باني اقل منه .. يأتى شيء حقيق .. يأتى خاتمة .
هل استمر فى محاولاتى مع يوسف .. اشجعه اكثر واكثر ، حتى
يفازنى . لا . ما يدرينى كم من الإهانات سأعرض لها قبل أن انتصر
عليه .. ولو انتصرت فسيكون انتصاراً رخيصاً ، لن أشعر أبداً أنه هو الذى
سمى لى ، وإنما أنا التى اذلت نفسى وسعيت إليه .
هناك مخرج آخر . اكتشفته بالصدفة ..

ماذا الوسيلتين على عبد الحميد افندى ، أبو يوسف ، ماذا الرجل طوع
إرادتى . هذا هو الطريق السهل الميسور ، هذا هو باب الأمل الكبير فى أن
أتحول من خادمة فى نظر يوسف إلى سيدة بيته ، سيدته هو .. هكذا سيخطر
ببوس إلى أن يعترف بى ويعترفنى كزوجة أبية .
وأهبطتني الفكرة ، ملأت عقلى ، وهزت كيانى ، فانطلقت تخيل تفاصيل
حياتى بعد الزواج . وكأنه تم فعلاً ..
سأنام على سرير عبد الحميد افندى وسيرانى يوسف وأنا أدخل حجرة
أبيه ، وأخرج من حجرة أبية ، وأنا فى سرير أبية ، وسأجلس معه على مائدة
الطعام ، وستأتى خادمة لتخدمنى و..

ولحظة ، خطر لى أنى أستطيع أن أذهب مع عبد الحميد افندى إلى بيت
رائيك ، أذهب معه كزوجة ، وأجلس إلى جانبه فى الصالون ، تستقبلنا سنى
الصغيرة وتجلس معنا ويقدم لى إسماعيل عصير الليمون ..
أنى لا أستطيع أن أجرى مع خيالى .. هل هذا معقول ، أمكن أن يحدث
هذا ، أنى أطلب المستحيل ، أنى أهدى ، أكذب على نفسى ، كيف ترضى سنى
الصغيرة بالجوس معى فى الصالون لن ترضى . مستغفنى على وجهى ،
ستمردبنى من البيت ، إننى خائفة . أنا نفسى لا أستطيع أن أجلس قدامها ،
سارتبك .. سأخاف شعرت أنى مقبلة على معركة كبيرة معركة ضد رائيك
وسنى الصغيرة ومدحت ويوسف وسعاد ..

سبحاروبنتى جيمعاً ، سيقفون فى وجهى . ولكن أليست هذه الحرب
أفضل من الاستسلام لهم ، وتحمل نظراتهم لى كخادمة .
سوف أخوض المعركة ، وسوف أنتصر .. هنا على الأقل ، فى هذا البيت ،
سوف أنتصر على يوسف بلذات ..

ومضت وأبلم وأنا أقرب عبد الحميد افندى ، وانتظر حطوته التالية ، ولكنه
كان يتقرب إلى بيضم وحذر شديد ، لم يغب عنى أنه متردد وخائف ، لاحظت
شدة انفعاله وهو يجلس معى كل صباح يثرثر كمدته وعلى فمه ابتسامة
عصبية بلهاء ، وفى عينيه بريق الرغبة ، ولكن لسانه عجز أن ينطق ، وبده
المرتجشة خائفة أن تمتد .
كان يقول لى كلاماً ساذجاً ..

ويسألنى أسئلة مضحكة ، ويلف ويدور كالتائه ، فانرك على سجيته
ولا أحلحل مساعرتيه ، لا تمتع بمحاولاته اليائسة ، واقترح على المعركة
الفاسية بينه وبين نفسه ، كنت مطمئنة إلى مصرى معى ، واثقة أنه فى يدي ..
فلا داعى للعجلة ، صميرت عليه حتى يقهر الخوف الذى يشعر به ، ويعترف
لى بأنه عدى ، وأنا سيدته .

سألنى فجأة ذات صباح :
- إيه رائيك فى شنئى ..

ونظر لى فى اهتمام - كان وجهى مرأة ..
قلت له وأنا اكتم ضمكة :

- ماله ..

قال فى انفعال :

- لا . قول لى صحیح .. أنا بانكر أحلقه .

قلت له وأنا أهزكفى فى غير اكتراث .

- والله أحسن .. يعنى غايدته إيه .

فقال لى لى :

- ماحدش بيعهم بالشنب دلوقت .. شبان الأيام دى ما يعرفوش قبعة

الذهب ..

وهاتف

- أنا ج أوربيكي صورتي زمان .. وأنا بالذهب .. شنب تعلم .. كنت أبرمه وأدعنه بالكورملتيك .. يلق عليه الصقر ..

ونهب ليذهب إلى حجرته ويأتي بالصور ..
قلت له :

- خلك ادي .. وأروح أنا أجيبهم ..

فقال في حماس :

- لا .. أجيبهم أنا ..

وذهب إلى حجرته .. ففتحته .. وفتح الدولاب .. وأخرج من داخله صندوق أهدية فيه أوراق وصور كثيرة .. رأيت بينها صورة امرأة سمينة .. مقربة الخدين ، لها عينا بقرة .. وادركت أنها صورة أم يوسف ، ورغم ذلك سألت :

- صورة مين دي ؟

قال في وجوم :

- دي المرحومة ..

وبحاول أن يغلق الصورة بين الأوراق فمعدت يدي وأخذتها منه ، وتكرست فيها ، وهو ينظر إلى في قلبي ، ثم سألت :

- أنت بتحب التخاف ..

فصاح في أنفعال :

- أهدأ .. مين قال لك كده ..

قلت له وأنا أضع الصورة أمام عيني

- أمي .. شوف كانت تخفيه قد إيه ..

فقال بصوت مرتفع :

- كانت دقة قديمة .. متعرفش حاجات زي دي ..

فسألته :

- زي إيه ؟

فقال متريداً :

- يعني زي الحب يتاح الأيام دي ثم أبستم وقال في سذاجة .

- إنما أنا ...

وقطع كلامه ، ولكنني كنت أسمع الكلمات التي حبسها على طرف لسانه

كان يريد أن يقول « إنما أنا بأنهم في الحب .. أنا بأحبك أنت »

وتحركات أصابعه في عصبية بين الأوراق ، حتى عثر على صورة له . وهو في

شبابه ، طريش طويل فوق رأسه ، وشارب ضخم مبروم يشطروجه الوجه الوسيم

إلى شطرين .. وقد وضع يده اليمنى في خصره ..

وهاتف في انتصار :

- ادي الشيايب .. موش شباب الأيام دي .. شوي العظمة .. شوي

الابية ، موش المغاصيس الهابطين عيال امبارح ..

كان يعرض عني مفاثنه من خلال صورته القديمة ، وهو يظن أنه يضحك

على عقلي .. وأني سياري الصورة .. وأنسى شكله المعجوز .

ومضى يقول وقد التهاب حماسه .

- كنت أيامها عفريت . ما بطلش شقاوة .. هو شبان الأيام دي عملوا

حاجة .. ولا يعرفوا يعني إيه الشقاوة .. خبيثان .. والله خبيثان .

ونظر إلى في لهفة ، رأيت في عيني ما يريد ، كان خاله قد جمع ، والرفقة

تأكله ، وهو عاجز أن يتصرف وأنا فرحانة به ، سميدة بمراقبته يتلذذ ويتلذذ

على النار ..

وتغير نظام حياته ..

أصبح يعود مسرعاً من المقهى قبل أن تغيب الشمس ، ثم انقطع عن المقهى

وازم للبيت لا يخرج منه حتى يكون قريباً مني ، وكان يعود في البيت سبباً في

توتر العلاقة بينه وبين يوسف ، فكلماً رأه يخرج من حجرته بدا عليه الضيق

والتبرم وصاح فيه :

- يا ابني ما تذكر .. أنت في الليسانس . ده موش لعبة ..

فيقول له يوسف في دهشة :

.. ما انا ياابا ..

وعندئذ يرتفع صوته في هياج

.. بتذكر إزاي ولنت كل خمس دقائق سايب أوبنتك ..

فيتنتم يوسف بكلمات غير مسموعة ويذهب إلى الحمام ، أو إلى المطبخ ليشرّب ، ويعود إلى حجرته مطاطيء الرأس ، بينما تلاحقه نظرات غلظية يصوبها إليه عبد الحميد أقمدى وهو يصيح :

.. أما عجائب صحيح :

وقال له يوسف في إحدى المرات .

.. ياابا موش تخرج تمشي بشويه .. القماد كده موش كويس على صحتك ..
فثار وارتعش وصرخ فيه :

.. انت مالك يا ولد .. أنا صحتي زى النيمب .. انت عايز تظلمنى من البيت ..

ولم يفهم يوسف سر غضب أبيه ، أما أنا فكنت أعرف السر ، إنه يشور على ابنه لأنه يعمل ذنب وخوفه وتردده في مغاراتى ، كأن وجود يوسف بيننا هو الذى يمنعه من مغاراتى .

ويخطر لي أن عبد الحميد أقمدى حاكك على شباب ابنه ، وأنه يفارمته وربما كان سبب لعوده في البيت ، خوفاً من بقاى يهدى مع يوسف وهو بعيد عنا في المقهى .

وأخيراً اكتشف عبد الحميد أقمدى حيلة للوصول إلى ..

ادعى المرض ، فدخل حجرته عصر يوم ورنك في السرير ، وقال إنه متعب ، وطلب منى أن الأزمه في الحجرة وكان في كل دقيقة يطلب أن اعدل له وضع الوسادة ، أو اجس جبينه بيدي لأتأكد أن حرارته ليست مرتفعة أو ادلك يديه وساقيه ، وكان يتأوه ويتنهد ويزهر الهواء يحرقه ، وإذا تحركت ناحية الباب لاي سيب صرخ قائلاً :

.. رايحة في .. ما تسينيش يا مبروكه .

ودخل علينا يوسف ليظلمن على صحتك ، فغضب وقال له في حدة :

.. انت جاي تعمل إيه .. ما تروح تشوف شغلك ..

قال يوسف :

.. بس انت عيان ياابا .. أروح أجيب لك دكتور .

.. دكتورايه .. هو انا ح أموت .. ح تقلب الدنيا علشان شوية برد عندى ..
روح ذلكر .

وتركتنا يوسف متجهوما .

وطلب منى عبد الحميد أقمدى أن احضر له رقعة الشرطنج إلى جانبه في السرير ، فأحضرتها له وقالت :

.. أجيب لك الكتاب .

فقال ضاحكاً :

.. لا .. انا ح اعلمك علشان تلعبى معيا .

وشرح بربط القطع فوق الرقعة ، وهو يمسك واحدة واحدة ، يرفعها أمام عينى ويشرح لي :

.. ده ياستى الحصان .. وده اسمه الفيل .. وده الملك .. وده الوزير ودى الطابية .. وده البيدي ، يعنى العسكرية .

ثم قال فجأة :

.. ح تلعبى إزاي كده ، اطلعي أقمدى جنبى .

قلت له :

.. ما انا واقفة اهر ..

فنهف :

.. موش ممكن .. لازم تأخذى راحتك وانت بتلعبى .. دى لعبة ملوك .

ترددت في الصعود إلى جانبه على السرير ، كنت أعرف حيلته وأسفرها ، ولكن .. ليس هذا هو ما أسمعني اليه ..

ترددت لأنى لا أعرف إلى أى مدى يجب أن اتورط معه ، قيل أن أصل إلى غرضي . واسمعه يقول لي إنه يريد أن يتزوجنى ايكفى بالقبلات ، أم سيطلب أكثر منها .

ولو طلب الكثير ، فهل أوافقه أم أرفض ..

لقد سميت أن أفكر في كل هذه الأشياء ، شغلت نفسي بالفتورج عليه وأنا مطمئنة إلى النتيجة ، فلم أستعد لهذه اللحظة . اللحظة التي سيتقلب فيها على محاولته ، اللحظة التي توشك أن تحيى ..

وصعد إلى السرير فتهلل وجهه مرعاً ، وأنطلق يشرح لي كيف لحرك القطع فوق الرقعة . وأنا لا أفهم من كلامه شيئاً ، كنت مضطربة .. مشاعري متصاربة ، سعيدة لأنني جالسة على السرير اللين ، الذي يمثل لي الراحة والأمان ، قلقة لأنني لا أعرف ماذا سيحدث في أية لحظة أيمسك بيدي ، أيقبأنى ، أيهجم على كالمسعود وكانت خائفة أتوقع أن يدخل يوسف علينا في أية لحظة ، وكنت أشعر بالخجل .

وسمعته يقول لي :

- ألعننى بأه .. لما أشرب فهمتى كلامى وإلا لا ..
فقلت له :

العب أنت الأول .

فقال :

- لا . أنتى معاكى الأبيض .. وأنا معاليا الأسود .. الأبيض يلعب الأول .
ونظرت إلى القطع في حيرة ..

وأمسكت بالحصان .. ثم صحت .

- موش عارفة .

فقال لي أسي .

- ثقلى مفهمتيش

قلت له وقد نفذ صبرى :

- دى لعبة صعبة قوى .

وهبطت من السرير قائلة

- أنا رايحة أعمل لك حاجة مسخرة

فقال لي أرتباك :

- خلاص موش عايزه تتعلمى .

قلت له :

- لا .. أنا موش قاضية حاجة .

وصوبت إلى نظرة حزينة . وسكت وخرجت من الحجرة . وذهبت إلى المطبخ لأعد له قححا من الينسون . وتذكرت يوسف فأشغقت عليه .. المسكين ، انه لا يدري شيئاً عن المعالجة التي أعدها له ، وصنعت له قححا آخر . كنت أريد أن أراه ، لأتمتع بمنظره المتجهج في لحظة انتصارى ، وحملت القدرح إلى حجرته فلم أجده ، بحثت عنه في حجرة الطعام ، وفي الحمام ، فلم أجده ، وأسرت إلى عبد الحميد أفندى وقلت له في جزع :

- يوسف خرج .

فقال في صرخت جامد وكان الأمر لا يعننى :

- طيب ..

ثم سألنى وعيناه مبهتان على صدرى :

- رح عين ..

قلت له :

- ما أهرقش ..

فقال وكأنه يحدث نفسه :

- الولد ده باط .

قلت له وأنا أقدم له قدرح الينسون .

- دا أنا كتبت عاملة له ينسون هوه كمان ..

فقال في هدوء ، وقد ارتفعت عيناه إلى عيني :

- خسارة فيه .. أشربيه أنتى .

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت قدرح الينسون . وعدت إليه ، فقال لي وهو يشر

إلى جانبيه على السرير :

- ما تيجى تقعدى .

صعدت إلى السرير ، وشربنا البينسون في صمت ، وتناولني قدحه الفارغ
فأثرا

- حطيه على الكرسي جيبك .. منتزليش من السرير .

كان في صوته زنة امرأة ، وسألني بصوت خفيض :

- هوه خرج .

فقلت له

- أيوه

أنظر إلى نظرة طويلة ، في عيني وابتنسم ، فابتسمت ، ومد يده إلى ذكني
وأمسك بها ، وقال في أفعال .

- أنت حلوه .. زى الصكرة أطرلت براسي ، ولم أتل شيئا . مرت بي
لحظة خاطفة فكنت فيها أن أدفعه بهدي وأخرج من الحجرة .. ولكني لم
أفعل ، كان السرير لدينا مريحا ، كنت أريد أن أستريح فوق هذا السرير ،
وربما لهذا السبب تركته في تلك اللحظة يحتضنني ويعبث بي .

●●

وعرفت من عبد الحميد أفندي معنى التعب ..

صباح مساء ، وعيناه زائفتان ، ويده لا تكمان عن التعب في حمامة
وقسوة ويأس ، والعرق يتصبب منه فيفسلنا ، وأنفاسه تثبت ، وحسده
المترهل يكتم أنفاسي ..

كان ما بيننا يرهقني ، أكثر من إرهاق الكس والمسخ والفسيل .. وإعداد
الطعام .

لم يكن حيا ، إنما هو عمل مضن شاق ، أتلغ أعصابي ، أتلغ جسمي
وحسرتي على شبابي ، وعلى مهجة الحب التي أفتقدتها ، كنت أصارع جسدا
محطما . جسدا لا خرفيه . فأنكر عروشي وفرجه وضحكاته وعيذه الماكروحين
وحركاته القوية ، وأذكر مدحت وقدرته وشبابه ، هاندب حظي حرمت نفسي

من الشبايب ، وحرمت الشبايب مني ، وبددت كل شيء .. ضيعت جمال
ويعشرت عواطفني ..

مأليمة هذا الذي لنا فيه ، ما قيمة سيده بلا سيد ، امرأة بلا رجل ..
صاحبة بيت ، وصاحب البيت عاجز يعلن كل يوم هزيمته وعجزه .

كان يوسف قد اعتاد المبيت في الخارج بحجة أنه يذاكر مع صديق له ، فلم
يعد هناك ما أخشاه ، كنت أحصل على راحتي الوحيدة وأنا مطمئنة ، حين
يهذا عبد الحميد ، فينام ويرتفع شخصه ، عندئذ أنزع رأسي على الوسادة
وأحاول أن أستريح ولنا إنم إلا بصعوبة ، لم أعد أعرف طعم النوم ، عرفت
طعم الموت من التعب .

وعندما أفتح عيني في الصباح أفرغ من منظر عبد الحميد ، جثة ميتة ،
مستقرم من مرقدها بعد قليل لتفرض على الموت الذي ينهشها .. ولتحاول يائسة
أن تمسح الحياة والشبايب الذي يمزقني .

كنت أسرع بمفكرة الحجرة ، وأذهب إلى حجرة يوسف لأعلمن إلى أنه لم
يعد في الليل .

وفوجئت بيوسف يرقد في سريره صباح يوم ..

كنت أنتظر مثل هذا اليوم ، حين يعود في الليل ، ولا يراني راقدة في حجرة
الطعام ليخبرني أنني أنام في حجرة أبيه .. ليدرك العلاقة التي بيننا وتوقعات أن
يؤثر على أبيه ، وأن يؤثر أبوه عليه ، ثم يستسلم يوسف ، وأتصر أنا ..

وحاولت أن أضبط أعصابي فذهبت إلى المطبخ ، وشرفت في إعداد طعام
الافطار ، وأستيقظ عبد الحميد فجاء يطاردني في المطبخ ، قلت له وأنا أدفعه
عنّي :

- بيوسف جوه ..

فهمس في قلق .

- جه امتي ..

قلت له :

- ما أعرفش .. أنا صحيت لقيته نايم في السرير

وتبادلنا النظرات .

سألتني عيتاه .. ما رأيك .. هل عرف .

وأجابته عيتاي .. طبعاً .. لا بد أنه عرف .

وتركتني فجأة ، وذهب إلى حجرته وأغلق بابها عليه ، وظل محتجباً حتى استيقظ يوسف ، فوضعت الأططار على المائدة ، ولقت ليوسف وكان خارجاً من الحمام .

« صباح الخير .. للفطور جاهز .

فأطرق برأسه وقال في صوت مضطرب :

« سعيد صباحك ..

ومشي خطوتين ، ثم وقف واستدار ناحيتي ، وسألتني في ارتباك :

« هو بابا لسة نايح ..

قلت له :

« لا .. صاهي في أودته .

فقال ووجهه حزين ، وصوته يرتعش :

« أقدر ادخل له ..

والسعت عيتاه فجأة ، كأنه أحس بسفافة سؤاله ، وأسرع دون أن ينتظر

إجابتي إلى حجرة أبيه .

أيقنت أنه يعرف .

ففسحه سؤاله ، ما الذي يجعله يتردد في الدخول على أبيه ، ليست هذه

عادته ، ما الذي جعله يستأذني أنا في الدخول ، إنه يعلم ، يعلم أنني شريكة

أبيه في حجرته ، في سريره .

وقفت برهة لا أدري ماذا أفعل ، ثم تقدمت ناحية الحجره ، وكان بابها

مفتوحاً ، ووقفت استمراق السمع .

كان عبد الحميد أفندي يقوم بدور المريض ، يشكو من الروماتزم ، ومن

صداع في رأسه ، وادعى أنه كاد يموت في الليل ، وقال في صوت مرتفع :

« البت مبروكه ماتمتش طول الليل . فضلت قاعدة على الأرض هنا لحد الصبح .

وبكت لجن ..

طار عقتي ، أوشكت أن ألتحم بالحجرة وأصبح فيه انه كذاب ، أعدد كل هذا يجين أمام ابته ويحدثه عنى كما لو كنت خادمة ، يقول له :

« البت مبروكه » يقول عنى أنا « البت .. البت مبروكه » ، أنا التي

يتوسل إليها ، أنا التي يبكي هزيمته على صدرها ، أنا التي يقبض أصابع

قدمها ، أنا التي أضربه على قفاه ، وأدفعه وأصرخ فيه ، « أبعد عنى خلاص

أنا زهقت منك » ، أنا التي يسلمها معاشه أول كل شهر ، ثمانية عشر جنيهها

وسبعة وثمانين قرشاً ومعلمين ، ويطلب منى أن أصرف كما أقاء ، اليس كما

أقضاء ، ويقول لى : « أنا همدنيش غيرك .. لا عندي ولد ولا أهل ولا حد في

الدنيا غيرك يلحبيلى » .

بعد هذا كله يتحدث عنى كخادمة يقول عنى « البت مبروكه .. كنت قاعدة

على الأرض » .

أضاع أملى ، لن يتزوجنى ، أظن أنه يضحك على .

التهبت رأسى وبكت أطلق صوتي عالياً ، لأجمع الجيران والناس في

الشوارع ، ولأمسك بعبد الحميد أفندي أشده من رقبتة وأطعمه أمامهم ..

ليشهدوا كذبه وتخديمت لى .

وجريت إلى المطبخ قبل أن أصرخ ، ووقفت وسطه كالجنونة ، أريد أن أحطم

أى شيء ، ثم ذهبت إلى الباب وفتحتة وخرجت إلى الشارع .

سرت على غير هدى ، أبحت عن مكان ليس فيه أحد ، لأبكي ، كانت راحتى

في الكياء . ولكنى لا أريد أن يرى دموى عبد الحميد أفندي أويوسف ، أو

الفلس ، لا أريد أهدأ يرانى في لحظة تعاسى . لقد مضت شهوياً وأنا أعامل

نفسى كسيدة . وإن يرونى إلا سيدة ، وسأظل سيدة رغم أنفهم جميعاً .

وصلت إلى الميدان ، ووقفت عند محطة الأتوبيس التي سقطت منها مع

عبد الحميد أفندي لأول مرة ، من هنا بدأت تعاسى . من هنا بدأت أخوص

المعركة ، وفكرت في أن أعود .. أعود إلى بيت راتب لأعيش خلفاًة أعود إلى قريتي لأعيش مع أمي أعود إلى أيام الماضي ، أعود إلى سني الكبيرة ، أعود إلى طفولتي التي نسيتها ، أعود إلى بطن أمي .

ومسحت الدموع من عيني ، إنني لا أستطيع للعودة ، كل ما تعرفه قدمائي هو الطريق إلى البيت ، الطريق إلى حجرة عبد الحميد القدي .

وتحركت قدمائي ، وعدت إلى البيت فلم أجده أحدا فيه ، لا يوسف ولا عبد الحميد القدي ، ففرغت ، دخلت أنهما هجرا البيت وإن يعودا إليهما ؛ خيلاً إن عبد الحميد أقمدني قد هرب مني قبل أن أقضحه أملك الناس وسيطر الخوف على قلبي ، وشاق البيت بي ، حاصرته جدرانها ، طردتني حجراته ، فالتكلمت على نفسي ، وأنزوت في ركن بالمطبخ ، علهزة عن التفكير ، لا أرى ولا أسمع والغياء يطن في رأسي .

لست أدري كم مضى من الوقت ، وأنا على هذه الحال ، حتى انتفضت على صوت عبد الحميد القدي يصيح

مبروكة .. مبروكة .

وقابلته عند باب المطبخ ، صباح

.. أنست خرجتي حين الصباح ؟

لم أفهم سؤاله ، كنت قد نسيت كل ما حدث في الصباح .

فقلت له في وجهم :

.. ولا حاجة ..

فنظر إلني دهشة وقال :

.. مالك .. وشك متغير كده ليه

رددت في غيغ لهم :

.. ولا حاجة .

فأمسك بيدي واحتضنني .. وقبل في نهيم ، واستسلمت له كالنائمة ، ثم

قلت فجأة وقد تذكرت :

.. خرجت علشان أزور سني الصغيرة .

فسألني متعجبا :

.. ليه ونيتهم ..

قلت وأنا أحاول أن أتذكر المزيد .

.. لا .. رجعت ثاني .

قال ضاحكا :

.. لازم معرفيش السكة .

وأخرج من جيبه ثلاثة جسيات ، مد يده بها فأخذتها منه في صمت

قال وهو يقبلي :

.. دول بتروح الدروس الخصوصية .. الامتحانات قريب ، روح ابدي

اشتغل .. اتفقت مع عيلة عندهم أربعة أولاد .. خدتهم مقاوله .. الحصه

بتلاتين قرش .

فلزمت الصمت ، كنت أفكر كيف أواجهه بغضبي ، لقد ضاعت فرصة

الثورة ، كل ما أشعر به الآن هو حزن طاع ، حزن أسود .

ولم أفتحه أبدا فيما حدث منه ، كلما مضى الوقت ، شعرت بصعوبة كبيرة

في أن أسأله لماذا تحدثت عني كخادمة أمام يوسف ، كنت أشعر أن مجرد

سؤاله فيه إهانة ونلة لي :

ولاحظ حزني ، فكان يسألني لماذا لا أضحك ، وما هي الهموم التي

تشغلني ، ولا ينتظر مني الإجابة ، كأنه لا يصدق أنني حزينة أو مهمومة ..

أو كأنه لا يعتني بهذا ، فليتمني باني مثل بقية شباب هذه الأيام ، قلبي عجوز

لا يعرف الضحك ، ويدق على صدره ، ويعلن في زهو أن قلبه هو الذي يعرف

الشباب والمرح ..

وشغلته الدروس الخصوصية ، فكان يخرج عسر كل يوم ولا يعود حتى

التاسعة أو العاشرة مساء ، يدخل البيت وهو ليث ، ويجلس على أقرب مقعد

من الباب حتى يسترد أنفاسه ، ثم يتباهى بالمساعات الطويلة التي قطعها

مشياً على قدميه ، ليحرك عضلاته ، وليثبت لنفسه أوليئته ل أنه مازال شاباً

قوياً .

واستمرت لخروجه ، فلم يعد يطارئني كل ساعة وكل دقيقة . وكنت أخلو نفسي وهو غائب عن البيت أفكر فيما سنتاني به الأيام فلا أصل إلى نتيجة . وأحاول أن أدبر أمرى وأحتار فيما يجب أن أقدم عليه حتى يتزوجني .

إس واثقة من حبه لي ، إنه عبد لي .. ولو طلبت منه أي شيء فسيفعله لي فوراً ، فهل أقول له صراحة أن يتزوجني .. هذا هو المطلب الوحيد الذي أخشى أن أطلق به ..

وحدث أن دخل عبد الحميد أفندي البيت مكرراً على غير عادته بعد غروب الشمس بقليل ، وسألني عن يوسف فقلت له إنه كعادته يذكر مع أصحابه فدخل حجرته وأخذ كتاب بطونج ثم أتجه إلى باب الخروج .

سألته عن غضب

- أنت وبيع فين ؟

فقال .

- على القهوة ..

صحت فيه :

- وح تسيني لوحدي ؟ ..

فانهار في الصال ، وأحمر وجهه وقال معتزلاً وفي صوته خوف .

- أبدا يا حبيبتي .. أنا بس بقالي مده مرحتش لهم ..

قلت له في نوم .

- ما أنت بقى معاك فلوس .. عايز تفنجر بيها لوحدي .

فأسرع إلى وقف أمامي متوسلاً

- أنا موش باديك كل مليم يوصلني . الجنبه إلى في جيبى وأخذه منك .

كده وإلا ؟

ولم أترجع ، لم أرحم توسلاته ، صحت في حدة :

- وأخذه علشان تنفصح لوحدي .

فنظر إلى في دهشة وقال

- طيب ما تلعيش .. أقعد في البيت .. بلاش أخرج .

قلت :

- وليه ما تقسحنيش أنا كمان ؟

فارتبك ، وارتبكت أنا أيضاً ، فعلى الرغم من أحلامي الكثيرة عن الزواج به ، وأن أكون سيدة هذا البيت ، لم يخاطبني مرة واحدة أن أحلم بالخروج معه للفسحة .. لقد عشت طوال هذه السنوات لا أعرف ما هي الفسحة ، كان الخروج من بيت راتب بك عملية خطيرة ، معريات الجيش الانجليزى لا تتقطع عن المرور في الشوارع ، والغارات كانت تغلحنا بين ليلة وأخرى ، وكان مدحت يتحدث عن السيمتا والأفلام ، ولكني لم أذهب إليها أبداً ، ولم أطلب من أحد أن يأخذني إليها ، لأنني كنت في قرارة نفسي خائفة منها ، كانت مرتبطة في خيالي بالظلام والأشباح والعفاريات والخروج في الليل الممالك الذي تولول فيه صفارات الإنذار ، ثم العساكر الانجليزى السكارى الذين يملأون الشوارع ويمتدنون أعلى البنايات .. فلم أذهب أبداً إلى السيمتا .

وكانت الغارات قد انقطعت قبل أن أترك بيت راتب بك ، وإن ظلت الشوارع مظلمة ، والراديو مازال يذيع أخبار الحرب ، والعساكر الانجليزى مازالوا يطوفون بالشوارع في الليل ، وكنت أسمعهم بعد منتصف الليل وهم يفتنون ويتصالحون في شوارع الليلي غارتمد خوفاً ، وأدعو الله أن ينجيني منهم .. والفتيت من أحلامي الخروج للفسحة .

قال عبد الحميد أفندي مستسلماً :

- تعالى يامشي افسحك .. تحبى تروى فين ؟

قلت له :

- أنا عارفة ..

ثم قلت فجأة . وكنتي أتحداه واتحدى نفسي

- ودينى للسيمتا .

فايتصم وقال :

- حافى .. غالى والمطلب رخيص ستراند فتمت حنبا من يومين .

الفصل الخامس

ذات مساء .. دخل يوسف البيت وأنا جالسة مع عبد الحميد أفندي على مائدة الطعام نتناول عشاءنا ، فلم يلتفت إلينا ، ومضى مسرعاً إلى حجرته وفتح بابها بمنفذ ..

وسألني عبد الحميد في قلق :

.. الولد ماله ؟

أدركت أن يوسف غاضب من جلوسى على المائدة مع أبيه ، فرفض أن يجيئنا ، وتجاهلنا ممبراً عن احتجاجه .. ولكنى لم أكثرث لغضبه ، وصممت على أن أواجهه ، وليكن ما يكون .. لن أتنازل عن حقوقى التى اكتسبتها ، وإن أرفض أن يعاملنى وكأننى ما زلت خادمة .. بعد كل ما صار بينى وبين أبيه .. ونهض عبد الحميد أفندي قائلاً لي انفعلى :

.. أنا رايح أشوفه .. أراى يدخل كده من غير ما يسلم على ..

وخرج من حجرة الطعام ، ورايته يلتفت إلى ناحية الباب الخارجى ويسرع إليه ، ثم سمعت صوتاً عالياً يمالأ فى قلق :

.. إيه .. فيه حلجة .. عايز مين ؟

والجابه صوت لجش :

قلت له في غير فهم :

.. ستراند دى أيه كمان ؟

فقال ..

.. سيما صيفى .. ح تشولى فيها غيلمين ..

وسألته محاولة سترخوى

.. ودى بيخشها عساكر انجليز ؟ فضحك قائلاً وقد تلخ صدره :

.. ماتخافيش .. معاليا ..

قلت له وأنا أريد أن أذكه وأسخر منه ..

.. ح تقدر تعمل إيه قدام العسكرية الإنجليزي ..

فلوح بلقبضة يده ، وقد احتقن وجهه ، وهتف ..

.. أنا أضرب عشرة زيه .. أنت مملكى صبح ..

فماطلت فمكة عالية وهتلت ساخرة ..

.. لا .. ياشيخ ..

وذهبنا إلى السينما ، لم أقهم منها شيئاً ، ولا زمنى الخوف أغلب الوقت ، وكانت عيناى تدوران فى قلق وراء كل عسكري إنجليزى يتحرك داخل السينما ، وحاول عبد الحميد أفندي أن يشرح لى الخليم غيدخل كلامه فى لاذنى اليمين ليخرج من لاذنى الشمال ، ومع ذلك كنت مصرودة .. ولا أريد أن لفروج من السينما ..

وقلت لعبد الحميد أفندي ونحن عائدان إلى البيت :

.. أنا عايزه أشوف ليلي مراد ..

فقال لى ..

.. حاضر ..

ثم أوقف قائلاً :

.. المرة الجاية أوديكي فيلم عربى ..

وأحسست أنه مسرور أيضاً ، لأنه ذهب إلى السينما معى .. فنظرت إليه فى حنان كبير ..

- أنا جاي مع الأندى .

سمعت الصوت في دفشة . وقمت على صباح عبد الحميد الأندى :

- ليه .. هو عمل إيه ؟

ولجاب الصوت :

- حضرة المأمور باعتنى معاه ..

ووصلت إلى الباب ، لأرى شرطياً يقف خارجه ، وعبد الحميد الأندى يستأجل

- عايزه ليه ؟

فاجاب الشرطى :

- والله ما أعرفش ..

صمت في دهر :

- إيه اللي حصل ؟

ولكن عبد الحميد الأندى لم يسمعنى ، ودفعنى بيده ، وأسرع إل حجرة يوسف .. فتبعته ..

كان يوسف يقلب أوراقه وكتبه ، وقد يمشى على السرير .. فسأله عبد الحميد الأندى في خوف :

- إيه يا أبني اللي حصل ؟

- ولا حاجة يا بابا .. عايزين بطاقة الجامعة ..

فنهت :

- انت عملت إيه ؟

فصاح يوسف في عصبية :

- بأقول لك ما عشتش حاجة .. المأمور عايز يشوف البطاقة ويخلص ..

فصاح عبد الحميد الأندى

- وعايز يشوفها ليه ؟

- مزاجهم كده ..

قال عبد الحميد الأندى في غضب :

- انت مخبي حاجة .. أنا جاي معاك ..

وأسرع إل حجرتي .. فتبعته .. وساعدت على ارتداء ملابسه ، وهو يتمتم

في دعول :

- مصيبة .. مصيبة يا مبروك ..

وخرج الاثنان مع الشرطى ، وتركاني وحدى افكر في هذه المصيبة

المفاجئة ..

توقعت انهم سيلقون بيوسف في السجن ، وحاولت ان أحد سبياً للقبض عليه .. فالتحرت .. هل مرق ، هل قتل .. مستحيل ان يفعل يوسف هذا .. إذن

لماذا قبضوا عليه ؟

ورفعت صوتى في البيت الخالى :

- ربنا يتجيه .. ربنا ينصره على من يهاديه ..

وسالت نفسى فجأة : هل كنت أشي بيوسف واتهمه ظلماً أو اعترض على

زواجى من إبيه ، هل كنت ألق له تهمة لتقبض عليه الشرطة ، ويلقوا به في

السجن .. فاتخلص منه ؟

وفسألتنى أن هذا السؤال طاف بخاطرى ..

قلت : مستحيل .. هذا حرام .. لا يمكن أن أظلم أحداً .. لا يمكننى أن

أظلم يوسف ..

وهمس في داخلى صوت خبيث : انتزعة يا مبروك لانهم قبضوا عليه ،

لانهم خلصوك منه .. الآن سيفلوك الجوهر ، ستفردين بعبد الحميد

الأندى ، وإن تكون هناك علة تعترض زواجك به .. ستأخذين مكان يوسف ،

ستسعين زوجته وابنته وكل شيء في حيت ..

ودخلت حجرة يوسف ، وجلست على سريره ، أنظر إلى الأوراق والكتب

المبعثرة عليه .. وقلت لنفسى : سأبام على هذا السرير ، وستكون هذه الحجرة

لى .. وفكرت كم من الوقت يجب أن انتظر حتى أستطيع أن أجمع ملابس

يوسف وكتبه ، وأعد الحجرة لى ، دون أن أثير غضب عبد الحميد الأندى

وأحزانه ..

كنت أفكر كما لو كان يوسف قد مات ، وبدأت أعد نفسي لاستقبال
عبد الحميد أفندي عند عودته ، واختار الكلمات التي سأقولها لأرأسه ،
وكنت أشعر بقلق كبير في قدرتي على تخليصه من أحزانه ، وألا أتركه يتفجع
وراءها ويستسلم لها ، كنت أن أسمع لأحزانه بأن تقصد مضاربي في
الزواج ، أو تزولها .
وفتح الباب ..

وإذا بعبد الحميد أفندي يدخل وراءه يوسف .. نظرت إليه وكأنه شبح ،
ولكني فرحت .. فرحت من قلمي لمعودته ، وفرحت لأن أفكارى الخبيثة لم
تضعني من الفرح عند رؤيته ..

وجريت نحو يوسف ، وكدت أعانته وأقبله ، وشعرت نحوه بجنين جارف
وكانه أخى ، أو ابني ، وقتل له وأنا أرسل له القبلات من عيني .
- حمد الله على سلامتك .. والله أنا انفضيت .. وكنت قاعدة موش على
بعضي ..

ألك في أرتباك :

- ما أنا قلت ما فيش حاجة .. كانوا عابزين يشولوا البطاقة .. وأهم
شافوها وخلص ..

وكان عبد الحميد أفندي محبب الوجه ، يكتم ثيرة تحتمل في صدره ..
نظر عبد الحميد أفندي ناحية حجرة يوسف ، ثم تقدم إليها مندفعاً كأنه
يهاجمها ، وتبعته أنا ويوسف .. وأسعد عبد الحميد أفندي بالأوراق والكتب
التي في الحجرة ، وجعل يقرأ فيها .. ثم صاح صيحة مدوية ، جعلت قلبي
يقفز فيلطم بشلوعى :
- إيه اللي كاتبه ده ..

نظرت إلى الأوراق التي في يد عبد الحميد أفندي في خوف كأنه يسك
بشعبان سام ، مله فحاة من مخبئه .. لم أكن أتوقع أن أجد جريمة بين هذه
الأوراق ، التي كنت أجلس إلى جوارها منذ لحظت ..
واقترب يوسف من أبيه ، ونظر إلى الورق ، ثم هس :

- دى قصة ..

وقرأ عبد الحميد أفندي :

- للحب الأول ..

والتقت إلى يوسف ، ويده ترتعش ، وشفتاه ترتعشان ، وجسمه
يتنفض .. وصرخ :

- حضرتك بتكتب قصص جوب .. يعنى ما ذا كرتش .. يعنى كنت بتلعب
طول السنة ..

وأم أتابع كلامه .. تذكرت سعاد ويوسف يقف معها في السطوح .. تذكرت
ساعة المغرب وهو يقبلها في خجل ، ثم يفرقان في صمت طويل .. تذكرت يوم
جاء في الصباح بعد أن خطبها الدكتور ، كان يوها يريد أن يقول شيئاً .. كان
يريد أن يقول لها تلى جيني أنا .. انتظرتني حتى أحصل على الشهادة ، ولكنه
سكت ولم يقل شيئاً ..

أيقنت أنه ما زال يحب سعاد ، وأشفقت عليه .. قلت لنفسى : إنه هيبط ..
وتمنت لو قرأ عبد الحميد أفندي ما كتبه يوسف بصوت عالٍ ، حتى أعرف
ماذا يقول عن سعاد ، وكيف يكرهها ..

ولكنه التى بالأوراق على الأرض .. واستمر يلخص الأوراق الأخرى ،
وهو يصيح بين لحظة وأخرى :

- دى قصة كمان .. والله عال ..

واشتت عجاج عبد الحميد أفندي .. فوقف وسط الحجرة ، وقد أصبح
وجهه بلون الدم ، وعيناه جاحظتان .. وربع صوته قائلاً وهو يذيق بقشه على
الأرض :

- والله العظيم ثلاثة .. لوسقطت في الامتحان ، لأنا طاردك من البيت
لا انت ابني .. ولا أنا أعرفه ..

وذهب إلى حجرته .. فساعته على خلع سلابه .. وردد على العمير وهو
ينفض ، وأنا أحاول أن أسرى عنه . وقد شعرت بأن من واجبي أن أعطيه
حناني ساعة تعافسته ..

منذ تلك الليلة ، لزم يوسف البيت ، وحبس نفسه داخل حجرته .. وكان إذا غادرها ، يرانى مع أبيه ، اجلس إلى جانبى وأصمت معي ، واتصرف كلنى زوجتي . ولابد أنه فهم كل شيء ، إذا لم يكن قد فهم من قبل .. ونجح يوسف في الامتحان ، مكنت اشدعهم فرحاً .. اما يوسف فلم يبد عليه أى اهتمام بالشهادة التى حصل عليها .. وكذلك عبد الحميد أنتدى ، كان ينتهد في أمى ويقول لى شارحاً :

- نجح مقبول .. يعنى موش ح يتوظف في النيابة ..
قلت له :

- وليه ما يتوظفهش .. هم عايزين إيه أكثر من الشهادة ..
فقال في ضيق :

- لازم يكون ممتاز .. موش ينجح على الحركه .. ده نجاح زى قلته ..
قلت له في غير فهم :

- أنت ح تحبها ليه .. أهو نجح وخلاص .. ممتاز إيه ونيلة إيه ..
وجاء يوسف يطلب من أبيه جنيهاً ، فرفض أن يعطيه مليماً واحداً .. وقال له فاضياً :

- أنا عملت اللي علي .. لازم تشوف لك اية شغلة .. كنا ما الأدرش اصرف عليك .. عايز تعدد معايا تااكل وتشرب وتنام .. أهلاً وسهلاً ، إنما ادريك فلوس تتكسح بيها .. ما عنديش ..

ولكن عبد الحميد أنتدى كان يحاول جاهداً أن يسهل عن وظيفة ليوسف ، فكان يخرج كل صباح ويذهب إلى راتب بك في بيته ، ليحدثه عن مستقبل ابنه ويطلب منه وساطته ..

وأنهزت فرصة خروج عبد الحميد أنتدى ، وذهبت إلى يوسف في حجرته وأعطيته الجنيه الذي كان يطله ..

فمنظر إلى في دهشة ، ورفض أن يأخذ الجنيه ..
فقلت له :

- إيه .. مكسوف .. دى فلوس ابوك ..

ووضعت الجنيه على المنضدة .. ثم ضحكت وقلت له ..
والتيى تقرأ لي الحكاية اللي كتبتها .
فلاضطرب ، وتلعثم ، وهو يقول :

- عايزأتى أقرأها ليه ..
قلت له :

- اصل اسمها عاجبتنى .. الحب الاول ..
فقال في خجل :

- دى كلام فارغ ..

ورغم الحاحي الشديد ، لم استطع أن اتدع بقراءة القصة .. فتركته وأنا اتحسر على جهلي بالقراءة والكتابة .

كنا في الصيفز .. والدنيا حر .. فاحسست بالفحول يسرى في جسدى .. لم أهد نشيطة كما كنت ، أنظف نصف البيت واكسل عن تنظيف الباقي .. ولا أجد رغبة في دخول المطبخ ، أو عمل أى شيء .. فكنت أجلس على مقعد وأغفر ، ثم أفتق وأنشط قليلاً .. فيصحبني وبهم مفاجيء ، واضطر إلى دخول الحجرة والنوم على المريح ..

وبلغت أن سبب شعفى يكسل هو الجوع ، فاكثرت من الاكل .. وكنت بين ساعة وأخرى ، أدخل المطبخ وألثم أى شيء ، قطعة جبن أو حلالة طحينية وزيتون ، وأتوقع أن أصحر وأنشط ، ولكن الوبم يعاودنى .. واستيقظت صباح يوم ، فإذا بغثيان شديد يدهمنى .. فذهبت إلى الحمام وأقرغت ما في جوفى ، وعدت إلى السرير ونمت . وطوال اليوم والغثيان يعاودنى ، وأنا لا أدري ماذا حل بى . وعرض على عبد الحميد أن يصحبني إلى طبيب ليكشف عني ، ولكنى رفضت وقلت له :

- شوية يرد .. بكرة حبرجوا ..

ولكن المرض لازمنى .. وفكرت أن أذهب إلى الطبيب .. لولا خاطر خفى كان يحدوني رأسى ويلغز عني ..

قررت أن أنتظر حتى نهاية الشهر ، لأتأكد أن ما خطرتي غير صحيح ..

ومرت الأيام وأنا انتظر وانتظر .. ثم أيقنت أن ما تريهته كان صحيحاً وأن
 فزعى حقيقى .. فانا لست مريضة .. أنا حامل ..
 لزمت الفراش .. وأنا أتمنى لو أموت عليه .. حتى أتخلص من فضيحتى ..
 كنت خائفة من نفسى .. خائفة من أمى .. خائفة من عبد الحميد أفندى ..
 خائفة من هذا الذى فى بطنى ، حكم على الزمن بأن أحمل فى الحرام ..
 وكار خوف الأكبر من الله .. أنه ينظر لى؟ أينما تلت لا أرى سوى رهيته
 وغضبه .. فأنكمش فى فراشى وأغمض عيني ، وأتمنى لو أغمضتهما إلى
 الأبد .. وأسى كل شيء ..
 وانتظرت حتى جاء الليل ، ووقد عبد الحميد أفندى إلى جاني ، وقد لفقا
 النور ، وقد يده يريدى .. فهمست :
 - أنا عايزة أقول لك حاجة ..
 قال وهو يطوفنى :
 - إيه .. ياروحى ..
 - أنا باين على حامل يا عبد الحميد ..
 فسحب يده كاتنى شككتها بذبوس ..
 - إيه .. إزاي ..
 وقال يستجربنى ، ويتشكك فيها أقوله .. ثم نهض من على السرير ،
 وأضاء نور الغرفة .. ووقف محملاً والقباء يطل من هيئته ..
 وبكى ..
 وانهمرت الدموع من عيني ، فمسح وجهى ، وأنا أستكر منها المزيد فلما
 تفصل فضيحتى .. وحاول أن يهدئنى :
 ما تخافيش يا مبروكة .. أنا حاضوف بكرة دكتور يخلصك منه ..
 - أعمل معروف .. أستر فضيحتى .. إن شاء الله أصوت .. بس بلاش
 أنفضح ..
 وفى الصباح خرج ، فترقعت أنه سيعود لياخذنى إلى الطبيب .. ودهمتى
 الأحكار السوداء ، وفكرت أن أذهب إلى يوسف وأخبره .. كنت أشعر أنه أعقل

من إبيه .. وأنا قد ساعدتني فى مصيبتى ... ولكنى ترددت ، وخشيت أن أروح
 له بسرى ..
 وعاد عبد الحميد أفندى ساعة الظهر ، وقال لى وهو يخلع ملابسه :
 - هيه .. عسلتى إيه ؟
 قلت له :
 - أنت اللي عسلت إيه ؟
 فسكت برهة ، ثم قال فى حمية :
 - ما عسلتش حاجة .. رحت القهوة .. فيه هناك الدكتور ببيجى بعض
 ساعات ..
 وسكت ..
 - وكلمته ؟
 - لا .. حاجاش النهاردة ..
 وكنت أقول له :
 - بلاش تكلمه .. تتجوز أحسن ..
 كنت فى موقف يسمح لى بأن أطلب منه الزواج ، ولكنى خلت أن يرفض ..
 ولم أكن أستطيع أن أتحمل الرفض .. ومنذ تلك اللحظة خيمت الأفكارى ..
 لم أعد أريد التخلص من حملى .. كنت أول الأمر أنظر إليه كشيء حرام ،
 فأنفست وراء فكرة الخلاص منه ... أما الآن ، فانا أريد أن أعرف كيف
 سيصرف عبد الحميد أفندى .. أريد أن أعرف لماذا لم يعرض على الزواج ..
 ، ومرة الأيام ، وعبد الحميد يذهب إلى المقهى ، ويعود إلى ليقول إنه لم يجد
 الطبيب الذى يعرفه .. وكنت أستريح لكلامه ، وأطمئن لأنه لم يفكر فى الذهاب
 إلى طبيب آخر .. إنه متردد ، لابد أنه يفكر فى الزواج ..
 وزاد أطمئنتى عندما عاد من المقهى وقال لى :
 - يا مبروكة .. الدكتور جه النهاردة ، وكنت عايز أكلمه .. ولكن
 ما قدرتش ..
 قلت له وأنا أكتف فرحى :

- فزقر الهواء من رثتيه وقال
- ح اقول له إيه .. فكرت أقول له إن الحكاية دي بتاعة واحد صلحيي ، لكنني برفضه ما قدرتش انكسفت
- فسألته في لهجة :
- يعني ح اعمل إيه ح تسييني كده فأتطرق في وجوم ..
- وكانت فرصتي التي انتظرها أحسن حاجة .. تتجوزني .
- ظل مطرقاً براسه .. فصمت فيه .
- إيه .. موش عايز تتجوزني ؟
- فرفع راسه ، فראيت حجرته .. وانطلقت القول في حدة :
- أنا موش رايحه ليدكتور .. ماسيوش يموتني .. اللي في بطني منه .. ولازم تشوف خلاصك فيه ..
- ورفعت صوتي .
- والله إن ما أتجوزتنيش ، لانا رايحه لراتب بك وقايلاله .. ح لكضحك في العالم ده كله .. أنا مايمهنيش ويمصل الي يحصل ..
- قال وكأنه يحدث نفسه .
- يا مبروكة .. اعملي معروف .. تكايه الي احنا فيه .
- أحسست أنه يراوغني . ويتظاهر بأنه مهموم ، حتى اكف عنه .
- فزعلت :
- ح تتجوزني واللا ؟
- قال في استسلام اليأس
- طيب .. طيب .. بس اديني فرصة ..
- قلت في غل :

- وفرصة دي تبقى إيه .. ياسي عبد الحميد
- كنت اشريرة هائلة ، تجعطني قدرة على اغتراسه ، عل اكله باسناني .
- على مضغ لحمه العجوز ..
- انذرتني بانني سأخرج من البيت في الحال ، لأفضحه في هذه الساعة ، سأذهب إلى قسم الشرطة وأحكي لهم ما فعله في ، إذا لم يرض بالزواج مني فوراً .
- وهمت ناحية الباب ، فجري خلفي ، ولون وجهه أرتق كزهرة الغسيل .
- وقال لي في ارتياح :
- خلاص .. ح إتجوزك .. أنا ماقلتش حاجة ..
- قلت في لهجة أميرة :
- روح هات الماكرون ..
- فقال لي وجل :
- حاضر .. حاضر .. بس رواقى شويه ..
- وفي هذه اللحظة ، دارمفتاح الباب ، ودخل يوسف .. والف برهة ينظر إلينا بمعينين متساكتين ، أحس أن هناك شيئاً ما ، فقد قابله في وجوم ، وقد ران علينا صمت مريب ..
- وذهب يوسف إلى حجرته ، تتبعته نظرات عبد الحميد الخدي ثم نظر إلى مستقعداً
- إيه .. خايف من إيه ..
- قال متوسلاً بصوت خفيض :
- يا مبروكة .. بلاش الكلام ده دلوقت .. ما خلاص ..
- قاطعته :
- إن كنت خايف منه ..
- قاتل ماسياً :
- بس رواقى .. ريمتا يهديكي ..
- ثم قال في صوت يكاد لا يسمع :

- موش لازم اكلمه ؟

- ما تكلمه .

- فجعل يوز رأسه في حركة عصبية ، ويكرر كالمذموم .

- حاضر . حاضر . حاضر .

ومشى مترنماً إلى مقعد وجلس عليه وقد شحب وجهه وقال وهو يلهث :

- أنا ح أموت ..

ورفع إلى عينين فيهما استعطاف .. وقال :

- سيبيني استريح .. أنا موش قادر أخدم نفسي ..

وانزعجت عليه ، شعرت أنه صادق في استعطافه .. وانتجني حنان

مفاجيء وخوف على حياته ..

- أحبيب لك كناية ميه ..

فقال وهو يلهث :

- لا .. أنا عايز استريح ..

ثم نهض واتجه مترنماً نحو غرفته ، فامسكت به خشية أن يقع حتى

أوقدته على السرير ..

وبقيت إلى جواره بقية النهار ، أحتر عليه ، حتى عدا واستراح . ولما جاء

الليل جلست إلى جواره في السرير ، فحسك وترددت أن تطرق موضوع

الزواج ..

وفي الصباح قلت له :

- يوسف ييليس وخارج .. موش ج تقوله ..

فسمكت برهة ثم قال لي بهاء :

- طيب .. اندهي له ..

وذعبت إلى الباب فاستوقفتني قائلاً :

- اسمعي .. معاكى خمسة جنيه ؟

- عايزها ليه ..

قال وهو شارب :

- ادعيا له .

- قلت مرحية :

- من عيني ..

وأعطيتها النقود ، فترسعتها إلى جانبه تحت الوسادة .. ودخلت مع يوسف

على أبيه ، وأتانا متحفرة للهجوم على الأب لو تراجع . وعلى الابن لو اعترض .

ولكن عبد الحميد أقننى فاجأني قائلاً

- سيبينا لوحشنا يا مبروك ..

فنظرت إليه نظرة طويلة ، فهمتها .. قلت له بعيني إنني لن أسكت لو

تخايل ..

ووقفت خارج الباب .. فإذا بيوسف يغلغه .. وضمت دقات طويلة وأنا

لا أسمع شيئاً .. ثم ارتفع صوت يوسف ثائراً .. وطراقت أذني كلمات

هائرة . مستحيل يا بابا ، أنت بتخرف .. أنا أموتها .. وتروح في ستين

داهية ..

ولوشكت أن ألتحم الغرفة ، لأكيل له الشنائم .. وقبل أن تمتد يدي إلى

الباب .. انفتح ، ورايت يوسف يتدفق منه يكاد يرتطم بي ..

صحت فيه بأعلى صوتي :

- بتقول إيه ياسي يوسف .. عايز تسوتني .. أنا اللي ح أوديك أنت وأبوك في

ستين داهية ..

ولطمت على وجهي ، ومزلت شعري ببدي ، وأنا أصرخ بأعلى صوتي في

جنون ..

- يا دهوتي .. يا مصيبي .. تعالوا شوفوا اللي جرى ..

وقف يوسف مشتمراً ينظر إلي في فزع ، ثم جرى إلى باب الشقة وخرج

منه ، بعد أن صفقه وزاد صفقة مدوية .

1



خرج يوسف غاضباً في الصباح وجاء الماذون في العصر ليعقد الزواج
جلسنا إلى مائدة الطعام ، وقد وضع الماذون دفتره أمامه ، وجلس
عبد الحميد لفندي عن يمينه ، وأنا عن شماله ، ووقف إلى جانبنا إبراهيم
البواب ، وقريب له ، ناداهما عبد الحميد الفندي ليكرنا شاهدي العقد .
كان الجو كثيباً ، يختلف تماماً عن جو الفرح يوم زواج سعاد بنت راتب
بك ، لا مدعوين ، ولا أكواب شربات ولا ضجة ، ولا فرحة ، وإنما وجوم
وتوتر ، وإبراهيم البواب وقريبه ينظران إلينا في جمود يعلم الله وحده ماذا
يفعلان وراءه ، وماذا يقولان عنى أو ماذا يقولان عن عبد الحميد الفندي .
وكان الماذون رجلاً عجوزاً ضعيف السمع ، يسأل في فثالة وإلحاح عن
كل شيء ، كانت أسئلته تقتحمنا في غير رحمة فيجيبه عبد الحميد الفندي
بهمس مرتبكا ، كأنه يهمس إلى نفسه محاولاً ألا يسمعه أحد ، ولكن الماذون
كان يلح عليه ، ويكرر السؤال ، ويطلب منه أن يرفع صوته ، ويتشكك في
الإجابة ، ثم يزعق بصوت يخرق لاذننا مردداً ما كان عبد الحميد الفندي
يتمنى ألا يسمعه أحد .

زعم الماذون معلناً أن عمر عبد الحميد واحد وستون عاماً ، وأنه أرمل وأنه
على المعاشي ، وكان عبد الحميد ينتفض لسماع هذه الحقائق ، وتضطرب

نظراته ، وترتشف شفتاه . كأنه يتلقى صفعات قاسية لا يستطيع أن يتفادها

وساكنت الماذون عدة أسئلة جعلت قلبى يرقق ورأسى يدور . كانت أسئلته كالإتهام ، كالسباب ، كالأمانة .

وأجبت وأنا أكذب إنى مارلت بكراً ثم نظرت إلى إبراهيم القواب وإلى قريبه ، فصدمتنى عيونهما الجامدة كالخائض السميك ، وصاح الماذون فى لحظة يسألنى عن عمرى .. فتلعثمت وعجزت عن الكلام ، فقال له عبد الحميد إن عمرى تسعة عشر عاماً .. فنظر إلى الماذون فى شك ، وتقرس ، بعيني وقحة فى صدرى وجسدى ليتأكد أنى بلغت سن الزواج .

كثنت لحظات قاسية مرت بى ككلايوس . فلما تم كل شيء وانصرف الجميع . شعرت بإرهاق شديد ، ولم أشعر برغبة فى الكلام . لرحنى فى رؤية عبد الحميد . وكان هو الآخر بعيداً عني ، شارد أصامتاً ، كنا وكأننا ارتكبنا ذنباً لا يغفر . وكأننا نخشى أن يكون الماذون مازال مستبئاً فى البيت يتجسس علينا . ويبتظر منا كلمة نفعلها ، ليعلمنا موقفة .. ويسجلها فى دفتره .

وقام عبد الحميد ونهب متثاقلاً إلى حجرته ، وتركنى وحدى ، حاولت أن أنفض وألحق به ، ولكنى شعرت بفجئ مفاجئ نحوه ، تحول إلى رجل غريب عني ، تحول إلى إنسان آخر لا أعرفه وأحسست أنى قد تحولت أيضاً وأصبحت غريبة من نفسى ، لم أعد مبروكة ، ولم يعد هو عبد الحميد .

مبروكة التى كنت أعرفها . كان فى صدرها ، صوت يتحدث ويهمس بلا انقطاع ، وكان هذا الصوت يهركنى ويدفعنى إلى ما أريد . كأن ينصمنى ويشجعنى ، وهو الذى ساعدنى على أن أصل إلى ما وصلت إليه بالزواج من عبد الحميد أفندى .

والآن .. افنتد هذا الصوت ، إنه لا يحدثنى بشيء ، تحلى عني . ليس فى صدرى سوى صمت وفراغ وكآبة . ليس فى صدرى سر . ليس فى صدرى رغبة ما . أنا الآن فى موقف جديد لا أدرى عنه شيئاً ، أنا الآن بلا ماضى ذهبى مبروكة الخادمة ، اختفت . بأمانيتها وأحلامها وطموحها ، لم يبق سوى هذا

الجسد الرقيق . للحائر الذى لا يعرف كيف يواجه اللحظات القادمة .. وعبد الحميد .. ليس هو الآخر فى موقف جديد ؟ لقد فقد هو الآخر ذلك الحديث الخفى بينه وبين نفسه . عندما كان يظن أن علاقته بى هى عودة شبابه وحيويته . هى عودة فطامته أيام كان له شارب مفتول يقف عليه الصقر . أيام كان يستولى على المرأة ببرجولته ويفوز بها بلا وثيقة أو وعد .. لأنه أن هذا الحديث الذى كان يتعلم به نفسه قد اختفى الآن ووجد أنه فى موقف جديد لا يدرك عنه شيئاً .

أولطه عاد بذاكرته إلى زواجه الأول من أم يوسف . ولكنه يعلم جيداً أنى لست معها . وأنه لا يتوقع أن أموت وأتركه مثلاً فطمت هى . بل لعله يفكر فى أنه هو الذى سيموت ويتركنى أنا .. ممكن .. لقد كان هذا الزواج هو خاتمة فطامته . هو نهاية قهرامه من عودة الشباب .

فكرت أن أذهب إليه وأسأله إذا كان يريد شيئاً . فدرح ينسون أو قهوه ولكنى احترت . حتى هذا السؤال البسيط يركننى فى موقفى الجديد .. كنت أسأله من قبل كخادمة ، فكيف أسأله الآن كزوجة .

قلت لنفسى إنى لم أعمله كخادمة أبداً .. ومع ذلك لم اقتنع بهذا الكلام .. نعم كنت أعامله بكل حرى ، أصرخ فيه ، وأضجك معه ، وأسفر منه ، واتعداه وأعاندته ، وأنام فى سريره . إلا أنى أشعر الآن بعد أن عقد الماذون زواجنا ، إن ما فات غيرما أتافيه الآن . كنت خادمة ثائرة حتى لحظات قليلة . ثم أصبحت زوجة .. وأنا لا أعرف كيف تتكلم الزوجة كيف تضجك معه . وكيف تنور عليه وكيف تسأله ، إذا كان يريد فنجان قهوة .. لا أعرف .. لا أعرف .

وعلمت عن الذهاب إلى عبد الحميد وانتظرت حتى يبدأنى هو الكلام . فأعرف منه كيف يتحدث الزوج إلى زوجته . وكيف يتحدث الزوجة إلى زوجها وأريدت أن أتحرك فى البيت . وحتى هذا عجزت عنه . لو ذهبت إلى المطبخ فلتأ خالصة . ولو ذهبت إلى حجرته فكأنى أدعوه إلى ما لا أشعر به وحجرة

يوسف مغلقة أخشى الاقتراب منها ، وحجرة الطعام مليئة بأشباح المائون وإبراهيم الباب وقريبه .

وجلس في الصلاة اصارع هذا الخليط المتضارب من المشاعر والافتكار التي تدور في رأسي .. حتى سمعت صوت عبد الحميد يناديني ، فذهبت إليه . كان واقفا وسط الحجرة ، وقد خلع الجاكطة ومازال يرتدى القميص والبنطلون .

وسألني :

— أنتي فين ؟

قلت له وأنا أنتهد .

— قاعدة في الصلاة .

قال في غير ليفة وكأنه لا يميني ما أقول :

— قاعدة لوحده .. ما تهيش تقعدى معايا ليه ؟

سكت ، إذ بهتت عن شيء أقوله فلم أجد .. وقال وكأنه يحدث نفسه .

— عايزه تفرجى .. نتقسع ؟

فلم أقل شيئا ، كان كلامه بلامعنى ولا طعم ولا حماس ، ولم أكن أرغب في شيء . كنت متعبة ، أريد أن استريح وأهدأ ، لعل الفيلق من الدوامة التي أنا فيها ، لعل أجد صوتا في داخلي يحدثني ويحركني ويضمنني بما أقول أو أفعل .. كنت أريد أن أجد عقل . أريد أن أعثر على عقل جديد .. غير عقل مبركة الخادمة الذي هجرني منذ تم الزواج .. وقلت له :

— أنا تميانة .

فقال بسرعة :

— وأنا كمان ..

ثم عاد يقول ببطء :

— يوسف لسه مرجعش ؟

فلزمت الصمت ، كان سؤاله لصعب من أن أجيب عليه .. وسكت هو الآخر وكف عن السؤال .

في تلك الليلة . ليلة فريحي ، تمسشنا جينا أبيض ، ونمنا كأننا مريضان ضمهما سرير واحد .

وفي الصباح وجدنا غرفة يوسف كما هي ، فعلمنا أنه بات ليلته في الخارج ، فحب اللق في نفس عبد الحميد ، وبعد ساعة كإن قد ارتدى ملابسه وخرج يبحث عنه .

وعاد ليقول لي إنه وجده ، فسألته لماذا لم يات معي ، فقال في حزن .

— عايز يعيش لوحده .

لو كنت سمعت إجابته هذه قبل الزواج ، كنت لثرت وشتمت ، أو على الأقل كنت كنت غضبي ، ولكني استمعت إليه في حزن وقلت له والدم يفتريسي

— يعني موش عايزني ؟

فلوح بيده وقال :

— بكرة يعقل

فسألته في قلق ..

— لكن ح يعيش إزاي لوحده ؟

قال :

بيبات عند واحد صاحبه .

ثم قال بصوت يفيض لثمة

— النهاردة جال القهوة .. قلبى كين حاسس انه ح يفلت على هناك وصمت قليلا محاولا أن يستجمع قواه ثم قال وهو يلهث

— قعد معايا .. وعرف إن إحنا اتجوزنا خلاص . كين هادي .. ماقلش

حاجة

ثم سكت ، وأصابه شروخ

فسألته

ويهدين ؟

فقال يصعوبة :

— قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابا .

قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابا .

قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابا .

قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابا .

قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابا .

قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابا .

قلت له أيوه يا ابني .. واديتهاه . خدوا ومشى .

ثم عاد يقول وقد رفع صوته بحركة

— سألته .. أشعوك إراى يا ابني ؟ قال لى .. ابقى أجيك القهوة .

كانت كلماته تحدر فى كسكين حاد ينفرس فى لحمى . لم أتوقع أن يكون هذا إجلساني بعد انصارى على يوسف إنى أشعر وكأننى مهزومة مثله . وحاولت أن أقنع نفسى بأن ما حدث ليس لى يد فيه . وأن شيئاً أكبر منى ومنه . هو الذى دفعنى إلى الزواج من أبيه . وهو الذى طرده من بيته .

وداودتنى رغبة غامضة فى أن أسعى إلى مقابلة يوسف . أخرج من البيت وأفشيت عنه فى كل مكان حتى أعرش عليه . وعندما أجده أبكى أمامه . وأقول له انى لم أتعهد إلا إسامة إليه . وإنى أريد أن أعيش معه . وكل ما فعلته كان من أجل أن أتقرب منه . وأن أحطم هذا العاجز الذى كان بيننا . حاجز الخادم والسيد . أريد أن أعرف أن كل ما اتعده هو أن أتحدث معه . وأبادل أفكارى وعواطفى . وأستمع إليه . وأقول له . ونضحك معا . ونخرج معا ..

تخليلته وهو يستمع لى . وأنا أتكلم وأتكلم . أقول أشياء كثيرة لا أعرفها بوضوح . وأنطق بكلمات لا أستطيع تعديدها . فى غامضة فى نفسى . الشيء الواضح الوحيد . هو انى أجلس معه وأتكلم . وهو يستمع ثم يفهم ما أقوله ويفكر لى . ويضحك ولو لى خجل . ثم يعود معى إلى البيت . ونعيش معا .

وظللت هذه الرغبة فى لقاء يوسف تراودنى . والعديد بينى وبينه يشغل خيالى . حتى موت الأيام . فغنست كل شيء . وانصرفت عن التفكير فى يوسف . إذ زاد اهتمامى بهذا الشيء الذى بدأ يتحرك فى بطنى .. أصبح هو الشيء الحقيقى الوحيد فى حياتى الجديدة . شىء لا أتخيله . وإنما أشعر برفسك فى أعماقى . فانتظر فى شوق لحظة خروجه إلى الدنيا لأراه يعينى . وأسمع صراخه بأذنى وأعيش معه وله . لم ير بطنى بالحياة . وبخرجنى من هذا القفور الذى أعانيه فى علاقته مع عبد الحميد أقنذى .

لم أعد أفكر فى عبد الحميد أكثر مما أفكر فى غسل وجهى كل صباح ..

أصبحت حياتنا معا بلا انفعال . فتبادل كل يوم يضع كلمات لا معنى لها . ثم يخرج هو إلى المقهى . فلا يعطينى أنه خرج من البيت . أو دخل صفت الأيام وليس فى حياتى شيء مثير . سوى هذه اللفظة التى أنتظر بها أبى . حتى ارتكبت خطأ ندمت عليه .

فكرت فى وحدتى . أنى أريد أمى وكنت لم أراها منذ سنوات . عندما زارتنى فى بيت راتب . وأحضت معى النهار . فتركته أعذب الوقت جالسة القرفصاء بجوار خشبة الدجاج .. وكلما طلبت منى أن أجلس معها لتحدث . تعمدت أن أبعد أمانها مشغولة وكان حياة البيت ستتوقف لو تركت حمل لحظة واحدة . كنت أجد حرجاً فى الجلوس معها . ولا أريد أن يراى مدحت معها . وكنت أجد لذة خفية فى أن أعاملها وكأنى واحدة من أهل البيت . أقدم لها الطعام . وأعطيه بعض النقود . ثم أسأل نفسى ماذا تريد بعد كل هذا . اليس الأفضل لها ولى أن تعود إلى قريتها وتتركنى فى حالى ..

ولكنى الآن أشعر بوحشة شديدة إليها . أريد أن أراها بعد أن أصبحت زوجة . أريد أن أرى فى عينها الشيء العظيم الذى حققته . أريد أن أرى فى وجهها الفرحة بهذا الزواج الفرح الذى افتقدتها . أريد أن أرى النظرة وأسمع الكلمة التى تؤكد لى انى قد ارتفعت وأصبحت سيدة .

وطلبت من عبد الحميد أمضى أن يكتب خطاباً للبلد . ولكنى لم أصارحه بغرضى . قلت له إنى أريد خادمة تساعدنى فى عمل البيت . فنظر إلى بطنى التى بدأت تنصمخ ووافق فى الحال .

وكتبت خطاباً إلى الشيخ دسوقى أخبره فيها بزواجنا . وبماجتنا إلى خادمة . وجعلت أتخيل وقع الخطاب على أمى . وفرحتها الشديدة . وشهورها بأهملتها بين أهل القرية وأيقنت أنها ستأتى إلى فى الحال . فكنت أنظر إلى الباب . أتخيلها تدخل منه . وأنا أجمع عليها وأعانقها وأقبلها . وأجلس عند قدميها . أكثر من ابتعادى عنها طوال السنوات الماضية . وأقول لها إن كل ما فعلته يا أمى هو من أجلك وإنى أريد رضاها عسى . وأطلب منها أن تترك البلد . وتعيش معى هنا .

ولم يحب طلى ، فعند أيام سمعت صجة عند الباب ، ولم أخطئ صوت شيخ ، سوقى ، محريت وهدخت الباب ، فوجدت أمى واقفة وعلى رأسها قفة و شيخ دسوقى وفى دم مصر . ومعهما بيت صغيرة قبيحة قدرة .. وكنت أترافع أمام مطرهم ، لولا أنى استطرت هذه اللحظة طويلاً فمضيت فى تنقيب صديكت أنحبه . وعاشت أمى وقتلتها ، وفوجئت بها تحلس على الأرض ، فصممت على أن تجلس على المقعد رغم احتجاجها ، وجلست إلى جوارها ، أعطيت راقبها من جيد ، وأتفرس في وجهها الخضن الأسمر ، وعينها مكيلير ، وجسدها أسجير

وابتسمت أمى ، وبعت عيناها بومصة فرح ، ولكنها سرعان ما بدأت تبكى هومب وأحزانها وأرتفع صوت شكواها وقد انضم إليها الشيخ دسوقى الذى رأى في زواجى من عبد الحميد الفندى فرصة لأن أعطى أمى تقود أكثر

وبعد دقائق كانت الصور التى داعبت خيالى وأنا أنتظر أمى ، قد تبخرت ، ووجدتنى أواجه مخلوقة لا صلة لي بها ، حديثها يرهقنى .. لا أعرف كيف أجلس معها أو أكل معها ، وزادت مقاعبي عندما جاء عبد الحميد الفندى فقامتها بنفور ، ففضبت منه ، وخجلت من أمى ، وتدمت على أنها جاءت ، وتضمنت بوسافرت إلى قريبتها في نفس الليلة

ووجهت همى إلى نفيسة الخادمة ، أعلمت يأسى من قدراتها وقبحها وجهها ، وقلت لأمى إنها لا تصلح لخدمتى ، فاعطرتها دهشتها وقالت لي في عجب

— ما هو أنت كنت زيه يابتنى يوم ما جيتك مصر .

فصعقت ، وأكرت ما تقول بينى وبين نفسى ، وقررت أن أرسل نفيسة معها إلى أبيل وأطلب من عبد الحميد أن يأتى بخادمة أخرى من القاهرة . كنت أدرك أنى قد فشلت في إعادة أية صلة لي بأمى والقريبة وإهلها ، إن مجرد مواجهتى لهم ، تشرنق وتسكرنى فمصلحت أن استعد عنهم ، واكتفى بذكرهم ، وحسينى إليهم في الحبال ، وحتى لأمى كما أتصوره أنا ، لا كما

أواجهه وهى معى . أراها وأسمعها وأشم رائحة الطير، وروث البهائم والعرق في ملايسها .

وسافرت أمى بعد أيام ، وقد أعطيتها ثلاثة حبيبات ، أخذتها وهى غير راضية ، كلفت تريد المزيد من المفقود ، وكانها تظن أن زواجى من عبد الحميد قد فتح لي أبواب ليلة القدر ، وأن معى من كنوز الذهب ما لا يحصى ولا يعد ، ولم تصدقنى عندما قلت لها إن هذه الجنيبات الثلاثة هى كل ما أستطيع أن أدفعه لها . لأن عليها ألا تتوقع منى نقوداً كثيرة في الشهور المقبلة ، لأمى أنتظر ولادة ابنتى ، وستحملنى ثقلات كثيرة . قالت لي وكأنها تلومى على كثرى .

— البركة في جوزك ... ما هوربنا عاتيه ..

فصكت ، خجلت أن أقول لها إنه رجل فقير ، فهمي لن تفهم ، ولأن تصدق ومستظل على ظنها في أنى أكتب لأحرمها مما أعطانى الله . وقال لي عبد الحميد الفندى ، إنه يريد بقاء نفيسة حتى يجد خادمة أخرى ، فوافقته على مضمض ...

وهكذا سافرت أمى وبقيت نفيسة وكانت أحاول أن أنظفها وأعلمها . ولكنى ظلت أنفر منها ، ولا أسمح لها بالجلوس أمامى ، وقد خشيت أن يؤثر شكلها القبيح لي خلقة ابنتى

وعندما اقترب مرشد ولادنى ، عاملنى عبد الحميد الفندى بحنان مفاجئ ، فكان يفرج معى ساعة المغرب ، فنمشى حتى كوبرى قصر النيل ، وكان يحكى لي عن القهى وتلاميذه الذين يتعلمون منه الشطرنج ، وأحياناً يقول لي إن يوسف قد مر عليه ثم يتمتم في أسى

— الواد ثعبان لوى يامبروكة ..

فألوهم فأنلة

— بقى موش عارف تخليه يهدى وييجى معانا بأعبد الحميد .
فيقتهد قائلأ :

— ماقيش فايده .. صلت للمستحيل فاسأله :

إشارة بيديه ، وكنت خائفة عليه أحمله بين ذراعي ، أوارفد إلى حابه لا أترك
الغرفة ، وقد أغلقت نوافذها وأغلقت الباب ، اتحمل الحر الشديد خشية أن
يصيبه برد .

ويذهب عبد الحميد أفندي لييام في حمرة يوسف .

ودخل على مرة وقال لي وأمرح يتألق في وجهه :

— يوسف لقي شغلة .

قلت له وأنا أحققن ابني :

— شفت ويش إبراهيم على أخوه الكبير .

قال وهو ينظر إلي في حنان .

— أنا برضه بأقول كده

وسألته :

— ح يدوله فلوس كثيرة ؟

فقال في تردد

— والله ما أنا عارف .. إنما هو كان لرحان .. اشتغل في جرنال الأيام .

قلت له .

— راتب بك كان بيقرأ الجرنال ده .. أنا فأكرة اسمه .

فقال باسم .

— اعمل حسابك بقي .. نشتره كل يوم ..

فقلت له محتجة

— وأدفع ثلاثين قرش في الشهر .

وليه يوسف مايمتش لنا الجرنال مادام بيشتغل فيه ..

فضحك عبد الحميد وقال .

— حاضر ياسي .. حابقي أقول له ولكنه أشتري الأيام في صبيحة اليوم

التال . ووظف علي شرائها وتحملت مصروفها جديداً من أجل يوسف .. وكنت

أسمال عبد الحميد .

— يوسف كاتب إيه في الجرنال النهاردة ؟

— طيب وماليتش شغلة يشتغل فيها ؟ ..

وعندئذ يتفجر عبد الحميد صراخاً في عصبية .

— أنا ما خلشني .. كلهم بيقرأوا حاضر .. حاضر .. ولا قيش قايده .

وأسأله :

— وراتب بك ما عملش حاجة ؟

فيصيح

— ولا سال فيه .

فيزداد غوى عن ابني وانظر إلى المستقبل في فزع . ثم أدير الله بصوت

مرتفع أن يفتح الأبواب أمام يوسف ، والتفت إلى عبد الحميد قائلة

— أنا بادعي له من قلبي .. علشان ربنا ما يورثيش شقيقه في ابني .. والله

يوسف صعبان علي .

وكان التفكير في مستقبل يوسف يرفقنا ويرزعنا ، فنحاول أن ننساه

بسرعة ، ونبحث عن شيء آخر نتحدث فيه ، ولم أبع لعبد الحميد أفندي أبداً

بالرغبة التي كانت تعاودني ، في أن أرى يوسف وأتحدث معه ، لعل أستطيع

أنا أن ألقنه فيما فشلت فيه أبوه .

وعدت إلى البيت ذات ليلة ، فشعرت بالآلام المخاض ، وأمرع عبد الحميد

أفندي يستدعي أم اسماعيل الداية . فجاءت وقفت معي الليل كله ، ومع

شروق الشمس ، سمعت صراخ ابني إبراهيم ..

كانت فرحتي لا توصف ، فرحة كالجنون ، لم تعد الدنيا تسعني ، كنت

أحس أنني أكبر من كل شيء ، وأقوى من كل شيء ، وتحولت غرقتي إلى قصر

جميل ، أجمل من كل ماراته عيني ، أجمل من بيت راتب بك ، وكنت أنظر إلى

عبد الحميد وهو لرحان بأسخرف منه ، إنه لا يعرف كيف يفرح إنه لا يحس

بما أحس به أنا كنت أشعر أن فرحه من بغايا فرحي ، تحلفت به عليه ، كان كل

الفرح الذي في الدنيا من فضلي أنا ، ومن إغداقي أنا ..

وعرفت حنا كاليوس ، كنت أقضي الساعات ، الليل والنهار ، الأيام تلو

الأيام ، وأنا أنظر إلى ابني ، حادمة له طوع صرخة منه ، وهن حركة برجله أو

— اهو .. بيكتب الاخبار اللي فيه ثم يفصرف عني إلى قراءة كل كلمة في الجريدة . وكان صفحاتها ومبائل شخصية يكتبها يوسف إليه . وكنت اتسمى لو استطيع قراءة هذه الرسائل لأكون قربية من يوسف .

مكنك امسك بالحريدة أتصفحها وكنت اقرأها . غارى سطوراً سوداء .. كالظلام . انظر إليها عاخرة . واتذب حظي لاني لا استطيع فك الخط ، ولا أجد غير الصور أتأملها في اهتمام ، وأنا أحاول أن أحفظ الجريدة في يدي أكبر وقت ممكن ، لأتقنع نفسي بأن هناك صلة ما ، أية صلة ، بيني وبين سمعائها

وكنت أحفظ بأعداد الجريدة . ولا أفرط فيها . وكانت أوراق مقدسة ، وأثوري عبد الحميد إذا خرج والجريدة معه في الصباح وسببها في المقهى أو إذا امسك بها في غير عناية ، أو إذا دخل بها الحمام وبللها ، أو مزق إحدى صفحاتها .

وكان يقول في دهشة :

— ر أنت مالك ومال الجرنال . لا انتي بتقري ولا بتكتبي .. موش آخرتها ح تمسحي بيه القزاز ..

فأقول محتجة :

— أبدأ أنا أحوشهم لحد إبراهيم مايكبر ويقرأهم .. وأقول له شوف أخوك يوسف كان بيكتب إيه ..

فيضحك ساخراً ويمتني السذاجة ولكنه لبى رغبتي ، فعود نفسه على قراءة الجرايد بعناية ، وأمتنع عن أخذها معه خارج البيت .

وصاح عبد الحميد ذات مرة وهو يقرأ الجريدة .. وكانت في صحيفته رنة بهجة وانتصار :

— أبسي مكتوب اسمه في الجرنال فتركت ما في يدي ، وجريت إليه .

واستمعت إلى صوته المتودج بالعرج وهو يقرأ اسم يوسف .. يوسف السويقي ..

ثم توقف لحظة عن القراءة وقال في أسي معجىء .

— ليه موش كاتب اسم عبد الحميد فصحت في دهشة

— إزاي ما يكتبش اسم أبوه .. لازم نكلمه .

وايقن أن يوسف قد تعدد إغفال اسم والده ، تعبيراً عن مقاطعته لما وكنت أتبه عبد الحميد إلى هذا ، ولكنني ترددت ، وقلت لنفسى لابد أنه وصل إلى نفس استنتاجي ، فلا داعي إلى أن أذكره أنا به ، إذ كنت منذ هجرنا يوسف ، أحاول دائماً أن أظهر لعبد الحميد ندمي ، ورغبتي في عودته إلينا وكنت أتعاشي أن أثير ما يبعد بين الأب وابنه ، وكنت مسلحة في ندمي .. مخالصة في رغبتي في عودته ، إذ كنت أشعر في قرارة نفسي أنني سأظل خادمة في عيني يوسف ، حتى يعود واسترد صوت عبد الحميد بهجته وحماسه . وهو يقرأ ما كتبه يوسف عن رجل وجدوا جثته في غرفة في بولاق . وكنت أستمع إليه وأنا أنظر إلى صورة الجثة ، وأحاول جاهدة أن أفعل المستحيل وأقرأ السطور المردهة .

ولما فرغ عبد الحميد من القراءة ، أخذت منه الجريدة ونظرت إلى الكلام في إيمان ، ثم سألته

— اسم يوسف فين ؟

فأشار إلى أحد السطور وقال .

— هنا .

وقرا من جديد

— كتب مندوبنا الجماني .. يوسف السويقي .

فسألته :

— يعني إيه مندوبنا الجماني ؟

فشرح لي أنه مندوب الجريدة الذي يبحث عن الجرائم ويكتب عنها ، ويمتل بالشرطة والتبابة .

وعدت أنأمل الصورة والكلام . ثم قلت له فجأة :

— أنا عايزاك تعلمنى القرايه .. فقال لى وكأنه سمع شيئاً مضحكاً :

— حاضر يا ستى ..

وأخذ الجريدة معه ذلك الصباح وهو حارج إلى 'المقهى' . ليطلع عليها أصحابه ..

كنت جادة فى طلبى من عبد الحميد أن يعلمنى القراءة ، وكنت أسرح بخيالى وأرى نفسى وأنا أقرأ الصحف ، وأفهم ما فيها من كلام ، فأحس بمتعة غريبة ، ولكن الأيام مرت وعبد الحميد غير مهتم بطلبى ، إلى أن حاصرت فى أحد الأيام ، فأحضر أوقافاً وقلماً وشرع يعلمنى كيف أكتب ألف .. ياء . وعلمنى كيف أكتب اسمى ، ولقد فرحت يوم رأيت اسمى بخط يدي فكننت أصيص وألفز كالأطفلة الصغيرة وعاد لى يومها كثير من الصنان والحب لعبد الحميد ، بعد أن افقتنهما منذ زواجه به ..

وكنت كلما تكاسلت عن مواصلة دروسى ، أنظر إلى ابنى إبراهيم وأقول إن البركة فيه ، فهو الذى سيذهب إلى المدرسة ، ويقرأ ويكتب وهو الذى سيعوضنى كل ما فاتنى فسامحته كل ما أستطيع حتى يصبح رجلاً له مركز محترم مثل راتب بك . ويشترف به أمام الناس ، ويشترف به شقيقه يوسف . كان إبراهيم قد بدأ يحبو على يديه ورجليه ، وظهرت فى فمه ثلاث أسنان وهرب كيف يشير بيديه ويقول .. ده .. ده .. ده .. أو يقول بصهوية « بابا » وكان عبد الحميد يتحول أمام ابنه إلى طفل مرح ، يتكلم معه بلغته ، ويلعب معه ، ويأتى أمامه بهركات مضحكة ، حتى يخيل لى أنه فقد عقله .

وذات صباح خرج عبد الحميد ، وتركنى مع إبراهيم وهو يصرخ بلا انقطاع ، حتى كدت أجن ، وبعد ساعتين أو أكثر ، كنت واثقة أن إبراهيم مريض . لأن صراخه كان غير عادى ، وقد فشلت جميع محاولتى لإسكاته . وانتظرت فى قلق عودة عبد الحميد ، لذهب إلى الطبيب .. وسمعت طرقاتاً على الباب طرقاتاً عيباً ، بصحبة صوت إبراهيم اليواب يخاطب شخصاً غريباً .. وفتحت الباب فإذا بـرجل قصير بدين يسألنى بصوت منقلع :

— حضرتك زوجة عبد الحميد أقندى قلت له وقلنى يخفق وصراخ إبراهيم

يدوى فى أنفى .

— أبوه .. فيه إيه ..

قال الرجل بصوت فاجع .

— أنا متأسف يا هانم عبد الحميد بيه . فى القهوة

ويطع الرجل ريقه وقال وعيناه حائرتان

— تعيش أنت ..

ضمت أيلم ، وأيام قبل أن أمي تماماً ما حدث ، فمئذ جاضى ذلك الرجل
البدين القصير بنياً موت عبد الحميد الهندى ، وأنا أعيش في دوامة .

عقلي في دوامة ..

وقلبي في دوامة ..

اختلط كل شيء في عيني ، اضطربت .. تاهت نفسي ، فلم أعد أدري من أنا
ولا أدري أين أنا ، ولا ماذا أقول ، أو ماذا أفعل .

كل ما أذكره عن تلك الأيام صدى متقطعة ممزقة تصحبها صرخات حادة
كانت تندفع من صدري .. وحينئذ كان يلهب جوى ، ثم يندفع من فمي
كالصعد ، وكأنني استنشقت نارا وأزفر نارا .

وأذكر ابني إبراهيم .

لازمني طوال تلك الأيام ، وقد ضمته إلى صدري ، ضمته إلى فؤادي
أينما ذهبت ، في الشوارع ، وفي المقهى ، وفي المقابر ، وحين أعود إلى البيت .
أذكر الرجل البدني وهو يهرول ورائي في الشارع ، وأنا أجري في جنون .
وإبراهيم بين يدي ، والرجل يقول لي كلاماً لا أسمعه ، وأقول أنا كلاماً
لا أذكره . وقد اندفعت اقتحم السيارات والناس والترام ، وأنا لا أعرف أن
ما أمامي سيارات وناس وترام .. ثم تعثرت ووقعت على الأرض ، فجذبني يد



الرجل . حاول أن يتنزع إبراهيم من بين يدي . فظننت أنه يريد أن يخطفه .
وتشبثت باني . وواصلت الجري
وجدبني يد الرجل مرة أخرى . والحقني في تلكسي . مضى بنا إلى هناك إلى
المقهى .

لبي أحاول الآن أن أذكر ما حدث في المقهى . فأنكر صوراً كتلحلام
كايوس .. أذكر صوراً أراها من خلف ضباب الدموع . أذكر أجساداً وغيوراً
وأصواتاً ..
وعبد الحميد ..

جسد عبد الحميد .. يرقد على سرير من المناضد الرخامية في ركن المقهى .
وقد أسبل جفنيه . ولا يتكلم ولا يضحك في وجه إبراهيم .
ثم أريد قاسية تنقر عني . وتجلسني على مقعد . أنهار فوقه . ولصوات
تسألني . وأنا أجيب بالصراخ . وابني يجيب بالصراخ . وقد انقطعت صلتي
بكل شيء .

تلك اللحظة بالذات . أذكرها وكأنها كانت كل حياتي . لحظة وقف عندها
الزمن . شعرت خلالها أنني بلا ماضٍ وبلا مستقبل . وكنت أجاهد وأنا أنظر
إلى الناس . أن أتذكر شيئاً ما .. شيئاً لا أدرى ما هو . غاب عني . وأشعر أنه
ضروري .. ويجب أن أتذكره لأخلص مما أنا فيه .

وحتى الآن . وبعد كل هذه السنوات التي مرت على وفاة عبد الحميد
ما زلت أحاول أن أتذكر هذا الشيء الذي جاهدت من أجل معرفته وأنا جالسة
في المقهى .. فأعجز ..

أحياناً تطوف برأسي صورة حقل في قريتنا . كنت أجلس عند حافته وأراقب
الجاموسة وهي تشد المحراث فوقه . وأشعر كما لو كنت أنا هذا الحقل . وكما
لو كانت الجاموسة تشد المحراث فوق حسدي . وأشعر أن هذا هو ما كنت
أريد أن أتذكره .

لماذا ؟

لست أدرى ..

والفرح . ويخيل لي أنني شاركت على الجنون . فأحاول أن أطرده هذه
الصورة الغريبة من رأسي . وأقول : لا .. ليس هذا هو ما كنت أريد أن
أتذكره .

كان الناس ملتقن حول مقعدي في المقهى . عندما اشفقوا فجأة . وظهر
يوسف أمامي . فصرخت يلهفة إليه وكأنه سيقتدي من الفرع الذي ياكلني
وصرخت :

.. يوسف . الحقني .

وقفزت نحوه . أريد أن أتشبث به صارخة :

.. أبوك يا يوسف ..

فاستند رأسي على عنقه . ولما غاب عني وجهه . أظلمت عياني . فهجمت
عليه . أقول له كلاماً كثيراً . وهو غر منته إلى . لا يريد أن ينتشلني . ورأيت
رجالاً يحملون عبد الحميد فلم أفهم ماذا يريدون به . وأمسكت بيد أحدهم .
أريد أن أخلص زوجي منه . فدفعوني بعيداً . وخرجوا بعيد الحميد إلى
الشارع .. وهو مستسلم لهم . وحاولت أن أخرج وراءه . أتبعه .. الحق به ..
فاعترضني يوسف قائلاً في حدة :

.. روحى أنت البيت .. بتعملى إيه هنا .

قلت مولولة وأنا أطمخ خدي بيدي وأحتضن إبراهيم باليد الثانية :

.. جوزي .. رايحين بيه فين .

وحاولت يائسة أن أصل إلى عبد الحميد . فلم أفلح . ورأيت سيارة كبيرة
تفتح بابين في مؤخرتها . وتنبثق زوجي . ومن بعده يوسف . وانطلقت السيارة .
أسمعها بصراخي . لعل عبد الحميد يسمعه .

لا أدرى كيف وصلت إلى المقابر . ولا مع من . لقد تجمع حولي أناس
كثيرون . اختلفوا فيما بينهم . بعضهم يريد أن يعمشي إلى البيت . وبعضهم
يصيح :

.. ياناس .. ده جوزها .. لازم تحضر للدقنة ..

وأنا أستمع إليهم في بلاهة . وأريد مع صراخي :

- جوزى - ودوسى لجوزى . كده برصه يا عبد الحميد يتفكك تسيبى ..

واحدوسى إلى المقابر

وقفت هناك عند مسند صغير وسط المقابر ، تحيط به أكواخ وعشش
تحاس أمامها قرويات متشحات بالسواد ، يلعب أمامهن أطفال يتصايحون .
وسر لحظة وأخرى تمر أمامنا جماعة من النساء يولدن ويتدين متجهات إلى
المقابر .

كما في انتظار عبد الحميد ، وكنت أغربى في وجوه القادمين ، أتوقع أن
أراه يسير بينهم ، ثم أتلفت حولي أقرب العشش والأطفال ، وأدقق في وجوه
الناس ، فأراهم يتهايمسون وينظرون إلى ساعاتهم .. فأخاف وأصرخ .

- كده برصه تسيبى يا عبد الحميد ..

وأعود وأدقق في وجوههم ، لعل واحداً منهم يتأثر بصرخاتي .. فيذهب ويأتى
لى بزوى . ولكنهم كانوا يتشبهون بوجوههم بعيداً عنى كأنهم لا يريدون أن يروا
حالى ، أو يسمعا صرخاتي ، فلا أجد أمامى غير إبراهيم لأخاطبه . فأصرخ فيه

- فين أبوك يا إبراهيم .

وأناظر إليه في يأس ، بل كنت أنظر إليه في أمل . وأنا أتوقع أن يتحول فجأة
من طفل رضيع إلى رجل كبير يأخذ بيدى ، ويأتى لى بأبيه عبد الحميد .

وفجأة سمعت بوق سيارة . جاءت ورامها عاصفة من القبار ، وأمامها
صياح الأطفال ، ووقفت السيارة . وبقيت منها رائب بك ومدمت . وأسرع
الناس إليهما ، وتركهنى لحظات ، وأنا ذاهلة . ثم اندفعت ورامهم أشق
طريقي بينهم إلى رائب بك وأصبح مستجدة به :

- سيدى رائب بك .. أنا لى عرضك ياسيدى .. جوزى خدوم .

فنظر لى ثم أشاح بوجهه وقال لأحد الرجال بجانبه :

- هى بتعمل إيه هنا ؟

وقيل أن أقول شيئاً آخر ، كانت الأيدى قد انتزعتنى من أمام رائب بك
ودفعتنى لى في طريق منحدر ، وسرت هيه والأرض تتأرجح تحت قدمى . وكل

- ١٢٠ -

شى من حولى يطلو ويهبط حتى بلغنا حوش المقبرة ، فاندلوسى حجرة معتمة ،
ووقف أكثر من واحد يمنعننى من الخروج .

حبسوعنى في العتمة حتى جاء النعش . رأيته من الباب المفتوح ، فاندفعت
إليه . ثم لا أذكر شيئاً بعد ذلك ، سوى الصراح والجوى ، والحدن الحار
الذى أزفره كالبار .

ثم لا شى .

وجدت نفسى بعد ذلك في البيت ، وحشى ، أما وإبراهيم .. ومن معمة الله
عنى ، أنه ضربنى بسهم الذهول وإلا كنت قتلت نفسى في ثلث الليلة . ساعدنى
ذهولى ، على أن أنصرف إلى العناية بإبراهيم . أغبرله ملايسه ، وأرضعه
وأربت على ظهره ، وأدخلته في فراشه ليأيم ، وكأنى لا أعرف ما حدث ،
لا أعرف أن عبد الحميد قد مات ، وأنه تركنى وحيدة مع ابنه ، تركنى وأن
يعود ، ولا شفقة ولا رحمة ودون أن ينهينى إلى ما يجب أن أفعله وهو غائب
عنى ..

وكنت جالسة على سريرى .. سرير عبد الحميد ، وقد لغنى أنا وابنى
الطلام ، عندما سمعت ولولة وصراخاً يصك أذننى ، فانتفضت من ذهولى ،
وجريت إلى الباب الذى ارتفعت الصرخات وراءه .

وفتحت الباب .. فرأيت أسمى تلطم خديها المصبوغين بنيلة زرقاء ، وهى
تقفز قهزات متوالية ، وإلى جانبها امرأتين يلفلان مثلها . ويدبان على الأرض
فتهمز من تحتها . والشيوخ دسولنى ينظر لى بوجه متجهم وإلى جانبه رجل
نحيل طويل لى جلبابه الأزرق .. حدثت فيه طويلاً قبل أن أنكر أنه خالى
إمبابى ..

وبظنوا البيت وهم على هذه الحال فوجدت نفسى أعمل مثلهم وأكثر .



في تلك الأيام . كان عقلى معطلاً . فلم يجرى سوى حسدى ، لطمت
خدودى ، ومزقت شعرى ، وبج صوتى وانهكت قوى . وكل ذلك عيباً

- ١٢١ -

بالنسبة للآلام التي مرت بي بعد ذلك ، عندما بدلت لثيق من لحزان الجسد ،
وأعيش مع أحزان العقل والروح .

وكنت أنتظر صباح مساء عودة يوسف إلى ، كان هو أمل الفلمس الذي
أعتمد عليه ، فكلماً حاولت أن أفكر في مستقبل .. سرعان ما تتوزع أفكارى
وتتبدد ، وأعجز عن المص في التفكير بغير يوسف بجنتى .

وكان الشيخ دسوقي هو عروى الوحيد ، كان يذهب إلى بيت راتب بك ثم
يعود إلى ويحلس معى ساعات طوال يخبرنى بما سمعه هناك عن حال ،
وعرفت منه أن الحكومة ستصرف لي معاشاً أنا وأبنى مبلغ ثلاثة عشر جنيهاً .
ذكر لي الشيخ دسوقي رقم المعاش يصوت مرتفع ، وكأنه لا يصدق
ما يقول أو كأنه يصدقنى على ما سأحصل عليه .

وكنت أستمع إليه ، وأنا أفكر في يوسف ، هو الذى يستطيع أن ينصحنى
بما أفعل ، أو ما لا أفعل .. أين يوسف ، لماذا لا يجرى إلى .

وسألت الشيخ دسوقي عن يوسف فقال لي إنه رآه في بيت راتب بك ، وإن
راتب بك دفع له نفقات الجثث والدفن ، فعدت أسأله لماذا لم يأت إلى وليس لي
أحد غيره في هذه الدنيا ، لماذا لا يأتى ليطمئن على أخيه الرضيع .. فظهرت
الصبرة على الشيخ دسوقي ولم يعرف بماذا يجيب .

وكانت أمى تنصت إلى حديثنا .. فقالت لي :

- ح تجعدى هنا مع مين يا بنتى .. ارجعى لبلدك وأهلك ..

فنتظرت إليها في شراسة .. ولفضت أن أستمع إلى ما تدعونى إليه ، وهكذا
أشغل عن كل شيء . وتضيق أياشى وأحلامى ، ويضيق مستقبل ابنى ، وأعود
إلى القرية كما جئت .. الموت أهون من هذا .. لن أعود إلى القرية .. لن أترك
بيتى .. أنا لست مبروكة الفلاحة العقيمة . لست مبروكة الخادمة .. أنا
مبروكة زوجة عبد الحميد الأندى .. أنا أم إبراهيم ..

ولكن أمى الحت عل ، وشعرت أنها تفكر في المعاش الذى سأتقبضه . وأنها
تطمح في أن تتأهل نصيباً منه إذا عطشت معها في القرية .

وأكد لي هذا الظن . أنها رفعت صوتها مثل الشيخ دسوقي ، وقالت لي :

- جوزك فابت لك ثلاثاً شر جنيت كل شهر .. تعالى اجعدى معانا .
فقاطعتها في حدة :

- لا ياأمه .. أنا موش رايحه البلد . ولا عايزه إبراهيم يشوفها .

فنتظرت إلى في عجب . ورفعت يديها إلى السماء تدعو الله أن يهدينى ..
وكنا نذهب كل يوم إلى قبر عبد الحميد ، وأبكى ، وانتظر أن أرى يوسف
وتمر الساعات وهو لا يحى . وعلمت أنه زار القبر في الصباح المبكر يوم أول
خميس ، وبكث خمس دقائق . ثم انصرف فابقت أنه لا يريد أن يرانى ولم
أحزن ، إذ كنت لا أستطيع أن أضيف أحزماً جديدة فوق أحزاني ، ولكننى
صممت على أن ألقاه ..

وكان لقائى بيوسف في المحكمة ، يوم ذهبت مع الشيخ دسوقي لاستفراج
الإعلان الشرعى بوفاته عبد الحميد .. كنت أجلس على دكة خشبية أمام باب
حجرة القاضي ، عندما رأته قادماً ، وماكاد يرانى حتى تجههم وجهه .. ووقف
مكانه متشامخاً عني بالحديث مع الشيخ دسوقي ، فذهبت إليه وقلت له :

- كنت خبرك ياسى يوسف .. برضه عملت التى عليك ، وسألت عنى وهن
أخوك .

ورفعت إبراهيم بين يدى وقلت له وأنا أمز طفلى أمام عينيه :

- هو ده موش ابن عبد الحميد ، موش أخوك ، موش لعمك ونمك .

فهمس في حدة وهو يثبث حوله :

- انتب عايزه متى إيه ..

صدمتنى كلماته ، كانت أخرىء أتوقعه منه ، فقد عودت نفسى طوال
الشهور الماضية ، وقيل وفاة عبد الحميد ، أن أفكر في يوسف على أنه سيعود
إلينا يوماً ما ، على أنه سيترف بى ، وسيرضى عنى ، وكان هذا هو أقصى
ما أتمناه في حياتى ، فبعدت كنت سأشعر حقاً أنى تحولت من خادمة إلى
سيدة . لم لكن أقنع بزواجى بعبد الحميد . فقد رضخ لي تحت وطأة مؤثرات
خاصة . أما يوسف فهو يمثل لي الداس كل الداس . هذه المدينة الكبيرة
التي أعيش فيها ، إنه لورفضنى ، فكل الناس ترفضنى ، من بقى لي غيره ،

حتى الموت . ليعاملنى كزوجة عبد الحميد ، إذ كان يوسف لا يقبل أن يعاملنى هكذا .

وصحت لى يوسف ، أنا فى قرارة نفسى أريد أن أتوسل إليه - عيب تقول الكلام ده .. خللى أبوك يستريح فى نومته .

هرايت لمة غريبة فى عينيه وقال فى المعال

- مالكيش دعوة بابويا . كفايه اللي عملتية موتيه ، عايزه إيه أكثر من كده

فالت له لى ياس

- الله يسامحك .

ونادى علينا الحاجب .. فدخلنا عند القاضي . وأجبت على أسئلت وأنا شاردة . ثم خرجنا وتركنا يوسف دون أن يكلف نفسه مشقة النظر إلى . بكيث يومها فى مرارة وغضب ، وكنت أوافق أمى وأسافر معها ، لولا أن إبراهيم كان يضحك على غير عادته ويردد دون أن يطلب منه أحد كلمة : بابا .. بابا . فاحتضنته وقلت لنفسى إنى أموت ، ولا أرى إبراهيم فى القرية ، وإنه لابد أن يبقى هنا ، ويدخل أندارس ، ويصبح أحسن من يوسف ألف مرة ..

وسألت أمى ، وقالت لى فى غياء وهى تودعنى ، لماذا لا ألجأ إلى واثب بك وأعود إلى خدمته ، فقلت لها فى هياج ، إنى لن امرغ اسم عبد الحميد افندى ، ولن أسبىء إليه وهو فى قبره فأعمل خادمة ، ويقول الناس إن زوجته أصبحت خادمة . وإن إبراهيم أمة خادمة .

ولم تفهم أمى سر هياجى ، وتركزت البيت وهى تحاول أن تخفى سخطها على

وهزت الأليام والنقود تضيق من يدى والشيخ دسوقى لا يكف عن الحديث عن المعالز إلا لى لا أقصه . ويحاول أن يطمئننى بأن كل شىء سيتم بإذن الله ولكن النقود تآخرت وتآخرت وكل يوم يطلب منى الشيخ دسوقى تقوداً للمحكمة ولإدارة المعاشات . وأحياناً كنت أخرج معاه وأتودعه فى حجرات

- ١٢٤ -

كثيرة . وأقابل موظفين يرسلوننا إلى موظفين ليرسلونا بدورهم إلى موظفين آخرين . وبعضهم يشتمنا وبعضهم يسخر منا . وبعضهم يصحك فى وجهى ويطمئننى .. فأتأهب إليه يوماً بعد يوم بلا فائدة .

ووجدت نفسى فى طريقى إلى بيت واثب بك .. كم منيت نفسى بأن أذهب إلى هناك مع عبد الحميد ، وأجلس فى الصالون حيث تستقبلنا ستى الصغيرة ويقدم إسماعيل عصير البرتقال . هاندا أعود إليهم دليية . جالعة لم أسمع إيجار البيت ، أريد أن ألتصق منهم بعض النقود ..

قابلنى عم عثمان فلم يعرفنى .. وجعل يحدث لى بعضين مريضتين .. يريد أن يصدق اتى حقاً مبروك .. ولا أسخر منه ، كان قد شاخ وفقد الكثير من نشاطه ، ورجب بى أخيراً ، ولكن صوته ظل متردداً ، كان هناك بقية شك عنده فى حقيقة امرى .. وبغير وعى منى ، دبرت حول البيت داخل الحديقة ، وذهبت إلى باب الخدم حيث وجدت إسماعيل ، الذى رحب بى فى حرارة ، وعزائى فى تأثر . وأمسك بإبراهيم بين ذراعيه وأخذ يلاعبه ، والدموع تكاد تظفر من عينيه واسترحت للقاء إسماعيل ، وتقدمنى حاملاً ابنتى إلى البهو وطلب منى أن أجلس على مقعد حتى ينادى ستى الصغيرة ، وشعرت أنه رغم ترحيبه بى ، يعاملنى كسيدة ، وأنه قد فرح بأنه يعاملنى على هذا النحو ..

نظر إلى فى حنان ، وأنا جالسة على المقعد ، وقال لى وأبتسامة كبيرة على شفتيه

- تشربى إيه ؟

- قلت له وأنا امرى يحدثى اللحظات الشائطة من الراحة .

- كثر خزيك يا إسماعيل .. موش عايزه إلا كباية ميه ..

- فقال فى رقة :

- ودى تيجى .. ح أجيبك لو نادة ساقعة ..

وجاء إسماعيل بعصير الليمون . وقال لى إنه أحبر ستى الصغيرة بحضورى ، وتركتى وأنصرف . وشربت الليمون ، وبعصت الدقائق ، ولا أحد يسمالى عنى ، وربما قضيت أكثر من ساعة ، قبل أن أسمع صوت أقدام ستى

الصغيرة ، وهي تهبط السلم . وقبل أن أراها كنت واقفة ارتجف .
قابلتني متى الصغيرة بوجه عابس وفتت على مسافة مني . وقالت في
وجوب

- البقية في حياتك يا مبروكة .

ثم قالت دون أن تتحرك من مكانها .

- عايناه حلة ..

كان صوتها حافاً ، ليس فيه أي ترحيب بمجيئي ، فتلتمشت ، وفقدت
قدرتي على الكلام ، وزاد من ارتباكك أن إبراهيم بكى فجأة . فتنظرت إليها
فرايتها تصوب نحو إبراهيم نظرات مشممة ، ودفعت صوتها قليلة .
- قول لي أنت عايناه إيه .. أنا موافق فاضية ..

وحاولت أن أشرح لها حالتي بكلمات سريعة مقتضبة ، يطغى عليها بكاء
إبراهيم ، وقبل أن أتم كلامي رأيتهما تعد بهما إلى وتقول :
- خدي ..

رأيت جنبهما في يدهما الممدودة . وقبل أن أفكر ، كنت قد أطعت امرأها
وتقدمت منها وأخذت الجنيه ، وتمتمت بكلمات شكر .
فكانت لي وهي تبتعد عني في اتجاه السلم :
- ربي الطيب .. خذهم يحطونك الغدا قبل ما تروحي .

عندئذ وكان غمامة انزاحت من أمام عيني ، ورأيت بوضوح كامل الإمانة
التي لحقت بي ، وحاولت أن أكاذب بالجنيه الذي في يدي . كان يلسمني
ويحرق لحم كفي ، وحاولت أن أكذفه في وجهها باحتجاج تائر على معاملتها
لي .. حاولت .. ولكنني لم أتمكن من محاولتي ، لم أستطع . فشعرت يستحوذ في
قلبي ، وكان جسمي يذوب في ماء النار

وفي طريقي إلى الخارج ، رأى إسماعيل الدموع في عيني . فسالني في
انزعاج عما حدث ، فلم أقل له شيئاً ، ومرت في الطريق اتخطيت في ضباب
دموعي .
بعد أيام كنت أنا وابنتي قد اكلمنا الجنيه . وليس في بيتي شيء . وما زالت لم

أدفع الإيجار . والمعاش ثم اقتبضه وتحت مظلة الجوع والحاجة . عدت إلى
التكرير في يوسف . وتوالت أن أذهب إليه . واكلمه لعل قلبه يلين ويساعدني .
مضيت في الشوارع وأسأل عن جريدة الأيام . حتى وصلت إليها ،
واعترضني بواب نظر إلى في روية وكان إبراهيم نائماً على صدرى ، وسالني
ماذا أريد .. قلت له إني أريد مقابلة يوسف القندى عبد الحميد السويدي ..
فصاح يطربني :

- معنوع الزيارات يا ستي ..

قلت له في تعميم :

- لازم أشوقه .. لنا قريبتة .

وأشرت إلى إبراهيم قليلة :

- واه يبقي أخوه ..

فاحتار الرجل . وصعد معي سلماً يقضي إلى بهو كبير ، وأشار إلى موظف
يجلس عند منضدة عليها تليفون ، وقال لي : كلمي الألفندي . استمع إلى
الموظف وتكلم في التليفون ثم قال لي :

- استسني شوية هنا .. هو ح ييجي دلوكت ..

ولم يك يفرغ من كلامه . حتى رأيت يوسف يهبط سلماً ، ويأتي إلى وهو
يلهث ، وقال لي دون أن يهينني وفي عيني بريقاً قريباً ..

- إيه اللي جابك هنا .

فبكيت ، وممس يوسف وهو يجذبني برق إلى ركن في البهو .

- بلاش العياطه .. أنت عايناه الناس تقول إيه ..

كلن يتكلم ، وفي صوته رنة خوف وهو يتلفت حوله في قلق .. وحدته عن
جويي ، وعن المعاش الذي لم اقتبضه والإيجار الذي لم أدفعه .

فقال لي بسرعة :

- حاضر .. حاضر .. أنا ح أشوق حكاية المعاش .

قلت له وقد بدأ الأمل يعاودني .

- استسني ياسي يوسف .

قال

- بكركه

قلت له في لهفة

- أقوت عليك

قال بلهجة السريعة

- لا أنا اللي ح أموت عليكى

هتقت من قلبى

- ربنا بخلقك لينا .. والنبي ياسى يوسف مانساش ..
قال ونراعه متأخرتان .. ورأسه يلتف إلى كل ناحية ..

- لا .. موش ح انسى .. ربحى أنتي بده ..

قلت متوسلة .. وأنا لا أريد أن يغيب عن عيني ..

- بس أنا مامعيش فلوس دلوقت .. أنا جيت لك ماشيه ..

فوضع يده في جيبه .. وأخرج خمسين قرشاً أعطاهما لي ، وقيل إن الغادر

البهر ، كان قد جرى إلى السلم وفاز عن درجلته واختفى .

وانتظرت صبحا اليوم التالي .. ثم الظهر .. ثم العصر .. والمغرب والعشاء

ويوسف لا يجيء .. ولم أصدق أنه نسيتني ، انزعجت عليه ، وتوهمت أن

حادثاً وقع له . فخرجت إلى الشارع في الليل ، وذهبت إلى دكان سجاثر في

ميدان باب اللوق ، وطلبت من صاحب الدكان أن يطلب لي يوسف في التليفون .

وسمعت صوت رجل يسألني عن اسمي .. قلت له إنى امرأة المرحوم

عبد الحميد أفندى . غاب صوت الرجل برهة ، ثم سمعت يقول لي إن يوسف

غير موجود . فقلت له إنى انتظرت منذ الصباح ، وإنى منزعة عليه ، فطلب

منى الرجل أن أطمئن عليه . وقال إنه كان موجوداً أطول النهار في الجريدة ..

وبدعت نقود المكالمة ، وعدت إلى البيت ، وأنا في حيرة من أمر يوسف

واعتزمت أن أذهب إليه مرة ثانية في الصباح ..

وما كاد يرأس الموظف في بهو الجريدة حتى صباح في :

- الأستاذ يوسف موش موجود يااستى ..

قلت له -

- لكن أنا عليزاه ضرورى ..

قال وهو يتنسم -

- حاضر .. لما ييجى ح أقوله -

فسأله

- هو ح ييجى امتى ؟

قال بلهجة سريعة تكرتنى بلهجة يوسف وهو بخاطني :

- والله ما أعرفش .. مالوش مواعيد -

فقلت له

- طيب أنا ح استنائه ..

فاخضت الابتسامة من وجه الرجل وقال في حدة

- ممنوع يااستى ..

قلت له في ضراعة

- ح أقف هنا في الركن ..

فزادت حدة قلأ :

- لاياستى .. اتفضل استنيه في حة تانيه ..

ونظر إلى غضب ، فتراجعت وهبطت السلم .. وقلت على الرصيف أمام

مدخل الجريدة .. فصاح في البواب ..

- واقفة عندك ليه يااستى .. ممنوع الوقوف هنا

قلت له في عناء وقد صممت ألا أتراجع خطوة أخرى

- أنا واقفة على الرصيف . ومستنية يوسف أفندى .

فصرخ معتداً ، وهجم على يريد أن يطردني بالقوة .. وارتفع صوته ،

وارتفع صوته . وفي هذه اللحظة رأيت شاباً نحيلاً أسمر البشرة .. يضع على

عينيه نظارة . اقترب منا وصاح في لهجة اقرب إلى المرح سائل البواب

- إيه الحكاية .. ياعم رشوان

فقال له البواب ملوحداً بيده نحوى وكأنه يريد أن يضربني .

شوق يا أستاذ .. واقفه في المدخل .. قدام الرايعين والجالين .. وموش عايزه تمشي ..

فابتسم الشاب ، واقترب مني ، وسألني في رقة :
- أنت عايزه إيه يا ستي .
قلت له :

- أنا حايه اقبال يوسف أفندي عبد الحميد السويقي .
فسألني وهو يرمقني بنظرات حادة فيهما قوة وجدانية :
- هيازه إيه يا ستي .

فاحتريت ماذا أقول له .. ثم اندفعت لخبره بأن زوجة أبيه ، وإن الطفل الذي معي هو شقيقه . وإنني جئت ليساعدني في الحصول على معاشي من الحكومة .

وبدا التأثير على وجه الشاب ، وارتعشت شفة السفلى رجشة خفيفة ولما عاد الباب إلى صياحه ، متعه في حدة وقال لي بصوته الرقيق :
- أنا ح أطلق أضوئه فوق .. خللكي هنا لحد ما أجيك .. أو أبعت لك يوسف .

ووافقت تعاصرتي نظرات التهديد يصوبها إلى الباب .. وبعد قليل عاد الشاب ونظر إلى بوجه يبدو عليه الانفعال . وكأنه متردد فيما يريد أن يقوله لي .. ثم قال أخيراً :

- شوقي يا ستي .. أنا ملقترش ..

وسكت برهة .. ولما عيني تفكير صعب ، ثم قال ببطء :
- وماغيش داعي تستنيه دلوقت .

أصصت أني يجب أن أصدق . وأسمع كلامه . كانت نظراته القوية لها تأثير غريب علي ، فقلت له في ناس ، وأما لا أدري شيئاً عن حياتي في اللحظة المقبلة :

- طيب

ثم سألته بصعوبة

- ١٣٠ -

- وأرجع ثاني امتي ..

وفجأة صاح الشاب في انفعال .. وكأنه تأثر على شيء ما .

- ممكن تقول لي أنت عايشة إزاي دلوقت .
أجبتته وقلبي يخفق . وقد انتقلت إلى عدوى انفعاله وثورته ..

- أنا صاكنة في شقة في شارع الفلكي ..

فسألني مقاطعاً :

- يتدفق إيجار كام ؟

أجبتته على الفور وأنا أنتظر في لهفة بقية أسئلته ..

- بأدفع خمسة جنيه ونص إيجار .. وفات شهرين مادفعتهمش ..
قال وقد ثبت عينيه في عيني :

- ماتشوا فيك مكان أرخص .. وتقدري تأجري شقتك بغلورجل .

ولم أستطع أن أحرر عيني من عينيه ، كانت كل لحظة تمر ، تزيد من تأثيره علي ، وتشدني إليه ، وبدأت أحس أني أمام رجل أرسله الله لي ليتكلمني من مازقي ، وليخرج بي إلى بر السلامة ، وعجزت عن الكلام .. فظن أني لم أفهمه ، أو أعترض على كلامه ، فقال بأسماً :

- ممكن يوصل خل الرجل لثمانين تسعين جنيه .. ممكن مائة .

وفسألني ابتسامته بنور أشرفي في صدرى ، وكأنني قد قبضت المائة جنيه التي يتحدث عنها .. ولاحظ أن وجهي أشرف .. فسألني في مرح :

- هيه .. إيه رأيك ؟

قلت له :

- والنبي فكرة .

فقال بصوت حاد :

- بس المهم .. أنك تلاقى مكان ثاني .. دلوقت فيه أزمة مسكن .

تنظرت إليه في غير فهم .. لم أكن أنتظر منه أن يثير أي عقبات .. إنه المنفذ الذي جاء ليساعدني ..

ولكن قبل أن يخيب ظني .. سمعته يقول في فرح :

— إنما ماتوا وليس هم .. أما عندي مكان رخيص ، تقدرى تعزى فيه
المهازير

وعاد يثبت عينه في عيني ويسألنى
— هيه . إيه رايك ؟

في هذه اللحظة فقط ، اضطربت مشاعرى نحوه . وخفت أن أواقفه ،
واستأبنتى رغبة مفاجئة فيه . واستطعت أن أفر بعيني من عينيهِ .. وأنا أسأل
نفسى .. من يكون هذا الشاب ، ما الذى يجعله يهتم بأمرى ، ما سره .. إنى
لا أعرف أى شيء عنه .. لا أعرف حتى اسمه .

وفاجأتنى قائلاً :

— أنا اسمى شوقى .. شوقى محمود ..
وابتسم ..

وكانت ابتسامة صادقة ، حارة .. من القلب ..

ولحبيت ابتسامته ، ووددت لو أطيل النظر إليها ، ولكنى أطرفت بذهنبى ،
وادركت أنه قرأ أفكارى ، لي خجل ، وأرتكبت ، فقد شعرت أنه عرف أنى
أنتاس من اسمه .. وأنتسكت في أمره ..

ورغم أن الاسم الذى ذكره لم يكن معنى شيئاً بالنسبة لى ، إلا أن مخالوفى
زالت بعد أن سمعته .. وعادنى إحساسى الأول بأنّه سيساعدنى في
ورطتى ..

وتعمّنت لو أستطيع أن أتخلص من خجلى ، وأعذرله عن ويبتى فيه .
وقال بصوت امتزجت رفته بلهجة السريعة :

— أنا رسام بأشغال هيا .

وأشار إلى بناء جريدة الأيام ، ثم سكت ، وأرتعشت شفتاه السفلى وهو
يحدثنى في من خلال نظارته . كأنه يتفرج على ما يدور في داخلى .

وأردت أن أقول له أى كلام ولكنى احترت ، فهو يريد أن يعرف رأى فيما
يعرضه عني ، وأنا عاجزة عن اتخاذ قرار سريع ، كان من الصعب عني أن
أواقفه في الحال على ترك بيتى ، وأذهب معه إلى مسكن جديد ..

شعرت وكأننى أعيش في حدوتة .
وأنا واقفة عند مفترق الطرق ..

وهو .. بجسمه النحيل .. ونظارته وعينيه القويتين ، وصوته الرقيق ،
كانه أمنا الغولة ، التى تعترض الناس عند مفترق الطرق ، فإذا لم يحيوها ولم
يقرأوها السلام ، أكلت لحصم قبل عظامهم ، وإذا حيوها وقرأوها السلام ،
قالت لهم كلاماً حلواً ، وأرشدتهم إلى طريق السلامة ..

وهو هو يتحول بمرعة من غريب أخاف منه وأخشاه ، إلى صديق ، يتسم
لى وجهى ويقول لى كلاماً حلواً ، ويرشدنى إلى طريق السلامة .

ولكنى أحس أنى قادمة على مغامرة .. مغامرة أواجه فيها المجهول ..
تبعدين عن حياتى السابقة .. عن أمى ، عن راتب بك ، عن ذكرى زوجى ..
تبعدين عن يوسف ..

لو واقفته ، فسأقذف بنفسى في حياة جديدة ، لا أعرف كيف سأواجهها ..
وإن كان قلبى يحدثنى بأنى سأجد فيها السلامة ..

هل أتخلى عن كل شيء ، وأتبعه من أجل إحساسى المبهم بأنّه
سيساعدنى .. ومن أجل ابتسامته ..

قلت وأنا أحاول تأجيل قرارى
— وإن ماعرفتس أجر الشقة ؟

فقال بصوت حاسم ، وكأنه يصدر أمراً وهو واثق من تنفيذه :
— لازم تتأجر .

وأعجبتنى شتته بنفسه ، ولكنى أحسست أنه يدفعنى إلى ما يريد فقلت له
وعطى يقام مشاعر قلبى :

— طيب لما أفكر ..

فقال في الحاح غريب :

— تفكرى في إيه .. أنت معتدكيش وقت تضيعيه .

ثم أربف قائلاً لدهشنتى :

— أنا جى معاكى لوقتى .. ح اتكلم مع البواب وأتفاهم معاه .. وقبل

أن نصل إلى شارع الفلكي ، اشتدت مقاومة علي ، وعلو صرخة خوف
مفاجيء .

وقلت له

— موش احسن استنى في البيت ده ..

فقال دور أن يلتفت إني :

— لا

وصدمني برضه القاطع ، فوقف مكاني ، حتى أسمع من أن يتقدم خطوة
أخرى إلى البيت وقلت له :

— ويحك أقبض المعاش بكرا .. وتخرج ..

فنتظر إني وشفته السفلي ترتعش ، وثورة تصطبم في عينيه ، وقال لي غضب
لم أشعر أنه موجه إني ، وإنما هو غضب من شيء مجهول يراه هو ولا أراه أنا :

— أنت فاكرا الحكومة ح شديكي معاش صحيح ..

فسأله ، وكلماته تدل بعنف في صدري :

— قصدك إيه .. المعاش ده حق ..

فصاح وعيناه تتدفقان بالغضب ، وصوته ثورة :

— حلك .. هي البلد دي فيها حقوق ..

فصحت وأنا أتشبث بابني :

— آمال أولك أبني مثلي .. أسيبه يموت ..

ودعمني خاطر قوي بأنه يكذب علي لفرض في نفسه ، وتبددت لهجة كل

مشاهري الطبية نحوه ، لم يعد الشاب الذي سينقذني ، لم يعد الشخص

الذي أستطيع أن أطلب منه وأصدق وأحب ابتسامته .. لقد اختفت ابتسامته ،

وأصبح غريباً هنيئاً .. وإنه يخدعني . إنه يقودني إلى طريق الندامة .. يريد

أن ياكل لحمي قبل عظامي ..

إنه شرسير ..

قلت له في حذر :

— يوسف عارف كل حاجة .. وقال لي إنه ح جيب لي معاشي ..

فطلعت حوله في ضيق ، كأنه يريد أن يتحرر من شيء يكتم أنفاسه .
ثم هذا فجأة ، وأطرق برأسه ..

وقال وهو يرقع عينيه بيده لئلا يلتقي بعيني :

— اسمعي يا بنتي .. أنا موش قادر أكذب عليك زي ما عملوا معاك ..

فسأله في غمهم :

— من هم اللي بيكذبوا علي ؟

فأجاب بصوت حاول جاهداً أن يكسبه رقة وحشاً :

— أنت لازم تعرف الحقيقة .. علشان تعرفي تتعصرى ..

وبرقت عيناه وقال بسرعة :

— يوسف كان في الجرنال وأنت هناك ..

فصرخت :

— يوسف ...

فاستمر يقول :

— بس هدي نفسك ..

قلت وغمامة حمراء تتكاثف أمام عيني ، وهاتفت يذكري بأنه صادق في

كلامه ، فأحاول يأساً أن أكذبه ..

— وما كانش عايز يشوفني له ..

فقال وهي وجهه علامات ألم وفي صوته ألم :

— وما كانش عايز يشوفني له .. فقال وهي وجهه علامات ألم وفي صوته ألم :

— أصله عارف إن مفاتيح فايدة في المعاش ..

وروي لي كيف صعد إلى يوسف ، وطلب منه أن يهبط إني ، ولكن يوسف

رفض أن يراني ، وكاد شوقي أن يتشاجر معه ، ولكن يوسف صمم على عاد ألا

يقابلني ، وقال إنه لم يوافق على زواجي من أبيه ، وإنه غير مسئول عما يحدث

في .. ثم قال إنه سأل في إدارة المعاشات فعرف أنني لا أستحق معاشاً لأن

عبد الحميد أتقدي تزوجني وهو فوق الضامسة والخمسين . وقانون

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

الحكومة يمنع إعطائي المعاش في هذه الحالة ، وإن أمل الوحيد هو أن

السميك العتيق ، رفعت بصرى فوقه فرايت طابقين ، لكل واحد منهما نافذتان
كبيرتان .

وأشار شوقي إلى الطابق الأول ، وقال لى : إن هذا هو مسكنى الجديد ثم
ابتسم كأنه يتوسل إلى أن أرضى عنه .. وكان قد قال لى : إنه يمكن فى الطابق
الأعلى ، ومع ذلك سأنته :
— وأنت ساكن فوق ؟
قال وقد اتسعت ابتسامته :
— أبوه ..

وصاح شوقي فى الصبى الذى مازال يجلس القرفصاء ،
— أمك فىن يا واد ..
فأشار الصبى إلى شمال الباب ، وقال :
— جوه ..

وتبينت فجأة أن عن شمال حجرتين متلاصقتين .. تقدم شوقي من باب
إحدهما وبقى عليه صائهاً ..
— ست أم حنلى ..
فسمعت صوتاً ضعيفاً منكسراً .. صوت امرأة تتأوه فائقة
— حاضى .. أنا جايه أهوه ..

وظهرت امرأة بديهة ، لاصلة لها بالصوت الذى ..
سمعت ، تتأرجح فى مشيتها ، فترضى بثقلها كل على قدمها اليمنى ، ثم ترمى
به على قدمها اليسرى .. واقتربت وكأنها تتدحرج نحونا .. وكانت تلهث ..
وقال لها شوقي إنى أم إبراهيم وكان قد حدثها عنى من قبل فنظرت إلى
بعينين طيبتين وقالت بصوتها المنكسر :
— أهلاً بيبكى يا أخسى ..

وتقدمت نحو الباب المغلق ، وفتحته بمفتاح ضخم ، وصعدنا أربع درجات
عالية من الحجر ، مقابلنا باب كبير .. دقعه شوقي بيده ، فأحدث صريراً
عالياً ، وصعدنا سلماً خشبياً خفيفاً ، حتى وصلنا إلى الطابق الأول ..

- ١٣٨ -

بقى قلبى وأنا أرى المكان الذى سأسكن فيه ، إنه مقبرة للموتى ، لا بيت
للأحياء ، حجرة ضيقة تقضى إلى حجرة أوسع منها .. أرضها من الحجر ،
يقطعها التراب ، ويعيش المتكبرون فى سقفها الخشبي ، وأولاً الضوء الذى
يخيل من اللامعات ، لا يلفت أن الجن والعفاريت تجتمع فى هذا المكان .
كلت أخشى أن تلفت حولى ، حتى لا أرى الوحشة والرهبة ، فاطرقت
برأسى فى استسلام يائس ، ووقفت عاجزة عن المقاومة أو الاحتجاج ،
كالتنومة ، أقبل ما يامرئى به شوقي وعزائى الوحيد أنه إلى جانبنى يحدثنى
وينهم بى ..

لقد تحققت آمينتى .. ها هى الأرض تنشق وتبتهلنى معى فى هذا القبر .
ليبقى كنت تمنيت شيئاً أفضل من هذا ..
ونظر إلى شوقي ، وقد لاحظ صمتى وألهه شعر بما أنا فيه ، ففسحك
ليففف عنى ، وانطلق ليثرثر عن غير عادته ، مؤكداً لى أن كل ما أراه
سيغير ، وأشار إلى النوافذ الكبيرة والسقف العالى ، وقال : إن كل هذا نعمة
لم أكن أشعر بها فى بيتى الأول ، وجعل يكررنى بمجرد أن أفرغ من تنظيف
المكان وأنقل أثاث بيتى إلى هنا ، صاحس بالراحة والسلام ..
وصاح فى مرح :

— ما تعملنا شائى يا أم حنلى ..
قالها وكأنه يريد أن يحتفل بمجيئى ، فقالت المرأة فى حرارة :
— من عيني يا أخويا ..
ونهبتم لتعد الشائى ، بينما صعدت مع شوقي إلى مسكنه فى الطابق
الأعلى ..

قابلت نفس الحجرتين ، ولكنهما كانتا فى حالة عجيبة .. تزدهم فى
الحجرة الأولى أكداً من الصور بعضها فوق بعض ، وقد تراكم عليها
التراب وصناديق خشبية .. وأوراق مبعثرة ، وبجاجات قارية ، وستارة
معزقة ملقاة على الأرض .. لا لون لها .. لا لون لها ..
أما الحجرة الثانية ، فكانت نظيفة ذكرتنى بصور قديمة باهتة عن حدرات

شبيهة بها في بيوت قريتنا .. الحصر على الأرض ، وكنتان كبيرتان
ملا مساند ، وكراسي من الخشب والقش ، ومنضدتان ودولاب من الخشب
مطل باللون الأحمر .

الشيء الذي أدهشني هو الصور الغريبة المعلقة على الجدران ، تطل منها
وجوه مشوهة ، مخلوقات لها عدة رؤوس ، وجه واحد له أربع عيون .. كلها
صور تشع الفرع ، ماعدا صورة واحدة للممالة البيضاء ..

وكان في وسط الحجرة حامل عليه لوحة كبيرة من القماش مرسوم عليها
خطوط غليظة سوداء ، كان ملأاً عبث فوقها بقلم ضخم .
وطلب مني شوقي أن أجلس على أريكة يجوار النافذة وقال وهو يمتهد :
— أهو أنا بأرسم هنا ..

قالها وكأنه يذفر متاعب كثيرة من صدره .
ونظرت من جديد إلى الصور ، كانت مفزعة ، لا يرسمها إلا مجنون يريد
أن يخيف الناس ، ولم أستطع أن أطيل النظر إليها .. وقلز إلى رأسي سؤال
مفاجيء .

— أنت سايب المفتاح مع أم حنفي ليه ؟ ..
لحرق في وجهي طويلاً ، ويدت عليه إشارات تفكير صميق ، كاني سألته
سؤالاً صعباً .. ثم قال ببساطة :

— علشان فيه ناس بتيجي تزودني بعض ساعات ..
وأرتعشت شفتي السفلى .. وسألني .

— إيه رأيك في الصور ؟
مسألته .

— التصاوير دي بتاعظه .

وكنت أتمنى أن ينكر أنه صاحبها ولكنه هتف لأدهشني :
— أيوه ..

قلت له في حية أمل
— شكلها يخوف ..

مضطه ، كأنه فرح بما أقوله .. وهتف ..

— لهو أنت فهمتيا .. شوقي الناس حياتها محبطة إزاي .. شوقي العذاب
اللي هم فيه .. الناس يتاكل بعض . العنى بياكل الفقير يهش لحمه
وقطع كلامه ، ونظر إن متسانلاً
— كده .. والا لا ..

ولم ينتظر جوابي واستمر يقول

— أهى الناس بقى شكلها بيخوف حياتهم تخوف .. أفكارهم تخوف .. أما عايز
كل واحد يشوف الصور دي .. ويخاف عى نفسه .. يثور .. ما يسكتش ...
واقترب مني وهو يلوح بيديه . كأنه يحارب شيئاً أمامه ، وقال :
— شوقي أنت الناس عملوا فيكي إيه . شوقي الحكومة عملت فيكي إيه ..
وايتسم قباجة .. وسكت .. وأمال برأسه ، كأنه ينصت إلى صوت
لا أسمعه . ودأخني شعور غامض بأنه ينصت إلى صدى كلماته ..

وجلس إلى جانبي ، وقال بصوت رقيق حالم :
— بكرة يامبروكة الدنيا تتغير .. موش ح بيقي فيه ظلم .. واحدة زيك موش
ح تتخاف على نفسها ولا على ابنها .. ح تعرف تعيش .. زى الأغنيا ما هم
عايشين ..

كانت أول مرة يناديني فيها باسمي أول مرة أسمع مبروكة على لسانه .
نطق باسمي فكانني أسمعه لأول مرة في حياتي .. وسمعته بقلبي ، لقد
عشت وأنا أسمعهم في بيت راتب بك ينطقون باسمي في هذه . ينادون باسمي
وهم يصرخون ويزعقون وأجرى لالبي النداء ، وبعد ذلك سمعت عبد الحميد
ينادي بي باسمي ، فكان ينطق به أحياناً في حماس وأحياناً في توسل وضراعة ،
وأحياناً في ضحك أو عجز .. أما شوقي فقد نطق باسمي في رقة وعذوبة ، نطق
به وكأنه يعرفني كما أريد أن أكون .. يعرفني بأحلامي ، بخيالي نفسي ..
وشعرت بمראה ..

ليتنى أستطيع أن أصدق ما يقوله لي .. إن الدنيا ستتغير . وأن الناس
يوماً سينطقون باسمي كما ينطق هو ..

نحن الاثنان في موقف غريب . - إنما في بيت متهم ، يتراكم علينا التراب ،
ومع ذلك نحلم أحلاماً جميلة .

كيف يحقق هذه الأحلام .. إنه لا يملك سوى الحديث عنها ، وإننا لا نملك
سوى الإنصات إليه . وكلما مضى يوم سابتعد أكثر عن دنيا الأغنياء .. وكلما
مر يوم سوف أحس بأن الأيدي التي تدفعني إلى هذا المكان تسد أمامي طريق
الحياة التي أنعمها .. الطريق الذي سار فيه يوسف وحده وقد رفض أن أسير
فيه إلى جانبه ..

ومع ذلك فإننا راضية بهذا المكان لأنني أستطيع أن أتحدث فيه مع شوقي ،
وأرى ابتسامته . وأسمعه وهو يناديني فكانت ينادي أحلامي .
وابتسمت

فسماعني :

— بتضحكى على إيه ..

قلت له في ارتباك :

— ولا حاجة ..

فابتسم وقال في ثقة .

— بدين عليكى مبسوطه ..

ولدهشتي كنت أشعر فعلاً براحة في صدري ، كأن كل القوضى والقدارة
والتراب في هذا البيت ، قد خرجت من جسمي ، كأن الغرب والفرع قد فرا
من قلبى ، انتزعهما شوقي ، وعلقهما أمامي في تلك الصور على الجدران .
وهعست :

— الحمد لله ..

وسمعت صوت السلم الخشبي يئن تحت وطأة أقدام أم حنقلى . وأسرع
شوقي إليها فآخذ منها حبيبة الخشب ودخلت هي وراءه وفي يدها مكتسبان .
وكان هذا إيذاناً بأن ندأ في تنظيف بيتي الجديد ..

لم أصدق أن أم حنقلى تستطيع أن تشد كل هذا للجهد ، رغم بدانتها
ورغم أنها تلهت ، إنها كتلة من الحيوية والشاط ، كانت تحمل كتلات نساء

- ١٤٢ -

اجتمعن في جسد واحد .

وأقبلت معها على العمل ، وتركت أبنى إبراهيم مع شوقي يلعبه .

وفي اليوم التالي نقلنا الأثاث إلى الحجرتين ، ولم أتبني إلا والليل قد أقبل ،
والظلام يخيم عليّ ، وكنت متعبة ، فتكاسلت عن إضاءة اللمة وجلست شاردة
لا أفكر في شيء .. كان عقلي يستريح من الدوامة التي كان فيها ..

وأققت على صوت شوقي يصيح في أسفل السلم ..

— اللمة فين يام إبراهيم ..

فانتفضت ، وجريت نحوه ، فرايته يصعد السلم ، وفي يده عود ثقاب
مشتمل .. ومن خلفه لشباح تصعد وراه ، فتهز السلم تحت وقع أقدامها ..
وصاح شوقي بلهجة امرأة :

— أنت موش مولعة اللمة ليه ، روحى ولعبها ..

ولكنني لم أتحرك من مكاني .. وقد طفت عليّ مفاجأة القادمين معي ، كانوا
ثلاثة .. حيرتني واحداً بعد الآخر ، وهم يتكلمون في وجهي في الظلام ،
واستمروا في صحوهم وهم يتكلمون بلغة غريبة ..

وبعدت إلى حجرتي ووقفت حائرة ، واند استولى عليّ شعور أكبر من
الدمعة .. شعور بأن هناك شيئاً ما لا أفهمه ..

واكتشفت أن هؤلاء الغرباء يضايقوني ، وأني كنت أتوقع أن يهجم شوقي
وحده ، وإننا سنجلس وحدنا ونحدث ..

وقفز إلى رأس سؤال خبيث :

ما الذي جعلني أتوقع محبة وحده .. ما الذي جعلني أفكر في أني
سأجلس معه ، وقد أقبل الليل .. وضمننا بيت مخلق علينا .

أنسيت أنه رجل .. وأني امرأة لا .. أنا لم أنس .. ولكنني لم أشعر لحظة
واحدة أنه يعاملني كأمراة يريد بها . لقد أشعرني دائماً أن حيائنا معاً شيء
طبيعي .. كحياتي مع ابني إبراهيم ..

وعجبت .. أمممكن هذا ، كيف لم أفكر في علاقتي به قبل الآن . ربما لم يكن
عندي وقت للتفكير ، ولكن هأنذا أفكر .. وأتساءل .. إنه لا يعاملني في خجل

ولا يتهرب منى مثل يوسف ، وهو لا يعاملنى مجرة مثل مدحت ، وهو ليس صديقاً .. أستطيع أن أسيطر عليه مثل عبد الحميد ..

إنه من نوع آخر .. من يكون هذا الشاب ؟

إنه ليس زوجى ، وليس حبيبي ، فمن يكون ؟؟

أهو ملاك هبط من السماء ليتفدنى .. إبنى لا أستطيع أن أفكر فيه كل

لحظة كملاك .. لا أستطيع أن أعمله كل لحظة كملاك .. لا بد أن يأتى الوقت الذى أعامله فيه كرجل .. وأنظر إليه كرجل ..

ولقد جاء هذا الوقت ..

جاء الآن وأنا أراه يصعد السلم فى الظلام مع أصحابه ، فأشعر بالضيق نحوهم .. بل أعار منهم لأنهم يجلسون معه ، وأنا بعيدة عنه ..

يجب أن أعتزف أنى أفكر فيه الآن كرجل ، وأنا لا أخجل من هذا الاعتراف ، أنا لا أخجل من شوقى ، فأنا أحس أن حياتى ملكه ، من حقه أن يفعل بى ما يشاء .. أنا من غيره لا شيء .. لا شيء على الإطلاق ..

وارتجت عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير ، أدركت أنى على استعداد لأن أمنحه كل شيء ، دون أن أشعر بانى أعطيته شيئاً .. أمنحه نفسى بلا خجل وبلا ندم .. وبلا تردد ..

خفت من أفكارى ، فأسرعت إلى اللبى أشعلها نمل ضوءها الشاحب يطرد ما فى رأسى من خيالات .. وأمسكت باللبى وصعدت وكان قرة تجذبى إليه ، كنت أريد أن أراه ، وأتفرس فى وجهه ، وقلبى يصفق بهتة جارف إليه .. ودعشة تملأنى من هذا الشعور الذى تفجر فى ..

وسمعت أصواتاً عالية تنبعث من حجرتى الداخلية ، فوقففت مترددة فى الدخول ، وقد حجبتنى عنهم اللوحة الكبيرة التى تتوسط الحجرة .. وحاولت أن أنصت إلى ما يقولون ، كانوا قد كفوا عن الحديث باللغة الغريبة ، ولكنى عجزت عن فهم كلامهم .. كل ما فهمته أنهم ينادون بعضهم البعض بقلب زميل .. الزميل شوقى .. الزميل شكرى .. الزميل صبرى .. وسكتوا فجأة ..

ورأيت شوقى يقفز من وراء اللوحة ومن خلفه تطل وجوه أصحابه تبطلق وجهي فى قلق ..

وقال شوقى وهو يبتسم فى عصبية :

— إيه .. فيه حاجة ..

قلت له :

— اللبى ولعتها ..

وسمعت أحد أصحابه يقول كلاماً بذك اللبى الغريبة .. فعلمت أنه لا يريد

أن أقهم ما يقول .. وخاطبته شوقى بنفس اللبى ، ثم التفت إلى قائلاً وهو يتصنع الهدوء

— طيب حظيها على رأس السلم .. علشان فيه ناس جايين ..

ففضيت تلك الليلة ساهرة فى حجرتى ، أنصت إلى أقدام تصعد ، وأقدام تهبط .. وأنا أتسائل عن سر هؤلاء الغرباء ..

ومضت شهور وشهور ، حدث خلالها ما كان لابد أن يحدث .. فاطمان
أصحاب شوقي إلى وتعدوا أن يلقوا معي قبل صعودهم إليه .. يضحكون ،
ويسألون عن إبراهيم ، ويلاحظونه أحياناً .. وكنت ألاحظ مرجمهم بعض
الأيام .. ووجودهم في أيام أخرى ، وكان شوقي يناديني فأصعد إليهم وهم
مجتعون في حجرته .. فيجمعون نفوداً يطيحها شوقي لي .. ويطلب مني شراء
طعام ، فأخرج واشترى لهم جبناً وحلاوة طحينية وسجائر هونيود .. ثم
أعود .. واتمشي معهم ..

وأصبحوا لا يتخرجون في الكلام أمامي ، وكانت تدور بينهم مناقشات
غريبة عن مظاهرات يستعدون لها في المدارس والأزهر والجامعة .. ويشتارون
التهافتات التي سيجدونها في المطامرة ، ثم يقف واحد منهم وينظر إلينا وكأننا
جموع المتظاهرين ويهيس بالتهافت : « عاش كفاح الطلبة مع العمال » ..
فيحتج آخريان هذا التهافت ناقص لأنه لا يذكر الفلاحين . ويقف ويهيس
هاتفاً : « عاش كفاح الفلاحين والعمال والطلبة » ..

وتشتد المناقشة ..

كنت أنصت إليهم .. وأنا أعجب مما يدبرون ، وكانوا في نهاية الليل
يخيمون المناقشة ، وغالباً ما يذعنون لكلمة شوقي ، الذي يطلب من كل واحد



منهم أن يذهب إلى مكان صبري يذهب إلى الأزهر ، وشكري يذهب إلى الجامعة ، ومحمود يذهب إلى المدرسة السعيدية .. ليتدسوا بين المظاهرة .. ويردوا الهاتف الذي اتفقوا عليه .

وكت أحمد الله أن شوقي لا يذهب إلى مكان .. كان يفكر معهم ، ويدير خطة المظاهرة طوال الليل ، ثم يذهب إلى عمله في جريدة الأيام في الصباح ، وينتظر هناك أخبار المظاهرات . ويعود في المصلحوي في ما حدث ، فأشعر وكأنه هو الذي يحرك أحداث القاهرة . هو الذي وراء الترمويات المظلية .. والفوانيس المحطمة .. والحجارة التي يقذف بها المتظاهرون الشرطة .

كان بيهرني وهو يتحدث عن كل هذا ، وأكاد أشعر أنني شريكته في تدبير كل شيء ، وأني قوية مثله .

وكان شوقي يقول لي في حماس :

- كل ده علشانك يا مبروك .. وعلشان إلى زيك ..

فأقول له في حماس أكبر :

- امتي يتحقق كلامك ..

فيجيب بإسماً :

كلها سنة .. والا اثنين ..

وأحياناً كنت أصعب فيه وقد نفد صبري :

- لسنة سنة ، والا اثنين .. أنا عايزة أعيش دلوقت .. دلوقت ..

فينظر إلى في وجوم ثم يقول :

- موش لازم الناس كلها تنور .

فأقول في غيظ .

- وأنا مالي .. ومال الناس .. بس أنا أقدر أعيش ..

وعندئذ يبدو عليه الارتباك ، ويقول لي كلاماً كثيراً لا أفهمه ، إذ كنت

استسلم لعينيه وهو يتحدث ، ادعها تنقدان في عيني . فلا أسمع كلامه .

وأشعر بقواي تتراخي ، وبرغبة في أن يكف عن الكلام . ويطرقتني بذراعيه

ويقولني . ويمسحني شيئاً من قوته ..

وسمعت شوقي ذات ليلة يروي لأصحابه ما سمعه في الجريدة عن أحبار مغاضبات صدقي باشا ورئيس الوزراء الإنجليز .. وقال لهم - إن صدقي باشا وافق على توقيع للعامة ، فحدث هياج شديد بينهم .. وأثناء احتدام

المنافسة ، سأل واحد منهم شوقي

- أنت متأكد من الكلام اللي بتقوله ؟

فأجابه شوقي :

- إيوة .. يوسف هو اللي قال لي .

وانتفض الاسم في قلبي ، كأنه كان مائماً فيه واستيقظ ، ونظر إلى شوقي

وكانه يعتذري ، فحوالت عيني بعيداً عنه ، متظاهرة بأنني لا أكرت بشيء ..

وتركتهم وذهبت إلى حجرتي .. وقلبي مازال ينتفض .. كنت أنا وشوقي

نتحاشي ذكر اسم يوسف ، ولكنني كنت أذكره ويهدي بين وقت وآخر ، إذ

تباغتني صوريته بلا سبب . قد استيقظ في الصباح فأجد نفسي أفكر فيه ،

وغالباً ما أذكر مقابلاتي الأخيرة له في مدخل الجريدة وهو يعطيني الخمسين

قرشاً ، ويعيدني بأن يزورني في الغد ، ثم يقفز درجات السلم ويختفي .. وكنت

أحاول أن أصدق بخيالي إلى المكان الذي يجلس فيه ثم أفسح .. أين يسكن

الآن ، وهل يفكر في الزواج ، ثم أتخيله وهو قائم إلى ، يطرُق الباب ، ويدخل ،

وينظر إلى في خجل ، ثم يعتذري ويتوسل إلى أن أذهب معه إلى بيته ، لينفق عن

وايتولى تربية إبراهيم

وأحترماً ماذا أقول له ، هل أوافقه وأذهب معه ، وأترك شوقي ، أم أتشبث

بحياتي هنا . وأطرده في قسوة .. وأعامله كما عاملني ؟ .. وأتقن من خيالي ..

فأفسح . أحاول أن أنساه ..

ولكن أشعر الآن ، بعد أن سمعت اسمه على لسان شوقي ، بأنني أريد أن

ينتفض الاجتماع ، لأسأله عن أخبار يوسف ..

وانتظرت حتى سمعت وقع أقدامهم وهم يهبطون ، فخرجت لهم

وودعتهم . ورأني شوقي فسألني في دهشة :

- إيه اللي مصحكي لدلوقت ..

قلت له .

- أعطك شاي

فقال في استسلام

- طيب .

وصعدت إليه بالشاي ، وحملت أثرتي وقد وجدت صعوبة في ذكر اسم يوسف . خشيت أن أسأله فيذكره لني لم أتم لأنني أفكر في يوسف . وأنا لا أريد أن أعلم هذا . لا أريد أن أعلم أحد في هذه الدنيا أنني أكثر من يوسف . أو أفكر فيه . بعد كل الذبح صنته معي .. لبتني أستطيع أن أمتع نفسي من التفكير في يوسف .. وأنساه إلى الأبد .. واستريح .. لبتني ..

وحاولت في حذر أن أدعوه هو إلى ذكر يوسف .. فسألت عن صديقي بأشأ والإنجليز .. فإذا به ينطلق في الكلام عن الأغنياء الذين يملكون أموال الفقراء مع الإنجليز .. ويشرح لي تلك الكلمة التي كان يرددها دائماً هو وأصحابه .. الشيوعية ..

وحاولت هذه المرة أن أفهم ما يقول فيحدثه يتحدث عن شيء كالعلم .. إن الناس سيقبلوا ما تريد .. الطعام الملابس .. البيت المريح .. ولم أستطع متابعتها .. إذ حلقت معه ، فتركته يواصل كلامه . وحملت أن ابني إبراهيم يلبس البذلة .. ويذهب إلى المدرسة .. وأنا في بيت مثل بيت راتب بك ، أجلس في الصالون أستقبل ضيفي .. كلهم سيدات أنيقات .. مثلي .. يتحدثن معي .. وإسماعيل خادم هندي يقدم لنا القهوة والشربات ..

ثم نظرت إلى شوقي وهو مازال يتكلم . وقلت لنفسي . إنه أبو إبراهيم ، وهو يعيش معي في البيت الكبير . وهو رجل غني . أمواله لا تحصى ولا تعد ، يكسوني كل يوم بالحرير والذهب والماس . ويملك عربة تقف عند باب الحديقة

وفجأة ، اقتحمت ستي الصغيرة الحلم رغماً عني ، فرايتها تدخل

- ١٥٠ -

الصالون . وتنتظرني في أشمزاز وتطردني من البيت . وأنا أجزى وقد تركت إبراهيم ورائي يصرخ .

ثم سمعت صوت إبراهيم يشير إلى شوقي ويقول باكياً .. ده موش بابا .. بابا مات ..

وانقبض صدري ..

وعدت أحاول أن أفهم ما يقوله شوقي عن الشيوعية ، وقد ظن أن سمعتي دليل على اهتمامي بكلامه . ولكني فكرت في أن الفجر أوشك على الطلوع ، وأنا نحن نجلس في غرفة واحدة ، وهو بعيد عني . يقول كلاماً غريباً لا أفهمه .. كأنني لست امرأة ، بل واحدة من أصحابه العديدين ..

وبدأت أشعر بالخفص نحوه .. وحاولت أن أحلم من جديد ، عدت إلى الصالون وجلست فيه . ولكن وجه يوسف قفز إلى فجأة . وملا عيني ..

فهزنت رأسي ، اطرد صورته ، وشعرت في تلك اللحظة أن شوقي مثل يوسف . كلاهما يبعد عني لسبب لا أفهمه .. يوسف يساعد سلم الجريدة ويختفي متي .. وشوقي يضع يميني وبينه حاجزاً من الكلام الغريب ..

وكان شوقي مازال يتكلم فنظرت إليه في غيظ ، أي لدره له على هذا الكلام المستمر .. ما فائدة كلامه الذي لا يتقلنا من هذا البيت العتيق ولا يتقلنا من الفكر .. ولا يجعلنا نطبخ اللحم هذا الصباح .. كلامه لن يكسو إبراهيم .. لن يجلسني في الصالون الذي أحلم به .

وصمت فيه فجأة .. بصوت ساخر

- أهو كلام بتقوله ..

فحدجني ببنارة غاضبة .. أراحتني .. إذ شعرت أنني عاقبتة على كلامه الكثير . شعرت أنني انتفضت من حلمه الذي لا معنى له .

شعرت أنني أعاقبه .. لأنه لم يفكر في تقبلي ..

كنت أود لو ينهض من مكانه .. ويقفطني . ويخلصني من هذه الحواطر المشتعلة في رأسي ..

لوقفل ذلك ، لما سخرت منه . واطلق المزمار الذي كنت أكنتم وحدتي

أقول له في الفعل

- أنت ما تتقاولش يوسف عامل إيه ..

شعرت وأنا أدكر اسم يوسف هذه المرة ، اني أقول لشوقي إنه ليس كل شء في حياتي .

وعاجاه السؤال ، فارتعشت شفتي السفلى ، ونظر إني في دهشة وقال .

- إيه اللي خللكي تتكبريه ولو قمت ؟

قلت له ساخرة

- موش فريبي .. ولازم أسأل عنه ..

ثم قلت كاني أقتعه بسبب سؤالي ..

- أصلي سمعتك بتجيب في سيرته مع أصحابك ..

فقال باقتضاب

- يوسف بقى راجل مهم في الجرنال ...

فسألته في لهفة .

- صحيح ، إزاي .

فنظر إني متردداً ، لا يريد أن يتكلم ، وأغرقتني في عينيهِ .. وقال

- أنت إيه رايت فيه . شكله باين عليه طيب .. وبيعامل الناس بنوق

وأدب . إنما شويه شويه .. عمال يستفيد .. ومرتبته بيكبر . واسمه بيبنزل في

الجرنال .. الحقيقة أنا مهتار فيه . يا ترى هو طيب ولا خبيث .

قلت له مدافعة عن يوسف ، لأبزو وكاني لا اهتم به .

- ده طيب .. ويكسف زي الينت

فقال في دهشة

- أنت بتقول عليه كده . معد اللي عمله هيكي .

قلت له في إصرار

- وإياه يعني . كان بيلغرمي علشان اتحوزت اموه . إنما هو لسه برضه

أحو إبراهيم ابني

فقال في حيرة

- ما اعرفش .. إنما أنا بأشك دائماً في الناس الطيبين اللي يستعيدوا من

طبيبتهم .

ولم أتركه حتى علمت منه كل شء عن يوسف . قال لي إن مرتبه أصبح

سبعين جنيهأ .. وإنه يسكن وحده في شقة بالدقي

ولما سألته .

- ما بيعرفش بنات .

قال لي في انفعال :

- ما سألتوش .. تحبي أسأله ..

فقلت له ساخرة .

- أصله زيك ..

فصوب إني نظرة طويلة ، ثم قال وهو يتثأب :

- يمكن

وكنت أهجم عليه وأهنته .

ولكنني قمت ، وهبطت السلم إلى حجرتي ، وأصوات المؤذنين ترتفع تواقف

النائمين للصلاة .

وجاء يوم عاد فيه شوقي إلى البيت بوجه كتيب . ليخبرني أن البوليس قد

قبض على أصحابه . وأنشبهت في تلك اللحظة .. إلى شء غاب عني ، وهو أن ما

يقوم به ليس لعبة يتسلل بها ، إنه وأصحابه لا يلعبون ولا يطمعون ، وإنما هم

حقى ، يقتحمون في طيش معركة مع الخوف والشرطة والسجن .. والموت .

وخفت على شوقي .. كان خوفي عليه أكبر من خوفي على أصحابه المقبوض

عليهم .

وصحت فيه :

- أنا سابقة عليك النبي .. شمينك من الهجاب ده ..

فقال لي حزين وكبرياء .

- بلاش كلام فارغ .

قلت له :

- أنت موسى تقول إن اللي يتعمله ده حلفتاني .. أنا موسى عايزه حاجة ..
فابتسم وقال في أسى .

- ما تبقيش عبيطة يا مبروك
فلقت له غاضبة :

- أهو أنت حر في نفسك .. خليهم يهدوك ويحبسوك .. ما أنا عارفة
أخترتها ..

أزعجني أنه يريد أن يمضي في حمايته ، رغم ما أحدث لأصحابه وانتابني
قلق شديد عليه ، وعمل أبني ، وعمل نفسي .

وكنت إذا خرج شوقي من البيت لا أطلق الجلوس وحدي ، حتى لا أفكر
فيما قد يحدث له ، وتشدد مخاوتي ، وأتذكر عرض القبط عليه ، وأتذكر
سبي الكبيرة ، فأراها وكأنها مازالت حية ، تتصبني بالابتعاد عن شوقي ،
وأؤكد أسأله .. أو أسأل نفسي ، ما العمل ، إلى أين أذهب ، إلى من أجا ،
فلا أسمع جواباً ، ولا أحتمل انتظار عودة شوقي ، فأهرع إلى أم حنفي
وأجلس معها .. وأترك إبراهيم يلعب مع ابنها شحات في الفناء ..

وكانت أم حنفي ترحب بي ، وتشرح بمجيئي ، وتروي لي حكايات
لا تكتفي ، وكانت لا تستريح إلا إذا سمعتني أؤمن على ما تقول .
أو أمصص شفطي في حسرة عندما تشكو في همومي .

وكانت همومها كثيرة ، زوجها يسيرني يخرج في الصباح المبكر ، والنجوم
مازالت في السماء ، ولا يعد إلا وقد أوغل الليل ، وكان يعمل ساعياً في شركة
في العباسية ، وكان يمضي في الذهاب إلى مقر عمله وفي الإياب منه ، ويحمل معه
غداه في صرة ، حتى يوفر مصاريف التواصلات ، ورغم مشيه الكثير كان
بدنياً مثل أم حنفي ، له كرش ضخم ، ووجه سمين أحمر البشرة .. وجه طفل
عجوز ، وكنت أراه أحياناً وهو عائذ إلى البيت يلهث ، وأنا عائذة بالعشاء
أو السجائر لشوقي وأصحابه ، فأصير معه إلى البيت ، وهو متقوش كالديك
مرهوس بدلته الصفراء ، وكأنه يظن نفسه ضابطاً في الجيش .

وأكثر هموم أم حنفي ، من ابنها حنفي الذي تركها وهاجر إلى الإسكندرية

وتزوج هناك ، واشتغل في السكة الحديد ، وقطع صلته بها ، وتلقى أم حنفي
الزوم على زوجها لأنه ترك ابنه يفلت منه ، وتخطله امرأة إسكندرانية ، أنه
وحده يعلم بمالها .

وأحياناً كان يصلها خطاب من ابنتها التي تعمل ممرضة في مستشفى
بالاسماعيلية ، فتمسك بالخطاب وتحاول أن ترى إذا كان ما بداخله إذن يريد
دون أن تتحكه حتى لا يعضب زوجها ، فإذ رأت إذن البريد ، دست الخطاب
في صدرها ، وجعلت تردد بين لحظة وأخرى في صوت أشبه بالندب .

- يا ترى عاملة إيه يا غامضة - والسبي وأحشائي يا بنتي ..

أما إذا لم يكن بالخطاب نقود ، تجههم وجهها ، وثارت فتتأري ابنها شحات
من الغفاه وتضربه ، وتسب عذاب الخلف وسيفه .

وكنت أراقبها وأنا أفكر في أيامي القادمة ، فأكد أرى نفسي مثلاً ، بل في
حال أسوأ من حالها ، فأفزع ، وأفقد عقلي ، وأرى إبراهيم يلعب في الفناء ،
وقد امتح من رأسه إلى قدميه بالتراب ، فأشخطفه ، وأصرخ ، وهو يصرخ
وهمته المكان بصراخنا حتى يصيبنا اللعاب ، فيضيم علينا صمت ثقيل .

وأستغفر الله .. وأدعوه عله يهدي شوقي لتيوب عما قوفيه ، وينقذه من
للشرطة . ثم استعرض في أسى من عرفت في حياتي .. عرض الذي سرق وذهب
إلى السجن .. مدحت الذي أراد أن يقتصيني .. وعبد الصعيد الذي ودع
حياته بامتصاص شجائي .. وشوقي الذي يريد أن يصرق كل شيء .. ويصرق
نفسه .. ويصرقني أنا وأبني معه ..

يلرب لماذا كان نصيبي هكذا دائماً ..

يوسف وحده هو العاقل الرزين .. وهو وحده الذي فرمتي ، لعله أدرك أنني
مصدونحس ، لبل عقله هو الذي جعله يهرب مني ، حتى لا يربط حظه بحظي
التعيس .

وأحقد عليه ..

إنه يرتفع ويرتفع ، وأنا أميط وأميط ..

كلت أمنيقي في حياتي أن أهزمه .. أن أضطره إلى الاعتراف بأنني سيدة

وايست خادمة .. وها هو يدوستي بدميه ، ويصعد فوق تلمستي ..
إني احقد عليه .. احقد عليه .

وأعيش مع حقدتي حتى أسمع صوت أقدام شوقي وهو يصعد السلم ،
ماجري إليهِ ، وقلبي يفيض بالهبة ، وأراه مائس كل شيء .. أنسى حقدتي .
وأنسى خولي .. وكان روحي عادت إلى ..

ودغم ذلك كنت أعمله بجفاء ، لا يقول كلمة إلا وسخرت منها . أريد أن
أبغض عليه حياته .. أريد أن أحطم هذا الكبرياء الذي يحتمي به ، حتى
لا يشعر بأنه قوي .. فيتمدى الشرطة .. ويعرض نفسه للخطر ..
كنت أريد أن أقول له .. كيف يتصور نفسه أنه قادر على ما يريد ، وهو
لا يستطيع إسعادي .. بل لا يستطيع أن يكسب عطفى عليه .
كنت أحرمه من عطفى .. لأنى أريده إلى جانبي .. لأنى أحبه .. لأنى
لا شيء من غيره .

وكانت وجوه جديدة قد بدأت تتراءى عليه ، تأتي متلصصة في الليل
ولا تعطيل الجلوس معه .. يتبادلون كلمات سريعة ، ثم يفتقون .. ورايت
أردافاً كثيرة يغطيها شعاع تحت الأريكة .. فتذكرت يوم فتن عبد الحميد
حجرة يوسف يوم لبس البوليس عليه ، وقد شك في وجوه منشورات معه ..
وقلت لشوقي في غضب

- أنت جايب الورق ده هنا علشان البوليس ييجي وراءه .

فقال في دهشة :

- وأنت ايش عرفك ..

قلت له

- أيوه .. دى منشورات ..

فصاح

- وكمان عارفة انها منشورات ..

فحكيت له ما حدث ليوسف ، فاستمع إلى في انتباه شديد ، وقد لعت
عياءه ..

وقلت له مهينة إنى سألوك أم حباب إذا جاؤا وسألوك ألم حننى
والأسلى طه التجاريان يقولوا لهم إذا واهم إنه قد ترك هذا البيت ..
فضحك .. وقال :
- بلاش جتن ..
قلت له في عنك :
- والله لانا علامها ..

فلتابه شك في أنى قد أنفذ تهديدي . وارتعشت شفتى السفلى وقال بصوت
حاسم :

- اسمعى .. لو عملتي حاجة زي دي .. أدت اللح تسيبي البيت ..
صفعتني كلمات .. كانت قاسية كالوت .. كان البيت قد تهدم لوقى ..
وصدفته .. فرايت نفسي أنا وإبراهيم في الشارع ..
ويكيت ..

فأدار ظهره ، كأنه لا يعنيه شيء .. وهبطت إلى حجرتي ، أبكي كالمجنونة ،
رأس قائم يقرع راسي حتى سمعت صوته يناديني ، فجريت إليه في الخزع ، وأنا
أتوقع أن يأمرني بترك البيت في الحال
شعرت لحظتها وأنا صاعدة إليه ، انى الهى النداء في بيت راتب بيه ، وأنى
عدت خادمة وهو السيد .

ووقفت أمامه ارتجف ، وقد تكسرت رأسي ، وقد ظننت أنه لو رأى دموى
سيغضب ويشتمني كما كان يفعل راتب بك .
وسمعته يقول :

- تعالى يا مبروكة ..

وامشيت يده وامسكت بيدي ، فرغعت عيني في توسل ، أكاد أستعطفه
ليرجى قراره .. ورايته ينظر إلى في حنان وألم .. فكذبت ما أرى .. وتبعته
والخوف يكتم أنفاسي ، حتى أجلسني على الأريكة وجلس إلى جانبي .
وهمس :

- مبروكة .. أنا موش عارف أقول لك إيه .. باتمنى أقطع لساني ..

ولا كنتش أقول لك اللى أنا قلته ..

واجهشت بالكاء .. تفجر من صدري قوياً طاعياً .. يائساً .. فقال وهو
يضغط على يدي .. بصوت محتقق :

.. البيت ده بيتك .. أنا غلطت معاك يا مبروكة .. ماضيتي ..

واستمر يتكلم .. حتى قلت له بصوتي البلكي :

.. كتر خزيك .. عايزني أسيب البيت ..

فهتف بحرقه :

.. بلاش تعذبيني يا مبروكة .. كفاية اللى حصل ..

ثم قال في حنن :

.. هاتني راسك أبوسها ..

وقبلنى فى شعري ..

ولكن خوفي كان مازال جاثماً عليّ .. فلم أصدقته .. وشعرت بعجز تام
أمامه .. فقلت له في ضراعة ..

.. أنا في مرضك .. ما تطردنيش من البيت .. أروح فين ..

صاح :

.. كفاية يا مبروكة .. كفاية ..

ولكنني اندفعت لائلاً في يأس :

.. أنا ح أعمل اللي أنت عاوزة .. بس خليني أعيش أنا وابني .. أبوس

أيدبك .. أبوس رجلك ..

كان خوفي يتزايد كلما حاول أن يطمئني ، فقدت ثقتي فيه .. إنه مثل

يوسف إنه لن يكون أبعد منه ..

وكانت ليلة تعذيب فيها كما لم أتعذب من قبل . ولم أكن أعلم أنني عذبت

معها أيضاً ..

ومنذ تلك الليلة تغيرت معاملته لي .. كانت كل كلماته وكل حركة تبصرونه

وكأنها اعتذار مستمر عما لاقى لي . وكان إذا جاء ، أصحابه ، نظروني في

أربابك ، وكأنه يستعطفني أن أسمع لهم بالبقاء . وإذا تركوه أسرع إلى ..

وحاول أن يضحكني .

وقال لي مرة وهو يرسم في لوحته الكبيرة :

.. تمايل القدي معايا لما أحكيك على يوسف ..

ودوى لي أنه أحب فتاة تعمل كومبارس في السينما .. اسمها سامية

سلمي ..

وخرجت بالخير ، وسكنت في انزعاج :

.. ح يتجوزها ..

قال وهو يبتسم :

.. مين عارف ..

فزعلت غاضبة

.. لازم تكلمه .. وتنصحه ..

فلوح بالفرشاة في وجهي لائلاً :

.. أطمئني .. يوسف أعقل مني .. ومثلك ..

فقلت :

لكن يعملها ..

فقال لي ثقة :

.. أنا متأكد أنه موش ح يتجوزها ح يخاف هل مركزه في الجرنال

فسألته :

.. يعني أيه كومبارس ؟

فقال وهو يعود إلى لوحته :

.. يعني ممثلة صغيرة .. موش زي ليلى مراد .. ولا فاطمة رشدي ..

وشغلني هذا الخبر كثيراً ، حتى سألت نفسي في دهشة ، ما سر اهتمامي

به .. وما سر انزعاجي من زواج يوسف بهذه الكومبارس ..

ويرتفع صوت حقيقي .. فأقول فلينزوجها ، لعلها تشفيه .. وتفسد

حياته ..

ولكنني أشعر رغم ذلك أنني في قرارة نفسي لا أتعنى له هذا الزواج .

واعلم ان حنيني إلى أيام يوسف .. مازال أقوى من حقدى ..
إني لا أستطيع ان أحقد على تلك الأيام التي عشتها أكسيدة .. لا أستطيع
ان أحقد على أملي الذي أعيش له .. وكنت أحققه يوماً ما ..
وعاجأتي شوقي عصر يوم قاتلاً :
- إيه رايت تروحي الميعة معايا ..
كدت أصبح فيه .. لا .. لن أذهب معك .. إذ تذكرت في لحظة خاطعة عيد
الحميد وذهابي معه إلى السينيما .. وتذكرت موت عيد الحميد ..
وقاومت خوارطى وسكنت
- ح نروح ليه ..
- علشان تشوفيا ..
قلت له في برود :
- شفتها ..

فقال وعيناه تلمعان بنظرات مأكرة ..
- علشان تشوي سامية ..
واقبلت في الحال ..

ارتديت أجمل لفسائتي .. ووقفت أمام اثراة طويل لا لأطمئن على جمالي قبل
أن أذهب لرؤية سامية ، شعرت وكأنى سألقاها يلحسها ويمسحها وسأدخل معها
في معركة ، سيطرن في نهايتها من منا الأجمل والأحسن ، وكنت واثقة من
نفسى ، مصممة على اكتساحها ، وإثارة غريبتها ، وكأنها ستظل إلى من شاشة
السينيما ، فترانى وتذكره أنى أجمل منها ، فتموت من الحسرة ..
وكنت قد رسمت لها صورة في خيالى ..
اقتنعت بنفسى أنها تشبه سعاد ، إذ كلما فكرت فيها ففزت صورة سعاد
أمامى موجهها الأبيض المستطيل وعينيها اللويعتين السابقتين وجسمها
المعتره ، وقوامها الطويل ..
وعجبت مما أكر فيه ..
هأنذا أعود إلى المقارنة بينى وبين سعاد ، ولكن في صورة أخرى .. صورة

سامية ..

وضمكت ..

هذه المرة أنا واثقة من نتيجة المقارنة ، إن سعاد الجديدة ليست أكثر من
ممثلة تافهة .. واحدة من إياهن .. بلا شرف ، ولا أخلاق .. وأحسست
بالسخرية والشماتة في يوسف ، إنه ينحدر إلى الفضيحة يلقي بنفسه في عالم
قذر ..

وانتابنى فرح طامع وأنا اتخيل المصائب التي ستقع على رأس يوسف من
وراء علاقته بهذه الممثلة ..
وفجأة .. فزعت ..

واضطربت ، وشعرت بالاختناق ، ورهت أبتهل إلى الله أن يبعد يوسف
عنها ، وينجيه منها ..
وشعرت أنى سأكون تعيسة لو تزوجها ..

وجلست إلى جانب شوقى في السينيما ، أتلعلل في مقعدى .. أسأل شوقى
في لغة كلما ظهرت ممثلة ، إذا ما كانت هى سامية .. وهو يقول لى هامساً :
- لسه ..

وقد نفذ صبرى ، فلم أستطع متابعة حوادث الفيلم ، رغم أننى كنت أرى
يوسف ويهوى لأول مرة في حياته ، وقد أعجبني شكله وخفة دمه ..
وكان يوسف ويهوى يسير في حارة معتمة ، وهناك عصابة تترهب به وتريد
أن تقتله عندما ظهرت فتاة ترتدى الملامة اللف ..
ولكرتى شوقى هامساً في انفعال ..

- أمى دى سامية سامى ..

فنظرت إليها في دهشة ..

وخاب أملى ..

كانت على غير الصورة التى رسمتها في خيالى ، إنها لاتشبه سعاد في شيء ..
بدت نحيفة مسالمة قصيرة ، لها عيانان مأكرتان ، عيانان فيها وقاحة ، وفيها
واسع يكاد يشطر وجهها إلى شطرين ، وشفتاها معتلقتان تهمتان ..

كانت تسبح في الحارة وهي تتثنى وتتلفت وراءها ، وتكتم بصمتها يوسف
وهي ، فسار وراءها كالبعيط بضع خطوات ، ثم واقفت وقالت له بصوت
خفيض مبجوح

.. أنت عايز مني إيه ..

فقال لها يوسف وهي في ارتباك :

.. أنا ياسد ..

وفي نفس اللحظة ظهر من وراءه رجل من العصابة ، ضخم الجثة ، ووقد يده
عصا عليقة ، وهجم الرجل على يوسف وهي وبشره ، فسقط مغشيا عليه .
وابتسمت سامية .. وأدارت ظهرها ، ومشيت وهي تتثنى ، وكأن في
جسمها زميلك .

التفت إلى شوقى وهمسدت في غيظ :

.. جاتك تيلة .. يوسف . يعني ما تقاش إلا المجرمة دي ..

فصمك وقال :

.. هي ذنبها إيه .. الدور عايز كده ..

قلت له :

.. دي وحشة ..

فلم يرد علي .. فسألتها غاضبة :

.. أنت مسبوطة منها ..

فقال في برود ، وهو ينظر إلى الشاشة :

.. موش بطالة ..

وفاظنتني إجابته ، فسألتها ساخرة :

.. عايزك فيها إيه ..

قال وهو يهز كتفه دون أن ينظر إلى

.. يعني ..

وتركتني لغيتي ..

وانتظرت ظهور سامية مرة أخرى ، ولكنها اختفت تماماً ، فلما انتهت

الفيلم سألت شوقى في دهشة

.. هيه راحت فين ؟

فسألتني في غير فهم

.. مين ..

قلت له :

.. الالهية دي .. سامية ..

فصمك قاتلاً :

.. ما هي كومبارس .. دورها صغير ..

قلت له في شماعة :

.. والله ما تنفع بيصلة .. دا أنا أحسن منها ..

قال لي وهو ينظر إلى في عجب :

.. تحبني تبقى زينا ..

فهتفت في حدة

.. فشر ..

وغضبت منه ، فظل يصلحني طوال الطريق ، ولما وصلنا إلى البيت كان
يبدو عليه التعب ، والنوم في عينيه ، ولكني لم أتركه ، إذ كانت بي رغبة جامحة
في الكلام .. كنت أريد أن أتحدث معه عن يوسف

واستسلم شوقى لرغبتني ، فجلس ينصت إلى ، وأنا أروي له كل شيء عن
يوسف ، حكيت له عن سعاد وزوجها ، وكان يستمع إلى باهتمام وفضول
شميدتين ، رغم أنه كان يتثائب أحياناً ..

ولست أدري لماذا حدث لي ..

شعرت وأنا أحكى له ، أنني حزينة وأني قد كبرت وتقدمت في السن .. وأني

أخفق بالذكريات ..

تذكرت سني الكبيرة عندما كانت تجلس بعد انتهاء الغارات ، وتحكي لنا
الحكايات ، وخیل لي أنني أصبحت في سنّها ، وأن حياتي قد انتهت ولا أحد
يهتم بي .. حتى شوقى .. إنه لا يهتم بي ..

حيل إلى أن كل الرجال في هذه الدنيا لا يهتمون إلا بسلامية .. واحسست في
قراءة نفسي أنها هرمتني .. وأن شوقي لا يتناوب لانه يريد أن ينلم .. بل لانه
يريد أن يتخلص مني .. لو كانت سلامية هنا .. مكانى .. لما تناب
وصحت فيه

.. يعنى قاعد تسمع ولا بتتكلمش فبذل محمود أ كبيراً لبيتسم ..

وقال

.. اصل انا نعيان ..

قلت له وأنا أشك في كلامه ..

.. نعيان والا بتفكر في سلامية ..

قال :

.. ح أفكر فيها على إيه ..

قلت له وكان قوة تمل على ما أقول :

.. يمكن بتحبها أنت كمان ..

قال .

.. بلاش عيب .. قومي نامي ..

ورفشت أن أقوم .. وانطلقت اسب سلامية وأشتمها .. وأنا اشعر أنني لن

أستريح إلا إذا فعلت هذا .

كنت مضطربة ، لا أستطيع أن أسيطر على ما أقول . ولا على ما أفكر

فيه .. والذكريات تدور في رأسي كأنها أشباح تتسابق بلا هدف .. وبين لحظة

وأخرى تنقفز إلى رأسي صورة ستي الكبيرة ، وكأنها تقول لي إني أصبحت

عجراً مظلماً .. ولم يبق لي إلا أن أودع الحياة .

وفجأة وجدتنى أسأل شرقى :

.. أنت كنت بتعمل إيه أيام الغارات ؟

قال وهو يحدق في لعله يعرف مر سزالي .

.. ولا حاجة .

ولم تعجبني إجابته ، وكان على وشك أن يقع نائماً ، فنهت في عناد .

.. ١٦٤ ..

.. ماهو لنا موش ح اسبيك تنام .

فهز رأسه ليظهر النوم منها .

وقال لي بصوت خفيض حدون :

.. أمرك ..

.. وعدت أسأله ..

.. يعنى ما انتش فأكو أيام الغارات ..

لهقال :

.. طبعاً فأكوها ..

ورفع رأسه .. ونظر إلى نظرة طويلة . وقال فجأة :

.. اسمعي .. أنا ح أحكيك على أهم حاجة في حياتي .. حصلت أيام

الحرب ..

روى لي قصة غريبة ، لم أفهمها تماماً عن جندي في الجيش الإنجليزي

ولكنه لم يكن إنجليزياً ، كان متطوعاً مع الإنجليز ليحارب الألمان ، وكان هو

أول من علمه الشيوعية ..

كان يذهب معه إلى بيت رسام في القلعة ، ويشربون الويسكي الذي يأتي به

من الجيش ، ويحدثهم عن الشيوعية والثورة ..

وسأله .

.. وإيه اللي خلاك تسمع كلامه .

قال على الفور :

.. علشان افقتعت بيه .

قلت له سألخه :

.. ضحك عليك ..

فنظر إلى متوسلاً .. وقال وهو يتنأب .

.. اللي حصل .

قلت له ضاحكاً في أسي :

.. باين عليك عايز تنام .

وقمت ، وقد شعرت اسي تصاديت في تعذيبه ، وهبطت إلى حجرتي وأنا
اتسائل عما بي ، وقضيت بقية الليل ساهرة مع حزني وذكرياتي وشعوري
بالقلق والوحدة

بعد يومين ، طرق شوقي بابي ، وقال لي بصوت جاد :
.. مبروكة أنا عزيزك في حاجة مهمة ..

وصعدت معه إلى حجرته ، فروي لي في كلمات سريعة أنه هو وزملاؤه قد
قرروا شراء مطبوعة يطبعون عليها منشورات ويوزعونها على الناس ..
استمعت إليه في دهشة ، حتى قال لي فجأة :

.. أنا عزيز منك عشرين جنيه .
ولم أفهم كلامه ، حتى كرهه ، وأنا انتظر إليه في بلاهة ، لا أريد أن
أصدق ما يقول :

وفكرت بسرعة ، وقررت أن أرفض طلبه ، إن كل ماسمي سبعة وثلاثون
جنيهاً تبقت لي من الخمسين جنيهاً التي أخذتها لإخلاء بيت الفلكي .
وهي ليست نقودي ، إنها نقود إبراهيم ، نقود ابني الذي يكبر بسرعة ،
وتزداد مطالبه يوماً بعد يوم ..

وأنا في حاجة إلى كل ملهم ..
وهو يعلم هذا ..

هل أقول له إنني فقيرة ولا أملك شيئاً .. إنه يعلم ..
هل أسأله كيف يأكل إبراهيم ويشرب .. ولكنه يعلم ..
ومع ذلك ، عجزت عن النطق بالرفض ..

واحتثرت ، وزاد من حزني أنني كنت أشعر ببعض الاطمئنان لأنه معي ..
ولأنني لو احتجت إلى شيء فسأجده إلى جوارى يمدني بالمساعدة ولكني لم
أتوقع أبداً أن يكون هو في حاجة إلى ..

وصرخ عني ، أرفض طلبه ، لاتعطيه مليماً واحداً ، إنه يريد أن يخضع
لنفوذك عن مطبوعة لن يأكل منها أدك ولن يشرب ..

ولكني لم أمتنع الرفض مستحيل أن أرفض طلبه .. إنني وكل ما أملكه
له ..
وقلت في اضطراب :

.. يس عشرين جنيه موش كتير .

قلتها وأنا أتمنى أن يعدل عن طلبه ، إنه قادر على قراءة أفكارى ، ولاشك
أنه أحس بكل ما يعتف به عقل ..
ولكنه قال بسرعة :

.. أنا عارف .. يس أنا عايزهم

ولم أناقشه .. احضرت له النقود وأعطيتها له بيد مرتعشة ، وأنا أقول
لنفسى .. امسى إلى الله .
واخذ النقود ودسها في جيب بنطلونه . وتمتم بكلمات شكر سريعة ..
وانطلق إلى الخارج .

ومضت أيام ، وهو مشغول عني وكان يتهرب من الكلام معي ، إلى أن
سمعت مساء يوم صوت أقدام كثيرة تصعد السلم ، فخرجت لأرى من
القادمون .. فوجدت شوقي وأصحابه يحملون المطبوعة ويسعدون بها إلى
فوق ..

واندفعت وراءهم .. وراء نقودي بهذا بهم يعرفون أنني قد دفعت العشرين
جنيهاً ، ويشكرون لي ما فعلت وقضيت الليلة معهم ، اتفرج عليهم وهم
يطبعون المنشورات ..

وانصرفوا قبيل الفجر .. ومع كل واحد منهم كمية من المنشورات ليوزعها ،
وأردت أن أهبط إلى حجرتي لأنام ، ولكن شوقي أمسك بكفتي ، ووجهه يفيض
باللح . وقال لي ضاحكاً :

.. انتب رايحه فين .. أنا موش ح أسبيك تناسي زى ما بتعمل في .

وتعانقت عيناه بعيني .. وقال لي حنان :

.. أنا موش عارف أعملك إيه بامبروكة .

وضمني إلى صدره ، وقبطني في خدي وصممني بقوة أكبر ، وهو يردد في

حنان ، وشفته تنمرغان على خدى .

- مبروكة .. مبروكة .

شعرت أن جسمى يتلاشى بين ذراعيه ، ويدون وعى قبيلته فى خده وطوقت عنقه بيدي .

وهمست وأنا لا أدري ماذا أقول

- أعمل فيك إيه ..

فأسكتتنى شفته .

ولكن شيئاً أقوى من الكلام سيطر عليا ، وضمتنا فى قسوة وعنف ونشوة .

تفجرت فى جسدى رغبة طاغية فى أن أستولى عليه ، كنت أريده .. أريده بكل ما فيه .. أريد أحشائه .. روحه .. حياته ، أريد قوته وكبريائه .

وأخذت منه كل شيء

ومنحته كل شيء ..

التهمنى ، والنهتته ، وعشنا معا فى غيبة رفعتنا فوق الدنيا والأحزان والذكريات والحب .

وسمعتهم يهمس لقلبي بكلمات حلوته ، وقال لي وهويكاه يبكي إنه يحبني ويحب إبراهيم ، ويحب الأرض التى أمشى عليها ، والأشياء التى تقع عليها عيني ، ويحب أحلامي ويحب أحزاني ، ثم قال وهو يمسح بيده على شعري برفق .

- أنت أحسن منى يا مبروكة .. قلت له محابة ، وقلبي ينبض بنشوة جارفة :

- ما نقشش كده ..

وضحك لي أنفعال ويده تعبت فى عصبية بخصلات شعري ..

- أنت ح تلخبطيني مخي .. قلت له فى انزعاج

- معد البشر عليك ..

قال لي لهجة غريبة وهو يتنهد .

- أنا خلاص يا مبروكة .. ما بقشش عارف إيه الصح .. وإيه الخطأ .

ولم أفهم ماذا يريد أن يقول ، وكنت أشعر بخدر لا يذيد يسرى فى جسدى ، فتركته يثرثر .. حتى نام .. ونمت فى أحضانه .

فتحت عيني فى الصباح .. لا أذكر أى تركت إبراهيم وحده طوال الليل ، وهبطت السلم وأنا أرتجف من الخوف ، وقابلتنى نظرات حادة قوية ، نظرات فيها اتهام ..

لحسست أنى هبطت إليه عريانة ، وأنه يعرف ما حدث ، كانت نظراته تنقب جسدى وتؤلننى ..

هجمت عليه أضمته إلى صدرى ، فذهعني ببديه الصغيرتين ، وبدا عليه النغور وأبعد رأسه عني ، يريد أن يتخلص من قبضتي وكأنه يشم رائحة شوقي فى جسدى .

وأوشكت على البكاء ، وشعرت بتعاسة هائلة ..

أهو يعلم حقاً .. أم هو أوهام تدور فى رأسي .

قضيت النهار كالجنونة ، تطاردني نظرات إبراهيم ، حتى عاد شوقى ، فجريت إليه ، وقلت له وأنا رأسي فى صدره .

- أنا خاليفة من إبراهيم ..

قال وهو يقبضني فى شعري :

خاليفة ليه ..

قلت له فى ألم :

- زى ما يكون عارف .. موش راضى يخلينى أقرب منه ..

فابتعد عني واستغرقه تفكير عميق ، ثم قال :

- احنا لازم نأخذ بالنا .. العيال الصغيرين بيفهموا كل حاجة . ومنذ ذلك اليوم وأنا وشوقى نحاول استرضاء إبراهيم ، كانه حبيباً وحياتنا كلها طوع امره ..

ونجحت فى إقناع إبراهيم بأن شوقى والده ، ولم أشعر بأنى أضدعه ، إذ كنت نسيبت عبد الحميد ، ولم تعد ذكره تخطر ببالي ، وكان شوقى يعود إلى البيت ومعه حلوى يقدمها لإبراهيم ، ويقضى معه بعض الوقت يلاعه ويثرثر

كنت أشعر في تلك اللحظات برهبة تسيطر على الحجرة . وكان شوقى يقوم بعمل سحرى . وكانت تمضى الساعات أحيانا . وهو لا يلتفت إلئ وقد نسي كل معه ويتحاشى أن يلمسنى أو يكلمنى أمامه حتى ينأى إبراهيم . فانتظر إليه في عطف وخوف . وأتسل صاعدة إلى شوقى . فأجلس أرقبه وهو يرسم . وعينائى لا تفارق يده وهى تمر بالفرشاة على اللوحة . أو وهو يتأخر خطوات ويظهر إلى الرسم . وقد يبتسم وجهه . كأنه يحدث نفسه . وترتجش شفقه السفلى . ثم يستأنف الرسم .

شء من حوله . وأمس بأن الليل قد تأخر فأصبح فجأة :

.. كفاية شمل ياء ..

فيلتفت إئى بعينين شاركتين .. ويبتسم . فأذهب إليه وأساعدته في تنظيف أدواته . وجلس معا . نتحدث حتى يحتوينا الحب وتغيب فيه .. كانت لهفتى عليه قوية . وكأننى أريد أن أعرض معه ما فأتنى . كأننى أريد أن أصور لماما متاعبى مع عبد الحميد . ومحاولاته الفاشلة التى كانت ترهق جسدى .

وكنت أثور يوم يأتى أصحاب شوقى . إذ يهرموننى منه . وأود لو أطردهم . وأنظر إلى شوقى في غضب . فيدرك أنى دائرة . ويتنهز أى فرصة ليتركهم . ويهبط إئى في حجرتى ويقول مأسأ حتى لا يوقظ إبراهيم .

.. معلنش يامبروكة .. ح بمشوا دلوقت ..

فأقول غاضبة :

.. كفاية عليك أصحابك ..

فيبدو عليه الارتباك ويقول في حيرة :

.. ح أعمل إيه .. كلامهم كتج ..

ويحاول أن يتخلص منهم . فإذا ذهبوا جاء إئى . وطلب منى أن أصدق معه . فأتظاهر بأن النعاس قد غلبنى فيجوزنى ويتوسل إئى . ويجذبنى حتى أصدق معه .

وقلت له أن يطلب من أصحابه أن يبحثوا عن مكان آخر يجتمعون فيه .

فقال لى متردداً

.. بس هنا أمان .. والبوليس ما يعرض الحته دى ..

فصحت فيه

.. يعنى عايزنهم ييجوا لحد البوليس ما يعرف .. ويمسك معايم ..

فأطرق يرأسه .. ثم قال فجأة :

.. اسعنى يامبروكة .. لازم نعمل حسابك إن البوليس يصح يقبض على فى أى وقت ..

فصرخت

.. يا قهرتلى لما تقول لى الكلام ده . وشعرت أنى يجب أن أمارب من أجل سعادتى . وصممت ألا أهدأ حتى أنتصر على أصحابه وأبعدهم عنه ..

أقتربت منه . ولبست خدى بشعره وقلت له فى حنان :

.. لو حصل لك حاجة أنا ح أموت نفسى .

قال محتجاً بصوت ضعيف :

.. بس أعمل إيه .. أنت عايزانى أنسب كل حاجة ..

قلت له وأنا أقبله على جبينه :

.. أنا موش عايزاك تسيبنى - ح أعمل إيه من غيرك .

وقبلت ذمعه . لأخذ صوت احتجائه . فاستسلم إئى . ولكنى كنت أدرك أنه مازال فى قرارة نفسه مصمماً على التمسك بأصحابه .

وصدق ظنى . فرغم غضبى وثورتى ظل يستقبلهم . وكان يقول لى : إن هذا هو الطالب الوحيد الذى لا يستطيع أن يلبيه . وإنه يعتبرنى شريكة له فى كل ما يفعل . وإنه لا يدرك كيف يحترم نفسه أو يستطيع أن يهينى . إذا ما تحلى من الشئ الذى يؤمن به ..

ومضت شهور وشهور . ومحاولاتى تتعدد أمام إصراره وعنايه .. وكنت أحاول أحيانا أن أثيره . فأذكره ببيوسف . وأقول له إنه أقل منه فهو لا يعرض نفسه للخطر . ومركزه يرتفع ومرته يكثر ..

كنت أسأله ساخرة .

ويحدثني أقول وأنا أعتى ما بيني وبين شوقي

— برضه ما يصحش كان لازم يتجوزها بعد اللي حصل بينهم فسطر إني
نظرة طويلة .. وخيل إني أنه هم ما أعنيه .. لأنه سكت لفترة طويلة ..

ومع ذلك لم أكن أشعر بدمع قوي للإلحاح عليه بالزواج ، كنت أحس اني
يجب أن أتخلص أولاً من أصحابه والمطبعة والمشورات وأفكاره النائرة ،
وخطر القبض عليه ، قبل أن أتزوج منه

و ذات يوم ، اكتشفت أسي حامل .. فلم أزعج مثلما حدث لي يوم حملت
إبراهيم ، وكنت واثقة أن شوقي سيتقبل الأمر ببساطة ، وأنه سيتزوجني في
الحال

ولكنه لدهشتي ما كان يسمح بالخبر . حتى اصفر وجهه ، وارتاح كان
مصبية وقعت ، وفقد أعصابه ، فوقف أمام الحائط ، يدق رأسه فيه
كالحجر ..

وانشغقت عليه ، وحاولت أن أهدئه ، ولكنه كان يشمك شمكات غريبة ،
ويزعق لي مرارة .

— ويريني شطارتك يا عم شوقي ..
ولم أفهم ما الذي يقصد .. إلى أن قال لي وكأنه يستعطفني .

— تحبني تتجوزيني النهاردة .. وانعصب بكرة ..
اطرقت براسي .. ثم رفعت إليه عيني تقولان له .. نعم أريد أن أتزوجك ..
فقال

— وتريني عيلون بدل عيل واحد .
فمست بصوت مضطرب

— ريتنا موجود .
قصرخ وجسمه يرتعش ، ووجهه أصفر .
إذا كان موجود .. ليه ما بيكش الشحاتين اللي مالين الشوارع .. ليه
ما بيخفش العيانيين .. ليه ما يخلدناش ثرتاح ..
قلت له في خوف :

— انت بتأخذ كام .. وهو بياخذ كام ؟

فيغضب ويقول لي

— الناس موش بالفلوس الي بتأخذها ..

فأقول وأنا أعرف أن كلامي يئله

— ح تفضل طول عمرك بتأخذ ثلاثين جنيه .. وهو يأخذ ميه .. ووح يسكن
في سراية .. ويركب اتوموبيل ..

ولكني كنت لا أستطيع للمضي في تعذيبه ، فسرعان ما اعتذرله ولطوته
بذراعي .. وأقول له في لهمة

ما تزعلش مني .. أنا عايزك تبقى أحسن واحد في الدنيا دي .
فيمس .

— أنت موش فاهمة حاجة يامبروكة فأقول له مداعة .

— إيه الي موش فاهماه .. أنا عايزه يبقى معاك فلوس .. علشان تصرف
علي . وتلبسني .. وعندئذ ينطلق لي كلام كثير ، محاولاً أن يشرح لي خطأ
تفكيري ، فاستمع إليه ، وأدرك أنه مازال مصمماً على تعريض نفسه للخطر
مع أصحابه ..

ولاحضت أن شوقي بدأ يشعر بالغيرة من يوسف ، فقد كان ياتيني بأخباره
التي تصوره في صورة الشاب اللي فسد ..

قال لي ذات مرة : إن سامية ذهبت إلى رئيس التحرير لئلا يشكو يوسف ، وأنه
كان قد وعدنا بالزواج ثم تخلى عنها ..

قلت له مدافعة عن يوسف :

— يعني كنت عايزه يتجوزها فقال لي خسيق :

— بس ماكنش يصح أنه يوردها بالجواز ..
ولم أتابع حديث شوقي .. إذ وجدتني أسرح يا فتكاري ، وأتسائل ماذا
يكون مصيري مع شوقي ، وهل يتزوجني ، أم نفل بالزواج .. إنه لم يعدني
بالزواج .. أمعني هذا أنه يرفض أن يتزوجني ..

وتصايقت لأنني دامت عن يوسف أمامه ، لأنه لم يتزوج من سلمية ،

الفصل التاسع

تظاهرت امام شوقى بانى غير آسفة عل ما حدث .. هيات له الحب فى كل شيء ، فى نظراتى وفى كلماتى ، وفى الطعام الذى اعدته له وفى حجرته التى انظفها وارتيبها فى انتظار عودته ، غمرته بالحب ليصبح لى رحدى ، كما انا له وحده ، وقد اشعرنى بكائه بأن اللحظة قد حانت لانتزاعه أخيراً من أصحابه ..

وكان يستسلم لى ، ويتركنى أسيطر عليه بعواطفى ، فاجد نشوة كبيرة فى هذا ، لولا ما كان يبدو عليه أحياناً من شربد مفاجئ ، فلا أدرى ما الذى يفكر فيه ، وما الذى يبعده عنى ، فاندفع إليه وأطوقه فى حنان حتى يفيق من شروده ..

واستمر أصحابه يترددون عليه ، ولاحظت إنه على غير عادته يشهد فى مناقشات معهم ، ويرفع صوته ويتشاجر ، فاقدر ، وأقول لنفسى غداً سيطردهم ، وإن يعودوا إليه ، وسنعيش معاً ، وحدنا ، بعيداً عن المخاطر ، وفى الصباح اصعد إليه لأوقظه من النوم ، مفتح عينيه بصعوبة ، ويتوسل إني أن أتركه لينام ويرفض الذهاب إلى الحريدة . وكنت إذا سألته عن سر شجاره مع أصحابه ، لاذ بالصمت ، وتهرب من سؤالى ، فيحدثنى فى شيء آخر لوىضحك متصنعاً المرح ، ويقبلى فى

- بلاش تكدر يا شوقى .

فصاح ضاحكاً فى مباح

- اكفر .. ما تبقيش عبيطة .. انا جبان .. قاهرة .. انا جبان .. وظل يهزى ، حتى غابت أنه قد فقد عقله ..

إلى أن جاء يوم ، منأخذنى إلى طبيب أحضرتى ، وعاد بى إلى البيت .. وجلس إلى «جوارى وراح يبكى ..

لم أشهد بكاء فى حياتى مثل بكاء ، كان جسمه يتفتت ، كأنه يريد أن يقتل نفسه بالبكاء ، ورثيت له ، وحاولت رغم ألاسى أن أسرى عنه ، وكان يدق بقبضة يده على ركبته ويقول فى حرفة .

- شفتى يامبروكة . انا مجرم إزاي .. خدعتك .. ضحكت عليكى .. زى ما بضحك على الناس .. زى ما بضحك على نفسى .. ويهتف باكياً :

- شفتى انا عملت إيه فى ابنى .. باكلحك عن الإنسانية .. وعن حب الناس .. وعن الشيوعية .. وادى اللى انا عملته .. انا نصاب .. نصاب .. وخفق قلبى ..

إنه لأول مرة فى حياته يثور على نفسه ، يثور على أفكاره .. اتكون قد تمت المعجزة .. أتيكون الله قد عوضنى عما أصابنى .. فتمزنى أخيراً على أصحابه ..

نظرت إليه . وهو يتفتت ويهزأ .. وقلت لنفسى فى ثقة سأمضيه من حبنى ما يعوضه عن كل ما يحس به من ألام .

شوق ، فادرك أنه لا يزال متردداً في اتخاذ قراره النهائي ، فأنصبر
وامنحه مزيداً من الحب .

ثم حدث له تحول مفاجيء .. إذ بدأ يتشاجر معي لأتفه الأسباب ،
أحضرت له ذات مرة كوب شاي ، فما كاد يرفعه إلى فمه ويرشف منه حتى
صرخ في وجهي لأني نسيت أن أضع السكر في الشاي ، وقبل أن أقوم سر
صراخه ، كان قد قدف بالكوب على الأرض ، فتحطم ..

ولم يفرغني صراخه ، بل شعرت بالخوف عليه ، وتمنيت لو أستطيع أن
أصم إلى صدري حتى يهدأ ، وينخلص من هذا الصراخ الذي يمزقه
وانحسبت من الأرض لجمع الزجاج المتناثر ، فاشتد هياجه ، وزعق
كالمجنون يطلب مني ألا أمس الزجاج .. ثم صاح يأمروني أن أتركه
وهذه

فتركت له الحجرة وحبى له أكبر من غضبي منه ، وبعد قليل كان يطرق
بابي ، ولقد ينظر إلى ، وفي عيني عذاب واعتذار ، وكان إبراهيم قد جرى
إليه وطق ساقه بذراعيه . وهو يصيح
— إديني قرش .. إديني قرش .

فرفعه في الهواء وقبله ، وعيناه لا تفارقان عيني ، وأعطى إبراهيم
القرش فأخذه وجرى إلى الشارع ، وولفنا صامتين إلى أن قال وهو
يضحك في عصبية .
— اعمليل شاي ..

فضجكت من قلبي قائلة :

— علشان تكسر كباية ثانية ..

قال وهو يقترب مني :

— أبوه .. وعلشان اكسر دماغك أنت كمان ..

وحذني من رأسي ، واحتواني بين ذراعيه وهمس :

— أنت زعلانه ..

قلت له في مزح وكأني ألتئم وأغنية .

— زعلانه علشان كباية .. فذاك ستين كباية .

- ١٧٦ -

وهددت يدي إلى صدره ، وبني رغبة في أن ينتزع من أعماقه كل ما
يعتنيه من قلق وعذاب .. وأعطه قهقهة ما يحول بخاطري . إذ ارتعشت شفته
الأسفل ، ثم قال في يله .

— تحرق إيه اللي مضايقتني ..

ورفعت إليه عيني متساكتين في حبان ، فاستمر يقول :

— أنا من ساعة اللي حصل .. وأنا زى العيان .. امش حاجة لها طعم في

بقي .. ما فيش حاجة أعملها وأنا متأكد أنها صح ..

فهممت :

— ليه ..

فقال ويدها تقبضان على كفتي بقوة :

— ح أرجع أقول لك اللي أنا قلته .. كل أفكارى ومبادئى ضد اللي أنا

عملته .. ضد أن افشل أبنتك وأبني .. اللي كان ممكن يبقى زى إبراهيم

بيضك وببيط وبيقول لي إديني قرش .. وببيكر .. وببيلى راجل أحسن

مني .. وعندده مبادئ وأفكار ..

قلت له بسرعة :

— لكن أنا موش زعلانه من اللي حصل ..

فقال في عصبية

— موش زعلانه علشان خاطري .. موش كده ..

قلت في حرارة :

— أبوه ..

فهتف .

— يعنى أنا المسبب .. أنا كنت أفضل إنك تكهني ولا تتخلصيش من

أبنتك .. أنا مين علشان تعطليل كل ده .. أنا واحد صعلوك هلفوت ..

قلت له في حيرة :

— أنا موش قاهمك .. أنت محدب نفسك ليه ..

فقال في ألم :

— لكن أصحابي يفهموا الكلام ده .. أنا شاعر إننى ياخدعهم .. تمرق
أن دلوقت بآكتشف فى نفسى حاجات غريبة . بتخافق معاهم .. عامل
نفسى شيوخى متحمس .. باشتهم .. بالقولهم انتم موش ثوريين .
بأحاول أغطى الكتبة اللي فى نفسى ..

وحول عيانيه بعيدا حتى وقال كأنه يخاطب نفسه :

— أنا بفكر اعترف لهم بكل شيء .. وأستقيل ..
وارتجفت ..

هاهو يقترب من النهاية التى اريدها له .. ولكنى قبل أن أفكر كنت قد
صحت فى ذعر :

— عايز تفضعنى ..

أقال فى بطة :

— لو كانت الحكاية فضيحة وبس كانت هانت ..

وأغلقتنى إجابته ، ولكنى قاومت فطيتى ، وسألكه معاتبة

— فيه إيه أكثر من الفضيحة ؟

وعضت برهة وهو صامت ، لا يريد أن يجيبنى ، ثم تنهد وقال :

— عى رايك .. موش كفاية ألى عملتة فيكى ..

وأطرق برأسه .. وكأنه يعمل فرقه حملاً ثقيلًا .. ثم ضحك فجأة
وصاح .

— ماتعملير شأى أحسن من الكلام ده ..

فأسرعت ألى طلبه ، وقد سمعت أخيراً شيئاً أستطيع أن أفهمه ..

ومنذ ذلك اليوم رشقى بفأجئنى بين وقت وآخر بسخرية حادة من

أصحابه ، وكان يتهم بعضهم أحياناً بالعباء ، فتضجعت وسألكه لماذا

لايكف عن مقاللتهم ، فحدق فى وجهى طويلاً ثم قال بلهجة غريبة :

— آمال عايزاسى أعمل إيه ؟ ..

قلت له :

— يعنى موش أحسن نقعد مع بعضى . بدل ماتضيع وقتك معاهم .

قال وهو يبتسم فى غم اكتراته .

— لما تشوف ..

قصص فى ..

— أنت خايف منهم .. قول لهم مايحوش .. ويبعوا المطبعة .. أنا عايزه

فلوسى ..

فتغير وجهه ، وبدأ عليه العصب وقال فى حدة :

— عايزاهم يبيعوا المطبعة كمان ؟

قلت فى دمشة :

— آمال ح تسيبها لهم ..

فقال بصوت حاسم :

— بلاش نتكلم فى الحكاية دي .

فلزمت الصمت ، فقد خلت أن يثور لو تماديت فى الكلام ..

وعاد شوقى عصر يوم ، ووجهه شاحب ، والخوف باد عليه ، وروى لى

قصة أفضعتنى ..

اعترف لى أنه فى الشهور الأخيرة قد تخلى عن حذره ، فكان يثرثر أمام

زملائه فى الجريدة ، ويدخل معهم فى مناقشات عن الشيوعية ، ويدعولها

صراحة . وكان لا يطفى أن يسمع أحداً يمدح الحكومة أمامه ، إذ يثور

عليه ويشتتمه ويشتتم رئيس الوزارة ، وإذا استغله أحد شتم الملك .. وكان

يعلم أن ما يفعله سيعرضه للفطر ، ولكن شيئاً أقوى منه كان يسيطر

عليه ، ويجعل الدم يغنى فى عروقه ، فلا يستطيع كتمان رأيه ، وكان يفكر

فى أصحاب الذين سبقوه إلى السجن فيتهم نفسه بأنه جبان ، ولا يجد

مبرراً لحيروته . وهو يؤمن بأفكارهم ، ويدعو إلى نفس دعوتهم .. لماذا هم

محبسون وهو حر طليق ، وهم أحسن منه ، وأكثر إيماناً منه . وكان

يراجع نفسه أحياناً ، وينصحها بالعودة إل حذرهم القديم .. ولكن هذا

الشيء الذى لا يستطيع أن يكتف جماعه ، كان يثور فى داخله ، ويطلق

لسانه بالكلام ..

حتى كان صباح اليوم ..

دعاه يوسف إلى مكتبه ، وقابله بابتسامته الطيبة الخجولة ، التي يعلم انه تخفى خبثه ومكره ، وقدم له يوسف سيجارة وجعل يحدثه في كلام عادي ثم سأل فجأة ..

— أنا سمعت أنك شيعوي يا شوقي .. الكلام ده صحيح ؟

وفجأة بالسؤال ، وفكر أول الأمر أن ينكر ، ولكنه شعر من طريقة يوسف في سؤاله انه قد غدر به ، تظاهر بأنه يتوعد له وكسب اطمئنائه ، ثم وجه إليه السؤال كالطعنة المباشرة ..

وأقلت زمامه ، انظر في داخله ذلك الصوت الجريء يقول له : من يكون يوسف هذا حتى تضاهه فيضطرك إلى الكذب ، إلى متى تتهرب من حقيقتك ، إلى متى تعيش كالجبان ، وصاح متحدياً يوسف — أيوه أنا شيعوي ..

وخلف يوسف عينيه في خجل ، كأنه سمع شيئاً يجرح هيأه ، ثم قال بصوت خفيض كالمعتذر .

— أرجوك يا شوقي ماتتكلمش في السياسة هنا .

ولقد شوقي أعصابه ، أثاره أدب يوسف ، ولهجة الرقيقة المعتذرة ، لماذا لا يواجهه بصراحة ، ويكشف عن تهديده . لماذا يظف كلامه بكل هذه التعمية ..

وصاح في انفعال .

— أنا حر أنكلم زي ما أنا عايز .. وأقول اللي أنا عايز أقوله .. فقال يوسف بصوته الخفيض :

— لا .. ما تقدرش ..

فهتف شوقي :

— ما أقدرش ليه .. لا أمت نهمنى ولا اللي أكبر منك ..

واضطر يوسف أن يخرج من لابه الذي يتحصن به وقال محتداً :

— أنا بانذكرك .. لو أنكلمت تاني ح أطردك في الحال ..

ويقع شوقي بأب الحجرة يقدمه ويخرج ، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى شعر بالخوف ..

أدرك أنه قد تهور في كلامه ، وحاول أن يتمسك ويتظاهر بالهدوء . ولكن مخالوفه كانت تتزايد وتتضخم لحظة بعد أخرى . وعندما وصل إلى مكتبه كان خوفه قد تحول إلى ذعر .

وجلس يتلفت حوله ، ويكاد يلفز من مقعده عند سماعه لأي صوت ، ويتنفض كلما دخل عليه أحد ، يتوقع أن يكون القادم يحمل معه خطاب فصله من العمل . أو مخبراً جاء ليلقي القبض عليه ..

ولم يستطع البقاء في الحجرة ، كانت جذوائها تضيق عليه ، وهواها يتلاشى ، وضوعها يتحول إلى اسفرار بغض في عينيه ، فقام يريد الخروج من الجريدة ، ولكن قدميه قادتته إلى مكتب يوسف ، عاد إليه كالغول . وطرق الباب ودخل ، ووقف أمام يوسف وهو لا يراه ، ولسانه يتحرك بكلمات مرتجلة تحمل الاعتذار والأسف على ما بدر منه ، وأنكر في عنف وحدة أنه شيعوي ، وأسم بشره أنه يكره الشيوعيين ويسفر منهم ويتهمم بالعباء .. وكان يتحدث بحرارة الواثق من رأيه ، البريء من تهمة الشيوعية ..

وسأل يوسف عن الذي وشى به وأبلغه أنه شيعوي ، فرفض يوسف أن يرض له شيئاً ، وقال له بجفاء إنه يصدق ، ثم تشاغل عنه ، فاضطر إلى الانسحاب من المصرة .

وسكت شوقي ، وجعل يشرب ركبتيه بقبضتي يده كأنه يريد أن يسهلها .

كان قد روى في القصة وكأنه يهذي ، ويعيناه تدويران في تلقى ، وصوته محموم ، ووجهه متجهم ، اختلطت ملامحه وتشوهت ، كأنه أحد الوحوش الغريبة التي يرسمها في لوحاته ..

وتتمم يلأساً :

— أنا حكيت الز كل حاجة .. علشان تشوفني قد إيه أنا حقير .

وحسنت دموعي ..

أهذا هو شوقي الذي أعرفه 1 .. شوقي ذو العينين القويتين الذي قابلته عند باب الجريدة منذ سنوات ، وأنا ضالعة تائهة ، أحمل إبراهيم على ذراعي ولا أدري إلى من الجأ ، فانتشلني من تعاستي وحملتي ، وكان أبا إبراهيم ..

أهذا هو شوقي الذي أحبه .. ما الذي جرى له ، أي نوع من الأمراض قد أصابه ، أي قوى شريرة تريد أن تحطمه وتقضى عليه في اللحظة التي ظننت فيها أنني قد فزت به .. قوت به وحدي ..

قلت له في انزعاج :

— وإيه اللي خلاك تعمل كده ؟

فجابني بصوت جاف لا حياة فيه

— ما أعرفش .. ما أعرفش ..

ثم أردف قائلاً :

— أنا خايف من يوسف ..

وحسبك في مرارة واستأنف يقول :

— أيوه أنا خايف .. وبأقولها لكل مخصوص عنشان تحقريني .. وتحرقني إلى موش راجل .

وضايقني كلامه ، شعرت أنه لو واصل الكلام على هذا النحو فسأحتقره فعلاً ..

ودارت رأسي ..

كانني أسقط في بئر بلا قرار وكلما حاولت أن أتخلص من هذا السقوط ، خطرت لي أنني لو تماثلت نفسي لسأواجه شيئاً بضعاً ، سأواجه احتقاري لشوقي ، احتقاري لنفسي ، إذ على الرغم من كل هذه المشاعر القاسية ، كنت مازلت أحبه ..

إنه دمي . وعيبي . وخلصات عقلي .

إنه أنا

- ١٨٢ -

قلت ، وكان صوتي يخرج من جوف بئر ..

— أوعى تقول كلمة تاني .. أنت الحسن من يوسف ألف مرة .

كنت استقيث ، لانتقذه .. لانتقذه نفسي ، لم يكن يعني أنني اعترف بأنه شيعوي ثم عاد وإنكر ، فهو نفسه أصبح لا يدري إذا كان لا يزال شيعوياً أم لا ، إن حيته أمام يوسف هي نفس حيته أمامي وهي نفس حيته مع نفسه ..

ولم أكن أتوقع أن يطرده يوسف من العمل ، أو يسلمه للبوليس كنت أشعر في قرارة نفسي ، إن يوسف لن تبلغ به القسوة إلى هذا الحد .. كل ما كان يعني أنني أمهار أمام يوسف ، تخاذل أمامه ، وهو رجل ، وهو قوتي التي أعيش بها ، واعتمد عليها في الصمود أمام ذكرى يوسف وتعاليه وترفعه علي ..

لا بد أن يلف على قدميه من جديد لا بد أن يعود شوقي القديم ، بكل حماسه وثقته بنفسه وحبوبيته . أريد كما كان ، يأمرني فأطيع ، لا يبكي ويشكر أمامي .. وانتابتنى رغبة جامحة في أن أتركه وأجرى إلى الجريدة ، واقتحم مكتب يوسف ، وأخلع حذائي ، وأنهال به فوق رأسه حتى يسيل دمه ، وأقول له بملء فمي إن شوقي سيده ، وإنه هو الحقير الذي ليس بعده حقارة ..

ورفعت صوتي في حقد

— يوسف دد معي كمان عنشان تخاف منه . واش أروح له الجرنال وأقريه ..

فنظر إلى عينيّ ثقيلتين ثوزحان تحت جفنين ثقيلين ، ثم ألقى رأسه .. كأنه لم يعد قادراً على النظر إلى .. وفكرت أن اقترب منه ، ولكنني أحسست بنفخ من نفسه ، كنت لا أريد أن ألس ضعفه ، وتعنتت لو كان في مكان آخر بعيد عني حتى لا أراه في هذا الحال ، تمنيت ألا أرى شيئاً على الإطلاق ، وأن تتحلل أفكاري وتضميع ، وأن تمر الأيام بسرعة ، فأرى شوقي وقد شعني من مرضه

ولكن الأيام مرت ثقيلة ، وكان شوقي يكثر من الغياب خارج البيت ،
كانه يتعمد ألا يراسي ، ومع ذلك كان إذا جلس معي ، حدثني في حنان ،
وقال لي كلاماً رقيقاً يدمي قلبي برفقته ..

وبداً شوقي يحدثني عن أصدقاء جدد تعرف عليهم ، وكان يروي لي
عنهم قصصاً غريبة

عاد ذات ليلة من سهرة قضاهامعهم في القلعة ، وكانت رائحة البيرة
تخرج من همه ، وهو نادراً مايشربها ، ولا يشترئها أبداً ، وكان إذا جاء
بعض أصدقائه في الليل ومعهم زجاجتان أو ثلاث ، شرب معهم ، أما إذا
طلبوا منه شراهما فرفض في حزم ، ويقول لهم إنه يفضل ادخار نقوده
لشراء السجائر ، ولما شممت رائحة البيرة تتبععت منه ، ابتعدت عنه ،
ورفضت أن يقبلني ، فقال لي ساعداً :

— موش ناقص إلا أنتي كمان !

قلت له في دهشة :

— قصدك إيه ؟ ..

فقال وهو يبتسم في بلاءة :

— كانت ليلة نكد في نكد ..

قلت له معاتبة :

— عشان شريت بيرة ..

فصاح :

— أبداً .. أنتي فاكراي سكران .. لنا مالحبش السكر زي ما أنتي
عارفة .

وروي لي أن السهرة كانت حزينة .. إذ شربوا البيرة بكثرة ، حتى سكر
أغلبهم ، وكانوا يظنون أن الشراب سيهيء لهم جواً من المرح ، ولكن
حدث العكس ، فبدأ كل واحد يشكو همومه ، الذي يتحدث عن فشله في
الرسم ، ويقسم أنه ليس قنانياً ولا أمل له في أن يكون قنانياً يوماً ما ،
وبيكي ، والذي يصيح بأنه يتعذب لأنه لا يجد معنى لحياته ، ويقول إن

أفضل شيء ، هو أن يعانقوا بعضهم بعضاً ويكون على حالهم ثم
يتحرون ، والذي يهذي ويقول إنه يود لو يسير ويسير في طريق طويل
لا ينتهي أبداً ، دون أن يضطر إلى الإلتفات إلى الخلف ، أو الرجوع
خطوة إلى الوراء ، لأنه يريد أن يبحث عن شيء حديد في كل لحظة ، ويسمى
كل شيء قديم .. ينسى ماضيه إلى الأبد ولا يعود إليه ..

واستمع شوقي إليهم ، وهو أكثرهم إترانا ، لأنه لم يفرط في الشراب
مثلهم ، وفجأة وجد نفسه يثور عليهم ويصرخ :

— هوه أنتم مانتكلموش في أخطر المشاكل إلا وأنتم سكرانين !

وقطع شوقي كلامه ، ونظر إلّ ليرى إذا ماكنت أفهم مايقول ، وأدرك
أنني لم أفهم ، فحاول أن يشرح لي ، وقد بدا عليه الاهتمام الشديد ،
والإصرار على أن أفهمه .

واستأنف شارحاً ، تحدثني عن حياتهم ، وكيف أنهم ينسون في
الصباح مشاكلهم الحقيقية ، فيذهبون إلى أعمالهم ، ويحسرون كالألات ،
لا يفكرون في شيء ، وربما ضحكوا أو أكلوا في نهم ، أو ذهبوا إلى السينما
إذا كانت معهم نقود ، أو تسكعوا في الشوارع وهم يتبادلون فيما بينهم
نصف سيجارة إذا كانوا مفلسين ، ويهرجون ، ويلقون النكت .. ويضي
النهار دون أن يفعلوا شيئاً له قيمة ، فإذا جاء الليل شربوا وسكروا
وتذكروا أخطر الأشياء ، تذكروا النوحات التي لم يسمعوها ، تذكروا
الخداع الذي يفرقون فيه أنفسهم في النهار ، وناقشوا حياتهم بلسان
متلعثم ، وراس يشكو الصداق ، وعقل شبه غائب ..

قلت له وقد خيل لي أنني قد فهمت :

— دول زي المجانين ..

قال في إفعال ..

— كلهم مجانين ..

وسالت

— يعني عافيش ناس غيرهم تعرفهم ..

— يعنى صحابى اللى بيبحوا هذا موش عاجيبك .. وصحابى دول ..
كمان موش عاجيبك . ماهو مايش غير الاشكال دى .. عايزانى اعمل
إيه

وتذكرت يوسف ..

وكنت اقول له : هناك اصدقاء من نوع اخر ، اصدقاء عقلاء ،
ناجحين اقوياء ، مثل يوسف ، لماذا لا تنضم اليهم ، وتكون مثلهم ..
ولكننى خنقت السؤال في حلقى ، كان مجرد ذكر يوسف سيخذه
ويعدبني . وحتى لو لم اذكر له يوسف ، وذكرت له النجاح ، فكأننى
ادعوه إلى أن يتذكر يوسف ..

ثم حدث أن قال لي شوقى وهو يتنابذ متأهبا للنوم ، بعد سهرة طويلة
قضيناها وهدنا في إحدى ليالى الصيف

— على فكرة يامبروكة .. أنا عايز اقول لك حاجة ..

وكنت عن وشك مغادرة حجرته ، عندما مضى يقول :

— مبروك على قريبك ..

وهربت في الحال إنه يعنى يوسف ، وكنت أتابع سيرى هاربة مما قد
يقوله .. ثم عدت ، ووقفت انظر إليه متسائلة .. فقال وهو يتنابذ مرة
أخرى ، وكأنه لا يكثر بما يقول :

— بلى رئيس تحرير قد الدنيا .

قلت له والعقد يطفى على

— كده . خليه يتها ..

وتنابذ مرة أخرى ، بطريقة مفتعلة ، وقال بصوت يفضح سخفه :

— يعنى ببغض متين وخمسين جنيه في الشهر ..

ولم أعد أطيق سماع المزيد ، فصحت فيه غاضبة :

— أنت موش ح تنام ؟

وتنابذ من جديد ، وهمس .

— تصبى على خير ..

انفجر هذا النيا في رأسى ، إذ لم يعد لي أمل في أن أصل إليه ، ماهو قد
بلغ قمة الثراء ، النقود تجرى بين يديه بلا حساب ، ربما كان اليوم أكثر
ثراء من راتبك .

ترى اهو سعيد الآن ؟

لايد أنه سعيد ..

إنه سعيد كما أنا شقية .. غنى كما أنا فقيرة ..

هذه النقود اللى حصل عليها قد سرقها منى .. سرقها من إبراهيم
أخوه .. لقد ضحى بنا ، لينطلق خفيفا وراء الثروة ..

وفي لحظة ، نسيت حبي لشوقى ، ونسيت حبنى لابنى ، ونسيت كل ما
في قلبي من حنان ، ورفعت يديين واضعتين إلى السماء ودعوت عليه
بالخراب ..

هذا اللص .. الذى سرقنى .

كنت يائسة من الصعود إليه فدعوت عليه ليتعظم ويسقط وأسطحه
بقدمى .

وكان يحز في نفسى أن شوقى يعمل عنده ، وهو رئيسه الذى يتحكم
فيه ، كنت احس أن شوقى لم يعد أكثر من خادم عنده ، كك كنت يوما ما
خادمة في بيت أبيه ..

وفكرت في أن أسلب من شوقى أن يترك العمل في الجريدة ، ويبحث له
عن عمل آخر ..

وجاءت الفرصة ، عندما عاد ذات يوم ، وقال لي إنه تشاجر مع
يوسف ، لأنه أعطى علاوة لجميع زملائه ، وحرره وحده ، ولما دخل عليه
يحتج ، طرده من مكتبه ، وقال له إنه شيوعى ، وإنه يعرض نفسه
والجريدة للخطر إذ يتكلم عليه ..

قلت لشوقى غاضبة

— سيب الشغل .. ويور على غيره ..

فنظر إلى شاكراً ، كأنه كان يريد أن يسمع هذا الرأي مني . وقال :
- أنا ح أعمل كده .

ثم هز رأسه بعنف ، وارتعشت شفته السفلى وقال :
- بس أنا خايف .. ليعمل حلة في ..
هتفت

- يعمل إيه أكثر من اللي عمله .
قال بصوت شارد :

- يمكن يبلغ عسى
ثم ضحك وقال في سخرية

- موش تبقي غريبة في الوقت اللي أنا بأفكر حقيقي في أن أسبب
الشيرعية .. اتحبس بتهمة إني شيرعى ..

وبعد أيام ، قضينا ليلة ، كان شوقي فيها مرحاً على غير عادته يضحك
من قلبه ، وقد عادت إلى عينيه تلك النظرة القوية النفاذة ويأولني الحب في
تلك الليلة في لهفة غريبة . وكنت سعيدة ، ونحن نجرى وراء بعضنا في
حجرته كالأطفال ، وتتصايح ، ونثرثر بكلام لا معنى له ، حتى أصابنا
التعب فنمنا وقد تشابكت أذرعنا ، وتلاصق جسدانا واختلطت أنفاسنا
وفجأة ..

فزعنا من نومنا على صوت دققت عنيفة على الباب ..
فرققتا الدقات .. وكان فراقا كالصوت ..

إذ كان الطارقون رجال الشرطة ، اقتحموا البيت وفتشوه ، وأخذوا
المطبعة والأوراق ، وقبضوا على شوقي ..

وتركوني ، جسداً أبلي ، وما زالت تختلط بأنفي أنفاس شوقي ، وخيال
جسده مازال يلتصق بجسدي ..

انتهى كل شيء .. انتهى عمرى في لحظات ، شعرت أنني أمام قوى أكبر
منى ، تستطيع أن تدمر حياتي كما دهمت الحجرة ، وتنتزع روحي كما
انتزعت شوقي ، وتعيث بي في قسوة وعنف كما عيبت بكل شيء في البيت ..

شعرت أن حياتي أصبحت مستباحة ، كأرض الحارة تدوسها قوى غير
مفهومة ، وتسيطر عليها وتستحقها .

وكنت أقضي الليل ساهرة أفكر في مصري ، فلا أفكر في غير الخوف ، فهذا
ما جاء الفجر ، وارتفعت أصوات المؤذنين يتنافسون في دعوة للتائبين إلى
الصلاة .. تساطت في دهشة ، أهم يدعونني أيضاً للصلاة أم أنها محرمة
علي ، وأتى لست من البشر الذين من حقهم أن يصلوا ويدعوا فيجيب لهم الله
الدعاء ؟

لماذا يلزمني سددت كل الطرق في وجهي ، ماذا جيت حتى انتهت في حياتي
إلى لائي ، هل أذبت لاني خرجت من قريتي ، إني لم أخرج منها
بإرادتي ، لقد أرقموني على المحي ، إلى المدينة وكنت أرتعد من الخوف ، أكاد
أقصم التراب من الجوع ، ليس ذنبي أنني رأيت الحياة العريضة في المدينة ،
ولقد عاشت أناساً كثيرين يتمتعون فيها بالحياة ، هاربت أن أشاركهم ،
وأعيش مثلهم أهذا هو ذنبي ..

ولكن ما فائدة كل هذا الآن . لقد وقعت الفأس على الرأس وقعت على رأسي
أنا ..

وانتهى كل شيء ..

هل أستطيع أن أمضي بعد النهاية ؟ هل أستطيع أن أحياء بعد أن مت ؟ هل
أستطيع أن أواجه الله بعد أن أصبحت بلا غد ؟

شوقي .. حبيبي شوقي .. ماذا صنعت بي ، إني بلا نقود ، لقد أخذت
منني كل شيء ، وأوكلت قد طلبت مني حياتي لقد متها لك ، ولكن النقود التي
أخذتها كانت أغلى من حياتي ، إنها حياة ابني إبراهيم ..

لماذا لم تفكر في كل هذا يا حبيبي ؟

أبلغ بك الجنون أن تكن أنك قادر على إسعاد كل البشر انظر ماذا حدث ،
إنك لست قادراً حتى على إسعادي أنا .. إن ما فعلته قد قضى على ابني ..
لا تقضب يا شوقي من التفكير .. فانا محنونة مثلك ، أنا لست نادمة على
ما فعلت ، وأورجعت الأيام ، وعدت تطلب مني النقود ، لأعطيتها لك ، حتى

وأنا أعلم مصيرها ومصيري .. فأتنا أحبك يا شوقي .. أحبك بجنونك
وأحلامك ، وقوتك وضعفك .. أحب رغبة شفتك السفل ..
است وأنا .. كنا نعيش من أجل حلم ، من أجل كلمات تهمس بها رغبة خفية
في صدرينا .. هيه .. كنّا نحلم بحياة جميلة ، وكنت طموحة في حلمي ، فكنت
أفكر في الأيام الحلوة التي سنعيشها معا .. وأنت .. كان طموحك أكبر ، فكنت
تفكر في تلك الأحلام الغريبة التي لا أنهما ، فلتحدثني عن الأيام التي
سيعيش فيها الناس جميعاً ..

وما هي نتيجة طموحك وطموحي ..
أيرضيك هذا ؟
هالدا أضعف الآن ؟
انتهى كل شيء ..

بالأمس ، ذهبت مع الأسطى له لتسأل عنه في قسم الشرطة ، فنظروا إلينا
في ريبة ، وسألوا طه عن اسمه وعنوانه ، وفي لحظة خيل لي أنهم سيقبضون
علينا ، فخرجنا هاربين من القسم تطاردنا نظراتهم وأسكتهم وشكرهم
القائنة ..

وعدت لأجلس مع أم حنلى ، فقلت في بصوتها الضعيف المتكسر : إن
أملنا الوحيد هو في الله .. في ربنا الموجد ..
وتذكرتك يا شوقي ، يوم قلت لك نفس الكلمة .. وبنا موجود ، فارتعش
جسمك ، وصرخت بوجه أصفر : إذا كان موجود ليه ما بيوكش الشحاتين
الي ماليين الشوارع ..

لقد خفت يومها .. وقلت لك : بلاش تفكر ..
ليتك كنت استمعت لي ، ولو من أجلي .. إن الله غاضب منك .. ومني ..
ولقد انتقم من كلماتك ..
أتريد مني أن أكفر بالله منك .. لا .. أنا أضعف من هذا ، أنا في حاجة إلى
رضاء لا غصبة .. هو اليوم ملاذى الوحيد ..
لورضيت رجعتي .

كنت تظن نفسك قوياً تستطيع أن تواجه كل القوى ، فهدعت نفسك ..
ربما كنت تظن أنك أقوى من يوسف ..
ولكن يوسف وحده ، هو الذي يعلم سر القوة والساج في هذه الدنيا .
أتدري يا شوقي ، ماذا أريد أن أفعل .. أريد أن أذهب للقاء يوسف ..
أريد أن أرى هذا الرب الصغير الذي ارتفع وارتفع .. فقلبي يحدثني أنه
وحده الذي يستطيع أن يعيدك لي ..
لا أشك في أنه قادر على إعادتك لي ..
ونهبته إلى يوسف ..

نهبته إليه أحمل حقدي ، وذلي ، وحاجتي ، وحنيني أقاومه ، والخجل
منه ، حنين لي رؤية وجهه ، والكلام معه ..
وصلت إلى بناء الجريدة ، إنه نفس البناء ، لم يتغير فيه شيء ، رغم كل هذه
السنوات التي انقضت حتى البواب لا زال كما هو ، ولما راني لم يعرفني ، أما
أنا فكنت أذكره ، كاني رأيته بالأمس .. إنه سبب لفائنا ..

وصاح في :
— راحة عين يا ست ؟
قلت له
— أنا جاية أشوف الأستاذ يوسف ..
فارتفع صوته :
— عايزاه ليه ؟
قلت له :
— أنا قريبته ..

فحدثني طويلاً ، ثم لمعت عيناه .. لقد تذكرني . ولكنه كان قد نسي
الظروف التي رآني فيها .. نسي أنه طردني ، ووداً عليه الارتباك ، وطلب مني
أن أصعد إلى الموظف الجالس على المكتب في الممر الخارجي ..
وما كاد الموظف يسمع اسم يوسف حتى بدا عليه اهتمام شديد وتكلم في
التليفون مع امرأة قال لها :

— يا مدموزيل بشينة . فيه واحدة اسمها مبروكة يتقول إن يوسف بيه يعرفها . وح يقابلها ..

ومضت برهة والرجل يلصق سماعة التليفون بلاكته ، ووجهه متوتر كأنه ينتظر كلمة مقدسة . ينتظر الوحي الذي سيهبط من فوق .. من عند الرب .. وانتفض المونلف ، وشاقت عيناه ، ثم وضع السماعة ، ونظر إلى في غيظ .. كأنه يريد أن يحاسبني على الانتعالات التي سببتها له . وقال في حدة .

— الأستاذ يوسف ما يقدرش يقابلك ..

لم أثر ، ولم أحاول أن أقول شيئاً .. كنت أشعر بتعفف شديد فخرجت بذلي ، وعدت إلى البيت .

وسألني الأسطى طه ، فرويته له ما حدث .. فقال مستحياً :
— لازم تشوفيه ..

قلت له :

— اعمل إيه ..

فصاح :

— هوه مولى إبراهيم أخوه .. أبعتيه له .. وخليه يتصرف فيه .
قلت يائسة :

— موش ح يدخلوه ..

لفكر قليلاً ثم قال :

— خليه يستناده وهو خارج من الباب ..

وجامني الأسطى طه بورقة صغيرة .. وقراها هو ..

سيدى المحترم سماعة يوسف بك أدام الله عزه أنين ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وأما بعد .. مقدمه إبراهيم عبد الحميد السويقي ابن المرحوم والدكم وشقيقكم المخلص الوفي الأمير ، الذي يسأل عنكم ويدعو لكم بدوام العز والبركة ، ويطلب عطفكم وكرمكم ورعايتكم ، ويبلغكم إنه فقير ومحرور ويقيم

وأيض عنده طحلام ، وأنتم أقرب الناس إليه ، والشرع والدين والقرآن الكريم أمروا بإعطاء قوى القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأنا ياسيدي استغفرك الله أن تساعدني وأن تعطيني مما أعطاكم الله ، فانتقم من أهل الجود والكرم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أخوكم وخادمكم الأمين

إبراهيم عبد الحميد السويقي

دمعت عيناى ، وأخذت الورقة في لهفة ، وبمسستها في صدري ، وقال لي الأسطى طه :

— إذا ما ساعدكوش بعد كده .. ترافعى عليه قضية نفقة .. أنا سألت الشيخ متولى اللي كتب الجواب ..

وفي الصباح ذهبت مع إبراهيم إلى الجريدة ، ووقفنا عند ناصية الشارع ننظر ، ونرقب الداخلين والخارجين ، حتى حل بي التعب فجلست على الرصيف ، وأجلست إبراهيم بجانبى فأنكمش يستمع إلى في رهبة ، وأنا أكرر عليه ما يجب أن يفعله ..

قلت له ألا يخاف ، وأنه سيقابل أهله ، وسيعطيه الورقة ، وكان يفتص إلى فيزداد انكماشاً ووجعاً ، ويلتصق بي يريد أن يحمي بي من مخاوفه . ورأيت يوسف ..

كان يهبط السلم ، في حركة نشيطة سريعة ، ووجهه متألق ، واثنان يهبطان وراءه ، وقبضت على ذراع إبراهيم وقلت له في لهفة :

— أهه .. خذ الورقة وروح له .

وتردد إبراهيم ..

فزعلت فيه ، ودفعته بيدي فجري مذعوراً ..

وكان يوسف قد وصل إلى أسفل السلم ، والباب يقف منتفضاً رافعاً يده بالتحية .. وأقبلت سيارة بيضاء كبيرة ، أطلقت نقرها فجأة وقد كان إبراهيم أن يترطم بها ..

وتحولت الأنظار إلى إبراهيم وهو يتفادى للسيارة ، وقد رفع يده المستكة
بالورقة ، متجهاً نحو يوسف

وكنث واقفة في مكاني المعبد ، أنظر في عاء إلى ما يحدث ، كنثي في خيال ،
كانى لا أرى ما أراه .. كل شيء حولي غير حقيقي ، وكان في قلبي صمت
غريب ، ورأى يطر بالعراغ لا معنى ولا خاطر ولا شيء ..

ورأيت يوسف يطر إلى أخيه نظرة طويلة ، ورجلان يتقدمان ويلوحان
بأيديهم في وجه إبراهيم يريدان طرده ..

وأردت أن أتحرك ، وأداهع عن ابني .. ولكن عجزت عن الحركة .. كنت
مشلولاً ..

ورأيت يوسف يمد يده ويمسك بالورقة ..

وكان يده لمستني أنا فاستقصت ، وافقت من الخيال ، وأندفعت أعبر
الطريق نحو يوسف ، ومع كل خطوة اقترب فيها منه ، يتساقط حقدى ،
وتتباعذ ذكرياتي الأليمة ، وأحزاني .. حتى وصلت إليه وليس في قلبي سوى
الحنان والشفقة إلى أن أراه ويراني وأحدث ويحدثني .. وابتنسم له فيبتسم
لي ..

وصمت وابتنسامة فرح تشرق من قلبي :

— أزيك ياسي يوسف ..

فرفع عينيه عن الورقة .. ورأى ..

وابتنسم ..

نفس الابتسامة الضميلة المعتذرة .. وجهه لازال طيباً حنوناً ، فيه حزن
وأسى ..

وهتف في حرارة ..

— إزيك يا مبروك ..

ووضع الورقة في جيبه ، وصافحني وفي لحظة خاطفة ، تذكرت أمي يوم
مصحنتني بأن أقل يد ستي الكبيرة ، فأنحيت على يده أقبليها ، فاخطف يده
من شفتي ، ومدتها ليتصصس بها رأس إبراهيم ، وبعثت بأصابعه في

شعره ..

وقلت له والامل يتفتح في قلبي .. والديا تتسع .. والارض تتحول إلى سماء
عريضة تنف عليها ..

— شفت كبير إنزاي ..

قال والابتسامة تمرح في عيبيه وتعاقد ابتسامة :

— ما شاء الله .. بأه وأجل أه ..

قلت في حرارة ..

— البركة فيك ..

قلتها ، وكأنه هو الذي رباه ورعاه وأتفق عليه طوال السنوات الماضية ..
فنظر إلى وهو يتراجع بقدميه إلى الوراء .. واحتلت الابتسامة من وجهه ،

وقال بصوت خفيض :

— إن شاء الله ..

قلت في لهفة .. وأنا أتقدم منه ، وهيناي تبعتان عن ابتسامته التي
أخفت :

— ح فعل فيه إيه ..

فلفت حوله ، ثم وضع يده في جيبه وأخرج جنيهاً ..

صحت في فزع ، وكأنه خرج من جيبه لحياناً ..

— أنا موش عايزه فلوس ..

فقال في دهشة :

— أمال عايزه إيه ..

قلت بلا وعى :

— ح شديني الجنيه وتسبيني

فتجاهل كلمتي ، وأنحنى على إبراهيم ، وأعطاه الجنيه ..

نظرت حولي يائسة ، أريد أن استقيث ، فواجهتني عيون بلهاء ..

وسمعت يوسف يقول :

— أنا مستعجل دلوقت ..

فصرخت

— رايح فين .

فتقدم أحد الرجال ووقف بيني وبين يوسف وقال مهدداً :

— ما تبقيش طماعة .. البية أسطاكى جنيه .. احمددي ريتنا ..

وكان يوسف قد دخل سيارته ، قدفعت الرجل ، وهجمت على السيارة
أصرح ..

— رايح فين .. ح تسييني اعمل إيه ياسي يوسف .. أنا وليه غليانة ..

فلم يلتفت لي ، وتحركت السيارة ، بينما تلقفتني أيد امتدت من الخلف ،
لتمنعني من السقوط .

منذ تلك اللحظة ، فقدت كل مشاعر الحب والحنان ، سيطر الحقد علي ،
ومرست به ، فلوث حياتي كلها ..

فطمني الحقد من حياتي السابقة ، فطمني من ذكرياتي المزيّنة ، ومن
طفولتي ، وامي ، وستي الكبيرة ..

فطمني من حبي لشوقي ..

منذ تلك اللحظة ، علمت أن مبروكة قد ماتت ..

الم أقل لكم إنني مت وأنا حية . الآن فقط أدركت هذا ..



وعشت حياة أخرى ..

صدقوني .. إن مبروكة التي تعيش اليوم ، مغلوقة أخرى . ليس لها
قلب ، كل ما تملكه هو الحقد .

مبروكة اليوم امرأة بلا أحزان ولا أفراح .. إنها عقل بارد في جسد من
خشب .. عقل بلا عقل ..

نعم .. هذا هو أنا اليوم .

لتحرك وأروح وأجىء وراء لقمة ، بلا أفعال ، بلا أمل ، بلا غضب ،
بلا أحلام .. كل الأحلام التي عرفتها وعشت بها قد شاعت . كل الأصوات

التي كانت تهمس في داخلي قد خمدت ..

لم يبق لي سوى الحقد على يوسف والطعام .. الطعام ..

هذا هو كل ما أتذكره في النهار ابحت عن الطعام وأكله أنا وابني .

وفي الليل يبحث الحقد عني .. ويأكلني ..

أين أجد الطعام ، أين أراه وأشمه ، أين أمد يدي إليه لاسد به فم
إبراهيم ..

لحياناً أتذكر في برود ، أسي عندما كانت تلطمني على وجهي إذا سألته عن
الطعام ، ويكت اخشاعاً فادح للجوع يقرصني ولا أشكو .

وأيات الليل بلا طعام . إنني لا أريد أن يفعل إبراهيم مثلاً كنت أعمل ..
لا أريد أن ألطمه على وجهه إذا شكا الجوع .. لا أريد أن يضطاني فيقرصه

الجوع ويصكت ويبيت ليلة بلا طعام .

ومع ذلك ، تدور كل هذه الخواطر في رأسي ، وكأنها لا تعنيني ، كأنها
خواطر امرأة أخرى غريبي ..

ودفعني بحثي عن الطعام إلى بيت راتب بك .

دخلت عليهم ، وكانى لا يعرفهم ، كأنهم غرباء ، مجرد أناس .. أجد
منهم الطعام .

حتى البيت بحجراته وأثاثه وسلمه ، لم يثر في نفسي أى شعور ، إنه ليس
أكثر من مكان يقوِّح منه رائحة الطعام ..

وقابلتني ستي الصغيرة متجهمة الوجه ، فلم أكتف ، ويكبت أمامها
بلا دموع .. تصنعت البكاء ، وشكوت لها يوسف ..

وأدهشني أنها اهتفت فجأة بكلامي ، ونادت راتب بك ، فجاء يمشي على
مهل ، وقد تقوس ظهره ، وتكرمش وجهه ، ويده ترتعش رعشة متصلة ،

وطليت منى ستي للصغيرة ، أن أعيد ما رويته لها عن يوسف .. واستمع لي
راتب بك ، وعلى شفقتي انفسامة وألمة ، وفي عينيها لمعة فرح بما يسمع ، ولما

فرغت من حكايتي ، اشتبك مع ستي الصغيرة في شتم يوسف

ونظرت لي ستي الصغيرة في عطف ، وقالت لي إنها ستكفني بالعسيل ..
وقال راتب بك بصوت جاهد في أن يرفعه :

— أحنأ يا بنتي مثل فلات أصل ذي غيتنا .

وأحسست أنهما يشاركانني حقدى على يوسف .. لكننى لم أفرح بهذه المشاركة إذ كان لا يعنيني من أمرهما شيء سوى أن أحصل على الطعام . وتعودت أن أتردد على بيت راتب يك مرة كل أسبوع ، فأحصل وأكتس وأنظف ، حتى يهديني الثوب ، فأجرى إلى المطبخ وكل .. وأكل ، وأحمل معي صرة مليئة بالطعام لإبراهيم ..

وكان إسماعيل ينتظر إلى في دهشة أول الأمر ، ويحاول أن يملأني برقة . وكانت تضايقتي معاملته ، فأنفر منه ، ولكنه يش بعد قليل ، فتجاهلني ، وأراحني ..

وبحثت عن بيوت أخرى ، فذهبت إلى بيت ستي سعاد ، وكانت حاجتها إلى أكبر ، وقد أصبح لديها طفلان ..

وأهتكت هي أيضاً بسماع قصتي مع يوسف ، وكانت أمها قد روتها لها قبل أن أذهب إليها ، ولكنها طلبت منى أن أرويها لها من جديد . وضجعت عندما سمعتني أروي مقابلي الأخرى لهوسف أمام باب الجريدة .. وقالت لي والفرحة تملأ وجهها :

— ده أنت فضحتي يا مبروكة .

وقال لي قلتي إنها تشككني ، وإنى يجب أن أقول لها إني زوجة لبيه ، وإن إبراهيم أخوه .. ولكنى لم أشعر بأية رغبة في الكلام ، واكتفيت بأن همست مظهارة بالأصم ..

— أهه التي حصل ياستي ..

وأظهرت لي تأثيرها بحالي ، فكنت أتعهد أن أحكى لها عن همومي . أحكي لها بصوت ضعيف متحسر ملطدة أم حنلى .. وأفرح كلما بدا عليها الاشتغال ، وأنتأهر بأنى على وشك البكاء ..

وكانت تسألني بين وقت وآخر .

— هيه .. ماروحتيش ليويسف ثاني ؟ ..

وتضجكت

وكنت أشعر أنها تريد مني أن أذهب إليه ، وإن اتحمل مزيداً من إهاناته ، لأعود وأرويها لها .

وقلت لها صادقاً :

— لو يرضى أغسل له هدمه .. الروح له .

فضجكت قائلة :

— طيب ما تجريبي ..

قلت في حسرة :

— ما يرضاش ياستي ..

فكفت عن الضحك ، وبدأ عليها الضيق ، كأنى أحرمها من قصة مسلبة .. فصمت تماماً .. وأنا أتردد على سعاد ، تلك المقاربات الحمقاء التي كنت أضعها بيني وبينها ، لم تعد هي سعاد ، كما لم أعد أنا مبروكة .. أنها مجرد امرأة غريبة أستطيع أن أضعها بكلماتي ، وألغى ضلفتها ، لأحصل منها على اللقود والطعام .

وأرسلتني سعاد إلى بيت مدهت وكان قد تزوج من امرأة شبطاء أكبر منه ، قابلتني مقابلة جافة صريحة ، ثم تركتني أمام أكرام الفصيل .

وبضت شهود دون أن أرى مدهت ، ولكنى كنت أغسل ملاييسه ، وأههب لقدارتها الشديدة . والظوب التي لجدها أحياناً في ملاييسه الدلخلية .. إلى أن قابلته عصر يوم وأنا خارجة من باب العمارة ، وكاد يمد يدي دون أن يعرفني ، ولم أحاول أن أخاطبه ، ولكنه لاحظ التفاتتي نحوه ، لمصدق لي وجهي ..

وعرفني ..

وهتف في دهشة .

— مبروكة ... أنت بتعملي إيه هنا ..

قلت له ، وقد كسوت وجهي بقناع التماسه ..

.. كدت فوق عندكم يا سيدي .. ما هو أنا الفسالة بتاعكم ..

فصاح لي لتفعل :

— إزاي لنا ما أعرفش ..

كان وجهه مبهماً .. وتحت عينيهِ حفرتان زرقاوان ، وتظاراته حلوة نلقة ،
ولكن ابتسامته كانت حلوة .

ولنت لنفسى ، لو ارادنى الآن لما قاومتى ، ولأخذت منه نقوداً أكثر مما
أكسبه من الفسيل .

ورسمت على وجهى ابتسامة وغرست عيني في عينيهِ ..

ولكنه لم يفهمنى ..

وصاح كأنه تذكر شيئاً مفاجئاً :

— وإيه أخبار يوسف ...

قلت له : وأنا لأزلت ابتسم ، إذ كان لا يعينى سؤاله ..

— ما بأشوقوش ..

فعضى بقول محتجاً :

— لكن ما يصحش يسبيك تشتغلى ..

قلت وأنا أتوسل إليه بعيني أن يفهم دعوتى ..

— أهو موش سائل عنى ..

فقال مستدأ :

— لا .. أنا لازم أكلمه ..

وتركنى ثائراً على يوسف .. وحاولت أن أراه مرة أخرى ، فلم أفلح ، إذ

كان نادراً ما يعود إلى البيت ..

وايقنت أنه نسينى ..

وبضت الأيام ، وكنت عائدة عصر يوم من بيت ستي ، وفي يدي

صرة الأكل ، وإذا بى أفاعاً بالدينة تحترق .. النار تشتعل في الدكاكين ،

والدخان يملأ الشوارع ، وناس تحرق نحو النار ، وناس تجرى من النار ،

والزجاج يملأ الأرض تحت قدمي ، وصرخات بعيدة تقترب ، وصبية يحملون

القمشة ويطاردون بعضهم بعضاً وسط الطريق .

كان الحراب في كل مكان .. والسماء سوداء ، والرياح الباردة تهب

وحوي ، خيل لي أن الدنيا قد جنت ، ورأيت أملي سلكاً كبيراً يتدفع إليه

بعض الصبية ، وبنفت من بينهم رجال يحملون قمشة من كل صنف ،
فاندفعت إلى داخل الدكان كالسحرة ، أخطف كل ما أراه .. أخطف بعيني
ويدي ويصمعي وبانفاسي .. أرتطم بالناس .. وأتلقى صرياتهم ولا أحس
بها ، لا أدري إذا ما كنت أصرخ .. أو أشتد ، أو أهمل فرحاً ..

وحملت بين يدي كل ما أستطيع حمله ، وألقيت بصرة الأكل وحريت إلى
الشارع هاربة في طريق بيتي ..

كنت أسير لاهية في شارع محمد علي ، وأنا لا أصدق ما رأيته ، لا أدري

هل أنا في حلم أم في حقيقة ..

وفجأة .. سمعت صوتاً يهتف باسمي .. صوتاً جريئاً هاراً .. فيه لهفة ..

لم ألتفت إلى مصدر الصوت ، وجريت ، ولكن الصوت طاردني ، حتى

رأيت رجلاً يلحق بي ويعترض طريقي .. كان يلبس جلبابية ومعطفاً وحول

رقبته كوفية .. وشعره الأكثر منقوش فوق رأسه ..

كنت ألقى بحملي على الأرض .. وقد تملكني الذعر ..

ولكنه كان يبتسم .. ويردد اسمي في حرارة ولهفة ..

من يكون هذا الرجل ...

وقبل أن أدير له ظهري وأجرى سمعته يقول :

— إزيك يابت .. أنت فين .. والله وحشتيني ..

هذا الوجه أعرفه ..

نعم عوض ..

وهنت ضاحكاً .

— إيه .. أنت موش عارفاني ..

كانت المفاجأة قد ألجعت لساني ، فقلت بصعوبة :

— بيه .. إزيك يا عوض ..

وقطعت بقية كلامي ..

تذكرت أنه كان في السجن ..

وصاح عوض في مرج :

— عاملة إيه يابت .. أنت سببتي بيت الجيزة ..

وتذكرت شوقي ..

شوقي دخل السجن .. وعرض خراج منه .. ما الذي يحدث في هذه الدنيا ..

وكرر عرض سؤاله :

— ما تقول لي .. أنت لسه في بيت الجيزة ..

قلت بلا تفكير :

— لسه بروج لهم ..

وصوب عينيه إلى ما أحمله في يدي وابتمس قائلًا في روح :

— والله شاطرة .. عرفتني تأخدي نصيبك في الزبيلة دي ..

ثم بدت عليه دغشة مفاجأة .. وسألني :

— يعني إيه بتروحي لهم .. هره أنت عابشة بعيد عنهم ..

قلت :

— أه .. أنا عابشة في بوابة المتولي مع ابني ..

لهتفت :

— واتجوزتي كمان ..

واستمع إلى طوال الطريق ، وأنا أروى له عن زواجي من مدرس اسمه عبد الحميد القندي السويدي ، وكيف سات وترك لي ابني الذي أحمله ولم أذكر له يوسف ، رغم أن اسمه كان على طرف لساني ، أكاد أنطق به مع كل كلمة أقولها ..

ولم يصدقني ..

ضحك وهو يحدق لي بعينين ماكنتين وقال :

— شوغليك خيمها .. الواد جيئيه منين ..

قلت له في هدوء غريب ، وكاني لا أصدق معه ما أقول :

— والله اتجوزت ..

فنظر إلّي في خبط وقال :

— مصدقك .. مصدقك .. اتجوزتي مدرس .. وبعدين اشتغلتي غسالة ..

كويسة قوى .. تعجيبيني ..

وصوب إلى صفري نظرة تهمة .. وقال :

— أهو أنا حراجي لشتغل مع واحدة زيك ..

كنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق فوقف ، وأشار إلى ما أحمله وقال :

— أنت موش محتاجة تخطفي الحاجة .. أنا مايزك تحطى مخك في رأسك

وتسمعيني كويس ..

وحسنتني عن النقود الكثيرة التي سيمطرنني بها ، والبيت الجميل المفروش

الذي سأسكن فيه ، والحياة المرحمة التي سعيشها ..

كان يحدثنني بصوت حلو .. ذكرني به ، وهو يردد الأغاني في الدكان منذ

سنوات .. واستمعت إليه في استسلام ، وهفي يقول لي :

— أنت متعبة يا مبروكة .. إلى متى تجهدين نفسك في الغسيل .. إلى متى

تترددين على بيوت راتب بك وسعاد ومذمت .. كل هذه البيوت تبور .. تذكرك

بمبروكة التي ماتت .. اسممي كلام عوض اتبعه .. استريحي يا مبروكة من

مبروكة ..

وهنا سكنت مبروكة عن الكلام ..

وبذلك انتهى القسم الأول من الرجل الذي فقد ظله ...



القسم الثاني تربيته :
سكامية

أنا سامية .

سامية سامي ، الممثلة في السينما ، اعترف أنني مارلت غير مشهورة ، لأن كل الأدوار التي ظهرت فيها حتى الآن كانت صغيرة ، ولكنني طموحة ، وعندى المواهب التي تجعل مني ممثلة كبيرة مشهورة مثل فانت حمامة وأحسن منها . وعندى أكثر من المواهب .. عندى الجمال .

قوامي يشبه قوام اليزابث تايلور ، ممسوق وملفوف ، وطري كأنه خال من العظام ، وعيناي أجمل من عيني اليزابث تايلور ، ناعستان عميقتان ، سوداوان ، مليئتان بالأسرار ، كل من ينظر إليهما تدور رأسه ، أما شفائى فقد رسمهما الله في ساعة رضاء .. هذا أقول .. إنى جميلة .. كل شيء فى جميل .. شعري ، يداى ، ساقائى ، مشييتى ، صوتى ..

كل شيء فى جميل إلى حد الهمس ..

سمعت البعض يقولون عني إنى قصيرة .. ولكن الذين يقولون هذا الكلام لا يضايقوننى ، لأنهم لا يفهمون السينما .. إنهم لا يعلمون أن السينما تضخم كل شيء على الشاشة ، ومن حسن حظى أنى قصيرة ومنممة ، لأنى أبصر على الشاشة فى طول مناسب ، أما لو كنت طويلة فى الطبيعة لظهرت على الشاشة فى طول الزرافة .



أنا لست مفرورة ، كما أنى لست سعيدة بجمالى ، تنتابنى أحيانا لحظات
ياس ، هاكاد اكبر بنعمة الله ، وبالجمال الذى وهبه لىائى ، وأتمنى لو كنت
قبيحة دميعة

كنت أظن لسذاجتى ، أن جمالى سيساعدنى ، ويسيق لى طريقى فى دنيا
السينما ، فاصعد إلى سماءها واسطع كنجمة لامعة ، ولكن جمالى كان هو
العقبة التى سدت الطريق فى وجهى ، لأن دنيا السينما غابة مليئة بالذئاب ..
كلهم ذئاب . المنتجون والمخرجون والممثلون والمصورون ..
كلهم .. كلهم .. ذئاب ..

إنهم لا يتعلمون أبدا إلى مواهبى ، إنهم يضعون فى جمالى ، يتنافسون
عليه ، يتآمرون عليه ، وأكون أنا الضحية دائما .

حتى الصحفيين الذين يحومون حولنا فى الاستبوهات ، يلتقطون أخبارنا
ينشروها .. هم أيضا ذئاب ..

لقد ضاعت منى فرصة العمر ، بسبب واحد من هؤلاء الصحفيين ، إنه
رئيس تحرير الآن ، صحفي مهم مشهور ، كل الناس تعرفه وتتحدث عنه ،
ولكنهم لا يعرفونه على حقيقته .. أنا وحدى التى تعرفه .. أنا وهدى التى
تستطيع أن تقول من هو يوسف عبد الحميد ..

كم كنت غبية إذ صدقته يوما ما ، وفلننت أنه سيفى لى جانبى ، ويصعد
معى سلم المجد ، درجة درجة ، نحن الاثنين معا ، حتى أصبح أنا أشهر
ممثلة ، ويصبح هو أشهر كاتب صحفي .

من أجله تركت فرصة العمر ، ورفضت دور البطولة ، أما هو فما كاتب
تبرق أمامه الفرصة حتى رفضنى بقدمه ، وتركنى أتنحرج وأنحدر أسفل
السلم ، وبخى وهو يرتفع .. ويرتفع .. وهدى ..

لا أريد أن أخدع نفسى .. أقول لى إنى أكرهه وأحقد عليه ..
أنا حاربت أحبه ..

نعم أحبه .. ولكنى أكرهه أيضا وأحقد عليه ..

لو تخلصت من يوسف .. لو تخلصت من ذكراه .. لو مريى يوم واحد

دون أن تطوف صورته بىخالى .. لو حدث هذا لاسترحمت .. ولتخلصت من
ضعفى ، ومضيت فى طريقى أيمى حياتى من جديد ولكنى لا أستطيع .

شبهه يطاربنى .. ذكراه تطاردنى .. اسمه فى كل مكان يطاربنى . مجده
وشهرته ونجحه السلطع يطاردونى .. إنه هناك ، فوق ، فى أعلا السلم .. وأنا
هنا ، تحت ، فى أسفل السلم .. إذا رفعت عيسى لأرى إلى أين وصل ؟
أحسست بالدوار ، وبطول المشوار ، فاستيقظت على الخوف ، وأخشى أن
أحاول الصعود إليه ، فمرسنى مرة أخرى ، فأسقط وأحطم ..

كيف وصلت إلى هذا الحال ؟ ما الخطأ الذى ارتكبته ؟ ما الذنب الذى
جنته ؟ ما المرق أن رجلاً كيوست كان يرتضى عند قدمى ، ويقول لى إنه
يحبنى ، وأنى دنياه ، وأنى حياته .. ثم يدوسنى فجأة ليصعد فوقى ؟ ..

هذا هو ما أريد أن أعرفه .. لابد أن أعرف حتى لا أهدى عقل وأجن ..
إنى استرجع كل لحظة قضيتها مع يوسف ، استرجع كل كلمة قالها لى ،
وكل كلمة قلتها له .. كل حركة بدرت منه ، وكل حركة بدرت منى ، وأفتنى
والثب ، فى رأسى ، وفى قلبى ، وفى عواطفى ، وفى افكارى .. لأعرف ، ولأضع
أصبعى على المر ..

كان ذلك منذ سنوات بعيدة ، عندما قابلت يوسف لأول مرة ، كنت وقتها فى
الثامنة عشرة من عمرى ، مرحلة ، مجنونة ، الدنيا كلها تحت قدمى ، وكنت فى
ذلك اليوم قد دخلت استديو مصر لأول مرة لى حياتى ، ووقفت وسط مجموعة
من البنات تحت أضواء باهرة ، وكنا نتردى فساتين السهرة ، وفى يدى ميسم
فى طرفه سيجارة ، كان قلبى يدق ، وعدسات التصوير مصوية إلينا كأنها
عيون صلاوق رغبى ، وكنت لا ألقى هذا المعلق ، بل وألغة من أنه سيفتن
بجمالى ، وحدث فعلا ما كنت أتوقعه إذ صرخ المخرج فجأة ، فوقف
للتصوير ، وصدرت الأوامر ، فانصرفت البنات من حولى ، ووقعت وحدى
أمام الأضواء والحساسات ، تلتقط لى صورى ، وأنا أرفع الميسم إلى فمى ،
وأنت دخان السجارة ..

ويعد انتهاء تصوير المشهد ، أحاطتنى مئات العيون ، عيون تلتهمنى ،

وهيئت تحسديني ، وهيين تغار مني ، واقترب مني المخرج الأستاذ حلمي
كامل وأرخصني من خدي وقال لي :

- يرافو بابيهية .. أنت لكى مستقبل عظيم ..

فصعد أُنم إلى رأسى ، وعجزت عن الكلام ، فمد يده إلى ذقتى وأمسكه به ،
وجعل يتفرس في وجهى ثم قال :

- تستيتنى لما أخلص .. وأروحك معاليا ..

قلت له في ارتباك :

متشكرة . أنا رايحة عند واحدة صاحبتي ..

فضمك قائلاً :

بذمتك أنت رايحة عند واحدة صاحبتك .. والا حاجة ثانية ..

قلت له في براة وأنا أكذب طبعاً :

- والله العظيم أنا رايحة عند سناء ..

فمط شفتيه وقال متظاهراً بالغضب

- أنتي عوشى صادقة .. أنا ح الشككيكى لامك ..

ثم عاد وضحك قائلاً :

- روحى ألبسطى .. بس ما تسهريش كثير .. ولكرى في اسم جديد

لكى .. ينفع في السبينا ..

قلت له في دهشة :

- اسم جديد ليه ..

فقال ساخراً :

- علشان اسم بهية ما ينفعش .. ولوح بيده في الهواء ، كأنه يشير إلى

اسمى مكتوباً على يافطة كبيرة .. وقال :

- اتخيلي اسمك مكتوب في الإعلانات .. بهية هيد الرحمن .. اسم

مابهيش موسيقى .. ينفع اسم مدرسة .. والا اسم محاسبية .. لكن ما ينفعش

اسم محلة .

فساكنه في لهفة

- هو اسمى ح يطلع في الإعلانات ..

فصاح

ما تستعجلين ، أنا بافكر للمستقبل .. يادور على مصلحتك و أنت

بتعصبى ..

فصعرت بالندم .. لانى ارتبطت بموعد ، وفكرت في أن اتجاهل موعدى ،

واتراجع . ولكن كيف أفعل هذا ، لو أنه عاد وألح عليّ في البقاء فسأرضى في

الحال . وانتظره وأعود معه إلى بيتنا حيث يقضى سهرته ، ولكنه قال لي

بسرعة :

- فكرى في اسمين هرومهم زى بعض .. منى منير .. سعاد سعيد ..

كريمة كريم .. أى حاجة زى كده .. على العموم ح تلاقينى في البيت لما

ترجعى ..

وتركنى ، وانشغل بإصدار أوامره .. والأسماء تنور في رأسى وجريت إلى

باب الاستدير ، حيث كان ينتظرني مدحت في عربته الستروين ..

كانت الساعة حوالى الثامنة مساء ، ومازال أمامنا وقت طويل نقضيه في

العربة ، قبل أن نذهب إلى مكان لرقص فيه ، وكنت مترددة ، هل أكتفى بأن

أجلس مع مدحت في عربته بعض الوقت ، ثم أتظاهر بالتعب وأطلب منه أن

يعود بى إلى البيت لأشاور مع الأستاذ حلمي اسمى الجديد ، أم أقضى السهرة

كاملة مع مدحت وليكن ما يكون . كان لستان السهرة الذى أردته يعجبني ،

وأريد أن أرقص به في الأوبرج أو الأريزونا ووجدت نفس حائرة ، بين سهرة

كثيفة في بيتنا ولكنها سترضى الأستاذ حلمي ، وبين سهرة مرحة أتمتع فيها

بفستان السهرة ..

لم يكن مدحت يهمنى كثيراً ، فأنا لا أحبه ، وإن كنت لا أمانع في الزواج

منه ، فهو غنى وعنده عربة ، إنها ليست عربة أمريكية كبيرة ، ولكنها عربة

على أية حال ، وهى تثبت أنه غنى . وأنا واثقة من هذا أيضاً ، فهو يسكن في

فيلا بجوارنا في شارع الحيوة . وأبوه راتب بك الذى تقول عنه أمى إنه يملك

عزبة كبيرة في الشرقية ، ومدحت متخرج في كلية الهندسة ، وأنا يعجبني

عزبة كبيرة في الشرقية ، ومدحت متخرج في كلية الهندسة ، وأنا يعجبني

المهندسين ، وأفضلهم على الذكثرة .. لماذا .. لمست أحدى .. على أية حال ،
لماذا أحب نفسي بالتفكير. في كل هذا ، كائنات متزوج مدحت غذا ، من قال إننى
أريد الزواج منه ، أو من غيره ، إننى أريد أن أكون معطلة كبيرة ، وعندى
المواهب والجمال لأكون ممثلة كبيرة ، والاستاذة حلمى أكدت لي هذا ، والعينون
التي كانت تحرق في منذ لحظات أكدت لي هذا .. أنا متيقن ما أريد ..
وسأترك كل شيء للظروف .. ربما عدت إلى البيت وربما ذهبت إلى الأويرج ..
لا لن اتخذ قراراً الآن ..

قلت لمدحت وعريته تخرج من طريق الاستديو إلى شارع الهرم .
- ح نروح دلوقت فين ..

فقال وهو ينظر إلى نظرة سريعة قلقة ..

- والله فيه حكاية بايغة لازم أعلمها ..

قلت له في حدة كائن سمعت الحكاية :

- حكاية إيه باه ..

فقال في ضيق :

- فيه واحد صاحبي .. أبوه مات من أسبوعين .. ولأزم أسأل عليه ..

وأخرج معه ..

لمهنت وأنا استعد للثورة عليه

- وأنت مالك .. ح تقعد تعيط جنبه . والا ح تعمل له دابة .

قال مدحت معتذراً .

- أهوشوفه شويه .. وبعدين ذروخ ..

واتخذت قرارى .

قلت له بلهجة حاسمة :

- روحنى ..

فقال متوسلاً :

- وتسيبيني لوحدى في المصيبة دى ..

قلت في عناد :

- ماليش دعوة ..

فأوقف العربية .. وجعل يستعطفنى ، وشعرت بحبه لى ، وإننى لو غارقت
سيتألم ، وكان يشايفتنى أن الوقت مازال مبكراً ، وأما لا أريد أن أعود إلى
البيت في الحال ، ماذا أصنع هناك ؟ ساموت من الضجر ، وربما تشاجرت مع
أمى ، كنت حائرة ، لا أريد أن أعدل عن قرارى بالعودة إلى البيت لا تهمنى
توسلات مدحت ، ولكنى أريد أن أعطف عليه ، إننى لا أحب ولكنى لا أريد أن
ألقه حبه .

ولحت عند شجرة قريبة منا ، امرأة تردد تحتها ، فانتابتنى قشعريرة .

وتسببت كل شيء ، وقلت لمدحت ..

- شوف الممت الفطيلة دى .. قال لى في دهشة .

- مالها ..

قلت له وأنا أكاد أبكى ..

- إيديها حلجة ..

فأخرج من جنبه قرشاً .. فصعقت فيه ..

- لا .. إيديها نص ريال .

فقال مستسلماً وعلامات الحيرة في وجهه :

- حاضر ..

وخرج من عريته ، وذهب إلى المرأة ، وأقبلته وأنا أخشى أن تكون المرأة جثة
ميتة ، وتنهدت في راحة ، وهى تتحرك وتدبها ، وتأخذ النقود من مدحت ،
فلما عاد لى ، كنت قد قهرت أن أوافقه على رؤية صاحبه .

وسأله :

- صاحبك ده اسمه إيه ..

فقال

- يوسف .. يوسف عبد الحميد ..

ثم صاح وكأنه تذكر شيئاً غاب عنه :

- على فكرة ده صحفى .. نخليه يكتب عنك ..

فتظاهرت بأنى غير مكررة بما يقوله ، ولكنى فى قرارة نفسى شعرت بقروح غريب ، خيل لى أن الدنيا كلها تفتتح أمامى ..

واستلقت أحلامى ، تملأ الطريق الراسع أمامى ، حتى وصلنا إلى مبنى جديدة الأيام ، إنه مبنى صمغ كل نوافذه مضامة ، وكأنه يستعد لاستقبال أحلامى . فى يوم ما ، سيقفز الصحفيون من مكاتبهم فى داخل هذا المبنى عندما يعلمون بوصولى ، سيتهافتون على ، ليلتقطوا صورتى ، وليأخذوا الأحاديث منى . ما رأيك فى عيد الوهاب .. ما هى الغنية لم كلثوم للفضلة لديك . من هو الممثل الذى تحبب الظهور أمامه .. لماذا لا تتزوجين ..

وقلت لسجنت وهو يضغط على الكلاص :

- أحيانا موش ح نطلع .

قال لى فى دهشة .

- عايزه تظلمى ..

قلت له وقد ضايقتنى دهشة :

لا ..

فنظر إلى لسنتانى وقال :

- لو شافوكى فوق فى الهرنال موش طالع بكرة ..

وفكرت له دهشة ، ولكنى كنت أشعر بقلق ، وقد انتصبت فى جلستى ، كأن كل الصحفيين يطلون على من النوافذ ، يراقبوننى ويتساقطون من أكفنى ..

وجاء الدواب مهرولا نهر مدحت وقال وهو ينظر لى ، وعلى شفطى ابتسامة كبيرة ..

- حاضر يا معادة البية .. موش يرضه إنده للأستاذ يوسف ..

قال له مدحت .

- آيوه .. بس قول له أنا مستعجل ..

ووقفت أمامنا سيارة سوداء كبيرة ، هبط عنها السائق مسرعا ، وفتح بابها الخلفى ، ليهبط منه رجل طويل فى فمه سيجارة ، له وجه وسيم ، حلو

التقاطيع ، كويج روبرت تايلور ، ولكنه وجه حزين ..

صعد الرجل السلم مسرعا ، ورأسه محنى .. وصمت فى مدحت

محمد ناجى .. موش ده محمد ناجى ..

قال لى وهو يتسهم .

- آيوه .. هوه ..

وامتلات بنشوة كبيرة ، سأعود إلى أمى وأقول لها إنى رأيت محمد ناجى ، إنها تقرأ له كل حرف يكتبه ، تقرأ مقالاته السياسية ، وقصصه ، وبيوماته . وأنا أيضا أقرأ له ، وأحبه ، إنه صديق جميع المثلات والمطربات المشهورات ، كلهن يترددن على حفلاته التى يقيمها فى بيته ويحضرها الوزراء والباشوات ، ويكتب عنها ، وعن النوادر التى تحدث فيها .. كم عشت مع محمد ناجى فى حفلاته من خلال السطور التى أقرأها له ، وكنت أسرح بخيالى والجريدة ملقاة على حجرى ، وأخيل نفسى فى بيته ، فى إحدى هذه الحفلات ، والوزراء والباشوات حولى ، يقابلون يدى ، كما يفعلون مع أم كلثوم ، والجميع مبهوتين بجمالى ، ثم أخيل أنى أقرأ فى صباح اليوم التالى المقال الذى كتبه محمد ناجى عن الحفلة ، وهو يكتب إنى أعظم ممثلة فى العالم ، وأن الجميع وقفوا تحت مسمرى ، سيطرت على الحفلة بجمالى وخفة دمي وأناقتى ، حتى الوزراء كانوا يدهشون من إجاباتى وسرعة بديهتى ، ويشعرون من النكت التى أطلقها عليهم ..

سنتفرح أمى عندما أقول لها إنى رأيته .. إنها تقول عنه إنه لا عب بوركر مدعش ، يفسر المثات دوين أن يهتزله ريش ، إنها تعرفه ، فقد لعبت معه مرة ليام الحرب عند إحدى صديقاتها ، ومن يومها وهى تذكره على لسانها فى كل مناسبة .. إذ ضايقتها شىء قالت على الفور :

- والله لأكلم محمد ناجى فى التليفون وأقول له يكتب عن السكر الى موش

لاقيينه فى السوق ..

- يكتب عن التليفونات اللي بايظة ..

- يكتب عن الرجال الحوامى الى باع فى الحزمة دى .

في إحدى المرات تشاجرت معي ، فقالت :
- والله لأكلمه في التليفون وأقول له يكتب عن البنات التي ملشين على حل
شعرهم .

فقلت لها ساخرة .

- ما هو آخر بيعدل اللي على كيفة .. موش بيحب دلال ..

وكان محمد ناجي أيامها ، غارقاً في حب المطربة دلال التي ماتت ..

ولكن أمي لم تتصل به أبداً ، لم تحدث في التليفون ، ولم ترسل له خطاباً ..
إسما تعلم أنه قد نسيها ، إذ ما الذي يجعله يتذكر سيدة من بين مئات
السيدات اللاتي قابلهن ، في سهرة من بين مئات السهرات التي يقضيها أو
يتردد عليها كل ليلة ..

تعم .. ستفكر أمي ، عندما أروي لها أني رأيته ، وإنه وسيم وحلومثل
دوبرت تايلور .. ولكن لا بد أن أقول لها أيضاً إنه حزين .

ولأنمجبني مشيته وهو معنى الرأس .

دأبت رأسي بهذه الفواطر فأحسست بلهفة إلى لقاء يوسف .. ويدت
أتملأ لغيبابه ، إنه سيفتح لي طريقاً عريضاً .. لعل القدر دبر لقائي به لأصل
عن طريقه إلى محمد ناجي .. إن ليثني هذه هي ليلة القدر ، كل شيء يبدو سهلاً
مريحاً . الأضواء تفرغني .. العدسات تصورني .. الاسم الجديد .. مدحت
يحبني .. يوسف سيكتب عني .. وسيقدمني إلى محمد ناجي .. الفستان
الذي أرتديه .. العربية التي أجلس فيها .. لم أكن أفكر لحظتها في أنها عربية
مدحت ، إنه مجرد سائق ياتر بأمرى .. ويقود عربتي .

كنت سعيدة .. أكثر من سعيدة ..

ورأيت يوسف يهبط السلم نحرنا ..

عرفته ، قبل أن يهمس مدحت قائلاً .

- أه ، أعمل معروف استحمليه لحد ما توزعه ..

وضحكت في سري ..

إنه لا يعلم إلى أي مدى ذهبت في افكاري ..

قلت بسرعة قبل أن يصل إلينا يوسف .

- هوه ما عتوش عربية ..

قال :

- لا ..

فهمست

- يعني غلبان .. على قد حاله ..

وأطبقت شفتي ، فقد كان يوسف قد وصل إلينا ، وانتهى ليحدث مدحت
من النافذة ، دون أن ينظر إليّ ، حتى فطنت أنه لم يرنى .

وجهه لبيش البثرة ، مستطيل شفاته رقيقتان ، وعينه شاردتان وفي

صوته رهشة خجل ..

قلت له مدحت

- أركب ..

فسأل وهو يتراجع إلى الوراء

- ح تروحوا هين ..

سأل مدحت بصيغة الجمع فعلمت أنه رآني .. وغاظني أنه لم يوجه إلى

التحية .

وقال مدحت

- پس أركب .. ح تروح أي حته ..

وفتح يوسف الباب الخلفي للعربة ، والخيط يتزايد في داخل .. لأنه لم

ينبس بكلمة واحدة .. وأدار مدحت المحرك .. وسارت العربة بضمة أمتار ،

قبل أن يقول فجأة موجهاً الحديث إلى يوسف

- انت ما بتسلمش على مدحوزيل بهيه ليه ؟ ..

فصاح يوسف في ارتباك

- أنا متأسف أصلك معرفتنيش بيها

والتفت إليّ .. التقت إلى ظهري ، فقد رفضت أن أدير رأسي له . وسعته

يقول وهو يضحك في عصبية :

.. أنا متأسف .. مدحت للى غلطان ..

فهتف مدحت مقاطعا

.. غلطان ليه .. هو احنا خواجات لازم أعرفكم ببعض قبل ما تسلموا .

قلت لمدحت متجاهلة يوسف :

.. يمكن موش عايز يسلم عز .. ليه تصعب عليه ..

وتلطم يوسف سواختلعت الكلمات في فمه ، حتى شعرت بأنه حقيقة غليبان

ومسكين ..

وبعدت افكر في الخطة التي كنت اعدتها ، ولتسائل هل يصلح هذا

الشخص ، لأن يقدمنى لمحمد ناجى .. إنه يبدو أضعف من أن يستطيع أن

يلعب شيئا ..

وسألنى مدحت :

.. تجبى نروح لبن ..

قلت له :

.. أهوه .. نمشى بالعربية شوية ..

ثم استدرت فجأة إلى يوسف .. كان يجلس على طرف المقعد ، فانتفض

متراجعا يظهره ، كاني بالهته ، وسألت :

.. الأستاذ يحب يروح لبن ..

قال وهو يفضض بصره :

.. اى حته .. زى ما أنتم عايزين ..

وأيقنت ألا فائدة منه .. إنه ثقيل الطل ، غير محتمل ، لا يعرف كيف

يتحدث ، وليس له شخصية على الإطلاق ..

كيف يعمل هذا المخلوق في الصماعة .

قلت لمدحت :

.. ياللا بيبا نروح شارع الهرم

فصاح .

.. تاسى

قلت له في مسخرية فهمها

.. امه فسحة والسلام .. ويعددين نروح ..

فوافقنى ، وقد أدرك لنى أريد الخلاص من يوسف بسرعة .

وبحاولت أثناء الطريق أن استدرج يوسف ليحدثنى عن محمد ناجى ،

قلت له في يروه :

.. الأستاذ بيكتب في الجرنال ..

قال بصوت خفيض :

.. لهو ... بأحاول ..

وسكت ..

قلت وأنا أتمد السخرية به :

.. موش فاكدة انى فريت لك حاجة ..

قال في لهجة معتذرة :

.. الواحد لسه بيخبط .. ساعة أكتب عن جريمة .. ساعة أكتب الخبر

فن ..

فصاح مدحت :

.. أنا عايزك تكتب عن بهية .. تعرف أنها ممثلة ..

فألمت بصعوبة رغبى في أن أستدير ليوسف ، وأرى وقع الخبر عليه ،

وبكت أجن عندما سمعته يقول :

.. كده ..

ثم عاد إلى صمته ..

لته سخياف ، وقليل الأدب .. أمذا هو كل ما يستطيع أن يقوله بعد أن

عرف لنى ممثلة ، وقررت أن أنتظر حتى تقترب من استديو مصر ، فأطلب من

مدحت أن تقف عنده ، فإذا وجدت الأستاذ حلمى مازال هناك فساتركهما ،

وأبقى مع حلمى حتى يعود بى إلى البيت ..

استرحت لهذا القرار ، إذ ساتركهما بعركة مفاجئة ، وسيعظم يوسف

لنى ممثلة مهمة .. أفضل الاستديو وأتركه لأن عندى عملاً هاماً مع المخرج ..

وقلت فجأة .

- أنا بالحب اقرأ للاستاذ محمد ناجى .. بقصوت فيه .

فقال يوسف بسرعة .

- وأنا كمان .. ده استاذى .. وأعجبتنى إجابته ، كان فيها تواضع لم

أنتوقعه منه .. وعلى الرغم منى تورطت معه فى حديث عن محمد ناجى سألتته عن محمد ناجى ، فأجاب فى كلمات مقتضبة ، إن محمد ناجى يحبه ، وأنه يدعو إلى بيته وجفلاته وأنه أعظم شخصية فى عالم الصحافة ..

ومررنا باستديو مصر ، دون أن أنتبه وانفجعت العربية صاعدة بنا إلى الهرم ..

ووقفنا عند الهرم الأكبر .. ففتح يوسف الباب وعبط من العربية صاح فيه مدحت .

- رايح فين .. إهنا راجعين .

فقال يوسف وهو يمشى مبتعدا :

- عايز امشى لوحدى شويه .. وعصى فى طريقه بين الصخور .. قلت لمدحت

وأنا أنهد :

- باباى .. صاحبك ده فطرح .

فقال وهو يبتسم :

- أبدا .. عيبه إنه بيتكسف .

فصحت :

- ولا بيتكلمش ..

فقاطعتى مدحت :

- أالراجل قاعد يتكلم طول السكة على محمد ناجى ..

فقلت له :

- بيتكلم زى ما يكون فصب عنه ..

ونظرت فى الاتجاه الذى يسير فيه يوسف .. وسألت مدحت :

- هو رايح فين ..

فقال يذكركى :

- موش قلت لك أبوه مات ..

وعدت أسأله :

- وأبوه يبقى مين ..

قال مدحت

- يبقى المدرس بتاعى ..

فضمكت صامرة وقلت :

- اللي يشوفه ماشى لوحده فى الضلعة ، يفكر إن أبوه كان وزيراً .. والا

باشا ..

فهمس مدحت وفى عينيه بريق :

- تهرنى إن يوسف ده فى حياته مأساة ..

واختلس مدحت نظرة سريعة إلى الظلام ، ليتأكد من أن يوسف بعيد عنا ..

وزاد البريق فى عينيه .. كأنه فرح بالقصة المسلية التى سيجوبها لى .. وقال

وابتسامة باهتة على شفاهه :

- تصورى إن أبوه .. اتجوز الخدامة اللي كانت بتشتغل فى بيتنا .

كانت القصة مسلية أكثر مما أتوقع .. قصصت فى جدل :

- موش معقول ..

فقال مدحت بصوت متفعل

- واه العظيم .. خدامة اسمها مبروكة ..

واطلقت ضحكة عالية .. وقلت :

- تلاقيه كان بيك وبين الخدامة دى حاجات ..

فتلفت مدحت حوله فى ذعر كأنه يحس أن تصل ضحكاتى إلى يوسف تحمل

معهما حديثنا عنه .. ثم قال هامسا وعلى شفاهه ابتسامة خبيثة :

- المصيبة .. أن يوسف كان يعرف اللي بيبي وبين مبروكة

صحت فى دعر :

- كان يعرف إزاي .. مين قال له ..

فقال مدحت في اورتباك .. كانه يدافع عن تهمة :

- انا .. ماكنتش اعرف ان ابوه ح يتجوزها ..

فسالته في لهفة

- ويوسف عمل ايه .

قال وقد ظهرت على وجهه الابتسامة الخبيثة ..

- كانت فضيحة .. وساب البيت لابوه .. لحد ما مات ..

وشعرت بالتم مغامرة في صدرى .. وقلت فامسة ..

- مسكين ..

فقال مدحت في وجوم ، وقد لاحظت تغير وجهي :

- صحيح مسكين .. هو متصور ان ابوه مات بسببيه ..

قلت واذا اكنتم صرخة تمزقنى ..

- فاكر انه قتل ابوه ..

فسألنى مدحت في قلق ..

- مالك ..

فحولت راسى بعيدا عنه ..

وحذقت في الظلام .. وقلت وانا انتكظ انفاسى بصعوبة ..

- انا موش عايزه اسمع الحكاية دى ..

فقال معذرا وهو يفسك في مصيبة ..

- ايه اللي حصل ..

قلت في حدة :

- ولا حاجة ..

ثم صرخت ..

- موش عايزه اسمع .. موش عايزه اسمع ..

أحترار مدحت ، ولم يفهم ما حدث لى .. ولكن ماذا أقول له ..

لقد تذكرت فجأة أبى الذى مات منذ عامين .. ولبنى أدفن شكرى موته في

أعماقى .. وأبذل جهداً مستميتاً لنسيانته .. ونجحت في ذلك .. حتى انى لم

أذكر أبى ، عندما أخبرنى مدحت بموت أبى يوسف ..

عندما أخبرنى ، ثرت عليه ، ورفضت مقابلة يوسف .. إنى أعلم الآن

المسيب الحقيقى لشورتى ، كنت لا أريد أن أقابله حتى لا أذكر موت أبى ..

نعم هذا هو المسيب الحقيقى .. خشيت بلا وعى ، أن يذكرنى موت أبيه ،

يموت أبى ..

وأمتدت يدي إلى باب العربة ، أريد فتحه لأخرج هاربة إلى الظلام ، ولكنى

رأيت يوسف قادماً نحونا ، وشعرت أنه يقترب منا ماشياً على قلى ..

ودأخطنى شعور غريب في تلك اللحظة ، بأن هناك يد خفية أقوى منا ، تحرك

يوسف نحوى ، وتريد أن تربطنى به .. نحن الاثنين لنا ذكرى واحدة ..

هو قتل أباه ..

وأنا قتلت أبى ..

وحمل يوسف إلى العرية وأنا في قمة الألم ، ولم أكن أستطيع أن أتعمل أكثر من هذا ، فإما أن أفتد وعيي ، وإما أن أتخلص فجأة من كل شيء .. وهذا هو ما فعلته .

في اللحظة واحدة ، تخلصت من كل شيء ، ونسيت أبي . تحولت إلى إنسانة مرحة ليس في قلبها هموم ..

لقد تعربت على هذا ، فحياتي كلها تقلبات مفاجئة في عواطف وأفكارى .. أتشاجر أحياناً مع أمي ، وبتبادل الكلمات القاسية والنظرات الباردة ، حتى يظن من يرانا أننا سنقتتل ، وفجأة ابتسم لها ، وتبتسم لي ، وتبادل الكلمات الرقيقة ونظرات الحنان ..

أنا مضطربة دائماً إلى أن أنسى ما أفكر فيه ، وأن أنسى ما أحس به ، وأن أنسى ما أراه ... ويفر هذا النسيان لا أستطيع أن أطلق حياتي .

صحت في يوسف وكأنه صديق قديم لي :

— أنت رحت فين .. موش خاييف من العفاريث ؟

فقال وهو يدخل العرية ، وعمل شعطيه ابتسامة خحولة

— يعني العفاريث ح تعمل إيه

وكنت قد استدرت له ، وأعطيته وجهي ، كأنني أقول له انظر كم أنا جميلة ، والتفت عيناه بعيني ، فحول بصره عني بسرعة ، وقلت لنفسي إنه لا يحاف



العنصرية ولكن خائف من جمالي ، وأعجبني هذا الخلط ، وتساقلت ، هل له علاقة بامرأة ، هل هناك فتاة يحبها ، وخيل لي أنه لمزال بكرا لا يعرف النساء

وانتانتني رغبة في معاكسته ، إنني لم أعرف هذا النوع من الشبان من قبل ، النوع الخجول الذي يخاف من أن تلقى عيناه بعيني .

وكان مدحت قد أدار محرك العربة ، وودأنا نهبط إلى شارع الهرم .. فنهطت

— هل فكرة يا ولاد أنا عايز اكم تختاروا لي اسم .

وابتمست ليوسف الذي كان ينظر لي في دهشة .

وصاح مدحت :

— نختار لك اسم .. ليه .

قلت ساخرة ، وعيناي تلتقيان بعيني يوسف

— اسم علشان بنت حلوة زي القمر .

فسأل مدحت في حيرة :

— ليه واحدة صاحبك ولدت بنت .

فأجبتة وأنا أراقب تأثير كلامي على وجه يوسف :

— لا .. دي بنتي أنا

— موش معقول .

أما يوسف فكانت عيناه تتسلمان لي أن اقصر كلامي العائض .

ولمت بوجهي ناحية يوسف ، وسألتة .

— هو ليه حانية لما أجيب بنت .

فهمس في أرتياح

— لا

وصاح مدحت منعلاً :

— لا .. إزاي ، أنت متفش متجربة ..

فضحكت

— وماله ...

ويدأ على وجه يوسف أنه يتكلم لحالي ، كان يسطر لي في رثاء وأشعاع وخوف . بينما صرخ مدحت :

— أنت مجنونة . أما موش مصدقك ..

فهزرت كتفي قائلة :

— موش مصدقني . موش مصدقني

وعدت أسأل يوسف :

— إيه رأيك .. اسميها ايه

فسألتني في سذاجة

— أنت جيتيها خلاص

فنهط مدحت

— يا مدح أنت متصدق كلامها ..

قلت متجاهلة مدحت :

— لا أنا لسه ح أجيبها بعد سبعة أشهر .

فأطلق مدحت ضحكة عصبية عالية ، بينما سألتني يوسف في وجوم :

— يُمكن ما تكونش بنت ..

— أنا مثلكة أنها بنت . إيه رأيك اسميها مني منير ..

فصاح مدحت :

— يعني أبوها اسمه منير .. وده يبقى مين بآه .

قلت ضاحكة

— ولا اسميها مديحة مدحت .

فصرخ في ذعر

— مدحت ليه أنا موش أبوها .

قلت وأنا أضحك في نشوة

— ولا اسميها يوسفية يوسف ..

فنهط مدحت في ارتياح :

— أنت بتهزري .. والله أنا كنت ح أصدقك ..

قلت له بصوت جاد

— والله صحيح أنا نادور على اسم

وعجأة اشرق وجه يوسف ، ولعت عيناه بفرح كبير ، وصاح

— أه أنا مدهت . أنت عابرة اسم عشاياك أنت في السينما ..

فدهت باسمه

— مراهو عليك ..

والنكت إلى مدهت أقول له مؤنية

— الأستاذ يوسف طلع ادكي منك .

وقال يوسف :

— أما نفسي صدقت .

— تفكر أنا اعمل حاجة زي كده ..

فارتبك .. وقال معتذراً

— موش قصدي ..

— أنا ما عنديش غير أمل واحد في حياتي .. هو ائي ابقي ممثلة . كل

المخرجين اللي شانوني قالوا إني عندي موهبة للتمثيل . عشايا أنا

ما بلكرش في الحب والجواز والكلام الفارغ ده ..

وكنا قد وصلنا إلى طريق استوديو مصر ، فطلبت من مدهت أن يتعطف في

الطريق ، فحاول أن يعترض ، ولكني صممت ، وقلت له إن الأستاذ حلمي

كامل ينتظرني ليختار لي اسمي السينمائي الجديد ، وادعيت أن الأستاذ

حلمي يجب أن يختار الاسم الليلة ، حتى لا يتأخر ظهوره في الإعلانات

بالشوارع والصحف

وسألني يوسف في ارتياب ، وكانت العربية تسير في بطء شديد في طريق

استوديو مصر

— انكلام ده صحيح .. والا بتضحككي النوبة دي كمان .

— صحيح ..

— تعرفي أنا ما صدقتش لما مدهت قال إنك ممثلة

— ليه

فأجاب في حيرة

— ما اعرفش ..

وضحك في عصبية ثم قال :

— مش باين عليكى ..

ولم أفهم ماذا يريد أن يقول بالصبيط ، اهو يهيننى ، اهو يحترمنى .. ما

الذى يعنيه بالصبيط .

وسألته في تحد وأنا على استعداد لأن اثور وأشنمه

— قصدك إيه يا أستاذ ..

— موش قصدي ..

والنقط أنافاسه ثم قال بعد تفكير

— قصدي إني ما كنتش فاكرك إنك ممثلة لدرجة دي ..

ما كنتش عارف إنك نجمة جديدة ..

أدركت أنه أحس بشيء مما أفكر فيه ، وهو يتراجع ، لأن ، ويرهشوني

بكلمات خائفة لا يصدقها ..

قلت في برود

— اهو أنت عرفت ..

— أنت زطلتي مني ..

قلت وأنا أهنكفى :

— ح ازل عليه ..

ووصلنا إلى الاستوديو ، فناديت ابواب وسألته عن الأستاذ حلمي كامل

فقال إنه مازال مالا داخل ، وأوصلني مدهت بعربته إلى باب البلاتوه ، والتفت

إلى يوسف وأدعه ولكنه فاجأني قائلاً

— أما جاي معاكى ..

سألته في دهشة :

— ليه ..

فقال وهو يبتسم :

— اشتغل أنا كمان .. موش يمكى أكتب عنك

وانتظر مدهت في العربية ، ودخلت مع يوسف البلاتوه ، وكان الأستاذ

علمي يستعد لتصوير مشهد بين بطل الغيلم أنور سامي والبطلة هدى مراد ،
ورائي الأستاذ حلمي فانتسمت له . ولكنه لم يرد علي ابتسامتي .. كان
يتحدث مع أنور سامي ويلوح بيديه .. شعرت بالخيال ، وتمنيت في قرارة
نفسى الا يكون يوسف قد لاحظ ابتسامتي التي تجاهلها الأستاذ حلمي ،
لو كان قد لاحظها فسيعرف انى لست ممثلة مهمة كما تظاهرت امامه .
والتقت إلى يوسف فرايته يتقدم في هدوء إلى الأستاذ حلمي ، وفوجئت
بالحرارة التي استقبله بها الجميع .. هجم أنور سامي على يوسف يقبله في
وجنتيه ، وصاحقه الأستاذ حلمي وهو يصيح .

— أنت فين يا أستاذ .. أنا باصور بقى في أسبوع ولا شفتكش ..

وابتسمت هدى مراد ليوسف ، الذي تقدم منها وصاحفها ، ووقف يتحدث
معهما وعلى شفطيه ابتسامة عريضة ..

كنت أراقبه من بعيد في حسرة ، وقد خيل لى أنه تحول إلى شخص آخر . لم
أتوقع أبداً أنهم سيقابلونه بكل هذا الحماس والاهتمام . وادهشنى ان
يوسف لم يذكر في انه يعرف الأستاذ حلمي أو يعرف أحداً من الممثلين ..
وقلت لنفسى ، إنه ليس ساذجاً كما أظن ، إنه خبير ماكر . وتذكرت ما قاله
لى منذ لحظات ، أنه لم يصدق انى ممثلة .

ما الذى كان يتصوره إذن ، ربما ظن انى واحدة من بنات الشارع .. ربما
ظن مدحت النقطنى من الطريق ليقضى معى ليلة . لا بد أنه تصور هذا .
وشعرت بالغضب ، وبرغبة في أن اصرخ بأعلى صوتى ، انكم جميعاً
مغلطون ، لانكم لا تعلمون انى ممثلة كبيرة وعندى الموهبة وضدى الجمال .
أنا أجمل ألف مرة من هدى مراد ، لماذا تهتمون بها وتتفنون حولها ،
ولا تهتمون بى وتتفنون حولى ..

ويوسف ، هذا الاحمق ، ما الذى يجعله يقف مع هدى مراد ، ويصطحف
معهما كالصبيط ، لماذا لم يصحب معى أنا ، لأنها ممثلة كبيرة ومعروفة . وأنا
مازلت مجهولة . فليتظر الأيام ليرى كيف سناقص يوماً مكانها . وساعتها ان
أرضى وأشارل بأن يقف معى . ان أرضى بأقل من محمد ناجى يأتى لى
ليدعوى إلى حفلاته التي يقيمها في بيته ، ويتوسل لى ليصحبنى بعزيتى وأنا

اتكلم عليه ويوماً أقبل دعوتى ، ويوماً أرفضها .

وصاح أنور سامي يطلب للقهوة ليوسف ، وقدم له الأستاذ حلمي سيجارة
مع أن التبخين ممنوع داخل البلاتوه ..

إنهم يعاملونه كما لو كان صحفياً كبيراً ، كما لو كان محمد ناجى ، ما السر
في هذا ، لا بد أنه يكتب عنهم ويشتر صورههم .. عندما أعود إلى البيت ،
سأبحث عن كل الاعداد القديمة من جريدة الأيام وأقرأ لأخبارها الغنية ،
لأرى ما الذى يكتبه يوسف ، ولأعرف سر كل هذا الاهتمام به ..

وفجأة التقت يوسف ناجيتى .. وصاح منادياً
— بهية .. ما قيجى ..

وارتبكت ، إنه جرىء إذ ينادينى هكذا ، وهو واقف مع أنور سامي
وهذى .. البطل والبطلة .. وأنا مجرد فتاة كومبارس .. نعم هذه الحقيقة ، أنا
مجرد كومبارس ، ولكن سرعان ما ذهب عنى الاضطراب ، وشعرت بالزهو ،
وتقدمت إليه .

وهتف الأستاذ حلمي مخاطباً يوسف :
— اه .. أنت تعرف بهية ..

فأجاب يوسف باسمها
— امال .. كنت اسه بأدور لها على اسمها الجديد ..

فقال حلمي في عجب :

— صصحيح ما قيش حاجة بتستخفى عليك .. هرفت كمان اسمها ..
ونظر لى أنور سامي في فضول ، وسأل الأستاذ حلمي بينما عيناه تعرجان
في حسدى

— إيه ... الدموازيل ممثلة جديدة ..

فالتقت الأستاذ حلمي لى .. وأمسك بذقنى .. وربع وجهى وقال .
— إيه رأيك يا أنور .. موش خلوه ؟

فقال أنور وهو يقبل أطراف أصابعه ثم يرسل القفلة إلى وجهى في الهواء :
— سجتان ... لاقيتها فين يا حلمي .

فصاح الأستاذ حلمي ضاحكاً :

.. لا . أبعد عنها . دى موسى قدك ..

صعد الدم إلى رأسى ، ووقعت عيني إلى أنور ، فرأيت عيني تلمعان ببريق غريب .. إنه حلور وسيم ، شعره الأسود اللامع يعجبني وأنا أحب تمثله ، دمه خفيف ، صرت كلماته في جسدى تحمل دفئاً لنبدأ .. إنه يغازلنى ، إنه يفكر في أن تكون بيننا علاقة ، وديما أحببني ، وديما تزوجني وجعلني أمتر أمامه . هذه هي فرصتي ، عندما أعود إلى البيت سأستشير أمي وأسألها ماذا أفعل . إنها تعلم في هذه الأشياء أكثر مني ، أما الآن فيجب أن أتماسك حتى لا يهدر مني تصرف أئيم عليه .

وسألتني أمور :

— أنتِ اسمك إيه يا حبيبتي ؟

قلت بصوت خفيض

— بهية عبد الرحمن ..

وارتفع صوت هدى مراد ، وكانت حتى هذه اللحظة تراقبني صامتة بهيئة جامدتين ووجه خال من أي تعبير .

— بهية .. اسم حلور ..

فصاح الأستاذ حلمي :

— بهية عبد الرحمن .. أراي الاسم ده ينفع في السينما . عافيهش موسيقى ..

وقلت للظلي إن هدى مراد تريد أن أحفظ باسمي لأنها تفار مني ، ولا تريد لي اسماً موسيقياً لأعماً .

وهتف أنور محتجاً على هدى مراد

— لا يا هدى .. إيه بهية عبد الرحمن .. أعوذ بالله ..

والتفت إلي ضاحكاً وقال

— ها ترعطيش ... أنا بأحبك ..

فقال الأستاذ حلمي :

— أنا عايز اسم من كلمتين متشابهتين .. رى مني منير .. سميرة سمير .. حاجة رى كده ..

فصاح أنور :

— اسمعوا يا جماعة .. أنا عندي فكرة . سمعوا على اسمي

وأمسك أنور يذراع يوسف ، وسأله في حماس .

— إيه رايك يا أستاذ . نسميها سامية سامي

قال يوسف

— كويس الاسم ده ..

فسمكه الأستاذ حلمي متردداً

— يذمتك كويس ..

فأجاب يوسف ضاحكاً

— أنا بافكر في الخبر اللي ح اكتبه . إن أنور سامي تبني معثلة جديدة وسماها

سامية سامي .

فاعتزشت هدى مراد قائلة وهي تمط شفتيها :

— الاسم موش عاجبني ..

وايقنت أن الاسم جميل ، إنها لن تعترض عليه إذا كان قبيحاً . فهي تفار من

صداي وجمالي ..

وصاح أنور في حماس

— لا .. الاسم كويس

والتفت إلى يوسف قائلاً

— اكتب الخبر يا أستاذ بكرة في الحريرال ..

ثم التفت إلي قائلاً

— أنت أواب الصما انتقحت لك .. هجد يا بنتي .. مجد لما يقولوا إنك

اتسميتي على اسمي ..

وحك الأستاذ حلمي ذفته وقال

— والله فكرة ..

ثم صاح

— بلاش تضيع وقت . كل شيء جاهر

همس يوسف في آذني إنه سيسحب ، فبتسعت له في امتثال ، وأمسكت

بيده وصعدت عليها .. يجب أن أعامله كما تعامله هدى ، إنه صديق مهم ، وسيكتب عني ، وطلت منه وأنا أبتسم في اغراء ، أن ينتظر عني ولكنه اعتذر لأن مدحت وحده في الخارج فسألت :

— صحيح ح نكتب عني بكرة ؟

فضحك هامساً

— بكرة ما الحقش .. إنما في اليومين الجايين إن شاء الله .

وابتعد عني فكرت في أن أستوقفه أسبلك متى سأراه ثانية . ثم عدت عن سؤال ، وقد صابقتني أنه لم يطلب أن يراني ، وقلت لنفسي إنني أستطيع أن أوبرأ لقائي به عندما أنشاء عن طريق مدحت ..

انتظرت الأستاذ حلمي حتى فرغ من تصوير المشهد ، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف ، فأخذني معه في عريته إلى البيت

سألتني ونحن في الطريق ، عن هيلة يوسف بي ، فكذبت عليه ، وقلت له إنه راني وأنا أدخل الاستوديو ، فتقدم مني وعرفني بنفسه ، وقال إنه صديق بجريدة الأيام ويريد أن ينشر صورتي ..

صديق الأستاذ حلمي ، وقال إن من حسن حظي أن يوسف أعجب بي ، وأنه لو نشر اسمي عدة مرات في جريدة الأيام ، فسأصبح معروفة في غمصة عين ، سأشتهر قبل أن أظهر على الشاشة ، وسأكون حديث الناس قبل أن يروني ..

وضحك قائلاً

— أنا لازم أصعل معاكى عقد قبل ما تشتهري ..

قلت له وأنا سارحة في خيال عريض

— ح تدنيني كلام ..

فصاح

— انت ح تعمل زى أمك .. اسمعي نصيحتي .. بلاش تتكلمي في الفلوس لحد ما تطهرى في فيلمين ثلاثة ..

فسكت ، إذ لم أعرف بماداً أجيبه .. وفكرت في يوسف ، لو كان صديقي لاستطعت أن أحصل منه على نصيحة في هذه المشاكل .

— ٢٣٤ —

وسألت الأستاذ حلمي :

— هو محمد ناجي يبقى رئيس يوسف ..

فتعجب

— طبعاً .. هو رئيس التحرير ودول كلهم صديانه ..

— طيب .. وإيه يعني أهمية واحد زى يوسف .. أنا عمرى ما قربت به حاجة .

فضحك قائلاً

— ما هم الصغفرين اللي زى يوسف هما اللي بيحيوا الأخبار . محمد ناجي موش قاضي .. وأو كلمناه وقتلنا له أنشر الخبر ده .. يقول هاتوا فلوس .. ده إعلان . إنما يوسف بقدر نضحك عليه . واحد زى أنور ياخذه بالضمن كل ما يشرفه ، يقوم دايماً يفكره في أخياره .

وايتسمت ..

كنت أشاغل ببني وبين نفسي ، هل من الضروري أن أضم يوسف إلى حضنني ليكتب عني واشتهر ؟ . وقلت لنفسي ، لو اضطررت إلى هذا ، فالأفضل أن يكون الذي أضمه هو محمد ناجي . لاهيبه ، فانا لا أريد أن أكون مجرد ممثلة من بين عشرات الممثلات . أنا أريد أن أكون أشهر وألمع الممثلات ..

كانت أمي كعادتها تلعب النوكر ، ولما راتني أدخل مع الأستاذ حلمي قالت في حرارة :

— ازيك يا حبيبتي .. عملتي إيه .

ولم أكن في حاجة إلى الإجابة عليها فقد نسيتني تماماً في الحال ، وانشغلت بإعطاء الغفيش للأستاذ حلمي ..

وسألتني عني محمود ، زوج أمي ،

— اتمشيتي يا بيه .

— لا ...

— طيب أنا ح أصعلك سانتوتش جيبه ومرتدلا ، وأحبيهم في أودتك . وغادرت الحجرة . وأنا نادمة على عودتي ، لو كنت أعرف أين مدحت ، لأن

لسمعت إليه ، حتى لو تباحر معي ، فهو أرحم من هذا البيت الذي اختلق فيه

عائلة غريبة ، أمي وزوجها . وشقيقتي الصغرى إنصاف ، وأنا .. وزبائن البوكر الذين يستقبلهم كل ليلة ، ويرتفع شجارهم عند كل فجر .. لا أض أن هناك الدمية كلها عائلة تشبه هذه العائلة . ولا أمان تشبه أمي . أنا أحدها . ولكن كل واحد منا في حاله . كأننا مجموعة من الغرباء تلتقي في هذا البيت .. إنه ليس بيتا .. إنه سدق

أحياناً أصال نفسي أي رابطة تجمعنا ، فأختار ، ولا أدرى جواباً .. الذي يدهشني أمي مع حبب دمي لا أشعر نحوها بأي عطف ، ربما لأنها تزوجت هذا الرجل العبيط الذي أقول به يا عمي . إنه طيب جداً . طيب ومغفل . يفرح بلا سبب ويثور فجأة لأي سبب . ولكن ثورات كلها روية في فتجان . تنتهي بكلمة حادة تصرخ بها أمي في وجهه ، فيسكت

عندما يأتي الليل ، ينتعش بيتنا ويصبح الجميع في أحسن حالاتهم أمي تستقبل زبائننا .. إنهم ليسوا أصدقاء ، مجرد زبائن حول مائدة البوكر أو الكونكان ، أم عمي فلا يلعب ، يتولى خدمة الزبائن ، يشتري لهم الويسكي والأكول ، ويهبط أحياناً في منتصف الليل ليشتري لهم السجائر . ويقضي السهرة يصحب الويسكي في الأكواب ويضع فيها الثلج ويملأها بالصودا ويقدّمها للأعين . ويدور عليهم بأطباق المزة ، ويشرب ويأكل حتى يسكر ، فتشتمه أمي إذا خسرت في اللعب وتعامله برفق إذا ربحت

رايت في بيتنا زبائن من كل صنف ، حتى الشباط الانجليز . عازلت أكثر أول ليلة جاءوا فيها إلى بيتنا جاءني أمي وهي خائفة وقالت لي وأختي إنصاف

— يا بدات .. أروا تخبروا من أودتكم .. فيه اثنين شباط انجليز قاعدين معاً وربما يستر .

ولعبت أمي البوكر مع الصابطين وزبائننا الآخرين ، وأسكرهما عمي وحسرا عشرين حببها ، وعادرا البيت دون أن يحدث شيء .

تنهلت أمي بعد أن خرجا ، وقالت لعمي إنها إن تستقبل الانجليز مرة ثانية ، فاجتج عليها وقار

— دول كانوا مؤدبين يا نعمات ..
فقلت أمي :

— ولو .. أنا كنت قاعدة حابطة .. وكل ما يحسروا « كوه » أقور سوقت حيقوموا علينا بالسدسات . ويأحدروا ملوسهم وملوسنا

ولكن زبائن أمي الآخرين اقتنعوا بأن الصباط الانجليز أغبياء ومؤدبون وأنهم « سدور » لا تضايقهم الضسارة ، وصمموا على ألا تهرمهم أمي من نقود الانجليز . فوافقت مضطرة ، ثم تعمست لاستقبالهم ، فكننت أسمع ضحكائنا تجلجل ، وهي ترحب بهم بالكلمات الانجليزية القليلة التي تعرفها .

تعودت أن أشهد سهرات أمي في بدايتها ، عند خروجي ، وأضدها في نهائيتها عند عودتي إلى البيت ، إذ أصبحت أسهر في الخارج كما أشاء ، ولم تكن أمي تعترض على سهراتي ، فهي دائماً مشغولة غنى ، وكانت تناديني أحياناً عندما تستيقظ الظهر ، فأجري إليها ، وأندس تحت اللعاف بجوارها . وتشغل هي سيجارتها وترشف لجنان القهوة السادة ، وقد بدا على وجهها الإعياء ، وتحدثني بكلام غير مباشر ولكنه واضح أفهم منه أنها تنصمني ..

وكانت تقول لي إنها لا تعارض في أن تكون في علاقة بأحد الشبان بشرط أن يكون غنياً ، وأستطيع أن أحله يتزوجني .

وكانت لا تحدثني أبداً عن الحب بل تنظر إلي وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماق قلبي ، لتعقشه خفية أن تستغرقه جرثومة حب ، ثم تقول لي إن الحب ضعيف ومثله ، وأني يجب أن أكون أقوى منه ، الحب مصيبة ، حتى وأحببت رجلاً غنياً لأن حب لي سيحطني غير قادرة على الاستفادة من ثروته .

الفصل الثالث

كانت حياتي بالنسبة لها مشروعاً كبيراً أبدأه أولاً بالبحث عن الزوج المناسب الذي أوطئه ليتزوجني . فإذا حصلت عليه فلا بأس بعد ذلك أن أحب بعقل .. المهم أولاً أن أضعن المال من مقفل غنى .. وكانت أمي تردد دائماً :

— ده اللي ما معهوش قرش ما يسواش قرش ..

وفرحت أمي يوم قلت لها ، إنني عرفت محدث ..

ولم يكن محدث أول شباب عرفته .
عرفت شيئاً كثيراً ، بعضهم أكبر مني لليل ، وبعضهم رجال يكبروني
بعض سنوات أو أكثر .

منذ ثلاث سنوات ، وكنا مازلنا نتمكن في غمرة ، أعلنت العصيان على
الدروس والمذاكرة ، وتركت المدرسة ، كنت لا ألهم حرفاً واحداً من دروس ،
ولا أعرف الفرق بين الجغرافيا والكيمياء ، والحساب والتاريخ ، وكانت
الاصفار تزين شهادتي ، وضايقتني أن شقيقتي إنصاف كانت تنجح
باستمرار ، وأنا أرسب باستمرار ، حتى جمعنا فصل واحد بالسطة الثالثة ،
وكان الجميع يقولون إن إنصاف ذكية وشاطرة ، وأمي تقول إنها ستدخل كلية
الطب وتصبح دكتورة ، أما أنا فكنت لا أسمع إلا الدم والثائب ، وأمي
تشهمني بأنني مخلة وغير فالحة . وكنت لا أهتم بما تقوله أمي ، ولكنني كرهت
إنصاف ..

وتعودت أن أزوج مع البنات من المدرسة ونذهب إلى السينما ، وإذا لم يكن
معنا نقود تحايلت واحدة من صديقاتي على شقيقتها أو أصحابه ، ليقتطعوا لنا
تذاكر السينما .. وتعلمت الرقص وأحببته ، لأنه يشهرني بحيويتي
واتوثتي ، وكنت أرقص في حفلات أعياد ميلاد صديقاتي ، وبعد أن تركت

المدرسة كنت أقبل دعوات كثيرة إلى حفلات وحالات إلى القناطر الخيرية والأهرام وحلوان

وكانت أعر صديقتاني اسمها يولاندا ، ابنة السنيور جراتسيا جارنتا في عمرة ، كانت جميلة ، ولكن ساقها سيمتان وأردافها ثقيلة ، ولها وجهها فخمير وبطيء ، وكانت تجمع شعرها فوق رأسها فيبدو عنقها عمودياً ناصعاً ، وكانت أشبه بالولد الجميل ، إذ كانت تنقصها الأنوثة .

وعندما كنت في الرابعة عشرة من عمري أحبيت ماركو شقيق يولاندا وكان قد جاوز العشرين من عمره ، وعدده موتوسيكل لامبرتو يحدث ضجيجاً عالياً يخفق له قلبي ، وكان ماركو يعمل في أحد المصانع بشيرا ، ويقول إنه ميكانيكي ، وكانت تبهرني هذه الكلمة ، وإن كنت لا أفهم معناها ، وهو متوسط الطول ، عيانه مثل عيني أمه ، عصفقان وجذابتان ، وشعره أسود فاحم يدهنه بالبريانتين ، وله صوت جميل يقول إنه من طبقة الثنور ، وهو يلغى النعان الأوبرا ، وكثيراً ما أسمعنني النعان الكونت الملقبها من حلاق أشبيلييه ، والأمير من ريجلتو ، وكانت أمه السنيور جراتسيا تنصت إليه في إعجاب وتصفق طرباً كلما انتهى من غناء مقطوعة .

ولم تكن تعجبني النعان الأوبرا ، إذ كنت أفضل الأغاني التي أسمعها في البرنامج الأوروبي لما يطلبه المستمعون ، وفهائني ماركو ذات ليلة فسمعت مديح البرنامج يقدم أغنية « باهيا » إلى بهية من ماركو .

وظفرت الدموع إلى عيني ، وزاد حبي لماركو ، ولكنه كان حياً سانجاً ، وأظن أن ماركو لم يشعر به أبداً ، إذ كان يعاملني كشافقته وكأنني مارلت طولة صغيرة ، وكان يدعوني مع يولاندا إلى السينما في بعض ليالي السبت ، وكنت محبونة بالسينما ، رغم ضحكك ومكيت وأنا جالسة إلى جانب ماركو نشاهد أحد الأفلام ، ومارلت حتى اليوم أذكر دموعي وانقباض قلبي وأنا أشاهد فيلم مرتفعات ودرنج ، وأيلتوا صمعي ماركو إلى صدره ، ومصبح دموعي يمتدله وهو لا يدري أي أبكي يائسة من حبه .

وفجأة ، اعتقل البوليس ماركو لأنه إيطالي ، واسحلثرا تحارب إيطاليا ، فيكيك مع يولاندا والسميور جراتسيا ، واشترت مفكرة ملاتها مافكار سوداء عن الحب والامه وغدر الدنيا وظلم القدر .

وجرت المشهور فضيت كل شيء ، لا أدري كيف سببت ماركو وحبي له ، ولكن كل شيء في كان يتعم ، كان جسمي ينمو بسرعة ، وبدأت أحس بجماي وأنوثتي ، واشدت ضجري وضيفي بابيت ، وكذا يولاندا تتعرف إلى شبان لهم عريات فخمة ، فأخرج معهم ونلغو ونرقص ونشي الأغاني الجديدة ، تحت شجرة التفاح .. هل تحبني .. الرمل في حدائي .. هل تعرف سوزي .. أغاني كثيرة .. جطلتي أسى أغنية باهيا ..

وخافت أمني من كثرة خروجي ، فقررت أن تزوجني ، فكان إذا جاء بيتنا شاب غني ليلعب البوكر ، نادتنني ، وطلبت مني أي شيء ، حتى يراني الشاب ، فإذا أعجب بي وبهره جمالي وغارلني ، تفاقلت أمني ، وتظاهرت بانها لا تفهم ما يحدث أمامها

عرفت عن طريق أمني محامياً شاباً له عربة ميركوي فخمة ، اسمه حمادة وكان ذكياً فعاقل أمني في رقة بالغة ، فاحبته وأقبلت عليه ، وكثيراً ما كان يشتري لنا الكلب وزجاجات البيرة ويأتي إلى البيت ليتناول طعام اللداء معنا ، وفي ساعات العصر يصحبني أنا وأمني إلى جرويي فاطلب انشيكولانة باللين وقطعتي حاتوه ، واحدة ، ميللي ، والثانية ، أرچنتن ، وكانت أمني ترفض دعوتيه للعشاء ، ولكنه ألح ، فرفضت أخيراً أن نخرج معه ، وجاء معنا عمي محمود ، وذهبنا إلى الأوبرا ، وكنت أدخله لأول مرة في حياتي ، كنت سعيدة ، تصبى الدنيا بالمراسي ، ورقصت مع حمادة حتى انتهت الأوركسترا من العزف ، وذهبنا إلى البيت فسلكتني أمني عن كل كلمة قالها لي ونحن نرقص ، وسالقتني إذا ما كان قد اشرف لي بمحبه

ولكن أمني كنت لا تحبني الخروج بالليل ، لأن عدا يعمل اللعب ، وهو مصدر رزقنا إذ تحصل أمني على نسبة من أرباح اللاعبين لذلك تكاسلت عن الخروج ، وسمحت لحمادة بأن يخرج معي وحده ، بشرط أن تصحبنا

واكتفت أمي بأن تسألني في صباح اليوم التالي عما حدث بالأمس ، كانت تسألني عن كل شيء هل لصق خده بخدي ونحن نرقص هل قبلني .. ولكن لا يهمها أن يقبلني حمادة ، وكانت تقول لي :

.. الشغارة إنك تحليه دايماً على نار .. لكن أوعى تريدني .. لو خد غرضه منك موش ح يسأل عنك أبداً .

وكنت مقتنعة بكلام أمي ، وإن لم أشعر أبداً برغبة في الزواج كان كل ما أريده هو أن أتسى ، هو أن أخرج من البيت في فستان تليق ، واليهو ، والخن السجائر ، وأشرب البيرة ، وأرقص ، وأتناول عشاء شهياً .. كنت أحب الفراخ المشوية الخالية من العظام ، والبيكانا بالشمينيين ، ولقد حفظت أسماء كثيرة في قائمة الطعام .. حتى أعرف كيف أسلق بها بالفرنسية أمام الميتردوتيل وحتى أبدو أمام حمادة كبنات ذوات ، لأن الشاب يحب أن تكون البنات التي تخرج معه لينة . و .. مدرجة ، وليست غشيمة .

ورغم أنني كنت أهكي لأمي كل شيء إلا أنني أخفيت عنها بعض ما فعلته مع حمادة ، إذ كنت استلطفته فذهبت معه إلى شقلته الخاصة لأشبه إلا لأرهي نفسي . وتعرضت طبعاً لهجمات حمادة ومحاولاته ، ولكنني نجعت ذاتاً في المحافظة على نفسي في اللحظة الأخيرة .

ويش حمادة مني ، فلانقطع عن زيارتنا ، ثم سمعت أنه تزوج ، أما أنا فقد تعرفت على شاب ثان وثالث .

وعندما جاء الأستاذ حلمي كامل إلى بيتنا لأول مرة ، رأيته فأبدى إعجابه بهجالي ، وقال لأمي إنه يريد أن يظهرني في السينما .

وظننت أنه يقول هذا الكلام كوسيلة مكشوفة لأن يعارضي وحتى أمي ظنت هذا أيضاً ، فقد حذرتني منه ، لأنه عجوز جاوز الأربعين ، ولأنه رغم ثرائه ، فاس ومن رجال السيما ومن الصعب إقناع واحد مثله بأن يتزوجني .

قلت لي أمي إنه بصل ، ويحب ألا أصدق ، ولكن الحاج الأستاذ حلمي جلسني أنا وأمي نشك في طنا ، ومع ذلك علمناه في حذر ، وقلنا ننتظر حتى

انكشف لنا الأيلام حقيقة غرضه ..

ثم انتقلنا من غمرة إلى بيتنا الجديد في الجيزة ، وقضيت يومين وأنا مشغولة في التنظيف والترتيب فلما كان اليوم الثالث ، لم أطق البقاء في البيت ، وخرجت لأقص شعري عند « رأمو » للحلاق في شارع قصر النيل .

وقفت عند محطة أتوبيس الجيزة وكان بين الواقفين شاب أسمر ، يحدق في بنظرات نهمة ، لقد تحدثت على هذه النظرات ، وهي لا تصايقني ، لأنها تؤكد لي جمالي ولقد كان لي معجبون كثيرون عند محطة أتوبيس عمرة ، معجبون من كل الأعمار ومن كل الأصناف ، شبان وكهول .. وعزاب ومتزوجون ، وكنت أعرفهم واحداً واحداً ، وأشعر بتأثير جمالي عليهم ، وأشعر بانفعالهم وحميتهم ومحاولاتهم الساذجة التي يقومون بها لجذب انتباهي إليهم ، وكنت أعاملهم حسب مزاجي . أحياناً أرسل لهم نظرة مريضة خاطفة ، وأحياناً أرسل لهم نظرة طويلة صاعقة ، وأحياناً أنجاهلهم تماماً ، كاتي لا أراهم ولا أحس بوجودهم .

كنت أشعر بأنني ملكة ، وهم عبيدي ، لم أسمح أبداً لواحد منهم أن يستمرسل معي في الحديث ، إذ كنت ألهجأ بهم وقت وآخر بمن يتقدم مني ويسألني عن رقم الأتوبيس الذي يقف بالمحطة ، أو يسألني عن الساعة أو أي شيء آخر ، فكنت لاجبيه في كبرياء ، ثم أستدير وأعطيه نظري ، وأقطع رغبته في مواصلة الكلام بعي ، وكنت أرفض أن أرى لأي واحد منهم ابتسامته ، أو أيدي أية إشارة تشجعه على ملازمتي ..

إنهم ركاب أتوبيس ، أي فقراء لا يملكون عربات خاصة ، ولا فائدة منهم .

أرسلت إلى الشاب الأسمر نظرة طويلة فاحصة ، إنه أول المحبين بي في محطة الجيزة ، والبقية تأتي ، ثم تجاهلته ، وهجأة رأيت عربة ستروين تقف أمامي ، يقودها شاب وسيم أبيص الوجه ، يبدو عليه أنه ابن ناس ، واندفع الشاب الأسمر إلى العربة وقبض على يديها ثم التفت إليّ وابتسم ، فحولت بصري عنه ، وراقبت العربة بلطف عيني والشابان يبطران إليّ ، ثم تحركت العربة

سلطه ، وابتعدت ، وبعد برهة خرجت بالعربية الستورين قائمة من جديد ،
والشباب ينظرون إلیّ ..

أرسلت لهما نظرة فهما منها إني متنبية إليهما ، وإني أعرف ماذا يريدان ، وتظاهرت بأنني مضمثرة من تصرفهما ، ولكنهما ظلا ينظران إلیّ ، ثم تحركت العربية وابتعدت .. وبعد برهة رايتهما تعود من جديد ..

وابتسمت في سري ولكني أرسلت لهما نظرة غاضبة فضحكا .. ودارت بينهما مناقشة لم أسمعها طبعاً ، ولكنني عرفت أنهما يتجادلان حول أن يهبط أحدهما ويدعوني إلى ركوب العربية .

قلت لنفسي ، لو حدث هذا فلن أكلهما في حياتي ، فإنا لا نحب الشاب العبيط الذي يكلمني أمام الناس الغرباء في الشارع ويتصور أنني سأرضى بالركوب معه من أول مرة . ثم أن العربية الستورين ليست بالشيء الفخم ، ومن أهم الشروط عندي لأركب مع شاب في عربته ، أن يكون لبقاً ومهذباً ، يعرف كيف يعاملني ، ولا يشعرني بأنه يصطادني من الطريق وكأنني واحدة من إياهن .. لا بد أولاً أن أعرف من هو صاحب العربية . وما اسمه وما هي صناعته .. وهل هو من عائلة أم لا ، لقد حاولت للحرب كثيراً من الصعاليك إلى أثرياء عندهم عربات وبعضهم وحوش ، إذا ركبت واحدة معهم افترضوها بلا رحمة .

لعب الخوف في صدري ، وبضت لحظات وأنا قلقة خشية أن يهبط أحدهما من العربية ، ولكنهما لم يفعلوا ، وابتعدا من جديد ، وغابا فادركت أنهما قد خجلا من مخاطبتي وأقبلت أنهما من أولاد الفلاس الطيبين ، وتوقفت أن أراهما في مرات أخرى ، كمادتي مع المعجبين بي ..

وجاء الأتوبيس فركبت ، وقبل أن يتحرك رايت العربة الستورين تتهادى بسرعة عن شمالي فانبثقت وأنا أنظر أمامي ، ولابد أنهما لاحظا ابتسامتي ، ولكنني رقصت أن أنظر إليهما .

وما حدث بعد ذلك كان شيئاً مضحكاً ، فقد لازمت الستورين الأتوبيس ، أحياناً تتقدمه ، وأحياناً تتأخر عنه ، وإذا وقف الأتوبيس عند محطة ، وقفت

الستورين أيضاً ..

هبطت من الأتوبيس في ميدان الأوبرا ، وانفتحت حولي باحة عن الستورين .

حتى لحقتها بطرف عيني ، ثم سرت في اتجاه شارع قصر النيل ، وكنت استطيع في هذه اللحظة أن أقر من المطاردة إن كان على العربة أن تدور حول الميدان قبل أن تصل إلیّ ، ولكني أردت أن اتسبب بهذه المطاردة ، فملكنت في سري ، ووقفت ألتفح على العتريئات ، حتى شعرت بهما خلفي ، وكان يمشيان على أقدامهما .

تلفت نحوهما لفظة حادة ، وتجهم وجهي بينما رقص جسمي من الفرح ، مشيت وقد ملأني نشوة جارفة ، ورغبة في أن أثيرهما ، والهبط خيالهما فما أحلى هذا الشعور الذي أحس به عندما أرى شاباً يصعقه جمالي ..

تيماني حتى وصلت إلى دكان رامو ، فالتقيت عليهما بنظرة أخيرة باسمة ، كأنني أخرج لهما لمساني ، ولفزت إلى الداخل .

كنت واثقة لغير مسبب أنني لن أفقد صلاتي بهما ، وإني سأراهما مرة أخرى ، هناك جوه تقابلني وتبسم لي فأشعروني بتركني وكأنها تودعني إلى الأبد ، وهناك وجوه أخرى أراها فيحدثني قلبي بأنني سأراهما مرة ثانية وثالثة .. ودائماً ما يصدق شعوري ..

بعد أن فرغت من الحلاق ، كلمت بولاد في التليفون فلم أجدها ، فتسكمت في شارع سليمان باشا حتى تعبت من المشي ، وعند عودتي إلى البيت إذا بي أرى الستورين واقفة أمام باب الفيلا التي بجوار عمارتنا ، لم يدانلني شك في أنها نفس الستورين ، وقفت أمام الفيلا وقد تملكنتني الدهشة ، لم أتوقع أن أعرف من هو صاحب الستورين بهذه السرعة ، وثار فضولي ، فنظرت إلى النوافذ فرايتها مخلقة والبيت يسوده الصمت ، حتى البواب كان جالساً على دكة وقد أطبق براسه كأنه غارق في نوم عميق ، كان كل شيء هادئاً يتيئس عن وقار سكان الفيلا وتراثهم

وصعدت إلى لسي وسألتها في لهفة من جاء لنا أصحاب الفيلا ، ما نطلقت

في الكلام .. كانت خلال اليومين قد جمعت كل المعلومات عن سكان العارة والبيوت المجاورة . وكانت تعرف كل شيء عن أصحاب الفيلا . وفلجالتني فائقة إن أبي كان يعرف راتب بيه صاحب الفيلا . ويعرف أياه برهان باشا . استمعت إليها في وجوم . وقد ذهب فضولي . وأخذ مكثه لأم عاد يشق قلبي . كان آخر ما أتوقعه أن تكون لصاحب الستورين صلة بأبي . صلة بعيدة أو قريبة .

انتزعني كلام أمي من اللعبة التي كنت أتسل بها . انتزعني في قسوة وعنف . وألقى بي في هوة من التعاسة وغلبتني الأوهام . أوهام كالجنون تقول لي إن روح أبي هي التي دبرت لقائي بصاحب الستورين . وهي التي جعلتنا تنتقل إلى هذا البيت بجواره . وأن أبي قد اتفق في حياته مع راتب بيه أو اتفق مع برهان باشا على أن أتزوج ابنتهما .

انصت إلى أمي وأوهامي تلحن في رأسي . وكانت تثرثر بالكنايات التي سمعتها من أبي عن جيراننا . روت لي عن عزة برهان باشا الرجل الكبير الذي كان مشهوراً بالبطل . والذي كان يجمع الفلاحين ساعة الغروب في مكان أطلقوا عليه اسم « المجرة » لأنه كان يجهر فيهم ويسبهم ويشتتمهم . وكان إذا قال له أحد الفلاحين مسكين . غضب وأحتج بأنهم يعيشون أحسن منه . وقال إن خدمه يمتنعون بالحياة أكثر مما يمتنع هو . لأنهم يأخذون النفس الأول من الجوزة . ويلعقون السمن في قعر إبرام .

ونظرت إلى أمي نظرة مستريبة وسألتني :

- لكن أنت بتسألني ليه ؟

فلم أحاول أن أخفي عنها ما حدث . وقلت لها في غير اكتراث .

- أصل الواد ابنهم ماكسني ..

فسألتني في إهتمام :

- مدحت ..

فأجبته :

- ما أعرفش اسمه ..

فقلت :- هوه وحيدم مالمش غيره . ثم تلمذت فائقة .

- ياريت تتجوزي يا بهية ..

فلم أرد عليها . إذ كنت لا أدري ماذا أقول . وقد احتريت .. هل أتجاهل مدحت وأنصاع حتى لا يذكرني بأبي . أم أعرفه . لا لأتزوج . وإنما لأعرف هؤلاء الذين عرفوا أبي يوماً ما ..

وكعادتي . صرعان ما نسيت كل شيء نسيت الأمي وحزنتي . ونسيت أبي . ونسيت مدحت ..

ومرت أسابيع وأنا لا أذكره . وكنت أخرج كل ليلة مع صديقتي . يولاندا أو سناء ومعنا أصحابنا .

وحدث صبريوم . أن كنت جالسة مع يولاندا في جرومي . وكانت تمدثني عن عمل وجدته في محل شهكوبيل كبانة . وسألتني رأيي . وبهجة رأيت مدحت جالسة مع شابين ليس بينهما الشاب الأسمر الذي رأيته معه أول مرة . وكان ينظر إلى . فافطشت إليه أكثر من نظرة . وفي كل مرة كانت عيونا تلثني . كأنه لا يحول عينيه عني أبداً . وأعجبني منه أنه لم يكن يبتسم . أو يتهاوس مع أصحابه عني . ولم يبد من أنه يفضح الحديث الطفي الذي تتبادلونه عيونا ..

وقطعت يولاندا كلامها وقالت لي :

- أنت شايقة الواد اللي قاعد هناك .. اللي لابس بدلة كهي ..

كانت تتحدث عن مدحت . فقلت لها وأنا أبتسم :

- أليه شايلاه ..

فقلت .

- ده بيبيس ناعيتنا على طول ..

وحشيت أن تنظن يولاندا أن مدحت بوجه اهتمامه إليها .. فسارعت أنيهاها

إلى الحقيقة ..

- أنا وأخوه باقي .. ده جارنا في بيتنا الجديد ..

وحكيوت ليولاندا قصتي مع مدحت . ففحصته بدقة . ثم أعلنت رضاهما

صه . وقالت لي مشحمة

.. تعالي يقوم يمكن يقوم ورائنا

وعادريما حروني ومشيبا على مهل في شارع المناخ ، حتى وصلنا إلى
عترية دكان مجوهرات ، فوقنا فتقرح عليها وعيوننا تتنقل في قلق بين
الحواهر المعروضة في العترة والطريق من ناحية جروني .
وصرحت يولاندا بصوت مكتوم :
- آهر . جاي ناحيتنا .

ولم نعد ننظر ناحية مدحت ، وانشغلنا بالجواهر وانا لا اكاد أراها حتى
وصل مدحت إلينا ووقف بجانبنا أمام الفترة .
وسمعت يقول بصوت خفيض فيه رنة مرع :
- إيه رأيك يا مدموازيل في الساعة الأوميجا دي .. اشتريها .
نظرت إليه في برود ، من فوق لتحت ، ولم أزد عليه ، ولكني لم أتحرك من
مكاني ، وأحسست أنه ارتبك ، ولم يعد قادراً على مواصلة الكلام ، لولا أن
يولاندا قالت له بصوت ساخر ليس فيه غضب ..

- واهنا مالنا ..

وتلطف مدحت إجابة يولاندا فاندفع قائلاً :

- أنا متأسف . بس أنا كنت عايز أسأل ناس عندهم ذوق حلو زيكم
كان يتكلم في لهجة بريئة ، وقد وضع على وجهه قناعاً من المزاج
فوجدتني أقول له في حدة

- عيب .. أحسن بعدين اشتكتك .

فسألني في دهشة .

تشكتكيمي لمي

قلت له عن عمد ..

- لبيتكم

فراحت دهشته . وسألني

- أنت تعرفينا ..

قلت وأما أفسط على كلماتي :

أيوه .. أنت مدحت بن راتب بيه ..

فيبدأ عل وجهه الفرح ، وسألني في لهمة :

- وعرفتيني إزاي ..

قلت له :

- احنا جبران .. وعيب تعمل كده ..

كنت قد مهدت له كل الوسائل كي يجذبني أحدث .. لعل يعتذري وأصر
على أن يوصلني بعريته إلى البيت .
وركبنا أنا ويولاندا المستويين ، ذهبنا إلى غمرة حيث نزلت يولاندا ، وعاد
سي مدحت إلى بيتنا في الجيزة وعرفت مدحت

* * *

لم تعلم أمي بأخباري عن محمد ناجي ويوسف حتى ظهر اليوم التالي .
استمعت إلى وهي جالسة في فراشها تشكو الصداق . وسألني فجأة وقد
تذكرت شيئاً

- إيه الاسم الجديد اللي يقول عليه حلمي

فحكيت لها ما حدث بيني وبين أنور سامي في لاسندري ، فقامت لي ضيق .

حلمي قال لي ..

فسألته :

- وإيه رأيك يا ماما ..

قالت في عصبية

- أنت ح شويظي سمعتك ..

بكرة كل الناس ح تقول بآلك ماشية مع أنور سامي ..

قلت في تحد

- يقول الناس اللي عزيزيه أنا مالي ..

مصاحبت

- يا بت ما بتعيش مجنونة

عرفعت صوتي ..

- ياماما أنا باشتغل في السينما .. الناس ح تتكلم .. ح تتكلم .. إن
ماكش أنور .. ح يبغي واحد ثاني ..
لما مسكت رأسها بككتا يديها .. وقد اشتد عليها الصداح .. وقالت :
.. اتطلقي

شعرت أنني لو تبادلت معها في الكلام فيسبب بيننا شجار ، لم تكن في
أحسن حالاتها ، وأيقنت أنها قد خسرت في البوكر ليلة أمس ، فتركتهما
لصداهما ..

قرأت في ذلك الصباح جريدة الأيام باهتمام .. وأنا أتخيل بنامها الضخم .
ونوافذها التي تليق منها الأنوار ، ومحمد ناجي وهو يهبط من سيارته .
ورغم أن يوسف قال لي إنه سينشر اسمي الجديد بعد يومين ، إلا أنني يحدث
عن اسمي في كل صفحة وكل سطر ، وكنت أنظر إلى الصور المنشورة ، وأتخيل
صورتي مكانها ، مكان صورة تشرشل ومكان صورة جنرل روجرز في إعلان
عن فيلم ، ومكان صورة قاتل اسمه بيسيوني قبض عليه البوليس ، ومكان
صورة بنت حلوة في إعلان عن معجون أسنان ..

ولما يشت من الكلام مع أمي ، ذهبت إلى عمي محمود في الحمام ، إنه
يلقي النهار كله في الحمام ، وكان يحلق ذقنه ، فسماعته :

- إيه رايد يا عمي في اسم سامية سامي ..

قال لي حماس أنه ..

- حلو .. حلو قوي ..

كان يريد أن يتخلص مني بمواقفته السريعة ، ولو كنت قد ذكرت له أي
اسم آخر لخمس له وواقفي عليه في الحال ، فتركته هو الآخر ، وقالت انفسى
ولانتظر عودة إنصاف من كلية الطب لاسألتها ، وأمسكت بالجريدة لأتفرقها
ولا أقرا في انتظار تليعن مدحت .

كان من عادة مدحت أن يتصل بي حوالي الظهر ، بعد أن يعادريته ويذهب
إلى وزارة الأشغال ..

وتكلم مدحت .. قال لي في مرج وقد نس غصنه مني بالأمس ..

- هيه .. علمتي إيه أمأرح ..

فقلت له عن اسمي الجديد ، فأبدى دهشته ، وقال إنه سيظل يناديني
باسم بهية ، ولما علم أن يوسف سينشر اسمي الجديد ، سألمي في حماس

- واية مانشرهوش النهارده ..

فأجبت له خولي من أن يسأني يوسف .. مصاح

- ما بقدرش .. لازم اسمك يطلع بكرة في الجرنال ..

وصدق مدحت .. أبقتني إنصاف في صباح اليوم التالي ، وهي تصرخ من
الانفعال ، وفي يدها جريدة الأيام ، ورأيت وكأنني أحلم صورة صغيرة لي وإلى
جانبها صورة صغيرة لأنور سامي ..

لم أصدق عيني ، ومشت لحظات وأنا لا أستطيع أن أقرأ ، ولا أستطيع
أن أقدم ما تقول لإنصاف .. وأخيراً قرأت « أنور سامي يثبني ممثلة
جديدة » .. نفس الكلمات التي سمعتها من يوسف ونحن في الاستديو ..
ثم قرأت « .. سامية سامي هو الاسم السينمائي الذي أطلقه أنور سامي
على ممثلة جديدة ستظهر معه في دور صغير في فيلم « معك إلى الأبد » يقول أنور
إن سامية ستلعب بسرعة كنجة جديدة ، وأنه ينتبأ لها بمستقبل كبير ، لذلك
ثبناها وأطلق عليها اسمه ..

فقرت صارخة كالحموية ، والفرح يزغرد في قلبي .. وقد زاد من فرحي أن
إنصاف كانت سعيدة

كنت قد سألتها قبل أن تمام عن رأيها في اسمي الجديد . فقلت لي في
وجوم :

- كويس .

الفصل الرابع

كان لنشر صورتى في جريدة الايام تأثير السحر ، شعرت وكأنى قد تغيرت في لحظات ، واصبحت شخصية قوية ، لا شيء يستطيع أن يلف امامى الآن . اويحول بينى وبين ما اريد . وكان يوماً قريباً .. تجمعت فيه أحداث الف يوم ، كل شيء يمضي في مزرعة مذهلة ، وأنا اتصرف في جنون وشجاعة من ابشع له الحظ .. كانت إنصاف قد غادرت البيت وذهبت إلى الكلية ، وتركنتي وحدي مع جريدة الايام ، أنا وصورتى وجهاً لوجه ، وفكرت في أن اوقف أمى ، كنت اريد أن اصيح وانكلم واهل .. اريد أن يصحو البيت الخائم . وشاركني في هذا الضجيج الذي اشعريه ، ولكنى خشيت أن تشتمنى أمى . فجلست اقرأ الكلام المكتوب عني ، وأعيد قراءته ، وانظر إلى صورتى ، إنها ليست جميلة مثلى .. أنا أجمل من الصورة ألف مرة ، من أين حصل يوسف على هذه الصورة .. لابد أنه أخذها من «الاستديو» . وذهبت إلى المرأة ، لأتأمل وجهي وقوامي .. نعم أنا أجمل من الصورة بكثير ، وأمسكت بالجريدة أنظر إلى الصور الأخرى المنشورة ، صور زملائي المشهورين ستالين ، وفيتشسكي ، وأبور سامي ومحمد الجدي لآعب الكرة في النادي الامني ، وأم كلثوم ، وشارلي شابر

ثم أردعت قاتلة . في ارتباك طبعاً .. يا مهيبة لازم يكون لكى اسم ثانى في السينما .. ومهت ما يدور في رأسها . إنها تشعير بالحلم من ظهور اسمي الحقيقي في السينما ، ولا تريد أن يعرف أحد أن شقيقتها معتلة .. ولم أواجهها بأفكارها .. وعضلت السمكوت ..

أنا مثل هؤلاء ، أصبحت واحدة منهم ، يرى الناس صورتي إلى جانب صوره ، أنا مشهورة ، لماذا لا تستيقظ لمي الآن ، إنها ان تستيقظ حتى الظهور ، لتشكو من الصداح ، لابد أن تفهم أمي وضعي الجديد ، لم أعد مهية عبد الرحمن ، أنا سلمية سلمى ، لنا في حاجة إلى فساتين جديدة ، فساتين كثيرة ، لابد أن أذهب إلى راموسة كل ثلاثة أيام على الأقل .. ولماذا لا أذهب إلى سقراط ، يجب أن أعتني بجمالي ، وهذا البيت ، كيف تعيش فيه ، إنه بيت حقير .. كيف أرخص أن أمام مع إنصاف في حجرة واحدة ، إنها لا تفهمني ، لا أحد يفهمني هنا ، كلهم غرباء عني ، كلهم أغبياء ، لا يدركون أهميتي ، يجب أن تعطيني أمي نقوداً كثيرة ، لو كانت عاقلة لفعلت ذلك ، مصاريف زينتني أهم من مصاريف كلية إنصاف ، ماذا ستصبح إنصاف .. ذكوتيرة .. هه .. كلام فارغ .. سانشتر .. وسافنتي ، وساصرف عليهم ، ساصرف على أمي وعلى إنصاف ، وسانشتري فيلا في شارع الهرم ، وسأسمح لهما بأن يسكنا فيها ، وسانشتري عربة فضة كاديلاك . يجب أن تعطيني أمي كل ما أريده من نقود ، وإذا لم تعطيني فساتينك البيت ، سانشتزوج مدحت ، ولكن مدحت لم يرب بعد ، ولا أظن أن أباه سيמות قريباً .. إنه كسلان ، مازال نائماً ، ولم يقرأ جريدة الأيام ، ولم يرسورتني ، هل اتصل بيوسف وأكلمه ، لابد أن أفعل هذا ، ولكنني لن أوبخه عن صورتي ، يجب أن أجامله ، يجب أن أسيطر عليه حتى يواصل نشر أضيائي ، وسأختار له صورة جديدة ، سأذهب اليوم إلى سقراط وأغير نسريحة شعري ، يجب أن تعطيني أمي النقد .. ترى متى يذهب يوسف إلى الجريدة ، الساعة الآن مازالت التاسعة ..

ودعيت إلى الناهضة أطل منها على الشارع ، ويحدث عن باعة الجرائد ، فلم أجد أحداً ، وكانت سيارات قليلة تحري .. أظ .. كل الناس مازالوا نائمين .. لم يقرأوا جريدة الأيام بعد ، لم يروا صورتي ، لو ذهبت إلى سقراط ، هل سيفرغني الناس في الشارع ، لو كانت صورتي أكبر

الحرقوا .. ربما عرفوني ، نعم سيفرفوني ، وسيتهامسون ، ها هي سلمية سلمى ، إنها أجمل من الصورة .. لن أركب الأتوبيس ، لن أقف عند محطة الأتوبيس ، منذ اليوم سأركب عربة أوتاكسي ، يجب أن تعطيني أمي النقد لأركب التاكسي ، لابد أن تفهم ظروفي الجديدة .. راسي يذوب ، لماذا لا تستيقظ أمي ، سأصنع هنجان قهوة ، وأدخن سيجارة ..

●●

كنت في المطبخ أصنع القهوة ، عندما دق جرس التليفون ، فجريت وأنا أتوقع أن يكون يوسف هو المتكلم ، وقبل أن أصل إلى التليفون كان الجرس قد سكت ، نظرت إلى التليفون في غيظ ، ترى من الذي كان سيتكلم ، ليكون مدحت ، ربما .. هل أنتظر .. وذهبت إلى المطبخ وأحضرت القهوة ، واشعلت سيجارة .. لماذا لا يدق جرس التليفون ..

ونفذ صبري ، فرفعت السماعة وطلبت جريدة الأيام ، أريد أن أسأل عن يوسف ، وإذا لم أجد فأسأل عن رقم تليفون بيته .. وسمعت صوتاً يقول :

- جريدة الأيام ..

فقلت رغماً عني :

.. الأستاذ محمد ناجي موجود ؟

في لحظة خاطفة ، تملكنني رغبة غاشضة ملحة في أن أكلّم محمد ناجي بدلاً من يوسف ..

وسمعت الصوت يقول :

- مين عليزه ؟

قلت بسرعة :

- بس وهصلتي بيه

قال الصوت :

- ما قدرش يا اسد .. لازم أعرف مين اللي عايزه ؟

قلت في حدة

- قول له واحدة موش عايزه تقول اسمها ..

وسكت الصوت برهة ، ثم سمعته يقول :

- اتفضلي .. ناحي بك معلمي .

مارا أقول له .. مارا طلته ؟ ..

وسمعت صوتاً خافاً رقيقاً يتكلم هامساً

- ألو .. مين يا اسد ؟

سألته :

- حضرتك الأستاذ محمد ناجي ؟

- أبوه .. أي خدمة .

قلت بغير تفكير :

- أنا واحدة معجبة ببك يا أستاذ .

قال في ادب :

- متشكر ..

- أنا دايماً بأحب أقرأ لك كل حاجة بتكتبها ..

قال في سرور

- متشكر قوي

وخيل لي أنه لا يريد أن يمضي في الكلام ، وكنت لخص بجرأة غريبة ،

وبتصميم على أن أشتبك معه في حديث طويل ، فقلت له بصوت وضعت

ليه كل أنوثتي .

- أيا خايفة أكون بأعطلك عن شغلك .. وأنت غالي عندي قوي

يا أستاذ ..

فقال ضاحكاً :

- إدا كنت حلوة .. تقى موش بتعطليتي .

فانطلقت ضحكة معطولة فيها إغراء .. وقلت

- لا .. اطمئن .. أنا حلوة موت ..

- إزاي أعرف ؟

- أوصف لك نفسي .. أنا عندي تمتلش ممة ..

- موش معقول ..

- ما تحبش الصغيرين ..

- بالعكس ..

- وطولي متوسط ، وقوامي رشيق وعيبي سود وحلوي وشفايفي

صغيرين لكن ملينتين .. وكل حاجة فيه حلوة .. إيه رايك بأه ؟

قال فجأة .

- ومين بأه اللي مصلطك علشان تكلميني ..

- ما فيش حد .

- بدمك .. قول لي ومش ح أقول ..

قلت ضاحكة :

- يانري مين دي اللي أنت خايف منها ؟

قال في ارتباك .

- أنا موش خايف إلا منك ..

فضحكت ساخرة وقلت :

- ليه . عجبك ؟

- باين عليكي غريبة .. أنت اسمك إيه ؟

- ماتمتلش .. كل شيء بأوانه ..

- يعني فيه أوان ؟

- بس ما شمتلش ..

- احنا في عصر السرعة ..

- إلا ده ..

- إيه هو .. ده ؟

- اللي أنت بتفكر فيه ..

قال في وقاحة

- أنت أنيحة

قلت ساخرة

- أنت اللي أبيع .

- طيب بس الدين فرصة .. لا أنا أعرف تمره تلفونك .. ولا أعرف اسمك .

ولا أعرف أنت حقيقى حلوة والا وحشة ..

قاطعت .

- إيه رايك في صوتي ؟

- حلو ..

- صوتي أهل والا صوت دلال ؟

- انت بتكفي ؟

- لا ..

- ما أشوفك أقول لك ..

وفجأة هعست متصنعة الخوف :

- أنا ح أكلمك بعدين .. أحسن جوزي باين عليه صحي ..

قال في دهشة

- أنت متجوزة ؟

- أه ..

قال في لهفة وقلق

- طيب المرة الجاية اطلبيني في نموتي الخصوصية ..

ولم يذكر لي رقم تلفونه الخاص ، فجمعت أريده بعد أن وضعت

السماعة ، حتى وجدت قلماً وورقة فكتبت الرقم ، واحتفظت به في

حقيبتي

قلت لنفسى ، يا محنونة ، ما الذي تريدينه ، ماذا بك ؟

- وابتسمت .. إنن فهذا هو محمد ناجي إنه اسماء ، مما كنت اتصور .

الرجال كلهم سواء ، وكلما تقدمت بهم السن أصبحوا أشد سهولة ، إنى

استطيع أن ألعب به . ومتصيح جريدة الأيام راكمة تحت قدمي .

وماصيح أنا المسيطرة على يوسف .. المسكين .. إنه لا يدري إنى

أستطيع أن أطرده من الجريدة . وأستطيع أن أحصل له على ترقية .. هل

أطلبه .. لا .. سانتظر حتى يكلمني مدحت .. فأطلب منه أن يلتقي

بيوسف الليلة لأشكره تشر صورتي ، سأطلب من مدحت أن يدعونا

الليلة إلى الأوبرا ..

وقيل أن أبتعد عن التليفون ، سمعت رنينه ، فرددت السماعة وأنا

واثقة أن يوسف هو المتكلم ، ولكن فوجئت بصوت غريب يسألني في

مرح

- أنت كنت بتتكلمي مع مين من ورايا ..

سألته في دهشة .

- أنت مين ؟

قال معاتباً :

- أخص عليكى .. موش عارلمانى

قلت في لهفة :

- والتبني أنت مين ؟

قال : أنا أبوكي ..

لا يمكن أن يكون هذا هو يوسف .. عرفته .. إنه انور سامي ، ولكن لم

أكن واثقة .. فقلت

- إذا كنت أبويا شقى بتتكلم من الأخرة .

فصاح : أعوذ بالله .. إن شاء الله أنت .

ثم قال :

- ازيك يا حلوه ..

- ازيك أنت

- عرفتى أنا مين ؟

- ايوب -

- طيب انا مين ؟

- انت بابا انور ..

- برفافو .. انا حبيبك بابا .. هيه .. ح تسهر فين لليلة دي ؟

- قلت له في دلع :

- انا معزومة ..

- فهتف :

- سيبك من العزائم العالصة .. انا بأحتفل النهاردة بيكي ..

- فلم أستطع أن أخفي فرحي ، وصمت .

- والنهي ؟

- امال .. انا ماعنديش غير سامية واحدة ..

- قلت متظاهرة بالحزن :

- لكن صحيح انا معزومة لليلة دي ..

- فصاح محتجاً

- إزاي يا بنت تاخدي مواعيد من ورايا .. موش تستاذني بابا الأول ..

- قلت ساخرة :

- اسم الله عليك ..

- قال بصوت جاد

- انا عايزك في شغل ..

- وكنت ضعكة ساخرة .. إني أعلم نوع الشغل الذي يعنيه ، ولكني

- تظاهرت بأنني أصدقته وقلت في سذاجة :

- إذا كان شغل صحيح .. أعتذر .

- طبعاً أعتذري .. ده شغل مهم .. انا ولجل جد .. افوت عليك

- الساعة كام .. تسعة كويس

- حليها تسعة ونص ..

- أحسن .

- وسأنته

- ح نروح فين ؟

- فقال

- موش ح نروح .. الحلة عدي في البيت ..

- ومجن فيها ؟

- فصاح

- يابنت انتي خايبة .. فيه ناس كتير .

- قلت في تحد

- ها احلف من إيه ؟

- فصاح في غيظ :

- إن شاء الله تموتي ..

- ثم همس في رقة :

- خلاص يا حبيبتي .. تسعة ونص .. ح أزمع تحت .. بسر أومح

- تلطميني .

- أنت عارف البيت ..

- طبعاً ..

- ووضعت الساعة ، وقد زادت دهشتي من نفسي ، لم يمسح على نشر

- اسمي في جريدة الأيام ساعتين ، حتى أصبحت في دوامة ، اقتحمت دنيا

- مجهولة كنت اتحاشاها حتى الآن . غارلت رجالاً لا يذكرون في الزواج ،

- عرفت رقم تليفون محمد ناجي الخاص ، وارتبطت بموعد مع أنور سامي ،

- رجلان مشهوران وقعا تحت سيطرتي .. سيفتحان لي طريق الشهرة

- والمجد ، سأغزو بهما السينما .. هل أقول لامي .. أخشى ألا تقهمني ..

- إن تفكر في محدود ، طموحها محدود ، كل ما تفكر فيه هو أن أنتزج من

- شل غني .. هل لخطأت .. هل يجب أن أختار بين أنور ومحمد ماضي ،

- أم أجمع بين الاثنين .. هل أستطيع أن أجمع بين الاثنين . ما الذي

- يجلطني الفكر هكذا ..

لماذا لم يتكلم يوسف .

هو وحده الذي يتعاملني ، هو وحده الذي لا يهمله جمالي ، لم يفكر في الاتصال بي منذ تركني في الاستديو ، ولكنه نشر صورتي ، وكل ما يحدث لي الآن بسببه هو .. لا بد أن أراه ، ولكنني سأخرج الليلة مع أنور ، ماذا أفعل ؟

واستيقظت أُمي ، رايتها تخرج من غرفتها متجهة إلى الحمام ، وعيناهما شبه مغضبتين ، نظرت إني في وجوم ، وتكاسلت عن تحييتي .. ولكنني صمت فيها وأنا أقدم لها الجريدة :

- ماما .. شولي صورتي في الجرنال ..

قالت لي إعياه .

- نشرها خلاص .

وأمسكت بالجريدة .. ونظرت إلى الصورة بعينين متعبتين ، ثم مضت إلى الحمام دون أن تقول شيئاً ..

ودق جرس التلفون - لا بد أنه يوسف هذه المرة .. ولكن سمعت صوت الأستاذ حلمي يهتني بفشر صورتي ، كان يكلمني في حماس ، وقال إنه اتصل بيوسف وشكره ، ونصحني بأن أطلبه في الحال وأعمل نفس الشيء ..

وخرجت أُمي من الحمام ووقفت تعبت إني ، حتى فهمت أُمي أنكلم مع الأستاذ حلمي ، فاشتغلت مني الساعة ، وقالت بلهجة غامصة - يا به حلمي اني أنت عامله في البيت ..

وانفجرت أُمي تنهيه بأنه سيفسدي لأن النبات لا يشغلان في السينما بهذه الطريقة . كانت نصيح

- يا فرحتي بصورتها .. الاسم بس معتلة .. واحدا لا شغنا منك يا أبيض ولا أسود ..

وجاءة قالت أُمي لي تهديد

- أنا ح اكلم محمد ناجي وأطلب منه يكتب المكتوب في الجرنال ، إلا إذا مضيتو معانا عقد .

ضحكت لي سري ، وأنا أسمع اسم محمد ناجي ، إنها لم تتصل به تري ماذا تقول لو علمت إني كنت أتحدث معه من نفس هذا التلفون .. ولكن طريقة أُمي في الكلام ، أزعجتني ، إذ جعلتني أحس أنها لا تفكر في شهرتي ولا مجدي .. لا يهمها إلا النقود التي ستحصل عليها من ورائتي ، إنها تتكلم عني كما لو كنت بضاعة ستبيعها وتأخذ شماسها إنها واهمة ، لن تأخذ مني مليماً واحداً بغير رضائي ، بل سأطلب منها أن تعطيني المزيد من النقود ، وساعدها ، إذ لو رفضت فسأجرها من كل شيء .. لقد كبرت ، وإن يضحك علي أحد ، حتى ولو كانت أُمي .. ورايتها تضع الساعة ثم تلتفت إني بأسمة ، وليس برجبتها أثر من الغضب الذي كانت تتظاهر به وهي شاطب الأستاذ حلمي ..

وقالت :

- لازم تأخذ بالقنا .. بتوع السينما دول كلهم نصابين .. فاكرين إنهم ح يضحكوا علينا بصورة في الجرنال ، ويشغلوكي بلاش . صحت :

- يا ماما .. دى موش طريقة .. أنتي عايزه تطفسيهم ..

فهاجت ، وشتمتني ، وقالت لي بشراسة ، إنها تعرف ما تقول ، ولا تريد مني أن أمدخل وأصد كل شيء .. وانهزت فجأة على المقعد ، وجعلت تندب حظها الأسود ، يوم تزوجت أبي ، ويم رادتي ، ويوم اضطرت لأن تلعب للقمار لأكل العيش ..

ومضت تعدد الآمال ، وتمن علي بكل قرش صرته علي ، وكل لقمة قدمتها لي ، وكل خرقة اشترتها لأرتديها .. وتمن علي جمالي وكأنها هي التي منحتة إياي ، وتمن علي السرير الذي أمام علي ، وتمن علي الهواء الذي استنشقه في الليث ، وتمن علي أنها تزوجت ، وأنها لم تحصل على المال بجسدها ..

انطلقت الكلمات من فمها . لائحة . مريضة . قاسية . وجاء عمي محمود مرعاً محاولاً أن يهدئها ، فزادها حدة وغضباً ، وانتهالت عليه هو الآخر بالشتائم ، وهو صابر عليها ، يريت على كتفها ، حتى سحبها إلى حدرتها .

ارتعيت على سريري أبكي ، وقد صمعت على هجر البيت ، وعقلي يبحث عن المكان الذي أحتمي به .. فكرت في أن أذهب إلى يولاندا . وفكرت في انور سامي ، سأذهب معه إلى بيته هذه الليلة وأستقر هناك .. وفكرت في الأستاذ حلمي لو أعطاني بعض النقود للجات إلى بنسويين ، وطلبت من مدهت أن يساعدني .

وكنت أفكر في نفس الوقت ، اني يجب أن أذهب إلى سقراط لأخبر تسمية شعري ..

■ ■

تكلم مدهت في موعده ، فقلت له متوترة :

- أعمل معروف يا مدهت .. تعالى حالاً خذني من البيت .

فسألني في دهشة :

- إيه اللي حصل ؟

قلت له .

- اتضائقت مع ماما علشان صورتني اللي في الجرائل ..

وظن مدهت ، أن أمي سيده محالفة ، وأنها غضبت لنشر الصورة ..

فقال وهو يتصنع انشغاله

- أنا جاي حالاً .. بس نروح فين ؟

قلت .

- أي حقة .. بس أخرج من هنا .

قال في حماس :

- عدي فكرة - نروح حمام السباحة في النادي الأهلي .

ووافقته في الحال .. وأنا أقول

- بس أنا كتبت عايزه أشوف يوسف علشان أشكره ..

فقال .

- أنا ح أقول له يحصلنا عل هناك .

بعد ساعة ، كتبت ممددة على الحشيش بحوار حوض السباحة ، وقد ارتدبت مايوهاً أصفر وإلى جانبي يرقد يوسف على بطنه يعرض ظهره للعاري للشمس ، أما مدهت فكان يعوم قاطعاً الحوض من أوله إلى آخره ، وكلما وصل إلى ناحيتنا ، رفع يده ملوحاً ، ثم يغطس تحت الماء ، ولا يظهر حتى يقطع عشرة أمتار أو أكثر .

كنت قد شئت أمي وكلامها ، شئت كل شيء إلا صورتني في جريدة الأيام ، وعيناي تحتان عن عيون الشباب والنبات والأطفال وعراقي الصمام .. أحاول أن أعرف من نظراتهم لي ، إذا كانوا قد رأوا صورتني ، وعرفوا من أنا ..

التقت عيناي بكل العيون ، إلا عيني يوسف ، كان لا ينظر إليّ ، وبهتت في اتجاه نظراته عن بنت جميلة أو لبيحة ، فلم أرسو بعض العجائز لهم كروش كبيرة ووجوه سمينة محمرة ، كان منظرهم مضحكاً . وقد وقف أمامهم مدرب في فمه صفارة ، ينفخ فيها وهو يصيح واحد اثنين .. واحد اثنين . فينتشون بصعوبة يميناً وشمالاً . ثم يندحون إلى الأمام ، ثم يقفون وقفة اعتدال ، كانوا في حال إعياء شديد ، فتحس منظرهم المضحك إلى منظر يثير الشفقة ..

أهذا المنظر أهم عند يوسف مني .. شعرت بالحيرة والفيظ ، ووددت لو أستطيع أن أكسر دماغه وأقشعها لأري كيف يفكر . لقد قابلته بترهاب شديد ، وشكرت له في حرارة مساعدته لي ، فتمتم بكلمات قليلة مرتبكة ، ثم غرق في صمته ، ولما طلب منا مدهت أن ننزل معه إلى حوض السباحة ، قال يوسف إنه يفضل الجلوس في الشمس فحطت معه لأعطيهِ فرصة لأن يغازلني أو بالقليل يجاذبني الحديث .. ولكنه لم يفعل ، وفصل عني منظر العجائز .. كيف أنفذ إليه .. كيف أسيطر عليه

وجاء الخادم مرحاً حتى كوكاكولا ، فصببت زجاجتي في الكوب ، حتى ارتفعت الرغاري ، وهافت على جانبيه وسقطت على المايوه .. فصرخت ، وسألت يوسف أن يعطيني مديله ، وأعطاه لي ، وبينما أنا أصبح الكوكاكولا تحت نظرة غريبة منه يصوبها إلى المايوه . نظرة سريعة مختلصة ، ولكنني فهمتها

إنه يقاوم جمالي
وامتهرت العروسة ، فبدأت الهجوم .. صابته

- عمرك ما حببت ؟
نظر لي يوسف في قلق ، وقال يصوت كأنه أت من بعيد .
- أبوه حببت ..

وهول بصره إلى المجازر ، وكأنوا قد رقدوا على الأرض كالموتى .. شعرت أنه لا يريد أن يقول أكثر مما قال ..
فلقت ساعرة :

- موش باين عليك ..
فتلير وجهه وسألني وهو عابس :

- موش مصداقاني ؟
قلت في سخرية أكبر :

- بالثيم ..
فالتفت لي في حدة ، كان وجهه غاضباً ، وعيناه غاصبتين ، وقال بصوت غاضب

- أما ماينكديش ..

كانت لهجة حاسمة ، قاطعة ، جعلتني أحس أنه صادق ، واضطرتني لاحتة إلى العدول عن سفرتي .. فسألته جادة
- وما تجوزتهاش فيه ..

فالتفت ناحية حوض السباحة ، وهز رأسه في قلق ، حتى خيل لي أنه يفكر في أن يتركني ويفكر في اللاء هرباً من سؤالي .. وتذكرت أن أباه قد تزوج من

خاتمة ، هل ذكره سؤالي بزواج أبيه ، والتفت لي ، وفي عييه نظرة طويلة حائرة ، وبدأ عليه التردد ، ثم قال بسرعة :

- اتجوزت واحد ثاني ..
فصابته :

- وإسه بتشوفها ..
قال في دهشة :

- طبعاً لا ..

قلت وأنا أتنهد متصنعة المزاجية :

- أنا نفسي أعرف يعني إيه الحب ..

فأطرق برأسه .. ثم رفعها فجأة ، ورشق عيني في عيني ، في جراءة لم أعدها فيه وسألني :

- عايزه تعرفي صحيح ؟

شعرت أنه يريد أن يتحدث بإخلاص .. وأنه يهرق نفسه بهذا

الإخلاص ..

قلت في حذر :

- صمصح عايزه أعرف

فصكت برهة ثم قال :

- الحب هو أن الواحد يحب ..

سألته ضاحكة :

- قصدك إيه ..

فأشار بيده في ضيق وقال

- الإحساس بالحبيب ما يتغيرش ..

وظهر عليه التعب فجأة ، كأنه فكر ستة ، وتكلم عشر سنوات .. ما هذا ..
لذا يحول حديثنا من الحب إلى شيء مرفق حاد .. لقد تعوبت عندما أتكلم عن الحب إن أسمع حذوية أو نكتة ، تعوبت لأن اضحك وأسخر ، تعوبت لأن أكون

دكية ، اقول كلاماً برافاً ، وأشعر بانتي خفيفة مرحة ... لم اتعود هذا العوس ، وهذا القليل الجاد والاجهاد الذي ظهر عليه .

شعرت بالأغادة عن مواصلة الحديث معه .. إنه غامض غريب . فسكت ، ولكنه فجأة انطلق يتكلم في حرارة

- تعري الحب زي ايه .. زي امرأية .. انت لما بتقصي في المראה موش تتشوفي نفسك .. بتشوفي لوس شعرك .. تشوفي المستان اللي لايصاه .. شكله ايه .. تفصيلته ايه .. اهو الواحد لما يحب يتبقى اللي بيحبها زي المראה اللي بيشوف فيها نفسه .. بس بيشوف حاجات ثانية ..

كان يقول كلاماً غريباً ، لم اسمع مثله في حياتي ، ورغم غرابة كلامه شعرت بأنه يهزني ويؤثر في .. اسبب لا افهمه .. همست - بيشوف حاجات زي ايه .

قال :

- بيشوف حياته الحقيقية .. بيشوف اللي جواه .. المستغنى في نفسه بيشوف قوته .. ضعفه .. الحاجات اللي عاجز يعملها . الحاجات اللي خايف منها ، بيشوف إزاي ممكن يبقى فرحان .. فرحان بحق وحقيق .. وبيشوف إزاي يبقى زعلان .. زعلان بحق وحقيق ..

ثم قال بنهفة كأنه تذكر شيئاً هاماً .

- الواحد لما بيحب بيعيش .. فاهمة قصدي ..

فاحترت ماذا أقول له .. كنت أحس كلامه ، أشعر أنني أفهمها ، ولكني لا أدري كيف أحسست بها ، أو كيف فهمتها

وكأنت عيناها في عيني ، فشعرت برجفة في قلبي ، وكأن شيئاً ينزاح من فوق عيني ، فيحملني إلى عالم جديد ، عالم لم أعرفه من قبل .. عالم رقيق وحنون وحرير

في تلك اللحظة خطر لي سؤال مفاجئ ، لا أدري كيف قفز إلى رأسي ، لا أدري كيف فكرت فيه . سألته

- الحنان عندك أهم والا الحب .

فابتسم ، ابتسامة حلوة ، طيبة ، عافلة ، وقال :

- الحنان والحب شيء واحد ..

ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

- أظن كده ..

قلت بصوت غريب عني ، كأنني مخلوقة أخرى تتحدث

- أنا عايزه حنان ..

فسألني في وجوم :

- انت ما حبيتش أبداً .

قلت وقد تذكرت ماركو :

- حبيت وأنا عيلة صغيرة

فنظر إلى يلب مني أن أستمع .. ولكني ضحككت قائلة

- كان حب عيال ..

وقارعت رغبة مفاجئة في البكاء ..

من بين عشرات الشبان الذين عرفتهم ، وغازلوني وغازلتهم ، لم يقل لي واحد منهم شيئاً كهذا من الحب ، حتى أنا ، لم أكن أعرف أنني أبحت عن الحنان حتى هذه اللحظة . نعم أنا محرومة من الحنان ، ولا أحد يعطيني الحنان . ربما كان يوسف يستطيع أن يعطيني الحنان ، إن ما يقوله يؤثر في الشجن ، حقاً إنه شخص غريب جديد ، واحد ليس كالأخرين .

أمكن هذا أن يكون يوسف مازال يحب تلك التي تزوجت غيره ، إنها مجنونة ، إذ تترك حباً مثل هذا ، ليتني أجد من يعبني هذا الحب وتنهتد وأرخيت جسدي ، فقد شعرت أنا أيضاً بالارهاق ، والتعب .. وسرحت مع صحابة في السماء تشبه البطة ..

ماذا يحدث لي لو أحببت حباً مثل هذا الحب الذي يتحدث عنه .. في المساء كنت أجلس إلى جانب أنور سامي في عربته اللنكواں البيضاء ،

يفوح العطر من جسدي ، ويفوح العطر من جسده ، تضحك كالجائنين ، وهو يروي نكاتاً بديهة متلاحقة
ورغم ذلك كل ما زال في قلبي ذلك الشجن الذي لحسست به وأنا مع يوسف ..

فل شمع يوسف يلازمي ، يجلس بيني وبين أنور ، ويدفعني إلى المقارنة بين الاثنين ، حاولت أن أنساه ، وأن أغرقه في ضحكاتي العالية ، فلم أفلح . وكان أنور يسير بعرضته في بطنه .. يتلصق بها ، وهو ينظر إلى كل سيارة تمر بنا نظرة سريعة خاطفة ، ليتأكد أنهم رأوه وعرفوه ، وكان ينظر إلى المرأة على الرصيف ، الرجال والنساء على السواء ، كأنه يقول لهم هأنذا نجمكم الكبير العظيم أنور سامي ، وإذا عرفوه وأشادوا إليه ، ابتسم وأسرع قليلاً حتى يبتعد عنهم ، ثم عاد وتلكأ باحثاً عن معجبين آخرين .
كان الجميع يعرفونه ، عساكر المرور ، المنادون ، حتى المتسولون كانوا يعرفونه .

وشعرت بزهو لاني معه ، ولأن الناس كلهم كانوا ينظرون إليّ في اهتمام ، والبنات تحدد في تحسديني ، ولم يضايقني أنهم كانوا يهتفون .. أنور سامي ، أنور سامي .. ولا يهتفون باسمي .. كنت أشعر أن يومي قريب ، يوم يعرفونني كما يعرفونه ، ويهتفون باسمي كما يهتفون باسمه .. لم أشعر نحوه بغيرة أو حسد ..

ولكنني شعرت بغيرة .
وكان يلف ويدور في الشوارع كلثائه ، فسألته .
« أنت عايز تروح أين .. »

قال
« أهو بتنفس شوية قبل ما تروح البيت .
« والناس اللي عازمهم في البيت ..
قال ضاحكاً :
« ناس مين .. »

قلت في غيظ
« يعني ما غيش حفلة .
قال في وقاحة
« أقول لكوسر .. ما غيش حفلة .
ثم أرفف .

بس ده مر بيني وبينك .. لوعي بتوليه لحد ..
فسألته وكانني لا أعرف الجواب
« طيب عايزني أروح أنبئك ليه ؟
فنظر إليّ كمن يتهمني بالغياء ، وقال ساخراً :
« أنت باين عليك عبيطة ..
قلت في غدا .

« أبوه عبيطة ..
فمصمص شفطي في استنكار وقال :
« ياه أسمعني .. أنا ما لبعيش للعبط ..
قلت :
« قسمتي .. طلعت كده ..
قال :

« في البيت ح أغسل كل العبط اللي في مفك ..
قلت في حدة :
« أنا موش جاية معاك البيت ..
نروح أي حقه تانية ..
فصاح غاضباً في شراسة :

« اسمعي يا بنت .. ما توجهيش دماغي .. أنا موش بتاع لعب ودوران ..
واوقف العربة فجأة وصاح :
إذا أنتج ح شتعتي .. اتغصلي انزلي من العربة

أذهلنتني المفاجأة ، لم أتوقع أن تبلغ وقاحتها إلى هذا الحد ، إنه يعاملني كما لو كنت حابسته .. حاريتة .

أردت أن أصرخ .. ولكنني فوجئت بكل قواي مشلولة ، كأن قوة هائلة قد سحقني ، كل شيء في عاجز عن الحركة ، حتى الكلام هجرت عنه كنت يائسة ، مصعقصة وابتسم ..

كنا في شارع قصر النيل ، الماس من جوانا ، والعريات تراحمننا ، ومئات العيون ترتقبنا ، ولم يكثر بشيء ، مد ذراعه وأحاط به كتفي ، وجذبتني إليه فلم أقاومه .. وهمس :

- أنت مجنونة .. لسه طابشة .. عايزه تعقل ..

كان يتكلم وكأنه ينصحنني ، وكان صوته رقيقاً حنوناً ، كاذباً ، اطرفت برأسي ، وفكرت في يوسف .. لم أفكر فيه .. تذكرته وهو راقد إلى جانبي في النادي .. تذكرته وكأنني أفكر فيه ..

وسمعت أنور :

- موش عاجبك تيجي معايا البيت .. أسالي أي بنت .. أسالي أي واحدة ست في البلد دي .. شولي تقول لك إيه .. شولي إن ما كنتش تتمنى تيجي عندي . واثبت بعد كل اللي عملته موش عايزه تيجي معايا بقول لك أنت هيلة موش فاهمة حاجة .. أنت ما قرتيش اسمك في الجرنال الصبح .. ما شفتيش صورتك جنب صورتي .. موش شايفاني ماشي في الشوارع وأنت راكبة جانبي . بكرة البلد كلها ح تتكلم عنك .. عايزه إيه أكثر من كدة .. أعمل لك إيه أكثر من كدة ..

سكت ولم أحب ..

فصاح جازعاً .. كأنه لا يصدق أنني رفضت الذهاب معه

- عايزه إيه ، قوليلي ،

همست

- ولا حاجة ..

قال فجأة في رقة بالغة

- أنت زعلتي ..

قلت :

- أيوه ..

فضحك قائلاً :

- حقك عليه .. أصل أنا محنون .. ما تعرفيش دي ..

وخطك كالجنون ..

وجمت ، وأصبح كل شيء أن أفكر في طريقة للخلاص منه .. هل أستطيع أن أتخلص منه دون أن يؤذي نفسي ، دون أن يفسد مستقبلتي في انسينما .. ووقف بالعربة أمام عمارة الايموبيليا ، وتقدمني وهو يتمايل في مشيته ، وصعدنا إلى شقته في الطابق الرابع عشر

ما كنت أهير إلى الداخل ، حتى أحسست أنني في سجن جميل ، أريد أن أفر من المكان ، ولكن كل شيء تقع عليه عنائي يشدني إليه ، الأثاث بسيط وبديع ، مودرن ، والإضاءة موزعة ، والستائر صفراء ، وفي الحائط الكبير صورة زينة لاتور وهو يبتسم في وقاحة ، وتبينت فجأة أنه ليس هناك حجرات ، بل أنا في مكان فسح ، قد لسمه الأثاث الموزع إلى مكان للجولس ، ومكان الطعام ، وبار ، وفي الزكن البعيد مكتبة مليئة بالكتب .

لم أجلس ، سرت وكأنني في معرض ، أتلفت حولي ، بينما انشغل أنور بإعداد كأسين ..

سألني :

- الويسكي بالصودا ولا باليه ،

قلت هامسة .

- بالصودا

كيف أقوم هنا ، هل أقتله ، هل استسلم له ، لو كان رقيقاً معي ، لو كان

مهذباً ، إنه لا يحترمني ، لا يحترم شيئاً على الإطلاق ، لا يفكر إلا في نفسه ،
إبه وقع ، مجرم .

وقدم إلى كاس الويسكي ورفع كاسه قائلاً :
- في صحة حيناً ..

شربت في صمت ، وطوق حصري وجذيني إلى كنية ستوبيو قماشها أصفر
واسود . وجلس إلى جانبي وذراعه مارات حول حصري .

وأفترغ كاسه بسرعة ، ونهض وعاد معه كاسان ..
ورفع كاسه وهو يسألني في غضب

- مالك ..

فتملكني الرعب ، وأبتسمت قائلة :
- ولا حاجة .

قال :

- أعال مكثره ليه ..

وجلس إلى جانبي ، وذراعه حول رقبتني ، وعبث بأصابعه في شعري ،
ثم قبلني .. قبلني بقسوة ، فتركت له شفتي ، كأنها قد انفصلت عني ،
وأبتعد عني فجأة . وسألني بأسماً ..

- إزي عنايات ..

- عنايات مجن

فصاح

- عنايات امك .. هي موش امك .

قلت : ايوه ..

فصاح منتعشاً :

- امك دي حيت كويسة .. امورة .. بس يا خسارة ..

- خسارة ليه ..

- حظها وحش ..

قلت وأنا أتهدد :

- امي عايشة

فصاح :

- انت متعرفيهاش زي ما أنا أعرفها ..

فأشار إلى كاسي قائلاً .

- اشربي كاسك .. انت موش ماشية معايا .. طبعاً أعرفها ..

وقام متجهاً إلى البار ..

إنه يحطمني ، يفضخني ، يعريني .. كيف أتخلص منه ليمني قلت
لأمي إني سأقتله .. كانت تصحطني ، تستمني ، ضربتي ، قتلتنني لتنعمني
من مقابله .

ذات ليلة ، قبل أن تتزوج أمي من عمي محمود ، كنت أذاكر في غرفتي
بمنزلنا في غرفة ، كنت في الثالثة عشرة من عمري ، وكانت الساعة الحادية
عشرة ، وإنصاف نائمة ، وعالت أمي من الخارج ، ومعها رجل ، لم أقل لها
شيئاً ، ولكنها خرجت وصممت عني الجلوس معها . قالت لي أمي إنه المحامي
الذي يقول قضية النملة ضد أبي ، حاولت أن أصددها ، ولكنها تمسكت
بالبقاء ، رفضت أن أعود إلى غرفتي .

كان الرجل الذي تقول أمي إنه محام ، طويل ، وجهه ضخم مربع ، له
أنف مفلطح وشارب صغير مضحك ، وهنأه شقيقتان ، وكان يضحك بصوت
عال سمج ، وسألني عن دروسي ، وحاول أن يستقرضني ، فقال لأمي إني
أبدر ذكية وشاطرة ، طلبت مني أمي أن أنام ، قالت لي أن أذهب لغرفتي
لتتحدث معي في القضية ، فقلت لها إني لا أريد أن أنام ، قالت لي انهبي
وذاكري ، فقلت لها لا أريد أن أذاكر ، وتولعت أن تستمني أمي ولكنها سكنت
وكف الرجل عن الضحك ، ونظر إلى قلبي ، ونظر إلى أمي في قلبي ، وتكلم معها
في أشياء سخيفة ، كان كلامه مهذباً ، ولكنه قال لها إن ساقها جميلتان ،
لا أذكر المناسبة التي انتهزها ليقول هذا لأمي ، وبعد قليل نهض وقال إنه
سينصرف لأن الوقت قد تأخر ، وعند الباب همس في أذن أمي بكلمات لم

أسمعها ، ولكنني سمعت أمي تقول له : ما غيش فايدة ، مرة ثانية .. ثم رفعت صورتها قائلة .. ده كله غلط ..

في تلك الليلة قاومت النوم ، فقامت كاتني ساموت لومت ، ومع ذلك شعرت بالنوم يغالبني . ويتسلل إلى جفوني وإلى فمي وصدري وسفاتي ، شعرت بالنوم في رأسي وفي بطني ، وقيل إن اصرخ .. لا أريد أن أنام .. كنت قد تمت ، كنت قد مت ..

أنور يعرف أمي ، متى عرفها ، أيعرف ذلك الحلي ، أيعرف ما حدث تلك الليلة في غمرة ، أيعرف أشياء أخرى لا أعرفها أنا ، أكانت له علاقة بأمي .. لماذا لم تحدثني أمي عنه .

عاد أنور ومعهم كاسان أخران ، وكنت قد أفرغت كأسي .. لا فائدة الليلة ليست لي ، لأنني لم أستطيع الفرار منه ، لن أستطيع الفرار من نفسي . لماذا لا أنسى كما تعودت أن أنسى .. إنني مازلت أذكر يوسف .

قال أنور وهو يقبلني في شفتي .

- إيه رايك في البيت موش حلو

- حلو أوي

- تحبي تعيش فيه

- جنة

تكلمت بلا وعي ، وشربت بلا وعي ، وضغطت ، وبدا لي القبلات . قبلته بنفس القسوة التي يقبلني بها ، لم أعد أحس بحد هذه القسوة كنت أقبله وكاتني ساقطة بقبلاتي واستسلمت له ليقبلني بقبلاته ، وضغط بصدري على صدري حينها في رموشي ، وانفاسه تلسع جفوني ، وتهب على فمي وأنفي ، ما نوع العطر الذي يستعمله ، لم أشمه من قبل . لا وقت للسؤال ، يداه تشدان أحصي ، أنه يلهث وأنا الهث . ارتطمت أنفه بأنفي ، أنه تزلني ، أمسكت بشعره ، جذبته ، إنه يتألم ولكن لا يصرخ . أسنانه تقطع شفتي ، أذنه ترتطم بأنفي ، يده تشد صدري ، الفستان سيتمزق ، دفعت يدي فأمسك بعنقي وضغط بأصابعه عليه يخنقني ، حينها في فمي أسنانه في رقبتي .

أصابني في عيني ، يداه تهبط إلى ذيل الفستان يريد أن ارفعه ، قمت جالسة ، فطوقتي ، حاصرني بذراعيه والصق صدري برأسه ، أنفي ترتطم بكتفه ، يداه تعبت بزيار الفستان ليفكها

هست :

- أنور .. موش ح أقدر ..

- لم يسمعتني .. أمسكت بيده أبعداها عن الزواير ..

- ما تزعش مني .

- قال في لهفة :

- إيه يا حبيبتي ..

- موش النهاردة

- ليه

- مرة ثانية

- موش ممكن ..

- موش ح أقدر .. أنا متضايق زيك كمان .. لكن أعمل إيه ..

- مستحيل ..

- والله العظيم ما أقدر .. ليلة ثانية ..

- بعد ده كله

- والله .. والله ح أجبك بنفسي ..

- وما قتلش ليه من الأول ..

- كفاية نبوس بعض ..

- وتسيبيني كده .

- ما تزعش .. أنا مكسوفة منك .. ضابقتك .

- ما يزه تموتيني ..

- والله العظيم ما أقدر ..

وتركت في تلك الليلة وأنا أسأل ما قيمة الشيء الذي أتقنته منه بعد كل ما فعله بي .

قال وأنا اترك عريته امام بيتنا

- ح اشفوك امتي

قلت - بعد يومين ..

- ان شاء الله تموتي ..

- ما تزعش .. حقه عز .. ح اعرضوها لك ..

- ح اكلمك

- امتي ..

قال غاضباً :

- لما اقضى ..

وانطلق يعريته . قبل أن أصل إلى باب العمارة ..

في الصباح طلبت جريدة الأيام وسألت عن يوسف . سمعت صوته :

- آلو ..

لم أرد عليه ..

- آلو .. آلو ..

واقفلت السكة ..

وأدبرت القمص . وطلبت محمد ناجي في دليلونه الخاص . وجايني

صوته ..

- آلو ..

- أنت فاكركني ..

●●

وتعددت مكالماتي مع محمد ناجي . واستطعت أن أسيطر عليه . وأجعله ينتظرنني في شوق . ويتلفف إلى الحديث معي لفترات طويلة . وكان لا عمل له سوى الحديث معي . وكان إذا دق جرس التليفون الآخر في مكتبتي . يطلب مني أن أنتظر . ويتحدث مع وزراء في السياسة . ويتحدث مع مليونيرات . كان صديقه المليونير شهدي يلشا يتصل به فيعزوني له محمد ناجي الأخبار والنكت والتشبيعات . وكانت سيدات تتصل به وأشعر إنني أستمع إلى فضائح بيرونيها

له . وكان يتصل بالطيعة وبالمحررين الذي ينفقونه الأخبار . الدنيا كلها كانت تتصل به . والأخبار كلها تصرح إليه وهو جالس في مكتبتي . وأنا على الطرف الآخر من تليفونه الخالص الصمت في حصول وأسمع بعض ما يقول ويفوتني الكثير مما يهمس به . فأشعر بأنه يعيش حياة باهرة مثيرة . وأشعر أنه كبير لأنه يهتم بالحديث معي أكثر من اهتمامه بكل هؤلاء الذين يخرفونه .

سألت مرة عن عدد التليفونات التي في مكتبتي فقال بسرعة :

- أربعة ..

ثم عاد وقال :

- خمسة .

فضحكت قائلة :

- أنت موش عارف عدد التليفونات التي في مكتبتي ..

فقال في خجل . وهو أحياناً يخجل بغير مناسبة :

- والله ما عدتهمش أبداً ..

أحياناً كنت أسمعته يتحدث مع يوسف . أسمعته يناديه . أو يطلب منه أن ينشر خبراً عن عيد الوهاب . أو يقول له إن أم كلثوم غاضبة من كلام قرائه في الجريدة . فتتأبني رجفة . وأقامه رغبة مجنونة في أن أقول له إنني أعرف يوسف وأسأله عنه .

كان محمد ناجي قد اقترح بأنني زوجة فاشلة في زواجها . وكنت أخترع له كل يوم خناقة جديدة مع زوجي . فأشكره بقله وغيابه وهيوانيته . وحدث بعد تلك الليلة التي قضيتها في بيت أنور سامي . أن قرأت في جريدة الأيام أن أنور طار إلى بيروت . وأدهشني الخبر . ولكنني تذكرت أنني سألته ليلتها متى سيقتل بي فقال غاضباً : لا أقضى .

بعد أن قرأت الخبر اتصلت بمحمد ناجي ورويت له ما حدث بيبي وبين أنور على أنه وقع بيبي وبين زوجي بالأمس . قلت له إنه وحش ولم أعد أطيق الطريقة التي يحبني بها . كل ما يهمه هو جسدي ببال منه ما يريد ثم يهملني . لا يقول لي كلمة حلوة . الفاظه بدئية جارحة . وإنه عاد بالأمس فطلبت منه أن

تذهب إلى السينما أو تناول عشاءاً في مكان ترقص فيه ، فرفض وأدعى أنه متعب ثم قال لي إنه جائع مائل ، وظننت أنه سينام ، ولكنه هجم علي في قسوة يريد أن يفترسني ، ثم عط في نومه ، وتركتني مذعورة من بشاعته .
استمع إلى ناهتمام ، وسألني عن كل التفاصيل ، كيف قيلني ، ما الذي أحسست به بعده ، نوع قميص النوم الذي كنت أرتديه .. سألني عن كل شيء .. حتى كنت أسى أنني أروي له ما حدث لي مع أنور منذ أيام ، وإنني متروجة فعلاً .

وسألني : - هو حورك أصله أياه ، فلاح ،
قلت : أبدأ

- بآين عليه كان محروم وهو صغير .. عنده كبت ..
قلت متفاهرة بالفضب :

- عمره ما كان محروم .. هو الذي كده ..
- أهو باه ..

فقلت دائرة :

- فلفني من الرجالة ..

ففسحك قائلاً :

- لا .. أنا لازم أدافع عن سمعتنا ..

قلت لأغيبه :

- لو خنته موش ح يكون معاك ..

فصاح :

- ليه باه ..

- كده ..

- رح شختاري مين ..

- شاب صغير

فقال متفعلاً وقد صدقني .

- ح يتصرف معاك يي لمن من حورك . كلهم محرومين ومتوحشين ..

ثم صاح في خوف :

- أوعى تعلمي اللحظة دي .. تنحني ..

قلت متأخرة

- حتى لو كان معاك ؟

- لا .. دي ما تبقاش خيافة ..

- امل يبقى اسمها أياه .

- تبقى علاج نفسي ..

كان مأكراً ، يحاول أن يتمثل إلى بطريقة لبقة ، وكان يصمم على رؤيتي فارادغه ، ولكنني لا أجعله يباس أبدأ ، وكنت أرسم له بخيالي صورة زوج وهو مزيج من أنور سامي وعمي محمود ، استرحت لهذه الصورة ، واسترحت لأن أوجه إليهما شتاتمي وتورتي ، وكنت أنظر إلى عمي محمود بعد أن أفرغ من حديثي مع محمد ناجي فأشعر برغبة في الضحك .. وتعرّبي لحظات سعيدة .
قال لي محمد ناجي ذات مرة :

- أنا لازم أظفوك النهاردة

- أضمضني النهاردة ..

- عايزك ضروري .. ح أقورك فكرة قصة جديدة .. عايز أعرف راك فيها ..

قلت لي لهفة :

- القصة عنى .

- أيوه .

- أنت بتضحك عل

فصاح غامضاً :

- يعني ما فيش منك أي فائدة ..

قلت متراجمة

- أنا خايقة ..

- خايقة من أياه ..

- لوحد شافني داخلة الجرنال وقال لجوزي .

- وبين قال إني ح أشوفك في الجرنال ..

- ح تشويعتي في ..

- بي بيتي ..

- اللي في الزمالك ..

- لا .. عدي بيت ثاني ما حدش بيعرفه .. في شارع ماسيجو ..

ثم أريف قائلاً ببساطة :

- الساعة أربعة كويس ..

- بس ح أقول لجوزي إيه .

فصاح :

- يعني موش ناقص إلا دي موش قادرة عليها .. سنالك ما بتزجكيش ..

ما بتزجكيش للكواخير .. وما بتزوريش واحدة صاحبك ..

- ماتقول لي القصة في التليفون .

صاح في ضيق

- ما ينفعش .. ثم ده سر . موش عايز حد يدخل عنّي وأنا باحكيك ويعرف

إني باستشير حد في قصتي .

- ابقى اسكت لو دخل عليك حد ..

- يأسني ما ينفعش .. احكيك القصة بالقطاعي . تفقد تأثيرها .. ثم أنا

عايز أعرف بعض التفاصيل منك ..

كان الإغراء كبيراً ، تخيلت قصة يكتبها محمد ناجي هني ، ثم أمطها في

السينما ..

لهومت :

- طيب . أنا ح آجي .. الساعة أربعة بالضبط ..

قال في فرح .

- أنا مستنيكي ..

ووصف لي العمارة ، ورقم الشقة .. ساركت المصعد إلى الدور الخامس ،

واتجه إلى اليسار حتى نهاية الممر ، واضغط على زر الشقة ٥٤ .

واسرعت إلى حجرتي ، وأغلقت على الباب . وأما اشعر بسودة في أطرافي ،
كانت تجريتي مع أنور ما زالت تقفز عني ، إنه أنور آخر ، أنور في أسلوب ناعم ،
ولكنه أنور ، إن يتزوجني ، إنه أوشك على الخمسين من عمره ، عجور ، حديثه
عذب ولطيف ، ولكن هل أحتمل أكثر من هذا ، هل أستطيع أن أتركه يقبلني ..
لو علم أنني سلمية سلمى الممثلة .. وأست الروجة التي تخون زوجها . لأن
يصاب بخيبة أمل ، لأن يتهمني بأنني خدعته ، ربما حاربي ، وانتقم مني
لهذا السبب وحده .

تزامنت مشاوتي ، فأسرعت إلى التليفون ، واعتذرت له بأن زوجي رفض
خروجي .. فلم يصدقني ، فحاولت أن أداعبه فقلت له ضاحكة .

- أنت عارف .. الدكتور كتب لي في الروشتة قرص هبتامين ، وحبه مهندنة
للأعصاب قبل النوم . ومكالمتي تليفون معاك واحدة الصبح وواحدة
بالليل .. ويس

قال في ضيق .

- والدكتور العبقري ده ما وصفك لكى إنك تقبليني

- لا .. قائل كلميه ويس .. واستعمليه بحد ..

- ليه .

- قال لو استعملته كنت ح .. آدمك عليك .

فصاح

- وأنا دكتور الأعصاب بتاعي قائل ما تكلمش واحدة ما تعزلهاش ..

قلت في أس :

- خسارة ..

قال بعصبية :

- أوريغوار .

وأغلق سماعة التليفون .

بعد خمس دقائق كتكتك أطلي من حديروا اعتذرله .. ووعدته بأني سأراه قريباً ،
ولكني طلبت منه أن يعملني قليلاً ، استسلم ، واعتذر لي عن غضبه المعاكس ..

وشعرت بأنه فرح كالطفل لما كلمته .. إنه على عكس انور تماماً مهذب ، الفاضله
بائعة رقيقة ، ملجى يريد نفس الشيء الذي يريد انور ، ولكن بأسلوب آخر ،
أسلوب لبق لا يجرح ولا يخش ، كان يشعرني أحياناً بأنني أجرا منه ، وإنه
خجول جداً .

فوجدت صباح يوم ، وأنا اقرأ الحريدة الأيلام ، أن محمد ناجي قد كتب في يومياته
حواراً أرييننا ..

« اتصلت بي تشكو زوجها » قالت

« زوجي حيوان ..

قالت : ليه ؟

قالت :

« يريد قتل زوجي .. ولا يعترف إلا بجسدي .

قالت :

كثيرات لئن لي زوجي يقتل جسدي ، لا يعترف إلا بروحي .

قرأت الحوار بسرعة ، حتى وصلت إلى نهايته ، فوجدته ينصح الزوجة بكلام
فارغ مضحك .. ينصحها بالصبر وبأن تكون عاقلة . ولا ترتكب شيئاً تندم
عليه ..

وكلمته ..

« إيه يا أستاذ اللي أنت كاتبه النهاردة في اليوميات ..

« هيه .. قرينته

ضحكك من قلبي :

« أنا مت على زوجي من الضحك . بقيت أقول أه اللي بيقرأوا يعرفوا الحقيقة ..
حقيقة إيه .

« إنك بصحت الزوجة بأنها تيجي تتعالم عندك .. والا تقرأ لها قصة ..
قصصك :

« بعدين كلهم بيحوا .. ما أقدرش عليهم ..

إنه مغرور مثل انور ، ولكن غروره محتمل ..

وسمعت جرس التليفون يدق في مكتبه ، ثم سمعته يتكلم ..

« الو .. أيوه يا يوسف . طيب نزله المطبعة وبعدين أشوفه .. أنا مشغول
بلوقت ..

ثم صرخ في حده :

« الولاد دما تتزولوش أحار .. أنت شفت الأخير اللي نزله النهاردة عن شهدي

باشا .. أنا ح أرفده .. ح أوييه في داهية .. ده شيعوي .. بلغ عنه المباحث ..

بعدين أبقي فكرتني أبعتك لشهدي باشا تعمل معاه حديث ..

قلت له بعد أن فرغ من الصباح :

« يا سائق .. ده أنت صعب خالص .. إيه الزهيق ده ..

فقال في صوت رقيق كأنه لم يزعق في حياته أبداً :

« حذر دهن نصا بين .. حرامية .. شيعويين .. شهدي باشا صديقي ويتشتم

في جرنالي .. ده محقول ..

قلت ساخرة :

« ولو كنت أنا شيعوية تبلغ عني البوليس ..

قال ضاحكاً :

« لا .. أبقي شيعوي ..

ثم سألني في خوف مفاجئ :

« أنت شيعوية صمبح ..

قلت وقد خفت أنا أيضاً :

« هيه الشيعوية دي تقى إيه ..

« ما تدوشيش دماغك بالحلجات دي ..

فسألتني في برائة :

« ومن يوسف اللي كتب منكلمه

« واحد بيشتغل هنا ..

قلت في غير اكتراث :

« وده معش حرامي كلان ..

قال لحد دلوقتي موش باين عليه ..

قلت ضاحكة

.. بكرة يتعلم ..

وساكنه فجأة :

.. الحب اهم والا الحنان ..

.. حايه اللي خلاكي تسالي السؤال ده .

.. عايزه اعرف ..

.. الحب طبعاً

.. خسارة .

عليه

.. انا ما بدوروش على الحب .. عايزة حنان ..

عليه .. انتي عيانة .. العيانين هم اللي بيفكروا في الحنان .. والا يمكن شكك

يخش ..

.. ياريتني عيانة .. والا وحشة .. والا في حنان ..

فاستدرك قائلاً في حمرة

.. انتي عايزة حنان صحيح

.. ايوه .. بادور عليه موش لاقياه ..

.. تعالى شوقيني .. وانا اديكي كل الحنان اللي انتي عايزاه .

.. ح قديهي لي اناي ..

.. بس تعالى .

.. لا .. موش ح الاقيه عندك ..

.. وكنت ابكي .. وهو لا يدري اني اكاد ابكي ..

قال في حمرة :

.. اسمعي .. صحيح انا نفسي اكتب قصة عنك .. موش ممكن اعرفك اكثر من

كده ..

.. انا دلوقت موش عايزه قصة .. انا عايزة حنان ..

بعد حديثي معه .. حاولت ان اتخلص من رغستي في البكاء .. فبحثت عن جريدة
الايام لاقرأ الخبر المكتوب عن شهدي باشا .. كنت اريد ان اقرأ الشتيمة التي
اثارته .. ولكنني قرأت وقرأت .. وبحثت في كل صفحة وفي كل سطر .. واما اعثر على
شيء .. وكنت اجن .. واخيراً أقدفت بالجريدة يائسة .

وفكرت في الاتصال بيوسف ثم عدلت .. كنت قد سالت عن مرتين .. وفي كل مرة
كان عامل التليفون يسألني عن اسمي فأقول له :

.. قولله واحدة عايزاه ..

فيجيبني في حدة :

.. موش موجود ..

وكنت اعلم انه موجود بالجريدة .. إذ اكون قد سمعت محمد ناجي وهو يتحدث
فيتملكني الغيظ والقسمة الا اتصل به .. والا اراه .. والا افكر فيه .. ثم اعود وأقول
لنفسى إنه معذور .. لأنه لا يعلم اني طلبته واكتشف اني افكر في الاتصال به من
جديد ..

ولكن اعود واتردد .. انا لو قلت اسمي لعامل التليفون .. ثم سمعت نفس
الرجابة .. موش موجود .. عندئذ سأؤكد من أنه لا يريد ان يتحدثني .. وأنه يتهرب
مني .. وهذا شيء فظيع ان أحتمله .

لنا لا اطيع ان يمانعني احد بجفاء .. لا اطيع ان اتصور اني غير مرغوبة ..
او ان احدألا يريدني .. بفضل ان أموت ولا اواجه هذا يوماً .. ماذا يبقى لي لو
اصبحت غير مرغوبة .. لا شيء ..

ويوسف يمثل لي هذا الخطر .. هو الوحيد الذي ينفذني بأن هناك في هذه الدنيا
رجالاً أسيولون في ظهورهم .. ويتجاهلونني .. ولن يفكروا في الاهتمام بي .. وان يقلح
جمالي في السيطرة عليهم .

قلت لدحت ونحن نشرب البيرة في الكوفت حاردين :

.. ما شفتش صاحبك ..

.. صاحبي معي ..

قلت في غيظ لأنه اضطرني إلى ذكر اسمه .

- يوسف

قال في غير اكتراث .

- كل ما أسأل عنه ألقاه مشغول ..

- يجب

- يمكن

- لازم يجب .

قال هارثاً

- كل الناس عندك لازم يتحب ..

قلت في عمار :

- هوه قالني إنه يحب واحدة متجوزة .

- أمتي قال لك .

- وأحنا في النادي ..

قال في دهشة :

- غريبة .. إزاي ما قلبيش .

- أامل صاحبك إزاي ..

قال مدحمت وقد تحولت دهشته إلى حيرة :

- ودي حبها أمتي ..

- من زمان .. من قل ما تتجوز ..

ثم هتقت وقد خيل إلى إني اكتشفت السر

- أه .. أنا عرفت .. لازم حب الخدامة التي اتجوزت أبوه ..

فصاح مدحمت وقد ضاقت عيها :

- والله يمكن .. معقول ..

قلت في ثقة :

- ما غيش غيرها .. هي اسمها كان إيه ..

- مبروك

وانفعل مدحمت بالنيا فقصصا بقية الليل وسحن نؤكد لأنفسنا أن يوسف أحب

مبروك الخادمة التي تزوجها أبوه .. وأصرفنا في شرب البيرة . فزاد انفعالنا بما
تقول وصاح مدحمت فجأة :

- معني كدة إنه بيضونها دلوقت ..

قلت مؤكدة

- ضروري .. وانت موش دريان .. شكلها إيه مبروك ..

قال وقد رجع رأسه إلى الراء محاولاً أن يتذكر :

- بنت جسمها مليان شوية إسماعيل .. حلو قوي .. ولها عنيخ وأصبعين ..

سود .. وكانت حلوة .. ما غيش فيها عيب إلا أيديها ورجليها .

ومطشفتيه قاتل

- كانوا مقشفين .

قلت له في غيظ

- وحضرتك بأه كنت بتحبها .

فضحك في استخفاف وقال :

- ده كان زمان ..

ثم صاح مدافعاً عن نفسه :

- ما أنا قلت لك .. موش فاكدة يوم ما قابلنا يوسف أول مرة ..

قلت في اشمزاز

- وكنت بتستحمل الكشف الذي في أيديها ورجليها إزاي ..

فاختار ثم قال في بلاهة

- الحقيقة .. مبروك دي .. صرعا ما غلطني أحس إنها خدامة .. ولا حتى

عندها قشيب .. تلاقيها عيه نفسها ما كتش حاسة بيه .. كانت دايماً شافية

نفسها .. وزي ما تكون واحدة قريتنا من بعيد ..

قلت سألخرة :

- قرايكم بالشكل ده ..

قال بسرعة .

- لازم تشوف فيها علشان تعرفي اللي اتنا بقوله ..

قلت في حدة

- تغور ، واما اشوف حدة واحدة خدامة لا طلعت ولا تزالت ليه .

وكتت في قرارة نفسي اتعنى ان اراها ، بل كان يضايقني اني اشعر بغيرة

نحوها ..

وعدت إلى التفكير في الاتصال بيوسف . إذ انا لم أرح مع مدحت خلال اليومين

القدامين ، فلأبد أن اتصل به .. أتجاهلني هذا الاحمق ، لأنه يحب خادمة .. لو

كان هذا صحيحاً فأسأله .. سأواجهه بكل ما أعرف .. علشك الخادومات ..

ومضى اليومان ، ولم أرى يوسف وقال لي مدحت إنه سأل أمه عن مبروكه وأين

ذهبت .. وعن صلتها الآن بيوسف ، فقالت له إن مبروكه قد جاءت تزورها في

البيت ، واشكت لها يوسف لأنه لا يعطيها نقوداً ، لها عطلتها جنيهاً وانصرفت .

قلت له :

-وصدقت ..

قال متردداً :

-لو كان يوسف معاهام ملكانتش جت تشمت ..

فصصت هازئة من تفكيره :

-دي حركات بتعملها علشان ما حدش يعرف إنها عايشة معاه ..

وخطر لي أن اكلم محمد ناجي في التليفون وأقول له كل ما أعرفه عن يوسف .

لأومت هذه الرغبة بشدة ، شعرت أنني سأرتكب خطأ ، وجعلت أقتنع نفسي بأن كل

هذا لا يعنيني .. ولا شأن لي بيوسف .. سواء أحب أميرة أو أحب خالمة ..

ورغم ذلك وجدتني أقول لمحمد ناجي كل شيء ..

قلت له :

-موش عرفت حكاية غريبة عن الرجال اللي عندك ..

-رجال مين ..

-اللي موش حرامي ..

-قصديك مين ..

-يوسف ..

-أه .. ماله ..

-واحد تصابحتي قالت لي إنه بيحب خدامة كان متحورها أبوه . ولما أبوه مات

علش معاهما ..

فصاغتني في غير تصديق :

-إيه الكلام ده .. مين اللي قال لك

-واحدة صاحبتني .. والخدامة اسمها مبروكه ..

-موش معقول ..

-طيب اسماله ..

-صاح في استنكار :

-وأسأله إزاي بس ..

قلت بصوت حاد :

-على العموم .. لازم تعرف الناس بتقول إيه ..

لم أشعر بحقارتني يوماً ما .. مثلما شعرت بها ذلك اليوم ، وقلت أمام المرأة في

غرفتي انظري وجهي في غضب ، العن نفسي ، والطم على وجهي في غل ، ولم أتم

ليفتي .. وإلى الصباح لمسكت بالتليفون وسألت عن يوسف ..

سألتني عملي التليفون عن اسمي . فقلت له وأنا اضح أصبعي في فمي ليتغير

صوتي

-مبروكه ..

فصاح العامل

ميا مشي قلت لك ميت مرة إنه موش موجود .

وأغلق السكة في وجهي

إذن فيوسف يقاطع مبروكه . لماذا ما الذي يجعله يقاطعها ويتهرب عنها

يوسف إنسان طيب خجول فلماذا أيرفص الحديث مع زوجة أبيه ؟ لا لسبب

خطر . لأنه يخاصمها . لأنه على علاقة معها ثم تشاجرا .

وظلّت يوسف من جديد وقتلت للعامل .

.. الاستاذ يوسف موجود .. قل له من فضلك .. سامية سامي .

وفي لحظة كان يوسف يهتف في مرح غير عادي .. وحرارة لم أتقها ..

.. أهلا .. أهلا .. أنت فين .. وحشتيني ياسامية ..

مضى أسبوع ، ربما أكثر ، وأنا اتصل بيوسف كل صباح ، وأسمع تلك

الدبرة الحذينة في صوته وهو يهتف في مرح ، ازيك ياسامية ، .. أحببت اسمي

الجديد وهو يناديني به ، واسترحت لصوته ، كان يسلل إلى صدري ،

يهدئني ، يفسلني .. يخدرني .

وكنت بعد أن أكلمه أشعر بالمرارة ، كيف خدعت هذا الصوت

الحنون .. أنا التي تبعت عن أي شيء حنون . أي شر لي نفسي جعلني أقول

لمحمد ناجي عن علاقة يوسف بمبروكة .. أنه لم يعلم .. لم يعلم أنني جرحته ،

وأن الدم يفرز منه وهو لا يدري ..

يجب أن أصنع شيئاً من أجل يوسف ، يجب أن أكفر عن ذنبي ، سأقول

أكلمه وأكلمه حتى تجيء اللحظة التي أشعر فيها بأنني لست شريرة .. لا بد

أن أثبت لعفسي أنني لست شريرة ، لقد فقدت عقلي لأنه لم يهتم بي . ولكن ..

كيف يهتم بي .. ألم يبشر اسمي ، ألم يبشر صورتي ، أكان لابد أن يهتم

بجمالي ، أن يغازلني ، أن يطلب الثمن مثل أنور سامي ، إنه ليس مثل أنور ،

وليس مثل محمد ناجي إنه طيب ، ساذج ، حنون ، إنه يحترمني ، صوته

المرح الحنون ، كلامه المرح الحنون ، يؤكد أن لي إنه يحترمني ، به يعاملني

كما لو كنت شقيقته أو ابنته ..

هذا شيء مصحك .. هل كنت تصور أن هناك رجلاً واحداً في هذه الدنيا يعاملني كما لو كنت شقيقته أو ابنته .. ربما لأنه يحب واحدة غريبة .. لأنه يحب مبروكة .. حرام .. إن طبيته هي التي جعلته يقع في حب خادمة ، سأساعده ، سأنتشله من هذا الحب الحقير ، لا بد أن أخلصه من حبه لمبروكة ..

كنت أحدثه بصوت رقيق ، لم أعد أسخر منه أو اتحده ، بل لم أعد استطيع أن أضحك وأنا أكلّمه .. أصبحت أسمع بطمانيّة غريبة وأنا أسمع صوته ، طمانيّة لا يعكرها شيء ، وأتمنى ألا يعكرها شيء .. وكنت أقول له بصوت خافت حالم :

- أزيك أنت .. عامل إيه .. لازم تخلصك بمالك من نفسك .. علفان خاطري .. كنت فين امبارح .. نمت الساعة كام .. أنت بتشتغل كثير يا يوسف ..

كنت أعيش معه عشردقائق كل يوم ، استسلم بعدها لوخم لذيق ، وأسرح في لا شيء ، وأحياناً أقمض عيني وأكاد أنام .. ثم أنتبه لنفسى فأتسى يوسف ، وأنسى ما كنت فيه ، فأتصل بمحمد ناجي ، وأقابل مدهت وأعود إلى أفكارى وهياتى التي تعودت عليها ..

لم أكن كاذبة فيما أقول ، ولا متصنعة ، كنت أشعر حقيقة أنه يجب أن يستريح ، وأن يحافظ على نفسه ، أقنعت نفسى بأنى مسئولة عنه ..

لم يطلب منى يوسف أن يقابلنى .. لم يطلب منى أى شيء ، وشعرت أنه يفسر اتصالى به برغبته في معرفة أخبار السنيما ، وأخبارى أنا بالذات .. فكان يحدثنى عن الشركة الجديدة للإنتاج بين حلمى كامل وأثور سامى .. وقال لى إنه سمع من حلمى أنه سيكتب معى عقداً لثلاث أفلام ، وأنه ينتظر عودة أثور من بيروت ليأتى لى في البيت ويوقع معى العقد ..

سأنته

- تفكرى ح يدفعولى كام

- ما اعرفش .. إنما لازم ح يصحكوا عليكى ..

- أخص عليك .. ح تسيبهم يصحكوا على ..

قان بصوت جاد

- علفوش .. المهم أنت تطهرى الأول ..

- يعنى أرى باى حاجة ..

- أيوه ..

- أنت مستشار موش فاعم ..

- ماتفكرىش دلوقت في الفلوس

- وأنت ما بتفكرش في الفلوس ..

- أبداً .. أنا بأشتغل

فبيضطروا يزودوا مرتبى ..

- تفكرى أنا ح أبقي ممثلة كبيرة ؟

- طبعاً ..

- وأنت ح تبقى صعلقى كبير ..

- يمكن ..

- احنا الاتنين ح نجبر مع بعض ، موش كده ..

- ففصحك قللاً :

- انت ح تسبقينى ..

قلت محتجة

ليه .. أنت بتشتغل كثير

خيل لى أنه غير طموح ، ربما لأنه يحب خادمة ، إنها لن تفكر في دفعه ، لن تحركه ، إنها ليست مثلى .. تفكرى أن تكون لها فيلاً فخمة وسيارة فخمة .. لو كنت أحبه لجعلته لا يهدأ حتى يصبح أحسن الناس وأغنى الناس ، لجعلته أحسن من مدهت ، وعنده عربة أكبر من عربته ..

كان الأستاذ حلمى كامل قد انقطع عن البيت ، وكانت أمى كلما تذكرته تشتمه وتقول عنه أنه نصاب ، إذ هرب منا بعد أن طالبناه بكتابة العقد ، وحاولت أن أطمئن أمى بعد ما سمعته من يوسف ، ولكنها رفضت أن

تصدقني ، إلى أن اتصل بما الأستاذ حلمي صباح يوم وقال إنه قادم بمعه
العقد .

قلت ليوسف

– أنا ح أمضي للعقد المهادرة .
– مبروك ح انتشرت لك الخبر بكرة ..
– أما خايفة من ماما ..
– ليه
– تتخافن على الفلوس ..
قال ضاحكاً
– خليكها تتحافن .. يتركزن تاخذوي فلوس أكثر ..
– وابن مريضيش الأستاذ حلمي
– أمضي العقد ..
– ولو ماما عندت ..
– تفكركي .. فعميها إن ده في مصلحتك ..
كنت أعترف له إن أمي لا يهمها شيء سوى النقود ، ثم عدلت وأخفيت عنه
قلبي ..

وجاء الأستاذ حلمي ، فجلس يتحدث مع أمي دون أن يلتفتا إلي ، قال إنه
سيدفع مائة جنيه ، فصرخت أمي رافضة ، وبماوته ، وأنا صامت كأمي
بضاعة .. قطعة قماش يتجازيها الشاري والبائع ، وقال حلمي أخيراً بصوت
حاسم خفي له قلبي
– ما أقدرش أدفع أكثر من كده ، دي مبدتة .. لسة حام .. ح تكلفني
كتير .. أما بأجارف معاها ..
فصاحت أمي تتعدها

– يعني احنا اللي موش سحازف ياسي حلمي .. فيه بسيطة لما يقولوا عليها
معتة .. من ح يتجوز بنتي .. أنت بتجازف بفلوسك .. واحنا بتجازف
بسمعتنا ياسي حلمي

فضحك صاخراً وقال :

– هوه فيه حد بيتجوز يا ست نعمات غير المثلث في الأيام دي . سمعتها
إيه .. كفاية الدعاية اللي ح فعلتها لها . دي عايزه دعاية بعشرة آلاف جنيه ..
والخرج شيكاً ومد يده إلى أمي ، فاحتفظت منه ، وبظرت فيه ثم صرخت :
– خمسين جنيه .. دانا أخسرهم في ليلة يا أستاذ ..
ولكنها أخذت الشيك ..
قلت لها بعد انصراف حلمي :
– ماما .. اديني الشيك .. فصوريت لي نظرة حادة وشجعت :
– عايزاه ليه ؟
– الشيك ده بتاعي ..
– أخريسي .
– أنا عايزه فلوسي .
– فلوسك يالتيلة الأدب .. أمشي من قدامي ..
– هائي فلوسي .. وأنا سايبالك البيت ..
– روعي مطرح ما تروحي ومافيش فلوس ..

وجأت إنصاف على صوت صراخنا .. وحاولت أن تهدئي ، فقلت لها وأنا
أبكي : إن أمي سرفتني .. وسمعت صوت عمي محمود يقول معاتبا
– عيب تقولي لما الكلام ده .. فانتجرت فيه :
– أنت مالك .. فيه دي فلوسك .. والا عايز ماما تصرفها عليك .. فأسرع
بالخروج من الحجرة وهو يتمتم في ذلة
– الله يسامحك .. دي أخرة تربيته فيكي ..
فصرخت كالجنونة :

– أنت ماريتقيش .. اللي رمانى ناي .. أنا عايزه أموت زيك يا بابا . أنا
عايزه أموت زيك يا بابا .
كنت محاصرة بعيونهم ، بجشعهم ودمست رأسي في الوسادة أبلها

بدموعي ، وأعجب من ذلك الصوت الذي يهمس في داخلي ، ويلج على أن
أُتصل بيوسف

بعد قليل ، نهضت من السرير وأمسكت بالتليفون وطلبت يوسف .

- ريك ياسامية .. علمتي إيه ؟ ..

- خلاص مضيت العقد ..

- ألف مبروك .. مبسوطة ..

- فيه حاجة مهمة عايزه أقولها لك ..

- إيه ؟

- اسمع .. أنت لاقى ملوكت ؟

- آبره . قول ..

- موش ح أقدر أتكم في التليفون ممكن أشوفك ؟

- آ آ .. طبعاً .. أنا تحت أمرك

أحسست بارتياكه ، ولكني كنت مصعمة على رؤيته ، شعرت أنه الوحيد
الذي ساستريح معه .

- أقدر أشوفك دلوقت ؟ ..

- تيجي لي هنا ..

- أشوفك برة أحسن ..

- لمين ؟ ..

- قول أنت ..

قال متردداً

- في جروبي المغرس ..

- ح أكون هناك بعد ساعة .. في الجنية .. أوعى ملقكتش ..

- ح تلاقيني .. ماتحافيش

- وحدته ينظرني في ركن تحت شجرة بالحديقة ، حدثت فيه وأنا أخطو
بحره ، وكأني أراه لأول مرة . كان يبتسم في خجل ، بدلته تبدو واسعة عليه .

ورباط عنقه قبيح ، لا يعرف كيف يعقده ، وعندما وصلت إليه رأيت كتفه ملوثاً
ببقعة بيضاء سقطت من عصافير يعيش في الشجرة ..

- العصافير وسخت مدلتك .. قاعد ليه هنا ..

فأخرج منديله ، وقد انحط ارتياكه بحاله ، هأخدت منه المبدل ونظفت
كتفه ، كانت شفتاه ترتعشان رعشة حميفة ، وعياده ففتني . حبسا وسط
الحديقة ، بين الناس ، وطلبنا الشاي والجاتوه .. وانتظرت أن يتكلم ، أن
يقول شيئاً ، أن يسألني عن سبب رغبتني في مقابلته ، ولكنه جعل يثقت هوله
في عصبية ، وحيات العرق تبل جبهته ، كان يتململ كأنه غير مستريح إلى
مقعدة ، أو غير مستريح للأناس ، وفتح فمه ، ثم أطلقه ، وفتحته من جديد ، ثم
قال وقد خفض بصره

- أرى مدحت .

- كويس .

وعاد إلى صمته ولقله ، لماذا يسألني عن مدحت . يظن أنني أخون مدحت
لأني أقباله بعده .. أهذا هو ما يفكر فيه .. لماذا أنسى دائماً أنه ساذج ، وأنه
طيب إلى حد البلاءة ..

- ما بتسألنيش ليه عايزه أشوفك ؟

همس :

- مستنى لما أنت تقولي ..

سألته في غيظ

- تفكر عايزه أشوفك ليه ؟

- ما أعرفش ..

- مثاليك إني بيصيص لك .

نظر لي في ذعر وكنت ثائرة ، مازالت خفاقة البيت تلهب رأسي .

- أنا يا قول لك عايزه أشوفك في حاجة مهمة .. تقوم أول حاجة تسألني

عنها .. هي مدحت ..

قال في وجع

- أنت مهمتى علم .

- لا .. أنا مهمتى . وعارفة اللي بتفكر فيه .. أنت ماكرى واحدة بتلعب ..
تخرج مع أى واحد .

كانت عيناها تنوسان إلّا أن اكف عن الكلام ، أن أرحمه ولكنى مضيت
أتكلم بلا وعى ، وقد فقدت سيطرتى على نفسى
- أنت موش فاهم إيه اللي بينى وبين مدحت .. دى موضوع صداقة ..
مفيش بينا حاجة أبداً هوه أقل لك حاجة غير كده ؟
ههس :

- لا

- إذا كان قال لك حاجة تانية يبقى كذاب .. وموش ح شوفه بعد كده
أبداً ..

هز رأسه . ثم ثبت عينيه فى وجهى . وشعرت أن شيئاً مفاجئاً قد طرأ
عليه ، كان متماسكاً يشع من عينيه حنان جارف ، وسألتى بصوت خفيض
ولكنه مله بالثقة :

- أنت مالك .. فيه حاجة مزعلاكى ؟
كثت أوتى عليه ، ولهكى على صدره أمام الناس ، لقد احس بى ، فهمنى
استطاع أن ينفذ وراء ثورتى وكلامى اللغضب ، وواجهنى بالحنان الذى يشع
من عينيه ..

- أنا متأصفة بإيوسف .. قلت لك كلام سفيف ..

- ولا يهكم ..

- أنا متلخطة ..

- قرابلى إيه اللي حصل ..

ماذا أقول له ، إن شجارى مع أسى لا معنى له الآن ، لم أعد أفكر فى
النقود ، لا أريد نقوداً ، يكفينى هذا الحنان الذى يشع من عينيه ، لو كان كل
الناس مثل يوسف ، لاسترحمت .. أنا أشعر بالراحة الآن ، وأشعر بالخجل ..

- كنت عايزه أعرف رأيك . اشتغل فى السيمينما والا مااشتغلش ؟
ضحك

- انت غريبة .. بتفكرى بعد ما مضيتى العقد ..

ثم قال بسرعة وعلى وجهه علامات الجهد

- لكن أنا فاهم كويس شعورك .. ده نفس اللى حصلنى يوم ما تعينت فى
الأيام ..

وانحنى بجسمه على المضادة التى تقصل بيننا ، وشبك أصابعه ، ودبت
لو كانت يدي بين يديه .. وقال :

- الواحد وهو مره بيحلم .. بيتخيل حجات كثيرة .. لكن أول ما يدخل
الشغل .. خلاص .. مفيش أحلام .. هيه شغل ويس ..

- السيمينما موش رى الصحافة .

- كله شغل ..

- معتدكوش واحد رى أنور سامى ..

نظر إلّا فى غير فهم .. كنت قد قررت أن أحكى له ما حدث بينى وبين أنور ،
لن أروى له كل التفاصيل .. سأكتفى بأن أقول له إنه يطاردنى ، وإنى خائفة
منه ، ولهذا جئت لاسئدره ، ولأعرف رأيه هل أستموى على أم أرفضه ..
- أنا عايزه أقول لك حاجة بس أوعى تقولها لحد ..

أطرق برأسه موافقاً .

- أحلف أنك موش ح تجيب السيرة دى تانى على لسانك ..

قالت عيناها إنه يقسم ..

قال فى رقة بالغة :

- متقولايش إن كنت خايفة منى .

- لا .. أنا واثقة فيك

وقلت له إن أنور كلمنى فى التليفون قبل سفره إلى بيروت ، وغارزنى ، وقال
إن مستقبلنى فى السيمينما بيده ، لو استسلمت لسيفهمنى ، لو رفضت سيفضى
عنى .

- قلتيله إيه ؟

- شتمته

فلمعت عيباه ، وزمر هواه كان يحسنه في صدره .

- لكن أنا حايلة .. تفكر بعمل حاجة ؟

- ما تخافيش

- ده شريك الأستاذ حلمي .. قطب جيبته ، وقال غاضبا :

- فيه ألف منتج و... غيره ..

- لكن أنا مضيت معاهم عتد ..

وخيل لئ أن هذه المشكلة لم اخترعها ، شعرت انها مشكلتي الحقيقية ،

هي التي كان يجب علي أن أكرفها ، وأخاف منها ، واستشيرته في حلها

كيف لم أكرل كل هذا حتى الآن .. كيف لا أدرك الخطر الذي أنا فيه ، إذ

عندما أبحث عن كذبة .. اخترعت كذبة بها حقيقة ..

- اسمعي .. لو حصل منه أي حاجة قوليلي .. أنا ح أعرف أسكتته .

- ح تعمل إيه ؟

- ح أصعل أي حاجة .. لكن تأكدي أنني ح أسكتته ..

- هو ح يرجع من بيروت أمي ؟

لقال في دهشة

- أنور .. أنور في مصر من أول أمبارج ..

شعرت بخوف مفاجيء ، كان أنور سامعني ، وسيأتي ليضحك في

وقاحة .. ويصيح بأعلا صوته أنني أكذب . لقد وعدت أنور أن أعود إليه ،

وربما كان يتحمل بي الآن في البيت ، يطالبني بما وعدته به .. هل أستطيع أن

أقاومه ، هل يستطيع يوسف أن ينفذني منه ، أنا خاتمة من نفسي ، ماذا بي ،

كأنني لست أما ، أنا لست سامية التي قابلت أنور ونهبت معه إلى شقته . أنا

سامية ثانية ، حائرة خائفة ، ولكني أشعر بالحنان .

- أبا ماضية بقي ..

- مدري ..

قلها في أسي .

- موش ح أقدر أنتخر .. لو صمم علي بقائي هسأقي ، نتعشى معا

ونذهب إلى السينما ، وأمشي معا في الشوارع .. أريد أن أمشي معا في

الشوارع .. لا أريد أن أعود إلى البيت وأسمع صوت أنور في التليفون ..

- أنا كمان ورايا شغل ..

لا قائدة .. سيتركي .. إنه ينظر في ساعته وين .. الجرسون .. بعد قليل

سأعود سامية الأولى .. هه .. أحدث ..

- ح تسهر فين بالليل ؟

في الجرنال ..

- بدمك .

- والله صحيح .

- موش رايح هنا ولا هنا ..

- ياريت .

- والست المتجوزة ..

- مين ؟

- اللي بتسبها ..

- انتي لسه فاكدة

- يعني انت اللي تسبتيها

- انتي اللي بتفكريني بيها .

- يا شيخ . بص في عنيني ما تكذبش . يعني خلاص ما بتحبهاش

- دلوقت لا .

أيعني ما يقول .. أفهمت ما يقول .. أم فهمت ما أريد أن أفهمه .. أممكن

هذا .. أريد أن يقول لي إني اتسبته حمة ..

- قصصك إيه ؟

فاحمر وجهه ، وخفض بصره ، يريد أن يزوغ من الإحانة ، فالححت

عليه .

- صحيح مصدق إيه .. يعنى إيه ما بتحبهاش دلوقت ؟

قال مبهوت من سؤال

- ولا حاجة . ما نقتش نأصلي فكرهيا .

ضايقتني إجابته ، وبهتسا خارجين .. مملاني وهو يودعني

- ح تعمل إيه دلوقت ؟

- ح أعمل إيه . ولا حاجة .. ح أعمل سامية .

واندفعت مبتعدة عنه ..

في صباح كلمته في التليفون

- قوي لي .. الكرافة اللي انت لابسها لوئها إيه ؟

- بتسالي ليه ؟

- بس قول لي .

- لوئها رمادي منقط بأبيض .

- والبذلة ؟

- ماله

- لوئها إيه ؟

- رمادي ..

- اوعى تكون البذلة اللي كنت لابسها أمبارح ..

- أيوه هيه .

- اعوذ بالله .. ارميها .. دي واسعة عليك ومبهتله .. انت مين اللي

بيثقلك كرافتك ؟

- مفيش حد .. أنا .

- دلوقت موش عاجمني .. تسمح لي أبقي أختارك كرهاتك . هد يليس

كرافته رمادي عي بدله رمادي

- أنا باليس اللي بتطلع في ابدي

- لا .. أنا مالحيش الراحل اللي موش شبع ..

- هو أنا ح أمثل في السينما .

- لا .. لازم تبقى شبع .. انت شكاك حلو ..

- أشكرك ..

- والله صحيح .. ممكن تبقى أشبع من كده بكثير .. هي اللي كنت بتحدها

ذوقها إيه .. مافلتكش ازاي تليس .

- مافلتكش بيها .. كانت بتشوفني أليس أي حاجة ..

- طبعاً .. موش ..

ووقت الكلمة في حلقى .. كنت أقول له « موش خدمة » .. باللمصيبة ،

يجب أن تكون أكثر حذراً في الكلام .

- موش إيه ؟ ..

- بلدي .

- أبداً .. دي من عيه ..

- كذاب .

- والله بنت ناس أغصا ..

- بلاش نضب .. بس بس .. أنا مالحيش أسمعك بكذب ..

أنا اللي تكذب .. كنت سعيدة لأنه يكذب ، لأنه يدعي أن مبروكة بنت

ناس .. إنه يمشي منها .. سأعلمه كيف يمشي منها .. سأعلمه كيف يمشي

منها أكثر وأكثر ..



- أنتي شفتي يوسف أمشي ..

- من يومين ..

- ومفقتكش ليه .

- لازم أقول لك كل حاجة .. كنت عاجزاه في شغل .

- شغل إيه ..

- السينما ..

كان مدحت يستجوبني ، وقد بدا عليه الضيق ، وأمثلا صوته بالشك

والروية ، صوبت إلى نظرات سريعة غاضبة ، ثم التفت إلى الطريق .. وتقدم

..

- ٣٠٥ -

بالعربة في سماء ، باحثا عن منطقة مظلمة في الشارع لتلقف فيها .

- كنتم ستكلموا في الشغل والا في حاجة ثانية .

أطلقت ضحكة عالية ساخرة

- لا والسي إيه .. أبوه كنا بتكلم في حاجة ثانية ..

وقعت العربة تحت شجرة كثيفة بالقرب منها بوابة من أغصان الشجر

توصى إلى سلم حجري ترسو في أسفله عوامة مهجورة . كانت الرطوبة ثقيلة ،

تكتم أنفاسي ، والحر جهنم ، والثلل يهزق روحي ..

رحبت بالشجار الذي سينشب بيني وبين مدحت ، إنه أفضل من أن أتركه

يقبلني ويعذبني يلعب أنفاسه .. ويلوئي بعرقه ..

- عي العموم هوه قابل

ونكس رأسه ، ونقر بأصابعه في عصبية على عجلة القيادة . إنه يتكلم في

ضعف وتردد على غير عادته .. ماذا قال له يوسف .. أقص عليه حكاية أنور ..

مستحيل

- فالك إيه باه ..

راح عينييه في بطه وحولهما بعيدا ..

- موش عيب تروحي تقولينه كلام زي ده ..

أيقنت أنه يعني حكاية أنور . انهيار يوسف أمامي .. إنه طفل ، عيل

كيف وثقت به .. وشعرت بحزن يجتاحني .. لقد فقدت يوسف .. وسمعت

مدحت وقد راح صوته :

- أنت فلكره إنك ح تخرجيني .

- أحرلك

قال في عصبية :

- فاكدة إني ح اتجوزك بالطريقة دي .

- اتجوزك .. أنت متقول إيه .

وإذا ما يقول لي إن يوسف طلب أن يقابله ، وسأله إذا كان يحبني ونصحني

بأن يتزوجني ..

- كان بيكلمني زي ما يكون وهي عليكى .. أبوكى .. وعرفت منه إنكم

اتقابلتم في جروبى المغربى ، قهمت في الحال إيه اللي حصل .

صرخت مدافعة عن كرامتى :

- أنا مقلتلوش حاجة .. ما اتكلمناش إلا في السينما والشغل

قال وعلى شفتيه ابتسامة تكذبني وتتحداني

- اسمعيني كويس .. الطريق دي موش ح تنفع .. جواز بالقوة معيش ..

كدت أبكي من الغضب .

- هوه . أنا مجنونة اتجوزك ..

- يعني هو أنا مجنون اللي اتجوزك ..

لا أدري ماذا قلت له بعد ذلك ، ولكني واثقة أنني لم أترك سبأاً واحداً لم

أصفه به ، وطلبت منه أن يعود بي فوراً إلى البيت ..

ونحن في طريقنا إلى البيت .. لمحت دكان سجاثر ، فأمرته أن يقف ..

وطلبت منه أن يتصل من الدكان بيوسف .. لأواجهه أمامه .. فتردد ، ولكني

صممت ، كنت أريد أن أرى يوسف ، أريد أن أراه الآن في الحال .. إني في

حاجة إليه .

وهبطت مع مدحت ، وأدبرت قمرس التليفون بنفسى ..

- والله الأستاذ يوسف موش موجود يا مودموازيل سامية ..

كلن حامل التليفون قد أصبح صهيلى ويناديني باسمى ..

- ما تعرفش راح فين ..

- هوه خرج مع ناجي بك .. سألت في الحاج :

- وولها فين ؟

- بما أعرفش والله ..

كدت على استعداد لأن أذهب إليه في أى مكان ، أقتحم عليه أى جلسة .

حتى ولو كان مع صمد ناجي أو رئيس الوزراء .. أو الملك .. كنت أريده ..

أريده بأي ثمن .

قلت لمحت وأنا اعادر عريته :

- الحمد لله الى حد على كده .
- انا متأسف يا بهية
- خلاص . معيش داعمى للأسف
- ح اكلمك مكره .
- اوعى تتكلم

- ما تزعليش أنا علطان . تعالى هنا .. رايحه فين ..

- أنا موش عايزه أشوفك .. ولا عايزه أشوف يوسف .. ولا عايزه أشوف حد في الدنيا دى كلها

وجريت إلى داخل العمارة .. لحق بى البواب عند المصعد وقدم لي ورقة ..
فبدأ سألني إلى استديو مصر ومي فستان سواريه أسود في الساعة الحادية عشرة صباحاً .

قلت تلمي وأنا اسمع الأستاذ حلمي يهدثني في انفعال عن مشروعه الكبير ،
سيساهم مع شركة إيطالية في إنتاج سينمائي مشترك ، فيلم بالألوان ستمثل فيه سيلفانا مانجانو مع أنور سامي ، وقال إنه يرشحني لأن أمثل دور فاطمة في الفيلم ، نور كبير سيشهرني في العالم ، وميسورني اليوم بالألوان ويرسل للفيلم إلى روما لتجهيزه ، وأبصر المخرج صورتني ..

لم أصدق أذننى وهو يقول :

- أنا متأكد أنه ح يوافق عليكى .

شعرت برأس يتفشم ، ودقات قلبي تشد ، والدنيا تسع وتدور من حولي ، وتذكرت بولاندا والسنيروا جراتيسيا وماركو ، كائن القنع نفسى باني على صلة بإيطاليا ، وأن المخرج الإيطالي سيحبني ، كما لمحونى هم .. أصبحت قلقة ، وتعميت لو أغضض عيني وأفتحمها فأجد أن كل شيء قد تم ، جاءت سيلفانا مانجانو ومثلنا الفيلم ، وأنا أحضر حفل الافتتاح في روما ، والناس تصطف لي ، وصحف إيطاليا تكتب عني ، وتنتشر صورتى ..

ولكن .. كل على أن انتظر وكل دقيقة تمر تزيد من قلبي ، كان البلاط مشغولا بتصوير فيلم لأنور سامي ، فكرت في أن أذهب وأتفرج عليه وهو

يمتل ، ولكنى تردت ، خفت أن يثن أنى قادمة من أجله . ولكن الوقت طال فلم أصبر وبخلت .. رأيته يقف وسط البلاطه يهضح بصوت عال ويلوح بيديه ويغناه تشعنا بذلك البريق الوقح المقتحم ، الذى يخيفنى .
رأنى أنور ، فوافقت متسكرة مكاسى ، لا أحد في نفسى الشجاعة لأخطو نحوه ، نظرت إليه بوجه جامد ولقب يرتعد ، أما هو فقد حو عيني بعيداً عني ، وكأنه لا يعرفنى ، عجبت لتصرفه ، أيقون قد نسيى أم هو غاضب منى .. على أية حال لقد نجوت منه ..

بعد قليل نادونى إلى حجرة الماكياج حيث أسلمت وجهى للماكير بلطفه بالمساحيق والألوان ، وأنا أحتج وأقول له إن شكى أصبح كالعفريتة ، فيطالبنى بالسكوت لانى جاهلة لا ألهف في الماكياج أساعص بالتصوير الملون .
وفتح الباب وظهر مرس مساعد الأستاذ حلمي ، وقال لي وعلى وجهه ابتسامة أكدت لي إن شكلى كالعفريتة :

- الأستاذ أنور عايزك في أوبست .

انتفضت ، وهرب الدم من جسمى .. قلت لي وجوم .

- أنا بأعمل ماكياج ..

قال في حدة :

- ده مستحيل .. فوتى عليه دلوقت . ويعددين تكمل .. نظرت إلى الماكير

استجده به ، فقال في برود :

- روى شوقى عايز إيه ..

- أروح بالشكل ده .

فوزكتفه كأنه يقول إنه غير مسئول عن تأخيرى في تلبية رغبة أنور .. فكرت في أن أخرج من الحجرة وأفر من الأستاذير ، وليكن ما يكون .. ولكن لماذا أنا خائفة ، سأواجه بصراحة ، إنى أعرف كيف أدايع من نفسى .

كان أنور يريد مستلقياً على ظهره فوق كنبه ، وفي يده مجلة نشرت صورته بالألوان في صفحة كاملة ، لم يتحرك من مكانه ، وهتف وسيجارة لم يشعلها ، تهنئين شفتيه .

— إزاي ما بتسلميش عليّ .

— شفتك مشغول .

— إيه . ما وحشتكيش ..

أطراقت براسي ، فصحك وقال :

— أما شكلك مسخرة ..

— بأعمل ماكياج علشان فيلم بالاكوان ..

قال في برود .

— تعالي أقعدى ..

وأشار بيده المسكة بالجلّة إلى الكنبّة التي يرقع عليها ، ترددت ، فصاح

— أقعدى ..

جلست ، فالتصقت بصدري ، فنظر إلى وجهي وهو يبتسم وقال في تراخ

— أعمل حسابك على الليلة دى .

عدت إلى التفكير في القيام ، والخروج من الاستديو ، وسمعت يهمس ويده

تعبث بضميرى :

— انت وحشتينى يابنت الإيه ..

قلت بصعوبة ..

— الليلة دى مش فاضية ..

كنت أسمع وكان شيئاً يكتم أنفاسي ، وددت لو أبتسم ، أو أتكلم في مرج ،

كعادتي ، ولكنني عجزت ، صدري متلبّس ، وحزن طاع يخيم عليّ ..

— اسمعى يابنت .. أنت ح ترجعى للإسطوانة إياها ..

— أسطوانة إيه ..

فقدّم بالجلّة على الأرض ، وبرزت حينها من مجريهما ، وخيل لي أنه

سيطبق عليّ ويخمد أنفاسي ، نظرت إليه في بلبلة ، وكان قد جلس .. وقال

وعينا مثبتتان على عيني :

— اسمعى يا ضالطة .. خلتنا كويسين مع بعض .. بلاش تعكننى مزاجى ..

قلت وكأنني في كابوس أحامد للخلاص منه :

— احنا ملقيش بينا أى حاجة .. قال وقد اتسعت عيناه من الدهشة

— كده ..

ثم صرخ ..

— احنا موش متفقين يابنت .. عايزه تصحكي على أبور سامى .. قلت في

تحد ..

— احنا متفقناش على حاجة .. فشتمنى شتيمه بديتة ..

قلت غاضبة

— أرجوك ماتشتمنيش ..

فصاح

— بصراحة أن ماجيتيش الليلة دى معايا .. ما فيش سينما .. ما فيش تصوير

بالألوان .. ما فيش حاجة خالص ..

— كتر خسرنا .. أنا موش عايزه حاجة .

قال في غير تصديق

— إيه .. أنا موش عاجبك .

فسكت ..

— والا عايزه فلوس ..

وانهرت الدموع من عيني ، فقام مغزوعاً ، ووقف وسط الحجرة ، وصاح

في دهشة :

— انت بتعيطى ليه ..

— أنا همري ما سمعت كلام زى ده ..

— أنا متأسف .. ما كنتش أعرف إنى لازم أكلّمك بحساب . بالاتيكيث ..

يا حضرة البرنميسة ..

قلت في حدة واليكاء يمزقنى :

— ماتتريش عليّ ..

صاح ساخراً :

— إن كنتي فاكده إنى ابن ذوات تبقى غلطانه .. انا ابن كلب .. انمرغت في

التر .. أكلت رطب .. مشيت حافى .. لمست جزمة مقطوعة .. كنت بأشحت
مص ريل .. كنت بأرغ من الكمسارى فى القرمائى .. كنت بأمشى من شبرا
للأوبرا .. الدنيا علمنى ، موحش مدارس ، بأغالب يامفلوب يافاقتل
يامقتول .. ما أعرفش أتكلم زى أولاد الفوات .. أمثل زيهم بس .. أنا أشتت
أحدع واحد .. بأشتت أمى .. فامعه دى .. موش عايزانى اشتك يايت
معات .. عايزانى أف لما تدجل .. وأسحنى وأبوس إيدك ..

كان يتكلم فى مرارة تحولت سريعاً إلى هياج وثورة .. يصرخ :

أنت مين .. تبقى إيه .. هتة كومبارس بتشتغل عندي .. يعنى أعمل فيكى
ابن عديز أعله .. أنا أندرسامى .. أنا معايا ميت ألف جنيه فى البنك .. ميت
ألف جنيه .. يعنى اشتريكى .. أنت وأمك .. وميه زيك وزى أمك ..

فتيح الباب ، ورأيت وجهها تطل علينا ، فأخفيت وجهى بين يدي ، وسمعت
يصرخ

— عايزين إيه ..

— صاح أكثر من صوت

— ولا حاجة يااستاذ ..

قال ضاحكاً :

— يتخاف مع البنت بتاعنى .. موش راضية تسهر معايا الليلة .. عايزانى
أركع فداسها وأبوس إيدها .. واكلمها بالفرنسارى .. حضرتها بنت ذوات ..
وسمعت أكثر من ضحكة .. ثم صرخ :

— غوروا من وشى ..

وسمعت صوت الباب يفلق علينا ..

مرت لحظة صمت ، ثم ضحك فى عصبية

— أنت أصلك عشيمة .. عمرك ما ح تبقى ممثلة كويسة .. طول ما أنت
مكتفة نفسك

كانت أصابعى تصفط على عيني ، كأنى أريد أن أفقأهما ، لا أريد أن
أراه ، أريد أن أموت .. أريد أن تبتلعنى الأرض ، وأرتجفت .. كلنت يده تريت

على كتفى

— أنت بوظنى الماكياج .. قومي روجى صاحبه ..

بقيت جامدة مكثى ، كأنى لا أسمع .. فحذبت يدي بعمدا عن وجهى ،
وشدنى .. ففتحت منبركة القوى .. أشعر بدوخة ، وأمك بكفى ، ورفع
راسى ، وقبلى فى جبهتى قائلاً بصوت رقيق

— خلاص ح أشوفك الليلة ..

رأيت من خلال دعوى ابتسامة بشعة تكشف عن أسنانه البيضاء ،
أطرفت براسى ولم أقل شيئاً ..

— ح ألفت عليكى تسعة ومين .. زى المرة التى فانت ..

فهمت

— أعمل معروف .. مانفوتش

قال فى دهشة

— لسه برضه دماغك ناشفه .. ده موش ح يلديك فى حاجة .. أعقل

تركته ، وعدت ذاهلة إلى حجرة الماكياج ، وبعد أن انتهى تصوير الفيلم

اللون ، انتحى بين الأستاذ حلمى جانبا وسألنى فى قلق

— أنتى عملتى إيه مع أنور ..

لم أجب ،

فهمس

— ده زعلان منك ..

قلت والرغبة فى البكاء تعادبنى :

— هوه الذى زعلان منى .. أمال أنا أقول إيه ..

قال بصوت جاد :

— أنتى نفسية اته شمريكى ..

قلت يائسة :

— أنت عارف هو عايز منى إيه

فقال فى بره :

— حديه عن اد عقله . ده مجنون وضحك ..
— ما اقدرش .
فقار في ضيق
— انتوح تحيروى معاكم .
— يعنى برضيك
قال مقاطعاً وكأنه يلومنى
— ما أنت رحتى شقته قبل كده .
همست في ذعر
— مين اللى قالك ..
قال وابتهامة خبيثة ترسم على وجهه ، وعينه تلمعان ببريق ماطر :

— هوه ..
شعرت بانهيأرتام ، وفقدت قدرتى على الكلام او التفكير ، لا فائدة .. لن
أستطيع مقاومة أنور .. لا أهد يريد الوقوف بهجانى .. لا أهد
عدت إلى البيت ، ورأس يلى ، وفكرت في يوسف ، هو الوحيد الذى يمكننى
أن أطمئن إليه ، ولكنى لا أستطيع أن أقول له ما حدث .. كل ما اتناه الآن هو
الآ يصله كلام أنور ، ألا يعرف ما حدث بيننا في الاستديو ، ألا يسمع ما قاله
أنور لكل الناس ..
ماذا أفعل ..

كنت يائسة ، مضبوقة ، مضطهدة .. ماذا جرى لي ، ما الذى يلزمنى من
أنور كل هذا الفزع ، لماذا لا أسأله ، وأستفيد من ورائه ، ألم يكن هذا هو ما
أفكر فيه أول الأمر

ولكنى عدت إلى التفكير في يوسف .. هو الوحيد الذى أجد عنده الجنان ..
ياربى .. ماذا سى .. هل أحببت يوسف .
لم أطق أفكارى ، فكلمت محمد ناصى ..
— اريك يا أستاذ .
وقبل أن يرد عى ، كنت أبكى .

— إيه . مالك .. بتعطى ليه .
اشتد نحيبى ، وهو يحاول أن يهدتنى ..
— موش معقول تعملى كده . ما فيش حاجة في الدنيا تستحق المعاملة كله .
كان في صوته مزيج من التأثر والانتزعاج والفصول
— لانا كذبت عليك .
— إزاي .
— أنا موش متجورة
— هيه ..
— زعلت منى ..
— ح أزعل ليه ..
— صحيح .. لو عى تزعل منى ، أنا ح أقولك كل حاجة . مالمش في الدنيا
صديق غريك .
— أطمئننى .. بس هدى نفسك أنا مش مستعمل اسمك بتعطى .
— أنا ح أقولك أنا مين .. عثمان تنقلنى ..
— انتذك .. ليه .. إيه اللى حصل ..
— أنا خايبة تزعل ..
قال وقد ثار غضبه
— ح أزعل ليه .. بس قولى ..
— يمكن ماتفكرتنيش . لكن اسمى وصورتى انتشروا عندك في الجرائل ..
— كده .. امشى ..
— اسمى سامية سامى ..
هتف في دهشة :
— أه .. طبعاً فأكرك .. دا أنت حاتوة قوى .. حتى لما شفت صورتك قلت إن
ده وجه جديد مفيش عندما زيه في الصميما . اريك ياسامية .. ولية خبيتى
عنى المدة دى كلها .
وحكيت له ما حدث بينى وبين أنور ..

— كان لازم يحصل كده .. هو انتِ ماتعرفيش انور .. ده مجنون .
— الاستاذ حلمي قال كده برضه لكن عايزني اساييره ..
— وانت رايك ايه ..

— اموت احسن

قال في بساطة كأن لا مشكلة هناك :

— يبقى ماتعرفيش معاه .. ولا تسأل فيه ..
— ولو عاكسني .. وسوا سمعتي .. ح يبهلني ..

قال ضاحكا

— خلاص .. اعتبري المسألة منتهية ..

— إزاي ..

— مالكيش دعوة .. سيهاتي ..

— ح تعمل ايه .

— اطمنني ويس ..

— لا .. والنبي انا عايزه اعرف ح تعمل ايه .

— انا ليه طريقي ..

— وسالني فجأة .

— قول لي بصراحة .. أنت بتحبي . مش كده

.. قلت وأنا افكر في يوسف :

— ايوه

قال ضاحكا

— يابخته ماليش حظ

قلت بسرعة

— وباحبك امت كمان

فصاح

— أوعي تكوّن بتحبّه زينة .. من بعيد لبعيد ..

— حاجة زى كده ..

قال ساخرا :

— صحيح انتِ لسه صغيرة ..

فوجدت بيوسف يتصل بي قبل أن أتصل به في الصباح : لم يعدني أن يكون هو الياقوت ، بالسؤال عني ، وقابلته في جروبي ، جاء متأخرا عن مواعده ربيع ساعة ، واعتبرني بأنه كان عد شهدي ماشا فعمله ، كنت أتوقع أن يحدثني عن شجاري مع مدحت ، ولكنه لم يذكر لي شيئا ، وظل يثرثر في كلام عادي ، ثم دعاني للخداء معه فوافقته في الحال ، فرحت لأنني سأقضي بضع ساعات معه ، وتمنيت أن يكون قد تخلص أخيرا من ضججه وبدأ يحس بصد اقتنا .. وقلت لنفسى ربما هو يعلم بما حدث بيني وبين مدحت ، وراض عن خصامنا إذن لن يجد حرجا الآن في الخروج معي ، وأعجبني هذا التفسير لتصرفاته .. إذ أشعرني أنه يريدني ، وأنه دبر خطة ليقطع علاقتي بمدحت ، وأنه أذكى مما أتصور ، ويريدني على عكس ما كنت أظنهم ..

قلت لنفسى ، لن أنكر له شيئا عن مدحت الآن ، سأنتظر حتى تتوطد علاقتنا ، ويقلبنى ، عندئذ سأسأله عما قال لمدحت سرنا في الشارع جنبنا إلى جنب . وقال لي خجل .. ونحن نسير مفتقر الطريق :

— أنا متأسف .. معنديش هوية ..

أيقنت أنه يفكر في مدحت .. فقلت في حرارة لأشجعه .

— اخص عليك .. أنت فاكركي ايه .. يعني فوه أنا اللي هندي عربية .. ووقفت معه أمام عدة فتريات : أشير له إلى الكرافت التي تعجبني وأختار له قمصانا وأقمشة لبدله ، وأقول له

— لما يبقى عندك فلوس اتقى قوللي .. ومدزل نشترتهم سوا ..

ودخلنا مطعما صغيرا في شارع شريف ، كنت سعيدة بنظرات الزبائن لنا ، إذ ظنوا أننا عاشقين ، وبعد أن قرعنا من الطعام ، أخرج يوسف سيحارا

ضخماً وشرع في تدخينه

وكان واضحاً أنه يدخن السيجار لأول مرة ، إذ سعل بشدة حتى احمرت عيناه ، وضحك قائلاً

— شهدي باشا أدهولي ، عمري مائتت سيجار قبل كده .

ضحكت ، وسألته بغير تفكير .

— هو له رعلان من الخبر التي نشرته ..

وندعت على مائت ، إني أعرف هذا من محمد ناجي ، ونظر إلى يوسف متفريسا في وجهي وسألني :

— وإيه التي عرفك ..

قلت في ارتباك .

— كان عندنا أمبارح ضيوف بيتكموا في الحكاية دي ..

— قالوا إيه ..

— قالوا إزاي محمد ناجي يشتم صاحب في الجرنال بتاعه .

وكانت عيناه تقولان إنه لا يصدقني وسألني

— أنت قريتي الخبر .

قلت بسرعة :

— أيوه ..

فابتسم ابتسامة غريبة ، وسكت ثم نادى الجرسون ودفن له الحساب وخرجنا إلى الشارع .. وسألني

— عايزه تروحي دلوقتي ؟

— أنت ح تعمل إيه ..

— ولا حاجة ..

ابتسمت قائلة ..

— وأما كمان ..

— طيب تروح في

— زى ما أنت عايز ..

التفت إلى في حدة ، وسألني بصوته يرتعش من الانفعال :

— إيه رأيك تيجي عندي ؟

تظاهرت بأني أفكر ، ثم قلت في هدوء :

— وإيه يعني معنديش مانع .

كان في قمة انفعال ، وقد انتشرت حبات العرق على جبينه ، ودار حول نفسه

زائغ البصر ..

— بتعمل إيه ..

— بانور على تاكسي ..

احسست وكأنه في مأزق ، كأنه كان يتمنى أن أرفض الذهاب معه إلى

بيته .. وسألته

— هو فيه حد عندك في البيت ؟

قال بصوته المنهج :

— لا ..

قلت وأما اتخذه مظهرأ جاداً ..

— أنت ح تكون عاقل . أنا واثقة بك ..

قال في حدة

— طبعاً ..

وعثرنا على تاكسي ، وركبناه . وسمعتة يقول للسائق

— شارع ماسبيو يا السطى ..

أنها نفس العمارة ، نعم ، نفس العمارة التي وصفها لي محمد ناجي ، لم يبق إلا أن نصل إلى الدور الخامس ونتجه إلى اليسار حتى نهاية الممر لنجد الشقة ٥٤ ، إنني أتذكر بدقة كل كلمة قالها محمد ناجي وصعدنا إلى الدور الخامس ، وانجرفنا إلى اليسار حتى نهاية الممر .. وقف يوسف أمام باب عليه رقمان معدنيان بارزان يؤكدان أن هذه الشقة هي ٥٤ ، شقة محمد ناجي التي أراد أن يقابلني فيها

أخرج يوسف مفتاحاً صغيراً من جيبه وأداره في القفل ، قلت لنفسى أول هدية سأشتريها له ستكون سلسلة مفاتيح ، شعرت أنى قادمة على مفامرة ، ولم لكن خلفه ولا خلفه .. بل أشعر بفضول شديد ، ماذا يريد يوسف مني .. لماذا كذب علي وقال إنه ذاعب إلى شقته ، أه لو يعرف .. لو يعرف إنى أعرف . دخلنا حانة كبيرة مفروشة بأثاث قديم . ولكنه فخم . المقاعد مبطنة وثقوب . والأباجورات من القطنية الخضراء ، لها قوائم من الخشب المنقوش وستارة خضراء كبيرة تغطي باب شرفة تطل على الليل ، وسجادة فارسية ضخمة تغطي فيها أقدامنا وتغطي اتصالها كلها شمعا لا يقر عن حبيبات جنين . وراديو ويك أب قطعة واحدة من الموبيليا . واسطوانات كثيرة ، كانت الجدران مطلية بالزيت في لون مستقر فيه طيف من اللون الأزرق الفاتح .



علقت عليها لوحات زيتية لما ظن في ريف ألويوى . المكان يوحى بالوقار والثراء والراحة .. وهناك عمر ضيق يخرج من يسار الصلاة ويفنى إلى بقية الحجرات ..

وقفنا في الشرفة نطل على النيل .

فلحقتنا شمس قوية ، وهمس يوسف :

- تشرى كوكاكولا

كل مفعلاً ، قدماء تلقنان . وعيناهم تلقنان . وتحرك إلى الداخل فتبعته إلى المطبخ ، كان نظيفاً مرتباً . وفيه فريجيدير ، فتحها يوسف فلم يجد بها سوى زجاجات بيرة وكانوزة .. قلت ساخرة :

- أنت موش حارف عندك إيه .

فارتبك وأحمر وجهه ، وفتح زجاجة الكانوزة بيد مرتعشة . وعدنا إلى الصلاة وجلسنا على مقعدين متقابلين ، بيني وبينه حوالى مترين ، نظرت إليه فوجدته يبدو واجماً ومهتماً .. فأنطلقت أضحك . نظر إلى في قلق وريبة وسألني :

- بتضحكى على إيه ؟

- ولا حاجة ..

- صحيح بتضحكى على إيه .

- مبسوطة .. عايزنى أكثر .

فزاد ارتباكك ، وحاول أن يتكلم فتعلم وقال كلاماً غير مفهوم . كان يهدثنى في السياسة ، وبدأت أشعر بالغثظ نحوه .. فقررت أن أعالجه

- تعرف أنا كنت بضحك ليه ؟

- ليه ..

- علشان أنت بتكذب عني ..

ابتسم في عصبية . ودارت عيناه في قلق ، ثم هتف بصوت مشروح

- ليه بيه

- ماتنكرش الشقة دي موش بتاعتك ..

قال بسرعة قاجانتى :

- ليه موش بتاعتى ..

رقم المفجلة ، شعرت بالراحة أنه لا يستطيع أن يمشى في الكذب

- بتاعة من ياه ؟

- واحد صلبى ..

- من هو ..

- بتسأل ليه ..

- موش أعرف أنا في بيت مين .

فتح فمه ، ثم أعلفه ، خشى أن يعترف بالحقيقة ، وتوقعت أن ي اخترع لي أى اسم .. ولكنه رفض . وصمم ألا يقول من هو صاحب الشقة ، رغم استفزازي له . كنت أقول له من وقت لآخر ، أنت باين عليك خايف منه ، أو أوعى ترمس حاجة بعينين يأخذ منك المفتاح ، أو أنت خايف تقوللى اسمه لحسن لحي معاه يداك . فكان يبدو عليه الألم ولكنه لا ينطق باسم محمد تلجى ..

مضت ساعة أو أكثر . وهو يتصرف وكأننا في محل عام ، بل كان يعاملنى وكأننا غرباء . فاحترت ولم ألهم فرضه الحقيقي من المجهى بي إلى هنا ، وشعرت بالملل ، ففقت معلنة أنني ذاهبة . فلم يمتريش وصالحنى باليد ، وسار معى حتى الباب ، وحتى تلك اللحظة كنت ما زلت أتوقع أن يقبلنى ولكنه لم يفعل ، وخرجت وأنا أشعر بضيق ومشوش ..

●●

سألنى محمد ناحى :

- إيه رأيك في الشقة :

كل يتكلم في مرج ، وتمنيت لو كنت أراه ، خيل لي أن عينيه تشعان

بالمر ..

- شقة عواجيزى ..

- معجبتكيش ..

- بالعكس دى حمة قوى ..

، عنبريا شقتك . أنا قلت ليوسف ..

صرحت مقاطعة فى احتاج

هو بيقول كل حاجة

دى ماأنت بتقولين

- أنا موش فاعمه هو عايز منى إيه .

- لسه موش عارمة .. بيجبك

- ياسم .. أعوذ بالله

- بلاش عليه .. وأنت كمان بتحبينه

- أنا . سالتنى غير فلان ده هشان أحبه ..

- قسمتك كده .. حبيت واحد عظيم ..

حدثنى قلبى أن محمد ماحر يقوم بلعبة غريبة ، لعبة مأكرة ، إنه يلعب
بيوسف ويعبب يى ، لقد أعطنا فتاح شفته وشجعه على أن يأخذنى هناك ،
لأشك أنه يريد أن يستدرجنى . الشقة ، ولمعه يقول لنفسه إنى إذا ذهبت
مرة مع يوسف فسأذهب مع هومة أخرى ، لابد أن أذكره ، ولكنه قال
لـ شيدى هاماً ، يوسف يحبنى . إنى أشعر بهذا ، رغم ارتباكى ووجوه
وتصرفات الغريبة ونحن وحدنا فى الشقة ، صحيح إنه عظيم ، وأنا أهد نفسى
متدفعه وراء هذا الحب العظيم ، محمد ناجى على حق ، يوسف يحبنى ، وأنا
أحبه . أليس هذا غريباً من بين كل الناس فى هذه الدنيا ، أحببت يوسف ،
أحببت شديداً لا يملك عربة ، عظيم ، يحجل من أن يقول لـ إنه يحبنى

أصبح يوسف يكلمنى كل يوم أكثر من مرة ، وتقابلنا فى جروبى عشرات
المرات ، حتى عرفنا أنرسونات ، وكانوا يذكرون لنا حلاتنا ، الشاى
والجاتوه ، قل أن نطعمهم ، وصالتنى يوسف أن أذهب معه مرة ثانية إلى
أشقه ، فرعصت ، كنت خائفة من أن يتكرر نفس ما حدث فى المرة السابقة .
فيعاملنى سريو .. وكنت خائفة من أن يحدث شيء آخر . لقد حدث لى تطور
عريض ، لم أعد أفكر فى القنلات ، أصبحت حالة سارحة . استريح لحديتي

عن أى شيء . استريح لصوته الهادئ ، استريح لعبيده انحنوتين ، وكلماته
الرفيعة ، شعرت أنى أتخلص وأنا معه من آشواك ، وأمر كانت تسوخز
صدرى ، تعودنا أن نذهب إلى الميما ويتكلم عن العلم بعد أن سرح منه .
كانت أراؤه جديدة ، قد هشتنى ، وكان يبدهنى إلى أخطاء فى الفصا وأحصاء فى
التمثيل ، وكان يبدهنى إلى أشياء جسيمة لم أخطأها ، ولكنه بعد أن ينهينى
إليها أحس وكان شيئاً أشرق فى رأسى ، وأحس أسمى بذات أهم أكثر وأكثر ..
أحياناً كنت أختار ، وأشك لى كل ما أحس به نحو يوسف وأسال بعضى
إذا هو الحب ، ولا تنتهى حديثى إلى شيء . كل ما أصل إليه بعد تفكير
طويل ، هو أنى فى حاجة إلى يوسف ، لا أريد أن يمضى يوم واحد دون أن
أراه ، وأسمعه .. وأحياناً كنت أنظر إلى وجهه وهو يحدثنى فلا أهم
ما يقول ، وأجد نفسى أفكر فى أبى .. تكرر هذا كثيراً ، ندهشتنى فقد تعودت أن
أطرد ذكرى أبى من رأسى ، وأسالها حتى لا أتلم ، وكنتى أصبحت أذكره فى
وجه يوسف بلا ألم ، أذكره بحزن وحنان . فى أيامنا القديمة وأنا طفلة
صغيرة يوم أخذنى إلى لونا ببارك .. وركبت المراجيح . وبكيت فمصح دموى
بمنديله واشترى لى جيلانى ..

وكنت أحكى ليوسف ما أذكره ، لم أحدثه سوى عن طفولتى وأبى ، أما
أسمى فقد تعاملتها تماماً ، كان أسمى شى متت ، وأبى هو الذى ما زال حياً
يعيش معى .

كنت ألب فى فناء المدرسة مع الأطفال ، كنت أجري لاهة . أطاره صديقة
لـ اسمها نوال ، وفجأة رايت أبى أمامى ينظر إلى ضاحكاً . وقتت لدعوة واحدة
وقد رفعت عينين مبهوتين إلى قائمة المدينة .. ورأسى لا يكاد يصل إلى
ركبتيه . وأخذنى من يدى وخرج بى من المدرسة والدراسة لم تنته بعد ،
وذهب به إلى مقهى وجلس معى .. واشترى لى شيكولاته ثم ذهب معى إلى
الحائى وأكلنا ، أكلت كفتة وكريم كرمة .. وعدنا إلى البيت وتشاور مع
أسمى .. رويت ليوسف القصة كلها ما عدا نهايتها حتى لا أذكر شيئاً عن
أسمى .

كنت اجلس معه عند الحاشي ، وكان يستمع إلى ، وأنا اثريش واثرثر ، وبي
رغبة في أن أتكلم إلى الأبد ، وعندما عدت إلى البيت استلقيت على سريرى
واجهشت باليكاه .

قلت لي إنصاف في انزعاج

- مالك ..

- مغيث

- آمال بتعيطي ليه ..

قلت لها وأنا ابتسم وأبكي :

- ميسوعة ..

فنظرت إلى يائسة من أن تلهمنى .. ثم تمتعت :

- أنت باين عليكي اتجننتي ..

قلت وأنا أسمع دموعي بكى :

- أه ..

قلت وهي تتنهد :

- ربنا يخليكي بعقلك ..

وأدبت أن أسألها .. إذا ما كانت تذكر بابا ، ولكنى صبرت عن المطق
بالموآل .

وأدرت لفظتها إنى لن أستطيع أن أتكلم مع أحد عن أبى سوى يوسف .

في اليوم التالي سألتني يوسف مرة أخرى أن أذهب معه إلى الشقة ..

- موش معقول تكروني خايقة مني ..

قلت مترددة :

- أنا موش خايقة .. لكن ح نعمل إيه ..

قال جاداً

- عايز أقولك حاجة مهمة ..

ونذهت معه ، فعاد إليه ارتبأكه ، ووجومه ، وسألت بعد أن قضيتا وقتاً
طويلاً مثرش بكلام عادي ..

- يعني مايفيش حاجة مهمة عايز تقولها لي ..

- لا فيه ..

- إيه .. هيه ..

- موش عارف أقولك إزاي ..

قلت في رقة :

- قول ملخافش .. أنا مستعدة أسمع منك أى حاجة ..

- يحدين تزعلي ..

هتقت :

- أزعل منك .. مستحيل ..

ثم قلت ببساطة :

- أنت موش عارف فد إيه انت عزيز عندي ..

قال بصعوبة :

- واندج كمان ..

ثم غرقنا في صمت طويل مرهق .. كنت أسمع خلاله أنفاسه وأنفاسي ،

وكاننا نصعد سلالم لا نهاية لها ..

- ساميه .. أنا لازم أقول لك .. أنا بأحبك ..

ورغم أنى كنت أتوقع الاعتراف ، إلا أنى أطراقت براسي ، وقد صعد الدم

إليه ، وسمعت طنيناً في أذني ، كأنى أسمع الكلمة لأول مرة . نعم إنى

أسمعها لأول مرة ..

وانطلق يتكلم ، وقال كلاماً غريباً .. سمعته بقلبي .. سمعته بكل ذرة في

جسدي ..

- أنا موش عارف إيه اللي حصل لي .. أما حاسس إنى بأحبك من زمان ..

بأحبك من قبل ما أشوفك .. زى ما أكون فهمت ليه أنا اتولدت وحيث في الدنيا

دى .. بأحبك وأنا بأكتب والقلم في أيدي .. بأحبك وأنا راكب الاتوبيس

ومستعجل .. بأحبك وأنا قاعد قدام شهدى باشا وبأحد منه سيحار بأحبك

وأنا نايم بأحلم .. بأحبك وأنا نايم من غير ما أحلم .. لما سأتنفس بأحبك .. لما

ما شرب باحلك لما أعطش باحلك . سامية أنا تعبان أنا باحلك .

همست

.. أنا موش غيره اتعك باحبيبي .

ونكيت

.. سامية أرجوكي .. أنا ح أعيط أنا كمان .

قلت ودموعي تملل كلماتي :

.. أنا كمان محلك . لكن موش عايزه منك حاجة .. موش عايزه منك حب ..

كفايه عني حنانك

.. متقوليش كده يا حبيبتي .

سألته بعينين تتوسلان إليه

.. ح تديني الحنان اللي أنا عايزاه . موش ح تعذبني .. موش ح تقوللي كلام

يضايقني .. أنا خايفة . موش ح أقدر اتعذب منك ..

.. حبيبتي .. إنني بتعذبيني بالكلام ده

.. بكركه ينتهي الحب . وما أفكش جنبى .

.. مستحيل .. حياتي تنتهى وأنا لسه باحلك .. باحلك وأنا عايش . وح

أحبك وأنا ميت .

.. بعد البشر .

وانتظرت أن يلوم ويقبلنى .. ويضعنى إلى صدره ، كنت أريد أن أقبله ..

وأن أشعر بجزءه تطوقانى .. وأنعاسه تدفئنى ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ،

هل أقوم وأقبله أنا ، ماذا به ، ألم يعترف لي بحبه .. ألم اعترف له بحبي ، لقد

تجمد مكانه ، عيناه زلزلتان ، وشفتاه ترتجšan ، وقد فقد القدرة على

الذئبق

قمت ، وذهبت إلى أرائيك .. وعشت بمفاتحه وهو صامت .. لا يفكر في

التنويض ولا اقتراب منى .. لاد أن أخلصه من هذا الخفاء

.. أريدو ميشعنى إراى ..

سألته دور أن أسطر إليه ..

فأحسست به يتقدم نحوى . وارتحف جسدى . وأنا أتوقع يديه تلمسنا
خمرى في أية لحظة ، ولكنه وقف إلى جانبي في عاء . وأدار الراديو وسألني في
بلاهة

.. عايزة محطة إيه ..

قلت يائسة

أي محطة

والنعت إليهم عياني في عبيبه ليس بي وجهيت سوى شبر واحد
كان العشق يشع من عبيبه ويجعل أبيض وكان لعشق يطل من
عيني والحبة أيضاً . وعدت إلى مقعدى ، وعاد إلى مقعده .. ولزادير
بغنى .. سأنفوسنى .. سأنفوسنى دا أمور ..

سأغريه . سأعطر طباعه . سأجعل الشاب الذى أريده ، ساعمه كيف
يحب . إنه خام ، غشيم ، ولكنى أموت في حبه

.. فيه حد يعرف إنك بتحبني

قال في عصبية .

.. لا

.. فيه ناس تحب تحكى لصاحبهم .

.. ما أقدرش أحكى

.. إذا كنت قلت لحد قوللى .

.. والله ما قلتش

.. محمد ناجى يعرف

.. يعرف إيه

.. إنك متحبني

.. ميشك

.. قلت له حنة

.. لاحظت إننى مهتم منك . يوم ماشرت الصورة

.. أرجوك ما تقوللوش

أطرق يرأسه موافقاً فعدت الفح عليه ..

- بدمتكم .. أوعى تقولوه ..

تظن إلى كانه يقسم ..

- موش ح أقوله .. ناكدي ..

- حتى الشقة دي بلاش .. مشوف شقة ثانية أحسن ..

- حاضر ..

- يتقول حاضر كده .. ويعدين موش ح تدور على شقة ..

- لا .. ح ادور ..

- امتي ..

- بكرة ..

- ح تقولى فى التلفزيون ..

- آيه ..

شعرت براحة كبيرة .. وتخلت نفسى فى شقتنا الجديدة . إن تكون

بهذه الضخامة . ولا بهذه الفخامة . ولكنها ستكون لنا .. لنا نحن

الاثنان ..

وابتسمت له ..

- مانئسكش لى حاجة ..

قال فى ارتباك ..

- آيه ..

- موش عايز تيرسنى ..

كان منظره يثير الشفقة . لا يكاد يصدق ما سمعته آنذاك . ولكنه قام

متثاقلاً كأنه يحمل فوق رأسه حملاً ثقيلاً ينوء به . وتقدم منى فمدت له

يدى . ورفعت له رأسى وأسلبت عيناى . وانحنى على وظيفنى فى جيبنى .

ثم قبلنى فى شفتى قبلة سريعة . وفتحت عيني لأراه واقفاً يلهث . ووجهه

شاحب وانعاسه تتلاحق . والنقت عيوننا . وأقبل على يريد أن يقبلنى .

فدفعته بعيداً فى رفق . خفت أن تضايقنى قبلاته . لقد ناكحت أنه

غشيم .. ربما ناكحت هذه هى أول مرة يقبل فيها فتاة

همس فى لهلة :

- عايز أبوسك ..

فضحكت هللة

- روح اقعد مكلتك .. خليك عاقل ..

وأطاعتنى فى الحال ..

- احكيل عن البيت اللى حببها قبل كده ..

- عايزه تحرق ليه ..

كنت أتوقع أن يقول لى إنى أول حب له .. رغم أنى أعرف قصة

مبروكة .. ورغم أنه اعترف لى أنه أحب من تزوجت غيره . لى تلك اللحظة

كنت أدرك لى أنه أحب مبروكة أو أية فتاة أخرى .. وكنت فرحة بهذا . إذ

خيل إلى أنه ملك . أرسله الله من السماء . ليصلينى الحنان .

وايطهرنى . وايقظنى ..

قلت فى غيظ :

- عايزه أعرف كانت تستحق حبك وإلا لا ..

- الحكاية دي خلصت ..

- أنا موش ح استريح إلا لما تقولى كل حاجة عنها ..

قال فى حزم :

- خليكى عاقلة .. أنا نسيتهها خلاص ..

ولنتابتنى رغبة مفاجئة فى أن اتعدها . شعرت أنى أخلق بحب

وحنانه . إنها أكاذيب .. أروام .. ليس صحيحاً أن هناك من يهينى كل

هذا الحب . إنه مثل الآخرين . مثل مدحت . مثل محمد ناجى . مثل

أنور . إن أجد شيئاً عنده سوى العذاب . إنى سانجة إذ أصدق وأحب .

سأمتحنه . سأغضببه .. سأعذبه لأرى كيف يتحملنى ..

- إن ماكتش تقولى . موش ح أقوله أنا كمان ..

تقوليل ايه

- عن ابي حبيته قدامك
- اصغر وجهه ، وحطط عياده .. وقال في غضب
- صدك مدح .
- صحتك صحتك عاية ، في غير مبالاة
- مدحت ده ايه .. واحد تنسى
- مين هو .
- موش ح اقولك
- نقب إلى حيران دثر وصاح
- إن ما قلتيش ح اضريت ..
- فاصابني فزع قاتل .. وصرفت
- اوعى تقول الكلمة دي تاني .. اسبيك وعمري ما اشوفك بعد كده .
- انهار يائساً ، وقال مستغفراً .
- سامية . انا متأسف ..
- انا عمري ما سمعت كلمة زي دي في حياتي ..
- قلتها وأنا اصدق نفسي .. وظل يستعطفني حتى هدأت ، فשמعت
- بالخلول ، إنى اكذب عليه ، اعطيه صورة غير صحيحة عن حياتي ، إنه
- لا يعلم كم سمعت وكم عانيت .. إنه لا يعلم ما سمعه بى أنور ... عذرى
- الوحيد انى اتمنى لو كنت تلك الفتاة التى لم تسمع طوال حياتها الكلمات
- القاسية ، وإن تسمعه أبداً ..
- شعرت باحزمية التى ارتكبتها . إنى احطم كل شيء . اقتل حبي في
- لحظة مولده .
- حبيبي .. انت صدقت ..
- قالت عياده .. اما لا اهمتك .. ماذا تقولين .. عن اى شيء تتحدثين انا
- متعب .. واحبك .. وحرين ..
- كده تصدق إبنى حبيت واحد غريك ..

همس .

- انت اللى بتقولى

- ابشمت

- كنت عزيزه اشوفك ح تعبر عليه ولا لا .

- صوب إلى عيني غاضبتين .. عيان تمنادى إلى قلبى .. تحزن- قلبى . ذهبت إليه وطوقت راسه بذراعى ومعست في حنى .

- ماتزعلش ..

- وقلته على جبينه ، وقلته في شفتيه .. كان ما زال حزيناً لانه قال لى- إنه سيضربني ، ولأنه رأى الفزع في وجهي .

- خلاص سامحك ..

- قال والدموع تكاد تطلع من عيني :

- سامية . انا مقصديش اقولك غير كلمة واحدة . باحبه .. اى كلمة- تسمعها منى . معناها إنى باحبك .. اقولك اورلوار يعنى باحبك ..
- اقولك موش عايز اشوفك يعنى باحبك اى حاجة اعلم ايه كلمة
- اقولها .. مالهاش غير معنى واحد .. باحبك
- حبيبي .. ايه الكلام ده كله .

- عدت إلى مرحى ، اما هو فقد بذل مجهوداً كبيراً ، قبل أن يتخلص من- تائب ضميره . وتشرق الابتسامة على وجهه

- وتركتنا اللقطة ، خرجنا إلى الشارع ، إلى شاطئه النيل . وسرنا .- قلوبنا تدق معاً . ونفاسنا تعلو وتنبط معاً .. واقدامنا تضرب لأرض
- معاً .. مشينا ومشينا .. دون أن ينادى تاكسى ، ولكنى صممت على ركوب
- الاتوبيس . جلسنا فيه وقد تعانقت أصابع يدينا .. وتعانقت عيوننا ..

●●

- إيه اللى حصل بينك وبين يوسف

- ولا حاجة ..

- إزاي الكلام ده ..

- هو قال لك حاجة .

وصحك محمد ناجي ساخرأ

- انت ح تحبى على .

- واد ما حصل حاجة ..

- ده بيقول إنكم زعلتم من بعض ..

تنهدت ، إنه لا يعرف شيئاً .

خدهم يوسف وقال له إنا نخلصعنا .. قلت في غير اكتراث :

- ولا نخلصعنا .. ولا نصلحنا ..

هو ماله ومال .

قال في ثقة :

- يعني اتخانقتم ..

قلت في حدة .

- وج اخانقه ليه ..

- بس . بس .. لنا لازم نصلحك

ودعائى محمد ناجي إلى حفلة سيقمها في بيته بالزمالك .

- شوى باه .. تيجي إنت ويوسف مع بعض .. لنا عامل حفلة كبيرة ح

يحضرها وزراء وكل الناس المهمين في البلد .. ولازم تبقى موجودة ..

كان الإغراء اكبر من أن نألوهم .. لم أستطع كتمان فرحتي ..

وهملت كسطة ساذجة .

- والنبي ..

قال في صوت رقيق

- موش لازم الناس الي في البلد يعرفوا نجهتهم الجديدة

وكان صواريخ نارية تفجرت في رأسى .. لقد نسيت من أنا .. أنا لست

مجرد هامة عادية تحب يوسف .. أنا سامية سامى النجمة المشهورة هاهو

د. محمد ، غرييض يفتح أملى .. ولكنى إن اتخل عن جيبى ، سأحصل

على جدد والحب .. نعم .. سأحصل على الاثنين معاً .

وضجعت السماعة .. وانطلقت بأحثة من أمى ..

- ملما .. أنا عاينه حالاً فستان جديد ..

صرخت أمى

- الساعة لسه سمعة إلا ربع يا حبيبتى .. ح تروحي بدرى ما حدش

ح يشوفك وانتي داخلة وح تنهدنى قبل المعازيم ما ييجو ..

كان كلامها مقنعاً ، ولكن يوسف كان ينتظرني داخل التاكسي عند الباب ،

فهبطت إليه ، وأمسى تودعنى في حجرة ، لقد فرحت عندما علمت انى ذاهبة إلى

حفلة في بيت محمد ناجي ، ونصحتنى بأن أبتسم في وجه الجميع ، وأن أكون

مرحة ولا أكف عن الضحك ، ولا أكف عن الكلام ، وحذرتنى من أن تسرق

إحدى المدعوات الحفلة منى ، إنها فرصة العمر ، لو نجعت في هذه الحفلة ،

فسأصبح مشهورة ، وسيدعونى الباشوات والوزراء إلى حفلاتهم ، ولم تتردد

أمى عندما طالبتها بالنقد لأفصل فستاناً جديداً ، انتهت منه نعيمة الخياطة

في يومين ، فستان أحمر مكشوف الظهر والساعدين ، وأشدت الحماس بأمسى

ففتحت لي زجاجة برقان « ريان كتر » كانت تحتفظ بها

في الساعة التاسعة تماماً كنت أهبط أنا ويوسف من التاكسي امام فيلا من

طابقين في الزمالك ، وأسرع بواب نشيط بالوقوف ، فدخلنا إلى حديقة صغيرة

ولكنها جميلة ، أشجارها مقصوصة ، كانها خرجت من تحت يد كواير ،

وسمعت نباح كلب ، كانت الأنوار تنبعث من الطابق الأول بكثرة ، وخيل لى

انى سمعت صوت موسيقى ، ولكن قطعه نباح الكلب الذى جرى نحونا ،

وما أن رأيته حتى دعرت ، كان كبيراً كالحصان ، وصرخت :

- إيه ده

فابتسم يوسف ابتسامة هادئة :

- بتخاف من الكلاب .. ده تونى

وهمس للكلب

- تونى . تونى . تعال هعا

وأشار بيده ، هاكثير الكلب منه ، وجعل يدور حولنا ، وأنا أصير نحو
لسلم ، وأتخاشى أن يلمسنى .

— الكلب ده بيعصى ..

— ابدأ .. ده عذون ..

— وقس أن تصل إلى الباب ، همس يوسف .

— متى عارمة الكلب ده متاع مين .. يتاع المرحومة دلال ..

فتح لنا الباب مخلوق غريب ، يرتدى جاكيت السهرة الأبيض ، كان يحنى
في ادب شديد ، وعيناه لا تعارقان الأرض ، وضمت بصعوبة أنه خادم ،
وتقدمنا إلى بهركير كبير جداً ، ليس فيه أحد ، كان المكان يسبح في النور ،
ويقصى إلى صالون واسع يسبح هو الآخر في الأمور وليس فيه أحد ، ولم اسمع
صوت موسيقى التي خيل إلّ أنى سمعتها من الخارج ، كان الهدوء يطن في
الذنى ، ورائحة غريبة تنفذ إلى أنفى ، رائحة قرنفل ، واخفى الخادم وراء
ستار ، بينما جلست على مقعد ، كل شيء من حولى كان يتأرجح ، كأنى وسط
دوامة ، ولقبنى يخلق ، نظرت إلى يوسف استغيث به ، كان يجلس بالقرب
منى ، ساهماً ، عيناه تهلتهان لا تنظران إلى شيء ، لم يكن منتبهاً إلّ ،
واهتزت الستارة ، وظهر الخادم من جديد ، ومضى إلى باب آخر ، فتحه وأغلقه
وراه ، كان الصمت يتراكم بسرعة ، عندما انتفضت على صوت رنين خافت
ينبعث من شمالي ، رأيت تليفوناً أبيض على الأرض ، رنفيه لا يكاد يسمع ، ثم
انقطع الرنين ، وسمعت صوت محمد ناجى من خلف الستارة ، كان يتكلم في
تليفون آخر ، وضحك ، وهتف

— ده مش معقول .. أبوه .. أنا مستني .. موش ح تتعشى لحد ما ييجى ..

ثم ضحك مرة أخرى ، وقال بصوت رقيق

— أبوه يا حبيبتى .. حاضر

واهتزت الستارة ، وظهر محمد ناجى ، مشرقاً معطراً كأنه خارج من الحمام
مشى نحوي وعيناه لا تعارقان عيني ، على شفثيه ابتسامة خفيفة ساخرة
حاولت أن أضحك كما نصحتنى أمى ، ولكنى ارتبكت ، وضغط على يدي

وربت عليها بيده الأخرى ، وقال كأنه يعرفنى مند سموات

— أزيك يا سامية ..

لم يصافح يوسف ، اكتفى بأن ينظر إليه متوحداً ، ثم جذبني وأجلسني على
كثبة عريضة ، وجلس إلى جوارى وأخذ يدي بين يديه ، كان يتصرف
ببساطة ، وكأنه يعطف على عطفاً أنوباً

— كويس أنكم جيتم بدرى علشان أعرف أقعد معكم شويه .

وسألنى وهو يرتب بكفه على ركبتى القريبة منه

— إيه رأيك في يوسف ؟

بذلت مجهوداً كبيراً كي اتخلص من ارتباكى وقلت

— أت تعرفه أحسن منى ..

مصباح

— لا .. أذنب مكسوفة تتكلمى ؟

ضابقتى أنه شعر بخجل ، لو عرفت أمى لعزنت ، ولاتبنتنى وجذبنى

محمد ناجى وهو يقف قاتلاً

— تعالو نروح البار ..

دخلنا الصالون ، وكان يقضى إلى حجرة أخرى أصفر منه ، في أحد أركانها
بار أمريكي أمامه كراسى عالية ، ودخل محمد ناجى البار ، وطلب منا أن
نجلس على الكراسى العالية أمامه .. وقال كأنه يحدث نفسه ، وهو يقدح
الزجاجات الكثيرة فخله

— تشرمى إيه . عندي كل حاجة .. ويسكى .. هن .

وضحك مشيراً إلى زجاجة في نهاية الصف

— والافريكا ..

وظهر الخادم فصمت ، دون أن يناديه أحد ، وقد أحضر الثلج ، وضعه

أمامنا ثم انه سحب في هدوء .

وسألنى من جديد .

— أو أملك كوكبتيل

واعجبت الفكرة ، فهتف

نشرب كلنا ما رتبني .

والتفت إلى يوسف قائلاً :

— أنت ما بتشربشي إلا بيرة .. لكن لليلة دي .. ح السكر ..

وشرع يمزج الجن بالهرموت ويخلطه بالحلج ، داخل وعاء معننى مخروط الشكل ، وقال وهو يوضع زيتونة خضراء فى كأس :

— أنا شفت دوق وندسور فى نيويورك .. كنت نازل فى الوالديف أستوريا ، وكما الساعة تسعة الصبح ، كنت داخل أفطر ، فلقيت قاعد لوحده ، وقدامه ستة ماريتيني واحدصهم جنب بعضى . وقعد يشرب واحد ورا التانى .. من ساعتها وأنا متأكد أنه غد مقلب فى جواز .. طبعاً .. واحد يسبب عرش انجلترا .. يسبب امبراطورية علشان حب عمره ما يدوم .. مسكين ما كانش بيلقوا أبداً ..

فى صمتك ..

رفعنا الكؤوس وشربنا ..

— ايه رايك فى طعمه .. موش جلو .. أنت ساكت ليه يا يوسف .. لسه بتفكر فى دوق وندسور أظن لو كنت مكانه كنت عملت نفس الشيء .. تتنازل عن الامبراطورية فى سبيل الحب .. لكن أنت معذور .. سامية حلوة .. حلوة جداً ..

كنت قد أفرغت نصف كأس ، واسترجعت شجاعتي ، فقلت محتجة :

— أنت ح تتكلموا عني من غير ما تأخذوا رأيي ..

صاح محمد ناحي مقاطعاً

— يوسف بيحك ..

— حليه هو اللي يقول

— موش ح يقول حاجة .. انا بانكلم بالنباية عنه ..

— يبقى ما بيحببش

وضحك يوسف فى عصبية ، ورشف من كأسه .. وقال محمد ناحي وهو يعد

الماريتيني ايملاً كنوسنا ..

— لسه موش عايزه تقوايل رايك فى يوسف ..

— لما أسمع رايك أنت الأول ..

— رأيي ..

ونظر إلى يوسف وعينه تبقان فى سخرية ..

— رأيي إته نصاب ..

هتف يوسف :

— ليه ياه ..

— إنسان موش حقيقي .. مؤذب زيادة عن اللزوم ، صريح زيادة عن اللزوم ،

عاطفى .. جريضة زيادة عن اللزوم .. عاقل زيادة عن اللزوم .. بيعمل كل حاجة

صح زيادة عن اللزوم .. موش ممكن واحد فى الدنيا يبقى كده .. لازم يبقى

نصاب ..

— آمال بتشغله عندك ليه ..

ضحك قائلاً :

— علشان نصاب ..

— الصنفين نصابين ..

— طبعاً ..

— حشني ..

كدت أسأله « حتى انت » ثم بلغت السؤال ، ولكنه فهمنى فصاح

ضاحكاً -

— عايزه تقول حتى أنا .. ايوه .. أنا نصاب .. إنت عارفة يعني ايه

نصاب .. دي موهبة .. حاجة موش سهلة .. إلك تلغي مشاعرك الحقيقية ..

تلغي أفكارك الحقيقية .. وتظهرى .. لباس بالمظهر اللي هم عايزينه ..

تخليهم يعيطوا وإنت فى قلبك بتضحكى .. تخليهم يتحروا .. من غير

ما يعرفوا هم قايدين ايه .. إنت لسه صحرة . بكرة لما تبقى معظة كبيرة

ح تعرفي ..
 ح اعرف إزاي أبقي مصابة ..
 ح تبقى نصليّة قهلاً ..
 لكن يوسف موش مصاب ..

صباح :

.. يوسف أستاذ في النصب .. ده نوع جديد ما ظهرش زيه في العالم ..
 علشان كده له مستقبل .

.. أنا شافية إنه طيب جداً وما بيعرضش يكذب

صباح في لتفعل :

.. يوسف لما يقول الحقيقة بيخفي كذاب .. لما يظهر طيبته يبقى قاسي

سألته في قلق :

.. يعني ما بيعجنيش ... ؟

.. لا .. بيعبك .. إنما موش ح يتنازل عن العرش علشان حبه

فمض يوسف بصوت مرتبك ..

.. أنت رايك فيه وحش قري يا أستاذ ناجي ..

.. بالعكس .. أنا وایی فيك كويس جداً .

قلت في حدة :

.. أنا مش فاعمة حاجة ..

.. بكرة ح تقهمني ..

لماذا يهجم يوسف بكل هذا العنف ، أبغاه منه ، لأن يوسف شاب ، وهو عجوز ، لأنني أحب يوسف ، ولا أحبه هو ، ما الذي يريد ، إن عنده كل شيء ، وهو جريء واثق من نفسه ، كأنه يريد أن يقول لي أمام يوسف ، اتركه وانضمي إلي ، انضمي إلي حريمي .. من تلك المرأة التي كان يحدثها في التليفون منذ قليل ويقول لها في رقة يا حبيبتي .. دلال أخرى .. وتذكرت الكلب ..

.. الكلب اللي مره خوفني .. كبير زى الحصان .

.. موني ما يعرض ..

.. جيته مني ..

صوب إلي عيتين فلحصنن . وقن .

.. ده كان كلب الرحومة دلال .. الوصية الوحيدة اللي قالتها لي .. لو مت

يا محمد أبقي خد بالك من توني .. كانت أفعلة هذا علي الباب .. مكاك . لا .

مكان يوسف .. وكانت شريت كثير ، يومها رفضت الصبح فيلم بعمدناشر

ألف جيته المنتج حاول يوسعها وهو بيديها الشيك . قطعته وزمت في وشه ،

سألته ليه عملتي كده ، قات علشان ريحة كانت وحشة من السيجار .

مجنونة .. كان لها ردود غير متوقعة ، ونصرفت لا يمكن أن حد يتنبأ بيها .

كلمة تخليها تفسك ، وكلمة تخليها تعيط أسبوع .. كانت هربانة من همت

باشا ناظر الخاصة الملكية ، وكان في عزه كلمني رئيس الوزارة وقال أطردها

وما تعملناش دوشة .. قلت له يا باشا ما أقدرش ..

قال لي أنا موش ح أقدر أحوش عنك المصاييب اللي جيلالك ، قلت له وان ..

ورجعت في يوم لقيتها هربت علشان تنتحر ، شريت قنبوية أسيرين في بيت

أما ، وإنقذناها من الموت ، الدكتور زيدان . ح تشوقوه دلوات هنا .. عمل

لها غسيل معدة ، بعد ما فافت رجعت ثاني عندي ، وكنا قاعدين هنا .. فأكبر

كنت يقول لها .. ويعدين يا دلال .. موش تهدي شوية يا حبيبتي .. قالت

لي .. يعني إيه أهدي .. أنا ح أهدي لما أموت وح أضيع هدوء .. ح أسيب

الدنيا وأنا موش نادمة على شيء . حاجة واحدة بس اللي عايزاك تعملها لي ..

تاخذ بالك من توني .. لو مت يا محمد أبقي خد بالك من توني ، قلت لها ..

وأنا مين ح ياخذ باله مني .. ضحككت وقالت أنت تصلب ..

وجال بعيني بيص عن التركلما لي بجهننا ، ولى وجهي أنا بالذات وضحك

قلتلأ

.. ما يتشربيش ليه .. عين يا محمود المزه

كان الخادم قد ظهر وقد أحضر معه مزيداً من اللبج .

وقال محمد ناجي وهو يصوب نظرات غاضبة إلي الخادم الذي تراجع

مسرعا .

— لسه الحفلة ما بدأتش وحضرته ح يسرح ..

ثم قال بصوت خفيض .

— فيه أول واحدة نيهتني إلى أن كل الفنانين والصحفيين والمشهورين نصابين . كانت بتقول على نفسها نصابة .. موش راضية عن أغانيها وموش راضية عن صوتها . لكن ترعل لو الناس ما اتبهلنش وصفقت لحد ما تخرج ايديها .. ترعل لو حد كتب في جرنال إنها عنت موش ولا بد .. تبقى مصيبة ثم التقت إلى رسالتي :

— تفكرى ممكن تبقى زى دلال

همست

— أنت خوفتني من حياتها ..

قال لي هدوء :

— لو كنت خالصة .. يبقى ما فيش فائدة منك .. ح تفضل طول عمره كومبارس ..

قلت محتجة :

— معنى لازم اعيش عيشتها .. علشان أبقي حاجة ..

فمط شفتيه وقال وهو يقرب الكأس من فمه

— لا موش ضرورى .. بس ح يبقى ناقصك حاجة .

وشرب بقية ما في كأسه وقال :

— لما اعرفك كويس .. ح أقولك أنت ناقصك ايه .

وسمعت صوت جلبة عند الباب ورجل يصيح .

— اذولفين يا جمعة

وظهر الرجل ، قصير ، مژه ، أسمر ، رأسه مربع ، وشعره الاكروت منفوش كالنعامير المدببة .. وفي فمه سيجار ضخم ينفث منه دخاناً كثيفاً ، كان مزهواً بنفسه ويدخله المسرحى وهنق عندما رأى محمد ناجى وراء الدار .

— انتقويديتم من بقرى ..

وصباح محمد ناجى

— أهلاً بكور ..

ثم التقت إلى قاتلاً في سخرية :

— لهو النكد جه ..

قال الدكتور وهو ينفث الدخان لي وجهي ..

— الحق عليه التلى ببعلجك ..

وقدمتلى محمد ناجى للدكتور زيدان ، ثم قدمله يوسف ، وناوله كأس

مارتينى .

بعد ربح ساعة ، كان البيت قد امتلأ بالمدعوين ، أغلبهم يرتدون ملابس الصيف العادية ، القضاة يسكنين أبيض أو الفريسكا الكحلى أما السيدات ، فكان جميعاً عاريات الظهر عاريات السواعد مثل ، يفوح منهن العطر ، والأصباغ تخفى بعض قبحةن ، كنت أصفرهن ، وهناك واحدة تصف جميلة في حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ، تتكلم بصوت منغم ممطوط وتلوح بيديها في حركات مضحكة ، أما الباقيات فهجائز فوق الخامسة والأربعين ، صباغ شعورهن ، أو تركن البياض يجبل رهوسهن بشيخ من الوقار ، ولكنهن يضحكن من غير وقار ، ويدخن في شراة ، ويشربن الويسكى في شراة .. كان الشيء المشترك بين المدعوين هو كبر سنهم ، وفيما عد ذلك فهم الغرباء ، كالجدد المنعزلة في بحر كبير ، يتبادلون النظرات والابتسامات في تصنع ، وينفثون الدخان في وجوه الآخرين ..

لم أعد أشعر بالقلق ولا بالخوف وكان المارتينى قد نبت براسى ، فمرست على شفتى ايتسامة ، والقيت بنمسي في غدار الناس ، وقدمتلى محمد ناجى إلى كتلة مستديرة من اللحم ، وقال لي إنه قدرى باشا وزير الأوقاف ، إنه بالون ضخم مفعوخ ، يهدد بالانهجار في أية لحظة ، وجهه أملس ليس فيه شوه تبيت مصعوبة الثقفين اللذين يشيران إلى أنه ، كأنهما مرسومان في سالون صغير فوق جسمه المألوف الكبر ، عيناها منخرفتان ، واحدة تنحه إلى اليمين ،

الاثباتية تنحى إلى اليسار ، كنهما عينا ضعيفة .. تحركت عيناه نحوى
وحديثا مكثها عيان لا حياة فيهما ، تلجيتان ، وقال بصوت رفيع ، صوت
من ..

.. اريب يا مدموا ريل .. ما شاء الله .. كل اللي شافوكي بيقلوا إنك مثلكي
كوس .. ولب مستعمل عظيم
قلت في ذهنة

.. لكن أما نسه ما مثلكش يا باشا
نادار راسه في حيرة ، واستجد بشاب رياضي يغف إلى جانبه ، له وجه
حيوان مفترس وعضلاته بارزة وفي عينيه نظرات تحد واستعداد للقتال ..
وسأل اباشا الرياضي

.. به . هيه موش ممثلة
فقال الرياضي وهو يرسل إلى نظرات تهديدية :

.. أيوه .. مظلوما يا سعادة الباشا
فتمتم اباشا في بلاهة ..

.. ما شاء الله . ما شاء الله . ويتغنى .

.. لا . بأمثل پس ..
فتمتم من جديد ..

.. ما شاء الله .. ما شاء الله ..

وقال الصيوان ذو العضلات

.. اباشا معجب بيكي يا مدموا ريل . أنت حطك من السما

وتمتم اباشا من جديد بصوته الرفيع .

.. ما شاء الله . ما شاء الله

وانتهرت أول فرصة وهربت من اباشا ، بحثت عن يوسف فوجدته يتحدث
مع الدكتور ريدان وقبل أن اقترب منهما ، اعترض طريقى محمد ناجى
هانعا ..

.. تعالى هدا يا سامية . وايحة عين .

.. ولا حاجة

.. موش مبسوطه

.. مبسوطه ..

.. عين الكاس بتامك

وجذبتني من يدي ، وأخذني إلى الباب ، وقال

.. عملتي إيه في الفيلم الجديد اللي بالالوان ..

.. لسه مستنية النتيجة

.. قال في هدوه :

.. ح أشوفك لوهدك امنى ..

.. ليه ..

.. خايقة .

.. أبدا

.. انت عايزه تتخلي من اول وجديد .. انا ح اتول لإشرف على

مستقبلك ..

وناولني المارتيني .. قلت .

.. تفنكر .. يعني ح تعمل لي إيه .

.. قال في ثقة .

.. ح اغمر منك

.. ماله ..

.. قال وعيناه تمولان في جسدي .

.. لازم تبقى عبيطة شوية ..

.. عبيطة .

.. انت عارفة كل المثلات اللي وصلو كانوا إيه كانوا طدى تحط

شغافيف تخينة . وعين رى النقر . أو شكل سادح عيط وعين بهم براءة

وغباء .. البراءة ما تنفعكيش . إيف العبط يههك ح يحليكي جمال

.. وإن ما كنتش عبيطة .

— ما حدث ح يشـفـك .. ح يخافوا منك .. إنما مغرورة مطهش .. كل
المعلمات المشهورات في منتهى الغباء ، وفي منتهى الخور ..
— أعوذ بالله .
— عيبك إنك ذكية أكثر من اللازم ..
— عرفت منهن .
— بتفكرى كثير أنت عابرة إيه .. عابزة توصلي .. عابزة تبقى مشهورة ..
ده موش بالبساطة التي أنت قاهماها .
— أنت بتتكلم زى أنور سامى ..
هتف وهو ينظر خلتي :
— جنبنا سيرة القط .. جه ينط .. أثريك يا أنور ..
ولمناق الاثنان ، وصرخ أنور في وجهي ..
— أمشى من قدامى يا بت .. كنت ورايا مطرح ما أروح ..
ثم التفت إلى محمد ناجى متظاهراً بالدهشة ..
— مين اللي جابها هنا ..
قال محمد ناجى :
— أنا ..
فصاح أنور
— والله وصلتني يا بت .. خلاص ما حدث ح يقدر عليكى .
ثم رفع يده بالتحية :
— السلامو عليكم .. أنا ماشى ..
سأله محمد ناجى :
— رايح هين ..
قال وهو يهز كتفيه :
— مالناش عيش في البلد دى ..
ثم صاح أنور في وجهي وهو يبتسم :
— أهو دلوقت أنا مهمت ليه بتكبرى علينا .. لك حق يا بنتى ..

وانحنى في حركة مسرحية فائتكر :
— احترامتنا يا القندم .. احنا خدامين السيادة ..
والثقت إلى محمد ناجى قائلاً وهو يغمز بعينه :
— حضرتها يتنقل عز .. موش كويسة دى ..
كان يوسف يقف عند الباب ، ينظر إلينا ، وأيس على وجهه أى تعبير ، ولما
التقت عيوننا ، استدار واختفى ..
وبخلت امرأة عجوز تبحث عن أنور قالت له وهي تتنهد :
— لنت رحت هين يا أنور ..
فمال أنور على أننى وهمس ..
— شايقة الكركوبة دى .. أوعى تسيبنى ..
ثم التقت إلى الكركوبة هاتفاً ..
— أنا جاي يا دوحى ..
وجذبني من يدي ، وذهب إلى شلة من العجائز وجلس وسطن وأجلسني
إلى جواره .. قال لهم مشيراً إلنا :
— تعرفوا بنتى .. سامية سامى
وارتفع أكثر من تطلق ساخر .. فصاح :
— أيوه اشنوهموا أحسن والنبي مغلياني ..
وجمت ، وقد فقدت قدرتي على الكلام ، وانطلق أنور يثرثر ..
— سما فيش حد مريحني في الدنيا دى .. حياتي كلها شقا في شقا .. وأنا فقير .
ما كنتش حد يسأل عني .. اى حنة واد هلفوت لابس جزمة مقطعة .. قلت
بلاش يا واد تيقى فقير .. وحرقت دمي لحد ما بقى عندى فلوس .. دلوقتي
بيقولوا .. شوفوا عنده إيه . شوفوا الهافوت الكحيان بأه معاه فلوس
إزاي .. إن شاء الله يموت ..
صاحت أكثر من واحدة في صوت تلعب به الخمر ..
— بعد الشر عليك ..
فنظر في عينيها ولحده واحدة وهو يقول :

- يعرفوا حتى اسمي .. يتعمى موتى .. عثاش مورثى . الست الى
منكح . سر معدناش أسنان .. أه يارى . أه الموت صحيح .. يعني لكبر
مقلب عمة ميه رسا .. ح أوصي أتى اندخن ومعايا فلوسى . والا شوفهم
ينمتعو بالفلوس .. وأنا امرى متفتح فى الكفن . فناككت أموت تانى . ككت
أتشبح . وأمسك فى الكفن وأرفع بالصوت
وعال عى أدسى ، هاتار فصول من حوانا ، وهمس بصوت حفيض .
- ح تروحي معايا الليلة ..
همسست

- لا ..
فصاح بأعم صوته ..
- إن شاء الله انتى الى تموتى يا سامية يابنت أنور .. وأفرح فيكى .
ثم عاد وعال على أذنى وهمس بصوت فيه نبرة خوف

- أوعى تقول ل محمد . أهى دى أموتك فيها بصحيح .
وصحكت ، وجاء الرياضى ، واقترب منى ، وقبل أن يميل براسه ، صاح
فيه : نور .
- حسب . أحسن دى بتعض
وهمس الرياضى
- تسعنى ياعدموازيل فى كلمة .

نهضت وسرت معه إلى أحد الأركان . وقال لى وهو يفسح كفه الغليظ على صدره
- أنا بسيوسى سكرتير معالى الوزير .
وهرش ففاه ، ثم قال وهو يقر بأصمعه على كفتى
- معالى إوريين عده حفلة بكرة الساعة أربعة معد الظهور .. حفلة على
الصبق . أنا ح أفوت عليكى وأحذك هناك .
حدث رضى فى حدة ، فالتقت عيناي بيوسف ، كان مازال يتحدث مع
لداكتوريد ، وحول عيبيه بعيداً عى . ككت أصيح وإناديه .. ككت خائفة

من الحيوان الذى يعف أمامى ..
قلت بصوت غير مسموع .
- موش ح أقدر ..
قال الحيوان بلهجة أمره ..
- ما تزعلش معالى الوزير .. أنا هانا ما بدريش على زعله .. ولو عرف إبت موش
جاية .. ح يزعل من محمد بيه . ويسيب الحفل دلوقت ..
قلت متوسلة
- طيب كلهنى بكرة .
قال فى هدوء وحشى :

- ح أكلمك .. أنا عندى تمررة التليفون ..
وجريت ناحية يوسف ، فلم يبد عليه أى شيء ، وتذكر الدكتور زيد أن عندما
رأتى أن من سيجاره غير مشتمل ، فأخرج علبة الثقاب ، وقدر وهو يشعل
سيجاره :

- أنا شايك مبسولة يا مدموازيل .
وقبل أن يكمل حديثه ، كان يوسف قد ابتعد عنا .
ماذا به .. أهو غلصب منى ، لخاصمعنى ..
وسمعت الدكتور يسألنى :
- هيه .. علامة إيه فى السنيما ؟

- ولا حاجة .
- أنا بأسمع منك كلام عظيم ..
- كله دعاية ..
قال وهو يفتل المدخن فى هيسى :
- لو السنيما ما هيجيتكيش تعالى عندى فى المستشفى ..
صحت فى استنكار
- ممرضة ..
قال محتجاً

— وهبها إيه .. ح تكسبي فيها زى السيئنا واكثر ..

ثم قال بلهجة مسرحية

— دى مهنة شريفة .

ثم ضحك قائلاً وهو يشير حوله إلى المدعوين :

— تعرف أنا باكسب إزاي . لأن فيه بنات حلوة زيك في الدنيا .. الاحلام

بتداعب خيال العراجلين .. عايزين يبقوا شباب .. يشوفوا واحدة زيك ..

وتانى يوم يكونوا عندى في العيادة .. لو واخدين لوصة في المستشفى .

قلت وأنا قاوم ثورة من التحدى تجيش في صدري :

— كلهم نصابين ..

فنفث الدخان من جديد في وجهي وقال :

— لا .. ما تقوليش عليهم كده .. دول كبارات البلد .. وانت اسمك شابة

صغيرة .. بكرة تقهسي .. وتقدرى ظروفهم .. دول عندهم مسئوليات ..

وعايزين يتجهجوا شوية .. عايزين يفرلواشوا .. عيشتهم موش سهلة ..

وقال لي بيتا من الشعر العربي الفصيح ، لا اذكرك ..

ولجأة جمحت عيانه وهتف كاللصوع :

— شهدي باشا وصل ..

وقبل أن انتبه ، كان كل من في الحفل قد هب وانفأ ، السيدات والرجال ..

وتزاحموا على رجل أبيض سمين ، وجهه جعمر ، شعره مسجوب ، وفي فمه

سيجار اكبر من السيجار الذي كان يشربه الدكتور زيدان .. كانوا يهيئونه في

احترام شديد ، ما عدا أنور ، صاح فيه .

— ادبني قرش يا باشا .. والنبي ادبني قرش ربنا يخليك ويجعل بيت

المسننين عمار .. بيقولوا فلوسك بتحبيب البركة ..

وأعطاه شهدي باشا نصف ريال فأخذه وقبله . ووضع على رأسه ثم عاد

وقبله . وجعل يتفرل فيه . تقدمت بغير وعي مني إلى شهدي باشا ، كانتني

سومة ، وبغزت عيانه الضيقان في عيني ، وسمعت صوت محمد تلجج

يقدمني له :

— مدموازيل سامية سامي .. تجمة حديدة في السيئنا ..

قال وهو يصافحني بيد الية طرية :

— بينسوار يا مدموازيل ..

في الصبيحة خاتم فيه نص ماسي لا يقدر بشن .. وفي رباط عنقه يافوته

حمرء .. كان يتحرك وكان حوله هالة من نور ، والعميون ، كل العميون

تراقبه ، ولح يوسف مبتهج ، وصاح لأول مرة :

— ازيك يا يوسف .. يقال مدة ماشفتكش .. هيه عامل إيه يا ابني ..

والف ذراعاه حول كتف يوسف ، وانتحي به ركناً . وجلسا وحدهما ، وكان

محمد ناجي ينظر إليهما وعلى وجهه علامات انفعال غريب ..

وصاح أنور سامي من بعيد مخاطباً شهدي باشا ..

— يا باشا .. أنت قاعد بعيد عنا ليه .. احنا عايزين نلعب روليت ..

قال محمد ناجي :

— بعد البوفيه ..

وتقدم من شهدي باشا وقال :

— اتفضل يا باشا اتقدمنا ..

والفتت شهدي باشا إلى إحدى السيدات ، وقال لها :

— اتفضل ..

وتبهمهم جميع المدعوين ..

وجدتني أتأخر .. حتى ذهب الجميع إلى البوفيه ، ما عدا يوسف

قلت وأنا أقترب منه :

— موش ح تقهسي ..

— ما ليش نقس ..

— أنا كمان .. ح اقعد معاك ..

قال وهو ضاحك :

— أنا عايز أمشي ..

— وأنا كمان ..

— ما تخليكي .

— تعالى .. تخرج .

وأمسكت بذراعه .. وسرنا ناحية الباب ، وقبل أن يتبته أحد إلينا ، كنا عبرنا الحديقة ، ووصلنا إلى الشارع . لم يتبته إلينا سوى توني الذي يبح مرة واحدة ، وكلته يتتابع .. ثم مسكت

بإلترجم من كنوس المارتيني التي شربتها ، كنت متيقظة ، منتبهة الحراس ، أشعر بتحفظ وحيوية دافئة ، وكان تفكيري صافياً ، وهكذا خيل لي ، وكان يوسف يسير إلى جوارى صامتاً ، لا يشعر بوجودي ، أو يتجاهلني ، وقبل أن أقول له شيئاً .. فكرت .

هأنذا بين عالمين ، بين حياتين ، تلك الحياة التي تركتها ورائي في بيت محمد ناجي ، المجد والشهرة والحببة الصاخبة ، والثراء ، والأتوار ، والسيون التي تتخاطفني . وكل الأشياء التي أحلم بها وأتمناها .. كل هذا ، أو .. أو يوسف .

إمه ليس واحداً منهم ، ولو أبقيت عي حبه لسيضيع مني كل شيء آخر ، ولو قبلت العروض التي شامتت عني في بيت محمد ناجي . لسيضيع مني يوسف

لأرد أن أختار الآن ، فإما أن أصالحه وأتمسك به ، وإما أن أتركه هذه اللحظة وبغثى .

كانت أفكارى واضحة ، إلى حد يثير دهشتي من نفسي ، المستقبل مفتوح أمامي محدداً ومرسوماً كالطريق الذي تسير فيه ، ونظرت إلى يوسف ، وجهه شاحب صامت ، يبدو عليه الإجهاد ، ولم أترد في الاختيار ، كنت أحس

بقوتى وشبابى وجمال . لقد اخترت يوسف . هو الذى احبه ، هو الذى
اريدته ، هو مثلى الاعلى .. نعم . اخترت لك الشاب الذى يسير إلى جاتى ،
الذى لا يحوطه مجد ولا شهرة . الذى لا يملك عربة .. نعم اخترته .. فهو
وحده الذى يملك أن يقدم لى العنان .

وكما يصعد يوسف سلم الصلابة ، ساعدنا أنا سلم التشليل ، ساقولم
الإغراء ، ساقولم الشهرة السهلة . إن ما يعرضونه على أن يشفيئى ، ولن
يخلصنى من تعاستى ، أنا الآن اعقل واذكى من أن احطم نفسى ، سأتحدى
الجميع ، وسأصيح اعظم معنلة ، واعظم عاشقة .

يوسف .. أنت سلكت ليه ؟

تعيلن ..

باين عليك متضايق ..

أبدأ ..

أنا زعلتك لى حاجة ؟

لا ..

طيب كلمنى .

أقول إيه ؟

أنت بايخ ..

قال متنهداً :

صحيح .. أنا بايخ ..

وكنا قد وصلنا إلى مفترق طرق يقف عنده تاكسى ، فالتجه إليه يوسف .

ح نروح فىن ؟

قل لى حدة :

ح أروحك ..

أنا موش عايزه أروح .

فنظر إلى مستفسراً ، فهمست :

تعمل نروح الشقة .

قال لى نهشة :

دالوقت ؟

قلت متوسلة :

عايزه أقعد معاك شويه ..

وذهبتا إلى الشقة .

حاول أن يجلس بعيداً عنى . ولكننى جديته إلى انكسة ، وجلست بين

ذراعيه .

يوسف يا حبيبى .. موش معقول ماتقوليش إيه لى مضايك .

زفر الهواء وقال لى ضيق :

أنا نفسى موش عارف .

أنا عارفه .

فسألنى بعينيها عما أعرف ؟

فقلت :

الناس اللي كانوا هناك .. حاجة غريبة .. موش كده . زى المجانين ..

فابتسم ابتسامة حزينة ، فأسرعت أقول :

ومحمد ناجى .. تعرف . الرجل ده موش بيعبك زى ما أنت متصور ..

تفكرى كده ..

شفت كان بيهاجمك إن زى .. هو فكرك إيه .. إلا ساعة ماجه شهيدى باشا

وأخذك على جنب وقعدتم تتكلموا سوا . ياساتر على هنه .. كان بيوصلكم

زى ما يكون فيه حاجة بينكم أنتم الاثنين وح يموت هلشان يعرفها .

فقال لى صصية .

ح يكون بينا إيه .. أنت بس مشيأ لك .. ماقيش حد ساعدنى زى محمد

ناجى ..

الحقيقة أنا موش فاعماه ..

رجل مليب .. بس بيحب يتكلم عن نفسه كثير ..

ياى .. ده مغرور ..

- يستحق إله يبقى مغرور .

قلت له في حدة

- يوسف أنت موش عاجبني تعرف إيه اللي مضايقتك . إنك مستسلم
لهم .. سايب نفسك يعملوا فيك زى ما هم عايزين .. يقولوا عليك زى
ما يقولوا .. لعبة في أيديهم .

وأنا أقول له هذه الكلمات ، أدركت أنني أتحدث عن نفسي أنا أيضا .. فلقد
كان هذا هو حالى

وصمت ..

- دول هاكرينك أهبل

كانت كلمة قاسية ، صدمت ، جعلت وجهه يحمر ، وصدره ينتفض ،
وكأنه يريد أن يتعد عنى

- أنا ضايقتك يا حبيبي .

قال في ألم :

- عايزانى اعمل إيه .. أنا ماقيش بيني وبينهم حاجة غير الثقل .
وباعمله .

قاطعت

- لكن انت .. أنت عايز إيه . عايز تبقى إيه ؟

نظر إني في حيرة ، لمسائه

- عايز تبقى زى محمد ناجي ؟

قال بسرعة .

- لا ..

- آمال عايز إيه ؟

- موش عارف .. موش عايز حاجة ..

قلت وأنا لقيه في جيبه :

- لكن أنا عايزاك تبقى أحسن منهم كلهم .. موش ده اتفاقنا .. انت ح تبقى
أحسن صحفى في مصر .. وأنا أحسن ممثلة .. وقلت .. وهصمت في أنه .

- بكرة يبقى لك الجرنال بتاعك .. وأنا بقى في شركة أفلام ..

فابتسم في مرارة وقال

- انت بتحملى .

قلت محتجة

- بأحلم إيه .. هم الناس دول أحسن منى ومنك في إيه . اتولدوا من طينة
تامة ..

- زى ما يكون كده ..

قلت في صدار

- بكرة تشوف ..

ورأيت في عينيه لغة غريبة ، وضعتني إليه بقوة ، وقيلاني . استسلمت
لقبالاته ، كنت أشعر أنه في حاجة إني ، وأنى يجب أن أعطيه وأعطيه ،
أحسست بشفتيه تمرحان في وجهي وعنقي ، وكأنني سابعة في الهواء ، بعيدة
عن الناس ، بعيدة عن الدنيا كلها ..

وأغمضت عيني ، ولم أعد أفكر في شيء ، حتى يوسف لم أعد أفكر فيه ، لم
يبق لي إلا ذلك الشعور الغريب بانى في عالم مجهول ، عالم لي أنا وحدى ،
دائى ، ساهر ، ليست فيه أفكار ولا خيالات ولا عراطف ، وإنما فيه نشوة
وحنان ، ولم أعد أسبح في الهواء ، وكأنني أطفو على صفحة محيط كبير عميق
هادىء

وفتحت عيني ، وكان يوسف قادراً إلى جوارى ، ول عينيه حب وكسل
وحنان .

وأبتسمت .

وأبتسم ..

كأننا نتعارف لأول مرة ، وحكيما لنحسنا حكاية طويلة بلا كلام ..
في تلك الليلة ، أيقنت أنى ارتبطت بيوسف طوال حياتي ، إنه حياتي ،
وقررت أن أبذل كل ما أستطيع كي لا أتركه يفر منى . سأتزوجه ، سأهجر

أمى ، سامحىر التمثيل واتزوجه .. سامحىر كل شيء ، وسامتنوج بيرسيف
واعيش معه .

●●

اتصل بى بسميونى فى الصباح ، ذلك الحيوان الرياضى ذو المضلات ، كان
يدكرنى بموعدى بعد الظهر مع الوزير ، رفضت طبعا ، فحاول أن يهددنى ،
ولكننى شتمته ، وانتهت المكالمة .

قلت لنفسى ، إنى اتصرف كما لو كان حتى لقوى من أى شيء ، كانى
تحررت من حياتى السابقة فى غمضة عين ، ولكن .. هل أستطيع حقاً أن
أتحرر من حياتى السابقة ، إنها مليئة بالأشباح .. مدحت ، واتور ، ومحمد
ناجى ، كلهم لى بيرحمونى ، كلهم يعرفون بيرسيف وقد يقولون له ما يحطم
حبى .

لا بد أن أجد مخرجاً من هذا المأزق الذى أنا فيه .

ولما جاء الليل ، ذهبت مع يوسف إلى الشقة ، والحزن يطبق على صدرى ،
وشرىنا البيرة ، وأسرفت فى الشراب ، حتى دارت رأسى ، وبكى . لم يدرك
يوسف سر بكائى ، ونظر إلى أى وجهية ..

وفجأة ، وجدتنى أنطلق فى الكلام .

قلت له والدموع تنهمر من عيني

- أنا قتلت بابا يابيسف .. فاصفر وجهه ، وقال بصوت مرتعش :

- ما تقوليش كده يا حبيبتى ..

- أنت ما تعرفش إيه اللى حصل .. أنا ما كنتش كده زمان يا بيرسيف ورويت له

قصتى مع أبى ..

●●

كما نسين فى العاصفة ، أبى وأمى وأنا وشقيقتى إنصاف ، وكنت سعيدة
دائمة المرح ، فخورة بأبى ، لأنه يرتدى بذلة ضباط الجيش . على كتفه تاج
وحمة ، والعساكر تهب واقفة كلما راته ، وترفع له يدها بالتحية ، كنت أظن
أه لا يوجد إسمان فى الوجود أهم من أبى ، إنه أحسن من كل الناس ، حتى

الملك . وكان يحبنى أكثر من أبى فرد آخر فى أسرنا ، إذا تشاجر مع أبى
وخاصمها ، اخذنى معه ، وسار بى فى الشوارع ، وجلس معى فى المقاهى بين
اصحابه .. ثم عاد بى إلى البيت ، وطلب منى أن أنام فى أعضائه ، وتكون أبى
قد تركت حجرته ، ونهيت لنتام مع إنصاف . لم أكن أفهم لماذا يتشاجر أبى
مع أبى ، ولكنى كنت أحتاج له ، بل كنت أغار من أبى إذا صالحته ، ورايتها
تضحك معه ، وتتركنى لنتام مع إنصاف ، وتذهب هى لنتام معى فى حجرته ،
وتخلق عليهما الباب ..

ثم كان عصر يوم ، خرجت فيه أبى فى الصباح ، وتركتنا فى البيت يد
طعام ، وكنت أظن أن أبى مسافر إلى أرضه بالقرب من طبعا كما قالت لنا
أمى ، ومضت الساعات وأمى لا تعود ، وأبى غائب ، وشعرت بالخوف ،
حتى أن موعد الفداء فات دون أن أحس بالجوع ، وزاد من غوى أن إنصاف
شرعت تبكى لأنها جائعة ، هبطت السلم وصعدته مائة مرة وأكثر ، أنتظر
عودة أبى عند الباب ، لوعودة أبى ، وكنت أتمنى أن يعود أبى قبل أمى ،
لاشكوكها له ، ثم أسمع وانتظر عند النافذة ، ولا أحد يجىء ، لا أبى
ولا أمى ، وإنصاف لا تكف عن الصراخ .. أنا عايزه ماما .. أنا عايزه ماما ..
ولم أتمالك نفسى فبكيت أنا أيضاً ، حتى كان العصر ، فرايت من النافذة عربة
حنطور تهبط منها أبى ، قابلهما عند أول السلم ، وكان وجهها حزينا ولهيا
قسوة ، وبلا وهى سألته باكية :

- بابا فىن ياماما ؟

قالت فى خشونة :

- أوى تجيبى سيرته على إسانك أنت فاعمة ..

- ليه ياماما ؟

صاحت فى قسوة لن أغفرها لها

- خلاص .. أبوكم سابكم .. موش عايز يشوفكم ..

- موه فىن ياماما .. أنا عايزه أبوك له ..

- آخرى يابنت .. إصا اتطلقنا خلاص ..

لم أفهم ماذا تعنيه أمي بالضبط .. ولكنني أدركت أن شيئاً خطيراً قد وقع ..
وعندما مرت الأيام وطال غياب أبي ، بدأت أدرك أنه لن يعود . ومنذ ذلك
الوقت ، ذهب عني مرحي ، وفقدت سعادتي .
كنت أضحك والعب . وبعد ذلك بسنوات كنت مازلت أضحك والعب ،
وكني لم أكن سعيدة أبداً ، حياتي كلها أصبحت تظاهراً بالحياة .
وعندما كبرت ، كنت أثوبد لأمي ، أضحكي لي عن أبي ، وكانت تذكره
بسوء ، وتשב أيامه ، وتلحن عيشتها معه ، ولكنها أحياناً كانت تضحك ،
وتروي كيف تزوجها .

كانت وقتها في مصر الجديدة ، وبم تكن مدينة كبيرة كما هي الآن ، مجرد
بيوت قليلة متفرقة ، وصحراء ممتدة لا أول لها ولا آخر ، وكان أبي يعارضها ،
يسر أمام بيتها في أوقات محددة ، ويلعب واقعاً رأسه إلى النافذة المغلقة التي
تقف وراءها ويظل يروح ويحرج ، حتى تفتح النافذة خلسة للمصلحة خالفة ثم
تغلق خشية أن يراها أحد ، وتقدم أبي ليتزجج منها ، ولكن أهلها رغبوا ،
وتزوجهم من رجل عجوز ولكنه غني .. ولم يدم الزواج أكثر من ستة شهور ،
فقد ابتكرت أمي كلاماً عندها من حيل ، حتى طلقها العجوز ، وتزوجت أبي ..

تقول لي أمي شيئاً لا أصدق ، ريخيل إني أنها اخترعت لترضى غروورها ،
إنها تقول إن أبي كان يذهب في الليل ومعها أصحابه إلى بيتها الذي كانت تعيش
فيه مع زوجها الأول العجوز ، وكان يغني لها على أنغام العود ، وكان العجوز
يبيد دهمته من الضجة خارج البيت ، ولا يلهيهم سرها ، إذ يظن أنهم جماعة
من السكارى ، لم أصدق هذه القصة ، ربما لأنني قراتها في رواية سيرانودي
برجرارك .. وأمي كانت دائماً تتباهى بعملها ، وتحب أن تفتخر القصص
التي تؤكد سحر هذا الحلال .. وربما كانت القصة حقيقية ، ولكنني لم
أصدقها ، لأنني أعلم من أمي ، ولا أريد أن أصدق أن أبي كان يغني لها في
الليل ، بينما هي تكتفه ، وتضطره إلى طلاقها ..

ومع مرور السنين ، اكتشفت أن خير طريقة للخلاص من عذابى هو أن

أبى ، وأصدق أمي ، وكان يحرق نفسي أن أبى لم يسأل عني ، كان هذا
فوق طاقتي

وذات يوم ، وأنا صبية في الخامسة عشرة من عمري ، نادى أبى ، وكان
في يدها خطاب ، وقالت لي وهي تصعصع ثغمتها هارئة :

« عايزه تشوي أبوكي .. بعد كل الصنين دي ، باعت يسأل عنكم ، ويقول
إنه قاعد يوميح في مصر في لوكاندة النيل .. لو حبيت تروحيله أنتي وإصااب ،
اسألوا عليه هناك .

ترددت ، ولكن سرعان ما تغلبت على ترددي ، وقررت أن أذهب إليه ، رغم
امتعاض أمي ، أما بإصاف فرفضت أن تذهب معي .

كان أبي قد أحيل إلى الاستبداد ولم يعد يرتدى بدلة الضابط .. واشتعل
رأسه بالبياض ، قانص في بهو الفندق ، وجلسنا على مقعدين فخيرين ، وسط
خضبة الداخلين والخارجين ، وتبادلنا بضع كلمات خجولة لا معنى لها ، كان
اضطرابه أكبر من اضطرابي ، ولم يكف عن التدخين ، وكان صوته مرتجفاً
حزيناً ، وسألني عن أبي وعن إنصاف ، وسألني عن عمي محمود ، وكنت
أجيبه ، ولكنه بدا كأنه لا يستمع لي ، وطلب مني أن أسافر معه إلى طنطا
واقضى معه يومين ، فقلت له :

« لا أقول لاما ..

ولكنني لم أكن أرغب في السفر معه ، إذ شعرت أنه لم يعد أبي ، إنه
شخص آخر ، أحس نحوه بمشاعر تهمني ، لا أدري ما هي ولما تركته ..
مشيت في الطرقات ذاهلة ، وكان مطرقة خضفة موت فوق رأسي وهشته ..
قبل العيد الكبير ، وصلني خطاب منه ، لم يرسل الخطاب إلى أمي ، بل
كتب اسمي على الخطاب ، وكان فيه كلام دريب ، إنه بائس ومنحوب ويريد أن
يراني ، حتى أشغل البهجة على قلبه في العيد .

قلت أمي يسخرينها المعتادة

« ومن امتي يفتكره حضرة في العيد !

قلت لها في حمرة .

- اعمل إيه يا ماما ؟

صاحته

- اظن عايرته تسامري له .

وشجعتنى كلمات امى فتجاهلت الخطاب ولم أسأله ، وفى الحقيقة كنت مدعوة مع يولاندا إلى عزبة صديق لها عدده عرية حمراء كبيرة شيفروليه ، وكنت افصل ان اذهب مع يولاندا على ان اللى طلب لى . كانت العزبة فى النعياط ، دهنتا إليها ثانياً يوم العيد ، وتضمننا اليوم كله هناك ، ولما عدت إلى البيت فى المساء ، كانت هناك البرقية .

مات أبى ..

أتدري كيف مات ، قذف بنفسه من الشباك ومات .. انتحى .

حاولت امى ان تمنعنى من السفر ولكنى هربت منها فى الصباح ، واقتربت من يولاندا النقوط ، وسافرت إلى طنطا وحدى هناك فى شارع بورسوسة ، بيت صغير من ثلاثة طوابق ، أبى كان يسكن فى الطابق الثالث ، وهذه .

كانوا قد دفنوه ، واستضافنى جاره ، رجل سمين طويل ، له زوجة سمينة طويلة مثله ، بيتهما ملى بالأطفال ، وأخذونى إلى المقابر وبكيت وبكوا ملى . وقال الرجل السمين ، إنه واثق ان أبى لم ينتحر ، لانه رجل صالح وتقى ، وقال : إنه يشك فى ان احد أعدائه قد قتله ، لانهم كانوا ينازعونه على أرضه . تلقت هذه القصة وعشت بها . ولما رويتها لأمى لم تصدقها ، فثرت عليها ، ولكننى فى قرارة نفسى كنت أعلم ان احداً لم يقتل أبى . وأنه قد انتحى .

انتحى لانى لم اذهب إليه ، لو كنت ذهبت لأدخلت على قلبه البهجة ، ولأنسى همومه ووجعته ، ولكننى لم اذهب إليه ، فانتحى .. انا قتلت أبى .. اليس كذلك .

●●

شعرت براحة كبيرة بعد ان رويت ليويسف كل شيء .. وأجسمت برغبة فى

النوم ، كائن لم أتم منذ سنين ، صبرى استراح .. ولم يعد هناك شيء يؤرقنى ، حتى مخلوق من أتور ومحمد ناحى ، تحولت إلى تغاهات ، بعد ان قلت ليويسف قصتى مع أبى ، أستطيع ان اعترف له بكل شيء ، ولا حول ولا خوف .

سأستريح قليلاً ، أريد ان أقضى بصبح دافئ فى صمت ، قبل ان امضى فى اعترافاتى . نعم .. سأقول له كل شيء .. إنى اعرف ان صاحب هذه الشقة هو محمد ناحى ، وأنه دعانى للغائه هنا ، ومازال يدعونى ، سأقول له إنى ذهبت إلى شقة أتور ، وإنى كنت أستسلم له . سأجعله يراى كما أنا ، لم أعد أطيق الكذب ، ولم أعد أطيق الخوف . وسمعت صوت يوسف . متهدجاً عميقاً وكأنه صادر من مكان سحيق .

- تعرف يا سامية ..

وسكت .

ماذا يريد أن اعرف .

ثم قال :

انا كمان قتلت أبويا ..

بعد ليلة الاعترافات ، لم يعد بينى وبين يوسف حجاب يسترخيانا ، عرف كل شيء ، وعرفت كل شيء عنه ، إنه شيء لا أستطيع ان اصفه ، يكفى ان اقول إنى أصبحت انتظر إلى يوسف .. فلا أرى وجهه بل أرى أيضاً حياته وذكراته . كنت أرى روحه ، ولا أشك أنه كان يرانى أيضاً بهذه الطريقة .. حدثنى أولاً عن أمه التى ماتت وهو صغير ، كل ما يذكره عنها أشياء تبدو تافهة ، ولكنها محفورة فى قلبه ، يذكر جسدها السمين وهو يجرى مندفعاً إليه فيسقط على الأرض قبل أن يصل إليها ، يذكر عينيهى الواسعتين وهما تبتسمان له ، يذكر فستاناً قصياً بالترتبات ترتديه مساء يوم كثير الأوار ، وقد بهره جمالها حتى أنه لم يحول عينيها عنها طوال الليلة حتى نام ، ما مناسبة تلك الليلة ، إنه لا يذكر .

كل من يحبها ، ولم يكن يهتم كثيراً بأبيه ، ولا يشعر به ..

تعرق بإسماية .. لما ما حبيتش أبويا .. لما شفته بيعيط .. تصدق دى ..
 كان بيعيط كل يوم زى اعيل الصغير .. كنت أجلس له وأشوف دموعه تازل على
 حده وعيديه لوبها أحمر ، وإبسطة لاه ح يموت نفسه عليها .. و حبيت ..
 موش بس حبيت .. أحترمته .. كان حزنه على أمى هو أول صلة حقيقية بيتنى
 وبنيه ..

تعود أن يعيش مع والده بعد موتها معترلة ، يذكر ، ويجتر أحزانه ،
 ويحلم بأمه ، كنت تأتيني في المنام وتقتله وتمانى وينام معها في السرير .. كما
 كان يفعل وهو طفل صغير ، أو يرى نفسه معها في مركب شرعى في بحر هائج ،
 وهو يبكى والدموع تبلل وجهه ، وهى تضحك ، وكان يقيق من حلمه فزعاً
 يخشى أن يموت ، ثم يفتقدها ويفتقد حنانها ، فيبكى وهو يظن ..
 وكان يستيقظ في الصباح ، فيظن إلى وجه أبيه ويتذكر أمه .. ويتسأل ،
 لماذا ماتت ، لماذا تركت أببتي ، أهو عقاب نزل عليه ، وما الذى جناه حتى
 ينزل عليه هذا العقاب ، ويتناول افطاره صامتاً ، ثم يخرج إلى المدرسة حيث
 يقضى اليوم منطوياً على نفسه لا يلعب مع أحد ، ولا يهتم بالفضة التى تدور
 حوله ، كان المدرسون يعجبون بهدونه وأدبه ، ولكن حتى هذا الإعجاب لم يكن
 يعنيه فى شيء .

كان انتماءة ببسندونى لانى شاطر .. كانوا متفانين منى ، وفكرين
 أنى ما بالعيش معاهم علشان أنا والد صمام عايز أطلع الأول .. لكن تصدق
 أنا ما كنتش عايز حاجة أبداً .. لا أطلع الأول ولا الآخر .. وكان يقدموا في
 الفسحة يعلمو ، إلى عايز يبقى قايظ ، وإلى عايز يبقى طيار وإلى دكتور ..
 وأسأل نفسى فى سرى ، أنا عايز أبقي حاجة .. أمى دنيا أنا عايش فيها
 والسلام .. كل اللى بافكر فيه هو أيام ما كانت أمى عايشة .. بنشوقها ..
 وأقولها يا أمام .. وتنادينى ..

تعرى .. أنا تعودت ما أطلش حاجة أبداً .. إيه اللى حيجينى أحسن من
 أمى .. وأهى راحت .. ولو أخترت أى حاجة من الدنيا دى ما هى ح تروح
 مسى مرهه .. معيش فايدة

وكبير يوسف .

وعرف أن لوالده أقارب اغنياء ، وأبى بك . واسه مدحت .. واسه
 سعد ، كان يصعد مدحت ، لا لانه غنى ، ولكن لأنه أمأ ، وحين إليه في ذلك
 الوقت أن مرشاه مدحت وسرفخامة بيته ، هو وحيد أمه

.. كنت بأقول في سرى .. ده عنده أم ، وعنده أخت .. وأنا الوحيد ، عنديش
 حد .. ويمكن علشان كده حبيت سعد استكرتها على مدحت قوت
 اخدها لنفسى لما حجتها ما فكرتش أنها غيبة وإن فقير كنت بأقالبها في
 سطوح بيتهم ونقرقز لب ، وأبوسها ويتكلم في حاجات عيبطة لحد
 ما فوجئت أنها اتحطبت ، زغت ، إنه حسيت أن ده كان لازم يحصل ،
 راحت زى ما راحت أمى .. لكنى فسلت افكر فيها .. ولت لنفسي دى غيبة
 وأنا فقير .. والى اتجوزها دكتور من عيلة غنية وكبيرة ، وأنا لسه طالب في
 الجامعة ما أسواش سليم .. قلت ، لو كنت امتنت لحد ما اتخرج وأشتغل ،
 لكنها ما فكرتش ، كانت مستعجلة على الجواز . الناس كلها بتجربى ورا أى
 حاجة .. اللى عايز فلوس .. اللى عايز بتجوز . اللى عايز يبقى حاجة مهمة ..

إنما كنت عايز سعد وبس . لكن علشان أوصل سعد ، لازم أعوز حاجات
 تانية كتير .. موش قادر أوصل لها .. وفى الحقيقة موش عايزها . تعرق
 بإسماية .. أنت الوحيدة اللى سيبتي كل حاجة علشانى .. موش غريبة دى ..
 مع كل الظروف اللى أنت فيها .. لو كنت جيتى هنا مع سعد ناجى كان يبقى
 لكى عذر .. لو كنت مشيتى مع نور سامى ما كانش حد قالك حاجة .. لو كنت
 فضلتى مع مدحت كنت اتجوزتني .. لكن أنت سيبتي كل شيء ، ورضيتى
 بيه .. شفقتى قد إيه احنا زى بعض ، على العموم كل ده يهون قدام المصيبة
 اللى حصلت لأبويا .. تعرق إنه اتجوز خدامة كانت بتشتغل في بيت مدحت
 وروى لي قصة مبروكة ..

كان مدحت يحببها عنها ، وروى له يوم صيظته أمه معها على السم ، وكان
 يستمع إلى حكايات مدحت في فضول ، ويدفئ من حرارة سما انتقلت

مبروكة إلى بيت يوسف . وجد نفسه مندفعاً إلى مغاراتها .. ولم يجد صعوبة في ذلك ، إذ شجعتة هي

في عصر يوم كان أبوه خارج البيت ، وهو جالس يذاكر ، فسمعها تغنى في الحمام ، ولم يستطع أن يقرأ حرفاً ، فقام وذهب إلى الحمام ، فوجد بابها مفتوحاً ، وهي واقفة أمام المرأة تمشط شعرها ، ولما رآته ابتسمت في دلال ، ولم تكف عن الغناء ، اقترب منها ، فظهرت إليه في جراحة ، فطلب منها أن تصنع له فنجان شاي ، وعاد إلى حجرته ، وبعد قليل دخلت عليه وفي يدها كوب الشاي ، وضعت أمامه ، ثم وقفت إلى جوارده وقت الضمت جسمها به . رسالته من الكتاب الذي يقرأ فيه . ولم يمالك نفسه فحبذها فسقطت على حجره . وكانت هذه بداية علاقته بها ..

رجاء يوم ، فلاحظ أن مبروكة تجلس مع والده ، لم يصدق عينيه وانتهر أول فرصة غاب فيها والده عن البيت ، وسألتها عن سر جلوسها معه . فقالت له في وقاحة : إنها ليست خادمة ، ولماذا تريد أن يعاملها أبوه معاملة الخدم ، بينما هو يعاملها كعشيقة .

ومرت شهر ، فإذا بالموقف يتطور إلى ما هو أخطر ، فيقع الأب في براثن مبروكة ويقدر الزواج منها ..

.. كنت عايز أقول على اللي بيني وبينها .. لكن ما اقدرتش .. خفت أقوله إنها بنت فاسدة وخبيثة ، وبعدين ما يسعشني كلامي ويتجزؤها برضه .. فطشت من البيت ، واحتقرت نفسي ، واحتقرت أبويا .. قلت ده موش أبويا اللي عرفه .. أبويا مات .. أمويا موش ممكن ينسي أمي ولا يخونها .. بعد شوية مات أبويا ، حسيت بالندم ، ماكاش لازم أسيبه لو كنت قلت له يمكن ماكاش اتجوزها .. ولا كيش مات .. سكوتى وبعدي عنه هوه اللي قتله .. بقيت موش طابق نفس .. الدنيا دى بقت كلها كذب في كذب ، ماكش مريحنى إلا حاجة واحدة .. أن أبويا اتخلص من مبروكة ، ورجع لأمي .. حاولت مبروكة أنها تشوفنى بعد كده .. لكن رفضت ، بقيت أهرب منها .. دى واحدة معتداهش شرف ولا أخلاق .. مستعدة تعمل أى حاجة .. تصورى لو عشت معاه ،

ورجعت علاقتنا ببعض يبقى شعورى إيه . حاجة تقرب تفكرى عملت إيه . يوم جت الجرائل تسأل عنى ؟ شامت واحد رسام اسمه شوقي بيشتغل عندنا ، صاحبته في تقيقة وراحت تعيش معاه .. كده بسالة .. يبقى دى واحدة أسأل عنها ، والا أفكر أساعدها .. يتصعب على بعض ساعات لما تتمسكن . وتمتل دور العلبانة .. لكن ده كله تمثيل في تمثيل .. أول ما تيجى لها فرصة تهيش فيها ، ولا حدش يقدر يقف قصاها .

وسكت يوسف برهة ثم هز رأسه وقال في بطء وعلى شفثيه ابتسامة :
- ياه محمد ناجى عرف حكاية مبروكة منك .. الراجل ده هربى ما قلىش حاجة

همست :

.. مافيش شيء ندمت عليه في حياتى زى العملة دى ..

ضحك قائلاً :

.. تعرفى .. مافيش حاجة نأكد لى انك بتحسبى زى اعترافك بكل شيء .. أنا مش مصدق اننى لقيت حب بالشكل ده .. انت ح تموضبى عن حاجات كتير كانت ناقصانى .. أنا سعيد .. أسعد مخلوق في الدنيا .. سامية .. أنا موش قادر أصنق نفسي .. زى ما اكون اتجننت .

قلت والسعادة تفسج في قلبى .

.. احنا الاشين مجانين .

●●

عثرنا على شقة صغيرة من حجرين في الطابق الرابع من صارة جديدة خلف سينما بارادى . كانت بلوكية الشقة تعلل هي شاشة السينما . بعد أن دفع يوسف الإيجار والتأمين أعطاني خمسة جنيهات هي كل ما تبقى معه ، فذهبت إلى دكانين الموبيليا القديمة في العتبة الخضراء واشترت من هناك سريراً معدنياً ومرتبته من الفس حملتهما على عربة كاري ، وقضينا الليلتا الأولى في الشقة على ضوء شمعة احضرنا سندوتشات من الأكسليسيور وبطيخا ونلتنا المرتبة إلى البكونة وجلسنا نتفرج على فيلم بالألوان اسمه « سالى »

لريتيا هيوارث وهيكتور ماتيو ، واكلنا المطيخ ياقيدينا واسنفتنا . اكلنا بهم .
وخرجنا منهم .. وكنا سعداء .

ولم يكن يضايقني اهللا يوسف لم اشعر بحاجتي إلى النقود واتا معه ..
كنت ألس اى فستان واسع فى قدمى اى حذاء . وتطلق فى الشوارع ونعود
إلى بيتنا . وكاننا نملك كل شىء .

واحياناً كنت اكتب على اسمى . واقول لها : ابنى ساذب إلى الاستديو
وأطلب منها اجرة التاكسى . موبدا اعطتها فى دعوت يوسف إلى العشاء فى
الامريكين . واكلنا جيلاتى ثم نعود إلى الشقة ونشاهد الفيلم الذى تعرضه
سينما بارادى حتى ولو كنا رايناها من قبل أربع مرات . ولكنى ذهبت إلى
الاستديو مرة بعد أن اتصل بى الأستاذ حلمى وكانت الاخبار قد وصلتته من
روما تقول إن المخرج الإيطالى اعجب بشكلى ، وأنه وافق على أن اسم دور
فاطمة .

دخل علينا أنور سامى ، وما كاد يرانى حتى صاح فى مزح ..
بتعمل ايه هنا ياسامية ..

قال حلمى :

- خلاص واقفوا فى روما عليها فبدأ عليه الفرح .. وهناتى فى حرارة .. وقال
فجأة ..

- ائنت ح تبقى ممثلة عظيمة .. انا متأكد ياسامية ..

كان يتكلم فى تأثر وحرارة ، حتى أنى لم أصدق أنه هو أنور سامى الذى
اعرفه ، الذى يطاردنى ويسخر منى كلما رأتى .

وقالته مرة ثانية وأنا خارجة من الاستديو ، وكان يرتكب عريته فنادانى ،
وعرض عليّ أن يوصلنى ..

صاح ضاحكاً :

- اركبى ، ماتخافيش .. انا موش بيعيج ..

وربكت لم أستطع مقارنته . بعد أن تحول إلى إنسان رقيق فى معاملته فى ،
ولكنى قلقت ببس وبير نفسى ، ماذا أقول ليوسف ، وهل يصدقنى ، وزاد قلقي

عندما وصلنا إلى منتصف شارع الهرم ، إذ تعيرت لهجة أمور وعاد إلى
سخريته .

- شوقى .. أنا عارف أنك بتحبى .. حبى زى ما أنت عابره . واتحورى زى
ما أنت عابره .. لكن بحياتك ح تلاقى كله كلام فاضى .. وموش حيفضل من ده
كله غير التمثيل . وأبو الامور ..

ونظروا إلى بطرف عيه وسالنى .

- موش مصدقاسى .

ضحكت فى صميمية .. ففعل متهدأ .

- بكرة نشوف ..

ولكنه عاد قبل أن يصل بى إلى البيت ، إلى لهجته الأولى . الطيبة . وقال .

- ما تصدقنيش ياسامية . أنا أكبر كذاب فى العالم .. لو كنت بتحبى بحق
وحقيق . قاسمكى فيه بأسفالكه .. اوعى تسببيه .. الحب موش حاجة
بسيطة .. موش موجود ولا فى السوق السوداء .

وصمت وبدأ عليه التفكير ، ثم قال بصوت جاد .

- بس سيبك من السيئنا .. الشغل فيه ما يتفعلش مع الحب والجواز .. هو
اسمه ايه .

- مين ..

- اللي أنت بتحبيه

- واحد ..

- موش عابره تقوليل اسمه ..

انطوت برأسى ، كأننى أقول له وأنت مالك . فصاح مهلاً ..

- ماقيش حاجة بتستغيبى .. ابقى سلميل على يوسف ..

احمر وجهى وارتيكت . فاسرع يقول

- ما تخافيش .. موش ح أقوله حاجة على ائلى حصل بينا .. ده حتى أنا
اتكسف أقول ائنى ما اقدرتش أوصل لشيء معاكى .. تنقى مضيجة ..

وايتسمت . وظن انى فرحت لانه سيكتفم سرى ، ولم يعلم انى ايتسم لانى
قلت ليوسف كل شىء ، وقبل ان اغادر عربته .. سالنى :

- ح تتجوروا امتى .

- كمان شويه ..

- اوعى تسى تعزمينى على العرج .. اتاح اعملك فرح ولا الف ليلة وإيلة ..
واطلق زغرودة من فمه ..

رويت ليوسف مقابلتى لأنور وانا أضحك .. ولكن وجهه تجهم وبدأ عليه
الضيق ، وسالته فى خوف ..

- أنت اتضايقت ..

- أبوه ..

- بس أنا لازم ح أشوفه .. دى شطتى ..

- تنهد وقال .

- أنا عارف ..

- تحب اسبب التمثيل .. أنا مستعدة ..

- هتف فى هزارة .

- لا يا حبيبى .. أنا اللي ظفطان .. لازم اموت نفسى انى ما اتضايقت من
الحاجات دى ..

●●

أول الشهر اعطاني يوسف ثلاثة وستين جنياً .. هى كل ما بقى من
مرتبه بعد أن دفع حساب البوغة فى الجريدة لم اكن اتوقع أنه سيفعل هذا ،
أخذت منه المقود بيد مرتجة . وايقنت لحظتها أنه سيتزوجنى ، قلت وأنا
أضحك فى بلادة :

لما تتجور ح تبقى تعمل كده وتنهيت إلى انى قلت شيئاً خطيراً بلا وعى .
هذه أول مرة اصرح له فيها برغبتى فى الزواج . واجابنى بسرعة وبسلاطة ..
- طبعاً يا حبيبتى ..

ذهبت عليه ليلية .. فعاملت شفتائى آنفه .. لم اكن لرى شيئاً ملمساً وقد
غامت عيائى .

يومها ذهبت إلى خان الخليلي واشترت ابايجورتى من النحاس بثلاثة
جنيهات .. واشترت وابور جاز وسكراً وبنياً ، واشترت ليوسف سلسلة
مفاتيح ليضع فيها مفتاح بيتنا . وكان فى السلسلة قرص صغير إذا دار بسرعة
قرا كلمة .. لحدك ..

ونحبت إلى شارع فؤاد وشارع سليمان ، واشترت له ثلاث كرافات
وقماش بيلة شتوى واشترت لنفسى قماش فستان جديد .. صرفت أكثر من
عشرين جنيهاً فى يوم واحد ، وكنت ما زلت لم ادفع إيجار الشقة وهو تسعة
جنيهات .. ورأيت النقود تتبخر من يدى ، وهناك أشياء كثيرة أريد أن
أشترىها ، أريد أن اذهب إلى تجار واتفق معه على صنع اثاث للبيت ، أريد
شراء سجادة ورائدو ، أريد شراء أدوات المطبخ ، أريد شراء ملابس للصمام ،
أريد وأريد ..

قلت ليوسف وأنا اكاد أبكى من الغيظ ..

- الفلوس ح تخلص ..

- ضحك قائلاً :

- امال انت واخذها ليه ..

- وح نعيش إزاي لآخر الشهر .

- ولا يهيك ..

اشعرتنى إجاباته بالثقة ، اشعرتنى بالسعادة التى أنا فيها هاهى النقود
معى أستطيع أن اصرفها كما أشاء . إنه ليس كأمى تحاسبينى على المليم .
وتعطينى القرض وكأنها تعطينى من لحمها ، قلت لنفسى إن ستين جنيهاً ليست
بالشئ القليل . وسيكسب يوسف أكثر وأكثر . وساكسب لنا من الصينما
ويعد ستين أو ثلاثة سنحقق أحلامنا .

ونحبت إلى التجار واتفقت معه على صنع حجرة نوم . وكنية أمريكانى

ومقدريين ، وسأومته حتى قبل أن ادفع له مائة وخمسين جنيهاً بالتقسيط ، كل شهر عشرين جنيهاً

●●

كنت قد اتفقت مع يوسف أن أقطع مكنفاتي مع محمد ناجي ، ونفذت الاتفاق ، وصمت أسابيع وقد غاب محمد ناجي عن بالي ، نسيته تماماً ، ولكنه اتصل بي ذات صباح ، وسمعته يقول في لهفة :

- سامية . أقدر أعتد عليكى ؟

- في إيه ..

- أرجوكى أولاً تنسى كل اللى فات .. صحيح أنا كنت بأغارك لكن ده موش ذنبى .. أنا راجل أعزب وأنت بنت حلوة .. وموش عيب اتنى أغارك .. بالعكس كان عيب اتنى ما أحاولش .. لكن دلوقت خلاص .. أنت بتحبى يوسف . ويوسف بيعحبك .. وأنا بتأكلك في حاجة لمصلحت

- في إيه ..

- بس ثوغيدينى أنك ما تقوليوش إبنى كلمتك ..

- أوعدك ..

- اسمعى ياسامية .. يوسف بيعرض نفسه لحاجات خطر عليه .. ولازم نلنذيه بسرعة قبل فوات الأوان ..

- سألت في دعر ..

- إيه اللى حصل ؟

- دى حكاية طويلة . وما أحبش أحكيها في التلفزيون .. ممكن تغوتى عز .. قلت بسرعة ..

- لا ..

- صدقيني ياسامية .. أنا موش باهز .. ولا بأضحك عليكى .. لو تحبى تيجى المرنال تعالى .. بس في وقت يوسف ما يكش موجود فيه .

- بس يوسف لو عرف ح يزعل .

- لازم يوسف ما يعرفش .. كان صوته حاسماً ، فزاد دعرى ..

أنا حاضرة ..

قال في حدة ..

- أنت ما يهيكيش مستقبلك .. أحسنت بأن كلماته تخفنى . اسمعى .. أنا رانى تيجى الشقة الحسن .. ح أستألكى الساعة خامسة

بعد الظهر ..

ثم قال في لهجة تهديد :

- ما تحاوليش تخدعنى ياسامية . لو قلتى ليوسف كلمة واحدة . ح تأسدى كل شىء . وموش ح نعرف يشتغل مع بعض .. أنا مستنيكى الساعة خامسة .. أوريغوار ..

مضت الساعات وأنا أتعذب . ماذا يحدث ليوسف ، ما هذا الشىء الشيطر الذى يتحدث عنه محمد ناجي ، وما دخل أنا ، وما الدور الذى يريد منى أن ألعبه . ولم أتحمل مخاوف فاتصلت بيوسف وقابلته . وبينما كان محمد ناجي ينتظرنى في شقته . كنت مع يوسف في بيتنا أقول له كل شىء .. لم يدهش ، بل أبتسم وقال في هدوء :

- الرجل ده اتجنن ..

- أنت مخبى عنى حاجة ..

صاح :

- بلاش كلام فاضى .. ده شخص مراقب .. متسألش فيه ..

- أمال ليه بيدل إن مستقبلك في خطر ..

هتاف في أنفعال ..

- متصدقش .. متصدقش .. واحد بيعاكسك ويبضملك عليكى .. ما تيبس

أكثر من كده ..

ووجه وجهه . وقال بصوت حقيقى ..

- على الصوم أنا موش ح أقدر أستمر في الشغل معاه .. أنا رايح أقدم له

استقالتي ..

صرخت ..

- ما تخلفيش أندم اثنى قلت لك .. خليك عاقل يا يوسف ..
 ولكنه لم يكثر بكلامي حتى بعد أن توسلت إليه .. وتركتى وأنا
 يائسة .. ألحن غيائى .. لقد انسدت كل شيء .. سيستقبل يوسف ، وأن
 يستطيع الزواج منى ..
 - فى المساء عاد يوسف وعلى شفقتيه طيف أيشسلة ..
 - علمت إيه ...
 أحمر وجهه ولم يتكلم ..
 صرخت فى غيظ ..
 - ما تقول ،
 - ما استقلتش ..
 كان مطرقاً برأسه .. والخبيل يهدو فى صوته ..
 قلت فى ارتياح ،
 - الحمد لله ..
 ضحك وقال بصوت غريب ..
 - الدنيا دى غريبة ..
 ومن رأسه .. ورابع يده إلى ذقنه وحكها فى عصبية .. ثم قال :
 - رحت علشان أستقبل .. فكانت النتيجة اثنى ترقيت .
 هتلت وأنا لا أصدق ..
 - موش معقول ..
 لروح بيده وقال ،
 - ده اثنى حصل .. موش قلت لك أنا موشى ما طلبت حاجة .. كل حاجة
 بأعملها عبارة عن توريطه .. أنا باتوريط أكثر .. دى هيه قصتى فى الدنيا
 دى .. يانس أنا موش عايز حاجة .. سيبونى فى حالى ..
 - قصصك إيه :
 كان كلامه غامضاً وأخباره قهينى ، وحيل إلى اللحظة أنه ليس يوسف
 الذى أعرفه ..

- تعرف أنا مرتبى زاد الالية دى .. من مسحين لمانه وعشرين ..
 كان يتكلم بوجه حزين .. وكأنه يروى فى كارتة .
 - يوسف .. أوعى تكون بتكتب على ..
 - ح اكتب عليكى ليه .. مرتبى زاد فعلاً .. وأول الشهر ح اديكى القلوس ..
 أنا بقيت نائب ورئيس التحرير ..
 - ازأى .. أنا موش مصدقة ..
 - ولا أنا لكن أهو ده الملى حصل ..
 - لكن إيه بس الملى حصل ..
 قلت لمحمد ناجى إيه .. وقله إيه ..
 رفع صوته فى حدة وقال :
 - قلت لمحمد ناجى باتنى بأعتقده .. إتنى فقدت احترامى له ..
 قلت له إنا قلت لى إنه اتصل بيكى .. وإنه عايز يشوفك وأنه هديك
 بمستقبلى .. رميت الاستقالة فى وشمه وخرجت .. رحت مكتبى أشيل الحاجات
 بتاعنى مافيش خمس دقائق كان عندى فى الأوضة بيعيط زى الكلب ..
 بيترجاني اثنى استنى فى الجرنال .. كان ناقص يوطى ييوس جزملى ..
 تصورى انه عيط .. عيط بالدموع .. رغم كده رفضت .. عاملته بقسوة ..
 حنت زى المجنون .. وبعدى قائل الجرنال ح يتغرب .. ح يتففل بكرة لو أنا
 مشيت .
 وضحك يوسف وقال
 - أوعى تفكرى أنه ح يتففل علشان أنا مهم للدرجة دى .. الجرنال ممكن
 يطلع بكرة وبعد بكرة وللبيون سنة . ولو خرجت منه أنا وعشرة زوى .. لكن
 الأوامر صدرت ..
 وسكت .. ويحلق أمامه .. كأنه يرى أشياء مفرعة ..
 أوامر مين ؟
 - شهدى باشا .. الرجال اللى يمول الجرنال محمد ناجى بعد ما تعد
 يترجانى معك الثقيون وطلب شهدى باشا . وقاله باباشا أبا أترجيتى وهو

الفصل الثامن

موش راحى . وسعدين التفت في وإيداني السماعة . وقتل في خد كلم الدائيا .
ما تكلمش معديا كثير . قال لي . يا يوسف يا بنى . أنا طلبت إنيك تترقى .
ولازم تعمل لوست الشغل . أنا ح أقفل الجرنال بكرة .. وأعمل اللي أنت
عابره .. بصيت لحمد ناحى لقيت الدموع في عينيته .. ما أقدرتش أرفض
قلت . بعد شوية كان محمد ناحى يتشم ولا كان حصل حاجة .. وأنا بقيت
نائب رئيس تحرير ومافيتي مائة وعشرين جنيهاً
وعاد يحك دقته .. ويحلق بقوة في الأشياء التي تفرعه .. ثم صرخ ..
- هم عايزين مني إيه .. أنا موش فاهم حاجة ..

حاولت أن أعرف مر ما حدث ، كنت واثقة إن يوسف يخفى عنى شيئاً ،
لست بلهأه حتى أصدق أن محمد ناحى ينهار ويكس ويتوس إليّ أن يقبل
الترقية ، محمد ناحى الذى أعرفه مغروراً ، له كبرياؤه ، مستحيل أن يفعل
هذا ، ما الذى يخفيه يوسف عنى .

شعرت بخيبة أمل ، لقد تعودنا ألا يكون بيننا أسرار ، إنى أحس وكان
يوسف يتشلى عنى ، يضع حاجزاً بينى وبينه .. لابد أن أعرف لمر حتى
أحطم هذا الحاجز ، ولكنى رغم إلحاحى عليه لم أحصل منه عن شيء ، اكتفى
ذات مرة بأن قال إنه يشك في أن هناك شيئاً ما يبر شهيته يمشا ومحمد ناحى ،
شيئاً يجعل شهادى يسيطر على ناحى ويذله

سألت في إلحاح ، ما هذا الشيء ، فنهز كتفه وقال لي غموض .
- وأنا مالما .

صمت .

- يوسف لازم تقول لي أنت تعرفه ..

فانقسم وأما واثقة أنه يكذب ، بأنه لا يعرف شيئاً

وخيل لي أنه خائف أو مذعور من هذا السر الذى يعرفه ويكنمه عنى ..
وذات يوم قال يوسف إن زملاءه في الجريدة يريدون الاحتفال به بمناسبة

تريقتيه . وقال إنه ذهب إلى الحفلة في السماء ، قلت له إنني أريد أن أذهب معه .
مدا عليه التردد ، فاعترضت قائلة :
— أنت مكسوف منى .

متراح في الحال ، ووافق على أن يأخذني معه ، فرحت . كنت خائفة من أن
يرفض ، فلما قبل شعرت بالاحتمنان ، إنه لا يتردد في إعلان حبنا ، وهذا
معناه أنه لا يتردد في الزواج منى ..

كانت الحفلة في بيت غريب بالقلعة ، صعدنا سلالم حجرية تقضى إلى درب
ضيق ، على جانبيه بيوت عتيقة كأنها فلاح تسكنها الأشباح ، دخلنا أحد هذه
البيوت ، فقابلنا فناء واسع مظلم ، وصعدنا سلماً حجرياً ضيقاً ، وكانت
تقابلنا ضجة عالية ، وضجعات صاخبة ، وصراخ وهتاف ، كأننا صاعدون
إلى مجانين ..

كان مصدر الضجة شبانا وبنات ، محتشدين في حجرة واسعة ، سقطها
عالي ، أرضها مفروشة بالحصى ، والكتب الاستامبولي ، والجدران كلها
مزينة بعشرات اللوحات ، هموا علينا ، وفي أيديهم زجاجات البيرة .. وفي
أقل من دقيقة كنت أجلس بينهم .. وكانى أعرفهم منذ سنوات .. أعطوني
زجاجة بيرة في يدي ، ووضعوا في حجرى طبقاً من الكرتون فيه سندوتشات
وخيار مخلل .. وجلسوا حولي ياكلون من الطبق الذي قدموه لي ..
ولاحظت أن شاباً أسمر نحيلاً يضع على عيني نظاراته ، يطيل النظر إلى ..
فلما التفت عيوننا ابتسم ، وتقدم منى وقال كأننا أصدقاء

— إزيك ياسامية ..

قلت في دهشة :

— إزيك انت .

فجلس بجوارى وقال

— أنا اسمى شوقي محمود .. وسام باشتغل مع يوسف ..

أدركت في الحال أنه شوقي الذي تعيش معه مبروكة ، نظرت ناحية يوسف
في ارتباك ، هرايت يتقدم منى ، يريد أن ينضم لنا ، فصاح فيه شوقي في جراحة .

— .. أريد عنا .. احنا عايزين نتكلم مع بعض ..
فابتسم يوسف ، وأدار لنا ظهره وأبتعد .. وسألني شوقي
إيه رأيك في يوسف ؟

تذكرت محمد ناجي ، لقد سألني نفس السؤال في أول مقابلتنا .. أجبت
وأنا أعلم أنه سينقل كل كلمة أقولها إلى مبروكة :

— اعظم واحد في الدنيا ..

قال بصوت جاد :

— أنا بانكلم جد ..

شعرت أنه يتحدثني ، فقلت محتجة :

— ليه .. أنت موش موافق .. قال وعينه تمدقان في عيني .

— يوسف موش عايز واحدة تدلعه ..

— أمال عايز إيه ؟ ..

— عايز واحدة تقول له الحقيقة ..

— وإيه هيه الحقيقة ..

فتلفت حوله ، ثم همس :

— تسمى تيجي معمايا بره ..

— فحين ..

قال بصوت آمر وهو يتهاض :

— تعالى برى ..

قامت وراءه ، وخرجنا إلى السلم وصعد بي إلى السطوح ، كانت ليلة معتمة
يلامع ، وتعثرت بتمائيل ملقاة على الأرض كأنها جثث ، ورغم الظلام كانت
المانن واضحة في ارتفاعها الصامت إلى السماء ، وقدم لي سيجارة ، وأشعل
عود ثقاب ، فبدأ وجهه صارماً ولعت عيناه في قسوة ، وقال وهو يشير إلى
البيوت من حولنا .

— دي أول مرة تيجي فيها هنا .

— أيوه ..

— اسمعي ياسامية . احنا متعرفش بعض .. لكننا موش أغراب .. ما فيش حد في الدنيا دي غريب عن الثاني .. كلما بشر .. لنا قلب .. ولنا عقل .. وكلنا محب أخير لبعض .

وسكت برهة ، وكنت قد تعودت على الظلام ، فاستطلعت أن أرى وجهه الملهء بالانفعال ، وخیل لي أنه سكران ، لومجنون ، وشعرت بالخوف ، فقلت بالصلمت

وسألتني

— أنت بتستغربي من كلامي ..

— أميوة ..

— أنت ممثلة .. موش كده ..

— أيوة ..

— عندك فكرة عن الفن ..

كان سؤالاً ألقاه ، ورغم ذلك لم أجسر على الاحتجاج ، شعرت أنني ضعيفة أمامه ، كما داخلني إحساس بأنه لا يريد أن يهرجني ، وهمست :

— أهو . بالتعلم ..

قال في حدة :

— قلت لك مائز عليش مني .. أنا بأهامجك علشان أعرفك أكثر ، صحيح أنا ما عرفت كيش .. وماليش حق أحكم عليك .. إنما أنا أعرف إن يوسف بيحبك ، كل اللي في الجرنال عارفين شافوكم كتير مع بعض .. وأنت عارفة إن يوسف مركزه كبير في الجرنال ومسئوليته كبيرة .. علشان كده يهمني أعرف بيحب مين .. وإيه تأثير الحب ده عليه ..

أعجبني كلامه ، إذ أشعرتني بأهميتي ، وتشجعت فقلت :

— وأنت خايف أحسن أكون نصابة ..

قال بسرعة :

— لا مش خايف .. إنما عايز أعرف أنت فاهمه موقفك والا لا .. عارفة الدور

اللي بتلعيه والاموش عارفاه .

— دور إيه ؟

فألقى يعقوب سيجارته على الأرض وسحقه بقدمه وهو يقول .

— أنا عايز أسالك سؤال .. ممكن تجاوبيني عليه ؟

— سؤال إيه ؟

— أنت عارفة يوسف اترقى إزاي ؟

خفق قلبي بشدة ، بأعنتي سؤاله .. إنه بعس أسؤال الذي يجبرني ، قلت في ارتباك :

— علشان يستحق الترقية .. ضحك ساخرأ وقال .

— صحيح ما تعرفش .. لزميت الصمت ، فمضى يقول .

— أنت عارفة أن يوسف بيمر بنقطة تحول خطيرة في حياته ، كان شاب رينا ،

شاب شريف ، بيشغل وبيحاول أن يعيش .. وبعدين اصطاده واحد رأس

مال .. شهدي ياأنا .. طبعاً سمعني عنه .. الجرنال بتاعنا عبارة عن يوق

دعاية لشهدي ياأنا ، كلنا بنشتغل موظفين عنده .. حتى محمد ناجي صاحب

الجرنال . اللي بنى الدار شهدي ياأنا .. التي اشتري المطابع شهدي ياأنا .

محمد ناجي عميل عنده .. خدام .. مجرد خدام .. شهدي ياأنا عايز يرفع

اسهم البورصة ، نكتب أخباراً نرفع أسهم البورصة .. عايز يفسف

بالبورصة الأرض .. نكتب أخباراً تفسف بالبورصة الأرض .. وزير

حلو انقش على طلب لشهدي ياأنا ، نهاجمه ، وزير يبعش أنشغاله نرفع

للسما .. أدى شغلنا .. شغلة حقيرة .. طبعاً أنا موش ساكت .. أنا بأحد

منهم فلوس عنشان أحاربهم .. علشان انتصر عليهم .. شغلتي في الأيام ،

زى شغلتي في أي حة ثانية ، وسينة لأننا نقض على الرأسمالية .. نقض على

اللي بيمصرو دمننا .. ويوسف كان ممكن يبقى واحد منا .. لكن باين عليه أنه

عايز يختار السكة الثانية . عايز يختار يبقى زى محمد ناجي . خدام عند

شهدي ياأنا .. أشرح لك إزاي . افرضي أن واحد منتج جه علشان يشغلك في

السينما ، وخلص عايز يكتب معاك في عند كالف جيبه ، وبعدين اكتشفتي أنه

ح يدفع الألف جنيه قصداً إنك تعيش معه .. موش يتحصل .. نص الى اشتغلوا في السبينا يحصلهم كده والى من كده .. توافقى والا تقلى العقد وترمى في وشه .. لازم تختارى .. إما أن تحاربى المنتج الراسمالى ، وتقضى عن النظام الفاسد اللى يمكنه من السيطرة عليكى ، أو تستسلمى ونبيعى بقست .. تعرف أنا وابتى إيه .. يوسف يا ح نفسه ..

صحت وأما أتذكر لورد سامى ومحاولاته معى ..

— يوسف مستحيل يعمل كده ..

صاح ..

— امال قبل الرشوة ليه ..

قلت محتجة

— دى شرقية موش رشوة .. فأطلق ضحكة غريبة وقال :

— محمد ناجى على علاقة بزوجة شهدى باشا . وشهدى باشا عارف .. إنما زئى أى رجل أعمال ما يخليش عواطفه تسيطر عليه . محتاج لقلم محمد ناجى .. محتاج لمخالاته . الفلوس اللى ح يكسبها أهم عنده من شرف المدام . إنما ينتقم بطريقته . يذل محمد ناجى .. محمد ناجى يقول : أنا عايز أرفد يوسف . شهدى باشا يقول : لا .. وقيه . شهدى باشا يفتل محمد ناجى على نار بطيئة .. ببسلى جلدته على مهله . وببخصر خليلته قدماه .. يقول له ح أموتك وح أدفنتك .. وح أخى يوسف بقدم مكانك .. انتقام مليونير . ويوسف بيناد الانتقام ..

همست ورأى شدى .

— لكن يوسف ما يعرفش .

— صاح .

— مايعرفش . والا بيتعابى وموش عايز يعرف .

— أنا متأكدة انه ما يعرفش

قال ملهجة غريبة

— يوسف من عادته أنه يتخاسى .. ويتظاهر بأنه مايعرفش حاجة .. لكن أنت

— ح يكون موقفك إيه ؟

فطقت أريد أن أتحدث ..

— ماتتسلش إنى يا ح يوسف .. وأنا ما أقدرش أصدق عه حاجة

وحشة ..

فقاطعتى

— لو عايزه تتحفظى بحبه .. لازم تخليه يبقى إنسان .. لو ستنه يحرفه

النهار .. ح يتحول لواحد ما ميش في قلبه ذرة عاطفة .. واحد ما يعرفش

الحب . مايعرفش الحنان . واحد مستعد يدوس على قلبه وعواطفه في سبيل

مصلحته ..

كان صوت التصفيق على الوحدة يرتفع إلينا من تحت ، وأغنية جماعية لم أسمعها من قبل يمشدونها ، وشعرت بضيق ، كانى في كابوس ، لا أعرف وسيلة للخلاص منه ، وندمت لأنى أتيت إلى هذا المكان ، إن قلبى يعدثنى بأن أشياء ستحدث ، تقضى على أحلامى في الحب والزواج ، الظلام الذى يحتوينى يأكل صدرى ، والمآذن العالية تكاد تنهار فوقى ، الظلام بحر عميق أكاد أغرق فيه ، إن شرقى يعدثنى ، ولكنى لا أستطيع أن أتركه وأجربى إلى تحت ، لا أريد أن أرى يوسف الآن ، بعد كل ما سمعته ، إنى متعبة ، أريد أن أهدأ وأستريح ، ثم أفكر على مهل .

— بيرقصوا بلدى .. تعبى تترقى تتفرجى ..

تجاهلت ما يقول ، وسانته ..

— أنت بتكره يوسف ليه ..

— ماياكرهوش .

— إنا عارفة في بينكم حاجة ..

ورفع رأسه وقال في صوت جامد .

— هوه قل الك

— أبوه ..

فهمسى ..

.. مبروكة بنت شريفة ..

قلت ساحرة

.. علشان عايشة معاك

فتحهم وجهه ، وقال لي غصب .

.. البنات دي عمرها ما جابت سيرة يوسف بحاجة وحشة ورغم كل اللي عمله معاها .. انا نفسي ما اقدرش اقول لها رأيي بصراحة في يوسف علشان ماتزعلش .. اللي قولتلك ده هيه ماتعرفوش .. وموش ح تعرفه .. رغم كل شيء هيه متمسكة بانه ابن جوزها .. اسمعي .. انا بصراحة شيعوي .. وماخافش اني اقولك .. يوسف نفسه عارف .. انه لدرجة سالكت عليه .. بكره ممكن يورث بيه ويورثني السجن . إنما ده موش مهم .. انا واضع ده في حسابي .. إنما مبروكة مستحيل تورث بيه مبروكة اديتني الفلوس اللي معاها علشان نطبع بيها منشورات .. من غير ما تعرف هيه بتديني الفلوس علشان ايه . من غير ما تقدر حتى تقرأ المنشورات اللي دافعة فلوسها . دي واحدة بتزمن بالناس .. عندها قلب .. وعايظه تعيش مع الناس .. ومش عايظه مجد ولا شهرة .. موش عايظه انوار كشافة مسلطة عليها .

.. انت بتحبيها ..

.. ايوه يا حبيها ..
هزني صوته ، تمنيت لو اسمع يوسف يعلن انه يحبني بنفس هذه القوة

.. انا خايفة يكون حبك لمبروكة مائر على راك في يوسف ..

.. الحب مالوش دهوة بأرائي .

وسمعنا صوت يوسف .. بهتف .

.. انتم ياللي فوق .. بتعملوا ايه ..

فصاح شوقي ..

.. اطلع يا يوسف ..

.. ماتنزلوا انتم

.. لا .. اطلع انت .. عايضيتك

وصعد يوسف ، وقال وهو يقترب منا .

.. بتعملوا ايه ..

قال شوقي في بساطة :

.. انكلمنا في كل حاجة ..

ضحك يوسف في براعة وقال .

.. برافو .

والنفت إلى شوقي وسالته باسماء .

.. وشتمتني .

.. طيباً

فقلت يوسف إلى وسالتي في صوت رقيق ليس فيه اثر انزعاج .

.. قال لك ايه سامية ..

ضحكت في عصبية واجبته :

.. شتمك شتيمة وحشة قوي .. فقال شوقي في هدوء :

ياختصار عرفت كل حاجة .. اني شيعوي .. وعرفت رأيي في أنك بيعت نفسك لشهدي باشا وعرفت أنك ممكن ترشي بيه وتديني السجن .. مايفيش حاجة ماتعرفهاش .

قال يوسف جاداً ..

.. سامية عارفة اني كنت متضايق يوم ما تراقبت .. وعارفة اني كنت ملحد استقلتي ..

صاح شوقي .

.. لكن قبلت الترقية ..

قال يوسف معتداً .

.. علشان مايتغفلش الجرنال

صاح شوقي ..

.. وعلشان ينزل محمد ماضي وعلشان يفرح شهدي باشا ..

قال يوسف ..

— اسمع يا شوقي الى بين محمد ناجى وشهدى باشا مالناش دعوة بيه .
 احنا موش ح نردد شائعات .. اتنا ما لحش احبيب سيرة الناس واتنا موش
 متأكد
 فنظر إلى شوقي في انفعال وهتف .
 — شعنى .. موش قلتك انه بيتفانى ..
 أمال انت اترقيت ليه .. إيه اللى خلى شهدى باشا يصمم على ترقيتك ..
 قال يوسف في هدوء :
 — اسمع لو تقول لي اتنا ما استحقش الترقية دى .. ح اكتب استقالتي في
 الجال .
 قال شوقي في وجوم ..
 — لا .. ما تستقلش .. بس ما تبقاش لعبة في يد شهدى باشا ..
 قال يوسف مهلجاً ..
 — ليه موش عايزنى استقيل ..
 أجاب شوقي ..
 — علشان اتنا كمان موش باستقيل ..
 قال يوسف في انفعال ..
 — اتنا بأعمل اللى حاسس بيه .. ما يخالفش ضميرى .. يوم ما حد يطلب
 منى حاجة تخالف ضميرى ح اقدم استقالتي ..
 وساد بيننا صمت سخيف . فطابت منهما أن تهبط ، فقال شوقي إنه
 سينصرف .
 همست في أذن يوسف .
 — جيت ليه وأنت عارف أنه ح يبقى موجود ..
 قال في ضيق ..
 — ح أعمل إيه .. موش ممكن أرفض ..
 ثم ابتسم قائلاً ..
 — على العموم اتنا متعود على الشيوعيين .. إذا ما كتش الواحد يبقى شيوعى

زويم ، يبقى خاين ومجرم وليفه كل العبر ..
 ولا حطت أن يوسف كان ساهماً أثناء عودتنا ، وقال لي عند باب العمارة وأنا
 أودعه .
 — فأكبر شوقي موش عايزنى استقيل .. بالعكس هو يمتنى أنى استقيل ..
 لكن خايف يصارحنى .. خايف منى أحسن أوش بيه وإبلغ عنه ..
 بينا لقنى ..
 قلت متوسطة ..
 — انصاه ..
 قال ح أقدم استقالتي بكرة ..
 صحت ..
 — ماتبقاش مجنون ..
 قال وهو يتألم ..
 — أعمل إيه .. ملعو صحبح الترقية دى ماكتش لها مناسبة ..
 — أنت موش قلت موش ح تعمل حاجة تخالف ضميرك ..
 قال والموج تطفر من عينيه ..
 — اتنا خايف انسى ضميرى ..
 شعرت بحنان إلهي . وتهدت كل شكوكى نحوه .. فضماطت على يده ،
 وأرسلت له قبلة .. هممت .
 — اتنا بأحبك .. وعائزك تشتغل ، تجيب فلوس وتجاوز .. شوقي بيجيب
 فلوس لمبركة ، علشان يعمل منشورات شيوعية .. وأنت بتجيب فلوس
 علشانى .
 همس ..
 — وعطشان إيه كمان ..
 سأله في دهشة ..
 — عايز الفلوس علشان حاجة ثانية غيرى .
 قال متأثراً ..

— شوقى شبيوى ، لكن أنا فيه .. عايز إيه ..

قلت في ثقة .

أنت عايز تبقى محطس مع نفسك .. موش عايز تسيء لحد ، ولا تكذب عنى حد .. عايز تكون نضيف .. لو حاجة ضايقتك يا حبيبى قدم استغفرك ولا يهتكش .. أنا راضية بيك حتى ولو كان معكش مليم ..

قال في حرارة .

— خدى بالك منى يا سامية ..

قلت وأنا أخفض عينى ..

— پس ماتيقاش تخشى عنى حاجة ..

صاح في ذعر ..

— زى إيه ..

— زى حكاية محمد ناجى مع شهدى باشا . أنت كنت مكسوف تقولى ..

قال في خجل ..

— أبوه كنت مكسوف .. ما قدرتش أقولك إنى اترقيت علشان حكاية قدرة زى

دى .. إنما ما كذبتش عليكى ، قلت لك إنى اترقيت علشان حاجة تانية ..

تحول خجله إلى دفاع عن نفسه .. فسارعت أقول :

— ما تنكسفش منى يا حبيبى .. أنت اترقيت فعلاً علشان كويس .. وعلشان

أخلاقك كويسة .. وشهدى باشا ممكن فاكراه ح يعرف يستفك .. لكن أنت

ح تقاوم .. زى ما باقارم فى الصينما .. ح نعمل إيه . الناس فى ايدهم

الشغل كلهم كده .. إنما لازم نقنعهم بأن الشغل الشريف أحسن من

طريقتهم ..

ضحك يوسف فى هسية وقال .

— احنا بنضحك على نفسينا ياسامية ..

قلت فى أسى ..

— يمكن .. لازم نحاول قبل ما نياس . طول ما احنا بنحب بعض ح نشجع

بعض . وساعة ما نقولهم السلام عليكم .. يبقى يفرجها ريتا .. إيه وليك لا

نسيب شغلنا ونعشى بديانولا فى الشارع ..

وضحكنا .. ولكن ضحكنا كانت مفعمة بالمرارة ..



وفضحك فى مرارة صباح اليوم التالي ، وأنا اسمع صوت الأستاذ حلمى فى

التليفزيون يصيح :

— أنا عندى لك شغل ياسامية . قبل أن أجيبه ، طلب يراس فى لحظة خاطفة

كل ما حدث بالأمس . وسمعت الأستاذ حلمى يقول :

— ح تمثلى مع الأستاذ يوسف وهبى .

وقضيت ثلاثة أيام فى الاستديوهياح مساء ، من أجل دور صغير أرتدى

فيه الملاءة اللب ، وأسعر فى ديكور حارة ، فى حركات مثيرة ، ثم

استدير خلفى ، وأغز بعينى وعندئذ يدخل يوسف وهبى الكادر ويسرع

ورائى ، وبعد أن يتبعنى ثلاث خطوات ، ألق واستدير له وأسأله :

— أنت هايز منى إيه ..

فيقول لى .

— أنا يامنت ..

وينتهى المنظر .

ثم يصيح الأستاذ حلمى :

— مستوب ..

أعدوا التصوير ثلاث مرات .

فى المرة الأولى ، لانى سالت الأستاذ يوسف وهبى بلهجة ذواتى ، وفى المرة

الثانية تكلمت من حلقى كنت شرشوحة كما قال الأستاذ حلمى ، ولكن

مهندس الصوت لم يعجب التسجيل ، وفى المرة الثالثة أخطأ يوسف وهبى

فدخل الكادر متأخراً وفرحت لأنه أخطأ مثل ..

— إيه رايك يا يوسف ميه فى تمثيلى ..

فنظر لئى فى ترفع ، وقال بصوت هادر :

— أنت يا مدموازىل فاكدة اللي بتعلميه ده تمثيل ..

شعرت بسخونة في رأسي ، وحولت عيني ، وقلت في لفة .

— أنا عابرة أعظم التمثيل ..

هايتسم ابتسامه غريبة وقال :

— وأنا معنديش موهبة ..

قال من أنه :

— التمثيل يأمد موازيل موهبة .

— لا .. روي يا شاطرة دوريك على عريس .

وتركني ، وابتعد عني ، كأنه ملك اعترضت طريقة مشسولة حقيرة .. كبت أموت من الفظ ، وسمح الأستاذ حلمي ما قاله يوسف وهبي ، فهمس في أذني

— ماتسمعيش كلامه .. يوسف بيه هل عيني ورأسي .. لكن ده يشاع مسرح .. بكرة لما يشوفك في الفيلم الطلياني ح يغير رأيي .

ولكني لم أهتم بكلام الأستاذ حلمي ، كنت أتمنى أن أسمع كل إنسان يقول إنني لا أصلح لتمثيل ، ولكن يوسف وهبي يعترف بموهبتي .

ولكنني في اعتزال السينما .. ولذكرت ما قاله لي شوقي ، نعم أنا نصابة ، ليس ما أريده فعلاً ، هو الشهرة والمال ، وأن أكون ممثلة مشهورة ، هذا هو ما أحلم به ، أنا لا أحلم بالفن ، ولم يعلمني أحد الفن ، كلهم يكتفون بجمال ، وكلهم على استعداد لأن يجعلوا مني أعظم ممثلة ، لو رضيت .. خرجت من الاستدير ، وأنا أعجب للتعبير الذي حدث لي ، أين كنت ، وكيف كنت أفكر ، وأين أنا الآن ، وكيف أفكر .. لقد أصبحت الدنيا على غير ما كنت أظن ، إنها ليست سهلة ، الفرحة صعبة ، والسعادة بعيدة ، ونفسي لم تعد راضية عن شيء ، لم تعد راضية حتى عن نفسي .. الدنيا كالطاحونة ، تطحن الناس ، طحنت أمي فأصبحت ما هي عليه وهي تريد أن تطحن يوسف وتطحنني .. اهذا هو مصيرنا .. جريت إلى شقيقتي أنصاف .. إنها لا تفكر في غير دورها .. كانت خارجة من الحمام ، وقد ربطت رأسها ، وسألتها :

— أنتِ حتشغلي فني لما تبقي دكتورة

نظرت إلي في دهشة ، إذا لم تتعود مني الاهتمام بحياتها ، وقالت :

— في أي حنة ..

— ما فكرتيش .

قالت وهي تتنهد :

— لما أخلص أبني أفكر ..

قلت لها في حارة :

— أنتِ ح تبقي أحسن واحدة فينا يا أنصاف ..

ضحككت في جمرة ، وكأنها لا تصدقني ، فمضيت أقول

— عشان أنتِ اتعلمتي .. روح تبقي دكتورة .. ولو ما هجيكيش الشغل في

الحكومة ، تقدرني تفلحي عيادة ..

قالت في أسي :

— افتح عيادة .. وأجيب غلوسها منين ..

صحت ..

— اروي تفكرتي في الفارس .. لازم نهيبها لك بأي طريقة ..

نظرت إلي في ريبة وسألتني :

— أنتِ مالك النهاردة ؟ ..

— ولا حاجة .. بس يا نصبر على نفسي ..

فصاحت .

— أنتِ .. هوفيه حد مبسوط فداك .

كبت أبكي وأنا أقول :

— ماتصدقيش .. ما فتيش واحدة تعيش في الدنيا قديم .

وحكيت لها ما قاله يوسف وهبي .. وقلت لها إنني لن أمثل بعد الآن ..

للم تهتم بكلامي ، وأقبلها فرحت في قرارة نفسها ، ولكنها أخفت فرحها ،

وقالته لي بريد :

— طول عمره يتعمل اللي أنتِ عايزاه .. لو قلت لك بلاش تمثيل .. صين

عارف... يكره تفكيرى رايك... وتمثل عشرة ايام ..

رفعت أن تفهمنى ، ونهيت إلى سريرها ، وفتحت كتاباً ، وانهمكت في القراءة .

قلت لها بعد قليل

— ما بتفكريش في الجواز ، فأغلقت الكتاب ، وحدثت في الفضاء امامها ثم قالت .

— ماقيش فايدة .. الناس كلها عرفانا .. وسمعتنا والحمد لله ماتشرفش .. البركة في السبت ماما .. وفيكى .. انا بأتمنى على الله .. انى اشتغل في حنة بعيدة ، في اسكندرية .. في اسيوط .. في اى داهية .. واتجوز واحد مايعرفناش .. موش من البلد دى .. وأعيش معاه على طولى ..

— وتسببنا ياإنصاف ..

قالت في حرقه

— وح لحد معاكم اعمل إيه .. لا أنتم عايزنى .. ولا أنا عايزاكم . وانتطلع الكلام بيننا ..

لايد أن اسرع بالزواج ، لابد أن اهرب من هذا البيت .. سأطلب من يوسف أن تتزوج في الحال ..

الفصل التاسع

كانت ليلة شتاء ، والمطر يهطل بغزارة ، وقد فر الناس إلى بيوتهم وتركوا الشوارع مهجورة ، قد انتشرت فيها البركة الصغيرة ، كان الجو مليحاً يثير الشجن في صدرى فلجات مع يوسف إلى بيتنا الصغير .. وكان النجار قد اتم صنع الكنية الأمريكاني والمعدنين ، لموضعتهم في الحجرة الأولى ، ونقلت الصيرير المعدني والمرتبة الفخ إلى الحجرة الثانية في انتظار انتهاء النجار من غرفة النوم ..

قماش الكنية لونه أخضر ، ومسانداتها لونها أسود ، اختارت اللون الأسود لأنه وقور ، وكنت مصممة على أن اجعل بيتنا الصغير وقوراً محترماً ، لا أريد أن تكون اللوانه زاهية ، وكأننا في جرسونيرة .

كنا صامتين ، ولكنه صمت هادئ ، حنون ، أنا جالسة ويوسف راقد وقد وضع رأسه على حجرى .. وأصابعى تمسك بشعر رأسه .. أنصت إلى رذاذ المطر كان تساقطه الرتيب ينشط خيالى ، كأنى أرى فيلماً في سينما بارادى المجاورة لنا ..

كنت أفكر في زواجى ، مضت أسابيع وفكرة الزواج تلح على ، تخيلت أنى أفتح يوسف ، أقول له هيا نتزوج ، فلا يقول شيئاً ، ولكنه ينهض ويظهر لى في حنان ويحذيتى من يدي ، ويذهب بى إلى المائدة ويتزوج ، ثم يعود إلى البيت

إلى هذه الكتبة ، وتجلس عليها كما تجلس الآن . ليس هناك ما هو بسيط من هذا ، لا توجد عقبات ، أي عقبات . فلماذا لا يحدث هذا ، لماذا لا نتزوج الآن . الآن . فكرت في أمي ، ولكنني رفضت أن أواصل التفكير . لا يعني أن تفاجأ بزواجي ..

فكرت قليلاً في الشهود ، وتذكرت شوقي . لماذا لا يناديه يوسف ويكرن شاهداً للعقد سيخسبني هذا ، حتى يعود إلى مبروكة ويقول لها إنه كان شاهداً زواجي من يوسف ، ويصف لها سماعتنا ..

لماذا أفكر في مبروكة الآن .. لا .. لا داعي لأن نضيع الوقت في البحث عن شوقي ، سأرشي بأبي شاهدين يحضرهما لنا الماذون .. ترى ما الذي يفكر فيه يوسف الآن .. وتنهت ..

العلبة الحقيقية ، هي كيف أقول ليوسف إنني أريد أن أتزوج الآن .. في الحال .. في هذه اللحظة .. لا أريد أن أعود إلى بيتنا .. لا أريد أن أرى أنصاف .. ولا لمي .. ولا عسى محمدر .. لا أريد أن أرى أحداً في هذه الدنيا .. أريد أن أحبس نفسي هنا .. في هذا البيت النصف .. وأعيش مع حبي .

أه .. كيف أقول له ..

وتنهت مرة أخرى :

.. مالك ..

سألني يوسف ، بصوت يخاله النعاس :

قلت في ضيق :

.. الطرلسه نازل ..

.. كتبه عايزة تشرحني ؟

.. لا .. بس ملي مقبوضة .. زى ما يكون في فيلم مخيف في سينما

بارادي .. فيلم يتمشه عفاريت ..

صحك ، وسكت .. تنأب ..

تصنيت لو كان دار بيتنا حوار آخر . يسألني لماذا أشعر بالانتقاص فأجيبه ، لأنني لا أريد أن أعود إلى البيت .. بيت أمي .. فيسألني ، لماذا .. فأقول له لأنني تشاجرت معهم . ثم أقول له إني سأبقى هنا ، فهذا هو بيتي فوافقتني ويقول لي ، نعم هذا هو بيتك ، تعالي نتزوج الآن ، وأبقى هنا . في بيتك .. في بيتنا ..

وقفز إلى رأسي خاطر ، إنه لا يعرف شيئاً عن أمي ، لا يعرفها على حقيقتها . لماذا لم يسألني حتى الآن كيف أعيش معها ، لقد حدثتني طويلاً عن أبي ، وأم أحدثه عن أمي .. ترى ماذا يقول لو عرفها على حقيقتها .

شعرت بانزعاج ، لأنه لم يسألني عن أمي ولأنه لا يعرف شيئاً عنها .. كنت أقول له ، لماذا لا تسألني عن أمي .. ثم هدأت السؤال فأصبح ، لماذا لا تسألني عن بيتنا .. قبل أن أنطق بالسؤال ، سمعته يقول في بلادة :

.. أنا جهان ..

كنت أصرخ يائسة ، لو كان يرى وجهي لفاجأته التعبيرات المرسمة

عليه ، ولكنه مضى يقول في كسل .

.. بس .. متى قدر أخرج .. كسلان ..

هجمت :

.. بكرة يبقى عندنا مطبخ .. ونعمل الأكل فيه ..

لم يعلق على كلامي بشيء ، لم يكن متحمساً للكلام ، وتنأب .

إنه محتب ، منذ ترقبته وهو يعمل بجهد مضاعف ، يريد أن يثبت لنفسه

أنه جدير بالترقية التي حصل عليها .

أحياناً يعود ويحدثني عن متاعبه .. وأحياناً يعود مرهقاً حتى أنه

لا يستطيع أن يحدثني عن أي شيء فيصمت ويتأب كما يفعل الآن . إن هذا

لا يضايقني لا تعب ولا صمته يضايقاني ، تكفيني عودته إلي ، وحصوله

على الراحة وهو راقد ورأسه في حجرى ، إنه يلوذني ويستريح ، تعود علي ،

وهذا يريحني أنا أيضاً ، ويطمئني إلى حبه ، عندما أحنو عليه وتتأمل

أصابعي في شعر رأسه ، أشعر كأنه هو الذي يحبو علي ويغمرني بحبه .

— إذا كان راجل كويس زى ما بتقول .. لعل ليه ساكت على علاقة مراته
بمحمد ناجى ..

هأجابنى فى حرارة :

— أنا متأكد بعدما سمعته بيتكلم عن محمد ناجى .. إن الكلام ده كله
شائعات ..

سكت وحاولت أن أقنع نفسى بأن هذه هى الحقيقة .. ثم عدت أسأله :

— خبيب ليه أتحدى محمد ناجى ومدهد بقتل الجرمال بسببك ..

فأجاب بسرعة وكأنه عني يقين مما أقول :

— شهيدى باشا راجل عصامى .. عنده ميلاى .. بيعب يشجع الشبان

المكافحين الصغىرين .. ويبقى فى صفهم .. تلاقيه عمل الهيمه دى كلها ..

علمان المبدأ .. عشان ما يقضيش على مستقبل واحد وأثق منه ..

أجبرت نفسى على التسليم بإجابته ورغم ذلك ، ظل ذلك الشعور الغامض

يلصق فى صدرى .

وقال لى يوسف مرة أخرى .. والحماس يشتعل فى صوته :

— الراجل شهيدى باشا ده .. صحفى درجة أولى .. تعزل كل الأخبار

السياسية اللي كتبتها الفهارة .. هو اللي قالها لى .. أسرار ماكتتش أطم

أوصل لها ..

ولم يكن حديث يوسف مقصوداً على شهيدى باشا وحده ، روى لى ذات ليلة

شجاراً حدث بينه وبين شوقى الرسام ، كان نادماً على هذا الشجار ، رواه لى

وهو فى حالة عصيبة ، وعلى فمه ابتسامة مثفرفة ، ابتسامة حزينة أحياناً ،

معتذرة أحياناً ..

ناداه محمد ناجى ، وأخبره أن تقريراً من المباحث وصله عن نشاط بعض

الشعوبيين فى الجريدة ، وطلب منه أن ينادى كل من يشتبه فيهم وينذرهم

بالطرد ونكره شوقى بالذات ، وقال له محمد ناجى إنه يعرف أنهم

سينكروا ، ولكن مجرد الكلام معهم سيخفيهم ويرهمهم .

لم يسترح يوسف لهذه المهمة ، إنه لا يريد أن يهده أحد ، ولا يريد أن

فى إحدى الليالى التى تكلم فيها عن متاعبه ، قال لى إن شهيدى باشا عليه
فذهب إليه فسأله شهيدى باشا ، هل موراخ عن عمله الجديد ، وقال له إنه
يعتمد عليه ، لأنه يثق فيه ولما موهبة ، فقال لشهيدى باشا متصداً ، إن كل
شيء قد تعلمه فى الصحافة ، كان بفضل محمد ناجى ، فهو أستاذة ، وتوقع أن
يقضب شهيدى باشا ، أو يبدو عليه الضيق على الأقل ولكنه على العكس .
ابتهج بإجابته ، وقال له :

— ماقيش عندنا فى البلد غير محمد ناجى واحد .

ثم ذهب مع شهيدى باشا إلى نادى محمد على ، وتناول معه الغداء

وحدهما ، كان يرى حوله ألح أسماء فى البلد ، محمد محمود خليل ،

وإسماعيل صدقى ، ولطفى السيد ، قدمه شهيدى باشا لهم وجلس يستمع إلى

أحاديثهم عن الطائفة والفرق بين جمال الباريسيات والسويديات ، لم

يتحدثوا فى السياسة ، انتظر طوال الوقت أن يسمع من شهيدى باشا أوامر أو

توجيهات خاصة بالعمل ، وكان يرتب فى رأسه الكلمات التى سيلذف بها فى

وجه الباشا ، ولكنه لم يسمع منه هو الآخر غير قصص وحكايات مسلية ،

حدثه وهما وحدهما على الغداء عن عشيقاته الملك ، وعن بارتيتة يركز لهما

الملك فى نادى السيارات ، ويضبطوه وهو يقش ، ولكن أهدأ من اللابيين لم

يجسر على تحدى الملك ، تركوه يسرقهم وقال شهيدى باشا محتجاً إنه لو كان

مع هؤلاء اللابيين لواجه الملك ، فهو لا يضرب الأرض لتطرح له النقود ، إنه

يكسبها بعرق جبينه وإن يسمح لأحد أن يسرق مليماً من أمواله حتى ولو كان

هذا السارق هو الملك ..

شعر يوسف ، إنه رجل وطنى ، عصامى ، لا يجب للفساد ، وأنه معجب

به ..

ثم رفع صوته وقال لى :

— لكن تعرف .. رفضت أخذ منه سيجاروى كل مرة .. أنا موش عايز منه

حاجة .. كنت مسننى غلطة واحدة منه وأهيج فيه ..

لم أسترخ لكلام يوسف ، لشعور غامض فى نفسى ، فقلت :

يهود شوقي ، ولكنه فكر في أنه يستطيع أن يتفاهم معه ، فهذا أفضل من أن يتأديه محمد ناجي ويخاطبه بلهجة حشنة ، ولقد يتهور شوقي فيطارد محمد ناجي في الحال .

نادى شوقي ليتحدث معه وسأله ضاحكاً ، كأنه لا يعرف هل هو شيعوى ، كالى سؤاله يريد أن يشعر شوقي بأنه يتجاهل كل ما يعرفه عنه ، ولم يكن ينتظر إجابة من شوقي ، كان يريد أن يعضى في الكلام فينصحها بأن يكون أكثر حذراً في هذه الأيام ، ويحبره بتقرير المباحث ، ولكنه فوجئ بشوقي يحدث عليه ، ويصيح بأعلى صوته أنه شيعوى ، وأنه سيظل يدعو إلى الشيوعية رغم انقب الجميع .

لقد يوسف أعصابه ، وأثّر شوقي بالطرد من الحجة فخرج غاضباً ، وشعر يوسف بنادم على اندفاعه وتهديده لشوقي ، خاف أن يظن شوقي أنه يتعسف معه ، بسبب حديثه معه ليلة بيت الكلمة ويسبب علاقته بمبروكة .. وهذا هو آخر ما يفكر فيه ، كان يريد أن يذهب إلى شوقي ويعتذره ويوضح له حقيقة الأمر ، وقبل أن ينهض من مقعده ، رأى شوقي يدخل عليه خائفاً مرتعداً ، منكراً أنه شيعوى ، مهاجماً الشيوعيين ، معلناً أنها وشاية ، وأنه كان على صلة يوماً ما بالشيوعيين ، ولكنه تركهم ، وأصبح محترقهم . هنّ يوسف من أجل شوقي .. كره كذبه .. وكره جهته .. إنه لا يطيق الكذب ولا يتحمل النفاق .. استمع إلى شوقي في غفلة وعامله ببغفاء ، ولم يمتدبره ..

أزعج هذا الحادث يوسف بشكل غير عادي ، وفي اليوم التالي قال لي - أنا ذهبت لشوقي النهاردة ، واعتذرت له . وسكت قليلاً ثم قال :

- عملت حاجة غريبة .. تصوري .. سأرحته بكل اللي في نفسي .. قلت له أنا خايف تكون فكر إني مدتك علشان علاقتك بمبروكة .. إذا كنت فاهم كده ، تبقى غلطان ، وأنت أول واحد يعرف أنني قطعت صلاتي بيها ، وتسيتها .. لا أنا عايز الدنيا .. ولا عايز أكون المسبب في أذية أي حد

يعرفها .. عايزها تصماني زى ما أنا ناسيها .. تعرق .. حسيت أن شوقي استوعب لكلامي .. لأنه رجع لطبيعته بعد ما فهم كل حاجة .. وبدأ يتهمنى بأني أناني .. بورجوازي .. عارفه يعني إيه بورجوازي . يعني من الطبقة المتوسطة اللي عايزه تفتنى .. اللي عايزه تتمسح في أول الذوات .. اللي بتنكر أصلها .. ضحككت .. وضحك هو كمان وقال لي كلمة غريبة : قال لي مبروكة زيك تمام .. بتفكر بعقلية بورجوازي .. قلت له ، إزاي ما عرفتني تخليها شيعوية .. قال لي ، دي هي اللي ح تخليها بورجوازي كمان ..

ونظر إلى يوسف مبتسماً كأنه روى نكتة وسألتني :

- تعرق الله كمان بورجوازي ..

قلت ضاحكاً :

- طبعا .. وايه ما أبقاش بنت ذوات .. وأفكر أنني اتفتنى .. ليه أفكر في الفقر والندك .

- لكن البورجوازي عايز يفتنى بأي ثمن ..

أجبت على الفور

- أي ثمن .. إلا أنني أخسر حبله .. أنا مستعدة أسبب كل الملل الل في الدنيا علشانك ..

قال ضاحكاً :

- تبقى موش بورجوازي ..

- امال أبقي إيه ..

- تبقى في نظر الشيوعيين عبيطة .. وفي نظر البورجوازيين عبيطة

قلت ساخرة :

- وفي نظرك أنت

قال وعيناه تصمنا للرح

- أنا كمان عبيط زيك .. لا حصلت شيوعيين ولا بورجوازيين .. ولا أنا عايز أبقي من دول ولا دول .. أنا موش عايز حاجة في الدنيا دي كلها عيرك أنت

كان هذا هو نوع الأحاديث التي تدور بيننا أحياناً عندما يعود من عمله وهو متعب ، كنت أحس ونحن نتكلم كأننا ننبش أعماقنا ، نفقش عن كل شيء في داخلك ، وكان أكثر ما يشغلنا ويفلقنا هو كيف نعيش وكيف نحتفظ بحياتنا ، هو خائف أن يضع في الصحافة ، وأنا خائفة أن أضيع في السينما ، ولكن كلما جابهتنا مشكلة معقدة ، كنا نسخر منها ، ونجد لها الحل السريع في حيننا نحن نعيش ، لأننا نحب نعمل لأننا نحب ، أنا أحيه وهو يحى فلنترك العالم كله يتشاجر وشوقي يشغل نفسه بالشبيوعية ، وشهدى يلثا يشغل نفسه بجمع الثروة ، وأثور سامي يشغل نفسه بمغامراته وشهرته ، أما نحن ، فمما نأمل هذه الهوسية .. لقد اكتشفنا دواء كل المشاكل ، اكتشفنا الحب . في تلك الليلة ، المطيرة ، لم أكن أفكر في الحب ، لقد تحول الحب في رأسي إلى زواج ، ولكن لم أستطع أن أبوح له بسرى . اليس هذا عجيبي . إنى أستطيع أن أقول ليوسف كل شيء .. أى شيء .. إلا أن أقول له تزوجنى .

ولكن لم أهدأ ، قلت لنفسى ، سانتظر حتى تأتى حجرة النوم ثم أصنعه .. وربما كان هو أيضاً ينتظر وصول الحجرة ليفاتحنى في الزواج . وجاءت حجرة النوم في يوم خميس ، كان يوسف مشغولاً بأزمة وزارية ، وكان يقضى أغلب وقته بين الجريدة ومكتب شهدى يلثا ونادى محمد هلى ، ولكنه ترك كل شيء ليأتى إلى البيت ويشاهد معى حجرة نومنا . سرير عريض له أرفف متحركة لنضع عليها حسينية الأفطار ، ونحتفظ فيها بالكتب والمجلات ، وراديو صغير .. وتواليت بسطة له مرآة كبيرة . ودولاب الخشب زان ، جديد ، يبريق ، والغرفة شكلها جميل ، حولت البيت إلى قصر .. حولته إلى جنة .

قال يوسف وعيناه مغمضتان بالحنان .

- احبا بقى لما بيت

قلت وأنا أقفز من الفرح

- أنا موش عايزه أسميه .. تعالى نعيش فيه من دلوقت ..

نظرت في عيني ، شعرت لثه قد قهمنى .. ومصت لحظة كأنها سنوات وعينى مشدودتان إلى شفتيه ، تنتظران الكلمة التي سينطق بها قاتل متفعلاً :

- إيه رأيك .

- بأقول لك مستعدة أعيش هنا من الليلة دى ..

- وعندك في البيت ..

- نقول لهم بكرة الصبح .

قات بلهجة مغايرة ، كأنه الهاق من نشوة

- وبعدين يقولوا علينا مجانين

صحت محاولاً التثبت بطلعى

- ما احنا مجانين ..

أطرق برأسه وقال :

- موش لازم أكلم ماما الأول

كنت أصبح فيه ، أمى ليس لها شأن بى ، ولكنى تراجعت ، حقاً أنى أتمنى لو تزوجنا في هذه اللحظة لقد عشت الشهور الماضية ، وأنا أوهم نفسى أننى سأتزوج في نفس اليوم الذى تصل فيه حجرة النوم حتى صيدت هذا الوهم ولكن .. ماذا أقول له .. هل أشرح له شعورى نحو أمى .. لا داعى لهذا .. فليات إلينا في البيت ، ويقابلها إنها تستطيع أن تمثل دور الأم ، وأولبضع دقائق ، وسأسطرها للمواقفة على زواجنا في الحال ، إن أطلب منها شيئاً .. لا نقود .. ولا مساعدات .. ولا فرح .. ولا حنان .. لن أكلفها مليحاً واحداً .. كل ما أرجوه هو أن تتظاهر بأنها أم طيبة ، لبعض الوقت .. ثم أفر

منها ومعى يوسف إلى الأبد

- تحب تقوف لما أنتى ؟

قال في حملى :

- بكرة ..

فيلته يشفتين فيهما كل حرارة قلبى .

ما كادت أمي تسمع أن مرتبة مائة وعشرين جنبها حتى والفت في الحال ، رغم أنها مطت شعيتها وقالت إنه ليس غنياً ، ورفضت أن تطهر لي أي علامات فرح بزواجي ، حاولت أن تدركها وأفتت مضطرة ، لأنها يائسة مني . إنصاف هي التي فرحت من قلبها وقبلتي ، وأظهرت لي حياً لم أترفعه منها ، وزادت دهشتي عندما رايت الدموع في عينيها .
وصاح عسى محمود ، معلناً أنه سيقيم لنا الفرح ، فقلت له في قسوة إنني أرفض ، وأني سأتزوج بلا ضجة ، فسكت وهو يكتف حبه ولكني لم أكن هل استعداد لأن أسمع له بجمع أصدقائه المقامرين في ليلة فرحي .
وجاء يوسف .

أثقت أمي دورها ، وبالنسبة فيه تحدثت وكانت من عائلة أرستقراطية هريقة ، ورويت قصصاً هجبية كنت أسمعها مع يوسف لأول مرة .. من أين جاءت بكل هذه الحكايات عن عائلتها وحندما ، وأطياتهم وعبيدهم ، خلطت بين الخيال والحقيقة ، وحولت بعض الأصدقاء إلى أقارب وحولت بعض من قابلتهم مرة أو مرتين في حياتها إلى أصهار ذكرت أسماء عدد لا بأس به من البلاشوات الذين ماتوا ، وقالت إنهم جميعاً من أقاربها ، رسمت صورة باهرة لماضيها ، تحدثت عن أيام اللعز ، أيام كانت تلعب مع بنت رفيقي بلشا ، وتعيش في أحضان جلفدان هائم بنت عم السلطان بلشا ، وذكرت قرابة أمها برفدي بلشا .. كانت كلما ذكرت اسماً لابد أن يكون لقبه بلشا ، أوله صل بلشا .
بهرت يوسف ، الذي كان ينصت إليها في خجل وأدب شديدين . وكان إذا تكلم خرج صوته ضعيفاً مرتجفاً ، نظراته مرتبكة .. وقع المسكين ضحيتها جعلته ينسأ أثاث حجرة الصالون التي يجلس فيه ، بكل قذارته وقدمه ، وسحرته بحديتها وكأنه في سراي عابدين .

وكانت اللحظة الذهبية عندما بدأت تستحويه .

.. وأنتم منين ..

أجابها

.. من مصر ..

سألته في الحال

.. لكن بلدكم إيه ..

أجاب في ارتباك

.. مصر ..

فنفرت إليه في ترفع ، وسألته في وقحة

.. يعني ملكوش عيلة ..

قال يصوت لا يكاد يسمع

.. عيلتنا في مصر ..

.. لكن دي بهية قالت لي إنك قريب راتب بك ..

قال وهو ينظر إلي مستجداً

.. أيوه .

.. تقرب لهم إيه ..

.. قرايب من بعيد ..

من يسمع هذا الاستجواب ، يكاد يقطع أن أمي ستعلن بعد ذلك رفض زواجنا ، ولعل يوسف توهم هذا في لحظة ما ، ولكني كنت أعلم أنها تستعرض مواهبها ، وقلت لنفسى وأنا أضحك في سرى ، سأعترف ليوسف يوماً ما بعد زواجنا بما فعلته به .

وسرعان ما أعلنت أمي موافقتها وقالت في بساطة .

.. اصعدوا اللى أنتم عاوزينه .. أنتم تقهوا بعض أحسن منى ..

كان تنازلاً عظيمًا منها قابله يوسف في امتنان شديد وهو مصغر الوجه ..
وحديثنا موعد كتب الكتاب بعد أسبوع .. يوم الخميس القادم .

بعد انصراف يوسف ، بكت أمي وأست أدري هل كانت تكي حيرة على ما تخيلته عن ماضيها أم لأنها تأثرت كأي أم سفتزوج ابنتها وقالت وهي تتمسح بدموعها .

.. الضابط ده باين عليه طيب .. أأد حبيته .

أرجعتى كلماتها ، أكثر من فرحى بها ، كنت مصممة على أن أبعد بينها
ومر يوسف

أما يوسف ، فقال لي في نفس الليلة :
.. أما كنت خائف أمك ما توافقنى .. لكن الحمد لله .. كانت تبقى
مصيبة
كان مرعى شديداً بموافقتها لقد خدعته تملأ ، وكأنها سحرته .

●●

قبل الزواج بيومين اتصل به الأستاذ حلمي ، ليخبرني بوصول المخرج
الإيطالي « روسانو » .. وقال إنه سيقوم بحملة له يوم الخميس ، اعتذرت له عن
الحضور فهدت في غير فهم .

- إيه .. بتقول لي إيه .
لم يصدق ما أقول ..

فطرحته له السبب ، وجدته اندفع في شجاعة وبغير تفكير فائقة :
- علي أي حال أنا موش متأكدة أنني ح أمثل بعد الجواز ..
توقعت أن أسمع صوته ثائراً محتجاً ، أو متوسلاً ، ولكنه لم يهتم كثيراً ،
واكتفى بأن يقول في هدوء وهو يهزئ بكلمات تقليدية .

- علي العموم فكرى في مصلحتك ياسامية ..
ثم ضحك وقال :

- والا اسمك ح يرجع ثاني ويبقى بوية ..
فاطنتني إجابته ، ولم أجد مبرراً من أن اندفع في تصميمي ، مؤكدة له
اعتزالي التمثيل .. وسمعتني أمي وأنا أصبح في التلفون ، وأقول :

- خلاص موش ح أمثل معد الجواز ..
فاسرعت لي ، وعيونها ترسل شرراً ، وزعقت .

- إيه يابت الجهل يتأكد ده .. هاتني السماعي خلطيني اكلمه ، زاننى
زعيق أمي عناداً ، فرقصت أن أسمع لها بالكلام مع حلمي ، فشنمتني ،

وتصويت ليلة تسمية وهي لا تكلف من الصراخ ، تهددني بأن الزواج لا أمان
له ، وإنني سأندم على ما فعلته ، إذ لا يوجد رجل في هذه الدنيا يستحق أن
أضحى له بمستقبلي .. كانت تصرح

- لو طلقك .. ح تفعل إيه .. أظن ح تجي تنلقني ثاني هنا . أنا
سالبش دعوة بيكي .. أبقى روحي أتمرط في الشوارع ..

جريت إلى السرير .. ووضعت الوسائد فوق رأسي حتى أصم أذني
ولا أسمع صراخها ، ولكني شعرت بالراحة عندما وجدت إصاف تنخل
لمصلحتي ، وتذافع عن قراري وتثور في وجه أمي ، وتبادل معها الشتمات ..
ربما لأول مرة في حياتهما .

ليلة الخميس ، لم أريوسف سوى يضع دافئ ، رغم الحاحه في أن نسهر
معاً كنت مشغولة بأشياء كثيرة برزت لي فجأة ، أشياء أريد أن أشتريها ، في
ولمبيتنا ، كنت مصممة ألقيت بين البيت وشارع فؤاد ، والأفكار تخرج لي رأسي
بلا ضابط .. أفكر في دعوة يولاندا ثم أعدل عن دعوتها .. أفكر في إقامة
فرح .. ثم أتردد .. وأرى أن الوقت قد فات ، ألف فكرة ، وألف خاطر .. موعد
مع الحلاق فستان .. غلد الخياطة .. بيجامة جديدة ليوسف .
ولم أتم الليل ..

في الصباح سمعت عمي محمود يصرخ خارج الحجرة .
يوسف صافر .. يوسف صافر .. عملها وسافر ..

لم أفهم ماذا يقول ، أصابني غباء مفاجئ .. وكأنني في كابوس ولكن لم
تضئ شراش ، حتى فزعزت من السرير لأصطدم بعمي محمود وهو يلتصق علي
الحجرة مستمراً في صياحه .

كانت جريدة الأيام في يده .. ووجهه شاحب مصفر من الانفعال وأصبعه
المرتجف يشير إلى صورة يوسف في الجريدة . وقد كتب تحتها في بروزان يفتاً
العين ..

« سيطر صباح اليوم يوسف عبد الحميد نائب رئيس تحرير الأيام إلى
سوريا ، لمتابعة قراء الأيام مآتياء انقلاب حسنى الزعيم » .

وهم اكمل القراءة ..

لم اعد ارى .. لم اعد اسمع وتوقف كل شيء ..

لم اعد احيا ..

طالبت محمد لحى في تليفونه الخاص ، ماكاد يعرفنى حتى قال في صوت بارد ليس فيه اى ترحيب :

— ازيك . انا مشغول بالوقت .. ممكن تكلمتى بعد شويه ..

صحت في ألم

— انت عارف الى حصل ..

هتف في ضيق

— بعهدين .. بعهدين .. انا عندي اجتماع ..

كان واضحا أنه يتهرب منى ، وكدت انهى المكالمه يائسة ، لولا صرخة انطلقت منى :

— انا لازم اشوفك ..

لعله احس بتصميمى على رؤيته ، لعله خاف من صرختى ، إذ قال مندفعاً .

— طيب .. فرتى عليه في المكتب ..

ذهبت اليه ، لم يرفع عينيه عن ورق امامه يقرأ فيه ، حتى وصلت إلى حافة مكتبه ، نظرت الى في جمره ، وطلب منى الجلوس على مقعد امام مكتبه ، وكنتى غريبة عنه ، تنظف عليه ، وعاد الى اوراقه يتفحصها ..

كانت الحجرة كبيرة تغطي جدرانها مكتبة مكدسة بمئات الكتب .. والمستأثر مسدلة تحجب ضوء النهار وقد اكنفى بفضه الإباحية على مكتبه . ورأيت التليفونات عن يمينه وشماله وخلفه ، أردت أن أعدما ، ولكنى لم اواصس العد ، كنت أشعر بقباض ورهبة ، أفكارى مشتتة ، وكان هدوء الحجرة قبح حقيقى ، هناك أصوات تطن في راسى ، وحولى أصوات مبهمه تطاردنى .

ذكرنى روجه بطبيب عيون ذهبت إليه مع أمى وأنا صغيرة ، كل ما ذكره الظلام في الحجرة ، ووجهه الطبيب وهو يمد يده في ففاض جلدى الى جفونى ، ثم

صراخى ..

أردت أن اصرخ ، ولكنى عجزت وربما خفت منه .. بعد قليل سالنى وهو يبتسم في فتور :

— خير .. اى خدمة ..

كدت اقول له ، لا اريد منك شيئاً ، واقر منه ، ولكنى همست :

— يوسف سافر ..

قال في هدوء قريب :

— أميره .. الساعة خمسة الصبح ..

— مالفيش ..

— غريبة ..

— انت عارف ان احناح نتجاوز النهاردة .. اطارق برأسه ، كأنه متردد في الكلام ، ثم قال في فتور :

— انت عايزه نصيحتى ..

نظرت اليه في جزع ، فاستمر يقول :

— انا ما احبش اتدخل ببيتكم .. واحسن أنك تحتفظى بمشاكلك الخاصة لنفسك .

قلت يائسة :

— بس اعمل إيه .. انا مش متصورة الى حصل .. امبارح كنت معاه ..

وسابنى على اننا حنشوف بعض النهاردة .. كل حاجة جاهزة .. ده كلم ما ..

ولم اتمالك نفسى فكنتى .. نهض من مقعده ، وتقدم منى وربت على كتفى مرءداً بصوت وقيق :

— وبعهدين يابسامية .. لا لا .. انا فاكرك احسن من كده .. العيب طده إيه فليفته .. بالعكس انتب لازم تئينى إنك مش سائله .. وموش ضعيفة ..

زادتني كلمات انهاراً فهمست وأنا أريد أن اصرخ :

— لكن انا يا حبه .. وكنت فاكراة بيجبى ..

فسمعت يقول

— شوقى يابنتى .. كل اللى متقوليه دد صحيح .. لكن أنا ما أحيش أفضحك عليكى وأخذحك ، ممكن أقولك كلمتين كويسين يهدوكى ويصبروكى لحد ما يزيج . وده فى الحقيقة إني أنا كنت عايز أعمله .. كنت عايزك تكتشفى كل شئ بفسك .. لكن الطاهر إني موش ح أقدر ..

وضحك ثم قال :

— أعمل إيه .. المهمة ثقيلة لكن أما مضطرب .. هرام أسبيك تعذبى فى نفسك بالشكل ده

كانت كلمات غامضة ، ولكنها أثارت فضولى ، فكلمت ، وأنصت له .. لم أكن أنظر إليه ، ثبتت عيني فى حجرى ، وكنت أرى قدميه وهو يتحرك أمامى يذرع الحجرة حيلة وذهابا ..

— أنتِ حبيبتى يوسف ، ويوسف حيك .. لكن ما فهمتوش بعض .. لو كنتِ فهمتى يوسف كنتِ عرفتى من الأول أنه مش ممكن ح يتجوزك ..

رفعت رأسى ، فصاح :

— مائز عايش منى ..

كنت أبحث فى وجهه عن شئ يقول لى إنه يكذب ، ولكنى عجزت عن رؤية شئ ، فأنطرت من جديد ، بينما ذهب هو إلى التليفون وتكلم فيه ..

— ماتز عايش أى مكانة ..

ثم قال وهو يمشى أمامى :

— أنتِ فاكهه ليلة ما جيتم عندى فى البيت ، وحكى لك عن دوق ونفسور اللى ساب عرشه علشان بيحب .. أنا كنت عايز أبعبك فى الوقت ده .. يوسف مش امبراطور .. موش ملك .. موش قاعد على عرش .. أنا متأكد أنه كان سلبه علشان يتجوزك ..

كان يعملها بمهنتهى البساطة .. إما للألف ما عندوش .. علشان كده ح يسبب حمة ويدور على العرش .. بنفسى البساطة .. ماتفتكرش إنه غلطان

ودق بيده على مكتبه .. دقائق عنيفة متوالية .. وصاح فى الانفعال

— يوسف عايز العرش ده .. عايز يقعد هنا .. إن ما كنتيش تعرفى ده تبقى ماتعرفيش يوسف ، هو مستعد يسبيك . ويسبنى علشان المكتب ده . وسكت برهة ثم قال فى حدة :

— يوسف فى الشهور الأخيرة اتغير بسرعة .. موش هو يوسف اللى أتت تعرفه الأول .. خلاص ، اكتشف نفسه .. شاف المستقبل مفتوح أمامه .. شغل .. مسئوليات .. علاقات اجتماعية على مستوى كبير .. مستوى وزرا وبلشوات .. أكثر من كده .. إنه افكر إنه له دور ممكن يلعبه .. فى السياسة .. موش فى الحب .. اتقنع نفسه إنه عايز يصلح البلد ، يقضى على الفساد . يرفع مستوى الفلاحين .. يشجع الصناعة الوطنية .. تقتصر سامية سامى إيه مكانها فى ده كله خيلنا نتكلم بصراحة .. سامية سامى ممثلة ناشئة .. حلوة .. من بنوع السيميا .. المنتجين والممثلين وحتى .. حتى وزير الأوقاف طمعان فيها .. أرجوكى يابنتى ماتز عايش من كلامى .. أنا باحترمك .. وعارف إنك ممكن تكونى زوجة كويسة ليوسف .. ويمكن يوسف نفسه عارف كده .. لكن .. لو اتجوزتية ..

ودق على المكتب بعنف صائحا :

— موش حيقدر يقعد هنا .. لأن كلمته اللى ح بكتبتها .. ح تبقى مشجوعة .. ح يكذب فى السياسة ، يقوم خصومه بإقوالا .. بدل ماتحاول تصلح البلد .. روح شوف مراتك بتعمل إيه . ح بطلعوا عليه شائعات .. ح يبقى متجوز واحدة ارتست ..

وعدت إلى البكاء ، فأنحنى على حتى شعرت بأنفاسه ، وهمس :

— سامية .. ماتعيطيش يابنتى .. أنا عيطت فى يوم من الأيام لنفس السيبى .. أنتِ عارلة قد إيه أنا كنت ياحب المرحومة دلال .. وكنت بأعيط علشان أتجوزها .. كنت مستعد أسبب كل حاجة .. وأسمع كل التشجيعات والتهنئ بس أتجوزها .. لكن تعرفى .. هيه اللى رفضت .. هيه اللى قالت لى الكلام اللى أنا يا قولها لك دلوقت . كانت فائمة الموقف كويس . كانت عارفة

هي عليفة فين .. وإيه المجتمع الي حوالينا .. كانت بتعبنى أكثر من حيك
ليوسف .. لأنها ضمنت .. لأنها فهمت .. لأنها كان عندها حاجة ثانية .. كان
عندها صوتها .. وأنت والحمد لله عنده التمثيل ..

فهمت في زهول :

— أنا سبت التمثيل ..

فصاح :

لا ... تبقى غلطانة .. ليه تسببي التمثيل .. ده مستطبك ، ولازم تحمصري
تذكرك فيه .. مافيش حاجة تستحق منك أى اهتمام غير التمثيل .. لا حب
ولا جواز شوي يوسف عمل إيه .. أنتي لازم كمان تعملي زيه .. لازم تكوني
قوية زيه ..

ماذا أقول له .

إنه لا يعرف أن يوسف وهى تصعبنى بأن أترك التمثيل وأبحث عن
هريس ، إنه لا يعرف أنني لست ممثلة ولست موهوبة ، إنه لا يعرف أنني
اكتشفت الكذبة الكبيرة التي صنعتها ، أنا لست مثل دلال ، ولا مثل هدى
مراد ، ولا مثل فائق حمامة ، أنا مجرد فتاة هادية ، بلا موهبة ، أبحث عن
الحنان ، أبحث عن الرجل الذي يحميني ويبدلني الحب ، ولقد وجدت ،
فتغلخت عن كل شيء ، واكتشفت أنني كنت أكلب على نفسي ، وأتوهم أنني
ممثلة .. أنا لست أكثر من فتاة تحب ، لا أريد شيئاً من الدنيا سوى حبي ،
مال والناس وكلامهم ، مالى والشهرة والمجد ، مالى وهذا المكتب الذي يريد أن
يجلس عليه يوسف ، فليجلس عليه وعلى خذرة مثله ، ولكن ما الذي يمنعه من
الزواج بي .. أه .. ماذا أقول له .. إنه لا يفهمنى ، أنا أن اتخلى عن يوسف
سأجبرى وراءه ، سأركب على قدمي وأتوسل إليه ألا يتركنى ، سأنتحرو
هجرنى ، ليست لي حياة معه

ودق جرس التليفون فذهب إليه والنقط السماعية وتكلم ، لم انتبه إلى كلامه
حتى سمعته يقول :

— أنا مستنى يكلمنى بعد الصهر من دمشق ..

غمرنى فجأة شعور بالكراهية نحو يوسف ، إنه هناك في دمشق يعمل ،
ويكتب ، ويقابل الناس ، ويتكلم في التليفونات ، ولكنه لم يهجرنى ، السافل ،
سانتكم منه ، سأجعله هو الذي يركع على قدميه ويتوسل إلى ، سأجعله هو
الذي يجرى ويلهث وراءى ، سأجعله هو الذي يبكى ، سأذله ، سأجعله ،
— إيه رأيك بآه في كلامى .. كان قد فرغ من حديثه في التليفون ، وبينما
تبتسمان محاولاً أن يدعونى للاهتمام مثله

وأدهشتى ، ألهست أن شيئاً ثقيلاً ينزاح من فوق صدرى .. ووجدتنى
ألتصم .. وقالت :

— الحمد لله التي عرفت إنه سافل قبل الجواز ..

فصاح قائلاً :

— مقدروش أقول سافل .. السافل ما يتصرفش بالشكل العبيطده .. ما كانش
يربط نفسه للدرجة دي ، وما كانش يخاف يقول لك إنا مسافر ، ده تصرف
بطريقة صيبانية وهرب .. إنما على أى حال حصل خير .. افرضى إنك
اتجوزتي .. تفكرى كنتى ح تعيشوا كريس كنتى ح تندمى على إنك طبعيتى
بمواهبك .. كنتى ح تلاقى نفسك ست هادية مصبوسة في البيت .. في الوقت
اللى عره فيه بيشتير واسمه بيلمع .. أوى تقول إنك مستعدة تفسى
بنفسك .. ده كلام ممكن أسمعه منك النهاردة .. لكن موش بعد ستة ولا
سنتين .. الحب بعد الجواز بيبرد .. والمهابة بتبقى روتين .. ومملة .. وكان
ح يبقى أعذب الوقت بعيد عنه .. مشغول بعمله وسفرياتة ومقابلاته .. تعمرى
إيه التي كثر ح يحصل .. كنتى ح تسببيه قبل ما عره يسبيك .

كان الكلام أثر عكسى في نفسى ، أشعر بعينين جارف إلى الحياة التي
يصنعها ، ونسيت كرهى ليوسف ، ورغبتى في الانتقام منه .. ووجدتنى أقول
رغماً عنى والدموع تظفر من عيني :

— أنا بأحبه ..

فنهكت :

— ليه .. أنتي بتتكلمي بمبط كده ليه .. ده لا عره أول حب بولا أخر حب ..

الحب ياستى على قفاه من يطمئ .. بكرة تحبى غيره .. وغيره .. وتضحكى على نفسك .. لما تفكرى إنك فى يوم من الأيام كنت تطمئلى عليه .. ولم أحتمل كلامه ، ففكرته وأنا ألتقى مما كنت ، قال لى وهو يودعنى عند باب حجرته :

- أبقى كلمينى وقت ما تحبى .. ممكن تعطينينى كصديق .. أنا عاجزك ترجعى زى ما كنت الأول .. البيت المدرجة التى بتضحك من قلبها .. ظلت كلماته تتردد فى رأسى ، نعم ، لماذا لا أعود كما كنت .. البيت المدرجة ، ولكنى شعرت أن هذا مستحيل ، لقد ضاع منى كل شىء ، ولم تبق لى سوى الأحزان .

وعدت إلى البيت ، لتقابلنى أسمى لثقة لى لهجة امرأة :

- كنت رايحة الليلة دى حفلة حلمى .. أنا كلمت فى التليفون .

ولم أستطع معارضة ، إنها منذ علمت بسفر يوسف ، وهى لا تكف عن الصراخ وإصدار الأوامر .. أنت لازم لما يرجع تريعى له المكتب وتشيل الجزمة وتسلطى عليها على رأسه .. أنا ح اكلهم واحد معامى يرفع عليه قضية توصيى .. الجرنال ده ما يشغش الليت .. ده الذى بيكتبه ناس لوز .. وكنت أسمع لها فى سمع واستسلام ، حتى بنفذ صبرها فنزعنى قى :

- ما نقول حلجة .. مالك ساكتة كده ..

فاحس أن ضيقها بى ، اكبر من ضيقها بيوسف .

وذهبت إلى الحفلة ، قابلنى حلمى عند الباب . وعلى وجهه قناع من للحزن والأسى .. وسألنى بصوت ملهوف :

- إيه الذى حصل .. إزاي مسافر من غير ما يتقول للزى لما دى حلجة غريبة خالص . ده طلع ولد مسافل صحيح .. ولا بهمك .. اضحكى تعالى لما اتقدمك لروسانو ..

كان ينظر لى فى إزعاج ، كأنه يتوقع أن يصدر عنى شىء شاذ ولابد أن وجهى كان غريباً ، يدعوهُ إلى الخوف منى .

وتقدمنا إلى حجرة المصالون . وكان يقف فيها رجال ونساء كثيرون .. كلهم وجه رأيتهم فى الاستديو .. المصور ، ومهندس الصوت ، ومساعد المخرج ، ويجوارى باب للشرقة كان روسانو يقف مع هدى مراد .

رجل عجوز فى الخامسة والخمسين من عمره ، شعره أبيض ، ووجهه الأحمر ملى بالفصوص ، عينا منتفختان ، وله كرش مستدير ، يرتدى بدلة كطية لثينة ، ورباط عنق أبيض ، وعيناه تلمعن ببريق ملكر .. سألنى بالفرنسية بمجرّد اقترابى منه :

- ما رايك .. هل تقبلينى زوجاً ..

قلت له فى ارتباك :

- نعم ..

فصاح :

- ولكنى عجوز .. وأنت صليحة .. كيف تقبلين الزواج من رجل عجوز مثلى ..

انظري لى كرشى .

احترت ماذا أقول له .. وخيل لى أنه مجنون ..

وهتف روسانو فجأة بصوت حاد الفزعنى :

- قولى أى شىء .. لماذا لا تجيبين على سؤالى ؟

فهمست فى خوف :

- أنت تضحك طبعاً ..

فقال بصوت جاد :

- أبداً .. أنا لا اضحك .. أنا أناقشك مناقشة حاسمة ، يتوقف عليها تعاوننا

معاً .. لماذا تقبلين الزواج منى وأنا رجل عجوز لى كرشى ..

زاد ارتباكى ، وتلعثمت .. وأطلقت هدى مراد ضحكة ساخرة وثقلت حولى

فرايت العينين كلها تضحك ضحكة ساخرة منى ..

وتقدم لى الأستاذ حلمى كاساً من الويسكى ، وهمس من بين أسنانه

- خذى بالك .. للرجال عاجز يشوفك ملطحة ولا لا ، اضحكى

ابتسمت على الفور ، ابتسامة وحلة مصطنعة . وشعرت أن عيون روسانو قد زادتا انتقاداً وسألنى :

— ألا تحبين شاباً صغيراً ؟

— لا ...

— لماذا .

كادت أجزى عاربة منه ومن البيت .. كانت صورة يوسف تماثلاً لعيني
وصوت كالمطارق يدوي في رأسي هاتفاً .. يوسف .. يوسف .. يوسف ..

وصاح رومانو :

— هل أنت ممثلة ..

فهمت :

— نعم ..

فصحت قائلاً في سفرية :

— أنت تلميذة في المدرسة

نظرت إلى حلمي استعجب به ، فرايته ينظر إلي في أمسي ، وقال بالعربية ..

— ما لك دهرجي .. أنتي مقله يا سامية .. اتكلمي معاه ..

شعرت أنني اختنق .. وأصبح خروج الكلام من فمي شيئاً لا تحلقه

إلا مهجزة . والتفت رومانو إلى حلمي وسأله :

— ماذا تقول لها ؟

قال حلمي بالفرنسية الركيكة :

— أنا أطلب منها أن تتكلم .. فبدأ على رومانو الضيق ، وقال له :

— إنها ليست كما توقعت ..

ثم نظر إلي وقال ساخراً :

— ما هذا الذي تعملينه فوق رأسك ..

نظرت إليه في دهشة وإعيا . لم أجد قادرة على الصمود أمامه ..

فقال وهو يمثل بيديه :

— أنتي يا مدموازيل تعملين فوق رأسك أطنائاً من الحديد ..

ثم أمسك بيديه كأنهما مقيدان وقال :

— لابد أن تتخلصي من القيود التي تأسرك .. أنت تحبين روحك داخل

العمة .. حلمي هذه القيود .

وحرك يديه ، كأنه يكسر قيوداً حديدية .. ثم ضرب بكتا يديه على فخذه

وسألني :

— هذا يجب أن يزول .. ما وزنك ؟

— ٥٦ كيلو ..

قال :

— اتقصي ستة كيلو .. من هنا .. من هنا فقط ..

لماذا قل يوسف بي كل هذا . لولاه لما تعرضت لكل هذه السحرية .. لو لم

يسافر . لكننا معاً الآن في بيتنا . لماذا تركتي وحيدة ، بلا حب ، ولا حنان ،

مستحيل أن تبلغ به القسوة إلى هذا الحد .. لو عرف ما يحدث لي الآن ، لتركه

كل شيء وجاء لينقذني ..

لم أجد أسمع مع ما يقوله رومانو كنت أفكر في يوسف ، في عنيته وفي صوته ،

حبي يكتم أنفاسي ، عناني تهطل بين الحاضرين عن يوسف ، سوف يدخل

الآن ، سوف يسأل عني .. أه .. كيف لم أفكر في هذا .. سيطلبني في التلفزيون

من دمشق .

وتركت الجميع ، وخرجت أبحث عن التلفزيون حتى وجدته ، وسمعت

صوت أمي ..

— حد سال عني يا ماما ..

— لا ..

اتقيض صدري ، وسمعتها تقول :

— يتسأل لي ..

— يولاندا كانت قالت إنها ح تتكلم ..

— لا ما انتكلمتش .. أنتي فين .

— عند الأستاذ حلمي ..

— طيب يا بنتي ارفشي .. وما تبرزيش ..

— لا يا ماما ..

ورفعت حزينة ، ويدي متشنجة على سماعة التليفون ، اتمنى أن يدق ،
وأرفع السماعة وأسمع صوته .

وارتجف قلبي ، كان جرس الباب هو الذى يدق ، وبخل أتور سلسي ومعه
بنتان لم أراهما من قبل ، وماكاد يراى حتى هتف وهو يجذب البنتين معه إلى
الداخل :

.. خلليكي عندك .. أنا واجع لك ..

وذهب بالبنتين إلى روسانو .. وقمعهما له ، سمعت ترحيب روسانو
البنتين ، وضجكات روسانو ، وضجكات أتور .. وارتكت على الفور أنهما
منالستان لى ، أحضرهما أتور ليعرضهما على روسانو ..

وأم أكثر ، كنت لا أحس بشيء ولا أهتم بشيء ، وصورة يوسف مازالت
في عيني ، والمطابق في رأسي تدري .. يوسف .. يوسف .. يوسف ..
وسمعت روسانو يصيح .

.. يجب أن نقتلها ونكفها .. ماذا تأكلين يا مدموزيل ..
وصاح أتور :

.. سامعه .. نوسباجتى .. موش كده يا خرلجة والا إيه ..

وتعلت الضجكات .. وقبل أن تهدأ الضجكات رأيت أتور خارجاً إلى ،
وجذبتني من يدي ، وجلسنا على مقعدين متجاورين .. ونظر إلى ساعراً ، وهو
يهرز رأسه ، وسألني متوكفاً :

.. أنت شريرة كام وسكى ..

.. به الثاني ..

.. موش كفايه .. أنت لكى قزارة لوحده ..

ورفع كأسه وهتف :

.. فى صحتك ..

ثم ضحك وقال ..

.. مايلب الا الشاطرين .. كده برضه تخلى الواد العبيط ده يضحك
عليكى .. موش كنت تسمعى كلام بابا ..

قلت متوسلة ..

.. أرجوك أنا موش مستحيلة تريقه .

فصاح :

.. ومن قال أنا بتريق .

ولعت عيناه وهو يسألني :

.. إيه ياه اللي حصل يلجميل ..

.. خلاص .. سييك من السيرة دى ..

.. مافيش حلجة اسمها خلاص ، أنا بابا .. ولازم أعرف .. موش كده والا
إيه ..

كان المرح يفيض من عيني .. وإبقت أنى لن أستطيع الخلاص منه
فقلت

.. ولا حاجة .. بعد ما اتفقنا على الجواز النهارده .. خذ بعضه وسالط .

صاح فى لهجة تمثيلية :

.. الوغد الزنيم .. سوف أقتله .. يا براكين الأرض .. يارعد السماء .. يا الله
الانتقام .. أنزلى غضبك وانتقامك على المجرم اللعين .

ثم ضحك قائلاً :

.. أحسن حاجة عملها .. علشان تصدقنى وتطلعى من مخك الصغير ده إن
فيه حاجة اسمها حب لو كنت قلت لى إنك كسبتي وراة يا نصيب بطيون جنبه
كنت صدقتك .. لكن لقيتى واحد بيحب بإخلاص .. هو .. هو .. ده كان
زمان الحب ده بطل . فيه ناس يتنسل مع بعض ويقولوا ده حب .. إنما حب
بحق وحقيق .. مافيش كلام فاضى زى ده ابدأ ابدأ ابدأ ..

وسألني فجأة :

.. روسانو شافك .

.. آه .. ومعجنتوش .

.. ليه ..

.. قال إنى تخيفه .. وزى تلامذة المدارس .

- ولا يهكم .. أنتِ ألى ح تأخذى الدور ..

ونظر إل نظرة غريبة ، كأنه يمثل دور عاشق فى فيلم غرامى .. ووضح يده
المصنكة بالكأس على قلبه ، وقال بلهجة تمثيلية :

- يا حبيبتي ياسامية .. أنا عارف إنك الليلة دى عايزه تسكرى وتسي ..
وخدى كمان بكرة .. وكمان بعده .. لكن بعد بعده .. لازم تكوتى نسييتى كل
حاجة .. موش كده ياروحى .. وبعدة نبقى نتقليل .. وأعمل لك امتحان
أشوفك نسييتى والا لا ..

فهمت ماذا يرمى إليه ، ووجدتني لقول فى استسلام :

- ح تساعدنى انسى ..

صاح بصوته الطبيعى :

- وأنا ليه شغلان غير دى .. أنا من خبراء النسيان .. ما حدش قال لك عنى ..
وشمك ..

واسرعت فى التهرب ، فكنت أسمعك وأبكي ، ولم يتركنى لهدأ .. كان إذا
رأنى أسمعك بكى .. وإذا رأى أبكى ضحك ، وأصبح منظرنا مسلماً
للجميع ، حتى أن الأستاذ حلمى هجم على رهمس فى أذنى :

- براءو ياسامية .. أنتِ والنور يمثلوا أحسن دور فى حياتكم .. الرجال
روسلانوح يتجهل طبعك يقول ما فيش خيرك تمثل الدور استمعت إلية فى غير
فهم ، وكل ما أفكره بعد ذلك ، خرجى مع لنور فى سيارته ، ونحن نفنى ،
حتى ولقت السيارة داخل جاراچ كبير .

وصالت أنور :

- احتافين ..

قال .

- احنا وصلنا ..

- وصلنا فى ..

- البيت ..

- لا .. ده موش بيتنا ..

- والله العظيم ده موش بيتنا ألى فى شارع شريف

ولا أدري كيف تنبهت إلى أنه أهدس إلى بيته .. وتذكرت يوسف وعادت

المطابق تدوى فى رأسى يوسف .. يوسف .. يوسف ..

- أنا عايزه أروح بيتنا

- ما أحنأ فى بيتنا يا حبيبتي . وفى الصباح استيقظت لأحد دعس فى مراضى

بالجيزة .. والطيايف غلمضة مما حدث بالأمس تدور فى رأسى وتذكرت

محاولة أنور وتذكرت أنى رفضت المصعود معه واشتمت ..

ثم بكيت .. فقدت تذكرت يوسف ..



كلها مريم زاد شعوري بالصدمة ، فلم أعد أحرف طعم النوم ، ولم أعد أنوق الطعام وأصبحت أكلهم نفسى ، وأهذى ، وإبكى ، ترائنى الانتظار المسود .. الموت .. الانتظار .. ساعت حالى .

حاولت أن أتساءل ، ولكنني فشلت .. فشلت حتى في أن أبدأ المحاولة ، إذ كيف أقتنع نفسي بأن يوسف لم يكن شيئاً في حياتي ، أنه مجرد حلم جميل ، ثم استيقظت منه ، يوسف في دمي ، في أنفاسي ، في عقلي ، كيف أتساءل أو أتابعه ، كيف أصدق أنه كان مجرد حلم ..

أشدد ما يذهني، إنني لا أجد مخرجاً، لا أجد طريقاً أهرب فيه من حبس، ماذا أفعل، هل أعود كما كنت، تلك الفتاة التي تعرف كل يوم على شاب جديد يملك عربة، أخرج معه في سهرات سفيفة، تأكل ونشرب، ونرقص في بلاهة، كالحيوانات، ثم أعود إلى البيت والقراب يطغى مني .

مستحيل أن أعود إلى هذه الحياة، لن أجد فيها شيئاً، لم تعد مسلية لن أجد فيها ما يثيرني أو يلهي .

ماذا استطيع ان افعل الان .. لا شيء .. سوى ان ارقب الحقد الذي ينفو
في صدري نحو يوسف .. اه .. لو استطيع ان افعل شيئاً يغيظه .. يؤرقه ..
يعذبه .. لو استطيع ان اجعله يبكي ..

ربما لو ذهبت مع أنور سامى لشعر بالغيظ .

أهذا صحيح ، أم أنا أذخ نفسي

لا لى أذهب مع أنور سامى حتى لا أتبع له الفرصة كي يريح ضميره ،
سيقول لنفسه إنه كان على حق إذ رفض أن يتزوجنى سيطمئن عندما يعلم أننى
أصبحت عشيقه أنور . لا لا أريد له راحة الضمير ، أريد له العذاب ..
ولو بعض عذابي ..

قالت لى أمى

.. ما تروحين تشوين مدهت .. أسألى عليه ..

وزفرت الهواء ثم استطربت :

.. أنا لو منك .. أكون متجوزة مدهت فى أربعة وعشرين ساعة

سألت نفسى ، لو تزوجت مدهت فهل هذا يغيظ يوسف . ربما

لقد شعرت أكثر من مرة أنه كان يغار منه ، وخطر لى خاطر مفاجئ . لقد
أحبنى يوسف ، لأنه وجد مدهت يحببى ، ألم يعترف لى أنه كان يمسد
مدهت ، ألم يحب سعاد لأنها شقيقة مدهت .

تذكرت كلمات يوسف وهو يروى لى عن حبه لسعاد ، كنت بأقول لى سرى .

.. عنده أم ، عنده أخت .. وأنا لوحدى ما عندى حد . ويمكن علشان
كده حبيت سعاد .. استكترتها على مدهت ، قلت أخذها لنفسى ،

أضاعت الكلمات فى رأسى ، فرأيت كل شيء يوشوح ، وكما ردت هذه

الكلمات ، زدت يقيناً أن يوسف أحببى ، لأنه يمسد مدهت ويغار منه ، لقد

كرر معى نفس ما فعله عندما أحب سعاد .. أراد أن يأخذها من الاثنين من
مدهت .

نعم .. هذه هى الحقيقة ، ولذلك لابد أن أعود إلى مدهت ، لا شيء يغيظ

يوسف مثل هذا ، أمى على حق ، لقد نهتنى إلى ما يجب أن أفعله دون أن
تدري .

وبغير تردد ، انصلحت بمدهت .

سمعت يهتف فى التليفون وقد عرف صوتى :

.. ازيك يشامية .. اهلا اهلا .

.. يعنى فكرتى ..

.. وأنا أقدر اتسألكى ..

.. ما بتسألكى عنى ليه ..

.. خايف أصابك ..

.. خايف وإلا فيه حاجة ثانية .

فتلحمت ، حاول أن يتهرب من الإجابة ، فمضحك لى بلاهة .. وانتظرت أن

يسألكى أن أراه ، ولكنه لم يفعل ، فاضطرت أن أقول :

.. أنا عايزه أشوفك .. صباح فى دهشة :

.. تشوفينى ..

ثم أدرك خطأ فسارح يقول لى ارتباك :

.. أنا تحت امرك ..

أجسست أنه لا يرحب برؤيتى ، وتأكدت أنه على علاقة بفتاة أخرى ،

ولكنى لم أراجع ، فمضيت أقول :

.. ممكن أشوفك النهاردة ..

.. جمل يردد لى ضياء

.. النهاردة .. النهاردة .. ثم صاح لى عصبية

.. امشى .

.. فى أى وقت .. أنا غاضبة

قال لى صوت خفيض كأنه يضحى أن يسمعه أحد

.. طيب ح أقوت عليكى الساعة ثلاثة .. بس تنزل على طول

بعد أن فرغت من اتفاقى معه ، فترحماسى ، وذهت على أنى كلمته ..

انتابنى وجوم ثقيل ، ورغبة لى أن أعبس نفسى فى حجرتى ولا أخرج للقاءه ..

أنه ليس مدهت الذى كنت أعمره ، وأنا لست الفتاة التى كان يعرفها ، وأنا

واثقة أنه يحب فتاة أخرى ، لذلك هو خائف من مقابلتى ، لماذا لا أتركه

وشأنه ، ولا أقسد عليه حبه .

لم استطع المضى في التفكير ، ولكنني في الدقائق الأخيرة ارتديت ملابس على عجل ، دون أن أهتم بزيّتي ، وهبطت إليه .

نطلق بعريته في شارع الهرم ، وذهب بي إلى مطعم صغير مهجور ، لم نتردد عليه من قبل ، كأنه يريد أن يختفى عن الأنظار ، وكنت حتى وصولنا إلى ذلك المكان ، صامتة في حالة إعياء ، استمع إلى ثروته دون أن أقوم ما يقول .. بعد أن جلسنا سألني :

.. مالك ؟

ويكيت ..

نظر إلى في دعر ، ثم ثلثت حوله خائفاً ، وهمس :

.. إيه .. فيه إيه ..

كانت خطتي قد تبددت ، لن استطيع أن اتصنع أمامه ، لا يمكنني أن أخدعه وأجعله يتزوجني ، لقدت كل ما كنت أعرفه لإثارة إعجاب الرجال .. أنا مخلوقة ضعيفة منهارة يائسة ..

.. حصل إيه ..

ووجدتني أروي له قصتي مع يوسف ، استمع إلى وعل وجهه علامات ألم حقيقي ، ثم ضحك فجأة وقال محاولاً أن يسري عني :

.. وإيه يعني .. تلاقي الحب واحد أحسن منه ..

قلت في ألم :

.. لكن أنا بأحبه ..

هز رأسه وقال في لهجة حزينة :

.. وبين بيتحوز الي بيحبه ..

والتفت عيرنا ، فحول عينيه بسرعة ، وأحمر وجهه وتهجد صوته :

.. أنتي عارفه أنا ح إنجوز ..

نظرت إليه في صمت ، ولعله ظن أنني أقبهه ، إذ قال معتقراً :

.. واحدة ما بأحبهاش .. لكن أبويا وأمي مصممين إني اتجوزها علشان عنية

أخرجتني كلماته من أفكارى للحظات قليلة ، وسألت :

.. ولازم تتجوزها ..

قال في استسلام غريب :

.. أعمل إيه ..

شعرت برمارة في فمي ، ولم أقل شيئاً .. وبضى هو يقول في سخرية حزينة

.. الظاهر إن الجواز حاجة .. والحب حاجة ثانية .. الواحد يتجوز زي

ما أهله عايزين .. عشان يفرحوا بيه .. وبعدين يحب زي ما هو عايز ..

نفس الكلمات التي كانت ترددها أمي .. لا فرق بين عائلة راتب الغنية

المحافظة على التقاليد ، وبين أمي التي خرفت كل التقاليد .

وتركته ونحن نتمتع بكلمات فارغة لا معنى لها ..



مررت في الطريق ببائع الجرائد كان يصرخ في وجهي : الأيام .. الأيام ..

بغير وعي ، مددت له يدي بقرش ، وأخذت منه الجريدة وقششت هن يوسف ..

رأيت اسمه بارزاً في الصفحة ، وقرأت : « منذ هودتي من دمشق وأنا .. »

لقد عاد ..

متى عاد ..

وأصبحت بشغل تمنني من الحركة بعد قليل . استطعت أن أمشي بصعوبة .

لنظيت الجريدة في حقيبتي . وذهبت إلى البيت .. وأغلقت على نفسي

الحجرة ، وقرأت المقال ، قرأته عدة مرات ، لم أكن أبحت سوى عن شيء

واحد ، متى عاد ، الأمس ، منذ يوم ، منذ أسبوع .

أريد أن أعرفكم يوماً استطاع أن يقضيها في نفس البلد التي أعيش فيها

دون أن يحاول الاتصال بي .. وعجزت عن معرفة شيء . فصريت وجهي في

الوسادة ، وبللتها بدموعي ، ومزقتها بأسناني .

كثت في قمة الجنون واللام ، عندما سمعت جرس التليفون يدق .. جريرت

إلى التليفون ورقعت السماعة وقلت بصوت متحشرج :

- الـ

وسمعت صوته

صوت يوسف .

كان يهتف في حماس .

- أهلاً حبيبتي ..

وكان شديداً لدغسي في يدي لدغسي في قلبي ، فوضعت السماعة مكانها ، ووقفت ذاهلة ، بعد لحظات سمعت رنة خفيفة تدل على إنه وضع سماعته هو الآخر ..

امتلاً قلبي بالحقد ، كدت أمسك بالتليفون وأحطه ، كدت أصرخ حتى يسمعي على بعد آلاف الأمتار ، لن أكلمك .. لن أكلمك .. أنت ساقط .. أكلمك .. أكلمك ..

ظل قلبي يردد كلمات الحقد التي تمنيت لو قلتها له . حتى وجدتني رغماً عنى أردد كلمات الحب ..

ونظرت إلى التليفون في لهفة ، يجب أن يتكلم مرة أخرى .. الآن .. الآن .. لابد أن يتكلم . أنا واثقة إنه سيتكلم ..

كان قلبي يأمر جرس التليفون أن يدق ..

ودق جرس التليفون ..

رفعت السماعة وأنا واثقة أنني سأسمع صوته ..

وسمعت صوته .

- سامية .. أرجوكي ما تغفلين السكة . اسمعيني الأول وبعدين اعلمي التي أنت عايزاه ..

ماكدت أسمع صوته ، حتى استولى علي الحقد . وبكل قوتي ضربت بالسماعة فوق التليفون ..

وجريت مبتعدة ، لا أدري ماذا بي ، كنت خائفة من نفسي ، لا أطلق نفسي ، أحبه وأكرهه ، أريده ولا أريده ، أكاد أبكي وأكاد أضحك ، كائن معلقة في الهواء ، لا أدري ما إذا كنت أرتفع وأطير ، أو أهوى لأتحطم على

- ٤٦٦ -

الأرض

ودق جرس التليفون ، وسمعت صوته . ينساً متوسلاً .. ملهوها سامية . أنا باتعذب .. أرجوكي ..

صرخت

- عايز إيه

- عايز أشرح لك كل حاجة

قاطعة :

- موش عايزه منك شرح مايش بيني وبينه حاجة

- أرجوكي تفهميني .. أنا بأحسك ..

صمت في حين

- لكن أنا موش بأحبك .. ولا عايزه أسمع صوتك .. من فضلك ما تزعجناش بالتليفون .

- كده برضه ياسامية ..

- قلت لك .. بلاش إزعاج ..

وأغمدت السماعة فوق التليفون .. أغمدتها في قلبي .. وكان حلقى قد

سيطر علي ، وحوّلني إلى مخلوقة بلا عقل ، فجريت إلى حجرتي وأغلقت

الباب ، ووقفت وراءه أنتظر صوت الجرس من جديد .. ولكن الدقائق مضت ،

وقد انقطع الرنين ، ومضت الساعات وأنا أنتظر .. ولم تعد تحيا سوى أذني

في انتظار صوت يوسف ، ولكن كلما دق جرس التليفون كان المتكلم شخصاً

آخر سواء ..

في صباح اليوم التالي ، تكلم يوسف مرة أخرى . قال بسرعة

- بأحبك .

وأقبل السكة قبل أن يسمع صوتي ..

وقريت أن أعينه ، فرفضت أن أريد على التليفون ، وتركت هذه المهمة

لأمي ..

قلت لها

- يوسف عايز يكلمنى .. مالتنى غير مصدقة .

- وكلمته

- لا .

قلت فى تردد .

- موش كنت تشوف عايز يقول إيه

همست فى إعياء :

- خلاص ياماما .. مايفتش أصدق حاجة يقولها .. ابقى كلميه أنت وشوف

عايز إيه ..

وعندما تكلم يوسف ، مالتنى أمى .

- أنت عايز منها إيه ..

ثم سمعتها تصرخ :

- فيه خرجت .. لو عايز حاجة كلمنى أنا ..

وقبل أن أفهم ماذا دار بينهما كانت أمى قد انطلقت فى سباب لا أكرهه ..

مالتها

- هوه قال لك إيه .

فصاحت :

- مصمم إنه يكلمك أنت .. عارف أنه مرشح يعرف .. يضحك على .. عايز

الهابة اللي يقدر ياكل بمضها حلالة ..

وأصبح جرس التليفون يدق ، فترفع السماء .. وما أن تقول له آلو .. حتى

تنقطع المكالمات فى الحال .

دعاني أنور سامى إلى حفل أقامه فى بيته للمخرج روسانو ، وافقت على

الذهاب ، وأخذت موعداً مع الحلاق فى العصر .

كان قد مضى أسبوع منذ بدأ يوسف محاولاته للعودة لى ، وكانت قد هدأت

قليلا ، ولكنى لم أكف من التفكير فيه لحظة واحدة بالنهار أو الليل .

كنت أشعر أنى سأعود إليه إذ لا فائدة من المقالمة ، إنى أقام ولقاوم

لأغبطه ، ولاسترد بعض كرامتى ، وأطمئن لى حبه ، ولكنى لا أقام لأقبط

علاقته به ، لئى أعلم لنى لن أعيش بغير حبه ..

كنت خارجة من مكان الحلاق ، عندما رأيت واقفاً على الرصيف الآخر ينظر

إلى ، حوات عيني بعيداً عنه ، فلم أعد أرى شيئاً أمامى ، ومشيت مسرعة فى

الطريق ، بعد خطوات قليلة كان يمشى إلى جانبي .

وقفت . والتفت إليه

كان وجهه شاحماً ، مصفراً كأنه لم ياكل ولم ينام منذ سنوات وفى عينيه بكاء

متحجر ..

- سامية .. إيدنى فرصة .. حرام عليكى ..

صمتت فى غضب

- أرجوك ماتكلميش ..

رفعت صوتى فى حماقة ، كأنى أريد أن ألفت أنظار الناس ، فضاف

وتراجع ..

ومشيت مندفعة إلى وسط الشارع أريد أن أعبره إلى الرصيف المقابل ..

وقبل أن انتبه ، كنت ملقاة على الأرض ، أشعر بلهيب فى ركبتي وألم حاد فى

كتفى ، وصراخ ، وصياح ، والسماء تدور ، ووجوه حول ، ودراجة ملقاة على

الأرض ، وإلى جوارها شاب فى ملابس العمال .

كنت بين البيلطة والفلبوبة ، ووجه يوسف يطل على ، ويداه تجذبانى ،

فأخفق ، وأتقمص فى ذبول فستانى ، أنفخ عنه التراب .. ثم أكتشف تسلخات

فى ركبتي وبدأ فلياً ، وصوت يوسف يطمئننى والناس من حولي تتكلم

وتتكلم ، ويوسف يتكلم معهم ، ثم يجذبني برفق فأسير معه ، ومن ورائنا

الناس ، حتى ندخل صيدلية ..

شعري ..

رأيت شعري فى المراة ، وقد اختلط به التراب ، وقد تفجرت معالم

التصريحة ..

لم أكن خائفة ، ولا مدعورة .. كل شيء كأنه لاشيء ، يكفينى أن يوسف

معى ، أنه يستطيع أن يصلح كل شيء ..

ظهر الصيدلي ركبتي ، وأصلحت شعري بجمرة ، وخرجنا من الصيدلية
فنادى يوسف تاكسيا .. ركبتي إلى حوارة مستسلمة ، صاغرة ، اشعر بيواو
راحة لم أعرفها منذ زمن بعيد ، كاتني أقيق من كابوس .. كاتني أعود إلى
الحياة ..

ودعنا إلى بيتنا الصغير ، صعدنا صامتين ، ودخلنا الشقة صامتتين ،
ودعنا إلى الحمام ، أحاول إصلاح ما أفسده الحادث في شعري وفستانتي ..
وعدت إلى يوسف ، فاستقبلني واقفا ، جلست ونظرت إلي في هدوء
واطمئنان ، فتقدم مني ، واتحنى على يدي ركاماً .. وقبلها ومرغ وجهه في
يدي ، ثم انهمرت الدموع من عينيه ، كان يبكي في حرقة ، بهينه كأنه لن يكف
عن البكاء ، وامتدت يدي إلى شعره أمسح بها عليه ، أحاول أن أجعله يهدأ ،
فيشدت نحيبه ..

ضممته إلى ، ودفنت رأسي في صدري ، ولم أتمالك نفسي فقبلته في خذه وأنا
أهمس

— خلاص . خلاص يا حبيبتي .. مالحش أشوفك بتعيط .. خلاص
ماليش حاجة . أنا رجعتا لبعض أمة ..

قال بصوت مختلق وهو يتشبث بي :

— أنا موش ح القدر أعيش من غيرك ياسامية .. يا حبيبي .. يا حبيبي لا أريد
شيئاً آخر ..

كل ما أريده الآن ، هو أن أغفر . أتم .. التعب يزول ، الألم يزول ، الآلام
والأحزان تزول ، البكاء يزول ، قلت رغبة في أن ألتصق . كنت أضطك من نفسي ،
لأنني أكاد ألتصق في هذه اللحظة .

قال يوسف فجأة وكأنه يحدث نفسه :

— أنا عايز أعترف لك بكل اللي حصل ..

ما هائدة الاعتراف ، يكفيني أنه عاد إلي ، وأن الحصة قد انتهت ..

همست

— خلاص أنا سميت اللي فات



وابتسمت لا دعوه أن يشاركني النسيان .. لا أريد أن أشوه اللحظة التي
نحن فيها .. لا أريد أن أسمعه الآن وهو يتكلم عما حدث .. لا أريد أن أتذكر
ولكنه نظر إلى بعينين بريئتين فيها طفولة وقال في عناد -

- موش ح استريح إلا لما أقولك .

ثم خفض عينيه وقال في أفعال :

- أنا عايز تصيحك .. أنا خايف يا سامية ، موش بس حبان .. شرير ..
سافل ..

فمست أقاطعه محتجة :

- خلاص أنا صامحك .. موش عايزه أسمع منك حاجة ..

مضى يقول وكأنه لم يسمعني :

- يوم الأربعاء .. ليلة ما شفكت .. كنت عارف اني مسافرتاني يوم دمشق .
وكنت عارف الجريمة اللي بأعملها .. محمد ناجي طلب مني أسافر . قال لي إن
دي فرصتي علشان أظهر قدام القراء كمصحف سياسي .. ح اكتب عن انقلاب
سوريا اللي كل الناس مهتمة بيه .. لقيت نفسي بالقول له .. أنا موافق
ويافكره .. قلت له كده وأنا عارف أن إحنا معددين ميعاد جوازنا بكرة ..
كنت عايز أقول له لأجل سفرى .. علشان ح أتجوز .. مقدرتش ، وخرجت من
عنده وأنا موش شايف اللي قدامى .. كنت خايف .. مبرى ماكنت خايف زى
كده . حاولت أعرف إيه اللي خلاصني أوافق على السفر .. هسيت اني عايز
أهرب .. عايز أهرب من الجواز .. أنا أقول لك الحقيقة .. بوركي نفسي زى
ماميه . بكل ضغطها .. بكل سفالتها .. إن كنت ح تسمى دي سفالة . أنا
بأحبك يا سامية ، موش ح أقدر أعيش يوم واحد وأنت بعيدة عني .. وح
أتجوزك .. لكن لازم أعالج نفسي .. وأنت اللي ح تعالجيني . تعرف إيه اللي
كل مخوفني من الجواز .. حلجات كتير .. من يوم أمى ما ماتت .. وشفت
جوازها بأبواب بيتي . من ساعاتها وأنا شاعرمان في الدنيا دي حاجة غلط
انتين بيحبوا بعض . متجوزين بعض .. لازم يفضلوا مع بعض على طول ..
ما يسيبوش بعض ليدأ .. ليدأ .. غلط إن واحد منهم يموت ويسيب الثاني ..



دى حباة . حباة من الى مات وسباب الحى . وخيانة من الله وسباب
الميت . برأى ممكن بقى فيه حب وجواز .. طول ما فيه موت . يفرق الحب
واسدوار . امى لما ماتت أبويا عيط . وانا عيطت .. ليه أبويا عيط .. ولية انا
اعيد . واحس امى يتيم واعيش تعيس .. من ساعتها وانا خايف من الجواز ،
لأنى شفت أن وراءه تعاسة .. يمكن ما كنتش عارف الكلام اللي بقوله دلوقت .
ما كنتش هاهمه . لكن كنت حاسس بيه وكان مخوفتى .. ولما كبرت شفت
سعاد حببتها . قمت إنها تأخذ مكان امى .. احبها وتحنى واعيش معاها
واتجوزى . بصوت لقيتها بتجوز واحد تانى .. الجواز خطفها منى
وسكت يوسف برهة ، وصحك ضحكة سريعة عصبية مشعة بالنفاس

وقال :

.. أنا فاكر يوم ما سبت الجامعة اتصيح .. ورجعت لها البيت بهجة ابنى أخذ
منها كتاب كانت مستلهاه . كنت مصمم أقول لها سيبك من خطيبك .. وتعالى
تتجوز .. ووقفت سعاد قدامى .. وبصت لى زى ما تكون بتترجاني ..
عايزانى أقولها نفس الكلام اللي انا جاي مخصوص لقوله .. وسألتنى .
أعمل إيه .. سكت . مقدرتش أقول لها اتجوزك . خلفت .. زعلت منى .. وانا
مشيت لى الشوارع أعيط .. كنت بالقول لنفسى .. انا لسه تلميذ .. ومعدنيش
فلوس للجواز .. وأهلها ح يرفضوا . حجج بأقولها . إنما لى الحقيقة كنت
خايف .. اتهايل ابنى بأطلب حاجة موش بتأمنى .. إن ربنا خلقنى علشان
أعيش لوحدى على طول من غير جواز . هه .. وبعدين أبويا اتجوز مبروكة ..
احتقرت الجواز ، بقى ممكن يتجوز امى . وبعدين يتجوز خدامة . قررت
من الجواز . وشفت منه أكثر وأكثر .. لحد ما حببتك .. وعرفت انى لازم
اتجوزك .. ونسيت كل الحرف اللي كان عندى .. شهدي ياأنا قالى بلاش
الحوازة دى .. انت صحفى ووراك مسئوليات كتير .. ولسه ما عطلت
حاجة . لازم نشتمع ليل ونهار علشان نكوّن مستقبلك . وعلشان تبقى رئيس
تحرير . ممسأنتش فيه .. وقلت له أبى مصمم على الجواز . وكنت فرحان من
نفسى .. قدرت اتخلص من مخاوفى . ما بهمنيش مستقبل ولا صحافة ..

ولا رئاسة تحرير .. مستعد أسبب كل حاجة .. بس اتجوزك .. وبعدين جت
حكاية السفر .. اقيت نفسى ياأنا فى . ولقيت نفسى حايب .. وشفتك ليلتها ..
بقيت عايز أقولك .. مقدرتش . كنت ح أنحن . كنت عايز أشرح لك حالتى
بالخطيب .. خعت ماته بهمنيش .. هربت . زى اى جبان .

ورفع رأسه والدموع فى عيبيه
وقال :
.. سامية .. تعالى نتجوز دلوقتى
فقت فى حدة

.. ٧ ..

كانت اعترافاته قد هزنتى ، وأخرجتنى من حبنى وحولت صدرى إلى بركان
من الغضب والثورة . لم أعد أحس ببراعته التى يضعها لى عينيهِ ، لم أصدق
صراعته ، لم أصدق أنه يريد أن يتزوجنى الآن .. خلت منه ، ومن تلك
الأمكار التى تدور فى رأسه . كنت واثقة أنه يخذمنى . كان يستطيع أن يقول
ببساطة : لن اتزوجك لأن شهدي ياأنا رفض .. كان يستطيع أن يقول نفس
ما قاله محمد ناجى . وهو يدق على مكتبه ويصيح : يوسف هاوز العرش
ده . عايز يقعد هنا .. إن ما كنتيش تحرل ده تبقى ماته عيش يوسف .. هو
مستعد يسبيك ويسبيبنى علشان المكتوب ده .

واستمدت وجه محمد ناجى وهو يقول : « خيلينا نتكلم بصراحة .. سامية
ساسى .. ممثلة .. من يتروح السيميا .. لو اتجوزتية موش ح يقد يقعد هنا .
ح يظلموا عليه شأعات .. ح يبقى متجوز واحدة أرتست ..
هذا هو نفس مايقوله لى يوسف الآن .. ولكن بطريقة أخرى .. إنه صادق
كاتب . صريح منافق . جريء جبان . إنه حقير .. حقير .. ولكنى أحبه .

صاح يوسف :
.. لازم نتجوز دلوقت ..
فصرخت :

.. أنت موش عايز تتجوزنى ..



- أنا بأحبك يا سامية .

صحت كالجنونة

- وأنا كان بأحبك . لكن بلاش نكذب على بعض ، وتقول إنك عايز تحبوني ..

هتف متوسلاً

- ما تسيبيني يا سامية .. إديني فرصة اثبت لك أنني بأحبك وعازب أتجورك ..

قلت في مرارة

- الفرصة كانت عندك .

هتف

- اديني فرصة علشان أحترم نفسي .

قلت وأنا لا أدري ماذا بي ، وكلماتي تنبض بالسخرية

- إنت عايز إيه .. موش عايز تكون مع بعض .. خلاص .. أنا بأحبك .. وإننت بتحبيني .. بلاش تفكر في الجواز دلوقت .

كانت كلماتي تجرحني ، تهينني ولكني كنت راضية بها ، إنها الكلمات الوحيدة التي تريحني الآن . أن أحطم نفسي ، ولا أتركه هو يحطمني . أن أرفض أنا الزواج .. ولا أتركه هو يرفض الزواج .. أن أكتب على نفسي .. ولا أتركه هو يكتب عني ..

في تلك الليلة ، استسلمت له ، كآتي فتاة من الشارع تستسلم لغيره ..



أنا ما زلت أحبه ، ولكن أعماقي تغل ، أنا ما زلت أحبه ، ولكن القلب والحمة واليأس يزاحمون الحب في قلبي ، كانت علاقتنا تبدو هادئة لأيام أو أسابيع ثم يأتي يوم غاسقه :

كنت قير - سألت عليك في التليفون .

- عند شهدي باشا ..

أقول ساخرة :



- يا فخر حتى يك .. ويشهدى بشا
- جرى إيه يا حبيبتى ..
- أصبح :
- أنا موش عايز أسمع اسمه ..
- يجيب مدعنا ..
- طيب ..
- ويتجهم وجهه ، فالتد قائلة
- أنت مبيوز ليه ..
- مايفيش حاجة ..
- وأجندى مندهة إلى إثارة شجار حد ..
- تفكر يعنى مزاجى إنى أقعد مع واحد مبيوز ..
- يهتج ...
- عايزانى أعمل بهلوان ..
- ليه .. لا .. موش لازم تسلىنى ..
- سلمية .. إيه الكلام اللي بتتوليه ده ..
- أنا عايزه أتسلى ..
- أنت اتغيرتى ياسامية ..
- أهو أنا كده .. علجيك وإلا موش حاجبك ..
- اصناح تتفانق
- أنت اللي عايز .. قصده تقول إن أنا اتغيرت ..
- ويكتم انفعاله . ويحاول أن يعتذرلى ، ويتقدم منى ليقبلنى ، فادفعه بيدى
بعيدا عنى ، فيتراجع حزينا ، وأشعر بسرور خفى .
كنت أسأل نفسى ، هل هويجبنى حقا كما أحب ، أم هولا يبريد أكثر من
جسدى ، وكلما مضى يوم ترأيد إحصائى بأنه يعاملنى كمجرد جسد ، فأنفر
منه ، إذا لمستنى يده ارتجعت ، وابتعدت مذعورة منه ، أرفض قبلاته ،
لا أسمع له أن يأخذنى بين ذراعيه ، حتى يفحص بى حمى فلا أستطيع أن

أقاومه ، ولكنى حتى في تلك اللحظات القليلة ، كنت أخرج منها وأنا مضمخة
مر بعضى . أكره جسدى ..

أحياناً كنت اتعبد أن أحلس أملعى فى أوضاع تتعبه ، وأيتسم له فى إغراء ،
وتدعوه عيناى لأن يقترب منى ويقبلنى ، ولكنه ما يكاد يقترب ، حتى أصرخ
فيه . وتتفانى فى شعيرية ، وأدفعه بكل قوائى .. فتبتعد وهو يتألم ، وفى عينيه
يأس ورجفة .

وفى إحدى المرات هجم علىّ ، وقد صمم على أن يئانى بالقوة ، ودارت بينى
وبيننا معركة ، وصغمت على وجهه .. فأصيب بذهول ، وصبرت فيه .. لأن
أراك بعد اليوم وخرجت بسرعة إلى الشارع .. لو كان جرى ورائى ، ولحق بى
فى الطريق ، لكنت عدت إليه ، ولكنك أنا التى قبلته .
فأنا مازلت أحبه .

ثم تجيء أيام يصفو فيها حبنا ، أكون قد تعبت ، ويكون هو تعب ،
فتستريح معا .. ننسى ما نحن فيه ، ونبتادل الحب فى غياب . ولكن سرعان
ما أشعر بالملل ، وتعود الثورة تتأرجح فى صدرى ، وتتساحل .

كان إذا ارتبط بموعده فى الليل لأبى أن أخرج أنا أيضاً ، ولذلك وطعت
علاقتى ببولاندا من جديد ، وكانت تأخذنى معها فى سهراتها مع شبان تعرفت
بهم ، فأشرب وأرقص ثم أعود إلى يوسف لأرى له كل شيء بالتفصيل .. أرى
له كيف غازلنى أصدقاء بولاندا فيشر ويغضب ، ويعلم أنه لن يرانى بعد
اليوم ، وعندئذ أصالحه ، لم أكن أباده له أبداً ثورة بثورة ، إذا ثار صالحته ،
وإذا هدا شرت أنا

أكنت أريد أن أذله .. أكنت أريد أن أؤكد أكثر وأكثر من حبه .. أكنت
أظن أن أسلوبى هذا هو الذى سيضطره إلى الركوع عند قدمى ليطلب منى
الزواج .. لست أدري .. إذ لم أكن أتصرف بناء على خلة ، بل أنا مدفوعة
بحيرتى وقلقى إلى أن أفعل ما أفعله ..

ولما سألت نفسى ما هى نهاية كل هذا ، وحدتتى عاجزة عن التفكير ،
وتعميت لوان أحداً بجانبى ينصحنى ويرشدنى ، وتذكرت شوقى ، فالتصقت

به .

ألتقينا فى أميريكين عماد الدين ، جلسنا فى الطابق العلوى ، وكان مرحاً
يشوشاً ، لم يسألنى لماذا أريد مقابلة . وكأنه سعيد برؤيتى ..

- أنا عايزه أسألك سؤال س تجاوبنى بصراحة .. وما تصحكش عليه ..

- لتفضل

- إيه رايت فى . لنت شايب أنا إيه

- ضحك قائلاً .

- بنى آدم .. يعنى ح تكونى إيه .. إنسانة .

- سألتك فجأة

- أنت بتحترمنى يا شوقى ..

- نظر إلى فى ثبات وقال بصوت جاد .

- طبعاً .. إزاي تتصورى غير كده ..

- أنا حاسة إننى بنت وحشة .. وأن كل الناس بتقول عنى إننى وحشة ..

- قال فى حرارة :

- اللي يقول الكلام ده موش ممكن يكون وحش . أنت بتفاجئنى

- بإسامة ..

- قاطعته وأنا أفكر فى مبروكه ..

- أنت ح تقول الكلام ده لحد ..

- قال فى صوت حاسم

- طبعاً لا ..

- أنا ثعبانة يا شوقى . أنت عارف حكايته مع يوسف .. احنا

ما تجوزناش .. هوه مش عايز يتجوزنى .. لكن بيحبنى .. وأنا بأهيه .. وفى

الوقت نفسمه بالتصريف تصرفات غريبة .. بأضايقه .. وبأسبيه وأحرج .. زى

ما أكون عايزه أعطيته .. ما بأعملش حاجة وحشة .. إنما أنا مابتقش أنا ..

- أنا خاليفة ..

- قال فى هدوء شديد ، وعلى وجهه علامات التفكير :

- أنا عارف انه سافر .. وهرب من الحواز

هتقت في الم

- عرفت إزاي .

- قال بسرعة ليحفي ارتباكك .

- أهو الحكاية ، تعرفت ..

وطغى علي شعوري بالحدق علي يوسف ، وعلى نفسي ، هذا الشعور ان يتركني
أبدأ ، وسأكتفي

- لكن انتم اتفقتم هي إيه ... بتصوروا حياتكم إزاي في المستقبل همست
في ضيق :

- هوه ببغول إنه لسه عايز يتجوزني .. بس أنا موش مصدقاه .

قال في حزن

- خسارة .. أنتب فقدتي ثقتك بيه ..

- ده صحيح .. فيه حاجة في حبنا اتشربخت .. وموش ممكن ترجع زى
ما كانت ..

قال بعد برهة وشفته السفلي ترتعش

- أنا رايت ياسامية .. أنك ماتخديش يوسف زى ما هوه .. حاولي أنك
تصلحيه .. أنتب بتحييه .. موش كده .. يبقى بتبني حسنات وسيئاته ..
حاولي أنك تصلحي سيئاته .. اعمل يوسف بايديكي . شكله رى ما أنتب
عايزه .. لو عملتي كده ح تشعري أنه بتاعك وح تتخلصي من أزمتك ..

قلت بصوت ضعيف :

- تفكرى أقدر اعمل كده ..

- طبعاً .

وسألته فحاة :

- تفكرى ح تكون نهاية الحب ده إيه ؟ ..

قال بصوت :

- ما اعرفش . ده يتوقف عليكم أنتم الاثنين .

شعرت ببعض الأمل .. بعد لقائى بشوقى ، وأسرت اتصال بيوسف ،
لا تأكد من مرعدى معه في الليل ، فصدمني باعتذاره ، لأن وراءه عملاً
كثيراً .. توصلت إليه كما لم أتوصل منذ زمن طويل ، - حاولت جهدى -
وبطلت إن أراه .. ولكنه صمم على اعتذاره .

كيف اصنع يوسف ، كيف أشكل يوسف كما أريد ، إن شوقى يحلم ، أن
الذى يصنع يوسف هو جريدة الأيام ، وشهدى باشا ، أين مكاني وأين دورى
الذى استطيع أن العيه في حياة يوسف .

لقد تعير كل شيء .. كنت أفكر أن يوسف هو الذى سيصنعنى ، هو الذى
سيحولنى من فتاة يائسة إلى زوجة وبهيبة ، ولكنه تخلى عني . حتى لو
تزوجته ، فقد تخلى عني .. إن مصرى معتم .. ليس فيه ومضة نور .. ليس
فيه حزن .

عندما قابلت يوسف في اليوم التالى كنت قد صممت على أن أطلب منه
الزواج في الحال .. قلت له في حدة .

- احنا لازم نتجوز دلوقت .

أبتسم وقال :

- طيب يا حبيبتي . بس موش بالطريقة دي ..

- موش أنت كنت عايز نتجوز .

قاطعنى :

- بس موش اليومين دول .

- ليه .

قال في هدوء غريب :

- أصل فيه حاجات كتيرة في الشغل .. الدنيا مقنونة .. ماكنتش بأهيك
علشان أنتب ما بقتيش مهتمة تسمعى حاجة عن شغل .. لكن علشان أدبكي
فكرة .. محمد ناجى ح يسيب رئاسة التحرير .. عايز يسافر أوروبا ،

بيقول إنه تعب ومحتاج لفترة راحة .. وح يكتفى بأنه يكتب .. وأما ح أبقي
رئيس التحرير . بمجرد ما تنتهى الدوشة دي نتجوز

- الاتفاق بطل .. مخرج مجنون فآكر نفسه في هوليبود .. عايز يصرف مائة وخمسين ألف جنيه .. اديني عقلك ..

ولما لاحظت انى حذينة ، حاول ان يطمئننى .

الجانيات اكثر من الرايحات .. يعنى هوده آخر هيلم .. أصبرى شوية ..

انا طالع يقبلة جديدة ..

كنت أريد ان أتردد على الاستديو ، وأمثل ، واتورط في هذا العالم العريض الذى يضم أهل السينما ، ولكن ها هو الأستاذ حلمى يطلب منى ان أنتظر وأصبر .. هل أستطيع ..

تجاهلت كلام الأستاذ حلمى . واتصلت بـأنور سامى .

- أنت لسه عايشة ..

- غصب عنك ..

- ما أنت بسميح أرواح ..

- انا بكلمك عثمان أسألك عن الفيلم ..

- فيلم إيه ؟

- الطليانى ..

- هوه أنت معرفتيش ..

- إيه ..

- ولا حاجة .. تعالى لما أشوفك وأنا الأولك ...

- امتى ..

- صباح في غير تصديق :

- امتى إيه ..

- امتى أبى ..

- هتف :

- دلوقت ..

- ثم صباح مرتبكاً :

- هوه لحتا امتى .. الساعة كام .. إحنا الصهر .. أشوفك بالليل .

سألت في تحد .

- وليه مانتحورش دلوقت .. فتجاهل سؤالى وقال ..

- خليك عاقله يا حبيبتي

صرحت .

- أنت مكسوب تتحورنى

صاح

- بلاش كلام فارغ .. أنت عارفة كويس انى ح اتجوزك ..

قلت في ثورة :

- يا تتجوزنى النهاردة .. يادى اخر علاقتى بيك ..

اذهلنى انه لم يتأثر بتهديدى .. وادهشنى انى لم أبك .. بل تماسكت ، وصفت الباب ورائى ، وأنا واثقة انى لن أعود إليه ..

ولكنى عدت ...

عدت بعد ثلاثة شهور وخمسة ايام ، وكان هود قد أصبح رئيس تحرير ..

اما أنا ، فكنت مخلوقة أخرى .. ولكنى ما زلت أحبه ..



خلال فترة طليعتنا ، حاولت ان أعيش في عالم السينما ، كنت اكبت كل صوت يذكرنى بيوسف ، أحقد عليه ، وأحقد على قلبى الذى يمن إليه ، وأحقد على جسدى الذى يشتاق إليه .. كنت أجد لذة في القسوة على نفسى .. تناسيت كل شيء ، كما كنت أناسى أبى في الماضي .. وعدت لكذب على نفسى ، وأصدق كذبي . أنا سامية سامى المثلة ، أنا سامية سامى الفاتنة التى تتحرر الرجال ، والنش ستصبح نجمة مشهورة .. تعيش في المجد ، وتسقط عليها الأنواء .. اتصلت بالأستاذ حلمى ، وسألته عن الفيلم الإيطالى .. قال في أسى

- تعيش أنت

- إيه حصل إيه

ظننت ان روسا قد مات . ولكنه قال :



- طيب

- طيب

قال و شك

- أوعى تكونى بتعزى

- لا أنا عايزه اشوفك

و فى المساء ، جاء ليأحدنى فى عرسته .

- تحبى تروح عين ؟

- فى شفتك

هتف فى دهشة غير عادية ..

- شفتى ..

ضحكك قاتلة .

- أنت خايف ..

هتف والفرح يضح فى عينيه .

- الله .. الله . إيه اللى جرى ..

ثم ضاقت عيناه وسألنى مستغرباً .

- بدمك بتكلمى جد .

- أيوه ..

لمد يده ، واقبض على معصمى . وهتف :

- يا حبيبتى .. اعترف لك بصراحة .. أنت أجمل وأعجب وأجن مخلوقة

شفتها فى حياتى ..

وذهبت إلى شفته ..

وهنا سكنت سامية سامى عن الكلام .. وبذلك انتهى القسم الثانى من

الرجل الذى فقد ظله .

**الرجل
الذى فقد
ظلم**

الجزء الثاني

القسم الاول برويه :

فاجی

••

القسم الثاني: برويجه .



منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>



مما الكتاب

هذا إنبار رماحية القاهرة . ولست أدري إذا على فاحي
غام على علم منارية لورانس داريل في السمعة أم لا ؟
ولكن الفقرة بينهما مفيدة . فما وجدته داريل يقرأ في
المرثية ، كان قرأ غنياً بالمسبة نصحي غصم . وما على
ماريه ورواسية عند الأول . في مدة للحياة اليومية عند
القاضي . وحيث بدت الاستعمارية متلفاً فيها عند داريل
كانت القاهرة تكون عامية عند الآخر . والموقع الخاصية
والجنوبية والرمسة والسمرية ، كما رأينا فيما رجل من
الشمال . تحولت إلى مجتمع أقل قسماً كما شمة فاحي
عالم

إن للشطرنج المصريين بدون وكنهم أبناء هم
للمستطير عندما

وقل على معزور . وقل من يصرح أو يظن الآخرين في
سورهم . يشبه الفخريين من اعرفهم بينما . والفرج في
مستورد لا ينجوا شخص . يكسبها السعادة . . كالفضل
لستون شخصية القوريات هنا

لربوبيك والفصل

بعد المصادق شهر - ٦ فبراير ١٩٩٩

مطبع دارالكتاب

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

العمل في المال الكسالة

فتحي عالم



الرجل الذي فقد ظله



نظرة الفنان

ياسين - يوسف

فتحي غانم

الرجل
الذي فقد
ظلمه

القسم الاول يروييه

ناجسي

القسم الثاني يروييه :

يوسف

يناير ١٩٨٨



الإهداء

... إلى صلاح جاهين

المدير الفني: عدلى فهمي
رئيس العلاقات: دكتور جمال كامل
الرسم والتصميم: للمصطفى جمال كامل • مأمون
المطبوعات: ماري ميخائيل • منيرة صبري



القسم الثالث يرويہ :

نکاحی

أنا ناجي ..

محمد ناجي .. أكبر والملح الصحفيين والكتاب في مصر والشرق العربي ، أو هكذا كنت يسميها ما ..

الآن .. تغير كل شيء ، أخذ مكاني ذلك الصعلوك العبقري في النقاق . استأذ النقاق .. يوسف عبد الحميد السويلي .. شيء مضحك ، يثير الرثاء هذا الولد أصبح أهم وأخطر مني . الدنيا انقلبت رأساً على عقب ، كل شيء في مصر اليوم مضحك يثير الرثاء ، الحياة لم تعد هي الحياة ، ومصر لم تعد هي مصر ، طردوا فاروق ، وأقصوا البشوات عن الحكم ، وأصبحت الأمور في يد حفنة من الضباط الشبان بلا خبرة ولا تجربة ، لا يفهمون شيئاً في السياسة .

إنهم لا يقبلونني ، وأبداً لا قبلهم . أكرههم كما أكره العمى ، لا أستطيع أن أحتمل لغتهم العليظة الخشنة ، وأسل الوحيد هو في نهيتهم القريبة ، من حسن الحظ أنهم ارتكبوا أكبر خطأ في حياتهم ، أمموا قنال لسويس ، وتحدوا إنجلترا وفرنسا .. وهذا معناه بسملة أبهم انتحروا .

جريدة « الموند » تتحدث عن استعدادات الأسطول الفرنسي في طولون ، والجميع هنا في باريس يقولون إن غزو مصر سيتم خلال أسابيع .. هذه هي فرصتي ، ستعود الحياة إلى ما كانت عليه .. ستعود الوجوه التي أعرفها



وتعزى ، سيعود العلاء الذين يتصرفون في ذوق وإيالة ، وساعرف كيف
انتقم ، لن استريح حتى أرى يوسف معلقاً في حبل المشقة .

الشمس ساطعة ، والجوليليف ، الحرارة ليست مرتفعة مثل الأمس ، لقد
بدأ الخريف في باريس ، وبعد قليل ستهب رياح الشمال .. رياح الشمال
تنكس الأوراق الميتة ، هكذا تقول الأغنية التي سمعتها مع سامية في الليدو
مدد ليلتي .

سامية مبهورة بباريس ، إنها تعبدني لأنني جئت بها إلى هنا ، كلما رأت
شيئاً أعجبها ، زاد حبها لي ، كاني أنا الذي صنعت باريس .

هذا الصباح استمعت إليها وهي تتحدث في التلفزيون مع مؤلف
الاستعلامات في الفندق ، وتطلب منه حجز تذكرتين في كازينو باربي ، قالت له
في ثقة كبيرة : أنا مدام ناجي .

قالت ، وكأنها زوجتي منذ عشرين سنة ، لقد تغيرت سامية ، ربما هي
الوحيدة التي تحس بالسعادة ، ترى إلى متى تدوم سعادتها ، إنها راضية
ببقائها بعيداً عن مصر ، راضية بأنني لم أعد رئيساً لتحرير الأيام ، راضية
لأنه لا يوجد في حياتي ما يشغلني عنها ، لو تعلمكم أنا تعميس ، إنني لم أكلم
طوال حياتي من أجل أن أصبح مجرد زوج لسامية وأب لشريف .
منظر الشانزابريه من النافذة رائع .. أننا عشر صفا من السيارات ..
نصلها يتجه إلى الاتوال والنصف الآخر يتجه إلى الكونكورد . المدينة
والحضارة تتحركان أمامي .. لو زحفت هذه السيارات وحدها على مصر لثم
الغزو .. ولانتهت متاعى ..

ماذا أكتب مصر .

هذا الخطاب الذي أرسله يوسف بئير غيلى . استاذي العزيز . كيف
يجرؤ على أن يناديني بأستاده العزيز ، لو كان كتب ضحيتي العزيزة
لاحترمتي ..

يريد منى مقالاً عاجلاً عن الموقف هنا ، لو تركت لقلبي حريته لكتبت
الموقف رائع .. أنا متفائل . كلها أيام ويغرونا الانجليز والعربسيون
ويجرونا من حكم الثغراء ..

لكن يوسف لن ينشر حرفاً واحداً من هذا ، صيغ مقالاً في مطروف
ويرسله إليهم ، ويقطعون عن البقود .. سامية في حاجة إلى بقود كثيرة ،
إنها لا تكف عن الشراء ، إنها لا تفكر في شيء ، كأنها بلا ماضي ، نسيت أيام
السنيما ، وأيام حبها ليوسف ، أنا وأثنى أمها نسيت ، ولكنني لن أكف عن
الحيلة والحذر ، وسأظل أمضجها من وقت لآخر ، لئلا تك أمها لا تفكر في
يوسف

ما الذي أكتبه ، لو شتمت الفرنسيين فمن يدري ماذا يكون موقفى بعد
انتصارهم . يجب ألا أتورط في هذه المعركة ، سأرسل تلفرافاً إلى يوسف
أعذر له بمرضى وأطلب نقوداً للعلاج .

ما زال أمامي ساعتان قبل أن التقى بسامية وشريف عند « فوكيه » ..
سندهب لتناول غذائنا في مطعم كوك هاردي ، ستقاجاً سامية بصفاة صاحب
المطعم بنا ، سيجرى لها مسيو شارل من زبائله المشهورين ، وستلفرج على
الديوك الخزفية في البار ، والدرلار المعلق داخل برون ، والذي منحه إيزنهاور
يقشيشاً أيام كان القائد الأعلى للحلفاء . سأطلب لها طبق بط الصيد
بالصلصة وقطع البرتقال وسأرفقها وهي تأكل في دهشة ..

لماذا أفكر على هذا النحو ، أشعر كأنني ممثل يبحث عن جمهور ، وسامية
هي جمهوري الوحيد ، أريد أن أقنعها بأنني صانع المعجزات ، أنني أستطيع
أن أبهرها وأدهشها في كل لحظة ، وأن باريس ملك يدي .. أريد أن أجعلها
تشعر بالخجل من نفسها كلما تذكرت يوسف ..

أنا محمد ناجي .. الرجل الحقيقي .. كل شيء في مصنوع من يدى وتوقع ..
ملايس وريباط عتيق .. واقكارى .. وأسلوبى .. وطعامى .. وتصرفاتى ..
أنا لا أحتمل الشيء الرخيص ، ولا أحتمل الشيء المتوسط . كل شيء
حولى يجب أن يكون اتيقاً رائعاً ممتازاً .

الأغبياء . الصوفية .. كم أكرههم .. يفضلون يوسف على .. يتقنون في يوسف ولا يتقنون بي .. يقولون على ابن نوات وأرستقراطي ورجعي إلى آخر هذا الكلام التافه الفارغ
إسهم لا يعلمون ماذا صنعتت بنفسى .. لقد عشت طوال حياتى من أجل أن أصل إلى هذا الذى يتهمرنى به .. كنت فقيراً فحاربت حتى أصبحت غنيا .. كنت فلاحاً فحاربت حتى تحولت إلى ابن نوات .. أصبحوا يقولون إن الدم الآنق النبيل يجرى في عروقى .. كنت معصوماً فصاريت حتى أصبحت مشهوراً ، اسمى على كل لسان ..
حاربت ..

اتقنهمون أيها الأغبياء .. حاربت .. حاربت كل لحظة من عمرى . لاكون ممتازاً متفوقاً ، ونجحت وتلوقت ، ثم تأتون أنتم للقضاء على ، للقضاء على ثروتى وشهرتى وامتيازى .. لن أسكت عليكم ، لكم يوم أعود فيه وحداشى فوق رقاب الجميع .

اتريدون أن أظل كما كنت .. أنتم لا تعلمون ماذا كنت .. لا تعلمون اسمى الكامل .. لا تعلمون أن اسمى محمد ناجى عبد ربه الحنك .. أترضون على لو أضفت هذه الاسماء الشعبية إلى اسمى الآنق .. لقد مسحتنا من ذاكرتى ، وأخفيتنا عن العالم .. مسحت اسم أبى عبد ربه ، ومسحت اسم جدى الحنك ، ووضعت موهبتى ونكايتى مكان أصلى ونسبى .. كان أخطر رئيس وزراء يقابلنى وهو سعيد بكأتى أزوره ، ويتعلقنى ويسمى إلى إرضائى .. كان الباشوات يرتجفون إذا غضبت ويفرحون في بلاهة إذا رغبت .. كان بيتى كمبتهم ..
يجب أن أرسل المرفقة ..

- ألو الاستقبال . أريد من فضلك إرسال برفقة إلى مصرتعم .. العنول التلغرافى . أيام .. القاهرة مرضت فجأة .. أرسلوا خمسمائة جنيه للعلاج ثعبانى ناجى .. مرسى ..

سينرجون ، ولكن المهم هو أن يستطيعوا إرسال التقود في هذه

للخروف .. سيفيل يوسف المستحيل .. من حسن حظى لنى تركت له رئاسة التحرير في الوقت المناسب .. إنه يستطيع أن يتقاهم معهم أولاء كانوا وضعنى في السجن .. من كان يصدق لنى سآحد نفسى يوما ما في حماية يوسف .. اللهم إنقذنى من هذا البلاد .. إن يوم النقيامة أفضل من هذه الحياة .. لو كنت محل إيدن أوجى موليه .. لما ترددت ، وصربت القاهرة بالتنايل الذرية .. سينشكر لهما الناس هذا الموت الذى هو أفضل من الحياة ..

أعجبني أكرم بك عندما قابلته في السفارة ، كان رائعا وهو يقول إنه لا يفهم هذه الأعمال الشيوعية التى يرتكبونها في مصروالتي تستقى على كل الناس الطيبين أصحاب العائلات الكريمة .. لقد سال الموجودين وأحدأ واحدأ .. عن معنى الحيايد الإيجابى والقومية العربية . فابستموا في غباء ، وقال بعضهم إنها كلمات لا معنى لها .. لزمت الصمت ، فممن يدري ربما كان هؤلاء للمهاجمون جواسيس يكتبون التقارير .. والتقت إلى أكرم وسألنى .. أنت سلكت ليه يأتناجى بك .. أنت أستاذنا .. وما حداث يقدر يفهمنا الحاجات دى شحك ..

وللحظة خيل لي أن أكرم نفسه جاسوس ، فادعيت أنى أعرف الإجابة ، وانطلقت في كلام طويل أشرح في حاسن الحيايد الإيجابى والقومية العربية .. لعل أصحاب التقارير يكتبون ما قلت ليجرؤوا على ..

قول أن فنانايد السفارة . انتهى بي أكرم وهمس :

- بينى وبينك .. أنت متقنع بالكلام التى تقولها ..

همست بدورى :

- ما تشيئينى في حالى ..

فنظر لي في رثاء وقال :

- قلبنى عندك .. شد حيكك .. بكرة تخرج ..

ولاحظت سلمية أثناء عودتنا لفندق كلاريدج أنى مهموم .. فقالت في ضيق :

احدا موش عابزين ، شوف مصريين تاني . موش ده اتفارقنا ، احنا جايين
بتدعي

قلت مستسلما

- حاصر يا حبيبتي

إنها لا تشعر بآرمتي .. لا تفكر في السياسة ، ولا يخطر على بالها ما أنا
فيه ، ربما هذا هو ما يجعلني أتمسك بها ، إنها لا تعرف شيئاً عن ماسايتي
كل ما تعرفه أنني محمد ناجي العظيم الذي يهرها . وهذا يروحنى
ويساعدنى على نسيان نفسى أحياناً .

لا بد أن أرتدى ملابس حتى لا أتاخر عليها ، يجب أن أقتل من خروحي في
هذه الأيام ، حتى لا تصل الأخبار إلى القاهرة بأنى لست مريضاً . ولكن
ما الذى أقوله لشامية ، لا أريد أن أكشف عن ضعفى وخوئ أمامها ، اه .
سأقنعها بأن شريف مريض ، إنها تصدق أى شيء أقوله لها ..
حبيبتي سامية ..

لو تحدثنى نصف حبيبى لها .. إنها صغيرة مازالت في العشرين وأنا على
أبواب الستين . سيأتى اليوم الذى ينتهى فيه الحلم الذى تعيش فيه .. لن
أستطيع مواصلة التمسك أمامها إلى الأبد ، يوماً ما ستكتشف ضعفى ،
وستسخر منى . وستتركنى . لا بد أن أقاوم . لا بد أن أحارب لا بد أن
تنتصر أنتجترا وفرنسا في المعركة القادمة . وأعود منتصراً .. عندئذ
سأكتسب سامية إلى الأبد ..

أين مفتاح الباب ، لا أستطيع أن أترك الغرفة قبل أن أغلق الباب ،
محجورات سامية في الدولاب . رفضت أن تحتفظ بها في خزانة العنق ..
قلت في غير أكثر من :
- لو ضاعوا نشترى غيرهم

وسكت . لا أستطيع أن أقول لها إن هذا سيكلفنى الكثير ، ولكن إلى متى
استسلم لها ، سأحمل المجوهرات معى وأضعها في الخزانة . سأؤبجتها
لأنها نركت المفتاح في الحمام . كيف حملته إلى هناك .. إنها تتصرف كحظلة

صغيرة في حاجة إلى مربية ، شيء عظيم .. محمد باحى أصبح مربية أطفال
يكفينى شريف . هذا الطفل يكاد يحودى إلى محمول .. حتى له حصور ..
إنه كل ما يقى لى .. إنه ليس قرأتى .. ولست بحاجة إلى التعتيل أمامه ..
إنه أنا . من أجله أرضى بالقتل ، وأنتم في وجه يوسف ، وأنتم في وجه
شهدي باشا ، حتى أظل محتفظاً بنصيبى في الحريدة ، ليرثه شريف
لولا شريف لما تزوجت ..

- بنجور

- بنجور مسير ..

- هل أستطيع أن أحتفظ بهذه المجوهرات في خزانة العنق ..

- بكل تأكيد مسير .

- إنها ليست كثيرة كما ترى .

- ولكنها رائعة ياسيدي ..

تفضل الإيصال ياسيدي .. في خدمتك دائماً ..

الهواء بارد ، والقيوم بدأت تظهر في السماء ، ربما كان الأفضل أن نؤجل
غذاينا في كوك هاردي .. إلا لو صممت هي . يجب أن أحافظ على نفسى ..
سأستشير طبيبياً آخر . إلا توجد طريقة للاحتفاظ بالشباب هذا الشاب الذى
يسير وقد لف ذراعه حول الفتاة ، ذراعه مفتولة ، قامت كعود زان ، الشباب
جميل ، لقد مضى شبابى دون أن أتمتع به ، موظف في قسم تشريع بوزارة
المالية .. ما أمضت تلك الأيام ، الطموش على راسى ، وشاربى عنق ولى
نظراتى كبرياء هي أقرب إلى الغباء ، لو رأت سامية صورتي في تلك الأيام
لسخرت منى .. في صورة مع حورية إبراهيم ، كانت أشهر واقصة ، وكانت
تضيق ، كيف أحببت كل هذا الشحم واللحم كنت مازت فلاحاً ، لا أستطيع
الرشاقة والنحافة . وأعشق الدسم . أعوذ بالله

عندما تمشى سامية إلى جاني في الشارع ، ترى ماذا يقول ابناس ، هل
يتصورون أنها زوجتى ، أم يقولون إنها ابنتى . لا يهمى رأى الناس . كل
ما يهمنى هو رأى سامية ..

هل البرد يشتد أم أنا متعب ، وعجز . المسافة إلى قوكيه قصيرة
سأسرع الحظي أين أيام ما كنت أتسكع في الشلترازيه بالساعات ..
وأعود إلى الكلايرج آخر كل ليل وفي نراعي باريسية حسنة .
في إحدى الليالي عدت وحيداً ، فأنزعج اللواب ، وسألتني في قلق :
- سيدى سيصعد إلى غرفته وحده ..

- نعم ..

- هل سيدى مريض ..

- أبداً ..

- أريد سيدى أن أحضره من تونس وحدته ..

- أشكر لك اهتمامك .. ولكنى متعب وساتام ..

ولم يصدقنى الرجل ، فالح عليّ وكأنه رائق أنى حزين أو يائس من
الحياة .. وهتف :

- أنت في باريس ياسيدى .. يجب أن تنام مستريحاً ..

ولم يستسلم حتى أكدت له أنى ساتام بملاهي من اللعب ، وبمجرد
دخولي حجرى ..

كانت أيام .. لو يعيد الله شيايى أسبوعاً واحداً ، لتعرفنى سامية كما
كنت ..

هاهو قوكيه .. ساجلس بعيداً عن الباب .. إنها لم تأت بعد ..

- واحد دراي ماريتنى من فضلك ..

- اعترفت لى سامية أن أول مرة شربت فيها المارتينى كان في بيتى يوم
دعوتها مع يوسف .. قالت إنها أحببت المارتينى ، ولكنها لم تحب الحفلة ،
كرهت المدعويين ، أحسنت أنهم يسخرون منها ، وكرهتني لأنى كنت أسخر من
يوسف ..

وسألتها وأنا أشعر بالغيرة .

- أنتِ حبيبتى يوسف صحيح ، قالت وفي عينيها نظرة جادة حزينة :

- طبعاً حبيبتى

- وإسه بتحببه .

- طبعاً لا ..

- إيه طبعاً .. دى ..

قالت في ضيق :

- زى ما يكون حلم .. بأقول لنفسى ده موش حقيقى .. ماحصلش .. وإن

كان حصل يبقى من زمان قوى ..

وسألتني في اهتمام :

- موش كده .. موش كان حلم ..

قلت في حسرة

- أنت لسه بتحببه ..

فأجابت في هدوء غريب :

- واه أبداً .. خلاص ..

ثم قالت بصوت شارد :

- أصل فوه ما بقلش فوه ..

قلت مؤمناً على كلامها .

- ده صحيح ..

فأردفت قائلة :

- وأنا كمان ما بقتيش أنا .. أنا اتغيرت خالص ..

وسألتها :

- وعسلتى إيه في الغيبة الطويلة دى .. كنتِ فين .. ورحتى فين .. وحييتى

مين ..

قالت في برود .

- لا كنت .. ولا رحت .. ولا حبيت ..

لم أصدقها ، وسألتها في وقاحة :

- وأنور ..

رفعت إلى عيني خاليتين من أى تعبير ، وهمسست :

- ماله
- ما كنتيش بتشوفيه
- قالت ، سرعة كانها تطلق رصاصه
- ؟
- اندا
- أبداً
- ولا مرة واحدة ..
- ولا بص مرة
- امال كنت بتعمل إيه
- قاعدة حاطه ايدى عنى خدى .
- وما سالتيش عنى ليه ..
- ح أسأل ليه .
- قلت فى غيظ ..

- طيب سالتى عنى دلوقتى ليه
- اطراقت براسها وقالت فى وجهه وكأنها تخاطب نفسها
- فكرت فيك ..
- وإيه المناسبة ؟
- قالت فى لهجة غامضة .
- علشان انت زى بابا ..
- ازعجتى إجابتها ولقت ساخراً :
- متشكر
- قلت فجأة
- وعلشان كده محبك
- لم اتهم ماذا تعيبه بالضبط
- هاقترت منها ، وقلبتها ، فلم تعترض ..
- وطلت تردد فى سداحة
- بحبك بحبك قوى

ويغير مناسبة تقول
- انت زى بابا ..

حتى بعد ان أصبحت العلاقة بيننا ليست علاقة اب بنت
وسافرت إلى أوروبا عدة مرات ، وكانت تبكى قبل سفرى وتبكى من
الفرح عند عودتى إليها محملاً بالهدايا ، ولم أكن امكروها أثناء غيابى ، كنت
انساناً بمجرد ارتفاع الطائرة فى سماء مطار القاهرة ثم أدكرها فى لحظات
خاطفة ، وأنا أشتري لها الهدايا .. ولكنى عندما أعود إلى القاهرة ، لا أجد
مواها الجأ إليه .. أحس بالاختناق لا ألتحق بدخول مبنى الجريدة ورؤية
يوسف .. لا أتحمل الانتباه التى اسمعها كل يوم ، تواجهنى عيون الرثاء ،
وعيون اللسمانة فى كل مكان أذهب إليه الجميع ينافقون ويكذبون ..
ويتهرون منى إذا سمعوا أنى مغضوب عنى ، ويتسممون فى وجهى إذا راوا
أنى مارلت الكتب . ولكنهم جميعاً كانوا يعرفون أن يوسف هو كل شيء .. وأنه
هو الذى يحركنى ويحمينى .

كان إما أن اشرب زجاجة ويسكى كل يوم حتى أسكر وأغيب عن وعى ، أو
أدخن المشيش وأدمن عليه ، أو أعيش مع سامية كل ليلة نتقابل فى شقتى
بشارع ماسبيرو ، ونشرب النبيذ المعتق والشمبانيا الفاخرة ، ونبادل وهم
الحب ..

بعد شهر ، فوجئت بأنها حامل ..
قلت لها .
- اتخطبى منه ..
قلت فى برود :
- لا ..

- ما تقيش مجنونة ..
- مالكش دعوى .. ده أبنى ..
- ح تقولى جاليهاه منين ..
- متخافش .. موش ح أجيب سيرتك ..

- أمك ح يديوكي .

قالت هازنة

- أهلي مين مالهمش دعوة بيه ..

- يعني عايزه تقضحي نفسك .

قالت في هدوء قاتل .

- أنا موش ح أموت أبني .. أنا محتاجة لواحد يحبني .. وأحبه .

غضبت منها ، وطردتها ، فذهبت ولم تعد .. بعد أسبوع كتبت ليحت بها .. وسألتها

- هيه .. اتخلصني منه ..

- لا ..

كدت أجن .. وكنت قد شعرت خلال غيابها عني ، بوجدتي . وأدركت أنني هربت من إدمان الأويسكي والحفيش . لأمن سلمية ..

وتزوجتها وهي حامل في الشهر الثالث ..

- ميت .. واحد دراي ماريتني .

هاهي قادمة .. إنها لا تراتني .. شريف ينظر حوله في دهشة . إنها هنا ..

أنظري إلى هذه الناحية .. أه .. رائتي .. تشير إلى شريف ناهيتي .. الولد

يقتسم .. يلتهع ذراعيه .. ويجري نحوى .. أهلاً حبيبى ..

- اتأخرت ..

- لا يا حبيبتي .. في ميعادك بالخط .. لكن وحشتيني ..

- شريف عمل لفضل في لا هبيت .. دخل بين رجلين واحدة ست . ووقف

يشبك .. الست مانت على روحها من الضحك .. وقالت لي ياعلدم .. خدى

بلك من أبك .. أنا ما عنديش مانع أبقي عشيقه .

- الولد طالع شقي

- زى أبوه ..

إنها جميلة ترى هل يأتى اليوم الذى تتخذ فيه عشيقا لها ..

وتخوننى .. إيس حاتف لو كانت تمرض .. بصيبتها شال في قدميها يعجزها

- ٢٠ -

بين الحركة .. تموت قيل أن يغتر حبها لي ما هذا الذى أقوله .. إنى

لهذى ..

- الولد وشه أحمرليه ..

- مش كثير .

- تعالى هنا يا حبيبى .. الولد مسخن ..

- ازاي ..

- إنها غزعة .. صدقت للكذبة ..

- يلا ترجع اللوكاندة .. نتغدى هناك

- تجيب له دكتور

- إذا ما تحسنتش صحته .. فشافو الدكتور ..

- لا .. لازم تجيب الدكتور دلوقت ..

- حاضر يا حبيبتي .. حالا تجيب الدكتور ..

أنا أعرف نقطة الضعف عنده .. كلما رأيته، جميلة .. كلما رأيته مرحة ..

تتألقين بالحياة والشباب .. سأضربك في نقطة ضعفك .. سأعدهك بابتك ..

سأسميني .. اعترفينى .. أنا أفعل هذا لأنى أحبك .

لست نادما لأنى أفزعته ، لقد اضطرت إلى الزواج منها من أجل شريف ..

وأنا مضطر إلى الاحتفاظ بها عن طريق شريف .. هى التى أرشدتني إلى

أسلوب معاملتها ..

رغم كل شيء ، ها نحن ندخل كازينودى بارى ، لم نحتمل الجلوس وجها

لوجه في جناحنا بالفندق ، عندما نكون وحدنا ، أحس أنى ل مأتق ، يجب أن

لقل شيئا مسليا أريجب أن أفعل شيئا حاراً مثيراً .. كانت تريد البقاء بجوار

شريف ، وكان نائما .. ارتدت قميص النوم واستلقت على السرير في ملل ..

صعقت على اللجى إلى هنا ..

- هوده ثباتو ..

- أبوه يا حبيبتي ..

- غريبة .. كتبت فأكوه كبارهه وى الليدو ..

- هل ذكرها المسرح بالتمثيل .. إنها منذ أن تزوجنا لا نتحدث أبداً عن المعاني ..
- محمد .. واحد ببعدك .
- مير
- اعه جاي ناحيتك .. ياتين عليه مصرى ..
- شكري محمود ، املول لسان في العالم ، ما الذي جاء به إلى هنا فلا تقدم نحوه ، قبل أن يلحق بي ، لا أريد أن أهدم ساميه له
- حليكي هنا .. أنا ح أروغ منه في دقيقة
- أهلاً ناجي بيه .
- بونسوار يا شكري ..
- والله كنت لسه بأفكر فيك .. كنا في الكافي دي لآبيه .. مع شلة من إخواننا .. إيه ده يا ناجي بيه . الأيام باطت . سايين يوسف يكتب كلام فارغ .. كله تفاق .. حرام .. والله حرام
- ماذا أقول له .. لا شيء سوى أن أهز رأسي وأبتسم ..
- أنا موش فاهم ساكتين على يوسف إزاي .. أنت عرفت حكاية ريزي .. لا ..
- إزاي يانا ناجي بيه .. دي اشاعة بتطبل في البلد ..
- واحدة من إياهم .. واحد صلحينا حلف أنه دفع لها في ليلة جنيه .. سكرت .. وقعت تحكي له .. أن يوسف يبقي ابن جوزها .
- ريزي .. أهى مبروكة .. ربنا ينتقم من يوسف بطريقته ..
- يا شيوخ ما تصدقش الكلام ده .. كل الصنف ده بيخترع حكايات عن أصله وفصله .. التي بنت باشا .. والي أخت وزير .. والي خالها أمير ..
- لكن الحكاية دي صحيح .. أنا متأكد منها ..
- أنا أعرف أحسن منك .. نعم انها حكاية حقيقة ..
- غريبة .. متأكد إزاي .
- كل الناس عارفه ..

يمكن ..

- إذا كانت الإشاعة انتشرت ، فلماذا لا انتهر الفرصة ..
- أه .. هناك أكثر من طريقة لاستغلال مبروكة ، ريزي ..
- للقضاء على سمعة يوسف ..

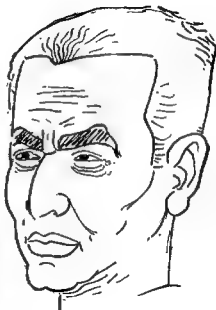
الفصل الثانى

كم الساعة الآن ..

أخشى أن أضيء الحجرة فتستيقظ سامية .. نائمة ملء جفونها . ملء شبابها .. تستيقظ فى الصباح نشيطة مرحة ، وساكنة أنا مكثوداً محطماً ، الأقراص المنومة لم يعد لها تأثير .
هل أوقظها وأقول لها إننى مريض ..
- سامية .

لا تسمعنى ، نومها ثقيل ، نوم بنت فى العشرين ، حيوية وصحة ونوم وورغبة .. وأنا لا شيء . جفاف .. أبق ..
كم الساعة الآن ، أنا محبوس فى الظلام .. ما هذا ؟ .. ما هذه الأصوات التى فى الشارع .. طلقات رصاص .. صوت صراخ بعيد ..
ماذا يحدث فى الشانزليزيه ..
الساعة الثانية والنصف صباحاً ، النور لم يوقظ سامية ، ولا صوت الرصاص والصراخ ، يجب أن أعرف ما حدث ، أهبط إلى تحت ، ولكنى سأصاب ببرد ..
ولكنى صحفى ..

سأكتب أنى شاهدت الحادث بنفسى ، سيكون المقال مثيراً ، رصاص فى الشانزليزيه فى الساعات الأولى من الصباح .. جريمة ..



الو لور .. بيير . ما الذى حدث فى الشارع .. سمعت طلقات
رصاص ..
لوه حادث فظيع ياسيدى ..
ما الذى حدث ..
لحظة ياسيدى .. إن مادلين معى عليها ..
مارا ..

صوت بيير متدهج ، ترك سماعة التليفون قبل أن يرد على ، لا بد أن أهيئ ،
لست عجوزاً إلى هذا الحد . لم تنته أيامى بعد ، مارلت أستطيع أن أتابع
الحوادث ، أريد أن ترائى سامية وأنا أعلم ، وأنا أحقق جريمة مثيرة فى
باريس .. أريد أن أشعرها بشبابى ، وبالجهود الذى أبدله ، إنها صغيرة ،
تبهرها المفامرات .

كدت أفرغ من ارتداء ملابسى وهى لا تتحرك ، سافحت الدولاب وأغلقت
بقوة مرة أخرى . . ها هى تنقلت إلى ، تفرك عينيها فى دهشة .
- إيه يا محمد .
- ماتتضفيش يا حبيبتي
عيناها مفتوحتان فى عياء ..
- لابس ليه .
- نازل
- هيه السعة كام دلوقت ..

جلست على اسرير .. انتهت إلى أن النهار لم يات بعد .. غائقة .. فرجة ..
هذا ما كانت أريده . سأتكلم فى هوس ، سأبدو وكأنى غير مكترث ..
- ولا حاجة يا حبيبتي .. كان فيه ضرب رصاص فى الشارع من شوية ..
- رصاص ومارر .
إدعها تصرخ ..
- لازم اعرف إيه ابنى حصل ..

- ٢٦ -

- وأنت مالك ..
- ستجاملها ..
- محمد ملتزاش
تهضت من السرير تهجم على .
- يبقى فيه رصاص وتترل
- ماتتزعيش يا حبيبتي .. شريف يصحى .
- لكن انت موش نازل .. فاهم .
لا بد أن أتصرف فى حرم .
- اسمعى .. ده شغل .. وأنا متعود عليه .. أنا شفت أحمد ماهر وهو
بيضرب بالرصاص .. كنت واقف جنبه .. كان ممكن رصاصة تيجى فى ..
لكن شغلتنا كده ..
- أنت مش صحفى صغير ..
- شغلتنا مافيش فيها صغير ولا كبير .. اللي بيعمله ولد عنده عشرين سنة
أصله أنا .. لازم أشوف اللي حصل .. أنا نازل
- محمد
صوتها فاجع ، وجهها يتعذب ، أنفاسها تأنه
- أنا راحع بسرعة
- محمد
أغلقت الباب فى حدة ، أخشى أن تلحق بى وهى عارية فى قميصها
الشفاف .. لا إظن أنها تفعل .. إن تمام بقية الليل . فثقت . سيطر عليها
الفرع
فى الصباح لن تكون نشيطة ولا مريحة .
اليهود على بالحسنات الثلاثى يقعن أمام باب كلاريدج طوال الليل ..
بيير ، والحسنات يلغون حول مادلين ، عدات تفيق .. يطرون فى فى
وجوم .
- أوه مسيو تلجى . لماذا هبطت .. أصعب لارعاك

- ماذا حدث يا بدير .

مادلين ترتجف ، بدير ينقل عينيه بيتي وميتها ، لا أحد يريد أن يتكلم ، أنا لا أجبر على إلقاء السؤال من جديد ، شيء خطير حدث ..
عينا مادلين تتسعان ، تحرك شفيتها ..

- قتلوه . قتلوه أمامي .. كان يسير على الرصيف .. واضعاً يديه في جيوبه .. بصفر .. لال أن روز .. فجأة جاءوا . القندين .. البوليس ..
« ميرد » ، سلطوا عليه الألبور الكاشفة .. فرغ .. جرى خطوتين . أوه . القندين .

سكنت مادلين ، والتفتت ناحية شارل ، والتفتنا جميعاً إليه ، كل قادم من الخارج ، لاهثاً ، مسرعاً ، ولكنهم يقترب منا في بلاء شديد .. جرى ناحيتنا في سنوات ، تكلم كأنه يهذي ..

- اخذوا الجثة معهم . كانوا يظنون أنه جزائري ..

- وهل هو جزائري .

- لا .. مسيو ناجي . إنه فرنسي .

خسارة ، كان هادئاً خطيراً فأصبح حادثاً طريفاً .

شكراً تصرخ في شارل

- هذه جريمة ..

شارل يجيبها ساخراً

- هل تبلغ البوليس .

وجه الشكراء يفيض بالشراسة ، صوتهما اجش ، يعوى ، كدسب جائع ساقتل أول واحد أراه منهم .. أريد أن أخرج لأرى مكان الحادث ، لعل أرى مقعة دم على الرصيف ، ولكن مصفلي ليس معي ، سأنصب بريد ، من يدرى ، قد يأتي البوليس ويطلق رصاصاً أخرى على .. الحساوات ينظرون لي كثيراً ما تبادلوا النظرات معي وأنا عائد مع سامية معد السهرة ملابسهم السبعة العطر يعرج منهم ، والعرق . ينظرون لي نظرة تائبين . نظرة معد ماذا جئت بروحك معك أيها العريب ، لو كنت وحيداً لتقصينا

مبهرة معاً ، ولاخذنا منك بضعة آلاف من الفرزكات .. هل يمكنك أن تتخلص من زوجتك الشرقية ولوليلة واحدة .. تحلص منها .. ولك خصم عشرة في المائة .

كانت سامية تسكني دول واقعين قدام الباب بيعللوا إيه ..

- يعني مش عارفة .

فتبتسم وتقول -

- اخبر لو كنت هنا لوحدك .. كان زمك طالع كل ليلة مع واحدة ..

- أعوذ بالله .. ملقتيش غير الأشكال دي ..

- مالهم .. شفر .. وعيون ذئق .. وأخر شيكة ..

- عمري ما عملتها ..

- محمد ..

- عمري مادقعت لواحدة سليم .. أنت عارفة أنني ملعبش الحاجات

الرخيصة .

إحدا من تتقدم مني وهي تضحك ..

- مسيو .. وحيد الليلة ..

- لا . زوجتي تنتظرني فوق ..

- عندي سيارة . نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر .

- ليلة أخرى .

- عشرة آلاف فرنك .

- ليلة أخرى ..

- من يدري أن هناك ليلة أخرى .. هذا المكان أصبح خطراً .. الرصاص في

الشانزليزيه .. لم يعد هناك مكان للعب ..

- لا تخاف .. أنت جميلة .. وستعيشين ألف سنة ..

- ولماذا أعيش ألف سنة .. لا تق كل يوم أمام باب كلاريدج .. أمس في

أن كل رجل .. مسيو .. هل تدعوني للعشاء . مسيو : هل تريد أن تحبني ..

فينظرون لي أولاً ينظرون ويتسمعون أولاً يتسمعون . ويأتي العجول أحد

يحيى .. أودعوا ياسيدي .. إذا غبت وأيك فانا واقفة عند الباب .. إما أن
نأتى أو تأتى رصاصة

هذه المرأة تذكرنى بنفسى .. هل أريد أن أعيش ألف سنة ، أنتظر كل يوم
محصية بعد مصيبة .. إما أن يأتى الرصاص إلى مصر ويقضى على أعدائى ..
وأما أن أنتظر .. هى تنتظر عند باب كلاريدج .. وأما أنتظر فى حجرة فى
كلاريدج

رصاص الرصاص

- بيير هل أزعجك وأطلب زحاجة أفيان ..

- سأحضرها فى الحال ياسيدي .. هنا أم فى حجرتك

- هنا .. سأجلس هنا ..

- أسف مرة أخرى ياسيدي .. إن هذا لا يحدث فى باريس كل يوم ..
إنه ينظر إلى مستظراً تعقياً على كلامه .. لن أقول شيئاً

- حسن ياسيدي .. سأذهب وأحضر زحاجة أفيان ..

الرصاص .. الرصاص ..

البهو الفرعوني .. البرلمان فى القاهرة .. أيام الحرب .. أحمد ماهر يشترق

انكأن بجسمه المربع ووجهه السمى الصريح وعينيه الذكيتين .. المصامى

يتقدم منه شابك أنجه غريب النظرات .. أحمد ماهر بيتسم ويمد يده

مرحباً .. طلائع رصاص .. الجسد يترنح ، اليد الممتدة تنكش نحو القلب ،

الوجه السمى الصريح يتقلص .. الجسد المربع يهوى إلى الأرض ..

سبق صغلى .. رأيت المشهد بعيني .. غداً يرتفع التوريع .. شهيدى باشا

تخلص من خصم يطارده ويعطّل مناقصاته .. رئيس وزراء جديد .. مناورات

سياسية جديدة .. اتصالات جديدة .. لابد أن أعمل بسرعة ..

قيل أن أكتب حرفاً واحداً كنت عند شهيدى باشا أروى له ما حدث

- إيه رايلك يداشنا

- رايبى إيه .. وسأع إيه .. البلد بقت فوضى .. ده جنون .. لعب عيال ..
قلت فى برد

سوى ده اللهم .. نكتب الخبر إزاي .. أنت عمرك ما حبيت أحمد ماهر

صالح لعمشنى

مايفش يا محمد حب ولا كره دلوقت إحداكنا فى خطر .. شوية العيال

محلح يخربوا البلد لو سكتنا لهم .. قلب الدنيا .. هيج الراى العام صد

الإرهاب .. طلاب يحبس كل ولد عصبي مشويه .. بلاش يا أخى تعليم

ولا هيا .. إذا كان كل واحد يتعلم ح يطلع فى دماغه أنه زعيم سياسى -

كلن ثائراً وخلفاً .. إحدى اللحنات القليلة فى حياته التى فقد فيها

أعصابه .. منظره ممتع وجديد ..

- باباشنا أنا غير رايلك وأنت هادى .. بعد ما تفكر فى الموقف من جميع

الزواى ..

قال غاضباً :

- أنا عارف كويس اللي بأقوله .. معدناش وقت ليمناورات .. دى حاجة

أكبر منا كلنا .. ييجى أى واحد الحكم .. صاحبى وألا عدوى .. بس يخلصنا

من الولاد المجرمين دول .. البند بقت بسفة .. مليانة وأغش .. شيوخية على

إخوان مسلمين على اشتراكية .. عى وطنية .. على هياب أزدق .. صعاليك

فلاحين معدنهمش حاجة يخافوا عليها ح بخسروا إيه .. إحنا اللح نضمر

كل حاجة ..

- زحاجة أفيان .. مسيو ..

- هرسى بيير ..

أشرب هذا الإفيان .. وأصعد إنيها .. لعلها تبرى الآر .. هذا أفضل من أن

تستريح وتنشط وتتخيل نفسها فى شهر عرس .. لست شاباً حتى أستطيع أن

ألبى رغبتيها كل ليلة ..

لو كانت تمرض .. أو يستولى عليها القلق فتصاب بمرض

لن أحتمل الفضل معها .. لو مشلت فلن أطيق نفسى .. لو فشلت فلاننى

عجوز .. حقن البوجوملتر لم تكف .. والبراسمدين .. والهرمونات .. وعدد

القرود والأثيران .. البروفيسر جوفيه فى زيودج ..

- ياسيدى .. اما لا تستطيع اكثر من ان احتفظك بما تملكه الآن .. لما
إعادة الشباب .

وابشعتم عينا للروفسير في خبث وقال .

- من يدعى .. وبما وصلنا إلى شيء في السنوات القليلة القادمة .

عندما فشلت مع ثريا ، كان ذلك شيئاً آخر .. كنت وقتها خائفاً من حضور
شهادى باشا في أية لحظة .. فغضبتنا متلبسين ..

كانت ثريا سكرانة ، وكنت سكران .. شربنا ماذا .. زجاجة جن
بالكوكاكولا . المظهر كان ساحراً .. ثيران مقددة في كتل خشبية منصوبة
على الرمال ، السنة الذهب الحمراء تمرق الليل ، وتمكس ضوءها على رمال
الشاملى ، وعلى أمواج الياسفيك .

كانت أيام ..

قال لي شهادى باشا .

- ثريا عايزة تستنى في هوليوود خد بالك منها .. أنا وايح واشنطن يومين ،
وبعد كده مينيا بوليس .. روح ابعثكم يانتقال في نيويورك ، يانتقال في سانت
لويس ..

ونحن نودعه في المطار ، حدث عطل في الطائرة أخرها حتى الثامنة مساء ..
أثناء عودتنا قالت ثريا :

- أنا موش مطمئنة للطيارة ..

- بالعكس .. دى كشغروا عليها وصلومها ..

ضحكت وقالت .

- مرة في جنيف ودعت الباشا على أنه خلاص مسافر .. وشفت الطيارة
بتختفى في السماء .. رجعت البيت .. بعد شوية لقيته داخل .

بعد قليل كانت تسالنى :

- ح توبىمى فين الليلة دى ..

- أنا تحت أمرك ..

قالت ضاحكة ..

رجعت فين إميلارح ..

- كنت معزوم في بيت واحد لتمعرفت بيه ..

- واحد والا واحدة .. أنا عايزاك تودينى مكان من بتوعك .. الى عرفت من

صاحبك الأمريكانيات ..

لم يكن هناك مجال لأن أنظاره أمامها بالتقى والودع ..

قلت .

- حلفى ..

ذهبنا إلى بار « ميتونى » على الشاطىء ، وكانت الرمال والذيران والمحيط
والجوج الأبيض والظلام دخل البار والجن بالكوكاكولا ..

- أنا عايزاك تحكى حكايتك مع دلال ..

كلون سراء ، يسمعن من حيننا ، فينتابهن الفضول ، وتشرح كل واحدة مع
خيالها ، ويتمنى لو تكون دلال ، حرة مثلهما ، مجنونة مثلهما .

حكيت لها عن دلال .. أنا أجيد هذه الحكاية .. إنها تبهر أى امرأة
تسمعها ، وتشتعلها غيرة ، حتى تقول لنفسها ما الذى في دلال أحسن منى ..
فلأثبت لهذا المجهنون بدلال .. اتنى أحسن منها .. أجمل منها ..

- لكن إزاي بتحبها وتخونها ..

- عمرى ما خنتها .

- ياكذاب .. إصل إيه التلى بتعمله هنا ..

- يانساهما ..

كنت أنكلم في غير اكترات ، معتراً بنفسي ، سعيداً بحالنا معى ، حتى
خرجت من دور الكلام إلى دور استعمال الأيدي .. نضع يدها على يدي .. على
كتفى .. على شعرى ..

خرجتنا من البار ، وقد جنت النار على الشاطىء ، وكنت أقود السيارة ،
فالتصقت بي .. أحطنها بذراعى .

فقلنتى فى خدى وفى مصعد الفندق همست .

- ح تيجى عددى .

- معد خمس دقائق ..

كاست تنتظرني فى السرير ، ما كنت أخطو خطوة واحد داخل الحجرة ، حتى تذكرت شهدي باشا وعطل الطائرة .. إنها صدقة ولكنها قد تحدث ، هي روت لي بنفسها ، إن هذا حدث مرة ، ليس هذا إنذاراً من الله .. تقدمت نحوها وقتلتها ، والهوا حس تنصمخ في راسي .. وحاولت .. وحاولت .. ولكني هسلت .. أي صوت كان يزعني .. صوت سيارة .. صوت باب .. صوت أنهم أتى اسمعه ..

دعنتني بيدها غاضبة ، حاولت أن أعذر .. فقلت في حقد بالفرنسية .
- أنت تعودت على الساقطات .

تركبتها وعدت إلى حجرتي ، لم تمض دقائق حتى دق التليفون ..
نمت .

- لا ..

- أنت كنت خائف .

- أيوه ..

- طيب أنا حاجي عندك

ثريا الجمال التركي .. انجمال الباردة .. امتلات بالغسوق ، وجهها مكرمش ، ومازلت أغازلها . لها ناعز يوسف الآن .. من يدري .. امرأة في الخمسين .. وشاب رئيس تحرير الايام في الثلاثي . لا أظن أن يوسف يقبل .. إن له طريقته الخاصة في الوصول .. أنه أبرح مني بكثير .. أنا الماهر .. الشاطر .. انتهت مدرستي .. لم يعد لها سوق .. يوم أصبحت مدام شهدي باشا عشيقتي .. كنت أظن أنني سيد العالم ..

- ثريا أنا عايز الباشا بحضور الحفلة بتاعتي الليلة دي .. ضروري يجيى ..

- حاضر يا حبيبي

- ثريا .. الباشا موش مهم بالحرزاني .. كلميه .. عايزك تشتميني .. قوايله

- ٣٤ -

ما فيش حاجة بتقريها .. قوايله عايزة ريبورتاجات من الخارج .

- ولما يتخانق معاك ..

- أنا عايزه يتخانق .. عايزه يهتم .. ويدافع قرشياً ..

- ثريا المطبعة بقت قديمة ..

- ثريا .. الورق موش كويس .

كلت خبطة بارعة .. هنت نفسي عليها ، ومرة ثريا بها .. كانت تشعمر بأعنيها من خلالي .. وتبنت لي ونفسها قدرتها في التأثير علي ..

كيف أثريوسف علي شهدي .. هذا هو ما يحمني .. أنا أستاذ الوصول ..

أستاذ تخطي المعقبات .. كيف يعلبنى هذا الولد الضعيف ..

- مسهر ناجي .. التليفون ..

- من

- الدلام ..

- قل لها إني صاعد حالاً .. صاعد .. صاعد .. أقصى ما أستطيع الصعود

إليه هي حجرتي في الطابق الخامس .. لا تصعده شير هذا .. أنا هابط ..

هابط .. هابط ..

سألتني ثريا .

- أنت اتجنتت يا محمد .. إزاي تتجوز كومبارس ..

- أصل إيه ..

- ياه ده محمد ناجي الي مايمجبوش العجب .. أخرة العمر بيهدل نفسه

مع كومبارس ..

- ما هي أخرة العمر .. ما فيش ياقى حاجة ..

سأفتح الباب ، لأراها تبكي . كيتي خرجت إلى تلك المرأة الواقعة عند

الباب .. عشرة آلاف فرك .. لو أعطتني ابتسامة .. منححتها عشرين ألف

فرك ..

- إيه يا محمد .. إزاي تصبتي لوحدي مخضوضة عليك .

- تخضي إيه يس .. أديني رجعت

الفصل الثالث

- أنا قعدت أعيط .
- ويعددين معاكى ..
- خفت عليك . نازل بعد نص الليل .. ووصاص في الشارع .. إيه اللي حصل
- البوليس قتل واحد ..
- ليه
- افكروه جزايرى ..
- يقوموا يقتلوه ..
- هيببى .. أنا تعبان عليز أنام ..

ها هي المجرة تعود إلى ظلامها .. أنا هببس هذا الظلام .. لا نوم .. لا شيء .. غداً سأكتب عن الحادث .. لا .. يجب أن أكتب أولاً لعمدى .. عزيزى حمدى .. هل تذكر المرأة التى كلمتك بالسؤال عنها ، مبروكة زوجة أبو يوسف ، أريد منك أن تبحث عنها وتكابلها ، علمت هنا في باريس أن اسمها ربرى .. أذهب وأعطها كل النفقة التى تطلبها وحرصها على رفع قضية في المحاكم تطلب بنفقة من يوسف .. أنت فاهم ماذا أهنى .. هل أطمئن لعمدى .. كان مخلصاً في ، ينفذ كل طلباتى ، لعله تغفر هو الآخر .. هل أجازف وأكتب له .. وأنا متعب .. أريد أن أنام ..

عزيزى حمدى .. عزيزى حمدى .. لا .. من الخطر أن أكتب له .. يحسن أن أؤجل التفكير إلى الصباح أريد أن أهدأ وأنام .

عزيزى حمدى .. أذهب لمبروكة .. اجعلها تنتقم من يوسف .. هذه هي فرصتها . وفرصتى .. كيف لم تفكر حتى الآن في الانتقام .. إنها جاهلة .. ربما خائفة . في حاجة إلى تشجيع .. قضية ترفعها على يوسف تقضه .. اللاد كلها تتكلم عن صلته بيوسف .. القصة مثيرة .. ستهدم يوسف .. ستهدمه ..

عزيزى حمدى .. أريد أن أنام ..

- أنا رايح إقبال كرم بك ..

- أنت موش قلت ح تقعد جنبى .

صدقت أنها مريضة ، وجهها شاحب ، الصداع يذق في رأسها ، هي وشريف مريضان ، نظرات المرض تمنحنى الصحة والعافية ..

- حاول تلمس يا حبيبى ..

- مش قادرة ..

- لازم إقبال أكرم .. مسافريكة مصر .. فيه حاجة مهمة ح نتكلم فيها ..

- إيه الحكاية دى .. أنت موش قلت عايز تبعد عن المصريين ..

- مملوش يا حبيبى .. ده شغل ..

- شغل إيه يا محمد ..

- بحدن تمرق ..

- نظراتها يملأها الشك ..

- أنا ح البس وأخرج معاك ..

- أنت تجفنتى .. والصداع اللي عندك ..

- ح لحد كمان أسبرينه ..

- لا .. ده يضعف القلب .. ولو جبنتى معايا موش ح نعرف نتكلم ،

- إنها حائرة ..

أنتم ح تكلموا في إيه .. إيه الأمر اللى بيترك وبين الكرم .. لازم تقول لي

صوتها ملهوف ، لابد أن أثر ، وفاجتها بشيء خطر ..

- بصراحة ح نتكلم في السياسة .. إحنا ح نقضل سلكتين لأمتي .. دي هزمستنا علشان نتخلص من العيشة الهباب اللى إحنا فيها .. الأخبار كلها بتأكد أن الإنجليز والفرنسيين ح يحاربوا .. جمعية المنقذين ح تبعت مركب، ووراهما حملة عسكرية في القنصل .. تفكرى ح أقعد وأحط ايدي على خدي لحد مايجوا يسلمونا بلدنا .. لازم نشغل إحنا كمان .. أنا لسه مامتش .. أنا لسه عايش .. أقدر أصرب .. أقدر أثبت أسي موجود .. شوقي الجواب ده .. فيه ناس مستنيين في مصر .. أكرم ح يسلمهم لهم .. أنا عملت اتصالاتي .. يوم مايبدي الغزو ح يبقي لنا دور .. أنا في معركة .. يا محمد لازم تأخذ بالك ..

وجهها أصفر .. وجه ميت قتله الفرع ..

- ماتوايش توافيني .. ياتقلى جنين .. ياتسكتي .. كنت ما اتجوزتنيش وأجل عادي .. أنا غرقان لشوشتي في سياسة البلد ، وأنا فاهم كويس اللى باععله .. موش ح أقعد أنلسخ في باريس ، وأنا شايف المصائب اللى نازلها فوق بلدي ..

- أنا موش مطمئنة ..

- خللي الكلام ده لنفسك .. تصبى على خير ..

في عينيها استسلام وإعجاب وخوف .. أه لو علمت ما في الخطاب .. محاولة جبانة لإقناع مبروكة برفع قضية على يوسف والقضاء على سمعته .. هذا كل ما استطعت أن أفعله لا مؤامرة .. ولا اجتماعات خطيرة .. موعد مع أكرم في كريزي هورس أشهر حانات باريس للعرايا .. ساحارب من كريزي هورس ساقود الانقلاب وأنا أتفرح على الاستريبتيز .. أنت مضحك يا محمد لم تعد محمد ناجي القديم .. لا سياسة ولا مناورات .. لا لحد

- ٣٨ -

يمسأل عنك .. لماذا لا تفعل ماتتكر فيه .. لماذا لا تحاول الاتصال بالقروسمين ..

لو أسافر إلى إنجلترا .. وأقابل أصدقائي في مجلس العموم .. لاند أن اتحرك .. اصنع شيئاً

- تلكمى .. كريزي هورس من فضلك ..

لماذا ركبت التاكسي .. إن الحانة على بعد خطوات .. سيطر السائق أنى أجهل باريس .. لن أتركه يخذعنى .. ولكنه يسير في الطريق الصحيح ..

- كريزي هورس مسير ..

محمد تاجي يقضى ليلته في حانات باريس ، نهاية مؤسسة ، لو أعود إلى كلاريدج فأجد برفقة من القاهرة تقول : « عد فوراً نحن في حاجة إليك » ..

أهبط من الطائرة فأجد عربة تنتظرني وتسرع بي إلى القصر الجمهوري ..

- إحنا محتاجين لمخالفاتك يا أستاذ ناجي .. ما عيش حد يقدر يرفع الروح المعنوية غيرك .. أنا عايزك تكتب كل يوم مقال .. البلد بتمر بمرحلة حرجة ..

وكل كلمة منك ح يكون لها أثرها ..

- حاضر يا أستاذ .. أنا جتدى في خدمتك ..

- بكرة عايز أقرالك ..

- إن شاء الله .. يس يا أستاذ في حاجة صغيرة .. وضعى ح يكون إيه في الهرنالك ..

- أصل اللي أنت عايزه ..

- سأطرد يوسف ..

لن أسمح له بدخول الجريدة .. كيف أسمح له بالبقاء والشائعات تلوته .. في اجتماع الصحفيين أذاع عن يوسف ..

- والله يا جماعة يوسف ولد طيب .. أنتم عارفين ما عيش حد بيعبه زنى أنا كتبت باعتبره ابني وتلميذى .. وسيت له مكانى .. إنما الظروف المؤسفة هى اللى اضطرنا لإبعاده مؤقتاً .. البلد بتمر بأزمة خطيرة .. وإحنا محتاجين لأفلام بيتق فيها الجمهور .. وأنا شخصياً واثق في يوسف وذي وطنيته لكن ما

أقترح المسرح لكل واحد يشتري الجرنال أن يوصف مظلوم في الشملات إلى
حواليه ..

ربما ذكرت أسم ريرى .. سيضحكون .. وسألوهم ..

- الضحك إلى بأنسمعه ده سخيف .. مالوش معنى .. ده موقف تأسف
عليه كلها

- إيه يا محمد بك .. أنت موش شايفنى .. عمال أشاوروك من ساعة
مأخضت ..

- ازيك يا كرم .. متأسف مأخضتش بالى ..

- أنا حاجزك ترابيزة قدام .. اتفضل ..

ابسماعته صغراء .. عيناها لزعائن .. يجب أن اتحملة حتى يأخذ معه
الخطاب .. المكان مزدهم .. موسيقى صاخبة .. السقف وأعلى كلهم
سواح .. اكتاف الخمانية .. شملطات أمريكية .. ستار المسرح مازال
مسدلا ..

- ح تشوف من هنا كويس .. تشرب إيه يا محمد .. أنا بالشرب ويسكى ..
أشرب معاك ..

الحيوان .. ينادينى يا محمد .. كأننا أصدقاء .. لا تكليف بيننا .. أريد
أن أبصق في وجهه ..

- خلاص مسافر بكرة ..

- أيوه .. الطيارة تقوم الشهر ..

- ماكنت تستنى لحد الدوشه ماتخلص ..

- فلوسى خلصت .. تفكر فيه حرب يا محمد ..

- مؤكد ..

- ريتا يستر .. وأنت راجع امتى ..

- أنا عندى شغل ..

لو أعود إلى الفندق مأجد تلك البرقية .. أوهام .. لا أهد يذكركى .. الأتوار
تلفاً .. الموسيقى تعرف لحما مجنوننا .. الستار يرتفع عن ظلام دامس ..

شعاع نور يتسالى إلى المسرح .. شعراء واقدة على سرير .. في قميص نوم ..
جميلة حقا .. لجمال من سامية .. تتلوى .. تتناوب .. الدنيا حر .. الموسيقى
صاخبة .. تطلع القميص .. عندما تشفى سامية سأسهر معها هنا .. لورات
هذه البنات العاريات لشعرت بالضحل من نفسها .. كن تتناهى بحسدها ..
متفعل .. متعرف معنى الإغراء الحقيقى .. متتهم بنفسها قبل أن تتهمى ..
غدا سأقنعها بأننا ضفيت ..

ولكنى مجنون .. لا حدود لجبنى .. إسى أقتل بالجملة .. إسى أقتل
شريف .. واقتل سامية .. لو يعلم أكرم ماذا يدور في رأسى .. إنه بطن أنه
يجلس إلى جانب محمد ناجى الذى كان يعرفه في القاهرة .. محمد ناجى ..
الأنينى .. الأرستقراطى .. الذى يتعاخر بالجلوس مع أى إنسان .. الحيوان
ينادينى .. يا محمد .. هذه البنات السمرات التى تطلع السوتيان .. إنها أجمل
من بقية البنات .. الموسيقى تزار .. صوت قطار .. المجائز ينظرون في نهم أكثر
من الرجال .. أكرم يتنفس بصوت مسموع .. عندما ينتهى المشهد سأعطيه
الخطاب ..

- حلوة دى يا كرم ..

- أه .. توهوس ..

- شيجى نعزمها ..

- أنا تحت أمرك ..

- فروح عندك ..

- أوى ..

- تبقى تكلم الدام .. وتقولها أنا اشتغلنا للصبح ..

ستصدق سامية .. إنها ساذجة .. سنتصور أننا جلسنا نتأمر وندير

الخطط حتى الصبح ..

- إيه رايبك في دى يا محمد ..

- موش زى الخانية ..

- لكن برضه طوة .. هه ..

- نجيبها كمان .

- أنا كل اللي معايا ستين ألف فرتك .. مستعد أشطب عليهم ..

- ماتخافش .. معايا فلوس .

- لأن .. أنا حالف أرجع مصر .. وجيوى منظمة ..

- اسدل الستار ولا أحد يصفق .. الجميع ينتظرون أمامهم في وجوم .

- موش ملاحظ يا اكرم ماحدش بيسقف ..

- مكسوفين .

- جرسون .. اتنين ويسكى دويل .. صودا من قبلك .. أنا معليا جواب

- عايزك تاخذه معاك ..

- مقالة ..

- لا . جواب خضوصى من راجل غلبان .. كان بعثلى وبارد عليه .. لكن

- أنجوك تهتم وترعى الجواب في البوستة أول ماتوصل . أنا باهتق بالرد على

- القاس دول .. علشان مايفتكروش اتنى باتكبر عليهم .

- إنه يضع الخطاب في جيبه . بعد قد يتسلم حمدى الخطاب . وسيذهب

- إلى مبروكة .. لا أحب هذه الاستكشافات الفكاهية ، إنها تضيق للوقت ، لقد

- جئنا للعرايا .. هذا العمل البدين ثقيل الدم .. حمدى شاطر .. عندما كلفته

- بالبحث عن مبروكة عشر عليها في يومين ..

- إيه أخبارك يا حمدى

- الكلام اللي سعادتك قلته طلع صحيح .. وموش صحيح .. يوسف أبوه

- اتحوز خدمة .. ده صحيح .. واسمها مبروكة . كانت بتشتغل في بيتهم في

- شارع العلكى . ويعدين اتحوزت الراحل العجوز وخلقت منه ولد . بعد

- شوية مات .. عرلت على برابة المتولى .. حاولت تتصل يوسف .. وجات لحد

- هنا . كان يزوغ منها .. حككت لحد الستار اقتدى في الاستعلامات .. أن

- الولد اللي معاها اخو يوسف .. نزل وقايلها مرة .. ويعدين كلمه .. وقال له لو

- رجعت نلتى أطردوها ..

- ومرة تانية طردها عم رضوان .

- ويعدين ..

- تعرف سعادتك هيه عايشة مع مين دلوقت .

- كلنت عيانه متسعتين لفرحة الانتصار .

- مع واحد رسام هنا ..

- مين ..

- شوقى محمود ..

- هذا منظر بديء .. أهوى باه .. لا يمكننى أن أحضر سامية هنا .. أنا

- راجل محافظ قبل كل شيء . الأفضل أن تظل مريضة . لا داعى للعب بالنار

- كتنى أريد أن أمهد لها الطريق لتخونى . يجب أن تظل مريضة .. سأقتلها

- بوهم المرض . سأنتقم من كل لحظة عاشتها مع يوسف .. كانت تحبه .. رغم

- أنها تعرف قصة مبروكة .. هى التى نبهتنى ..

- موش عرفت حكاية غريبة عن الراجل اللي عندك ..

- راجل مين ..

- اللي موش حرامى ..

- قصيدك مين .

- يوسف .

- كنت اتق في يوسف .. لا أتصور أن سيسرقنى يوما ما .. سيسرق

- حياتى . عندما علمت حكاية مبروكة أشلفت عليه .. وفرحت به .. ظننت أنه

- ضعيف .. مجروح .. زوجه أبية عشيقه زميل له .. وهو لا يقوى على فعل

- شيء .. جبان . ذليل . استطيع أن يفعل به ما أشاء .. يصلح لأن يكون

- خلعلى .. يمكننى أن أسيطر عليه .. استغل ضعفه .. كلما فكرت في

- مصيبتى قلت لنفسى هذا هو الرجل الذى يجعله يكبرون أن أخشاه .. هذا هو

- الذى سيقتل ليلئلا إلى الأبد .. أن يرفع عينيه .. تبنيته .. لعبة أصنعها

- وأحركها كما أشاء .. مخلوق حقير يستمد سلطانه منى .. كنت مغفلاً .

- اكلم الجرسون يا محمد ..

- علشان . إيه ..

- تشوف حكاية البنات دول ..

- أنت عايزهم

- ده اقتراحك

- والله أنا متردد ..

- خلاص .. بلاش ..

تعم أنا متردد .. هذا هو عيبي فقدت قدرتي على اتخاذ قرار .. لذلك لا أتخلص من هذا العيب

يجب أن أفعل شيئاً حاسماً .. ماذا .. لا شيء ..

عندما قررت أن أصنع يوسف لم أتردد ..

- يوسف .. أنا عايز أعرفك بشهدي يا شيا .. الجرئال ده يتأعك .. وأنت زى ابني .. أنا باعتبرك واحد من المسئولين .. ولأزم صلتك بشهدي يا شيا تبقى كويسة

استمع إلى لي خجل .. ولا مني شهدي يا شيا ..

- إيه الولد اني أنت باعتبرولي

- ده والد طيب وغلبان يا باباشا .

- تفتكر يطلع ..

- بكرة تشوف يا باباشا ..

بعد نشر الحديث ، قال .

- والله الحديث طلع مرش بطل . كام واحد كلمني عنه . هو اسمي إيه الشاب ده .

- يوسف ..

ظننت اني كسبت عوباً جديدا لي ، أواجه به شهدي يا شيا ..

- الويسكي تعني يا أكرم ..

- ده صنف كويس

- موش قادر أنا قايم

- آلمه تمرة مدعشة .. واقصة للنعيان ..

- مخلص .. خليك أنت .. أبقي سلملي على مصر .. ماتنعماش الجواب ..

أنا مريض .. أنا المريض الحقيقي .. لا يشفي إلا العودة إلى سامية .

أراها هي وشريف ينتظران إلى يعيون المرض ، فاستعيد صحتي وعافيتي ..

الهواء بارد ، ولكنني سأمشي . لعلى أصاب ببرد وأموت .. لأهل سيارة

تدهمني .. لا فائدة هذا عذاب مستمر .. لا يهدأ أبداً .. الموت هو راحتي الوحيدة .. صدقت دلال ..

- وبعدين يادلل .. موش تهدي شوية يا حبيبتي ..

- يعني إيه أهدي .. أنا ح أهدي لما أموت .. روح أشبع هدوء .. ح أسيب الدنيا وأنا موش نادمة على شيء ..

أنا سأترك الدنيا يادلل وأنا نادم على كل شيء .. الموت لن يريحني .. قبل

أن أموت .. يجب أن ألقى على يوسف .. أنا خائف .. ستعود سامية إلي .

ستتركني وحيدا ، ستأخذ معها شريف وتعيش معه . إنها تحبه .. مازالت

تحبه .. أنا لا أحبها يادلل .. لم أحب أحداً غيرك ..

- حاجة واحدة بس التي عايزك تعملها لي .. تأخذ بالك من توني .. لو موت

يا محمد ابقي خذ بالك من توني ..

- وأنا من يأخذ بالك مني ..

- أنت نصاب .

هه .. نصاب . نصاب يسير في الشانزليزيه بعد منتصف الليل .. نصف

سكران .. نصف ميت .. نصف مجنون .. نصف قاتل .. نصف مغفل ..

لا .. لست مغفلاً .. لقد حاولت منذ البداية .. شعرت أن يوسف سيكون

مصدر خطر علي ، قبل أن يصبح خطراً .. وشرعت أملكه . واجهته بما

أعرفه عن مبروكه لأتله ..

- يا ابني فيه حكاية سخيفة عايز أكلمك فيها . المواقف بتكلم . الست

اللي بيتيجي الجرئال .. وشايله على كتفها عيل بتقول إنه أخوك . قاطعني في

خجل .. ولكنه خجل غريب .. خجل جريء ..

- ايوه . دى مرآة أنويا . قلت فى وقاحة .
- أنا عارف كل حاجة . عارف أنها مع شوقى ..
- ايوه .

منظره ضعيف . يكاد يتهاوى . ولكنه لا يتهاوى . يرفع عينيه فى عيسى

- أبويا اتجوزها .. اتحافت معاه وسبت لهم البيت .. لكن أنا ما بأتكرش صلتها بيه .. وإن ابنها أخويا .. موش مكسوف .. لو تحب أقوت على كل واحد فى الجربال أقول له مستعد . فيه باشاوات اتجوزوا خدامين .. أنا ح اعمل إيه .. موش ذنبى ..

يجب أن أوجه إليه الضربة القاضية ..

- لكن علاقتها بشوقى ..

- هيه حرة .

- أنا موش فاهمك .. إزاي تسكت ..

- أنا مائ ومالها .. هيه فى حالها وأنا فى حالى ..

- اسمع يا ابنى . أنا زى والدك ويانصصك .. مايمحش تبقى معركم

فى الجربال والناس هوانيك عارفين أن شوقى على علاقة بامرأة أيوك .. أنا ح أرفد شوقى . أطرق برأسه .. وسكت ..

- وعابذك أنت اللى ترفده .. غشيان يشمر كل واحد هنا بمركزك ..

- ما أقدرش .

قلها وكأنه يطلق رصاصه على نفسه ..

- أنت موش ح تقول له أنا بأرفدك عشان علاقتك بامرأة أبويا .. الولد ده

سمعت أنه شيرعى . قول له متوح المباحث انكلموا . ونبهونا لخطورته ..

وارده .

لم أكن أعنى ما يقول .. رفد شوقى أم لم يرفده .. اللهم هو أن يعرف أنى

أعرف .. رغم ذلك لم يتحطم .. لم يتبدل .. عاش بضعفه .. انتصر بضعفه ..

ضعفه إلىهى

- ٤٦ -

الضعف غلب القوة .. المذاجة غلبت المكر .. ما سر هذا . لأنه شاب وأنا عجوز . أهو حكم القدر أن يأخذ الشاب مكان العجائز .. ولكن ليس بهذا الأسلوب . ليس كما فعل يوسف معى .. إنه شيء خارق .. ملاك . شيطان .. سحار .. أسطورة .. لن أهدأ حتى أعرف سر يوسف .. كيف غلبنى .. كيف غلبنى

هاهن واقعت أمام باب كلاريدج .

- أوه .. مسيو وحيد هذه اللية أيضاً ..

- لا أحد يسأل عنى .

- مستحيل .. أما صديقتك هذه الليلة .

- هذه الليلة فقط .

- كل الليالى إذا شئت ..

يجب أن اتخذ قراراً ، أنا لم أمت .. مازلت محمد ناجى . سادعورها إلى

حساء البصل فى الهال .. سألنى معها اللين كله .. سامية تعرف أنى مشغول

فى عمل خطير .. عندما أعود إليها فى الصباح ستكون هى يقين أنى كنت أهد

لناتقلاب ..

- حاراك فى حساء البصل فى الهال

- أوه .. بكل مرور مسيو ..

إنها تجذبى من ذراعى .. لا تصدق أبنى رفضت ..

- لحظة واحدة ..

- هل عدل مسيو عن دعوتى

- لا .. ولكن انتظر برقية .

- سأسأل عنها ..

أنا مسجون .. أيه برقية انتظرها .. لو استدعونى فلن أعود .. بعدها أن

أهبط من الطائرة سيقدسون على .. وسأعيش فى سجن تمهال عليه القبايل ..

هل أصدق لسمامية .. أنا مريض .. ما أبى وطمى مع هذه المرأة .. إنها

رخيصه عشرة آلاف فراك .. محمد ناجى لا بصطاد قطط الرصيف ..

ليست هذه نهاية محمد ناجي ..

- بيير .. ها عندك رسائل لي ..

- لا مسيو ..

- ولا برفقيات ..

- لا مسيو

لا .. لا .. طبعاً لا .. للجميع لا يهتمون بي .. حتى سامية .. إنها عشيقة يوسف .. هذه المرأة التي تنتظرني عند الباب أشرف منها .. زوجتي .. هه مدام ناهي .. الساقطة .. وكم مرة قبلها يوسف .. احتواها بين ذراعيه .. قالت له أمك .. تركته يعذب بها بفقر زواج .. عندما أعود سأدقق في وجهه .. سأبحث عن ملامح يوسف ..

- مسيو .. وجد البرقية ..

- لا ..

- أكان فيها شيئاً هاماً ..

- لا أعرف ..

- أوه .. أنت مهموم .. سأجعلك تنسى كل شيء .. تاكسي .. تاكسي ..

الفصل الرابع

٥ أعجبك حساء البصل ..

- لذيذ ..

- ولكنك تركت نصفه .. اشر به قبل أن يبرد ..

- ممكنه .. إنها جائعة .. سأطلب لها شيئاً آخر تأكله ..

- لا أستطيع .. الويسكي اتعب معدتي .. هل تريدين شيئاً آخر ..

- لا .. مرسى

- ولكن الحساء لا يكفي ..

- أوه .. إنه يكفيني .. أين شريت الويسكي ..

- في كريزي هورس ..

- أنت واد شقي .. لم أكن أعرف أنك تحب رؤية الفتيات العاريت ..

- ابتسامتها حلوة .. إنها رقيقة صوتها حنون ، جميلة .. الآن فقط بدأت

أشعر بالراحة .. بعيداً عن سامية .. بعيداً عن مصر .. بعيداً عن كل شيء ..

الآن فقط أنا في باريس ..

- أوه .. مسيو بيتسم .. أخيراً رأيتك تبتسم ..

- لأنك معي ..

- أشعر بالسعادة ..

- أنت سعادتي ..

- أنت لطيف .. ما اسمك ..

- تلحى .. وانت .

- جاني ..

- جاني . انت حلوة وصغيرة ..

- اوه . انت اصغر منى بكثير ..

- لا داعى لهذا الكلام .. لست خجلاً من منى الكبير ..

- انا لا اكذب .. ليلك اصغر من قلبى ..

- انت لا تعرفين قلبى ..

- اعرفه .. اعرفه .. القلوب الصغيرة تذهب إلى كبرى هورس .. هل

اعترف لك بشيء ..

- ماذا ؟ ..

- لقد تراهنت مع صديقاتى انك رجل مهم .. لست مهماً إنها مسلية .

ترى ماذا رسمت لى خيالها عنى ..

- ما وراك انت ..

- مهرابا .. او .. باشا .. اليس كذلك .

- شيء قريب من هذا .

- الفرح ينتشر فى وجهها ..

- اكبر من باشا

- فى رأيى .. نعم ..

- إذن فانت امرء ..

- لا ..

- ملك سابق .

- لا .. انا كاتب .. اكبر كاتب فى الشرق ..

عينها تتسعان من الدهشة ، إنهم فى هذا البلد يحترمون الكتاب .. صوتها

يرتجف من الانفعال ..

- هذا شرف كبير لى ياسينى .

- صدقيى .. انا الذى تشرفت بك ..

- ٥٠ -

- اوه .. انى لا اصبرق نفسى .. ستحمدينى صديقاتى عندما ابروى لهن .

هل ستكتب عنى .

- ربما .

- لماذا ستكتب عن جاني .

- ملكة باريس ..

- ان يصدقك احد .

- ما اكتبه يصدقه الجميع

- هل تأخذنى معك إلى بلانك .. انى على استعداد لان افعل أى شيء ..

فقط .. خذنى معك . هذه هى فرصتى .. انا لا اقابل كل يوم رجلاً عظيماً

ملك ..

- سأخذك معى

- صحيح ..

- إنها فى قمة سعادتها وانفعالها .. لماذا لا اخذها معى .. سأفعل أى

شيء .. سأحبها .. سأزوجها .. سأصنع منها اعظم مانتيكان فى مصر ..

اعظم ممثلة .. سأرفعها .. انا قادر على ذلك ..

- سأفعل لك كل ما تطلبين .. هجعت على ثقلى ، والدموع فى عينيها ،

لا بد ان اتمالك نفسى حتى لا تطفر الدموع من عيني .

- ادفع الحساب .. هيا نذهب .

- إلى أين ..

- عندي يا حبيبى .. عندك اقتراح آخر .

- انا تحت امرك ..

- يا طفلى الشقى ..

ليكن ما يكون ، سأذهب معها أينما تذهب .. لا بد ان افعل شيئاً والا

جنت ، انا لم افقد القدرة على الحركة ، لست محبوساً ، سأتحرك .. انتهت

تلك الأيام التعيسة التى قضيتها فى السجن .. سجن عمرى .. سجن المأسى

الذى ذهب . سأقتحم المستقبل .. ستكون فى افعال ومعامرات لو غضبت

سامية سأطلقها .. لن يقف في طريقي شيء ..

أين يمضي بنا التاكسي في هذه الطرقات المربية ..

- أين نحن

- سأل ميشيل ..

- بيتك هنا ..

- سنصله بعد قليل ..

جسدنا البص يملأني رغبة ، جمالها ينمو في عيني ، إنها ليست امرأة عادية ، إنها شيء بلعر .. أميرة .. كونتيهيه . لو لم تكن .. فسأجلبها أميرة .. كونتيهيه ..

الشارع مهجور ، والبيت عتيق أسود .. السلم معتم .. السلم طويل .. أين أنا .. أهذه مصيدة .. كمين .. ما الذي سيأخذونه مني ؟ حياتي ، لو أخذوها فسيمعطونني شيئاً .. أنا أقوى رجل في العالم .. لا أحد يستطيع أن يأخذ مني شيئاً .. مئة سريعة هنا هي خير نهاية لي ..

- أنتظر .. حتى أفتح الباب ..

هذا السرير الكبير في الحجرة الضيقة ، هذه الرائحة النفذة .. رائحة خشب عفن .. ما الذي جاء بي إلى هنا ، في أيام الماضول لكن أذهب إلى أحد ، لم أظلم ملابس في بيت غريب لا أعرفه ، لم أتم على سرير غريب .. كانوا يأتون لي .. كان بيتي هو مملكتي ، هو مركز سلطاني ، لم أذهب إلى مملكة أحد .. إلى بيت أحد .. كنت أعاملهم كضيوف ، ول المرعد المحدث ينتهي كل شيء ، ويذهب .. يخرج من متعبات .. النوم في عيونهم ، الخمر في رؤوسهم يتمايلان ذليلات مرهقات لا أدري كيف يخرجن .. كيف يعرفن طريقتهن .. لم يكن يهمني هذا .. كنت أرقهن وأنا أجلس في بيتي أتمطى وأتصاب وأستريح ..

- عندي زحاجة بورتو .. سنشربها معاً ..

- ترى ما الذي سيحدث في اللحظة القادمة ..

- في بيتي .. أعرف من في الحجرات الأخرى .. الضخم .. توني .. أعرف

من قد يدخل علي .. أعرف .. أعرف .. الآن .. أنا لا أعرف شيئاً .. البورتو لنفيذ ، لا أريد أن أعرف شيئاً ..

- أه .. كل هذا الجمال .. لم أرمك في كريدزي هورس . كل هذا الجمال

لي .. وعدى .. لا أحد يعلم .. استطعت أخيراً أن أحصل على شيء .. هاهو

أمامي .. ملك عيني .. ملك يدي .. ملك أفكاسي ..

جسدنا الأبيض يعطيني .. أفكاسي لاهة .. أين الهواء .. أختنق .. لا ..

سأستطيع .. تنتظر لي في دهشة .. أصبري . العرق يتصبب من جسدي ..

أنا أغرق في بحار العرق ..

- ماذا بك يا حبيبي ..

- لا شيء ..

- أه .. يا طفلي المسكين .. أنتظر ..

- قفزت إلى أين ..

- ما هذا ..

- ببها ما ..

- ببها ما حريرية .. كم رجل ارتكأها ليل ..

- العرق يتصبب منك .. ارتديها حتى لا تصاب ببرد ..

جسدنا الأبيض يملأ الغرفة كالسارد .. يتصدائي .. إنها تقترب ..

تلمسني .. تقبلني .. لا فائدة .. ساموت . يارب .. ربي لا تغفلني .. في

عينيها خيبة أمل ..

- أنت متعب يا حبيبي ..

- ماذا أقول ..

- نعم ..

- لا أريد أن أتأم ..

- نعم .. سأطلقك في الصباح ..

- لا أريد أن أنام .. لا أريد أن أفتح عيني على الصباح ..

- م

وهل استيقظت حتى أنام .. أما متعب .. إلام للماضي كنت اتحمل التعب وكان عددي المكان الذي أستريح فيه .. الآن .. التعب يهجمني في كل لحظة من حياتي ولا أجد المكان الذي أستريح فيه .. أنا مطارد .. في الخارج يبعثون عني ..

- أوه .. لماذا لم تنم

لا تتكلمى .. بادلينى القليلات اشعلى النار في هذا الجسد الميت .. لا بد أن تشعلى فيه النار .. جسدها الأبيض يتلوى .. يتعذب .. ليته يتمزق .. شماعة في عيني .. قلبي يخفق خفقات غير عادية .. خفقات قاتلة .. يدق .. يوم .. يوم .. قلبي ينفجر .. عيد العروجات ينفس هذه الطريقة .. وجدوا جسده العاري في الجرسونية .. لا بد أن أهذا .. لا فائدة .. لا فائدة ..

- لا ترهق نفسك يا طفل .. إني معك إلى الأبد .. حاول أن تنام ..

في الماضي كانت قواي لا تخونني .. كنت واثقا من نفسي .. انظر في عيونهن بكبرياء .. لهجنى ناعمة .. مؤدبة .. أمرة .. أعصاب من حديد .. أعصاب ملغمة .. كم خسرت في الفار دون أن يهتز في رمشي .. أه .. كان عقلي كالآلة الحاسبة .. لا عواطف .. لا أخلاق .. لا ضعف .. كل شيء مرسوم مدروس .. أندفع وأحرق ما أريد .. أشوقك للساعة خامسة .. أشوقك بعد بكرة ..

أشوقك الساعة اثنين بالليل .. أنا الذي أحدد الموعد والمكان .. عيونهن تنخفض في نشوة .. صوتهن يهمن في نشوة .. أرقصون في غرور .. كانت لي أسنان وأنفاس وحسد .. كنت أعصرهن بالعواطف .. أعصر كل الناس بالعواطف .. ما أكثر العواطف التي أغدقت بها على الناس .. عواطف أخرجها من جيسي .. من محفظتي .. من ثيابي ملاسي .. من بين أصابع يدي كالحواري .. ولكني لا أخرج العواطف أبداً من قلبي .. ومع ذلك كنتوا يصدقون حبي .. يصدقون انفعالاتي .. أنت يامحمد قلبك كبير .. محمد ده راحل شهيم .. محمد رفيق وحساس .. محمد عاطفي .. البلهاء الأغبياء ..

يصدقون أي شيء .. لم احب أحداً .. لم اصديق أحداً .. حذعتهم جميعاً .. ما أسهل خداعهم .. يوسف .. أنت مستهلك يابسي في إيدك موش في أيد حد تاني .. اسمع تصيحني بكرة .. تنقروا راحر عظيم .. أنا عايزك متفكرش في حاجة غير مستقبلك البنت دي موش بتاعت حوار .. أنت اتحدثت غير تتجوز واحدة ماشية مع نص البلد .. ماتعرفش حكايتها مع أنور سامي .. أنور حكى لي بالتفصيل .. صرخ

- أنا موش مصدق الكلام ده ..

- ماتنقاش عيبط ..

- أنا يا حبه .. مشيت مع أنور .. مشيت مع البلد كله .. بأحبها .. وح اتجوزها ..

- ما أقدرش أقول أكثر من كده .. بس أنا محرج .. لازم ألوك ربي كنت أعرفها قبلك .. ما حصلش بيها حاجة .. بس موش بيسيبيها .. بيسيبي أنا .. قلت لها أنا موش عيل صغير قدها .. أنا خايف يايوسف تكون بتجري وراءك علشان تعيظني أنا .. دمعت عيني .. وأطرق رأسه وخرج ..

كنت مصمماً على الحصول عليها .. بأي وسيلة .. بالسفالة .. بالكذب .. بالغش .. سأحصل عليها

غيرت سياستي .. رسمت خطة جديدة .. ستكون بيني وبين سامية صلة سرية يجهلها يوسف .. ستظاهر بأني صديقها .. وأني اتصعها من أجل مستقبل يوسف .. سامية .. أقدر أعتمد عليك .. أرجوكي أولاً تسمى كل اللي قلت .. صحیح أنا كنت بأعازلك .. لكن ده موش دنسي .. دلوقت خلاص أنت بتحيي يوسف .. ويوسف بيحيك .. وأنا بأكلمك في حاجة لمصلحته .. بس توعدينني إنك ماتتوايلوش إني كلمتكم .. اسمعي ياسامية .. يوسف بيعرض نفسه لحاجات خطر عليه .. لازم تنقذه بسرعة .. اسمعي .. أنا رايني تيجي الشقة أحسن .. ح استأجرك الساعة خامسة بعد الظهر ..

لم تات .. وفي المساء جاء يوسف يتشاجر معي .. الكلب الوئي يشح في وجهي .. لحد لأصابع قدمي يتحدا .. كيف أخفأت الحساب .. أكات هذه

الغلطة اللطيفة هي بداية النهاية .. تحالف يوسف مع شهدي باشا ضدى ..
إلى أين وصلت .. وصلت إلى هذا السرير الكبير في هذه الحجرة الضيقة ..
أرتدى ميجامة حريرية تغطي صدرى العجوز ويملئني للترهلة .. جسد حائر
عاجز لا فائدة منه ساقان ضعيفتان .. طريقتان .. عقل زائغ مشمت ..
لولم أكن محمد ناجى ..

لولم أكن ذلك الرجل العظيم .. فاتن النساء .. محبوب القراء .. لولم
أكن ..

منذ خمس سنوات .. خمس سنوات فقط .. كنت أكبر الطلحونة الكبيرة ..
أطعن الناس .. أسحقهم .. أعصمهم في المبر والورق .. كنت خيـاز البشر ..
صانعهم .. الخبز الجيد من صنعى .. الخبز المحروق من صنعى .. هيه
سقطت من مكائى .. أصبحت مثل بقية الناس .. أرتدى نفس البيجاما التى
يرتدونها .. معدن بلا حراك .. تطحننى للطحونة ..
يوسف هناك يدير الطاحونة ..

كنت أقول لنفسى المفلتة وحدهم هم الذين تتأهبهم الهموم .. وكنت أتردد
الهموم .. أي هموم .. حتى هموم صبايا د أمى .. أمى اسمها نفيسة .. هذا
الجسد العارى النائم بجوارى اسمه جابى .. نفيسة .. جابى .. سباب
الشعرية .. باريس .. أه .. ما أعجب هذه الطاحونة التى تدور .. عربات
الرش تجرى وراءها وذيل الجلالية في استناننا .. هم زكى يصطاد القفط
والقربان ويأكلهم .. مخزن الكارو في الحوش بجوارنا .. البنات سنينة وأنا في
الحوش .. العريس والعروسة .. أمه ليدنى ملجم .. لم أنادها في حياتى
ماما .. لو سمعت ماما لما فهمت .. لو فهمت لصفقتنى على وجهى .. صالح ..
ونج شمال .. كنت أخاف منه .. امتهزت فرصة وقوعه على الأرض وضربته
بحجر .. مرق حاجبه .. صرخ والدم يسيل على عيني .. ولدت الدم .. ضربته
بالحجر في الجرح .. صرخ .. والدم يتسكب على البلاط .. ضربته في عينه
لافتأما .. وجريت .. جاعنى في مكتبى بجريدة الأيام .. ذليلاً .. خائفاً ..

يريد مساعدتى لأوتلف ابنه .. كنت حازلت أشعر بالكراهية نحوه ..
استقبلته لأنه ..

- حاضر يا صالح .. ح اعمل كل جهدى ..
- البركة فيك يا مساعدة الدية .. حاول عبثاً أن يرانى بعد ذلك .. أين هم
الآن .. أمه في القبر .. أبوه في القبر .. سنينة راقدة في غرفة مكسدة بالأولاد
والأحفاد .. صالح يرتفع شخذه في انتظار الصباح ليذهب إلى المقهى ويقرا
جريدة الأيام .. محمد ناجى ده صاحبى .. أعرفه من زمان .. لا أحد
يصدق .. وأنا هنا على هذا السرير .. في هذه الحجرة الضيقة .. لبر .. لبر .. مات
من تروح جديد .. عندما أموت سيكتبون الخبر في سطر أو سطرين .. مات
الكلب .. مات محمد ناجى ..

- خذ بالك من ثونى يا محمد .. ماذا فعلت بذلك الكلب .. لا أظن أنها
جذقت لحظة واحدة إنى سأعنتى به .. إنها دلال .. الوحيدة في هذا العالم
التي عرفتنى على حقيقى ..
- يتحيفننى يادلل ؟

- أحتاح ضغطك على بعض ..
- أنا عسى ما اهتميت إنى أحب أو أتحب .. لكن أنت يادلل ..
عايز حيك ..
قالت في برود

- عايز أقول لك يا حيك .. طيب .. يا حيك ..
نظرت إليها متوسلاً .. فقالت هازنة :
- إيه يا حبيبى .. عايز أقول لك .. يأموت في حيك .. حاضر .. على عيني
وراسى .. قالى والطلب رخيص .. يأموت في حيك ..
- دلال ..
- أبوه ياروحى ..
- أنت بتعذبننى ليه ..

- أنت الى بتعذبني .

- أنا

- عايريني اكسر قلبي ليه .. علشان واحد زيك .. بدمت كنت فاكرك انتك بتجيني صحيح .. يا محمد عيب .. الكلام ده تقوله لواحدة غیری .. عيلة صغيرة .. واللا واحدة من الستات المخفيل بتوقع .. أنا دلال يا محمد . عايجاك وحايك .. أنت شخص أداني .. مغرور .. عموك مافكرت في غير نفسك . أنت مدهش يا محمد .. سافل .. لكن مدهش .. أنا عايجاك بطريقتي .. الحب ده شيء كبير .. الحب الحقيقي موش زي حينا

- وماله حينا ؟

- يعني مانتش عارف .. حينا حبوب لحن الحمل .. علشان مانجيش اولاد .. حينا ويسكى نبيعه .. زي كده .. أهو ده حينا .. حينا سرور منكوش .. هدها .. كل ما أفكر في حينا .. أفكر في موصى معلقة في الحمام .. والدش مفتوح .. ده أعظم شيء وصل له حينا يا اكسلانس .. حينا كلام كذب في كذب اسمعه وأهزراسي . حينا أنت نايم وفرقة مزيكة بتلعب في مناجيك أهو ياش . وأنا نايمه جنك .. خايفه من نفسي .. هايظة أسبيك وموش قادرة .. عايزة أصلي لربنا وموش قادرة .. مين غيرك يفهمني .. ومين غيري يفهمك

- أنت ؟

- محمد . عيب .. مانتشتمش .

- طيب .

- لا .. موش طيب .. أنا بأقول لك الكلام اللي متفهمه .. أنا موش موظفة عندك في الحرير لوكال قللك أبيض لوكان عندك قلب .. لو كنت صحيح راحل كويس ومن بس .. كنت كلمتك بطريقة ثانية . لكن أنت مين . أنت أسفر محقوق عرفته في حياتي .. وعلشان أنا عارقه ده .. أنت بتحبني

أسفل مخلوق .. وإكس كنت أقوى مخلوق .. الآن . دهست السفالة لم أعد استطيع أن أفعل شيئاً . لا استطيع . لا استطيع .

أخر ما فعلت . كان توني .

- ح تعمل إيه في الكلب يا محمد واحدا مسافرين ؟

- ح أموته ..

- إيه ؟

- ح أموته ..

لم أعد أحتمل وجود ذلك الكلب بعد ، محيى سامية إلى البيت .. إنه ينظر إني أيفتح في رأسي مذياح لا يك من الكلام . يردد كل أغنيات دلال . وشتائمها .. وجنونها .. وحبا .

هذا الكلب عرفني أيام مجدى .. كان يأتي معنا إلى الاسكندرية في الصيف ، وإلى أسوان في الشتاء .. كنا نوقف أحسن أطباء البلد من نهمهم لأن أصيب بوعكة .. كانت أخباره وصوره في المجلات أهم من أخبار بعض الوزراء . أنا الذي صنفته .. جاءتني به دلال بعد شهر يوم وهي تحمله بين يديها .. كان صغيراً جداً . أصغر من القطه .. أبيض له عينان حائلتان .. يصوصو .. ويهز ذيله بهراة .. يلعبه بلسانه لم يلعب يد دلال .

- نسميه إيه يا محمد ؟

- توني

- اسمعني ؟

- اسم ضابط انجليزي صاحبي .. مات في العلمين ..

- صاحبك مايزعلش ؟

- بالعكس .. كان يبيب الكلاب ..

- أنا كنت عايزة اسميه طرزان ..

- أهو ده باله . إيه الاسم للسخيف ده ..

- طيب ما تزعلش .. ح اسميه توني ..

وحملته بين ذراعيها .. وقيلته .

- ثوبى تتفونى .. تون .. تون ..

- والله عال .. أنا ح اعير من الكلب ..

- ده حبيبي .. هوه اللي ح يفعل في

صدقت .. منذ ماتت وتوني حزين .. أحياناً يرفع عينيه وينظر إلى

متسائلاً .. وأهم .. إنه يسألني .. أين هي .. أين ذهبت .. وأشعر أنه

الوحيد الذى يفهمنى وأفهمه .. أحياناً أتوهم أن روحها تنمصت جسده ..

- ح تموته إراى يا محمد ؟

- ح اضربه بالرصاص ..

- مين اللي ح يموت ؟

- أنا ..

- اخلص عليك .. ما تسبب الحكاية دي للدكتور ..

ولكنها كانت تكتم فبرحها .. كانت تمنى أن تقتل الكلب بيدي .. لأنه كلب

دلال .. وكنت أريد أن أقتل الكلب بيدي .. لماذا .. لست أدرى .. أريد أن

أقضى على هذا الكابوس الذى يطن فى رأسى ..

ما الذى جعل هذا الكلب يعيش بعدما كل هذه السنوات .. لقد مضت

أيامه .. الدنيا تغيرت .. البلد ليست هي البلد .. والناس ليسوا هم الناس ..

وأنا لست أنا .. ما الذى يبقية .. أهاشاهد من الماضى على تعاستى .. لا أريد

أن أراه ..

سأرحمه .. سأقتله ..

- ح تمرته امتى يا محمد ؟

- بكرة الصبح ..

- ح يتالم ؟

- طبعا ..

- شوف بيبيس لنا إزاي .. زى ما يكون حاسس ..

كان تونى ينصت إلى أسئلة سامية وإجابتي .. كان راقداً على الأرض

بجسده الأبيض .. عيناه حائلتان .. الشبحوخة تلهت فى أعصابه ..

- موش ح يعرف أنه ح يموت .. إلا ساعة مايموت

- محمد .. أنا موش قادرة .. حرام ..

لم اتأثر بكلامها .. لم أكن أفكر فى شيء .. كل ما أريده هو أن أمسك

بالمسدس .. وأصوب .. وأطلق .. ويخترق الرصاص الجمجمة ..

ويصرخ .. ويموت فى الصباح .. قبل الإفطار .. أخرجت المسدس من الدرج ..

براون ست طلقت .. انهم لا يقتلون الكلاب بهذه الطريقة .. ولا بهذا

الرصاص .. ولكنى لا أريد استشارة أحد .. لا أريد أن أعرف كيف يقتلون

الكلاب .. على الأقل سأقتله كما يقتلون الناس .. وضعت ست رصاصات فى

الخزانة .. ووضعت المسدس فى جيبى ..

- ح تمرته طوقت يا محمد ؟

- أيوه ..

- أنا جليه معاك ..

إنها تريد رؤية الدم .. نسيت ثائرها بالأمس .. موش قادرة .. حرام ..

نسيت كل هذا .. تريد أن ترائنى أقتل .. وأريد أن ترائنى أقتل ..

- تونى ..

جأنى مسرعاً .. يهزئ به .. أبعدت عنه .. تحاشيت أن ألمسه .. جسده

الأبيض يملأ عيني .. جسده الأبيض كلنارد ينمو أمامى .. لو انتظرت لحظة

سأقتله ..

- تونى .. تعال هنا ..

جرى ودائى .. إلى الحديقة .. عند باب المطبخ .. وقف منصور الطباخ

فاتحاً فمه .. لا يصدق ما يراه .. وسليمان كاد يمتج .. عيابه ثائرتان ..

هممت :

- الكلب ده .. عيان .. لازم يموت ..

قال سليمان بصوت متحشرج :

- سيدهولى يا مسعدة العييه ..

- عشان تهوبله .. يموت فى عمره أحسن ..

رفع توبى ساقيه الاماميتين . ونبح .. ظن انى الاعيه .. احس ان هناك شيئاً عر عادى في البيت .. احتفال ما . قريت قوة المسند من راسه .. مهجم عليه يريد ان يشتطه بقمه .. صحبت يدى مسرعاً .. وصحت :

توى ..

وقف مستمراً ينظر إلى في غياه .. كانه يعتذر لانه لم يفهم اللعبة ..

هتف منصور

عكك يا سماعة البيه .

صحت

.. لا ..

كان جسده الابيض يملأ عيني .. اكاد ارى شعره الابيض .. شعرة شعرة .. عينا واسعتان .. حائلتان ، راسه ترتفع تشق الفضاء ..

صاحت سامية :

موته بقى .

ارتجفت يدى ، انزعجت :

توى ..

انتفض جسده الابيض . كانه بقرة سمينة .. ووقف امامي بلا حراك .. قربت المسند . واطلقت رصاصية .. دوت الرصاصية .. انفجر ثقب في راسه .. انبثقت الدماء .. صرخ .. ارتفع في الهواء .. عوى .. وسقط واقفاً .. حاول ان يرفع جسده . ولكن راسه انحدرت إلى اسفل . اطلقت رصاصية .. ارتفع في الهواء . ففزعته صغيرة . وهوى على الأرض .. سيقانه تتحرك .. يحاول ان ينهض .. إنه لا يريد ان يموت .. العجز .. القدر .. لماذا يقول الموت .. لم اقر على اطلاق الرصاصي .. هجمت عليه .. اركله بقدمي .. عرى .. فتح عييه .. عينا حائلتان .. تتلألآن .. تتساءلان في غياه .. ماهى اللعبة التى تلعبها .. وكنت راسه بحذاءى .. سقط على الأرض مازال صدره يعلو ويهبط .. انه ترمر الهواء وتستنشقه .. الحياة في جسده تشتت .. تنتفض عقه يتلوى .. ذيله يهتز .. ساقه الامامية ترتفع .. سيقوم من

جديد .. لوقام سيهجم على .. سيقلتنى .. صوت المسند ..

محمد .. كفاية ..

كنت اهجج عليها . خطرت لي ان اطلق الرصاص عليها . وعلى منصور

وسليمان .. اطلق الرصاص عليهم جميعاً .. هذا الرصاص لا يقتل .. إنه

لعية .. لا يقتل ..

هصت :

موش راضى يموت ..

مخلص .. عايز ايه اكثر من كده ..

موش راضى يموت

اصدر انثى طويلة .. ورفع ساقه الخلفية .. وتلوى .. وكاد يقوم .. ثم سقط من جديد .. إنه لا يموت .. لا يموت .. الدم انتشر على الأرض .. جسده الابيض يتحول إلى جسد رمادى .. مرتب .. جسده المارد ينكمش .. ولكنه يرتعش .. الحياة مازالت تدب فيه .. لو جاءه طبيب فريما شفاء .. يخرج الرصاصتين ويشفيه .. يجب ان يموت ..

موش راضى يموت ..

سمعت اصواتاً مبهمة ..

مخلص مات يا سماعة البيه . انهم يكذبون .. إنه لا يموت .. ارى رعشة خفيفة في جسده .. صدره يعلو .. اذناه تتحركان ..

مات ؟

ايه يا سماعة البيه ..

اذا هو الموت .. مازلت اراه يرتعش .. ينتفض .. كجسد جابى .. إنها ترمر الهواء وتستنشقه .

ولكنه مات ..

- بونجور ..

ما هذا الصوت ، ما هذا الوجه الجميل الذي يطل علّ ، من هذه المرأة الغريبة ..
أين أنا ..

- بونجور يا صغيري ..

أين سامية ، ما الذى حدث .. هذا السرير .. هذه الحجرة .. أه .. ليلة أمس .. لقد جئت إلى هنا .. أى حافلة ارتكبتها .. هذه جايي ، نعم اسمها جايي ، المرأة الرخيصة ، اصطادتنى بالأمس وجاءت بي إلى هنا ..
يا للبشاعة .. كيف اتخلص من هذه الويلة ..

- بونجور .. كم الساعة الآن ؟

- العاشرة ...

إنها تضحك ، لا شيء على يالها جسمى متعب .. لو يمر هذا اليوم بسلام .. لو يمر هذا اليوم بسلام ..

- تأخرت ..

- تأخرت على أى شيء يا صغيري

- يجب أن أعود إلى كلاريدج ..

- أوه

- تأخرت ..



- أنت خائف منها ..
- نعم ..
- اه يا صغيري ، انظر إلى وجهك .. هذا شيء مسهل .. وجه طفل لم يذاكر
دروسه .. يجب أن تكون شجاعاً .. ماذا ستقول لها ..
- لا أدري ..
- النوم مازال في عينيك .. لو كنت مكانك لنامت ..
- لا أستطيع ..
- اخترع لها كذبة كبيرة .. ها ... ها ..
- جايبي ..
- ماذا يا صغيري ..
- لا تضعكي ..
- اوه .. أنت خائف حقاً ..
- لا تسفري مني ..
- أنا لا أسخر منك .. ولكنك خائف ..
- جايبي .. كفى ..
- أضايقتك ...
- أنت لا تعلمين لماذا أنا خائف ؟
- لا أعبدك .. كيف يخاف رجل عظيم مثلك ..
- رجل عظيم ..
- الآن سأخذني معك إلى بلادك ،
- أنا ...
- نعم أنت ..
- أقلت لك هذا
- انسميت .
- لا لم اتس ولكن .
- ماذا يا حبيبي

- كذبت عليك .
- كذبت ..
- لا أستطيع أن أخلصك معي ..
- كنت أسخر مني ..
- لا ، لم أسخر منك .. فقط .. كنت .
- اه .. أنت لا تريدني ..
- جايبي .. جلي .. أنت لا تعلمين ..
- أعلم ماذا ..
- ماذا أقول لك .. أنا مثلك
- مثلي ..
- لا أستطيع أن أعود ..
- إلى زوجتك ..
- لا أستطيع أن أعود إلى بلادي ..
- كيف ؟
- وأنتك اني أستطيع أن أعود إلى زوجتي ..
- ما السبب ؟
- أنا مسكين .. رجل مسكين ..
- مسير نابي .. أتبكي ..
- نعم أبكي ..
- لماذا تبكي ..
- هذا هو كل ما بقي لي ..
- لاأني مسخرت منك .. أنا ..
- لا .. ليس هذا ..
- أرجوك .. لا تبكي يا صغيري .. لا أحتمل رؤيتك تبكي ..
- لم يبق لي شيء .. أنا مطرد من بلادي .. من عملي .. لا فائدة مني ..
- عجز لا قيمة له ..

- طربوك .. هذا فطليح ..

الدموع تنهمر من عيني .. ماذا جرى .. انى ابكى .. ابكى امامها .. ضاع كل شيء .. تبدد خيالها ذهبت احلامها تجردت امامها من كل شيء .. لم اعد مهرجا ولا باشا .. لست اميراً ولا ملكاً .. لست كاتباً عظيماً .. لست عاشقاً .. لست رجلاً .. فشلت امامها في كل شيء .. بقيت للدموع .. إنها تقبلني ، تمسح ببيدها على شعري ، تدلّني ، تنافيني بطفلها الصغير هل أستحق كل هذا ، لماذا لا تتركني اما شيء منفرد ، كريحه ، عجز .. الصداق يملأ رأسي ، الضباب الساخن في عيني .. انا مريض ..

- لم يا صغيري .. كفى .. كفى ..

استسلم لها كطفل رضيع تغسل وجهي بماء الكولونيا ، تمشط شعري .. تطلع البيجاما الحريريّة .. اعتذرك ايها البيجاما .. هذه اول مرة يتركك فيها جسد مصطلم ، خدعتك ، أنت تسخرين مني ، تقارنين بين جسدي واجساد الآخرين ، وأنت ايها السرير .. اعتذرك لقد شهدت إهانتي . لا أستطيع أن ارفع عيني وأنظر إلى شيء في هذه المجرة لا أستحق أن أستشوق هواها ، لا أستحق أن أعيش فيها .. لا فائدة من هذه الملابس التي تساعدني على ارتداؤها . القميص ، رباط العنق ، البنطلون .. هه .. كاني رجل حقيقي .. انا مصمم .. مريض . كيف أستطيع الخروج من هنا .. ساقاي لا يستعانني .. الأرض تميد تحت قدمي ..

- جابى ..

- ماذا يا صغيري ..

- أنا متعب ..

- لا ..

- سادى لاحضار طبيب

- مستحيل

- ولكك تشكو

- ٦٨ -

- ليس بي شيء .. يجب أن اذهب ..

- واتركك هكذا ..

- الطبيب لن يساعدني ..

- لا تياى يا صغيري ..

يجب ان امشي .. اواصل الصبر بهذا الجسد الذي لا يستطيع الحركة ... أحمل جسدي وأذهب .. امسى في طريقي إنها طيبة ، لم تعد تسخر مني ، في عينيها شعقة هائلة ، في عبيدها حزن صارخ .. ولكن ليس لي عينيها حب .

- اسف لاني أزعجتك ..

- لا تأسف على شيء يا حبيبي

- اسف لاني كذبت عليك .

- لم تكذب عليّ ، انا التي أخطأت .. ما كان يجب أن أذكرك ..

- لو عرفتني منذ خمس سنوات .. خمس سنوات فقط

- أنت حبيبي الآن .. وغداً .. وبعد سنة .. وبعد خمس سنوات ..

- تشفقين عليّ ..

- لا .. أحبك .

- ليتني أصدقك ..

- ليتني أصدق نفسي ..

لايد أن اعطياها نظريدها .. الجسما .. عشرة آلاف فرنك لا تكفي ..

ساعطياها عشرين أيضاً .. لا .. هذا المبلغ لن يعوضها عن تحملها لي .. لن

يحو من ذاكوتها يكاني ودلي ..

- مصيو .. ما هذا ..

- تقبل هذا المبلغ للتواضع ..

- ثلاثون ألف فرنك .. مصيو هذا كثير ..

- هذا قليل جداً ..

- لا .. أنت في حاجة إلى هذه النقود ..
- لا بد أن تأخذها .
- لن أأخذ منك شيئاً ..
- لا تزيدني من تعاستي ..
- ولكن عرفت الآن كل شيء . أنت بعيدة عن بلدك .. في حاجة إلى هذه النقود ..
- أنا في حاجة إلى أن تأخذني مني شيئاً ..
- سأأخذ ما اتفقنا عليه .. عشرة آلاف فرنك ..
- جابى . خذى النقود كلها .
- لا يمكنني أن أفعل هذا .. أنت لا تفهميني .
- وأنت لا تفهميني .. لو كانت هذه هي آخر نقود ممي ، فلن يريهني إلا أن أعطيه لك ..
- مسيو .. كلامك يزعجني ..
- إنه راحتي الوحيدة ..
- أنت تخيفني .. ماذا تريد أن تفعل بنفسك ..
- لماذا تسألين ..
- أخشى أن تكون أفكارك .. أوه .. مستحيل ..
- تخشين أن أنتهر ..
- مسيو ..
- لا .. لن أفعل هذا .. خذى النقود ..
- سأأخذها .. ولكنني سأحتفظ بها .. ربما احتجت لها يوماً ما ..
- هل تسمحين لي أن أقبلك . لا .. أريد أن أقبلك يدك .. أنت .. لا أجد وصفاً لك يا جابى
- أنا حزينة من أجلك
- هه اليس هذا غريباً

- ما هو ..
- أنت الوحيدة في العالم التي تشعر بالحزن من أجل لا .. لا تنتظري إلى هكذا .. لن أبكي .. لن أعود إلى الكاء . اتعرفين . هذه هي أول مرة أبكي فيها .. أمامك .. لو أمام أي شخص آخر .. لوحتي أمام نفسي .. إني أعلم الآن ما سأفعله ..
- ماذا ستفعل ..
- هه .. هل قلت لك سأفعل شيئاً ..
- هذا ما تقوله الآن ..
- أخطأت .. لن أفعل شيئاً .. لن أفعل شيئاً على الإطلاق ..
- هل أنت بخير الآن ..
- نعم ... نعم ... أوريولار ..
- سأذهب معك ..
- لا .. أريد أن أذهب وحدي ..
- واثق أنك تستطيع ..
- جابى .. لا تسيئي الظن بي إلى هذا الحد .. نعم أستطيع أن أعود وحدي ..
- اتعرف ما الذي أفكر فيه ..
- ماذا ..
- سأحصل من أجلك ..
- أنت تصلين ..
- كل يوم أمد ..
- هذا جميل .. أذكرك في صلاتك دائماً ..
- سأفعل ..
- الآن وجهت وصفك الذي كنت أبحث عنه .. أنت قديسة .. قديسة باريس ..

- أوه .. مسيو ..
- صدقيني .. أنت قديسي .. أوريغوار ..
- سارك امام باب كلاريدج .. لا تخف لن نزعك إذا رأيتنا معك ..
- جايي ...
- ٧ نقل شيئاً أوريغوار ..
- أوريغوار ..

كيف صعدت هذا السلم بالامس .. إني لا أكاد اقرب على اللهبوط عليه ..
 أين شجاعتي يا محمد أين شطارتك ومكرك .. أين ذكائك يا محمد .. لا تنظر
 إلى أسفل حتى لا يصيبك الدور ، تجاهل أنك تهبط ، أرفع رأسك ولعبك كائنك
 صاعد .. شد قامتك ، لا تسال كم طابق تهبط .. لا تسال .. صوت يرينو
 يخرج من هذه الشقة ، انغام حزينة جنائزية ، البيلتويدق في قلبي يتلعه
 السلم مظلم .. لا .. ميناي مظلمتان .. لا تقف يا محمد .. الهث .. ثاوه ..
 ولكن حرك قدمك .. هذا الطفل الواقف عند الباب عيناه تشبه عيون القطط ..
 ينظر إلى في خبث نظراته خطيرة ، أنه يرقب حركاتي ، يسفر مني يعرف أنني
 هجوز .. أه .. أرفع رأسك .. الطفل يسرع ورأني .. يفلز درجات السلم
 القفز .. تهبط .. التفت إلى .. عيناه جانتان ، نعم يابني أنا لا أستطيع أن أهبط
 مصرعاً مثلك .. أنت أظفر مني .. جري وأخلفني .. تشجع يا محمد .. هيا
 يا بطل .. كلها درجاتين وتصل إلى النهاية .. هذا البياض للعين ، أنه ينفق
 أنفاس .. أه ..

هذا عمل مجيد .. هذا عمل مجيد .. استطعت أن أهبط السلم ..
 لم يبق أمامي سوى الشارع .. أنه ليس شارعاً واحداً .. شوارع كثيرة ..
 بيني وبين الشانزليزية عمر طويل ، أجيال ، عندما أصل إلى هناك ، أدخل
 الكلاريدج ، أدخل في وقار ، لن أخطب أحد ساركب المصعد وأذهب إلى
 حجرتي وأرتقي على السرير ، وأمرض .. لن ادع لسمامية الفرصة لأزعجني
 لن تجد من يصرخ فيه .. ستجد لأمها كومة مغطاة .. جسداً مهشماً ...
 جثة .. يغارزها الموت .. سأتتركها تتكلم وتتكلم وأغمض عيني ، وأصم الذنبي ..

فلتتكلّم كما تشاء .. فلتتنشط كما تشاء .. ستعود إليها حيوتها وصحتها ..
 ستاقرن بين غيبائها وغيغوثي .. لا يهمني . لا فائدة من مواصلة هذه
 اللعبة .. لم أستطع أن اتحداها .. أعمل ما تشاءين وأتركيني استريح .. فقط
 استريح ..

الشارع طول بلا نهاية .. الضوء ساطع يبهو عيني ، الزحام شديد ،
 للفجة عالية ، ليس هذا عالمي ، إنهم يمرون بي سريعين ، حركاتي البطيئة
 تعرقل حركتهم . أكتفهم تضرب كتلي .. عيونهم تنظر إلى شذرا .. انذهب إلى
 سريرك أدخل الفصحى ، ليس لك مكان هنا بينما .. لا يمكنني أن أواصل
 السير .. سامع طبع للخطوة القادمة .. الشارع يدور ، والناس يدورون ..
 تحمل يا محمد .. لا تستسلم هكذا .. لا تسقط على الأرض وسط الناس ..
 لن تستريح على هذا الأسفلت .. بعد ساعة واحدة ستكون في السرير .. ساعة
 واحدة .. لقد تحملت كل هذه السنوات .. ما بالك تنهار في الساعة الأخيرة ..
 سيمر هذا العذاب .. وسنستريح .. سرير مريح في حجرة مريحة ، الستائر
 مسددة على النوافذ .. لا شيء يفلتك .. ستحقق أملاك .. ستحققه ..
 سنستريح ..

تحمل يا محمد .. يارب .. يارب لا تضلني ، أنا لا أضحك عليك يا ربي ،
 سأتذكرك دائماً . لن أنسى لك جميلك .. لمست هذه ساعة ضيق الجأ فيها إليك
 ثم انصاع .. أنا هاتك إليك .. لا حيلة لي بفرك .. لا ملجأ لي سواه .. أنا عذوك
 المسكين .. سأكفر عن ذنوبي . سأمرغ وجهي في ثواب عثيتك .. أنت العلي
 القدير على كل شيء .. أنت الغفور الرحيم .. سامسلي .. سامسوم .. نورك
 يملأني .. أمنت بك يا إلهي .. أمنت بك ، اعترف أنني نسيتك .. أصابني
 الغرور فلم أعد أفكر ، يارب لا تقسو علي .. هانذا أدرك . لا أطلب منك
 شيئاً .. لا أريد شيئاً .. كل ما أريده هو الراحة كي أعيدك . صدقني
 يارب ..

تاكس .. هذا التاكس أرسلته لي ياربي .. هذه معجزتك .. لولاهت هنا ..
 - كلاريدج .. الشانزليزية من فضلك ..

سأبحث عن مصحف وأضعه تحت وسادتي .. سأفصل وأقرأ القرآن .. وسأقنع سامية بأن تصلي .. أه لورضيت .. لا ياربي .. لا أريد لها الإيمان من أجل .. أريد لها الإيمان من أجلك .. ومن أجلها هي .. النشاط يمشي الشوارع .. إنهم لا يدرون أي نعمة هم فيها .. هذا الرجل الذي يمشي مسرعاً وقد يده حافية جلدية رجل أعمال ، أيها الاحقر إلى أين أنت ذاهب ، لتعقد صفقة ، لتكسب مليون فريك .. أه لو تعرف .. لا فائدة لو كنت تعرف لقننت بحقيقتك بما فيها من أوراق هامة ، ما قيمة الصفقات ، ما قيمة ملايين الفريكات ، النهاية تنتظر .. تنتظركم جميعاً أيها الناس .. أه لو عرفتم .. لفرتم من الشوارع .. لعدتم إلى بيوتكم .. لا أمل .. لا أمل .. النهاية تقترب .. والموت يدب حشياً نحوكم .. كل خطوة نحو الحياة هي الخطوة نحو الموت .. هذا الصائق مزدهر بالحوية والعافية .. يسابق السيارات ويقطم الطريق ، ترى كيف قضى ليلة الأمس ، كان يسكر ويعربد ولكنه يفتق في الصباح متفتحاً بالشباب .. سيأتي لك يوم .. راحت أيامي ، يجب أن يتغير كل شيء في حياتي .. الهذوء .. للسكينة .. الراحة التامة .. لا انفعالات .. لا أزمات .. بائع الصحف يلوح بصحف الصباح .. هذه الصحف ليست لي يابني .. إنها للمخدوعين .. للذين يعيشون .. للذين تسري الدماء في عروقهم .. للذين يصدقون تلك الكذبة البشيمة .. الحياة .. يوماً ما كنت أصنع الصحف ، كنت مصحفاً مشهوراً .. هه أيام كالعلم .. لا أريد أن أذكر شيئاً .. لا تهمني أخبار الصحف .. فرنسا تغزو مصر .. مصر تغزو فرنسا .. سيان عندي .. لن أأخذ معي شيئاً إلى القبر .. أريد السلامة .. كل ما أريده هو السلامة .. رحمة الله .. الفاه في سلام .. لذهب إليه في سلام .. أرحمني يارب ..

- كلاريدج .. مسير ..

وصلت

ها هو الشانزليزيه ، لا أكاد أرى شيئاً .. كآتي مقعش العينين .. ولكني أعرف كل ما يدور حولي .. أذا عثر صفاً من السيارات ، نصفها يتجه نحو

الاتوال ، ونصفها يتجه نحو الكونكوردي ، حركة لا معنى لها ، فانات رانحات غدايات يشترين ويشترين .. حتى يأتي يوم لا يستطيعن فيه الشراء ، شمار يغارلون الينات ، يغارلون ويغارلون ، حتى يأتي يوم لا يستطيعون فيه الغزل ، لقدام تدب على الطريق حتى يصيبها النعيب ، سيارات تحرى حتى يأكلها الصدا ..

الوداع يا شانزليزيه .. الوداع .. سأدخل الآن كلاريدج .. ولا أدري متى سأخرج لك من جديد ..

- يونهور مسير ..

- يونهور ..

- الدماء تنتظر في البهر .. إنها عنزعة يا سيدي ..

- أصدق بي إلى حجرتي ..

- والدماء يا سيدي ..

- لا نقل لها شيئاً .. انتظر حتى أصدق ..

- حمناً يا سيدي ..

- لم تبق إلا لفقات وأستريح ..

- لحظت .. لحظت ..

هذا المشي الطويل ليس له نهاية لا أجد يراني وأنا أستند إلى الجدار واتمسس طريقي إلى حجرتي .. هناك الصجرة .. في آخر المشي ، من يحسني إليها .. ما هذا الوجه الغريب في المرأة .. أهذا وجهي .. وجه ميت .. مستون علماً من أجل هذا الوجه .. أهى دعابة ، أعيش ستين عاماً لأصل إلى هذا اللعنة .. اغفر لي يارب .. لم أقصد أن أكفر بنعمتك .. لاشك أن لك حكمتك التي نجعلها .. لا اعتراض .. اللهم لا اعتراض .. أنا راض بمشيئتك ..

أفتح هذا الباب وأستريح .. لا بد أن أخلع ملابس أولاً .. أخلع الملابس التي صاغتني جلبي على لرداتها ، أخلع مظهر الرجولة .. واكتشف عن هذا الجسد الملهان .. وأستريح ..

اه .. اه ..

كيف استريح

ما هي تفتح الباب .. وجهها تائر .. أحمر .. غاضب .. جميل ..

إيه ده يا محمد .. انت اتحننت ..

لن أجيب .. سأغضب عيني ، وأصم أذني .. إنها غير موجودة ..

رد عليه .. كنت فين ..

تقترب مني كرهش مقترس .. لا أصلح للاقتراس .. أنا جيفة تلتفد

الروحوش ..

سأكت ليه ..

أصرخ مألشت .. ألقه الدنيا زأزلي الأرض .. لن أجيب ..

والله عال .. أنا لازم أعرف انت كنت فين .. وأصدقك إيه من ده .. أنت

ح تتكلم والا لا ..

هجمت على تهزني ..

سامية ..

انطلق .. قول .. انت فاكركي ح أسكت على كده .. أنا واحدة مستحلال

على إيه .. مضيفة شباهي معاليه .. هلشان تسييني لوحدي في بلد غريبة ؟

عيب يا سامية ..

لا موش عيب .. أنت لازم تفهم كويس إنني مستحيل أعيش للعيشة

دي .. أنا نرجع مصر لولت حالا .. وترجع معانا وجزمتي على رقبته ..

يا تميميني ونطلق ..

حرام عليك يا سامية .. أنا بأموت ..

أشعمني بتموت دلوقت .. تقدر تقوللي كنت فين حضرتك الليلة اللي

فاتت ..

كنت مع أكرم ..

كذاب .. أنا لسه مكلماه في التليفون قبل مايسافر .. قال لي إنك سبت

الساعة واحدة ..

بعدين يا حبيبتي نتكلم .. أنا نعيمان ..

لا .. نتكلم دلوقت لازم أعرف كنت فين ..

أرخصيتي .. أنا موش مستعمل أكثر من كده ..

ألي بيات برة .. يستعمل كل اللي يجراه ..

علية تموتيني ..

إيه حكاية الموت ألي بتهددني بيه ده .. ما تموت في سنين داهية ..

والا عايز تموتني معاك ..

الله يسامحك ..

عامل مسكين .. غلبان .. لازم تعرف نفس على حقيقتك .. أبوه أنت

مسكين وغلبان .. ولأزم أحمد ربنا إنك لقيت واحدة مغفلة زي قرشي بيك ..

كنت فين حضرتك اللي فاتت ..

أنا قلت لك يا سامية ..

كنت باقاهل نفس في السر ..

ليه .. عايز تعمل مؤامرة .. تفكر تقدر تعمل حاجة .. أنت قادر تكلم

نفسك ..

لك حق .. خلاص مايفش فائدة ..

أنا مسافرين بكرة ..

حاضر .. بس اعمل معروف سيبيني استريح ..

أنا سيبالك الأوضة .. وخارجة ..

رايحة فين ..

رايحة مطرح ما أنا رايحه ..

الفصل السادس

.. سيداتي سادتي نحن بطير الآن فوق ميناء الاسكندرية ، ترونها عن
شمالكم .. الطائرة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ، سنصل مطار القاهرة بعد
عشرين دقيقة ، الجو هناك معتدل والسماء صافية .. شكراً ..
اسكندرية أهى يا محمد ..

- أبوه ..
- موش عايز تبيع .
- شفتها من الطائرة كثير .. صحى شريف .
- أنا شايقة نور الكورنيش .. ياه .. ده طويل قوى ..
- صحى شريف ..
- ياترى التفراف بتاعه وصل
- صحى شريف ..
- طوب يا محمد .

لماذا تسألين عن التفراف ، لماذا أنت قلقة على وصوله ، أنا أعلم ما يدور
في رأسك .. أنت تسألين عن يوسف ، ترى هل أرسلت له أنت أيضاً لئلا يتظرك ،
أم أنت واثقة أنه سيجيء إذا وصله التفراف الذى أرسلته أفرا ما في قلبك
يا سامية ..
أعرف .. أعرف ..

أنت مازلت تحببيه ، تاريخ طويل بينكما .. أنا عائدة من أجلي ، لقد



اعتذرت لى ألف مرة عن كلامك القاسى .. لئن أصابحك .. إني أعرف ..
أعرف فى لحظة واحدة تكشفك لى حقيقتك .. فى لحظة واحدة فضحت
نفسك .. صارحتنى بما تشعرون به نوحى .. عيان .. اتفلق .. أنت ناسى أنك
عجرت .. متجوزاك على إيه بدى أقدم .. مستحملك على إيه .. مضيقه
شبابي معاك ليه .. احنا نرجع مصر وجرمتى على رايك .. نعود إلى مصر
لتقابل يوسف لتخونينى مع يوسف .

إنى أعرف .. أعرف ..

يوماً ما سأضيقك معه .. ساواك بين ذراعيه .. إنى أعرف .. أعرف ..
أعرف .. لقد رايت هذا المشهد .. مازلت أراه .. عندما دخل شهيدى باشا
علينا .. كانت ثريا بين ذراعى تركدى قميص الترم .. كنا فى حجرة النوم .. من
حسن حظى أنى لم أكن قد خلعت ملابسى .. كيف لى أن أتوقع لته سهي ..
كنا واثقين أنه فى الاسكندرية .. والخدم الملاحين لم ينيهونا .. تركوا البيت
لنا ..

- أخرج بره يا كلب ..

تسمع لى يا سعادة الباشا ..

لتنها لى ذلة وذعر .. فقاطعنى صارخاً ..

- ولا كلمة .. بأقول لك أخرج بره يا كلب ..

- حاضر يا أقدام ..

خرجت

الدعوى فى عيني .. كنت أفضل أن يصنعنى عزى وجهى .. يطلق على
الرصاص .. ولا يطردنى كخادم .. محتقراً لشأنى .. أنا مجرد كلب غير
مغروب فى البيت ..

أياك أن كل شيء قد انتهى .. الكلب الذى طرده من البيت .. سيطرده غداً
من الأيام .. عندما وصلت إلى الشارع بدأت الفكر بسرعة .. أين أجد عمل
الجديد أى وزير اتصل به .. أى سياسى أعتمد عليه .. هل أذهب إلى خصومى
لأبد أن أدير موقفى بسرعة ..

لم أستطع التفكير .. فافترغت زجاجة ويسكى فى جوفى ونعت .. كانت
أعصابى تتحمل فى تلك الأيام .. استيقظت فى الصباح والصداق يطن فى
راسى .. حاولت أن أفكر من جديد .. ففشلت أرجأت التفكير .. ولم أذهب
للجريدة وشغلتنى نفسى بمعالجة الصداق ..

- شهيدى باشا على التليفون طالب سعادتك ..

جريت إلى التليفون وأنا اتحسس راسى .. لا أمل لى .. سيقتضى

بالشئكم .. ويعلمنى بالطرد ..

- لى ..

صباح الخير يا محمد ..

- صباح الخير يا سعادة الباشا

ملاذ وراك .. لما يضاطبنى بهذه اللهجة الناعمة .. تلحمت .. ارتبكت ..
أصبحت غيباً .. فقلت قدرتى على الكلام ..

- انت عيان يا محمد ..

- لا يا باشا ..

- طيب ما تروح .. مسمتى إيه ..

- ح أكون هناك فى عشر دقائق ..

لم يذكر شيئاً عن الأسى .. كأنه لم يضبطنى فى حجرة نوم زوجته .. كأنه لم
يحدث شيء على الإطلاق ..

أيمالمنى حقيقة ككلب .. لا يريد أن يقارن بينى وبينه .. لا يريد أن يشعر
بخيرة منى .. لهومجنون أم ماذا ..

ذهبت إلى الأيام وأنا أرتجف .. لا أكاد أصدق أنى ذاهب إليها لا أكاد
أصدق أن رشوان الباب يفتح لى باب العربة ويرفع يده بالتحية .. لا أكاد
أصدق أنى صاعد السلم .. أنى أدخل جبرتى .. أجلس إلى مكتبى .. أدير
العمل ..

فجربس التليفون .. وسمعت صوتها .. ثريا .. شعرت بسخوة فى راسى ..

- أنت لفين يا محمد ..

همست مذعوراً

- يتكلمني منين ..

- من البيت .

الجم لسانى ، ماذا أقول لها خيل إلى أن شهدت يا شأ ينصت إلى حديثنا ..

سيحصلنا مرة أخرى ..

- الو .. محمد .

- أيوه ..

- فيه حد عندك ..

- لا ..

- أمال موش عايز لتكلم ليه .

- ح أقول إيه بعد اللي حصل

- موش تسأل عني ..

- كنت ح أصال ..

- لا .. أنت خلقت .. الفرض كان عمل لي حاجة .. ماكنتش ح تسأل عني ..

- أبدا يا حبيبتي . إزاي ..

- اخص عليك ..

- وبعدين يا لثريا .. ح نزل مع بعض .. موش كفاية اللي احنا فيه ..

- الفرض كان موتتي

- هوه عمل إيه ..

- المرض كان طلقني .

- إيه اللي حصل ..

- بشال بعد إيه ..

- يا حبيبتي أنا كنت عايز أتأكد أنه خرج من البيت .. كنت مستتني .

- على العموم أنا عمري ما كنت انتظر منك شغ كده .

- مانزعلش يا حبيبتي ..

- أنا موش زعلانة

- هوه إيه اللي حصل ..

- ولا حاجة ..

- صحيح إيه اللي حصل ..

- يا قول لك ولا حاجة ..

- ما قلش حاجة ..

- ضحك .

- موش معقول ..

- والله ضحك وهو بيكز على أسنانه .. الرجل ده غريب .. أعصابه

- حديد .. وبعدين ..

- وسكنت ... كأنها تذكرت شيئاً ..

- وبعدين إيه ..

- كان قلبي يذق يعنف ..

- وبعدين سألتني .. الحكاية دي من امتي ..

- هيه ..

- ح أقول إيه .. زعلت فيه .. قلت له حكاية إيه .. محمد ده زي أخويا ..

- وكنت باشمكتي له منك ..

- هيه ..

- هز رأسه .. طبعاً مصدقش .. وقال .. بكرة تتخرجي على الكلب ده ..

- قصده إيه ..

- موش عارفة ..

- الآن .. أعرف .. أعرف .. أصبحت فرجة .. انتصت يا شهدي .. وأنا

- لا أمك إلا أن أعود إليك .. محملاً بالهدايا لك ..

- أعرف . أعرف .. انتصت يا يوسف .. وأنا لا أمك إلا أن أعود لأقدم لك

- حبيبته .. لأقدم لك سامية .. زوجتي ..

- مهزلة ..

- شريف بيكلمك .. موش تبيس له .

- عاين ايه يا حبيبى ..
- فى نور .. تحت ..
- ايوه .. يا حبيبى ..
- يتاح ايه النور ده يا بابا ..
- دى بلاد ..
- بلاد ايه ..
- بلاد نفس عايشين فيها
- ومولعين النور
- ايوه ..
- بيعملوا ايه ..
- فى بيتهم ..
- بيعصوا علينا ..
- مين عارف ..
- هم بيعصوا علينا .. وشايفين الطيارة ..
- كده ..
- واحنا موش شايفينهم ..
- لا .. موش شايفينهم ..
- احنا شايفين النور بس ..
- ايوه ..
- ااه .. للنور مشى .. النور راح ..
- بس من الشباك .. دلوقت تشوف نور ثانى ..
- فين ..
- دلوقت تشوفه ..
- ما قيش نور ..
- بس .. دلوقت تشوفه .. بس خد بالك ..

يجب ان ترى النور يا بنى .. يجب ان تراه النور الذى لن يراه ابيك ..

- يوسف يا جهنى .. انت باين عليك موش شايف .. موش واخد بالك ..
- من ايه ..
- دى حكاية دقيقة وحساسة موش عارف اشرحها لك ايزاي .. انت عارف
- اتنى انا اللي قدمتك لشهدى باشا .. وانا اللي اقتنعت ببك .. يمكن ما تعرفش
- لكن شهدى باشا زعل منى يوم ما بعتك تعمل الحديث معاه .. افتكرت ولد
- صغير .. ما كانش سمع عنك .. ولا قرالك حلحة .. المهم .. اهو دلوقت اقتنع
- بانك كويس .. لكن انت عارف هوه هانز ايه .. عارف ..
- عاين ايه ..
- عاين يستعملك سلاح ضدى
- مستحيل ..
- كان وجهه اصفر كالليمونة .. خيل لى انه سيجرى من املسى .. وينطلق
- إلى شهدى باشا ليقتله ..
- لا مستحيل .. ولا حاجة .. انت لسه صغير .. ومعندكش خبرة ..
- الحكاية ببساطة .. انت موش غريب .. هوه متصور ان فيه علاقة بينى وبين
- الدام .. ما تستغربش .. ولاد الحرام فهموه كده .. وده الى مظليه هانز
- يضليقتى باي طريقة ..
- وانا اية ندرى فى الحكاية دى ..
- شهدى باشا راجل واعى .. ممكن يحاول يستدركك علشان يعرف منك
- الخيارى .. ممكن يحاول انه يسيىء العلاقة بينى وبينك .. علشان يخليك
- ضدى .. ويخلينى ضدك .. ويقدر يسيطر علينا احنا الاتنين .. احنا صنفين
- أحرار .. بتخدم مهنتنا .. واظن موش من المصلحة اننا نبقى ضد بعض ..
- موش كده ..

قال فى مجلس المؤمن بشىء مقدس ..

- انت ما تعرفش يا سمك ناسى .. انا تلميك .. انت اللي علمتى .. وانت
- صاحب الفضل على .. موش ممكن افكر انى ازعك فى يوم من الايام .. دى

موش أخلاقى .. أنا سبب الصحافة .. لموت قبل ما تحصل متى حاجة تزكك .

لكك لم تعزل الصحافة يا يوسف ، لم تمت يا يوسف .. اندفعوا تتحدانى . خدعتنى ابتسامته الخجولة .. خدعتنى صوتك الحار البرى .. خدعتنى مظهرك الحار البرى .. عرفت سرى وانقلبت على .. ورضيت بلى تكون الملاح الذى يشهره عدوى فى وجهى ..

- بابا .. النور امة .. تمت أضواء النور .. اللوحة تعلن .. شد حزامك .. ممنوع التدخين ها هى المضيئة تعلن التبا ..

- سيداتى وساداتى .. بعد لحظات سنهبط فى مطار القاهرة .. أرجو أن نشدوا الحزام ، وأن نتمتعوا عن التدخين حتى تغف محركات الطائرة .. الوقت المحلى فى القاهرة الحادية عشرة وسبع دقائق مساء ، ودرجة الحرارة ستة وعشرون سنتيجراد ، والسماء صافية .. أرجو أن تكونوا قد استمتعتم برحلة طيبة ، ونأمل أن نراكم على طائراتنا فى رحلتنا القادمة .. وتقبلوا تحيات كابتن فان دوون وملاحى .. شكراً .. رحلات قادمة ، هه ، لا اظن أن هناك رحلات قادمة لى .. لا اظن أنى سراك ابتها للمضيئة مرة أخرى .. مالى أتتبع كلماتها فى غياه ، شيء ثقيل يرتطم بقلبى ..

- مالك يا محمد ..

- ولا حاجة ..

- احنا وصلنا ..

- أبوه يا حبيبتى ..

- يا ترى فيه حد مستنينا ..

- ح نعمل بيهم إيه ..

- أنا خايفة من الجمر ك .. معايا حاجات كثير ..

- ما تخافيش ..

الجمر ك .. إنها تكذب .. يوسف هو الذى تسأل عنه .. لنا حقون ، أحق ، مغفل ، ما الذى جاء بى إلى هنا ، لو استطعت أن أذهب ، أعود من

حيث أتيت ، ما زالت عندى فرصة .. لا أميط من الطائرة .. نعم .. عندى فرصة .. لموت فى الطائرة .. تتحطم أثناء هبوطها .. أخشى فيها .. ليتنى لم أعمل فى الصحافة ، ولا أى شيء آخر .. ليتنى كنت مثل ابنى .. كفاءة الأزهر .. فكان الخردوات .. والقيز .. قات الأران .. محمد ابحك أصبح محمد ناجى .. لقد ابتلعت لغة كبيرة من الحياة .. وفعت فى خلقى .. كان يجب أن أكون أكثر تواضعاً ..

- باللا يا محمد ..

- بس خدى بالك من شريف .. غطيه كويس ..

من هؤلاء القادمون فى الطلام .. الهواه يصدعنى ولكه لا يسعفى لا أكاد أستشقه ، إنهم يقتربون بسرعة ، يفيل إلى انهم من الأيام .. النور وراهم يعنى .. سلمية تنظر إليهم ..

- دول جالين لنا يا حبيبتى ..

- باين كده ..

- معج ..

- موش شايفه كويس ..

صوتها يرتجف ، لايد أنها راته . اه لو كان بينهم ، إنه ان يأتى إلا من أجلها .. أين وجه يوسف فى هذا الظلام .. لايد أنه بينهم .. جاء ليأخذها .. ما هو .. ما هو يوسف عبد الحميد السويلى .. أنه يتقدم منى .. لا ، إنه يتقدم نحو سلمية .. يتقدم نحو حيه .. أقسم أنه سيبتسم ، أقسم أنها سبتسم ..

ها هو يبتسم

ها هى تبتسم ..

يده فى يدها ، عيناه تحدقان فى عينيها ، عيناه تحدقان فى عينيها ، لا تحول عينيها عن عينيها . ترى هل ضغط على يدها .. أنا مغفل حتى أسأل هذا السؤال .. نعم .. لايد أنه ضغط على يدها .. أحسست بقوة .. أحسست

برغبته .. صدري بارد .. بارد كالثلج .. قلبى محاط بالثلج .. جبهتى
ملتحة .. كانى فى ثلاجة مشرحة .

- أهلاً .. ازيك يا يوسف .. ليه كلفت خاطرك .. لا .. لا .. تعالى لما
ابوسك .. انت واحشنى خالص ..

يداه تحيطان بي ، يعانقنى ، يقبلنى ، صدري ساخن ، ساخن كجهم ،
قلبي محاط بالنار .. جبهتى ملتجة .. احترق .. ما هذا الزحام .. كل هؤلاء
جاءوا من اجلى .. ام جاؤا من اجل يوسف ..

جاءوا لانه جاء ..

عندما اموت متعيش سامية من جديد .. كل هؤلاء كانوا موافقين على ،
ياتمرون بامرى ..

- البلد نورث ..

- ازيك يا يوسف ..

- موش عارفين نعمل حاجة من غيرك ..

- البركة فيك ..

- صحيح .. انا ملغوم قوى ..

- ده انا اللي محتاج لك ..

- يا خير .. انت استاذى .. بس الامر ..

- هالز اقع اكلهم معاك ..

- امضى ..

- ليجي تتفدى معانا بكر ..

- حاضر ..

- سامية .. اعلم حسابه يوسف ح يتفدى معانا بكرة ..

هالندا ارضك لكما الطروب ، افضل من ان يحدث كل شي في الخفاء .. ان
اعلم ، لن احتمل البقاء في الظلام .. هل خاستنى اليوم .. هل تخوننى غدا ..
ستقتلنى هذه الاسئلة .. عجل في الخيانة يا سامية .. عجل .. الانتظار
يعذبني ..

- يوسف .. انت ما سلمتش على شريف ..

وجهه يحمر ، عنقه يتلوى ، راسه تنخفض وترتفع ، كانى اكبل له
الصفحات .. ينظر إلى سامية .. حثراً متردداً ، ينظر إلى شريف ..

- ازيك يا شريف .. سلم على .. اه انت مكسوف ..

- سلم على اونكل يا شريف ..

سلم على عشيق امك ، انظر إليه جيداً ، ربما استطعت انت ان تفعل
شيئاً .

وجهها يحمر ، عينها قلقتان ، صدرها يطو ويهبط .. شفتاها تتحركان
بصعوبة :

- ا اصله كان نايم ..

- عملت ايه في لورويا يا شريف

- كان عيان ..

- عيان لازى ..

الحديث بدأ يدور بينهما ، الآن احكى له عن مرض شريف ، غدا عن
مرضى .. ربما وشيت بي .. عندما تقابلينه وحدك ، تروين له ، ولكن يوسف ان
يقبل شيئاً يؤذي .. انه يريد ان يتظاهر امامك بأنه قادر على حمايتي ، انه
وحده الذي يحميني . لو قلت له اني اعددت اخضر انقلاب ، لن يفعل شيئاً ..

سيصمت من اهلك .. انى اعرف ، لا بد ان تعرف هي انى اعرف . لا بد ان
يعرف هو انى اعرف . سأتربكهما ..

- هن اننكم ..

ينظران إلى في دهشة ..

- بس اروح اسلم على باقي اخوانا .

هالندا ابتعد ، ولكن في ظهري الف عين تراهما ، ماذا يقولان عنى الآن ..

لا يهم ..

ها هو حمدي .. لماذا لا يتقدم .. اهو خائف من يوسف .. العبيط ..

تصرفاته اللريبة تكسحه .. ترى ماذا فعلت معه مبروكة ..

- أريك يا حمدي ..
- حمدك على السلامة يا سعادة البية ..
- ما بتجيش تسلم ليه ؟
- انتسامة بلهاف ، في عيبه حذر .. المجنون ، بيدو أنه يريد أن يتكلم ..
- أنا وهلسي حوار سعادتك
- بعدين .. موش وقته ..
- اتصل سعادتك ؟
- بعدين .. بعدين .. سيبني دلوقت ..
- لو سمعوا حديثنا لقصى على في الحال ... ترى ماذا فعل مع مبروكة ..

●●●
الليل كئيب ، كل شيء في البيت يعمل رائحة القرب ، يحمل رائحة العدم ،
سامية نائمة في حجرتها ، وشريف نائم في حجرته .. أنا وحدي الذي ينصت
إلى الليل ..

أين توني ..
هذا البيت من غير توني لا معنى له ، لو أسمع نباحه .. مستحيل .. لقد
قتلته .. صوت الرصاص مازال يدوي في أذني ..
ما هذا ؟

جرس التليفون يدق .. ما الذي حدث ، أهو يوسف .. شهدي باشا ..
البوليس ..

- ألو .. ألو ..
- سعادة البية ..
- مين بيتكلم ؟
- أنا حمدي يا سعادة البية
- إيه يا حمدي ؟
- أنا هايز أقول لسعادتك عن الجواب ..
- تقوم تكلمني في نص الليل .. إيه .. حصل حاجة ..

- انا قابلتها زي ما سعادتك طلبت ..
- ويعدين ؟
- كلمتها في الموضوع .. ما رضىتش أبداً .. وشتمتني .. أنا حايف
- يا سعادة البية ..
- خايف من إيه ؟
- تروح تقوله ..
- لا ما تخفش ..

رفضت مبروكة .. شتمته .. لست وحدك الحائف .. أنا حائف أكثر منك ..
أو لو كنت ذكرت لها شيئاً عن خطابي .. الخطاب لا بد أن استميد هذا
الخطاب ..

- اسمع يا حمدي .. أنت قلتها حاجة عن الجواب ..
- أبداً يا سعادة البية ..
- طيب اسمع .. أنت لازم تقوت على الصبح بكرة .. بدرى .. الصاغة
- سابعة بالكثير ..

- حاضر يا سعادة البية ..
- وهات معاك الجواب ..
- الجواب ..
- أيوه .. لازم تجيبه معاك ..
- موش معايا يا سعادة البية ..
- عملت فيه إيه .. مين خده معك ؟
- وقعت للكرثة ..
- قطعته يا سعادة البية ..
- ها تهوى مقطع ..
- رميته يا سعادة البية ..
- لا قلقة .. لا أستطيع أن أهاحمه .. إيه يملك حياتي في يده .. الساعل ..

أخذ الخطاب ليهودنى به .. سينذهب به إلى يوسف .. يريد أن يحصى نفسه ..
لا مائدة

- طيب يا حمدى .

- أنا متأسف يا سعادة اليه ..

- معلوش .. بس هوت على بكرة ..

سواء جاء لى الغد .. أو لم يجىء أصبحت عبداً فى يده .. أينما ذهبت أينما
لمريت ، مهما حاولت . أنا عبد كل من أقابله ، كل من أحادثه ، كل من تقع
عليه عينى ، وكل من تقع عيناه على ..

الفصل السابع

الساعة السابعة والنصف ، وحمدى لم يأت بعد ، إنه لن يحضر لقد باعى
ليوسف ، أعطاه الخطاب الذى يديننى .. اليوم سيحضر يوسف على الغداء
ترى هل سيحضر .

لا اظن ، سيخترباية حجة . سأضطر أنا إلى الذهاب إليه .. سامية لم
تستيقظ بعد ، كل شيء من حولى هادئ ومريب ، هذا الهدوء يطفى فى طياته
الأحداث القادمة .. بعد قليل اتصل بشهدى باشا ، سأحتاج إليه ، سأحتاج
إلى نقوده . وربما رضى أن يعيننى فى مجلس إدارة إحدى شركاته ، سأكون
مريضاً معه .. ليس فى احد غيرك يا باشا ، أنا خادمك ، أنت صاحب الفضل
على ، كلهم قد تنكروا لى ..

لا .. لن أقول هذا للكلام الدليل . سيدرك أنى انتهيت ، لا مائدة منى ، إنه
لا يجب الضعفاء ولا يتعامل معهم . أنه أسد فى غابة ، نحن نعيش فى غابة ،
القوى يفترس الضعيف .. لابد أن أتناظر بآننى قوى ، أتناظر بآننى ملائكت
حيا .. ملائكت قوى .. سأذهب لزيارته .. وأخبره أن يوسف مدعو عندى على
الغداء . ربما قلت له إن يوسف دعا نفسه على الغداء عندى ، سأوهمه بأن
يوسف يعتمد على ، وأنه أطلعنى على أسرار خطيرة ، سأوهمه بأن هناك أشياء
خطيرة تحدث ، وأنى أعرفها .

الأيام تقول هذا الصباح إن وزير الخارجية سيسافر ليتفاوض مع الانجليز

والفرنسيين . سألهم في أذنه ، اننا سنسلم بكل شيء ، منترا لرجع . ستعبد
القتال إلى الشركة الفرنسية بطريقة ملتوية .. لأن أن هذا هو ما ستقطعه
الحكومة ، ليس أمامهم حل آخر ، اننا الضعف من أن تقاوم ، ستستسلم ،
سترضخ ...

- الامتار حمدي حضر يا القندم .. يقول عنده ميعاد مع سعادتك .
- حضر .. دخله الصالون ..
- اسمع .. الممت صحبت ..
- لسه .. يا القندم .

كيف أحصل على خطابي منه ، الوغد ، لابد أن أعرف حقيقة ما فعل .. لقد
ارتكبت خطأ بشعاً بكتابة هذا الخطاب ، كان قلبي يحدثني بأن هذا سوف
يحدث .. هذه الورقة لن تخلصني منها إلا سامة .

- صباح الخير يا حمدي . كويس إنك جيت في الميعاد .
- ما القدوش أنا خير على سعادتك ..

- اصناح نلطر مع بعض ..
- قطرت يا سعادة البية .. متشكر ..

ما اشناني ، محمد ناجي لا يدعو أمثالك إلى مشاركته الطمام ، اني
اتصرف بصداقة ، لقد تعهدت أن أصدر أوامري لأمثالك ، لا أن أصدر
أوامري لأمثالك ، لا أن اتفقهم وأرفع الكلفة بيني وبينهم ،
أنا عايز نقول أنت عملت ايه مع مبروكة بالضيظ .

- رحت لها يا سعادة البية ..
- فسين ؟ ..
- في بيتها ..
- كان فيه هناك حد ..

- ده بيت زى ما سعادتك عارف .. افتكروني زبون .. طلعت لي لإبسة
قميص نوم سمعة . وبصت لي من فوق لتحت . زى ما تكون بتسال نفسها .

الزبون ده معاه فلوس والا لا .. كانت بتمصغ ليلانة . شاورت لي بطرف
ميناها .. ونخلنا أوضة .. نامت على السرير وهي لسة بتمصغ الليانة .
وقفت محتار عايز اكلمها .. ضحكت وقالت : واقف كده ليه .. ما تيجي ..
الحقيقة أنا التلخعت .. القصد .. قلت لها انا جاي لك في موضوع بس سريني
وبيتك .. استقرت وياق عليها أنها موش مصدقاني .. قلت لها : إمت موش
تعرني يوسف عيد الحميد السويقي .. الرجال اللي البلد كلها بتكلم عنه ..
غمضت نسي عين وقالت : وأنت مالك بيه .. قلت لها : انا جاي اكلمك علشان
مصلحتك .. يوسف بيه غنى وفلوسه كثير .. وتقدرى تكسبي منه الف ..
رمت الليانة من يدها وقامت من على السرير .. وقالت لي وهية خايفة .. أنت مين
اللي بعتك .. لازم يوسف .. خلعت لها إنا ميعرفش حاجة عن الموضوع ..
مصدقتش .. وشتمتني .. وشتمته .. وقالت كلام وحش .. كلام ما يتقلش
يا سعادة البية .. وزعلت .. أنا خفت .. قعدت أترجاها شكت .. ماليش
فائدة .. بصيت لقيت الأوضة اتزعلت نسوان .. ومعاهم راجل بجلايبة
صندره مفتوح ، وشعره منكوش .. إيه ياريري .. حصل إيه يا ريري قالت
لهم كل حاجة .. شوقوا اللي باشنه لي ابن الحرام .. عايز يورديني في داهية ..
أنا ساكتة عليه .. وموموش ساكت .. واه لانا رايحة له وفضساء .. أنا وشي
أصفر .. كنت خلاص ح أوطي وأبوس رجلها .. كنت ح أعيط ، سألوني أنت
مين .. أنا بصراحة واحد جاي برسالة .. واحد كبير في الحكومة ضد يوسف
باعني .. علشان عايزها ترفع قضية عليه ، قضية نفقة .. هيه تكسب لها
قرشين .. وهوه يستفيد بأنه يطلع يوسف من شغلته .. والقضية أحنا
مستعدين ندفع فلوسها وفلوس أكبر محامي في البلد .. هوه معقول يأناس
يوسف بيه يرفع قضية على نفسه ..

- يدأوا يصدقونني ..
- ومبروكة قالت ايه ..
- ضحكت .. وقالت والكبير ده يبقى مين ..
- قلت لها ايه ..

- طبعاً ما تقتض حاجة يا سعادة البية .. هره لنا عبيط .. قالت لها هوه موش
عايز حد يعرفه .. وما اتقدرش اتقول اسمه .. قالت قول له .. كان غير
أشطر .. يوسف ده إبليس محدش يقدر عليه .. قلت لها لكن الكبير ده يقدر ..
قالت أمال جاي ليرى إيه .. وبعدين ضحكك وقالت كلام بايخ ..
- قالت إيه ..
- مالوش لازمة ..
- قالت إيه ..
- قالت .. صاحبك ده ماين عليه واقع زىي .. ماتز عليش على بقتك يا ويوى
أهو كبارات البلد وانت في الهم سوا .. وبعدين ما رقتيش .. بستي
فهيني .. أصلى معروف مفيدش فائدة .. أنا مسامحاه .. هو في حاله وأنا في
حالي .. موش عايزة منه حاجة ..
- تفكر ح تقول ليوسف ..
- ده اللي أنا خايف منه يا سعادة البية ..
- هيه شليقة الجواب ..
- إزاي يا سعادة البية .. أنا قلت لسعادتك هي ما تعرض حاجة ..
- يعني ما شافتش ..
- مستحيل يا سعادة البية ..
- والجواب فين دلوقت ..
- والله العظيم قطعته ..
- أنت مقطعتوش .. أنت ادبته ليوسف ..
- سعادتك مالكش حق تقول كلام زى ده .. يعني سعادتك موش
مصدقني ..
- أنا عايز الجواب يا حمدي
- والله العظيم اتقطع واترمى .. ولا أعرف له مطرح ..
- أنت بتكذب ..
- عيب يا سعادة البية .. اكذب عليك إزاي .. ده أنا خدامك ..

- اسمع .. بلاش كلام كثير .. إذا كنت فاكرك تقدر تعمل حاجة والجواب
ده .. تبقى غلطان .. ح لوبك في داهية .. أنا ما امتعتش .. أنا أقدر
التيك ..
- يا سعادة البية ولازمة الكلام ده إيه .. أنا راجل عيد المامور
أمشي أطلع بيه ..
- بس ..
- موش عايز اسمع كلمة واحدة .. اتفضل
خرج الوغد .. ليكن ما يكون .. إني ميت ميت .. الكارثة محتمة ، فلاجل
برغمها ، فقد ملئت الانتظار ..
●●
- محمص ..
- الله .. أنت خارجة ..
- رايحة للكوافير ..
طبعاً .. لا بد أن تستعدى لاستقبال يوسف ، تنزّين له ، لا تخجلين من
مواجهتي .. ترى هل تقابلين يوسف قبل الكوافير أم بعده .. ستقابلينه بعد
الكوافير .. ستقولين له لا تمس شعري يا يوسف .. ولكنك ستضحكين له في
إغراء وإن يتعمل إغراءك ، سيمد يده إلى شعرك ويعبث به ، وإن تمناعى
ستكونين سعيدة ، مستهترة ، عاشقة ..
- ح ترجعى امتى يا هيبتي ..
- على طول ..
- بس متأخرين .. احنا مستتين يوسف على الفدا ..
- موش ح أتأخر ..
ملها متجهة الوجه .. تمط شفتيها في قرب .. هناك شيء محبوب في
صدرها ..
- ميوّزة إيه ..
- ولا حاجة ..

- لا صحيح .. فيه حاجة مضليفاكى ..
 - يعنى انت حاسس إني متضليقة ..
 - بآين عليكى
 - موش عارف أنا متضليقة ليه ..
 - أيدا .. قول لى ..
 - مافيش حاجة ..
 - لازم تقول لى يا حبيبتي ..
 - أنت موافق على اللي بتعمه ده ..
 - عملت إيه يا حبيبتي ..
 - محمد .. انت ذكى .. وفاهم كل حاجة ..
 - كلميني بصراحة ..
 - إزاي تعزم يوسف في بيتنا ..
 - أنت شواتيه كثير بعد جوازنا ..
 - لكن موش في بيتنا ..
 - ولجها إيه ..
 - يبقى خلاص .. موش ح اتكلم ..
 - إيه اللي مضليقتك بس ..
 - موش شايف حاجة في إنه يوجي بيتي ..
 - ده اللي مضليقتك ..
 - طبعاً ..
 - المفروض أن خلاص .. نسينا الماضي ..
 - لكن أنت بتخرجيني ..
 - أى نوع من الحرج تشعرين به يا سامية .. أبحرج رؤية يوسف أم
 - يحرجك رؤيتي مع يوسف ، رؤية عشيقك وزوجك في أن واحد .
 - هل أصدك ..

كيف أصدك ..

انت تذكرين تصف الحقيقة .. تصف الحقيقة فقط .. علمك يوسف
 الكتب الصالح .. البراءة المربية .. أنت تلميذته .. أنت ظله الذي يتبعني ..
 - أنا متأسف يا سامية .. الحقيقة كنت بانكر في الشغل .. ما جاش على
 بالى .. فعلاً كان لازم أخذ رأيك ..
 - إذا كنتم ح تتكلموا في الشغل .. تبقى فرصة .. ما اقعدش معاكم ..
 - لا .. ما يصحش ..
 - يا محمد أنا موش قاهمك ..
 - متخرجنيش أنت كمان ..
 - ماذا أقول لك ..

إني لا أحتمل غضب يوسف الآن ، لابد أن ترهني به ، اعتمد عليك
 يا سامية .. أنت التي تحميني من غضبه ، إن خطايي معه .. سلمه حمدي
 إليه .. لو غضب علينا لفقدنا كل شيء ، هذه مصالة حياة أو موت .. أنا
 مضطر .. مضطر يا سامية .. لا أمك إلا أن أسلمك له فليفعل معك
 ما يشاء .. فلتكوني عشيقه .. لابد أن أعيش .. أنا عجوز أعيش
 محطم .. غير قادر على فعل شيء .. لابد أن أبحث عن حماية .. أنا لا أطلب
 منك الكثير .. أريد منه وهو يملك أن يسمع كلمة طيبة عني ، توصل إلي ،
 استدرى عطفه .. قولي له حرام عليك يا يوسف .. إنه مسكين ضعيف ..
 امنحه فرصة ليعيش .. أليس من حقى هذا .. أشركني في صلاتك
 بعشيقك .. أرحميني .. اسمح لي أن أستفيد من هذه العلاقة ..

أنت شابة وهو شاب ..

أنت تحبته وهو يحبك ..

أليس هناك مكان لرجل عجوز مثل بيتكما .. مكان متواضع لرجل له طلب
 متواضع .. لا أريد أن أفقد أكثر مما فقدت .. أريد أن أظل أقبض مرتبي أول
 كل شهر . أريد أن يظل الناس يتوهمون اني محمد ناحي القديم .. أريد أن

يعللنى الناس بامتزام .. إني أتخلى عن كل شيء من أجل هذه المظاهر البسيطة ..
هل تستعين بها على ..

- شوق يا حبيبتي .. أنا موش عايز منك أكثر من مقابلة ضيف بيتي وبينه شغل ..
لأنا نمسنا اللي فات .. يوسف اللي جاء النهاردة واحد تاني .. رئيس تحرير الأيام ..
مالوش صلة بيوسف بتاع زمان .. لانا ضيعت زمان .. وأنت لازم كمان تلتقي لي أنك نسيت

- أنا كنت بأفكر ما أرجعش البيت بعد الكوافير .. ولروح فزود لى ..
- لا .. خليكي عاقله .. يا حبيبتي .. فكرى كويس .. ح بيتي شعورى إيه ..
ح أقول لنفسى إيه .. لنت لسه خايفة من يوسف .. خلية من تكلمه عليك ..
يوسف ح يفسر غيابك إزاي .. موش قدرة ترجعهم .. بتفكرى في حكم القديم ..
ح يفسر غيابك ألف تفسير .. كلهم موش كويسين .. أحسن نولده ده كله ..
روحي يا حبيبتي للكوافير .. خليه يعملك تسريحة حلوة .. شيك ..
علشان يوسف لما يجي .. يشوفك حلوة ويعرف أنك سعيدة معايا ..
موش من حتى برضة إني أثبت له أنك سعيدة معايا ..

- أنت بتحبني يا محمد ..
نظراتها تفيض بالشك .. صوتها يفيض باليأس ..
- إيه معنى السؤال ده ..

- بعض ساعات بأحس إنك ما بتحبينش ..
- مستحيل .. امتي بيجيك الشعور ده ..
- دلوقت ..

- يا حبيبتي ده كلام فارغ ..

- طبعاً أنا بأحبك ..

- موش قادرة لسهك ..

- ليه ..

- أنا خايفة ..

- خايفة ..

- ايوه خايفة .. منك ..

- يشهد على .. في الأول كنت معايا شاعرة بيك في كل لحظة .. بتهتم بيه ..

وميتسبينيش دقيقة .. حيتى عليانة .. دلوقت شايفك سرحان على طول ..

بعيد على .. شوق يوم مابت برة طول الليل وأنا لوحدي في اللوكاكة ..

- ح ترجع تاني ..

- لانا موش قادرة أفهمك .. أنت اتعرت ..

نعم أنا تعرت .. أنت أيفسأ شعرت .. لنت لا تعلمين معنى كلامك ..

غوييتك تتكلم بلا وعي منك .. لقد سقطت في حبيبتك .. لم أعد نلك الرجل الذي

كان بيهر .. لم أعد أبهرك يا سامية .. لم أعد أهلا حبلك .. أنت اللي

تبتعين .. أنت اللي تتحددين كمانتي بشبابك .. عندك أحلام وأيسه عندي

أحلام .. هناك سنوات وسنوات تعيشونها في المستقبل .. وأيس عندي سوى

أيام .. اليوم أنت خائفة .. وأنت هاربة .. هاربة مع يوسف ..

- أنت موش سعيدة يا سامية ..

- لا موش سعيدة ..

- وإيه الحال ..

- موش عارفة ..

- شعبي أعتر ليوسف ..

- ايوه ..

- بس ح أقول له إيه ..

- تعرف أنا حاسة بانيه .. حاسة إنك بتتمنى .. أنك عازمه مخصوص

علشان تشوفه وتشوفنى مع بعض .. وتشوف إيه اللي ح يحصل .. أنا

ما بقلش ده يا محمد ..

- ده تفكير غريب ..

- لا .. مريه الحقيقة ..

- موش محكن .. أنت بتخوفك لاند أتركك الحقيقة عرفت كل شيء .. إنها

تولجنى قبل أن أهاجعها .. الآن فقط أيقنت أنها على علاقة بيوسف ..

متى بدأت هذه العلاقة .. متى بدأت .. منذ سنة .. منذ سنتين .. أم إن
علاقتها به لم تنقطع أبداً .. تزوجتها كأي مففل .. لا بد أنها تصغرنى ..
لا حدود لاحترامها لى ..
- أنا موش بأخرف ..
- أنت بتقولى حاجات ما اتصورش أنها تخطر على بالى ..
- اعتذرله .. موش عايزاه يدخل بيتي ..
- لا .. يوسف جاي .. وأنا أرفض اعتذر علشان سبب سخيف زى ده ..
- وأنا كمان ح اتصرف ..
- قصدك ايه ..
- قصدى ح اتصرف ..
- تعمل إيه ..
- ما أعرفش ..
- يتهددينى ..
- المهم الى أنت عايز تلمحه ..
- عيب يا سامية تتكلمى معايا باللهجة دى .. أنت عايزة تؤلمينى وبس ..
- ماذا جرى .. إنها تبهكى ..
- لماذا تبهكى ..
- لا أصدق دموعك .. أنت تكذبين بدموعك .. تبكين لأنك تعلمين اننى
أعرف .. تبكين حسرة لأنك لم تتزوجى منه .. ليهك تبكين حتى نهاية حياتك ..
تتألمين كما أتألم .. لن أهاول أسكتك ..
- أنا متأسفة يا محمد ..
- هل إيه ..
- قلت لك كلام سخيف ..
- معلش ..
- سامحنى ..
- اتعودت خلاص على مفاجأتك ..

- ١٠٢ -

- سامحنى ..
- محصلش حلقة أسامحك عليها ..
- يتحببنى ..
- أبوه بأحبك ..
- أنا كمان بأحبك .. أنا ماليش حد غيرك فى الدنيا .. لوسينى ح اعمل
إيه .. أنا كنت رايحة للنهاية لأمى وأنا موش عايزة أروح ..
- ما تقوليش للكلام ده يا حبيبتي ..
- أمك موش قادر تقهمنى ..
- صدقيني أنا بأحبك .. بأحبك يا لاروقى ياه ..
- ياه أنا اتأخرت على ميدان الكوافير .. أوريثوار يا محمد .. موش
ح اتأخر ..
- أوريثوار يا حبيبتي ..
- موش عايز تيومنى ..
- تقبليننى فى حرارة .. أيتها الكاذبة .. هذه الحرارة تدافع عن خيانتك ..
تظاهرين بحبى بنفس الصمات الذي تجرين به إلى الكوافير .. هذا هوكل
حيك في .. هل تظنين إنى أبه .. ساذج .. تخدعه بضع كلمات وبضع
دموع .. انهبي إلى الكوافير .. انهبي إلى يوسف .. وعودى لتقولى لي إنك
مازلت تحبيننى .. لست بحاجة إلى هذه الاعترافات الكاذبة .. لن أتركك على
أية حال .. لوسيطك بين نراعيه .. لن أتركك .. أنا في حاجة إليك .. وإليه ..
أنا في حمايتكما ..
- ولكنى أكرهك .. وأكره اليوم الذي رأيته فيه .. وأكره الدنيا التي دفعتنى
إليك .. أنا لم أتزوجك إلا لأنى تحطمت .. ضعفت .. أنت الحضيض الذي
وصلت إليه ..
- ثلاثتنا نجلس إلى مائدة واحدة .. نأكل من طعام واحد .. نأكل في هدوء ..
هذا هو الهدوء اللريب ..

لو انقضت حدودنا لما احتملنا أن نجلس معاً .. للفركل واحد منا إلى القصر
مكان على الأرض .. أنا للصحبة بينهما .. أنا للهزيمة .. لنا الموت ..
كلما فكرت في أنى ميت شعرت ببعض القوة .. استطعت أن ألتصم .. أرحب
بيوسف .. أضخ اللقمة .. وأقول بضع كلمات .. الآن أعرف ما هي مصير
الموت

- أنا زدت النهاردة شهدي باشا يا يوسف ..

- أحضاره إيه ؟

- بيني وبينك موش مبسوط ..

- خايف من الحرب ..

- خلونا نتكلم بصراحة .. ده راجل وأسماعلى .. موش ممكن يقدر يتفاهم مع
النظام ده .. أما موش عارف هم ساكتين على له ..

- قال لك حاجة ..

- ما كنتش أحب القول الكلام اللي سمعته .. لكن أنا برضه عندي وطنية ..
ومشطر أتبهك وأنيه المسؤولين لخطورة الناس التي زي .. لعتا لازم ندافع عن

الثورة بكل قوتنا .. أنا من ثلاثين سنة وأنا باكتب في السياسة .. من قبل ما
سامية تتولد .. وعندي أمل كبير في أن الأزمة دي تعدى .. المهم هو أننا ناخذ

بالنا من دعاء الهزيمة .. فيه ناس الانقياد في نفوسهم .. ما فيش قيادة انهم
يقاوموا .. مستعدين يسلموا البلد للانجليز زى ما حصل أيام عرابي .. أنا

شفت ناس بالشكل ده .. حتى في باريس .. فأكبر يا سامية .. فأكبره ..

- قصصك مين يا محمد ..

- بقى موش فأكبر ليلة ما قلنا اكرم يك ..

- أه صحيح ..

- سامية تقولك يا يوسف خيليا تحكي لك .. الناس اللي بيعتوهم في
السفارات علشان يمشوا البلد .. موش فاهمين حاجة .. ياريت موش فاهمين

ويس .. إنما خونة .. تعرف يا يوسف .. أنا بافكر أكتب سلسلة من المقالات
الحرية .. أطالب فيها بتصحيح الأوضاع ..

إنه ينظر إلى صحتي ، لا يبتلعني أنه يرحب بالفكرة أو يعارضها .. منذ
دخل البيت وهو يتكلم يصعب .. يقول كلمات مقتضية غامضة .. يبتسم في
خجل .. لم ينظر إلى سامية نظرة واحدة .. لابد أنه يعرف كل شيء عن
الخطاب .. لابد أنه قابل سامية قبل أن يأتي إلى هنا .. إنها أيضاً صامتة ..
تتكلم يصعب .. تسريحة شعرها بسيطة .. من السهل العي بها .. وإعانتها
كما كانت .. لنا لا يضايقني ما أرتكبه .. تكلم .. اضحك .. أنت تحوطني
يا يوسف .. ولكن ضحكك مستريح لأن في جيبك الخطاب .. ضحكك مستريح
لأنك المنتصر وأنا المهزوم .. أنت الذي همد .. وأنا الذي سقط .. ولكني
لا لشعر الآن بشيء تحرك .. لا حقد ولا كراهية .. كل ما أريده هو الراحة
والهدوء .. صدقني أنا أشعر هذه اللحظة وكأنني ولدت من جديد ، نسيت
الماضي .. أريد أن أبدأ من البداية .. أغيب نفسي عن ذكرياتي .. لا أحزان
ولا مرارة .. ساكت في مجلس .. ساضعل الوطنية في الغلوب .. ساستدعي
كهلاني ..

- موش فكرة كويسة يا يوسف ..

- طبعاً فكرة كويسة ..

- موش يافين عليك متحمس ..

- بالعكس .. أنا متحمس جداً .. امتي ح تكتبها ..

- أبدأ من بكره ..

- عظيم ..

- لست متحمساً على الإطلاق .. تنطق بالكلمات من شفطيك لا من قلبك ..

- أنت لا تصدقني .. تستريب في قصدي .. ولكني أريد أن أكتب المقالات
النارية .. أريد أن أفرج اللقائل ذات الدوى الضخم .. الناس في المقام

والشوارع والنواصي .. يصيحون .. هل قرأت ما كتب محمد ناجي اليوم ..

- أنت مالك ساكت يا يوسف ..

- أبدأ ..

- دي سامية كل عندها كلام كثير عايزه تقوله .. الموضة في باريس ..

تقلع باريس .. ممكن تويك اخبار كتير كويسة .

- أنا لازم اسمع الحاجات دي كلها ..

- هيه ساكنة كمان النهاردة .. موش عارف ليه ..

- الظاهر أنا تعبت يا محمد ..

- بقي الشهاب تعبان .. والعواجيز اللي زي حالاتي مليونين نشاط .. سابيني

اتكلم .. واتحمس .. واستعد لكتابة مقالات ..

نار تسعني في صدرى .. إبرة حادة تنقرس في لحمى .. ماذا اكلك .. ؟ !

السمك عرطالز .. ماذا يقول يوسف .. إنها تمدته عن الموضة .. باريس ..

باريس ثقب البار يتسنع .. ألم غريب .. هل أخبرهما .. لا داعى

لأزعاجهما .. سأتزكهما يتناجيان .. أنا في حاجة إليهما .. غدا اكتب المقالات

الوطنية .. شيء مضحك .. لا أهد بياض العين للصعود .. كل من وصل إلى

فوق .. لابد أن يتدحرج إلى تحت .. أنهم هتد .. دائرة الذهب تعرق قلبي ..

دوى قطار يسير داخل راسى .. لابد أن أشكو .. لا أراهما .. ضباب فوق

عينى .. ولكنى مازلت أجلس إلى المائدة .. الطعام في حلقى .. ماذا تقول له ..

لا اسمعهما .. كل شيء يذهب .. بيتعد .. يحفت .. أهذا هو الموت .. أمى ..

أهذا هو الموت .. يا واه أنت ضريته ليه .. والنبي ما هو أنا يا أمه .. خذ بالك

من توفى يا محمد .. هوه مرش راضى يموت ليه .. مات خلاص يا سعادة

البية .. الرصاص في الشانزليزيه .. القذوين .. قتلوه .. كان يصفر في

الشارع .. لا في أن روزة .. مد يده ليصالحه .. ضربه بالرصاص .. سقط

الجسم المربع .. أنت مهربا .. يا شاة .. أعظم كاتب في الشرق ..

أخرج بره يا كلب .. توفى ..

أه هذا البيان المزعج .. الانغام تدوى في راسى .. الطفل ينظر إلى .. يلتفت

وراءه .. لا تراحموس .. هذا الشارع يلغظنى .. ينظرون إلى شذراً ..

لا مكان لشيع عجز .. سامية حبيبتي .. شريف عيان .. بص يا حبيبي ..

النور مشى .. النور راح .. دلوقت تشوفه .. بس خذ بالك .. شوف الجرنال ..

المطبع .. المانشقات .. لكو .. مين بيتكلم .. آخر خير .. صفحة أولى بقلم

محمد ناجى .. بقلم الكاتب الكبير محمد ناجى .. محمد ناجى

- سامية ..

ملها تصرخ .. إنها تقرعنى .. تكلمى في هدوء .. اتى استريح ..

.. لك .. لدد .. ادبيني .. أشر

وهنا سكنت محمد ناجى عن الكلام .. وبذلك انتهى القسم الثالث من الرجل

الذي فقد ظله ..



القسم الرابع يرويّه :

يوسف

أنا يوسف

يوسف عبد الحميد السويدي .

عندما أهرس بأسمى بيني وبين نفسي يخيل لي أنني أردد اسم شخص آخر لا أعرفه ، شخص غريب عني ، لا أحبه ولا أكرهه ، ولكنه يذاحمني ويرتبط بي ، ويلتزم لي بسبب غامض لا أفهمه .
من أنا ..

من يكون هذا اليوسف عبد الحميد السويدي ، هل هو ذلك الصعلق المشهور رئيس تحرير جريدة « الأيام » إن صوتاً ملحاً يهرس في قلبي ليل نهار ، يسألني ، هل حقيقة أنت يوسف الذي يعرفه الناس ؟ هل حقيقة أنت يوسف الذي يجلس إلى مكتبه ويديق الأجراس ، ويتكلم في التليفونات ، ويكتب المقالات ، ويحضر الحفلات ، ويقولون عنه إنه ناجح وإنه وصل .

إذا لم أكن أنا يوسف الذي يعمل كل هذا ، فمن أكون

من أكون أيها الصوت الذي يهرس في قلبي بالسؤال ..

هذا الصباح كنا نشيع محمد ناجي ، كان النعش محمولاً على اكتاف عمال المطبعة ، ومن ورائه يسير المئات ، يقطعون رحلة الوداع بين ميدان التحرير وجامع جركس ، كنت أسير وراء النعش في نفس الصف الذي يسير فيه مندوب



رئيس الجمهورية ، ووزراء ، وكبار رجال المال ، بينهم شهيدى بإشياء ، كنت
أشئ منكسر الرأس ، حزينا ، وفجأة انطلق ذلك الصوت الذى يهمس فى
قلبي ، انهال على يأسه . هل انت وانتك حزينا ، هل انت حزينا حقا على
الرجل الذى أدخلك هذا العالم العريض ، عالم الصلابة والجلد على
مقعد .. انت فى قرارة نفسك لست حزينا ، أنت تفكر فى أشياء لا صلة لها
بالحزن أنت تفكر فى سامية ، تفكر فى حبك لها ، هل تعبد لها .. هل تتزوجها .
حاولت أن أفر من هذه الأسئلة التى تمهشنى ، قلت لنفسى ، عيب
يا يوسف ، كن مخلصاً فى حزنك ليس هذا هو وقت التفكير فى مثل هذه الأمور .
محمد ناجى يسمع الآن صوتك الحفى وهو فى نعشه ..

استمتعت عن التفكير ، ولطبت جبيني ، كانى أقدر نفسى على الحزن ولكنى
لم أستطع أن أقدر نفسى على الحزن ، تشاغلته بمراتبة المشيعين ، بعضهم
حزين ، ولكنه حزين على نفسه ، لأنه صوب يذكره النمش بنهايته القريبة ،
بعضهم جاء ليظهر بيننا وقد ارتدى القميص الذى كانه فى إحدى الحفلات
الرسمية ، يمشى منتصب الرقبة ، حينئذ زائفان وراء عيون الآخرين كلما
التفت ورأى ثلثتى عيناى بواحد منهم ، فبيتسم ، ثم يتذكر أنه فى جنازة ،
فيرسم على وجهه أحزانا مضحكة .. كان شهيدى يهمس بلا انقطاع فى أن
سيد شحات مدير بنك الاقتصاد ، يلوح بيده مؤكدا شيئا يقول ، ثم ينظر
خلسة إلى ساعته .. لا أحد حزين ، وسطك هذه المظاهر الحزنية ، والناس
يقفون على الرصيف يشاهدون اللوك وهو يمر ، بعضهم يتفرج علينا ، ويشير
إلينا بأصبعه وبعضهم يقرأ العائنة دون أن يدرى من الميت .

ولكنها كانت جنازة فخمة ، لا تنقصها إلا الموسيقى العسكرية لتكون مثل
الجنازات التى كانت تبهرنى وهى تمر أمامى فى الشوارع وأنا خلف .
هأنذا أهرب من صوت قلبى .. هل افلحت .. أبدا ..

لقد بكيت وهم يهبطون بالجثمان إلى القبر ، بكيت مخلصاً ، ولكن حتى وأنا
أبكي ، كان ذلك الصوت العنيد يسألنى ، هل تبكى محمد ناجى ، أم تبكى

الورطة التى انت فيها .. تبكى لأنك فشلت فى أن تحزن على الرجل الذى يجب
أن تحزن عليه .

أم تبكى لأنك تفكر فى سامية .

أم تبكى لأنك كنت تظن يوماً ما أن محمد ناجى هو ملك الأعلى ثم
أحترقته ، وسقط من عينك ولم يعد لك مثل أمى ..

وكما لنفجر فى قلبى سؤال أشد بكائى ، وأنا من حولى ينتظرون إلى فى
ارتياح ، لأنى أقوم بواجبى وأبكي فى اللحظة المناسبة .. خيل لى أنهم
يستريون مثلى فى سبب بكائى ، ولكنهم راضون تماماً عن هذه المظاهرة التى
لقوم بها ..

أه .. كيف أستطيع إخفاء هذا الصوت .. كيف أفتح قلبى بأن يكف عن
أسفاته ..

ولكنى لا أستطيع ..

لا بد أن أواجه هذا الصوت ، وأحاول الإجابة على كل سؤال لابد أن أواجهه
نفسى ، كل ما أعرفه عن نفسى هو أنها غير راضية ، تباقتنى بالأسئلة ، أنا
لا أعرف نفسى على حقيقتها ..

حينئذ يجئني إحساس مرير بأنى فقدت كل شيء ، فقدت نفسى ،
أشعته ، ذلك عندما تخرج أسئلة الشك من قلبى ، تنهمنى فى كل ما أفعل ..
عندئذ تنهمنى وحدة قاسية ، ولا يدهشنى إذا تلفت ورأى فلم أجد ظلى .
وأنا صغير ، كنت أخرج إلى الشوارع وألهو مع ظلى ، أرقبه وهو يتمدد
ويطول ساعات الغروب ، صلاتاً على الأرض ، فيملأنى الزمو ، وأحلم
بالساعات القانعة عندما اكبر وأصبح فى طول ظلى فى ساعات الظهيرة ، كنت
لقد فى فناء المدرسة فوق ظلى .. أراء قرماً صغيراً ، وأسفر منه . وأسفر
أنى الكبير منه ..

الآن لا أظن أنى سأجد ظلى لا طويلاً ولا قصيراً ، لا يملأنى بالزمو
السموية .. ما الذى يبقيه معى ، وقد هجرتنى نفسى .

نعم .. أنا الرجل الذي فقد ظله ..

٦ سبتمبر عام ١٩٢٢ ، منذ تلك الليلة حتى اليوم ٩ أكتوبر ١٩٥٦ ما الذي حدث لي .. كيف كبرت وعشت ، وتعلمت واشتهرت واكتسبت أشياء وأشياء ، وفقدت نفسي ..

إننا نبدأ في الموت منذ أن نبدأ في الحياة ، تبدأ الخسارة منذ الكسب تشرع في رحلة الضياع في نفس اللحظة التي تشرع في رحلة الوصول .. في الساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة من سبتمبر ولدتني أمي ، صرخت أم فهمي الداية .

- خسارة .. ده ولد ..

كانت أم فهمي تظن أنني ولدت ميتاً ، لم أكن ميتاً ، ولكنني جئت إلى هذه الدنيا ، لا أبكي ولا أبتسم ، جئت صامتاً معياداً ، وأم يعجب هذا أم فهمي ، ظنت أنني ميت ، لماذا لا أبكي مثل الآخرين ، للبتني في يدها على ظهرى ، وضربتني ، وظلت تضربني حتى بكيت ..

عندما بكيت ، أطلقت زفرة .. علمت أنني حي .. كان أبى غائباً عن البيت ، في الأصر ، يُدرّس الجغرافيا في المدرسة الابتدائية ، ليأتها سهر على غير عادته مع أصحابه ، وتهدر على غير عادته ، وشرب كرب بيرة ، وقال لزميله صبرى أفندي مدرس الحساب وهما عائدان في منتصف الليل :

- أنا حاسس يا صبرى أن مراتي بتولد ..

في الصباح وصلته البرقية وهو في الفصل ، وأمر الناظر بتسليمه البرقية في الحال ، فقرأها أمام التلاميذ ، وقرأ : « مبروك بيوسف » .. لم يتمالك نفسه ، فصاح بين التلاميذ

- أنا جيت ولد

وضج التلاميذ بالتهليل والضحك

كانت أمي تحكي لي قصة ولادتي وفي عينيها لمة فرح ، وفي صوتها تهديج كأنها تعيش تلك اللحظة من جديد .. شهور العمل .. ولد لم يفت .. لو كان

وإذا ستمسميه يوسف على اسم شقيقتي الذي مات .. المخلص .. صراخ أم فهمي .. خسارة .. قطعة اللحم الحمراء وأم فهمي تقلبها في يدها .. كف أم فهمي وهو ينهال بالضربات - الصوت الحاد الزفير الذي انفجر باكياً . ولد .. أبني .. يوسف .. يوسف عبد الحميد السويدي .

فيما مضى ، كنت أصدق حكاية أبي ، أنه شعر في نفس الليلة بأنني قد ولدت ، وأن قوة خفية جعلته يسهر ويشرب البيرة على غير عادته .. ولكني الآن أشك في أنه حدد موعد ولادتي وهو بعيد عنا .. أشك في أنه اخترع هذه القصة لأمي . ربما ليعتذر لها عن غيابها أو ليثبت لها أنه شاركها بعض اللحظات والأمها .. لماذا أشك . لا أعرف السبب .. ولكنني أصدق في أنه سهر تلك الليلة وشرب البيرة ..

كنا نسكن في ذلك الوقت في حارة زكي المتكرمة من شارع السد ، أمامنا مستوصف عرفت بعد سنوات أنه للأمراض السرية ، وأن النساء اللاتي يترددن عليه ، يثنّ تعليقات لاذعة من أهل الحي ، وكان تحت بيتنا دكان وحيد ، نعم برعى بائع الطرشي .. إنه مازال يشغل مكانه حتى اليوم ..

كنت أصال أمي :

- وضربوني ليه ياماما ..

- علشان تعرف أنت صاحبي والا لا .. لا ..

لم تكن تجسر أن تقول .. صاحبي والاميت .. ولكنني كنت أريد لها لنفسى ..

صاحبي والاميت .. ثم أحاول إقناع نفسي .. بأن الصالحى لابد أن يبكي ..

ولميت لا يبكي .. والسالك يضرب حتى يبكي ..

- هو لازم أعيط ياماما علشان تعرفوا أنني صاحبي ..

- أبوه ..

- ليه ياماما ..

كنت أسألك في غيت وبهشة ، فكانت تجيبني وهي تضحك :

- كده ..

- كده ليه ياماما ..

فتحتار . وتتهرب من استئتي اللحوة ..

ولكني كنت جادا في سؤالى .. كلما فكرت في هذه البداية لحياتي شعرت بانى استقبلت استقبالا مسخيا ظلالا وشعرت بالعناد .. ما الذى جنيته حتى اضرب ، لماذا تضطروننى إلى النكاح .. اتركونى لعالي ، لا تلمسونى .. الا توجد حياة يفر بكاء وضرب ..

انا لمزلت احلم بذلك الشعور بالبراءة الذى عرفته وانا طفل .. البراءة التى لم اكن اعرف انها براءة .. شعور صريح مباشر جلو .. هذه هى الحياة كما يجب ان تكون ، كما يجب ان تظل لنا حتى النهاية ..

ترى ما الذى يفسد هذه البراءة في نفوسنا .. لقد فقدتها .. كنت ارى اسمى هناك في اخر صالة البيت ، فاندفع نحوها في شوق ، لا يحول بينى وبين شوقى إليها شيء .. افتح ذراعى ، واجرى نحرهما واضرب راسي في جسدها ، حتى تتكسبت يداي بساقليها ، وتحضنتني وتقبلني ، فاشعر انى اضمم للحياة ، واشعر انى لحياء ..

لا التواء ولا تعقيد .. أجوع فأصرخ بأعلى صوتى .. انا اعوز اكل .. يميل إلى انى عطشان ، مجرد وهم بالمعطش ، فأصيح في منتصف الليل .. هاهن اشرب .. اسمع لى يكلم اسمى في جفاه ، فازعق فيه .. انت وحش ياليتها .. انا موش بأحبهك .. لا شيء اكتبه ، لا خاطر أردعه ..

انا هو انا ..

ما أريد .. هو ما أريد ..

لا اقتواء .. لا تعقيد .. لا خجل .. لا شيء يفصل بينى وبين نفسى ..

عندما كبرت ، أصبحت الرجل الذى يلف ويدور ، عرفت الخجل ، قلبى قال كلاما لم يسمعه أحد ، وإسائنى قال كلاما أخر سمعه أحد الناس ، براحتنا نذوب ، ونفوسنا نلتهمز ، عندما أحببت سامية ، قضيت الليالى مؤرقا أتعتب ، لا ادري هل انا احبها ام لا ، هل هى رغبة ، مجرد رغبة الريد إشياعها ، هل هى شفقة ، هل حبى بلامة وحماقة ، هل اعترف لها بحبى ، هل انكم مشاعرى . لم اعترف لها حتى كانت هى تعترف لى .. لماذا لم اتدفع نحوها

مبدأ ذراعى ، أطوقها واعانقها وأقبلها .. وأقول لها بصراحة الطفل - احبك ، أريدك .. ما الذى يعقد الحياة ، ما الذى يحول برأمتنا إلى سذاجة محمرة .. ما الذى يحول الصراحة إلى خجل أو عناق .. ما الذى يجعل العيب عيبا .. أريد ان اعرف ، أريد ان اعرف ..

أول شيء أحبه ، أول شيء أذكره في حياتى ، هو نور قوى لا ادري من أين يجرى ، مسلط على ، ووجه اسمى إلى جانب النور ، وجه أبيض جلو مدور ، وعينان تسليتان حنونتان ، وجسمى عار ، وأصابع اسمى تمتد إلى ظهري فتضع عليه شيئا لزجا بارد ، صورة خاطفة لا أستطيع أن انسأها ، لا اذكر ما كان قبلها ، ولا ماذا كان بعدها هذه الصورة ترتبط عندى بالحنان ، لا أشعر بالحنان حتى اليوم ، إلا وتذكرت النور القوي ، ووجه اسمى الأبيض ، وعينها ، والشئ البارد تضعه أصابع اسمى على ظهري .. كانت سامية تلاحظ أحيانا شرودى ، وتسألنى ، ماذا بى ؟ فأقول لها اى شيء ، ولا اذكر لها تلك الصورة التى اذكركها ..

سألت اسمى ذات مرة :

• انا فاكرياماما وأنا صغير .. كنت بتحطى مرهم سائق على ضهري .. سألتها بالعثام ، وكأنى استعيد أخطر ذكرياتى ، ذكريات طفل فى السابعة من عمره ..

وتذكرت اسمى فى الحال ، وأظهرت دهشتها ..

• أنت فاكركه ..

• أبوه ياماما ..

• ده كان عندك أربع سنين إلا .. كنت صغير قوى ..

• وفاكركان فيه نور ..

• نور ايه ..

• نور جامد قوى ..

• يمكن ..

• موش فاكركاه ياماما ..

- هوه أنا كنت في ايه والا ايه .. ايامها كان عندك الجديري .. وكنت خايفة خالص عليك ..
 وفاجاني ما علمت ..
 اهذا الحنان .. كان مرضا .. مرضاً مخيفاً .. لا .. اني ارفض هذا .. لنتم ايهما الكبير تسمونه اى شيء .. اما انا فلا انكر إلا ما انكره .. إنها ذكرى جميلة تعلمت فيها الحنان ..
 وسألتني أمي وقد فاضت بها الذكريات ..
 - وفكر لما كنت بتصحى في نص الليل .. وتصرخ ..
 - لا ..
 - ياه .. ده أنت غلبتني .. فعدت اربع ليال ما تشوقش فيها النوم ..
 لقد عذبت أمي .. أرهقتها وأنا لا أدري .. أنا لا أريد أن أعذبها .. ما ذنبي أنا ..
 ولكني شعرت بالذنب ..
 مثل تلك القصة التي سمعتها من أبي ألف مرة ، يرويها وهو يتعجب ويتندر .. هذه القصة أيضاً أشعرتني بالذنب ..
 كان عصر يوم ، وكنت سادخل بعد شهر المدرسة الابتدائية ، وقال أبي لأمي إنه خارج لمقابلة رجل كبير في وزارة المعارف .. وكرر أبي كلمة « جروبي » ..
 - ح اقباله في جروبي ..
 جروبي ده حلواني كبير قوى مايدخلوش إلا الذوات « فنجاش قهوة بتلاتة صاغ » نص فركك ثمن القهوة .. وقرش صاغ بقتيش والتفت إلى أبي يسألني ..
 - تحب تيجي معايا جروبي ..
 - ايوه ياأبا ..
 فقال لأمي :

- أنا عايز منصور بيه يشوقه .. ويعرف إن عندى ولد في ابتدائي وأنا عايز اتنقل علشان أعرف أربيه ..
 كان أبي يعمل وقتها في مسمور ، وقد أوشكت إجازته على الانتهاء ، وشعرت وأمي تلبسني القميص والنطاون القصير ، وتمشط شعري ، أني مقبل على شيء خطر .. سأظهر أمام منصور بيه ، وسبقه هذا أن يبقى أبي معنا ..
 لا أنكر بعد ذلك ، إلا جلسة مملة في حديقة مريحة ، وأربعة أو خمسة رجال يجلسون بينهم منصور بيه ، الذي كان قصيراً جداً ، يضع على عيني نظارة ، وأسنانه الذهبية تجعل ابتسامته مخيفة ، خاصة عندما صوب إلى ابتسامته وأبي يحدثه عني .. وسألني منصور بيه سؤالاً .. أنكر فقط ، أني رفضت الإجابة عليه ، وعيناي معلقتان بأسنانه الذهبية ..
 واذكر صياح أبي ..
 - أنت مكسوف ليه ..
 لم أكن خاجلاً من شيء ، كنت أفكر كيف يأكل منصور بيه بهذه الأسنان ، وكنت لا أريد أن أقول شيئاً ..
 وفجأة قال أبي ..
 - لا .. ده أنت طلعت حمار ..
 واتسعت ابتسامته منصور بيه ، وضحكوا ، أما أنا فقد خلضت عيني أنظر إلى قميصي الجديد .. وينظروني ، وحدائي .. أرفض أن أعاد أن أقول شيئاً ..
 ثم تشاغلني عنهم بمراقبة طفل عن مائدة بجوارنا يأكل الجيلاتى ..
 بعد قليل قال أبي ..
 - ياللا بيتنا نقوم يا يوسف .. أنت باين عليك عايز تنام ..
 قلت ببساطة :
 - لا .. فسمعتني شويه ..
 - ليه يا سيدى ..
 - لما الولد ده يخلص الجيلاتى بتاعه ..

وتسجوا بالفضحك . ما الذى يضحككم .. إننى أرقب طفلاً سعيداً .. ياتكل
الهيلاى فى نهم .. هل ارتكب شيئاً .. ما ذنبى ..

وعاد أبى إلى البيت ليقول لأمى

- أببك كسفى وسط الناس .. منصور بيه يكلمه ما يردش عليه .. عادل
زى البنت ..

وتقول أمى :

- ليه كده يا حبيبى .. موش عيب .. لما حد يكلمك ترد عليه .

وينفجر أبى ..

- ياريت هلى كده ويس .. أبك ما بتتركيش أبك .. طالع عينه زايفة على
حاجة الناس ..

كسفى .. أقول له باللا بينا نروح .. يقول لى .. استنى لما الولد يخلص
الهيلاى بتاعه .. ولد قاعد على الترابيزة اللى جنبى .. فضحنى .. يقولوا ايه

ما بتجولوش حاجة ..

وتفشمك أمى فى خجل . ثم تقول له فى تحد :

- وايه يعنى .. ما بتجولوش هيلاى هوه كمان ليه ..

- قلت له .. قال لا مايز كاتززة ..

- كنت هات له هيلاى كمان .

- ماريفيش .. الظاهر انه اتكسف لما ضحكوا عليه ..

لم أشجل .. أنتم لا تفهموننى .. تعملون الأشياء إلى غير معناها .. لم أكن

أريد الهيلاى ..

كل ما حدث ، هو أنى أصبحت بمنظر الولد .. شعرت بما يشعر به .

أحسست أنى أفهمه . قريب منه .. يبدو الاغاندة فى أن اتفاهم مع الكبار ..

هذا الحادث مارال عالقاً فى ذاكرتى اظن أنى لن أنساه أبداً .. ما الذى

يجعلنا نتذكر أشياء . وننسى أشياء . ترى أى أشياء حدثت لى ونسيتها ،

لا أشك أنها كثيرة . كثيرة جداً . الأشياء التى نذكرها تحركنا فى الظاهر .

والأشياء التى ننساها تحركنا فى الأعماق ..

- ١٢٠ -

هل لنا انفسك .. على أية حال هذه فرصتى كى اتخلص من يوسف
عبد الحميد المحملى الذى يعيش معى .. أنه يغير من نفسه ليفرق فى مشاكل
الآخرين . يلهث وراءهم . علمت الصحافة أن يهرب من نفسه .. لا أظن أنى
اتنفسك .. كل ما أريده هو أن أكون مخلصاً مع نفسى ، أن تكون هناك
صدائقة بينى وبين نفسى . أقول كل شيء . أواجه نفسى بكل شيء .. حتى
أوجرحتها .. حتى لو أهدمتها ..

أريد أن استعيد الذى فقدته ..



كنت أقطع شارع السد مرتين كل يوم فى زهابى وإيابى من مدرسة خليل
أنا الابتدائية ، كنت أسير والذعر يملأنى ، عينى مضطربتان زائفتان ،
انفاسى مضطربة كل رجل أمر به سيخطفنى ، كل امرأة فى الملاحة اللف ترتقبنى
من خلف البزق وتصبوب لى عينها السوداء لنتصدينى ، كل طعام أراه
وأشم رائحته مسموم ، براغيث الست مسمومة ، الكفوى مسموم ، والكثافة
مسمومة والخيال مسموم هكذا قال لى أبى ، وهكذا قالت لى أمى تنفيذاً
لتعليمات أبى . كنت أصانف أحياناً الحصى وهو يسلك النار ويلعب
بالغمارين ، أو النقرآن يرفس والصولجان مرتقع على أسنانه ، أو القرداتى
وهو يأسر القرد المجهز ليحجن عجب الفلاحة ، وكانت الحركة فى الشارع تكاد
تقف ، لتشاهد هذه الألعاب ، الذى يهبط من دراجته ليتفرج ، والثى تحمل
الصاج وتندس بين الزحام لتتفرج ، والذى يقرض أسنانه ويتفرج ، والذى
يشب على أصابع قدميه ليتفرج ، وأنا وحدى لا أستطيع أن أتفرج ، تدوى فى
أذنى تصلح لى ، هادرة رعدة . كل هؤلاء الحواة لصوبس وقلة ، والأولاد
للفاسدون هم وحدهم الذين يفلون ويتفرجون ، أولاد ليس لهم أهل وتنقصهم
التربية ..

كنت أسرع كالطارد إلى البيت ، وأصعد السلم وأنا الهت . لا أدرى كيف

نجوت من كل هذه الاخطار التي تعترضنى في الطريق ، ولكنى لمال من النافذة
في ساعات العصر ، ارقب الشارع في قضمول ونهم ، ارقب بهجت وحمودة
وأعش يلعبون الكرة ، ويجرون وراء عريات الرش ، حفاة ، رلعوا جلاليتهم ،
لمعرت سيقانهم وأحاذهم لتستقبل المياه المتدفقة ..

كنت اللعب معهم في مكاني خلف النافذة ، اأهاري ، وأركل الكرة بقدمي
فتصطدم بالجدار أسفل النافذة ، وأشعر بالماء يفسل ساقي ، والوحل والطين
يلوثان أصابع قدمي ، وأسمع السباب والشتمية ، فتنتابني رجفة خوف ،
واتسائل : هل أستطيع أن أردد مثلهم هذه الألفاظ .. هل أستطيع أن أرددها
ولو همسا ..

وتأتي ساعة الغروب .. فأكون مع خيال غامض ، النيهوت تنكمش ،
وتأمسية شفافة لتسفل على الشارع بمن فيه ، وكان الضمجة تبعده ،
والزمام يتفرق ، والناس تتمهل في مشيتها ، والشارع يلين ، يغوص فيه
المارون ، وهندئ الملح عفريت اللين قادما من بعيد ، يجري ، يرتدى بدلته
الصفراء ، وتغطي رأسه طاقية من الصوف الأبيض حولتها الذفارة إلى لون
رمادي ، يحمل في يده عصا طويلة جدا ، في رأسها ثوب ، وأكتم أنفاسي وأنا
أرى في دهشة .. المصاييح تصوء واحدا تلو الآخر .. ويختفي العفريت في
صمت وسرعة ، بينما يقاوم أنفش الغشة ، فيواصل اللعب ، ثم يهدأ مع بقية
الأولاد عند مصباح غاز ، وتطل من نوافذ المستوصف المروضات ، واحدة في
شباك ، وأثنان في شباك آخر ، اليد على الخد ، والأتان في الغم ، وضحكة
عالية تطرقع بين لحظة وأخرى ..

في ذلك الوقت ، قبل أن يشتد الظلام ، ويشتد ضوء المصاييح ، كنت أمتنع
بسماع نداء الباعة ، كان بانع الجميز يقترب في بطة شديد ، يدفع عربته ،
منشدا

« لين أمك يا »

« على مك يا »

« جميز »

والخيار والبالونجان المخل ، ويوريك سخن جينة وعجمية وتوبى .. كلها
سموم يتدنى عليها الباعة ، وأسمع النداء ، واتسائل لماذا لا أذوق السم ..
وفجأة أسمع نداء أمي ، وأنته إلى أنني مازلت داخل البيت ، خلف
النافذة ، فانسحب إلى الصالة لأجد الرغيف وقطعة الحلاوة الطحينية وقطعة
الجبن الرومي والزيتون الأسود ..

- ماما .. أنا نفسي في سمك مقل ..

- بكره أعمل لك سمك ..

- أنا عايز من السمك اللي في الدكان اللي على الناصية ..

- بابا محرج علينا نشترى سمك من السوق .. اللي بياكلوه بعد الشر عليك
بيتسمعوا ..

- ربحته حلوه ياما ..

- بكره أعمل لك أحسن منه ..

- لا .. أنا عايز من اللي في الدكانة ..

- بكره أعمل لك أحسن منه ..

- ما أقدرش بالهني .. يجيك اسهال .. أبوك يموتني ..

وأكل الحلاوة والجبن ، والفكر في كل هذه الشرور والسموم التي تحيط بنا
وتنتظرتنا في الشارع ..

لم أخف من الشارع وحده .. خفت أيضا من المدرسة ، كان أنفش يجلس
خلفي في الفصل ، رغم أنه أكبر مني وأطول مني ، له أنف ضخمة لم أره مثلاً
في حياتي ، صوته غليظ ، وكان المدرس يضربه ، فيثور في وجهه ولا يبكي
أبداً ، وعندما نخرج إلى الحوش ينقثم أنفش لنفسه ، يتحول إلى غول شرس ،
يصبب نغمته على كل من يلقاه ، ويصبب نغمته على بالذات .

كنت خجيفا قليل الجسم ، لا أشتري في الخناقات ولا انضم للعصابات ،
بل أنزوى في الحوش ، وأجلس على دكة تحت الناقوس ، لأنني كنت أحب
مراقبة عم بمسيوني ، وهو يقف ممسكا بساعته . ينظر إليها في قلق ويده
ممسكة بسلسلة الناقوس ، ثم يتجهج وجهه ، ويضع الساعة في جيب

الصدري ، ويدق الناقوس بكلتا يديه ، فيتحركه اللسان الضخم في داخل
الناقوس ، محدثاً ذلك الرنين الكبير الذي العريض .. وكان أنفـش يرائي
أحيانا ، فيعربى وهو ينظر إلى شربا ، ثم يقف ، وكان نظراته لم تشف عليه ،
ويتقدم منى ، وينحزى بأصبعه في صدري ، منهكاً ..

يا واد أنت قاعد لوحده ليه ..

مقدور راسي ، ولا استطيع الكلام ، ويستأنف أنفـش صراخه .

ما تدر على .. بتقنـزج ليه ..

أهـس وجلا ..

أنا بتقنـزجش ..

لا .. أنت بتقنـزج .. فاكـر نفسك مين ..

وبلـقت إلى من معه .. ويقول ساخراً كأنه يشتمني ..

علشان أبوه مدرس ..

ويصيح واحد ..

وأبوه مدرس صحيح ؟ ..

يقولها في دهشة وحسرة . بينما يصيح آخر ..

متصدناقوش ..

فيصرخ أنفـش ..

ايه يعني مدرس .. الفتش أحسن منه . الفتش يريد أبوه يا واد ..

ويتحول خول إلى غضب ، ولكن لا لجسر على فعل شيء .. أهـس بصوت

متحشرج ..

والله لاشتكيك للأندى ..

تشتكيني يا واد ..

ويبتكني في قدسي محدثه الغليظ ، ويجذب قميصي يريد أن يعزقه .

ويصيح وهو يرتعش من الانفعال .

أنت عايز تتخافق معايا يا شاطر .. هو .. يا واد أمك ..

واسمع الشناتم الجارحة ، فأكاد أبكي ، ولكني لا أبكي . ويبدو أن

متنـزى كان يثر الشفة ، إذ يتدخل الآخرون ، ويحاولون من أنفـش ويبني ،
فيتبركني وهو ينظر إلى في حقد ، ويبسم ابتسامة من يتشفى .. ومع ذلك
أشعر وهو يتعد ، أنه خائب ..

كنت اتحاشاه ، ولم أشكه لأحد .. حتى عندما كان يتمزق حذائي بسبب
ركلة قوية صوبها أنفـش عامداً .. وأعود إلى البيت ، وأدعي أنني كنت لعب
الكرة ، ويوبخني أبي ، ويتهمني بلتي أن أفلح ، ويتهم أمي بأنها القسدتني ،
فتحزن ، وأحزن من أجل أبي ..

كان خول من أنفـش مقصوراً على ملاقاته ، ولكني عندما أعود إلى البيت
وأرقبه من النافذة اتحسس له . وهو يسيطر على الكرة بهسمه الضخم ،
والعابه الخشن . وهوته الغليظ وشنائمه التي يطلقها في غل وكأنه فقد
عقله .. كنت أشعر بنشوة غريبة .. عندما أشاهده يتشاجر ، ويتمزق
جليبه ، ويسمر غير مكرث شيء ، وأد كلف التمزق عن ظهره أوكتلي .
ذات يوم تحولت مخاويل من أنفـش إلى صداقة ، كان قد جاءنا مدرس
حساب مجنون يدخل الفصل وبه حقيبة سمسريت وكنا نقة ، له كعادتنا
ونرفع أيدينا بالتحية ولكنه منذ أول يوم وأول لقاء .. لم يقل لنا « جالس » بعد
التحية بل صوب إلينا نظرات غريبة بأسمه وفتح الحقيبة السوداء وأخرج
منها مسطرة خشبية مضلعة ، وقال بصوت هادي :

خليكم واقفين .. انتم شافين إيه اللي في أيدي .. ذي اسمها ست
الحاجة ..

وشخط فجأة بصوت رهيب :

كله يفتح أيده ..

قيل أن نفهم ماذا يريد كان قد انطلق يضرب الفصل كله ، واحداً واحداً
بغير استثناء ، وإذا صدر من أحدنا صوت ، أو اثنين ، هاج ومقد سيطرته على
نفسه . وناقوس حاجباه ، وظل يضرب صاحب الصوت ، حتى ينهار ويتكئ
على الدرج ، وبعد أن يفرغ من الضرب ، يعود إلى مكانه ويبسم في هدوء .

وكأنه لم يفعل شيئاً ، ولكنني كنت الاحاححبات للعرق تتقاطر من جبهته ، كما لاحظت لاحقاً انعاسه وشحوب وجهه ..

ذات يوم رفض افنش ان يمد يده ، فصاح سفعان افندي ..

- امتح ايديك يا مجرم ..

فاجابه افنش بصوته الغليظ المتحدي ..

- لا موش فاتح .. هو ايه هو ده ..

فضربه بالمسطرة على كتفه ضربتين وقبل ان يضرب الثالثة اسك افنش بالمسطرة وانتزعها منه .. وفجأة تغيرت ملامح وجه سفعان افندي ، ذكرني بشخص يعرف اسم بيتي في الصباح ، وجهه ذليل ويده ترتعش ويقول بصوت مملو .. ادركني حتى لقمة غموس لله .. وكانت أمي تضحك وترسل له مع فاطمة الخدامة رفيف عيش وضمن ملوخية او يامية .. وتقول في عجب ..

- انا عمري ما سمعت شعاع بينادي على غموس إلا الرجال ده .

ثم تقول كأنها تخاطب نفسها

- إنما والله معذور .. ح يعمل ايه بالرغيف لو حده ..

وكانت فاطمة تبدي الامتعاض وهي تحمل صحن الطعام وتنتم ..

- وجع بطنه .. شعاع وعاييز يطبخ ملوخيه ..

وكنتم ابترسم .

تذكرت هذا المطر ، وسفعان افندي يمد يده متوسلاً إلى افنش .

- هات المسطرة علشان اضربك ياروك .. يا مجرم

وانفش يرفص .. في عداد وتصميم ..

ويرداد وجه سفعان افندي دلة وتوسلاً ..

- يا ابني هات المسطرة .. اما يابوك ..

وابترسم

وكان ابتسامتي هي المخرج الوحيد لسفعان افندي من الورطة التي وقع فيها ، إذ ترك المسطرة ، وانفض عني صراخاً في جنون ..

- اطلع عند المصورة يا مجرم .

خرجت وأنا أتصور إني ميت لا محالة ، وكنت أخرج من الفصل وأهرب من المدرسة كلها ، وعاد سفعان افندي إلى انفش ، وأخذ منه المسطرة ، ثم عاد إلى ووقف يتأملني عابساً ، وفجأة نهل وجهه وصاح مشيراً إلى صندوق خشبي يستعمل في إلقاء النملات ، وأمرني ان اجلس داخل الصندوق .

وضج الفصل بالضحك ، أما أنا فخليل إني أني أحلم ، اسي في حياة أخرى غير مضمومة .. ترددت ، ولكنه لوح بالمسطرة في وجهي ، فاقترعت بضرورة الامتناع للامر في الحال ، وجلست القرفصاء داخل الصندوق .. كنت اجلس على حافتي وقدماي داخله ، وحك سفعان افندي طرف المسطرة في ذقنه ، وعيناه تضيقان وتتسعان وحاجباه يتقلصان ويرتفعان وينخفضان ، ثم استدار ناحية انفش وصاح لي .

- انت يالوح - تعال هنا ..

خرج إلي افنش ، وهو يتمايل مبرزاً عضلات ساعديه - وولف امامه واستدار سفعان افندي إلى بقية الفصل وأشار إلى اثنين آخرين ، خرجا وولفا بجوار انفش ، وصاح فيهم ووجهه يفيض بالسعادة ، وهيناه لثمنان بفرح وحشي ..

- شيلوا الزبالة دي .. وحطوها على الشباك ..

نظرت إلى انفش وزميليه . فوجدتهم يترددون في تنفيذ الامر ، عيونهم قلقة يبيي وبين الناقذة ، ولكن سرعان ما اشرقت البهجة على وجوههم ، وكانهم اكتشفوا لعبة مسلية ، وحملوني بالصندوق ووضعوني على حافة النافذة .. كنا في الطابق الثاني

صاح التلاميذ مهلين ، وتركهم سفعان افندي يهللون ، وأنا ارتعد وارتجف مكانتي ، أية حركة قد تبديرتني ، ستعذبني محطماً .. لم أخف في حياتي مثل ذلك اليوم ، وكلما خفت تذكرت ذلك اليوم دوار في رأسي ، قلبي يئن بصوت ، الهواء البارد يضرب ظهري المبلل بعرق مثلج ، صور محمومة

تعريف في رجلي ، لوي امي صرخ ، ابي يلف مستسلما وهو يراني اسبلا من
 النافذة ، سحان القدي يهجم على في لية لحفة ويدقني بالصندوق ..
 بعد انتهاء المحصة ، جاء أنفش ، وريت على كتفي وقال :
 - مخلص ماتزعلش .. روح اشككي للناظر .. قول لأبوك ييجي يتكلم مع
 الناظر .. ده يتروك ..
 والتقت أنفش للملتحق حولنا وقال ..
 - سحان القدي مايعرفش ان أبويوسف مدرس ..
 ثم علم يقول في :
 - ده والله ياأبني يقدر يديه في داعية .. ولاد المدرس مع ماخذش يقدر يعمل
 لهم حاجة ..
 وسألني ادهم وهو خائف ..
 - أنت كنت خايف ..
 هعست :
 - لا ..
 فصاح أنفش .
 - ده اشجع واحد فيكم ..
 وصوب إلى نظرة من يريد أن يتفاهم معي ، ويدعوني إلى صداقته
 وابتمس ، وابتمست .. وسرنا معا في الحوش ، وهو يحاول أن يكون رفيقا
 مؤدبا في كلامه ، كان يتحدث بهادقة ، والدموع تكاد تنظر من عينيه ..
 وقال :
 - أنا ح اقول لخالي كمان .. يكتب شكوى لوزير المعارف .
 اطرقت براسي .. وسكت .. لمضى يقول ..
 - اصل أبويا مات .. تعرف ياأبيوسف .. أنا امي بتقولني إن احنا كنا نلص
 أغنيا .. تصدق .. كان عندنا فلوس كتير .. وبعدين أبويا ضمن واحد في
 تجارته .. جه الواحد ده ، الله يخرب بيته .. فلص .. وراحت فلوس أبويا ..
 مات من الحسرة ..

- البقية في حياتك ..
 - خالي موش غني زي أبويا . إنما أهو يقدر يدع لامي حلة .. يشتغل
 محقش في التروماي .
 سألته في اهتمام .
 - ييقش على الكمسارية ..
 قال في زهو :
 - وعلى الركاب .. بالك لوركبك التروماي .. لو أجدع باشا ركب التروماي
 ولا دفعش للتذكرة ، خالي يعمل محضر للكمساري .. ويدعع الباشا ثمن
 التذكرة .
 وصرنا بضع خطوات قبل أن يقول أنفش :
 - دي وظيفة مهمة ياأبني .. أحسن من مدرس .. حتى أسأل أبوك .. زي
 الطباط ، بيلبس بدلة في الصيف صفرة بزازير نحاس ، وفي الشتاء بيلبس بدلة
 زرقه صوف إنجليزي ثخن كده .. وزاير أبنوس ..
 صدقت كل حرف قاله لي .. وشعرت بشيء من الأسى .. أبوي ليس مثل خال
 أنفش ، وعندما عدت إلى البيت ، لم أقل شيئا لأبي عن حادث صندوق
 المهملات ، وطبعا لم أقل شيئا لامي ..
 وفي اليوم التالي سألني أنفش .
 - قلت لأبوك ..
 - لا ..
 - ليه .. خفت ..
 - قلت في حجة ..
 - ما أقدرتش ..
 فبدأ عليه الانشغال بالتفكير . ثم هز رأسه وقال ..
 - ماتزعلش .. لنا ح اضر بورك في الشارع وهو راجع من المدرسة ..
 فهالتي الفكرة ، وحاولت أن أجعله يعدل عن قراره .. فسألته .
 - وخالك .. موش ح يشتكي لوزير المعارف ..

فصحت في عصبية .. وأشدت ضحكك عالياً ، صاحباً ، كأنه يتكلم من الضحك .. وقال وعيناه مغروفتان يدموح الضحك :

- خال مين يا أبني .. ومن يسأل عنه هو حياته حاجة ..
سألته جاداً :

- هو .. موش مفتش ..

قال في مرارة :

- ويعني ايه مفتش .. ده عمر ما كان في جيبه نص ريال .. عمال يشعبط في الترومايات .. ويرجع آخر الليل عنده روملتينم .

وهز راسه وقال ساخراً :

- أنت لسه صغير ..

- يعني أنت اللي كبير ..

- أنا عندي ثلاثاشر سنة ..

كنت وقتها في التاسعة من عمري في فصل ثالثة ثالث ..

وكنت أشعر أنني لا أفهم أشياء كثيرة ، ورغم ذلك أشعر كأن احساسا مبهما يقودني ويهركني ، وكان هذا الإحساس يقول لي امنع أنفش من ضرب سفعان أفندي ، ان هذا عمل خطير ، لا يمكن الاقدام عليه . ومع ذلك استسلمت لأنفش وهو يجذبني من يدي بعد انتهاء اليوم الدراسي قائلاً في اهتمام وعلى وجهه علامات الجهد .

- تعال معايا ..

- ح نروح لين ..

- ح نضرب سفعان أفندي ..

وسمرت مع أنفش ..

●●

تلقت حول وقد أيقنت أنني ثائه .. هذه للشوارع لا أعرفها ، إننا نتبعد عن طريق عودتنا إلى البيت نخوض في طرقات لا نهاية لها ، مجهولة . وإننا لست

وإننا أن أنفش يستطيع أن يعود بي إلى شارع السد ، ولكني لا أستطيع أن أقول له إني لا أثق به ، رغم كل شيء هو طيب وغلان ، لا أريد أن اهدد صداقته ، وأجعله عدوا لي من جديد . إنه قوة بالمشة بلا عقل ، الفاظ نابية بلا خجل ، ولكنه طيب ، سأتركه يتوه ، وسأتحمل كل ما يحدث ، سأتحمل قلقهم في البيت ، وكلمات التوبيخ التي سيستقبلونني بها ، لو كان أبي في البيت سيضربني ، لو كان في المقهى مستقرصني أمي في هخدي ، سأرى علامة زرقاء في فخذي .. فرصاتها تزلني ، سأتحمل من أجل أنفش .. لست خائفاً منه ، ولكني لا أريد أن أتخلى عنه ، لا أستطيع أن أتخلى عنه ..

المشي في الشوارع مع أنفش له طعم جديد ، لا يهمني شيء ، لا أكرت بهدير الترام ، ولا أبواب السيارات ، لا أخشى عيون الناس ، أنا مع أنفش القوي ، مع صديقي أنفش ، ومع ذلك فإني أئن نحن ذاهبان .. كيف سنمش على سفعان أفندي .. كيف سنضربه .. ما أدراه أن هذا الطريق الذي نسير فيه يؤدي إلى سفعان أفندي .. أسئلة تلح علي ، ولكن لن أبوح بها ، لا أظن أن أنفش سيستريح لو سألته ..

وداخل شعور بالاطمئنان .. لن نمر على سفعان أفندي ، لن نذهب إلى أي مكان .. أنفش لا يعرف شيئاً على الإطلاق .. إنه ثائه مثلي ولا يريد أن يعترف بأنه ثائه ..

سرت وعيناي مصوبتان إلى نهاية الطريق ، لا تريان شيئاً ، ولكنهما تتوقضان شيئاً مفاجئاً يبرز أمامهما في أية لحظة .. شيئاً قريباً لا يخطر على بال

ويلغنا محطة ترام ، وكان ترام رقم خمسة يغادر المحطة ، عندما صاح أنفش فجأة وهو يجري مندفعاً نحو الترام
- تعال تلحقه .

لم ينتظرني ، وقبل أن أفكر في إطاعته كان قد قرر إلى سلم الترام ، الذي انطلق مبتعداً ، وهو يلوح لي بيده يستحثني على اللحاق به . وقتت ذاهلاً بلا

حزناً .. ونحن الترام قد قطع نصف المسافة إلى اللحظة التالية ، عندما اندفعت أخرى وراءه .. الترام يجرى وأنا أجري وراءه .. وصيحات تحذير تنوى في أذني ، وأبواق للسيارات وشتايم وصرخات تطاردني .. جريرت وجريت حتى شعرت بألم في قلبي ، وأنفاسي تمرق صدرى وسفائى تخزهما إمر ، ولم أعد أستطيع مواصلة الجرى ، والترام يبتعد مسرعاً ، ولم أعد قادراً على الوقوف ولا المشي ، قدماى تتدحرجان ، والعرق يتسبب من وجهى ويغلى عيني كالدموع والدميا من حولي تتسع وتبتعد ، وفي حلقى طعم جرح ينفذ دما شعرت أنى عاجز ، ضعيف ، صاع منى أعمش وهو وحده الذي يعرف طريق عودتى ، قبل أن أفقد من مخاوى رأيت لنفسي قادماً يضحك ولكنه زعق غاضباً عندما اقترب منى ..

.. ما ركبش ليه ..
.. مالحقش ..
.. مالك بلمت .. وأنا عمال أضاورك .. لحد ما الترومى مشى .. ده أنت خيبة قوى ..

اطرقت ضجلاً ، وهو يسخر منى إلى أن قلت له في عناء .
.. إهنا رايعين فين ؟
.. باب الخلق ..
.. هو سفعان الهندى ساكن هنالك ؟
.. أيوه ...
.. واية الل عرفك .
.. أنا عارف ... بأشوفه يركب ترومى مرة خمسة كل يوم ..
.. وتعرف بيته مدين
.. نسال عنه .. فيها إيه ..
.. عايز تضربه في بيته ..

كنت اتخيل ونحن الاثنان ونقتحم بيت سفعان الهندى ونضربه .. كنت اتخيل بيتنا ، وسفعان الهندى مكان أبى ، وأنتا بتنى شعرييرة ..

- ١٣٢ -

قال انفش في ضيق :

.. كان زماننا وصلنا ..

قلت مستسلماً :

.. نركب الترومى الذى بعده .

قلت فى تردد :

.. أنت ما تحرقش تتشعبط .. ولا تعرف تظ .. أنا يا عم ادمعش فلوس

في الترومى ..

ثم ساكنى في لهفة :

.. معاك فلوس ..

.. مماليا نص قريك ..

.. هاتيه ..

قلت خائفاً وأنا أضغ يدي في جيبى لأخرج القروشين :

.. روح ترجع البيت إزاي ..

أيقنت أن نقودى خائفة ، وبعد أن أسلمنا له لن أستطيع العودة إل

بيتنا ..

قال وهو يمد لى يده في انتظار النقود :

.. أنا ح أربحك .. ما تخفش . بس هات النص قريك ..

خطف النقود ، وتخصصها كأنه يراها لأول مرة في حياته ، وضحك وقال في

حرارة :

.. أنت زى أخويا ..

قالها في تآثر شديد .. فصدفته ..

ثم أربف قائلاً :

.. إحنأ ح نقضل صحاب على طول .. ح يلعب مع بعض .. وننكسح مع

بعض ..

وقطع كلامه وبخل دكان بقالة وقال للدائع وهو يتناول نقودى

.. اديني سيجارتين قبل ..

ونظر إلى باسماء ، ولعله وجد وجهي مصغراً ، إذ قال مشجعاً ..

- دول ثلاثة ملهم يس ..

لم أقل له إني خائف من شرائه للسجائر ، وتركته يظن أن خوفه على النقود ، وأخذ السجارتين ، وعد الباقي أكثر من مرة . وأنا أتوقع أن يعيده إلي ، ولكنه وضعه في جيبه مع السجارتين وقال :

- بلاش تضرب معفان أفندي النهاردة .. تعال نتسح ..

- لسين ؟

- تعال ندروح نتفرج هن القطارات .. صرنا ما شفت قطار ..

هذا مشروح خطير ، القطار هو الذي يسافر فيه أبي عندما يعمل في بلد بعيد .. وأتيت القطار مرة واحدة ، كنت أودع أبي إلى المحطة لأن صديقه عباس أفندي كان معنا ، وقال إنه مستعد لإعادتي إلى البيت .. كان مع أبي حقيبة كبيرة أهدتها أمي ، وفي المحطة كان أبي يجري وراء الحمال الذي يحمل الحقيرة ثم تذكر أنه يجب أن يقطع تذكرة السفر فصاح في عباس أفندي أن يجري وراء الحمال ولا يتركه يغيب عن عيني ، وجريت أنا وراء أبي ولكنه أمرني أن أذهب مع عباس أفندي ، وغضبت بيني وبين نفسي من أبي .. ولكنني سمعته عندما دخلت القطار وركبت إلى جانبته ، وقطع أبي حديثه الطويل مع عباس أفندي وسألني :

- هيه .. تبجي معايا دمنهور .. قلت مصدقاً :

- أبوه ..

فصحك ولم يقل شيئاً وواصل حديثه مع عباس أفندي ، بينما صرحت ونشوة حارة تملأني ، سأسافر إلى دمنهور مع أبي ، إنها البلاد التي يعمل فيها ، سأعيش معه بعيداً عن أمي .. لقد كبرت أنا أيضاً .. دمنهور مليئة بالبيوت والمدارس ، القطار يمرح في شوارعها وتختلجني كبرتي ، وأني أعمل مع أبي ، لم أتحيل عملاً بالذات ولكنني كنت أتصور أنني قفزت إلى المستقبل ، وكان رحلة القطار ستقطع سموات عديدة من عمري ، وسأصل إلى دمنهور وأنا كبير .

إلى أن دق جرس القطار .. وإذ بابي يقول لي :

- يا لالا إنزل بآه مع عمك احسن القطار يقوم بيك ..

قلت له في دهشة :

- هوو أنا موش جاي معاك يا بابا ..

ضحك وقال :

- لا .. أنت ح تتعد هيا مع ماما .. علشان تروح المدرسة ..

لم أصدق أنني لن أسافر معه .. ظننت أنه يمزح ..

قلت وأنا واثق إنه لن يرفض

- لا .. أنا جاي معاك ..

قال لي هدوء أعرفه .. هدوء يسبق الغضب :

- إنزل بآه يا يوسف .. وخليك عاقل ..

- لا .. موش نازل .. أنا جاي معاك ..

كان السفر بالنسبة لي أمراً مفروغاً منه ، ألم يعدني به ، ألم يسألني بنفسه إن أسافر معه .. لا بد أن أسافر إلى دمنهور .. لا بد أن أرى كل ما كنت أتفعله من لطائف ..

صاح

- إنزل .. ما فيش وقت ..

وتدخل عباس أفندي ..

- ياللي يا حبيبي ..

قلت لأبي متوسلاً :

- أنت موش قلت أجى معك مازلت واثقاً إنني مسافر معه ولكنه صاح غاضباً :

- يا ولد إنزل .. القطارح يمشي ..

إن قان أسافر ، لماذا يكذب علي ، لماذا يفرريه ، لماذا يتخلى عني ، لماذا يحرمني من كل ما تخيلته .. لقد صدقته .. لا بد أن أذهب معه ، لن أنزحرج من مكثني .

ومد أبى يده ، وجذبني من مقبضى ، ضاع كل أمل في السفر .. ضاع كل أمل في تصديقه ..

وبكيت

لطمنى على وجهي ..

.. أما أنت حمار صحيح ..

أنت تكذب .. أنت تكذب .. لا تكذب يا أبى ..

.. يا لى امش أنجر ..

تحركت فزعاً والدموع تغسل وجهي ، وعباس أهندي يجبرني إلى باب العربة ويحملني إلى الرصيف .. وقفت أبكى ، وأبى يطل من النافذة .

وصباح

.. قـرب ..

.. تراجت خائفاً ..

.. ياولد قـرب ..

.. ارتجت فزعاً ..

.. قرب منى ..

حملني عباس أهندي إلى النافذة فأخرج أبى منديله ومسح دموعي وهو يردد في صوت غلبه التأثر :

.. أنا كنت فاكرك عاقل ..

أقتطعت مشاعري .. أنه يكذب إنه حزين ، إنه يحنني ، ولكنه لطمنى على وجهي

.. ما تغلظيش أرعل منك . وأسافر وانت بتعيط ..

هذا كلام غير مفهوم . أنت السبب في كل هذا .. أنت الذي عرضت عني السعر .. لماذا تحرمني منه . أردت أن أكف عن البكاء ، ولكنني لم أستطع ..

ودق جرس القطار ، وانطلق صوت صفارته ، وتحرك القطار ، تحرك وأنا لست فيه ، القطار ذاهب إلى دمنهور .. إلى ذلك البلد البعيد الذي عمل فيه الكبار ، وانفجرت في البكاء ..

بكيت وأنا اسمع إلى جانب عباس أهندي في الشارع ، بكيت وأنا أقف أمام دكان يشترى لي منه شيكولاته .. بكيت عند محطة الترام . بكيت وأنا أرى يد عباس أهندي تمرق ورق الشيكولاته ، وتكس قطعة منها في فمي . بكيت وطعم الشيكولاته الحلو يملأ فمي . لم أكف عن البكاء حتى ركبنا الترام وجاء الكسار ليقطع التذاكر ، وعباس أهندي يشير إلى ويطلب نصف تذكرة لحظتها فكرت في إني صغير .. ومتهور لا يذهب إليها الصغار أمثالي .. ولكني عدت إلى البكاء وأنا أدخل باب بيتنا ..

ظنت أمي أنني أبكى لأنني أفضل البقاء مع أبى على البقاء معها ، لم تعلم لماذا بكيت ، لم يعلم أحد أنني بكيت لأن أبى كذب عليّ ، خدعني .. ولم يعلم أحد أنني بكيت لأنني لربكيت القطار وسافرت إلى دمنهور لأصبحت كبيراً .. ولقد ركبتي القطار ، ولكنني هبطت منه قبل أن يتحرك .

هل سأستطيع ركوب القطار مع انفض .. هل سيقفز انفض إلى القطار كما قفز إلى سلم الترام . لو فعل فسأنتبه ، وسنسانفر إلى دمنهور أو إلى المنيا ، أو إلى أي بلد من تلك البلاد التي كان يذهب إليها أبى ..

سرت مع انفض وعبرنا شوارع وميادين ، والدنيا تزداد اتساعاً ، وتزداد ارتفاعاً ، وتزداد ضجة ، حتى خيل لي أنني ابتعدت عن بيتنا سنوات وسنوات ، وضعفت تفكيري في قلقهم وانتظارهم لي ، وتراجع حول منهم ، واشتد تعلمي بأنفض ، وتضخم إعجابي بتعبي وإرهاقي وآلام ساقتي وتقطع انفاصي .. سرت اقتحم طريقاً بعد طريق ، ميداناً بعد ميدان .. أعبر الشوارع بلا خوف أو تردد ، مندفعاً إلى الأمام تاركاً وراءى يوسف الطفل ، كأنى أصبحت يوسف العجوز .. حتى وصلنا إلى ميدان فمسيح ، كل شيء فيه صغير بالنسبة لحجمه ، البيوت لعب ، والتراجم لعبة ، والسيارات لعب ، والناس لعب .. يوسف الميدان تمثال فلاحه وأبى الهول ، تحيط به حديقة واسعة .. ارتقمينا على حشائش الحديقة ، وأخرج أنفض سيجارة من جيبه .. لم يدعشني أنه سيدخن ، ولم يدعشني أنه سألني :

.. معاك كبريت ..

فنهض ، وتركتني ، تبعته بعيني وهو يلتفت حوله ، وينظر إلى الأرض متفحصاً ، ثم يفترض طريق رجل ويسأله ، ثم يعبر الميدان ويبتعد ، فكرت في أن أقوم وأتبعه لولا حوق من السيجارة التي معه . وشايقتني لتي خلتف من السيجارة . لماذا أنا خائف منها .. خائف من النار .. خائف من اللدخان .. خائف لأنها للكبار . ذات يوم اشترى أبي علبه سجاير ليضعها لضيوفه ، وغضبت أمي ، قالت له : إنه يضعبق نقوده في كلام فارغ ، يحرق نقوده يلانلر كاللجانين ..

كانت أمي تردى فسقاً بالترتر الأسود ، كان اللستان يعجبني لاني كنت أعبث بالترتر بأصبعي ، وأحاول إخراجها من مكانه وكلماً نهترني أمي ضحككت ولم أكف عن العبث بالترتر ، ماناسبه ارتدائها ذلك اللستان . لا أذكر .. ليطني أستطيع أن أذكر ..

أمي كانت واقفة عند باب الحجرة وأبي خارج من عند ضيوفه ، وشملت أمي لعه ثم قالت في نفور وبصوت كالمهمس :
- أنت شربت سجاير يا عبد الحميد ..
- نفس واحد ورميتها .
- أهوذا باد .. ريمتك وحشة ..

شايقتني أن رائحة أبي لا تعجب أمي ، ونظرت إليه في ضيق ، وأبعدت يدي عن الترت ، لم ينتهها إلى أني أسمعهم ، وانهم ما يقولان .. لم يضرنا بما أفكر فيه ..

عاد أنفسي وفي يده سيجارة مشتعلة ، وقال في باهتمام :

- خذ نفس ..

قلت في جزع :

.. ٧ ..

- خذ ما تخفش ..

- كان يتكلم في هدوء خاطر :
- ما أقدرش ..
- لازم تلخد نفس ..
- بلاش ..
- عسرك ما دخنت سجاير ..
- لا ..
- لازم تدشن ..
- موش عايز ..
- اشمعني أنا ..
- قلت متوسلاً
- بلاش .. موش عايز ..
- خايف من إيه ..
- كان يتكلم في غيظ :
- لا بلاش ..

فمد يده بالسيجارة بعد يأسه من الكلام ، ودسها في فمي .. أحسست بها ثقيلة عنيفة الرائحة ونفخت الهواء من فمي ..

- قال أنفسي بصوت جاد :
- اشبط الهوا ما تنفخوش ..
- إزاي ..
- خذ نفسك ..

سحبت الهواء إلى فمي فاندفع إليه دخان أربعيني ، فأبعدت السيجارة ، لم يصغر أنفسي مني ، ونفث اللدخان بوجه جامد وهو يريقيني صامتاً ، وكأنه يقوم بعمل خطير .. لاحظت أن الغروب يفتشر في السماء ، والسيارات تضيء مصابيحها ، والهواء يبرد ، واللبل يطبق علينا كدري لا يرحم ، مانفقتضت واقفاً وقلت في جزع :

- ياللا بينا نروح ..

ويكبت .. ويكبت وأنا أسير على الرصيف .. ويكبت وأنا أقاوم عبير الشارع .. حتى رأيت رجلاً كبيراً مقبلاً تحوى .. هجريت هارياً منه ..

وعدت بكياً إلى انقش ..

قال سلقراً :

.. يتعيطليه يا شاطر ..

.. والنتبي تروحني ..

.. بقواك أنا مسافر ..

.. بلاش تسافر النهاردة .. علشان خاطري ..

ضحك وقال في شماته :

.. موش عايزني أسافر ..

.. أيوه ..

.. عايزني لروحك ..

.. والنبي ..

.. بوس إيدي وأنا لروحك ..

وجئت .. مستحيل أن أفعل هذا ..

ظل ينتظر أن انقش وأقبل يده .. ثم أصابه الملل فقال في إلحاح :

.. بوس أيدي ..

لزممت الصمت ..

فقال .. ومد يده إلى فمي .. وقال وعيناه تلمعان بلرحة شمس ..

.. بوس أيدي .. وأنا لروحك ..

وأردف يقول مكرراً :

.. بأقواك بوس إيدي .. بوس إيدي .. بأقواك بوس إيدي ..

كان يريد طلبة .. (يغادر وإصرار ..) وأرتفع صوته ، وأزداد حدة وعنفاً ..

.. يا واد بوس إيدي .. بوس .. بوس .. لازم تبوس إيدي .. طيب واد

العظيم .. واد العظيم ثلاثة ..

- موش ح نتفوج على القطار ..

- لا .. أنا عايز أروح ..

وأوشكت على البكاء ..

ما أغرب هذه المحطة .. دائماً لا أصل إلى القطار .. لا لسافر .. دائماً

هناك شيء يدس في فمي .. منذ سنوات كان هذا الشيء حلو .. قطعة

شيكولاتة .. اليوم دسبان يسبح الحلق ..

دائماً البكى ..

قال انقش :

- لروح إزاي .. إحنا بعيد قوى ..

كانت كلماته حاسمة في إثارة كل مخاوف .. ليس هنا مكاني .. انقش ليس

صديقي .. لقد تورطت معه .. لا أريد أن أغادر الطريق المرسوم لي .. البيت

الدراسة .. المدرسة البيت .. مكاني خلف النافذة .. حيث أرقب وأتفرج ..

- أنا ماني .. عايز أروح ..

قال في هدوء :

- روح أنت .. أنا رايح المحطة ..

- ح تعمل إيه هناك ؟

- ح أركب القطار ..

- ح تروح لفين ؟

- ح أسافر ..

صدمته .. وحسده لأنه مسافر ، إنما أنا فكنت قد تخالفت ، الذعر لم يتح

لي سوى الرغبة في العودة إلى البيت ..

القيت عليه نظرة يائسة ، وعشيت خطوتين في طريق عودتي ، ولكن ..

طريق العودة .. إلى أين أتجه ، الميدان واسع واسع .. والشوارع مفتوحة

مقدفة في كل ناحية .. كلها تؤدى إلى مجهول .. لابد أن أسأل الناس ، ولكن

أخجل من سؤال الناس ، لخاف الاحتكاك بهم ، لا أجسر على مخاطبة أحد

منهم .. وهذا الظلام ..

فكرت في تقبيل يده .. ولكنى لم اتوعل أن أقتل .. وهمسكت .

- لا .. موش ح أبوس إيدك

- طيب لا تكلمنى .. ولا أكلحك

أقبل يده .. لن تعرف أمى ، إنها لن تقرأنى .. ها هي يده .. ظهر كفه الاسمر المخدوش لمسمة سريعة بشفتى ويستهي الأمر .. ولكن عينيه تلعبان بهذا الفرح الشرس لا .. مستحيل .. حتى أراهم أذهب إلى البيت ، حتى لو مت .. لا أريد منه شيئاً ، هذه هي نهاية صداقتى به .. أليكن عدواً لي ، فليضربنى ، فليشتعننى .. لن أقبل يده .. كانت أمى تخرج أحياناً لتزور السمت الكبيرة أم راتب بك .. حاجة .. وجهها .. مضى كالبلور ، سيدة صالحة لا تفرق سجادة الصلاة ، كلما زارتها أمى طلبت منها الدعوات ، لم تكن أمى تحدثنى عنها ، ولكنها كانت تقبض في وصف زيارتها للسمت الكبيرة مع أبى ، وكان يسمعها باهتمام ، وكنت أنصت لهما ، وكأننى أسمع حكاية عجيبة .. وأتشغل وجهها كالشبح ، وأخاف ، بعد إحدى الزيارات قالت أمى لأبى إنها رأت أولاد راتب بك .. مدحت وسعاد شقيقته ، صعدا ، وهى تجلس مع السمت الكبيرة ، وأقبل يدها .. مؤذبان ، تربية صالحة .. وتنهدت أمى قليلة .

- أهو يوسف لما يكبر ؟ أنا نفسى أجوزه صعدا ..

ضحك أبى ساخراً وقال :

- وهم يرفسوا ..

احمر وجهى ، كنت جالساً على الأرض ، كائن لا أسمع ولا أفهم ، وتقبلت سعاد ، فماتة كبيرة ، كمروسة كبيرة ، شعرها ناعم ، فستانها أبيض ، لا تتكلم ولا تتسم ، خداما متوردان ، وأنا واقف بالقرب منها ، لا أجسر على مخاطبتها ، وحسرة تأكلنى ..

قلت لنفسى ، لماذا لا أتزوجها ، سأزوجها ، إنها لن ترفض مادامت لى نريد ، أبى هو الذى يرفض ، إنه لا يريدنى أن أتزوج ..

وشغلت طوال اليوم بالتفكير في سعاد ، أراها كالعروسة اللعية ، وهى تصعد إلى السمت الكبيرة وتقبل يدها ، وأريد كلمات لى عن أميها ، وخيل لى

أن لى لم تفكر في تزواجي بها إلا لأنها رأتها تقبل يد السمت الكبيرة .. وخطر لى لى لم أقتل يد أمى ..

لم أقتل هذا أبداً ، وهى لم تطلب منى أن أقتل يدها الآن ، شعرت بالخجل ، ولكنى قاومت ، وفى الصباح رايت لى خارجة من باب حجرتها ، فالتفت إليها بفكر تفكير .. وهجمت على يدها ، فسمحتها مذعورة ، فتشبثت بيدها وقبعتها .. لم تكذ شفتاى ثمسان ظهر يد با حتى انتزعتها صائحة :

- يتعمل كده ليه ؟

انفعلت لسانى ، ورايت وهجا أحمر في عيني ..

وسمعتها تقول غاضبة

- أنت راجل .. ما تبوسى إيد حد ..

ثم ضحكت ، وربت على كتفى ، وجررت لائزى بعيداً ، حائراً في التسع كلامها عن أدب سعاد ومدحت بالأمس ، وتعنيفها لى اليوم .. رغم ذلك استرحت لائزى لست مضطراً إلى تقبيل يدها .. إنى أشغل من تقبيل يدها .. وكلما تذكرت راسى وهوينحنى ، ويدي وهى تجذب يدها ، وشفتاى ليمحان عن ظهر كلها .. انتابتنى رجفة وخشيق .. وندم ..

قلت لانفخ بصوت غاضب :

- أنا موش عايز أروح البيت .. مالكش دعوة بيه ..

وتركته مبتعداً ، وقد صممت هذه المرة ألا أعود إليه .. مشيت دون أن التفت ورأى ، حتى سمعت وقع أقدامه شرع الخطى خلفى ..

وقال بصوت معتذر :

- انت زعلت ..

همسكت :

- يا قولاك مالكش دعوة بيه ..

- طيب ما تزعلش .. أنا ح أروحك ..

شعرت لى انتصرت عليه ..

وبل طوال الطريق يؤكد لى أنه صديقى ، وأنه لا يريد أن يلعب مع أحد

غيري ، وكنت أستمع له صامتاً . وهي يظن أنني ضائع على ما يقول ، بينما كنت قد قررت أن ابتعد عن أنفاسه ، وأطعم كل صفة بيته ..
عدت في الليل ، أفكر في استقبال ، كأنه اللعاب الذي لا يدمنه .. لا مفر من أن يضربني أمي .

●●

عندما سمعت المهمة في أعلى السلم ، انخلع قلبي ، وابتعدت أنني المقصود بهذه الأصوات . استطعت أن أميز صوت أبي ، منعلاً متعباً ، جعلني أبكس ، وأتباطأ إلى صعودي . ولكن ما هذا الآخر . صوت رقيق حاد ، إنني أعرف صاحب هذا الصوت .. الدكتور برعي ..

هل ظن أبي أنني أصبت في حادث ، فنادى الدكتور برعي ، لقد انزعج أكثر مما كنت أتوقع ، وسيتحول إلى غضب عنيف جامع .. سينتقم مني جزء كل لحظة تلقى سببها له .. أكاد أحس اللطمات على خدي ، الكلمات في صدري ، أكاد أسمع صراخه .. ربما أنقذني الدكتور برعي ، إنه طيب ، وجهه ضاحك ، وهو يحبني وأنا أحبه ، لا شك أنه سيمنع أبي من ضربتي ، ولن يتركنا حتى تهدأ ثائرة أبي .. فأسرع بالصعود ..

كانا مازالا يتحدثان دون أن يلتفتا إلى وجه أبي متهم ملامحه غريبة ، وجه أزرق ، والدكتور برعي لا يفسك ، منكس الرأس ، وجهه شاحب أصفر كأنه يعتذر عن شيء ..

كل هذا لاني تأخرت .. لماذا لا يلتفتان إلى ..

كنت آتف على بعد خطوة واحدة منهما ، دون أن يشعر أبي ، أبي يحدق في ذاهلاً ولا يراني ، والدكتور برعي لا يريد أن يعترف بحضوري .. صمتاً .. وجماً ..

ما الذي حدث ..

كدت أفتح فمي وأقول شيئاً ينيهما إلى عروتي ، ولكنني عدلت .. خفت ..

- ١٤٤ -

كلمة واحدة تيدتر مني متفجر صمت أبي إلى عاصفة تقتلعني .. صمتها يفرغني ..

خضوت إلى داخل البيت .. وكأني أسمع صوت نشيج .. فاطمة تبكي .. وفجأة طعنني صوت أبي ثقيلًا يائساً ..

- رايح قين يا يوسف ..

إنه لا يسألني عن أين جئت .. يسألني إلى أين ذاهب .. ما هذا الكبير الغريب ..

وقفت ، وأستدرت إليه ، وكأنه اكتلى بوقري ، فعاد إلى صمته وذهوله ، بحث في وجه الدكتور برعي عن بارقة أمل تساعدني على فهم ما يحدث .. رفع عينيه خلسة وخلفهما بسرعة ، وقد ازداد وجهه شعوباً وأصفراراً ..
أمي .. أين أمي ..

تمولت عنهما متجهاً إلى غرفتها وكأني اتجه إلى مكان مستحيل الوصول إليه ، فطعنني صوت أبي مرة ثانية ، متهاكاً ، مرتعشاً ..

- تعالى هنا يا بني ..

يا ابني ، يناديني ابني .. إذن فهو ليس غاضباً مني ، فهو تلقى لغياي ، بل إنه لا يدري أنني غبت ..

أمي .. أين أمي ..

جمعت كل مضارتي ، وكل شعاعتي ، وسألت ..

- حصل شيء يا بابا ..

كأن السؤال الحقيقي في قلبي .. ما الذي حدث لأمي يا أبي ؟ قال وهو يرفع صوته في قوة وحده ، ويهر يده في حركة عصبية :

- ملأنا تعباً ..

وقطع كلامه .. لاختنقت أنفاسه .. وبكي .. ارتفعت يده التي تهتز في حركة عصبية وغمطت عينيه وأهتز رأسه ، وأهتز صدره .. إنه يبكي .

أمكن هذا الدكتور برعي ، إنني أستجد بك ، قل شيئاً ، أقل شيئاً ، ولكن ظل منكس الرأس ، كان يكاء أبي شيء عادي وطبيعي

ألمى ليست مريضة .. لقد ماتت .. ماتت .. أنا واثق أنها ماتت .. يكاء أبى يقول إنها ماتت .. نشيج فاطمة يقول إنها ماتت .. وأسى الدكتور يرعى للنكس يقول إنها ماتت .. هذا اليوم الغريب المجنون الذى قضيت مع أخفى يقول لـ إنها ماتت .
ماتت .. ماتت .

●●

كان الصراخ يعزق الليل ، والوجوه الغريبة تنغمم البيت ، والأبواب تنفتح وتسد نساء تدق الصدور ، ورجال يتعمنون بكلمات وأقدام تصعد متتالفة ، وأقدام تهبط بسرعة ، وأنا واقف عند باب البيت لا أستطيع الدخول ، لا أفهم ولا أعى ..

جارنا الذى يسكن تحتنا ، الشيخ محمود سليمة ، صعد وتحدث مع أبى بصوت مرتفع ، وكتبنا معا أسماء كثيرة فى ورقة لينشر للنمى فى جريدة الأهرام ، كنت أسمعهما ولا أراهما ، حتى خرج الشيخ قرأنى ، وصمم على أن يهبط بى إلى الشقة ..

وقدت على حصيرة مع خمسة من أولاده الصبيان ، لم أتم طوال الليل ، كنت أستمع إلى الصراخ ، وإلى فأر يقرض شيئاً فى ركن الحجرة ، ولما أوغل الليل ، سمعت طرقات فى الشوارع ، وصوت أخشاب تنساقط ، وصياح صعل ، وشهوه غير عادية قادمة من الشوارع إلى الغرفة .. كانوا نياما ، فقامت متسللا ونظرت من النافذة .. رأيتهم يقيمون السرداق ..

هذا كذب ، غير صحيح .. أسمى شفهض ، سيهود الدمور يرعى ضاحكا ويدخل عليها ويشفيها ، انهضى يأمى ساغض عبنى وأعد إلى رقم عشرة - وساقول .. يارب . وسأفتح عيسى فارك امامى .. كل هذا كذب . الأخشاب التى ترتفع ستسقط ، والوجوه الغريبة ستذهب ، والصراخ سيكف .. وسأصعد إليك .. لا أدري كيف نمت ..

فى الصباح كان معى أولاد الشيخ سليمة الثمانية ، الأولاد والبينات ، وقد تطلقوا بنافذة الحجرة يطلون على السرداق ، يتساربون ليأخذ كل واحد منهم مكانا يتفرج منه .. والصغار يبيكون ، لا يبيكون حزنا على أسمى ، يبيكون لأن لغواتهم الكبار يتمتعونهم من الرؤية ، وأنا منزو فوق وسادة على الحصيد أسمع كل كلمة يقولونها .. وصلت عربة سوداء كبيرة وهبط منها رجل - العربة لها صائتق يرتدى معطفا أبيض .. الشيخ سليمة أبوههم يدخل السرداق .. عبد الحميد لقندى .. أبى .. يصفاح عم يرعى بأشع الطرشى .. الحاج موسى الجزار يدخل السرداق .. حسين لقندى مدرس الألعاب .. من هذا الرجل السمين .. كرشه ضخم .. عامل الكلوبات ينفخ الكلوب ..

كانوا لا يكونون عن التعليق ، وأحيانا يضحكون ، ثم يتذكرون أنى معهم فى الصورة ، فينتابهم وجوم مفاجئ ، ويفتلسون إلى النظرات .. ثم يمسوونى ويستأنفون تطيقاتهم وشحكاتهم .. لا يعنئنى ما يحدث ، لست معكم ، فى رأسى صورة ثابتة لأسمى وهى راقدة على فراشها .. معددة بالأحراك ، متصلبة الأطراف ، مغمضة الجفنين ، على شفيتها عليف ابتسامة .. لو تنهض نجاة .. وينفض هذا الجمع السخيف .. لو تنهض ..

كان صوت الصرخات لا ينقطع ، وديبب الأقدام فوق رص سنا يهز البيت ، وصوت كالفناء الحزين لا أكاد أثبينه يطرئ أذنى .. أو يخيل إلى أنى أسمع .. بين وقت وآخر أسأل نفسى .. لماذا لا أبكى ..

وفجأة .. اشتد الصراخ ، واشتد ديبب الأقدام ، واشتد البيت هزة عنيفة ، واهتز قلبى ، واشتدت رغبتى فى البكاء ، ولكنه استعصى عئى ، وزاد تطلق الأولاد بالنافذة .. وبكى الأطفال الصغار ، فرغمهم الكبار لمروا ما يريجون رؤيتهم .. وصاح لأحدى :

- الفتح لعه ..

وصاح آخر ..

- الجزار يبيد العجل ..

أسمى خارجة من البيت ، إلى أين أنت ذاهبة يأمى .. السماء تستعد

فامر الشيخ ابنه محمود أن يحل للصحن ويأكل البيض ..

ويطلب مني الشيخ سليمة أن أمهد إلى السرداق ، فلما لاحظ ترددي ، قال لي لهجة أمرة لا تخلو من الغضب :

- أبوك عليك .. لازم تنزل له ثم ارفف مستكراً :
- أنت ح تقعد في البيت ليه .. هوانت بنت .. والا فكرت نفسك لسه صغير ..
انت ح تأخذ الابتدائية السنة الجاية .. أنت من النهاردة بقيت راجل كبير ..
لازم تعتمد على نفسك .. ولا تبعش أبوك .. اللي زيك ياخذ باله من أبوه
ويساعده .. قوم لأيس هدوك ،

هبطت إلى السرداق ، فوجدت أبي يجلس عند مدخل السرداق ، ومد يده
وأمسك بكتفي ، وأجلسني بجواره ، كانت عيناه مغمضتين ووجهه مصقلاً ،
وقال باسماً وهو يحدق في بعينين باكييتين :

- احنا فضلنا لوحدا .. عملتها فينا وسابكتنا ..
شعرت أنه من الضروري أن أبكي ولكني لم أستطع .. ومسح بيده على
شعري وقال :

- بكرة انت كملن تكبر وتتجوز وتسبين ..
تذكرت سعد ، وبخاطر لي أنه كان على حق في رفض زواجي ، أن اتركك
يا أبي .. لن أتزوج أبداً .. لن أفعل شيئاً سوى لانتظار عودة أمي .. ستمود
حسناً إليك .. وستمود إلى .. أنا لا أصدق كل هذا يا أبي ..

وكان يتركني ليأبى ذئاء أحد الرجال ، يقدم الرجل له ورقة ، ويتهامسا ،
ويسك أبي بالورقة يراجعها ويلتفت حوله ، ثم يعود ويراجعها وأخيراً ،
يضع يده في جيبه ويخرج بعض النقود ويعطيها للرجل .. ويعود ليرتس
متهالكا على القعد بجانبني ، ويردد مخاطباً نفسه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..
ثم قال والبكاء يعالوه :

لاستقبالك ، سيهبطون بك إلى القدر ، وستصعد روحك إلى السماء .. كيف
تصعد الروح ، أترقتين سلماً لا نراه ، أترقتين في الهواء .. ستليسن
ملابس بيضاء وستقفن أمام باب حديقة واسعة .. يحرس الباب رجل عجوز
له ذفن بيضاء مدبية ، ويفتح لك باب الحديقة ، وتدخلن .. وتعيشين
هناك ، بين الأشجار ، تشربين اللبن ، وتفكرين في ..

ترى هل تفكرين ؟
سمعت صوت بهجت أكبر الأولاد ، وكان أكبر مني ، فهو تلميذ في
الثانوي ..

- موش ح تيجي تشوب ..
لم أقل شيئاً ..
فالتفتوا إلي جميعاً ، كأنني جزء من المشهد المثير ، يجب ألا تفوتهم رؤيته
وتقدم بهجت وجذبتني من زراعي ..

- تعال يسي .. دي جنازة أمك نهضت ، فافسحوا لي مكاناً .. السرداق يا فتى
الفرج الناس .. النعش يهتز فوق أكتاف المشايخ .. أبي يبكي .. رجل إلى
جواره يهبط عرقه يمتدبل .. رجل آخر يمسك عصا يتركا عليها .. النعش
يتحرك في ببطء .. يتمايل .. الصراخ يطوي ويعلو .. بعض العينين تتطلع إلينا ..
بكت بنات الشيخ سليمة .. وفجأة بكى بهجت ، فصرخت بحرج وخشيق ..
ونظر إلى بهجت بعينين تفصلهما الدموع وسألني :

- موش بتعطلي ..
ماذا أقول له .. لن أكثر .. لا أستطيع اليكاه .. لا أفهم شيئاً مما يحدث
أمامي .. أرفض كل هذا الجنون ..

بعد المغرب ، صعد الشيخ سليمة ، ووضعوا أمامي صحناً فيه بيضتان
مقليتان وتكانروا حولي وقد صمغوا علي أن أكل .. كنت جوعان أتمنى لو
يتركونني لأأكلهم البيض .. ولكنهم لا يتركونني .. ونس الشيخ سليمة
أصابعه بلقمة خبز في البيض وصمم بصوته الجهير على أن يدسها في فمي ..

٢٠ ماما سابتش يا ابني .. انا عايزك تعتمد على نفسك وتبقى راجل .. وتذكر
دروسك كويس .. مين عارف .. يمكن احصلها ولم استطع البكاء ..

كان الشيخ يقرأ القرآن ، والناس تنصت إليه ، عندما طلق صوت بوق
سيارة تفتقر الشوارع في بلد إنها نفس السيارة السوداء الكبيرة التي كان
اولاد الشيخ سلمية يتحدثون عنها ، وهم يتخرجون على اللجانزة .. استدارت
كل الدروس ناحيه السيارة ، وهبط السائق ذو المعطف الابيض ، بينما انتفض
ابي واقفاً ، وجذبتني من يدي هلمسا ..

٢١ - تعال سلم على راتب بك .. نظرت إلى السيارة ، وكاني انتظر إلى خيال ، إلى
شراء خراف اسمع عنه في الحكايات ، ها هو راتب بك الذي يعيش مع السم
الكبيرة التي كانت تزورها امي .. ابو سعد .. العروسة اللعبة .. التي ارادت
امي ان تزوجها ..

للمرة تومعت ان هذا الرجل قادم ليعيد امي ، وأنه قادر على ان يفعل
ذلك ، كان وجهه مريحا مستريحاً وعيناه خيقتان وفي رأسه صلح خفيف
مستدير لاحظته وأنا امشي وراءه ، حتى بلغنا نهاية السرداق من الداخل ،
فجلس وإلى جانبه ابي وجلست إلى جانبه ابي .. وجاء الخادم ليقدم له القهوة
والسجائر لرفضهما ، ولكنه بعد برهة اخرج علبة سجائر ودخن سيجارة لها
طرف ذهبي .. إنه يعرف كيف يدخن .. مثل انفس لو رأى انفس هذه
السيجارة لفرح بها ..

٢٢ امي .. هل كنت قلقة على وأنا غائب .. هل قلقه هو الذي جعلك تنهجن ..
أريد أن اعرف .. ما الذي حدث .. أهذا هو العقاب .. هل أنا السبب
يا امي ..

٢٣ استعنت أبنائي وأنا اسمع راتب بك يهمني لأبي ..

٢٤ - حاجة غريبة .. والله ماكنت مصدق ..

٢٥ - سمعت .. ح نعمل إية يا سعادة ألبه .. ربتا عايز كده ..

٢٦ - أنا لسه كنت مع الدكتور فعمي ياها .. قال لي إن النيحة في العندين تافدة
قوى .. لازم كان فيه ضغط وانتم موش عارفين ..

- ١٥٠ -

٢٧ - همس ابي :

٢٨ - ح تعرف فين يس .. عمرها ما شكت من حاجة .. كانت ساعات .. الله
يرحمها - تقول جيني بيوجيني .. أيدي ممتلة .. لكن ماكنش يخطر على
بالنا ..

٢٩ - وقطع ابي للكلام .

٣٠ اكمل يا ابي أريد أن اسمع .. أريد أن اعرف .. كيف ماتت .. ما الذي
حدث بالضبط .. إنني لا أستطيع أن أسالك .. لئلا .. تكلم ..

٣١ - وتكلم ابي ..

٣٢ - أنا رجعت البيت .. لقيتها في المطبخ .. كانت فاكراي يوسف زعقت ..
أنت اتأخرت ليه .. قلت لها : ماتأخرتش .. طعنت من المطبخ شافتش ..
ضحكت .. وقالت : لئنا افكرتك يوسف .. قلت لها هره لسه ماجاش .. قالت
لازم فيه حاجة في المدرسة أخرته .. ماكانتش لفقانة .. كانت بتضسك ..
رجعت المطبخ .. بعد شوية سمعت البت الخدامة بتصرخ ويقول الحق
يا سيدي .. لقيتها مركونة على الترابيزة .. ونفسها مكروش .. ودينهاها
الأرضة .. ونزلت أجيب الدكتور برعي .. جه لي عشر دقائق .. إنما ..
وتنهذ ابي ..

٣٣ - كان كل شيء انتهى .. لا حلقن .. ولا تدليك .. ولا تنفث صناعي ..
أجل ..

٣٤ لم تلقى لغيابي يا امي .. هل اصيفه .. أم اخفيت قلقه عن ابي ..
ضسكت لتدافعي عني .. حتى لا يفربنى .. امي .. أريد أن اعرف
الحقيقة .. أهلو يعلم ابي أين كنت لويعلم اني دخنت سيجارة .. ذهبت مع
انفس لأضرب سمعان القندي .. كنت أريد أن أركب القطار المسافر إلى
لنهور .. امي كانت تعلم كل هذا .. وغضبت .. وسافرت .. تركت البيت
غاضبة .. أريد أن اموت .. في المرة القادمة ، عندما اذهب إلى المحطة ..
سأركب القطار المسافر إلى امي .. لا أريد شيئاً غير امي .

٣٥ انطلق راتب بك في كلام لا ينتهي عن الطب والأطباء .. وأنا ارقه في اهتمام

باحثاً عن شيء يعلمه ، ويستطيع أن يعيد أمي إلى الحياة .. حتى ضيقتني وأنا
أحرق في وجهه . فسأل أمي .

- موش ده أبنتك

- أيوه .

- في سنة إيه ..

- قال لي أمي :

- جاوب بسعادة البية ..

- هاهو البكاء يهجم على عيني ، ولكي أقاومه ، لن أبكي أمام هذا الرجل .

- قلت بصوت باك :

- سنة ثلاثة

- قال محدثاً إلي :

- زى مدحت .. بس أوعى تكون خيبة زيه ..

- قال أمي مدافعاً عني :

- لا .. الحمد لله .. يوسف شاطر .. ومؤذّب .

شاطر .. مؤذّب .. كان يدخل سيجارة مع أنفث .. وأمه تموت .. أنت
لا تعرف شيئاً يا أمي .. ولكنني لن أعود إلى أنفث .. هذه هي نهاية سلسلتي بكل
الناس .. بالشوارع .. بتلك الدنيا التي تهت فيها .. من يدري لو خرجت مرة
أخرى ، ماذا سيحدث عندما أعود ..

الطريق إلى قبر أمي يصعد فوق تل من تراب ، على يمينه اصطبلات
خيول ، لا أذكر من قال إن الموتى السرافدين في تلال زينهم لا تتعفن
أجسادهم .. وإنهم أول من يسمعون النفير يوم القيامة فيستيقظون قبل
غيرهم من الموتى .. ربما سمعت هذا من محمودة نفاً عن أبيه الشيخ سليمة ..
باب خشبي في سور من الطوب الأحمر ، يفضي إلى حوش صغير في أحد
جوانبه شاهد من الحجارة البيضاء .. بالقرب منه شجرة صيلار .. هنا ..
تحت هذا الشاهد الحجري تنام أمي ..

المقريء الأعمى يتلو القرآن ، ورجل يرش الأرض بالماء ، وأني يقف
مستعماً بالمعانة .. ثم يتقدم من القبر وينحني عليه ويجهش بالبكاء ..
أحاول أن أبكي فلا أستطيع .. أموعقاب آخر نزل بي . إني لا أستطيع
البكاء .. أمك ماتت يا يوسف .. ماتت .. اتفهم هذا .. أبك حتى تحمر
عيناك .. حتى تصطب بالعمى مثل هذا المقريء .. أبك حتى تموت .
ولكنني لا أبكي ..

عصر يوم وأنا عائد من المدرسة بعد أسبوع من إقامتها . تذكرت ما روت
أمي عن ولادتي .. عندما ظنوا أنني ميتة لأنني لا أبكي ، ضربوني واضطروني
إلى البكاء لأعيش .. قلت لنفسي .. أنا أرفض البكاء حتى أموت ..
وأستريح ..
وأر بكتي على أمي فلن أموت ..

الفصل الثاني

بيت ليس مثل بيتنا ، حوله حديقة واسعة ، يجلس على بابيه يواب ، ويستقبلنا خادم ، ونصعد سلما من الرخام الأبيض ، وندخل إلى صالة واسعة وحجرات مفتوحة لاستقبال الضيوف ، حجرات صامتة ممتدة فحمة نظيفة ، إن من يسكن هذا البيت لا يطبق مجرد النظر إلى بيتنا .. هذا البيت أحسن من بيتنا بكثير ، لا وجه للمقارنة ..

هذا هو ما اكتشفته وأنا أدخل بيت راتب بك لأول مرة في حياتي .

اكتشاف هزنى وأربكنى ..

قبل زيارتي لبيت راتب بك ، كنت قد شاهدت مئات القصور والبهورات الفخمة ، شاهدتها من خارج الأسوار طبعاً ، ورأيت أناساً يركبون السيارات الخاصة ، حتى راتب بك نفسه كنت قد شاهدته يوم جنازة أمي مقبلاً في سيارته السوداء ، فانا أعلم أنه صاحب سيارة ، وأعلم أن أبي يركب الترام . كما شاهدت الدوابين والخدم الرجال من قبل ، وأعلم أن ليس في بيتنا يواب ولا خادم ، بل خادمة فاطمة الحافية التي كانت تأمرها أمي أن تغسل رأسها بالجاز وتمشط شعرها بالعلاية لتتخلص من القمل والسيبان ..

أعلم كل هذا ، ومع ذلك لم أشعر أبداً أننا أقل من بقية الناس ، وأن الأغنياء وحدهم هم الذين يملكون السيارات الخاصة وعندهم الخدم الرجال ، وأن الفقراء يركبون الترام ويستعينون بالخدمات الحافيات ، لم



أدرك أن هناك اغتياها وبقراء ، لم أكن أدرك أننا فقراء .. حتى دخلت بيت راتب بك ، منذ اللحظة الأولى ، بمعنى شعور بالحسرة والدمعة ، صدمت فجأة أن في الدنيا اغتياها يعيشون حياة غير حياتنا ، واكتشفت أنه شبه مستحيل أن يأتي يوم لنعيش في مثل هذا البيت ، ليس في استطلاعنا أن يكون لنا بيت في هذه اللقطة ، نحن أقل من هذا ، فقراء ، ليس هذا غريباً .. أنا الذي كنت أتناهى بيني وبين نفسي بأنني ابن مدرس ، وزملائي في المدرسة يحسدونني ، وبعضهم لا يصدق أن أبي مدرس .. فينتابني شعور بالراحة والثقة ، انفسخ خاله مفتش ترام ، بهجت أبوه الشيخ سليم الذي ينام على حصير مفروش على الأرض ، أنا أحسن من هؤلاء جميعاً ، لا أخرج مثلهم حافياً وأجرى وراء هريات الرش ، لا ألعب معهم الكرة الشراة ، لا أتقو مثلهم بالشتائم في بيت راتب بك ، إن راسي يدور .. والرغبة تملأني ، هنا عالم جديد باهر ، لا صلة لنا به ، هنا نحن فقراء لا حول لنا ولا قوة ..

كنت جالساً مع أبي في البهو الداخلي ، وقد رأت علينا صمت يزعم انفاسي ، أبي يسعل بين وقت وآخر ، ولا يقول شيئاً ، كأنه خائف مثلي ، يضرقبت مع كل صوت يأتي من بعيد ، وأنا أتسائل لماذا لا يقابلنا أحد ، أين راتب بك ، أين مدحت ..

هل من المحتمل أن أرى سعاد .

إن خيالي كان قاصراً عن أن يتصور مثل هذا المكان ، السنائر مسيلة على النوافذ ، ليس في بيتنا سنائر ، هذه الصور المعلقة على الجدران ، ليس في بيتنا صور ، هذه المقاعد ، كلها تلعب ، ليس فيها أثر خدش ، مقاعدنا محطمة الأرجل . أسلاكها بارزة .. قماشها ممزق .. شيء مخجل ، ترى كيف ينظر إلينا راتب بك ، ألا يشعر بأنه أحسن منا ، في قمى مرارة .

وجاء الخادم يقدم لنا عصير الليمون ، همس صوت عنيد في رأسي ، أرفض هذا الليمون ، لا تشربه ، ولكنني لم أجسر على قول شيء ، ومدحت يدي إلى الكوب .. وضابقتني أن أبي تجاذب الحديث طويلاً مع الخادم ، كأننا جئنا خصيصاً للحديث معه ، كانت ضحكات أبي ثرية ، وتدفعتني إلى الخجل

منه ، ومن نفسي ، وأخيراً سأل أبي :

- البية ح يتأخر يا إسماعيل .

- وأهله نائم يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي في استسلام :

- سعادة البية قال أجي الساعة خامسة .. وأما جيت الساعة خامسة بالذقيقة ..

قال للخادم ضاحكاً في وقاحة كأنه صديق أبي :

- يعني ما انتاش عارف يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي وهو يبتسم :

- طبعاً ياسيدي .. لسه عُبال ما يصحى ويدخل الحمام .. قدمنا ساعة بالظليل ..

راتب بك .. عبد الحميد أفندي .

بك .. أفندي - ما الذي جعل راتب بك أحد البكوات ، وجعل أبي أحد الأفندية ، لماذا لا يتأخرون أبي بلقب بك ..

وفزعت لأخاطر خطر لي ، أسي كانت تجيء (إلى هنا ، كيف كانوا يستقبلونها ، كيف كانت تتحدث إليهم ، هل كان يضحك معها هذا الخادم متلما يفعل مع أبي ، إن كل ما بيننا وبين هذا البيت مذلة ..

وابتسم أبي وقال وهو يفكر بيدي :

- طيب قول للست يا إسماعيل .. إن أنا جيت ..

وأريد قاتلاً في لغة غير عادية :

- سلم عليها .. وقول لها عبد الحميد أفندي جه في الميعاد علشان الدرس يتأخر البية الصغير

البك الصغير .. يعني مدحت .. وما لقيت أنا .. الأفندي الصغير ، كيف يرضى أبي بكل هذا ، لمعل لا يفكر في مقارنة نفسه بهم ..

ذهب الخادم ، وعاد بعد قليل وطلب من أبي أن يتبعه ، فصعدنا وراءه مسلماً خشبياً داخل البيت ، كان وقع أقدامي يثير الرعب في قلبي كأنه يفصح

وجودي ، ويحولني إلى مجرم يعتدى على الصمت الجاثم على المكان . صعدنا طابقاً ، وطابقاً آخر حتى بلغنا السطوح . وانتهينا إلى حجرة صغيرة فيها مكتب قديم ، ودولاب ، ومقاعد خيزران . استرحت لنظر الحجرة ، هذه المقاعد عندنا أحسن منها في بيتنا ، والدولاب الذي في حجرة نوم أبي الفضل من هذا الدولاب .
وقال الخادم :

- مدحت بيه جاي دلوقت ..

قال أبي في لهفة :

- طيب وحياتك يا إسماعيل .. أوصي نفسي تقول للبية إني جيت .

وتحرك الخادم خارجاً من الحجرة فناداه أبي كالستغيث ، وقال له في رجاء حار

- فلماكر يا إسماعيل البن اليمنى المعتبر .. المحروق .. لنا فوية شريفة من إيدك وموش قادر انسهاء .. اعمل لي فتجان وحياتك ..

قال الخادم متنازلاً -

- حاضر .. من عيني ..

وجاء مدحت ، فتذكرت أنفاسي .. لو كان هذا الولد معنا في المدرسة ،

لضربه أنفاسي ، وجه أبيش حلوا التقاطيع ، شفتاه دتقيتان شغره طويل ناعم ،

مفروق من الجانب الأيسر ، قميصه حريري ، بنطونه القصير نظيف

وجديد .. وجهه جريء .. واثق من نفسه .. إنه يعرف أنه أحسن منا ..

صافح أبي في غير تردد أو حجل

إليك يا عمي

قابله أبي واقفاً ، مرحباً في حرارة ، يتكلم بلا انقطاع ، كأنه يتحدث مع رجل كبير . وسعدت أبي يتكلم عني ، محاولاً اقتناع مدحت بالصدقة التي

يجب أن تنشأ بيينا ، لم أفهم ماذا يعني أبي ، كنت أسقط في صمعي ، كأنني أسقط في هوة بلا قرار

مد مدحت يده وصالحني ، كنت واقفاً مثل أبي ، لم أتيس بكلمة ..

وملأني ..

- أنت في مدرسة إيه ؟

لم أجب ، وقال أبي بسرعة :

- في مدرسة خليل أبا .. مدرسة على قد حالها .. موش زى مدرستكم ..
النصرية ..

كل لحظة تمر ، كل كلمة يفوه بها أبي ، كل شيء تقع عليه عيني ، يبدو بيتي وبين هذا المكان ، يدفعني إلى حجة لا نهاية لها ، من حول حياة غريبة ،

لم أعرفها من قبل ، حياة اكتشفت وجودها منذ لحظات .

وشرح أبي في الدرس . وبدأ بالهغرافيا لأن مدحت يشهاها ولا يفهمها ،

كان مدحت يعترف بجهله في ثقة وأطمئنان وكأنه يفسر باعترافه ، كانت ثقته

بكرامته للجغرافيا تحرمني من الشعور بأني أفضل منه ، حتى في مذاكرة الدروس .

ولست أدري أكان في ذلك اليوم أول يوم آخر عندما سألتني أبي ذلك السؤال

الذي لن أنساه ، والذي أذكره دائماً كلما واجهت في حياتي مشكلة يجب أن

أنتخذ فيها قراراً ..

كان أبي يشرح أنواع الرياح .. الهبوب . الضماسين .. السموم .. وكان

يصف لنا رياح الهبوب في السودان عندما توقف عن الشرح وقال فجأة :

- اتنا عزيز أسالكم سؤال .. وأعرف تعرفوا تجاوبوا عليه ولا لا ..

أثارت كلمات أبي ، انتباهي وحماسي ، توقعت سؤالاً يكشف عن ذكاء

الإجابية ، ونظرت إلى مدحت ، وأدركت أنه لن يستطيع الإجابة على سؤال

يتم إلى الذكاء بصفة . إنه يبدو وكأن الذكاء يتعبه ، أو كأنه في غنى عنه ، إنه فوق الذكاء وأقوى منه ..

صاح أبي

- أوجه واحد وقال لكم خدوا ألف فدان تردعوها وتبقى ملككم .. بس الألف

فدان دي في السودان .. تقبلوا الأرض ولا لا ..

ما متاسبة هذا السؤال ، كنت أفكر بسرعة ، محاولاً أن أعرف الإجابة

قال مدحت في غيابة :

.. قلب فدان .. دى ثروة كبيرة .. أروح برضه وأشرف عليها بنفسى .

هتبق أبى مهلا :

.. يرافى .. كنت ابن راتب بك .. دينا بيارك فيك يا ابنى .. ثم أشار إلى مشمتراً ككته ينكر ليوته لى وقال ساخراً :

.. موش زى وش الفقر .. فقير ومتعطر .. موش عايز يشمتل ويرغص الثروة .. يرفض النعمة عشان الحر ..

وحدثنا أبى فى حماس ، عن الإنجليز الذين تعودوا على البرد والثلج فى بلادهم ، وكيف أنهم مهاجرون إلى خط الاستواء ، ويزرعون الأراضى هناك .. وقال منهكاً :

.. يعنى ح تكون أحسن من الإنجليزى ياسى يوسف ..

كانت صدمة عتيقة لى ، ألهمتنى كلمات أبى بسيماط الندم والياس ، أنا فقير ، لا أفهم للفنى والشراء ، ولا أفكر بمقتل الأثرياء ، مبعث الذى يسكن هذا البيت الفخم يفكر بمقتل آخرى ، لأنه ابن راتب بك ، ولأنه سيصبح غنياً مثل والده .. سيعيش حياة باهرة مثل الإنجليز .. يسعى وراء الثروة ، ويحصل عليها ، وينتفع بها ، أما أنا ، فلا فائدة .. سأظل فقيراً كما أنا .. لم يكن أبى يمتنعنا فى الجغرافيا ، ولا الذكاء .. كان يمتنعنا فى الفقر والشراء .. وسقطت فى الامتحان ..

فى اليوم لثالثى كنت أسأل أنفسى فى المدرسة نفس السؤال .. حدثته أولاً عن الجورلحار فى السودان ، وحدثته بخيال عن الحيوانات المفترسة فى الغابات ، ثم قلت وأنا أضعه إلى أن يقف لى صقى ويجيب نفس لجابتى :

.. بيه لو يدوك لك فدان هناك تروح .. وتشمتل فيها ؟

قال أنفنى ساخراً :

.. والله لو يعزنى مليون فدان .. وأنا ح أصل إيه بالفلوس هناك .. قلت .

.. أنا أروح واشمتل ..

الصحيحه ، إن أبى كان يحدثنا منذ لحظات عن رياح الهبوب .. إنها تملأ السماء بالغبار حتى يتحول نهار السود إلى ليل .. أه .. أبى يمتحننا ، يريد أن يعرف هل فهمنا ما قال عن الهبوب .. هذا سؤال سهل ..

قلت بسرعة قبل أن يجيب مدحت :

.. ما اقبلش الأرض ..

قال أبى وعلى شفثيه ابتسامة غير واضحة :

.. ليه ؟

.. عشان الجو هناك موش كريس .. فيه رياح الهبوب ..

تولعت استحسناته لإجابتى ، ولكنه لم يفعل ، فأسرعت لضميف :

.. وعشان فيه هناك غابلت فيها أسود وحيوانات مفترسة .. والنيل فيه تماسيح .. والحياة خطر ..

نظر إلى لى بروه والتفت إلى مدحت وسأله :

.. وأنت إيه رايك يامدحت ؟

قال مدحت متردداً :

.. آخذ الأرض ..

.. ليه ؟

.. دى قلب فدان .. تجيب فلوس كتير ..

قال أبى مستريباً :

.. والنحو الحار .. والحيوانات المفترسة .. والأمطار .. والهبوب

قال مدحت :

.. وإيه يعنى .. ماأنا أخل ناس تشمتل فى الأرض ..

فصاح أبى محتجاً .

.. لا . أنا بالقول أنت اللى تشمتل فيها .. يعنى تقعد جنب الأرض وتشترس على رراعتها بنفسك

فرحت باعتراض أبى .. أن مدحت غى .. لا يفهم ما قاله أبى عن الهبوب الخيفة .

- ثباني مجنون :-

- اعرش العرش ويدين لحي اصرقها ..

- موش ح تلحق .. يا ابني ده الامد ياكلك من اول يوم ..

كنت اناقله ، وانا اشعر بانى اكتب عليه ، إنه يقول نفس ما قلت
بالامس ، إنه فقير مثل ، انا وهو فقير مدحت الفنى ، ولكنى انتظر الان لمامه
بانى افكر كالاغنياء .. هذا هوكل ما استطيع ان افعله ، ان انتظر بانى من
الاغنياء ..

قلت لانتش :

- فيه واحد قريتنا عنده الف فدان فى الصودان وغنى جدا .. عنده عريضة
سودة كبيرة .. وعيش فى مصرية

نظر اى فى غير تصديق وقال متحديا :

- الف فدان فى الصودان ما يسووش حاجة .
قلت :

- وعنده الف فدان فى مصر ..

قال فى حدة :

- انت كذاب ..

- طيب والله العظيم فيه واحد قريتنا غنى جدا ..

صرخ غاضبا :

- يا ابني هو انتم هيلتكم حاجة

ولم يرحمنى انتش ، جمع حولى التلاميذ ، وروى لهم ما اقلوه سلفا ،
حتى احسست انهم سيهجمون على ويضربوني .. ورغم ذلك كنت اشعر
بارتياح غامض لانى قريبا غنيا وليس لهم مثل هذا القريب .. وكنت اشعر
ايضا ان الصدق الذى ارويهم لهم هو كذب على نفسى ..

كنا قد خرجنا من بيت راتب بك بعد انتهاء الدرس الاول دون ان نقابله ،
سأل عنه ابى ، فقال للخدم إنه خرج ، وعام ابى إلى السؤال متفعلا :

- موش قلت له يا اسماعيل .. فلجواب معتدرا :

- قلت له . لكن للظاهر كان مستعجل ..

فلحقنا وجه ابى ، ولم يلق شيئا ، وجذبى من يدى وخرجنا وكان مدحت
قد قرعنا واخفى دحل البيت .. خرجنا كالطرويين ومشيئا فى الشارع ،
وابى يفر الهواء واسى ظاهر فى وجهه ، وقلبي ثقيل كانى ادوسه بقدمى وعند
محطة الترام قال لى :

- انا عايزك تصاحب مدحت ..

اما زلت مصر يا ابى .. افرض صدقتنى على من لا يريدوها .. انا لا ابس
مثله ، ولا اعيش مثله ، ملاح وجهه ليست كمالح وجهى .. لا اعرف كيف
اتبادل معه كلمة واحدة .. لماذا تدعمنى إلى هذا الضل من نفسى .. الا تثور ..
الا تغضب .. خير ما نفعله هو ان ننسى وجود هذا البيت ، وأهله ، وكل من
فيه .. حتى الخدم .

وسألته :

- هو يقرب لنا ايه يا بابا ؟

اعتدل فى وقفته ، ونفخ صدره وقال بصوت قوى كانه يشرح الدرس ..
يبقى جوز بنت ابن عم خالى

لم افهم .. حاولت ان اتفهم صلات وعلاقات ، فتنشايك واختلطت ،
فعدت إلى السؤال متشككا ؟

- .. يعنى دول قرايبنا ؟

قال كانه يدافع عن نفسه :

- امال ايه .. طبعاً قرايبنا .. والى يقولك غير كده .. تحطصوا بك لى عينيه
الاتنين .. قرايبنا ونص .. انت موش شفت راتب بك جاي بنفسه فى الجازة ..
كنت اسأله ، وهل يعلمون بقرايبهم لنا ، ولكنى عدلت عن السؤال
تذكرت جازة امى .. وقلت لنفسى : إنها الان فى مكان افضل من بيت راتب
بك ..

كان إحساسى بالصيق والخجل يتلاشى للحظة قصيرة خاطفة ، عندما
يأمرنى ابى بالاستعداد للذهاب معى إلى هناك ، أفرح وأنتعش ، وكانى مقبل

على معامرة سألحة ، وسأعيش في حدوته .. اتذهب بفرحة خائفة ، وأمنية
تتطلع إلى تأكيد قرابتنا ، ويأس من فهم معنى هذه القرابة ، ولهفة على الذهب
والعودة ، لأخلو إلى نفسي وأفكر فيما رايت وسمعت ، ورغبة خبيثة في أن أروى
في المدرسة عن زيارتنا لقريننا الفني .. شيء واحد كان يثير شعوراً غامضاً
يرتجف له جسمي .. متى أرى سعد ، وكيف تلقائي ، وما الذي ستكره فيه
عندما تراني ؟!

كان يوم جمعة ، فذهبت مع أبي في الصباح ، وإنشغلنا بالدرس ، وفجأة
سمعنا ضجة في السطوح ، وأصوات عمال وخدم ، وقبل أن نتبين ماذا
يحدث ، فتح الباب ، ورأينا راتب بك .. انتفض أبي واقفاً هاتفاً بصوت
مبهوح :

- أهلا سعادة البية ..

ولم يتمالك نفسه ، فأخرج منديله وجعل يحنف العرق الذي يتصبب من
جبينه ، كان جسده يرتعش ، والكلمات تخرج من فمه متقطعة متمترجة ،
أما أنا فقد شعرت وكأنني أحمل أبي فوق كتفي ، وبودي لو أن يختفي راتب بك
من أمامي في الحال حتى أتخلص من هذا العمل ..

قال راتب بك :

- إيه يا ولاد ، عاملين إيه .

- أجاب مدحت بمسامة غريبة

- بنذاكر بابايا

- هيه ، وقاهم دروسك

- أيوه بابايا

- مي انشطر انت والا .

وتردد بره ماحثاً عن اسمي ، ثم سألني ..

- اسمك إيه يا شاطر ..

قلت بصوت خافت

- يوسف .

وكان أبي قد استرد بعض أنفاسه .. فاستلق في الكلام :

- اتعامناي إن سعادتك تمر علينا .. وتسالهم .. وتشوف بنفسك مدحت بيه
عامل إيه ..

- يعني مطعن يا عبد الحميد أفندي

- مطعن جدا يا سعادة البية .. واعتمادي على الله وعي سعادتك ..

- عظيم ..

وضحك راتب بك فجأة .. وقال مخاطباً مدحت .

- تعرف إيه التي بره ..

- إيه بابايا ..

- أطلع شوف ..

خرج مدحت ، وعاد صارخاً ..

- دي بنج بنج .. بنج بنج بابايا ..

- بس أنا موش عايزك تنسى دروسك .. تلعب شوية وتذاكر شوية .. موش

كده يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي بسرعة وقد باغته السؤال :

- كده يا سعادة البية ..

وقال راتب بك :

- والسنيما يوم الخميس بس .. صااح مدحت محتجا :

- ويوم الاثنين كمان بابايا .. خالفت راتب بك إلى أبي وسأله ..

- إيه رأيك يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي ضحكاً هو يفرق يديه :

- زى بعضه .. اللي تشوفه سعادتك ..

بنج بنج ، سنيما .. مرتين في الأسبوع .. أبي يوافق مع كل هذا ، وأنا

لا أذهب إلى السنيما ، شاهدتها مرة واحدة مع أبي وأمي ، يوم ذهبنا إلى

سنيما رويال وتفرجنا على اللوردة البيضاء .. كم مرة الححت فيها على أبي أن

أذهب إلى السنيما ، فرفض في عنف ، وقال مؤكداً : إنها ليست للصغار

أمثال . المعاملة تختلف ، وعنف أبي يذوب ، إنه يوافق على الذهاب مدحت إلى
السينما مرتين في الأسبوع .. في كلام طويل معك يا أبي .. لا بد أن أذهب إلى
السينما ..

انفض الدرس ، ودعاني مدحت لألعب معه البنج بنج ، ووقف أبي يتفرج
علينا . كان مرحاً مثلنا ، يجري ويلتقط الكرة ، ويحاول أن يشرح لي اللعبة
التي لا يعرفها ، ولا يكف عن القول :

- مدحت أشطر منك .. سوف إزاي يضرب الكرة
كنت واقفاً يدي بالضرب ، على استعداد لضرب الكرة ، عندما رأيته تدخل
منذبة لاهته ، لم تكف حتى اصطدمت بمدحت ، وهي تصبح
- عاينه اللعب .. عاينه اللعب .. هات للضرب يتأكد ..

لو اصطفا مدحت مضربه ، فستلعب معي .. ولكني لا أتوي على اللعب ،
يداي ترتعشان ، الخجل يأكلني ، المضرب يكاد يسقط من يدي . يبقى
ناشط ، في رأسي طبل يدق ، عياني لا تريان شيئاً ..

سمعت مدحت :

- خذي مضرب يوسف ..

فالتفتت إلي ، واقتربت مني من خلال غمامة ، وأخذت المضرب ، وابتعدت
بصعوبة ، وكان أبي يقول :

- اتفرج به على اللعب .. عشان تتعلم ..

هذه هي عروستي ، زوجتي التي اختارها أبي لي ، وجهها شاحب
مستطيل ، ليست مثودة الخدين ، شعرها منكوش ، صوتها رفيع حاد ،
عينها قويتان جريئتان .. ولكنها حلوة ، أحبها ، أريد أن أتزوجها ..
لو ترضى لو تنتقل من بيتنا حتى لا تراه .. لن تراه أبداً .. وسأفكر
كمدحت ، سأقبل الآلاف فدان في السودان ، سأعيش تحت وطأة الحر ،
وأحارب الأسود والتماسيح ، وأصبح غنياً .. غنياً جداً .. وسأقبلني
عريساً ، لو كان عندنا سيارة سوداء كبيرة مثل سياراتهم ، من أين التقود ..

أبي واثق أنها سترفضني .. ولكن أمي واثقة أنها ستقبلني .. أنا أصدق
أبي .. عينها تشبه عيني أمي .. وأنفها ..

سقطت الكرة وتدحرجت نحوى ، فانهضت دلا وبعي والتفتها ، ووكفت
مكانتي ذاهلاً .. حتى صرخت في :

- ملتجيت الكرة ..

وزعق أبي :

- ادعي الكرة لسعاد هانم .. مالك واقف زى الخيبة ..

كرهت أبي ، ومشيت إليها ماداً يدي بالكرة ، فأخذتها ول عينها ضحك ،
ثم التفتت إلي مدحت وقد أطلقت سراح ضحكاتها قائلة :

- ليه موش بيرمي للكرة .. وجايبها لحد عندي ..

أسرع أبي قائلاً :

- مؤدب ..

فالتفتت إلي قائلة في سخرية :

- ابقى أرميها ..

واستأنفت اللعب ، كانت سفريتها واضحة ، إنها لا تعبني ترفضني ،
لا أمل لي ..

وسقطت الكرة مرة أخرى .. ونفذت من باب السلطوح إلى الداخل

وصاحت سعاد وهي تجري وراء الكرة ..

- مبروكة .. يامبروكة ..

وعادت سعاد ولي يدها الكرة ، ومن ورائها خادمة .. صغيرة في مثل
سنى ..

في هذا البيت خدامات أيضاً ، مثل فاطمة التي عندنا ، ولكن هذه الخادمة
أكثر نظافة ، وفي قدميها صندل ..

وقالت مبروكة الخادمة :

- أقدم ياسق ..

الفصل الثالث

- خليكى هنا علشان تجيلنا الكورة لما تلح ..

قالت الخادمة في ادب شديد

- طيب لما اروح اقول لستى الكبيرة ..

ودفعت مبروكة ، وعادت تقف إلى جانبنا أنا وأبى ، تجمع الكور كلما

سقطت ، كما كنت افعل منذ لحظات ، أنا وأبى ..

وماذا بعد ..

انمضى في سردي ذكرياتك ، تلوكها . أنا اشم رائحة الخطر ، اسمع صوتاً قوياً يحذرنى ، يقول لى .. قف يا يوسف ، لا تندفع لى لحياء لامثا وراء ذكرياتك .. سينسى ما كنت تبحث عنه .. ستفقد مرة أخرى ما فقدته .. أنت تنبش ، تمزق ، تجرح . تريد أن تعرف كيف ضاع الذى ضاع .. كيف فسد .. ذلك الحادث الثانيه .. كأنه تالفه .. إنه حادث خطير .. مبروكة تدخل السطوح لتجمع كرات البنج بنج .. أخطر من موت أمى .. أخطر من فقرى .. من يصدق أن هكذا بدأت المطاردة .. وفسد الذى فسد وضاع الذى ضاع .. من يصدق ..

كيف كان لى أن اعرف ، فاستعد وأجذروا تمصن ، هذا فوق ما يستطيع . إنسان ، لكن هذا هو ما يحدث لإنسان .. هي مبروكة وأنا يوسف .. هي خادمة .. خادمة فى بيت غريب .. بيت غير بيتنا .. وأنا ابن مدرس .. هي فلانة من الريف ، وأنا من المدينة .. هي فى طريق وأنا فى طريق .. لا صلة بيننا .. لا أحد سوى مجنون يتوهم أن شيئاً قد يربط بيننا .. ولكن هذا هو ما حدث .. اللقاء تم ، الصدام وقع ، وحدث ما لا يتوهمه مجنون .

كانت تكبر وتتعو ، وكنت اكبر وأتمو ، افكار تدور فى رأسها وافكار تدور فى

راسي ، مشاعر تدب في جسدها ومشاعر تدب في جسدي ، هي تخدم ، تتكسب
وتمسح ، تلبي النداء ، وتذهب إلى الكواء ، وأنا اتعلم الجغرافيا والهندسة
والانجليزية والفرنسية وأدرس القانون ، وبجأة أجدها أمامي كالقدر
العنيف ، تقحم حياتي واقتحم حياتها ، تطاردني وأطاردتها تدفعني
وإدفعها ..

كيف اصدق ..

كل شيء بدأ لي صمت ، بدأ بخادمة تدخل السلوح لتجمع الكرات لا شيء
أتفه من هذا ولكنه كان الشيء الحاسم الخطير .. وكلانا لا يدري ..

الآن .. في هذه الليلة .. تستلقي مبروكة على فراش ، وتروي لرجل أنها
ترييني .. جسدها عار مكشوف .. الجسد الذي احتضنه أبي .. تزوجه ..
استشهد من أجله .. الجسد الذي ولد أخى إبراهيم .. لا شيء يغطي ذلك
الجسد .. كل رجل في جيبه نفوذ يستطيع أن يعرفه .. صوتها يهمس في أذنه
بالحكاية .. بالفضيحة .. أتعرف يوسف عبد الحميد السويدي .. تعرفه ..
إنه مشهور .. أليس كذلك .. تزوجت أياه .. إنه شقيق ولدي ..
لا تصدقني ؟؟ اسأله .. أقسم لك أن ما أقوله صحيح ..

ما تقربايه صحيح .. ولكن من الذي جعله صحيحاً .. أمي مشيتة الله
وليس لنا إلا أن نستسلم .. أستسلم لميرون السخريه الخائفة من سطوتي ،
كلمات النفاق الخلقية للقمي .. ابتسامات الرياء الساعية وراء نفوذي ..
لا شيء يستر جسدها .. لا شيء يسترني .. أنت غارق في الفضيحة حتى
أذنبيك .. مهما تجاهلت .. مهما ابتعدت .. مهما حاولت النسيان .. مهما
فرت ..

انتهم هذا ..

لقد وقعت على اكتشاف .. التفكير في حياة الإنسان يقضي إلى الجنون ،
لا منطق لحياتنا .. أنا الذي اكتب عن الاشتراكية ، أنا الذي أدعو إلى الإيمان
بالتخطيط والامل في المستقبل ، أنا الذي أقول لهم إن الحياة منطقاً وخطة
مدروسة .. هل كنت أملك منطق حياتي حتى أرسوم لهم منطق حياتهم ..

- ١٧٠ -

أنت تصاب يا يوسف .. كلتي تكررات .. كلتي غباء .. كلتي حماساً كاذباً ،
كل ما في هذه الدنيا غير حقيقي .. الذي سيحدث سوف يحدث .. التفكير
خداخ متصل .. لو أردت أن تخوض الطريق الوعر ، طريق مراجعة نفسك
فاترك المسرح الذي تؤدي فوق خشبته تمثيليك الزائفة .. ابدأ بكتابة
استقالته .. يوسف عبد الحميد السويدي يستقيل من رئاسة تحرير الأيام ،
يترك عمله فجأة .. إن يصدق أحد صوب استقالتي .. سيقولون إنني مفصوب
عليه ، طردوني من عمل ، لا يهمني هذا ، سافلس ، اتخلي عن هذا البيت ،
لا سيارة ولا تلفون ، ولا قلم .. قد أصاب بالجنون ..

يوسف يشاهد كل يوم وهو يحدث نفس في الخوارج ، نكته نابته ، بذلته
ممزقة ، أظافره ، لا يعرف أحداً .. ستعودني قدمائى إلى بيت مبروكة ،
دموعي تغسل يديها .. لا .. تغسل قدميها .. ولكنها لن تفهم .. ربما
احتقرتني وطردتني ، ما حاجتها إلى جنونى مثلى .. أقبلينى يا مبروكة خادماً
عندك .. ساستقبل زيارتك ، سافتح لهم الباب ، وأنظم دخولهم وخروجهم ،
أتحمل معك العري ، أستحم في الفضيحة معك .. لا شك أن نهايتى ستكون في
مستشفى مجانيب ..

سنتهار ثقة الناس في كل كلمة كتبت أقولها .. استمر في عملك .. أكتب
المقالات ، تجمع ، حتى ولو كنت تكذب على نفسك .. إنهم لا يريدون
حقيقتك .. يريدون تمثيلك ، يريدون الصنعة التي تجيدها ، الكلمات التي
قرصها .. يريدون أكاذيبك .. كلام فارغ .. إنهم لا يريدون شيئاً على
الإطلاق .. ليس هناك صواب ولا خطأ .. لا معنى للاستمرار في شيء .. إننا
لا نعرف إلى أين نحن ماضون .. خادمة صغيرة ، بثينة في قدميها همدل ..
مبروكة .. مبروكة .. تلبي النداء .. تظهر قادمة وراء سعاد ، وتقف بيني وبين
أبي لتجمع الكرات .. بعد سنوات تذكر مبروكة .. وتتزوج أبي ، مادام هذا
يحدث ، فأي شيء قد يحدث .. ما لدراني أن حادسي الذي كان يصب القهوة
منذ لحظات سوف يكون سيواً يوماً .. بعد سنوات ، بعد أيام .. أتروح
سامية لتكون عشيقه هذا الخادم .. ما لدراني أني قد أتزوج خادمة أنجب

ولداً يصبح قتلاً .. أو يصبح زعيماً .. أى شيء قد يحدث .. لا ضمان ..
لا منطق .. إننا لا نملك شيئاً .. لا نملك إلا قتل أنفسنا .. ما نحن نعيش في
هذه الدنيا ، فعلينا أن نخلص للضرير المعياء .. للقسمه اليلاه ..
للمجهول الثلاثة قلت لأبى لا تتزوجها لثرت وغضبت وتركت البيت ، ولكنه
تزوجها .. أنا لم احتر أبى ، لم احتر أمى .. جاؤا بى إلى هذه الدنيا ،
واعطوني اسماً ، واعطوني حياة ، والفرأ بى في المكان الذى أقيت فيه ،
وهمعنى إلى ما حدث .. لست مسئولاً عن شيء ..

أهذا هو ما كنت أريد أن أصل إليه ، أن أقول لنفسى إنى لست مسئولاً عن
شيء ، ألقى مسئوليتى واستريح . كأنى أداغ عن نفسى . لنت لا تدافع عن
نفسك يا يوسف .. أنت تحاول أن تفهم . تريد أن تعرف حقيقة حياتك ..
لا تقفز إلى النتيجة السهلة بهذه البساطة .. تلقى بالعبد كله على القدر .. على
مشيئة الله .. على جنون الحياة .. لا تضحك على نفسك .. لا تتعجل .. اطلب
فإنجان قهوة آخر ، ولا تهرب من عذابك ، لاتجن قبل أن تذوق المرارة كاملة .
لا تخضع نفسك بأن الحياة خداع أمضى في ذكرياتك ، أتبش وقتش ومزق
وأجرح ، أجب على ما يجب أن تحبب عليه ، لماذا رفضت زواج أبك من
مبروكه .. ما الذى جعلك تعادى الخادمة على أنها خادمة ، حتى بعد أن لم تعد
خادمة .. ما سر عذالك .. ما سر خجلك .. ما سر حياتك ..

لا تترك شيئاً .. اعرف ما الذى صنعتك ، وما الذى يربك .. لنت ما زلت
لم تتخذ القرار ..

ما زال هناك أمل .

الطريق بينك وبين مبروكه تقطعه على شردقائق . لو اتخذت القرار لوفهمت

ما تريد أن تفهم ، تستطيع أن تذهب إليها في الحال أو لا تذهب ..

تستطيع أن تتزوج ساسية ، لو فهمت ما تريد أن تفهم ، تتزوجها
وتسعدنا ، ترغمها على السعادة ، وترغم نفسك على السعادة . أو لا
تتزوج

أهلوفهمت .. في داخلى إحساس نبي - مسيح يلحق البرص - مغرور يظن
نفسه الأقوى من الغرور صادق الصدق الذى لا يصدق أحد .

لم يكن دخول مبروكه المسوخ هو البداية .. مبروكه لا شأن لها بما
حدث . حياتنا ليست ساذجة إلى هذا الحد ، إنها معقدة الفكرى ، عندما
دخلت مبروكه المسوخ ، كانت مجرد صبية وكنت مجرد صبي .. هناك
أحداث أخرى يجب أن أتذكرها ..

كنا قد كبرنا ، ومنضدة البنج قد تحطمت ، وتحولت إلى أشلاء ، من ألواح
الخشب ملقاة في أحد أركان المسوخ . ولم يكن يعنينى في ذلك الوقت سوى أن
سعاد قد أصبحت حبيبتي .

حبى تسأل إلى قلبها خلسة ، كان حبى أقوى من أن تتجاهله أو تعبده ،
كنت واثقاً أنها ستحبني وتتزوجني ، تلك الليالى الطوال التى قضيتها والكتاب
مفتوح أمامي اقرأ صورتها فيه وأحدثها وتحدثني ، وقلاتى الأبدية أمام
المرأة أغرس ملامح وجهي ، أحاول أن أجعلها وسيماً ، وكان في استطاعتى أن
أفعل ما أريد ، وأخلق لنفسى شكلاً جديداً ، أزم شفقتي لأصعبها رقيقتين ،
أشرح شعري والفرقة وأستعين بالصبايين لتصفيفه ، نظراتي الحاملة مقلدا
كلارك جيل ، الفتح عيني وأسعيتني ، وأضع فيهما فيضاً من حرارة قلبى ،
أحس ، ثم أكره عيني اليمنى ، واتندب كم مرة فعلت هذا أمام المرأة ، في غرفة
مظلمة عري ، أترقب وأستعد للحظة لقاء . تلك الأغنية التى كنت أردتها
بصوتى الجديد .. صوتى الخشن الذى اكتسبته فجأة ، كان في جزيرة
كبرى .

« عندما رايته .. »

الكتب التى قرأتها ، رواية توفيق الحكيم ، « عودة الروح » ، سنية في
عودة الروح ، كلما قرأت اسم سنية ، حولته إلى سعادة وكنيت بلا دعوى ،
دقات قلبي ، الخيالات في رأسي ..

نعم .. لقد بذلت جهداً غير بشرى ، كى أصل بحبي إليها ، نسيت أبى
فقيح ، واتى لسكن شارع السد ، نسيت أن أبى مدرس خائف من راتبك ،

اندفعت مع حبي ، فأحببت مدحت وأحببت البيت الذي يسكن فيه ، وأحببت راتب بك ، والسبت الصغيرة ، والسبت الكبيرة .. أقنعت نفسي أنني واحد منهم

كنت في الثانية عشرة من عمري تلميذاً في الخديو إسماعيل الثانوية ومدحت في السعيدية ، وأبي مازال يدرس لنا الانجليزي والجغرافيا والتاريخ ، ويسلمه مدحت أول كل شهر منظوماً فيه ثلاثة جنهيات ، يأخذ أبي المظروف في صمت ، ويخفيه في جيبه بسرعة ، ثم يقول أي شيء يصوت من منع يغلبه الانفعال وعندما تخرج من البيت ، تبعه خطوات من باب الحديقة ، يخرج أبي المظروف ويفتحه ، ويفحص الجنهيات الثلاثة بعناية ، ثم يضعها في حافظة نقوده ، كنت أكره هذا المنظر ، ولكن حبي لسعاد كان يجعلني أتساءل بسرعة ، ولا أفكر فيه .. لمعل كنت أتمنى أن أبي هو أبي من بيت مدحت تعطي ذلك المدرس جنهيات الثلاثة ثم دروسه .. هكذا جعلني حبي لسعاد أفكر في أبي .

إذا حدثني مدحت عن العزبة فهي عزبتي ، سيارته السوداء الكبيرة هي سيارتي ، إذا تعطلت انزعجت مثله وعندما اشتروا سيارة « ناش » جديدة ، فرحت بها أكثر منه ، لم أعد أحلم بأنني أشتري سيارة يوماً ما ، لم أعد ألقاين بيني وبينهم ، لا أحسدهم ، ولا أشعر بمرارة نحوهم . أحببتهم لأنني أحب سعاد .

ذات يوم حضرت مع أبي ، فوجدنا مدحت مريضاً ، وكان من حسن حظ أبي أن راتب بك رضى أن يقابله ويحلس معه في الصالون الكبير ، أما أنا فجلست مع مدحت في حجرته ، وكانت سعاد تدخل وتخرج ، فتصفييني حمى أشد من حمى مدحت ، وفجأة فتح الباب ، ودخلت السبت الكبيرة ، ما كنت أراها حتى أيقنت أن مدحت قد شفى ، دخلت في ثقة ، على شفقتها بآسامة حربية ، وفي نظراتها هدوء مثير ، كانت تتوكأ على كتف مبروكة ، التي تحمل في يدها ألمبه الذي لا يذفرق سيدها ..

كانت السبت الكبيرة قد تعودت رؤيتي ، وتعرف من أنا ، تصيبنى في حنان ،

وتدعوني ، وتقرأ الفاتحة لأمي ، ثم تتجاهلني ، كانت أحياناً تعطي مدحت وسعاد نقوداً ، قرشاً أو قرشين ، وفي مناسبات نادرة خمسة قروش ، وكنت ألقف بجوارهما أنتظر إلى النقود ، وأشعر بدهشة لأنها لا تعطيني مثلها ، رقت السبت الكبيرة مدحت ، وهي تمسح بيدها على شعره ، وأغمت عينيهما وتعمت بكلمات ومسمحات وجهها بكلتا يديها ، ثم التفت إلي وهي تنهض .. وقلت :

— سيبي يا بني عايشين بنام .. تركت الحجرة ، رويت حائراً ، لا أدري أين أذهب ، أبي يجلس تحت مع راتب بك في الصالون ، ومدحت مريض في حجرته ، والسبت الكبيرة تصعد السلم مع مبروكة إلى حجرتها ، هل أخرج من البيت ، أم أنظر أبي وأقا مكناني خارج حجرة مدحت ، ويريت سعاد قادمة نحوي تريد الدخول على مدحت

هست مضطرباً

.. نام ..

قالت هلمسة وهي تظهر اليوم صور في يدها :

— كنت عاينه أوريه صوري .. ظلت رافعة يدها باليوم الصور لمددت يدي إليه ..

قالت مرجبة :

— عايز تخرج عليها ..

— أيوه ..

تلفتت حولها قائلة :

الغور هنا مش كفاية .. وبدون أن نكمل ، صعدنا السلم إلى السطوح ، ووقفنا عند السور وبدأت تقلب صفحات الألبوم ..

صورها وهي في ملابس المدرسة وهي في جزيرة الشاي تلقى بفاتح الخبز للبحر ، وهي تجلس بقوة على وجهها علامات الجد والتفكير .. كانت تضحك من قلبها مع كل صورة وتثرثر عن ذكرياتها ، وضباب يذحف على عيني ، وأنتهي لا أتمى ما تسمع ، وأنامسي تتلاحق ، ووجهي يلتهب ، وعروقي رقبتي

تصلب أحياء ، يجب أن تعرف أنى أحياء أقول الآن ، حركة بسيطة غير ملحوظة وانسها ، لكنى لا أستطيع ، طرف أصبعى يلمس يدها ، وفجأة كتكت ملتصقا بها ، خفت ، كل لوة فى كيانى ترتجف لا التقت إليهما ، لا أعلق على كلماتها ، أنفاسى حارة ثقيلة ، إنها لا تتعد ما زالت تتكلم ، فى صوتها نبرة غير عادية ، كأنها حزينة ، لعل أتوهم ، إنها لا تعرف أنى ملتصق بها ، جسدها لى ، ذراعها طوى ، خدها قريب من خدى ، بينى وبينه لا شيء .. أكاد أمسه هذا محال بينى وبينه مخاوف ومخاضات ، يجذبني إليه ، يبعثني عنه ، عطفى فى خدى ، يداى فى خدى ، قلبى يدق فى خدى ، حبى فى خدى ، كت أمسه ، طرواته تضدنى ، مسسته ، نفرت منسوعاً من نعوته ، عدت إليه ، مسسته لسه .. خدى ملتصق بدها ..

صمتت ، ولكن أصابعها ظلت تطلب صفحات الألبوم ، إنها تعرف أن خداما ملتصق بخدى ، حينها شارداً ، صدرها يعلو ويهبط ، الصمت يحيط بنا ، ضجة الطريق أنية من عالم بعيد لا صلة لنا به .. أحياء ، لحياء .. سنظل هكذا إلى الأبد ، لا شيء ينتزعنا من هذا المكان ، حوالت شففى إلى خدما وقبلتها بسرعة .

ظلت صامئة ، أكثر شروداً ، وجهها شاحب ، ولـ خدما برودة ولم تعد تكلب صفحات الألبوم ، هكذا وقفنا ، حتى ارتفع صوت من داخل البيت ، فالتفت خلفها ، ومرت مفتحة ، ترتكنى وحدى ، والدوار يلعب برأسى .

فريت الشمس ، ولا أحد يسأل عنى ، لا أريد أن أتراك مكانى ، ليس فى مكان آخر ، ولكن الطلام هاجمنى ، فتحركت إلى الداخل ، هبط السلم ملتصصاً ، أشعر بالذنب ، أتوقع الأبواب تفتح ، وأنها تلعننى ، ورائب يك يصفعنى ومحدث يقع ميتاً . والست الكبيرة ترعشنى إلى جهنم .. إنهم يعلمون ، قالت لهم : سائكر ، سائكرى ، ميسرىنى أبى ..

وجدت الصالون الكبير مظلماً ، أين ذهب أبى ، خرجت مسرعاً إلى الحديقة وسألت عم عثمان :

- ناياب من ياعم عثمان ؟

- خرج .. أنت كتكت فىن . قعد يدور عليك .. قلبنا الدنيا .. أين كتكت فى المسطوح مع سعاد .. ماذا أقول له ..

وعدت إلى البيت وحدى ، فلم أجد أبى ، خيل لى أنه مازال يبحث عنى تعذيت فى انتظاره . لا أفكر فى حبى ، بل أتوقع الشر المقبل ، تذكرت يوم خروجى مع أنففى كان الحجاب صارماً ، ترتكنى أمى ، هذه المرة سيموت أبى ، سيموتكى وإن يعود ، أستفقرك ياربى ، لن أعود إلى هذه مرة أخرى ، أغرقى نخبى لقد ارتكبت الخطيئة ، كفىنى ما أشعر به من ذم ، أنا أضعف من أن يذل بى عقابك .. أبى يموت الآن ، يلغض أنفاسه .. الدكتور برعى يراقبه فى وجوم ، ووجهه كالمعتذر ..

عندما عاد أبى ، كت راقداً فى حجرتى ، مريضاً أهذى ، ولكن وقع اقدامه كان يبدد مشاوى ، ويبعث فى قلبى الحياة ، فتح الباب وأطل منه ، كت راقداً مغمض العينين ، لتصنع النوم ، ظل يرقبنى لحظة ، أحسست به كأنى أراه بعين مجهولة ، إنه ليس غاضباً منى ، هكذا شعرت بل إنه يريد أن يحتسبنى ويمافقنى .. كأنه أبى ..

وأغلق الباب ، وابتعدت خطوات ومضت الليلية ..

لم يكن من السهل أن أقبّل سعاد وهدنا ، بعد زيارات متعددة أبقتت الأمل لى ، سوى أن يمرض محدث من جديد ، أو تحدث معجزة ، لقاؤنا تحت رحمة صفة عمل أن أنتظر وانتظر ..

كتت أراها لحظات خاطفة ، كأنها تعتمد أن تبعد عنى ، وكان هذا يعذبنى ويجرح حبى .. تحيينى بكلمة واجمة ، أو تظهر أمامى وتخفى قبل أن تحيينى ، تطل برأسها من خلف ياب ، أو تمرق فى طريقها إلى غرفة ، أو ترفع صوتها ببدء مضطرب .. كانت على أية حال ، تشعرنى بوجودها ، فلا أمك غير الآم والانتظار .

ومضت شهور ، وأنا أعيش بذكرى قفلتنا ، أتحرك وأتكلم ، وأصحو وأنام ولا شيء حقيقى ، غير ما حدث ، خدى لم يعارق خدما ، وكأننا مازلنا نترج على اليوم الصور .

لا أدري كيف تحملت كل هذا العذاب ، ولكنه كان حياتي ، أمل الوحيد هو لحظة لقاء أخرى ، وكلمات أروح بها ، وقبله ثانية على قدمي ، وإحلام أحدها عنها .

كل هذا ممكن .. لقد حدث .. قبلتها .. نتهدنا معاً .. فلعلنا تضعي الأيام مع العزن والوحدة ، لما أجلس في بيتنا كالسجين ، أتلفت حولي يا سعاد ، ليس هذا بيتي ، ليس هذا مكاني .. أنا أحب سعاد ..

كم امتحنت . سنتين ، ثلاث سنوات . نعم لقد انتظرت طويلاً ، شعرت خلال تلك السنوات ، أنني أجفرت هوة عميقة في داخلي ، تفرق في داخلها الأحزان ، وأحداث الأيام ، وكل ما أتمناه .. عرفت حين يقتبئني السر الدفين الذي لا يعرفه أحد ، إنه يفوس في بئر لا قرار لها . يترق في داخلي ، حتمتظبها يجهل كل الناس ، عالم عريض واسع ، لا تعيش فيه سوى سعاد ، جسمها النحيل يعتلي وجهها الشاحب يتورد ، وجمالها ينمو ، عيناها تزددان قلقتا وحنانا .

كنت في كل مرة أراها ، أحس بلا دليل أنها مازالت تذكر قبيلتنا ، وخديتنا المختصين ، واليوم الصور ، لم تنس أبداً ، شيء في عينيها يقول لي إنها تذكر .. لم يعد أبي يدرس لنا ، فقد حفظنا معارفه كمدرس ابتدائي وأصبحت أنا ومعدت في الثقافة ورغم أن أبي قد فقد الجنيات الثلاث التي كان يأخذها أول كل شهر ، إلا أنني استرحت ، فقد تحررت من ضعفه الذي يفرضه وجوده في هذا البيت ، وتحررت أيضاً من الذهاب معه ، والعودة معه ، فرصتي أكبر الآن في مقابلة سعاد على انفراد ..

كنت أتردد على مدحت لنذاكر ، أو لنتظاهر بأننا نذاكر ، أنا أريد في الحقيقة رؤية سعاد ، وهو يريد أن يستمع إلى الجرامفون ، ويتعلم الرقص ، التانجو والعوكس تروت والروما . كان يرقص وحده ، ويشرح لي الخطوات ، ولكنه لم يفكر أبداً في تعليمي ، كان الرقص من شأنه وحده ، وخجلت أن أطلب منه أن يعلمني ، فكنت أراقبه ، وأحفظ خطواته ، وعندما أعود إلى البيت أحاول تقليده .

قلدت مدحت بشراة وإسراف ، كان هذه هي وسيلتي الوحيدة كي أصبح مثله ، فتجني سعاد ، وترضى به ، أنطق أسماء المثلين بنفس لهجته ، وأزدد الكلمات الانجليزية والفرنسية التي يقولها ، أحفظ كل أغنية يحفظها ، أتصمت إليه وهو يشرح لي ميكانيكا السيارات . وأساعد في تدبير الخطط لأقناع السائق بأن يطمه قيادة للسيارة خلسة .

وكان يشترى أحياناً عليه سجانز بلايز ، ويخرج ليستطلع في السطوح ، ويعود ليقلق الباب هامساً :

- مافيش حد .. غير مبروكة ..
- ح تدولنا ..
- لا .. ماتخافش ..

وندخن الأسجائر ، وانتظار إمامه يأتي خبر في التدخين .. ثم بدأ مدحت يعدلني عن أصحاب له ، عندهم عربات ، وكان يزور من المذاكرة ، مدعياً أنه يزورني في البيت ليذاكر معي ، ويخرج مع أصحابه الذين لا يعرفهم ..

وانتهزت الفرصة ، فكنت أذهب إلى بيته على أمل ألا أجد هناك وأجلس متظاهراً بانتظاره ، ويطول الانتظار ، وأنا أفكر في سعاد .. ستهيء .. لابد أن تجيء . أنا وحدي .. هذه هي فرصتنا .. مستحيل أن تفلت هذه الفرصة .. كل ذلك العالم العريض الذي يقتبئني في داخلي ، يفسح ويصيح مطالبي بسعاد . حتى أسمع خطواتها يعلني ، وأخرج إلى السطوح لأراها ، قادمة كأنها تلبي نداء مجهولاً .

تلتقت لي ، ووجهها وأجم تنجني إلى السور ، أتبعها وأقف إلى جوارها ، ونسرح في الفضاء العريض .. رغم كل تلك السنوات لم أشعر أنني في حاجة إلى تذكرها بشيء ..

- بعد صمت طويل .. همست وكأنني أحدث نفسي :
- عايز أقولك حاجة ..
- أطرقت برأسها ، وعلا صدرها وهبط .. فتشجعت ..

- عارفة .

- فهمت .

- عارفة ..

- من سنين .. وأنا افكر فيكي ..

قالت في عصبية :

- هايزنى اعمل إيه ..

ارتبك وتوجع شيء كاللهب في عيني ..

سمعتها تهمس بعد قليل :

- اللي كده .. موش بيعملوا حاجة ..

- قصدك إيه ..

بدأ على وجهها الغضب ، حتى ظننت أنها ترفض حبى ، أو لا تفهم

ما أقوله ..

هممت متوسلاً :

- أنا بأحبك ..

قالت بصوت حزين :

- ما أنا عارفة .. لكن قصدك إيه ..

فجأة فهمت كل شيء .. أصاحت رأسى بالفور .. إنها تطلب منى أن أحدثها

عن الزواج .. هذا هو ما أريده .. ألا تطمئن ..

- قصدي تتجوز ..

- تفكر بانأ يرضى .

قلت في حماس :

- ليه ما يرضائى ..

لم أخف من رفضه ، كنت واثقاً أن كل شيء سيتم كما نريد ..

قالت في صوت خافت :

- ح يقول أنا لسة صغيرة ..

- معلش .. ح نستنى .

قالت بعد برهة :

- وأنت لسة تلميذ ..

- لكن بأحبك ..

- بكرة تكبر .. وتحب واحدة ثانية ..

- موش ممكن .. أنا أموت نفسى ..

قالت في لسي :

- الرجالة كلهم خاينين ..



الرجال كلهم خائنون ، قالتها سمعاد ، وكأنها تطلق حكماً أبدياً على كل الرجال . ولكنى رفضته لست خائناً ، وإن أكون خائناً ، الخيانة شر ، والشر لا يعيش في نفوسنا ، إنه يحيط بنا ، يهدق بنا ، كموت أمى .. الشر يأتى من مكان بعيد

استلبنى باسمعاد ، أياي تقول لي ، أنا واثق من نفسى ، ليس عندى ذرة شر . هل من الممكن أن اتحول ، مستحيل .. من الذى علمك أن الرجال خائنون ، هذا كذب ، انظرى إلى ، حدقى في عيني ، ألا تسمعين دقات قلبى .. أنا أأحبك ..

الأيام مضت في حب ، والأيام مضت رتيبة ، ماذا أفعل سوى أن أحب ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل أذهب لأبى وأقول له أريد أن أتزوج سمعاد ، هذا فوق قدرتى ، سأتزوجها عندما أكبر ، الشر هو أنى لا أكبر بسرعة ، لا أكبر في غضة عين .

وعلمنى الانتظار أن أفكر في مستقبل .. أكون مثل الدكتور برعى .. لا .. أنى أحب أن أتفرج عليه ، أرقمه وهو يقصصنى ، منظره مسل ، تعبيرات وجهه غريبة ، ولكنى لا أريد أن أكون مثله ، وجهه المعتذر ليلة وفاة أمى ، ينفرتى من اللطيف .. أكون ضليطاً في الحيش ، أحارب وأرتدى البدة اللاكثى وأضع على كتفى النجوم والتيجان ، منظرهم مسل ، أحب أن أتفرح عليهم ،

أرقبهم وهم يعيشون في الشارع ، القائمة معتدلة والاكتلاف عريضة ، والخيل واضحة ولكني لا أريد أن أكون مثله ..

لو أكون .. لو أستطيع أن أكون .. ماذا أكون ..

لا شيء يسحرنى مثل توفيق الحكيم ، أريد أن أكتب رواية كعصية الروح ، أكتب عن سنية ، عن سعد ، لأصبح كاتباً عظيماً مثله ، أركب عربتي وأسرح مع الخيال ، أعيش في الفنايق ذاهلاً ، كل الناس تعرفني وأنا لا أعرفهم ، أرقبهم من بعيد ، أتفرج عليهم وهم لا يدرون ، أكتب أشياء باهرة ، وأكتب أشياء غير مفهومة ، عن باح وموزارت ورفائيل وروبراندت ، وأكتب عن أشياء مضحكة ، أعيش في فرنسا في مونتبارتر ، لو أعرض عيني وأمتعها فأصبح توفيق الحكيم ، عودة الروح ، شهر زاد ، أهل الكهف ، يوميات نائب في الأرياف ، هذه الكتب هي على الذي أحبه ، إنها تلمس أعمالي التي تحب سعد ، لن أكون مثل توفيق الحكيم تماماً ، هو لا يحب وأنا أحب ، هو يعيش بلا امرأة ، وأنا أحيى ومعى حبيبتي زوجتي سعد .. حدثتها عن توفيق الحكيم كلما وقفنا عند سور السطح وحدثتني عن الفريد دي موسيه وفرقنا اللب ، واختلست القبلات كتبت أشعر أحياناً بالذنب ، وأحياناً بالخوف ، وأشعر أحياناً بالدهشة عندما أغيب عن سعد أسبوعين أو ثلاثة ، وأعود إليها والشوق يأكلني ، فأجدها متباعدة ، لا تسعى إلى لغائي ، ومع ذلك لم أنفك أي احتمال ، سوى أننا ننتظر ، وأنا أحبها وهي تمجنني ، وستزوج ، وسوف أكون كاتباً عظيماً مثل توفيق الحكيم ، وزوجاً عاشقاً مثل لا أحد

مضت سنوات الحب ملة كالأرق سريعة كالأحلام ، السر الذي في أعصاتي ينمو ، والأمل تزداد عرضاً واتساعاً ، وأنا مازلت طالباً بالسنة الأولى في كلية الحقوق ..

كانت الحرب قد أعلنت ، وأنى يتحدث في حماس عن هتلر وجبروت الألمان ، وأنا أميل إلى تصديقه ، ولكن بلا حماس ، كنت أنتظر ، إحساس غامض بالانتظار يسيطر عليّ وأنا أتفرج وأرقب أنباء سقوط فرنسا ، وعناوين الصحف عن المعارك الدامية والجحود الإنجليز الذين انتشروا في الشوارع ،

والعربات الحربية للصقراء التي تهدر في الطريق نيل نهار ، وضجيج الطلعة وهويناتشون ويسخرون ويقلعون ، وتحارب صغارات الادار ، والخوذات ، واقتعة الغازات السامة ، والمتطوعون في معاطعهم الصقراء يزارون ساعة الغروب « ضقى النور .. طفى النور » والأزرق الداكن الذي طلي به زجاج النوافذ ، وسطقات التموين ، والسؤال عن الجاز والسكر ..

كنت أنتظر ، وكان الحرب يستمر عن شيء لا أعرفه ، ولكنه سيحطى الكبير وأتزوج سعد .. وأصبحت أكثر جرأة ، فقلتها في شعبتها ، وضمعتها إلى صدرى ، كان ظلام الشارع يحميني ، والقلق الذي أشعره في العيون من حولي يزيديني قوة ، هم يضعفون وأنا أقوى ، الست الكبيرة تبتهل إلى الله ، وفي صوتها قلق ساذج ، الست الصغيرة تتحدث في جزع عن اختفاء اللحم من السوق ، وتفرغ من منظر الجنود الإنجليز في الشوارع ، وراتب يقرأ الصحف باهتمام ، ويبحث عن إشارات جديدة ويكثر من التردد على العربة رغم جزع الست الصغيرة والملاحمة عليه بـ لا يتركها وحدها ، كانت سعد تحدثني عن كل هذا ، فيزداد يقيني بأنهم يضعفون وأنى أقوى ، وانتظر المجهول الذي ستسفر عنه الحرب ويجمطني أتزوج سعد

لوسقطت القنابل ودمرت بيت راتب بك وسارت الأجرة مشردة في الطريق ، فسألف إلى جانبهم وسأعيش مع سعد في كوخ ، كانت انقراض المزعجة تدق رأسى فلا أشعر بفزع ، مجاعة تبتلعنا جميعاً ، وأنا وسعد نلتقط الفضلات وتتناول القبلات ، جسدها يشوه ، وأنا مازلت مخلصاً لها أحبها وأحبها وأحبها ، الدنيا تغنى ، وأنا وسعد وحدنا ، ضامنين حزينين .. متحابين .. كل يوم خميس ، والحاضرة الأخيرة في القانون الدستوري ، أنتبع كلام الاستاذ يشغف كاتبي نائب في البرلمان وسعد تطل من شرفة القاعة وحول رأسها اليشمك ، كما تظهر الملكة فريدة في الصور ، كل شيء أسمع أو أتحيله يرتبط بسعد بلا مشقة ، فقد تحولت المشقة .. وخرجت من المحاصرة ، ومرت على مدحت في كلية الهندسة ، سرنا معا في طريقه إلى بيته ، وفجأة قال مدحت والغيط يملؤه :

- موش قادر أزوغ النهاردة من البيت .. مع أن فيه رحلة هاييلة في المركب للفتاشر اتناشرينت ، تصوري بقى .

- مش قادر تزوغ ليه

- خطيب سعاد جاى النهاردة

ضحكت ، ثم وجمت ، ثم قلت في معلولة بئسة لإخفاء هذا الشيء غير المهورم الذى يطبق على :

- مه فيه اتخطبت .

- واحد دكتور .. عنده عربية شيفروليه ..

- مبروك .

خرجت الكلمة كسكين حاد يمزق نفسى .

عندما بلقنا البيت ، التفت إلى مودعا ، قلت وأنا لا أعنى ما أقول :

- يعنى ماتقدريش تزوغ ..

- ح احاول ..

- وأنت مالك والخطوبة ..

- كان صوتى حاداً مهاجماً ..

- بابا قالى اكون موجود

همست والدموع ترتجل وراء جفونى .

- أنا كنت عايز أجى معاك

صاح ساخراً :

- أنت .

- ليه .. لا

- اتهاى لى أنت بتتكشف من البنات .

صحيح . أنا أدخل من البنات .. لكن هذا .. فانا لا أعرفهن .. البنات

الوحيدة التى أحببتها هى سعاد ، وهى البنت الوحيدة التى أعرفها .. ولكنى

أريد أن أغرق ، ربما غرقت في النيل ، ربما غرقت في دموى . أنا أحبك

ياسعاد ، مادا جرى الشر ليس في نفسى ؟ ولكن أريد الآن أن ألقى بنفسى في

أحضانهم اتفهمين ، أريد أن أشفع كالأعمى أريد أن أفقد نفسى .. أنا لا احتل .. اتفهمين ..

قال مدحت :

- اسمع .. عندى فكرة .. كلمنى في التليفون الساعة خامسة .. لو قدرت أزوغ .. نخرج سوى ..

- طيب ..

لن أكلعه في التليفون ، لن أراك بعد الآن ، أنت تذكرنى بسعاد ، ساكتنى بدموعى ..

بكيت في البيت ، الدموع في حلقى لها طعم العذاب ، وجاءت ساعة الغروب فسمعت أقدام أبى تتحرك إلى الباب .. خرجت من حجرتى وسأله .

- رايح فين ياأبنا ؟

- اجاب في عجب :

- رايح القهوة .. فيه حاجة ..

- أجى معاك

- ليه ، ماوراكش مذاكرة ..

- متضايق ..

سرنا معا ، في كل خطوة أكاد أصارحه بحبى لسعاد اذهب إليها ياأبى ، أمتعها من الزواج ، قل لهم إننا أغنياء . ومعنا نقود كثيرة ، سنشتري عربية

شيفروليه ، ساكون رئيساً للوزارة ، صدقنى ياأبى ، أنظر إلى شكلك ، إنه فخم ، مهيب ، مسجفك راتب بك اتسمعنى ياأبى ..

ولكنى لم أقل له ، وعندما اقتربنا من ميدان العتبة ، خطر لى أن مصرى هو مصرى توفيق الحكيم كاتب مثله ملا امرأة ، حزين مثله ، ذاهل مثله ،

أعيش شاردة أكارها للزواج .. ساكتب قصة ، الرجال ليسوا حائنين ، النساء هن الخائنات ، خائنات بطبعهن .. أكرههن . أمفتهن .. سأصير عدوا للمرأة مثل توفيق الحكيم . ولكنى أحب سعاد .

كان لىى يعيش تشيخاً ، يسكننى عن الكلية داهتمام ، فأجيب مكلمات

مقتضية ، ويحدثنى هو عن مدرسة الحقوق السلطانية .. كان يريد دخولها ولكنه لم يستطع ، المصاريف كانت كثيرة ، كنا فقراء .. كنت عندما عزبة ، ولكن جدى رفع قضية على الحكومة لتأخذ منه الأرض ، لم يستطع دفع المصاريف ، وتعرف من كان المحامى فى القضية ، سعد زغلول .. أوراق القضية مارالت فى صحيفة ، المذكرة مكتوبة بخط سعد زغلول .. خط يده .. أوراق تاريخية ، تساوى ألف جنيه .. ربما ألفين والله أنا مهمل .. كيف أحفظ هذه الأوراق التى كتبها سعد زغلول بخط .. فى صحيفة ، أخشى أن تكون الغيران أكلتها .. ذكرنى يايوسف .. عندما يعود إلى البيت سأخرج الورق وأحتفظه فى مكان مناسب .. صحيح أنا مهمل .

أنتستطيع استعادة الأرض ، وتعود لنا العزبة ، لقد كنا أغنياء . كنا أغنياء ياسعاد ..

عاه أبى يحدثنى عن ناظر الحقوق .. مستر هوان .. ويدأت أسرح وراء وجه سعاد ، استعيد كل لحظة قضيتها معها .. كيف ترخصين بهذا . ألا تعينى .. ألا تتألم .. إنها تعينى ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، وماذا أستطيع أن أفعل أنا .. سعاد ليست خائفة .. إنه الشر الدكتور الذى جاء ليضطنها هو الشرير .. لو يموت .. كيف يعيش معها . ألا يعلم أنى أحبها .. قبلتها .. عانقتها .. شعرت بجسدها فى صدرى

وصلنا إلى مقهى يأنشراح الحلفى لدار الأوبرا ، المناضد مثراسة فى صف واحد طويل كأنها منضدة واحدة ، منظر لم أره من قبل فى أى مقهى ، وأنسى بجلوسى على الحائى يلعبون الشطرنج ..

صاح أبى .

السلامو عليكم ..

فارتفع أكثر من صوت وكانهم يشدون ..

رجال وشبان وكهول ، أعمار مختلفة .. شيخ معمم ، رجل سمع وجهه منى بالتمش امامه كاسى ، المكان يفوح برائحة الخمر ، ورائحة مرحاض . شاب بالقميص والنملون .. عجوز أصلع يغنى بصوت مسموع قطع العجوز

غناؤه وقال بصوت ممطوط يثير الضحك :

- الطماء كالجھلاء ..

ارتفع صوت الجميع مكملاً :

- سواء بسواء ..

دهشت ولكنى أبتسمت ، هذا مكان خراب وقذر ، نسيت للحظة سعاد .

أهؤلاء هم أصناف أبى ..

صفق أبى وزقق بصوته المرتفع :

- يا مخال ..

وجاء قزم يمشى على مهل .

- أبوه ياسى عبد الحميد .. قهقهة سادة ..

صاح أبى :

- بن تقبل .. وواحد سباتس

الكازيزة لى .. فطر إلى مخال بعينين حذرتين .. ثم التفت إلى أبى وقال له

كأنه يهدده :

- ياسى عبد الحميد .. لنا ماخذتش حساب امبارح .. انتن لهوره ..

قاطعه أبى .

- هارب .. بس غور من وشى

قال العجوز الذى يضى منشداً :

- غور من وشى غور ..

ياسيدى غور .. غور ..

وانطلق صوت الرجل الذى يشرب الخمر .. صوت كالانفجار .

- لماذا تضحككن يا بقرة ..

وتجشأ ..

خيل إلى أنى لحلم .. فى كابوس .. لم يسأل أحد أبى من أكون ، ولم يقل

لهم أبى من أنا .. واسترحت لهذا الخاطر .. ودهشت لانه جاء بى إلى هنا .

بعد أن شرب القهوة ، كان قد نسي أنى موجود ، وضع رقعة الشطرنج بينه وبين الرجل الذى يشرب ويقول الكلام الغريب .

كان خصم أبى له عيدان ضيقتان سلخرتان ، وعلى رأسه طربوش قصير ، رجل فى الخمسين ، يشرب بنهم ، يده ترتعش وهى تحوم فوق رقعة الشطرنج ، ثم تضيق عيناه ، وتفرج شفاته عن أسنان متاكلة ، ثم يزار ..

- عروم عروم .

ويحرك قطعة ..

وكان لا يكف عن إطلاق كلمات لا معنى لها . صباح القمر مايتسدى .
هاهاها .. أنا جده .. أنا كارنينا .. بليق الطليطين يوماً .. ياسيدى بقبيل ..
ياروحى بقبيل .. أخض عليكى بالملعونة .. أخض على الصرصار اللي فى
المخوخة .. ويتجشأ .. وتضيق عيناه ويكز على أسنانه ويزار .. عروم ..
عروم .. ويحرك قطعة ..

وأبى صامت ، كأنه يهمل .. شبك يديه فوق صدره ، وأطرق برأسه ،
يمده يده فى تردد ويحل .. ويحرك قطعة ..

غرقت فيما أراه .. ولكنى أفلت شيئاً فشيئاً من ذهنى .. أبى يجلس مع
هؤلاء الناس .. يعرفهم .. يصادقهم .. يلصق معهم .. أه لورانا راتبك .. لو
علمت سعاد أن هذا هو المكان الذى يجلس فيه أبى كل ليلة . مكان فقراء ..
أشلاء ناس .. وشعرت بدوار

فحاة بدأ الرجل الذى يشرب يترنم بصوت جنائزى :

- نعيان جسيم لهرميل الهراملة وباطر النظار وريس الريسة وكبير الوزا ..
المتبحر فى شيوخوخة سمعان انتهى ..

انتفض أبى وقد أحمر وجهه من الغضب وصرخ :

- لا ، مامتش .

قال الرجل وشفاته متدللتان وعيناه تنسعلان فى مكر .

- والذى مات .. المتبحر فى شيوخوخة سمعان انتهى .. هع ..
ويتجشأ .. رائحة الخمر تلوح من فمه تفاحة وقحة .. وصرخ :

- يامخالى الكلب .. يا أذعر

والتفت الرجل إلى فحاة ، فوثب قلبى بين صلوغى ، وسألتى ماسماً وهو
يغمز بعينه

- بضحك موش مخالى أذعر ..

هرب الدم من جسمى .. ولم ينقضى إلا حضور مخالى فزماً

وصاح الرجل مترنماً :

- هات واحد كونياتك .. يبقوا كام ؟

قال مخالى هامساً

- ستة ..

صاح :

- يامخالى الكلب .. يا حرامى .

وتدخل المجوز الذى لا يكف عن الغناء .. سأل منشداً

- موته خلاص .. والا موته ..

قال الرجل السكران :

- العيقرى انتصر .

ثم اكمل وهو يبكى

- أه .. موته ..

صاح الرجل الذى يفتى

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وتنهّد ثم أشد

- الجهلاء كالعلماء .

وانطلقت الأصوات جميعاً .. الجدران والمقاعد والمناضد وقطع الشطرنج

كانت تشتبك فى الغناء وتنشد

- سواء .. يسواء .

كان وجه أبى أحمر ، الخيط فى عيبيه وأنفاسه ويده ، كان عاصباً ، شفاته

ترتعثان ، ويده ترتعثان . ولكنه كان يضع القطع على الرقعة استعداداً

لمعركة جديدة وصاح أبى سمعرا :

- العب دور ثانى .

صاح خصمه

- الجهل مضلوه على العلم . يا أبا جهل

والفتت إئى وسالكى

- بدمتكم .. موش الأفتدى ده أبو جهل ..

نظرت إلى أبى حائرا .. استعجده ، ولكنه تجاهلنى .. وسالكنى الرجل :

- وحضرتك تبقى تعرفه متين ؟

صاح أبى :

- واثنت مالك يا أخى .. واحد صالحى .. العب بلاش خوتت دماغنا ..

أيقنت أن أبى يريد أن يبعدنى عن هذا المكان ، لا يريد أن تربطنى به

صلة .. ولكنى مازلت أتساءل .. لماذا رضى أن يصحبنى إلى هنا ..

ليلتها شعرت باليأس ، إننا لاشيء .. لا عربة ولا شوة ولا أمل .. أبى

ينتمى إلى المهقى المجنون القذر .. وبكى ..

استيقظت فى الصباح مازلت أبكى .. وذهبت إلى الكلية ، واليأس يتضخم

فى رأسى ، العزن قاس ..

بعد انتهاء المحاضرة الأولى خرجت من المدرج ووجدت نفسى سائرا نحو

بيتها .. مررت بكلية الهندسة ، حدثت فى الباب باحثا عن مدحت .. أسرعت

الخطوات حتى لأبرانى ، مشيت فى اقدام . رأسى ملتهب ، دمى يفور ، لو

رفضت فسأصفعها سأبصق فى وجهها . أحبك ياسعاد .. ستقابلينى فاتحة

ذراعيك .. وستبكين على صدرى ، وستهرين معى من البيت .. إلى أين .. إلى

بيتنا .. إلى المهقى .. نعمل معنا أوراق القضية المكتوبة بخط سعد زغول ..

نبيعها نألف جنبه .. لا أبرى .. ولكنى ذاهب إليك .. قلبى يتبىض .. إننا

الرجل الذى لا يخون .. أنا القلب الذى يحب .. سأ تزوجك ياسعاد .. لا شيء

يقف أمامى .. لاشيء .

اقتحمت البيت .. فوجدت مدروكة أمامى . قالت

- سيدى مدحت لسه ملجاش .

قلت محتدا :

- أنا هايز سنك سعد .. روحى أندهى لها ..

بعد زمن طويل قضيت فى غيابة .. ورايتها قادمة .. لو استطعت أن أقبل

قدميها .. أيكى أمامها . أعماقى دوامة .. ولكن الكلام يخرج من فمى غربيا

عنى - لا صلة له بى .. طلبت منها كتاب عصفور من الشرق ..

- انتفضل أقعد ..

رفضت .. كنت أريد أن أجدى هاربا من البيت ، أريد أن أنفزع إلى

الطريق لأتوسل إليها هناك .. بعيدا عنها .. ورفعا عنى خرجت الكلمات

الغريبة ..

- مبروك ياسعاد ..

لم أسمعها وهى تتمتم بكلمات .. غلبنى الغيظ ، ما هذا الكذب أنا لا أريد

كتاب .. لا أريد أن أعتنئها .. لماذا هى تعيش فى هذا البيت .. لماذا يذهب أبى

إلى ذلك المقهى .. إنها غنية .. ستعيش فى قصر .. من أنا .. حقير لغير ..

الرجل الذى يشهد والرجل الذى يسكر يسفران متى ضحكك من ألم .

- خلاص ح تتجوزى ..

- أبوه ..

أكرهك .. أنت حقيرة .. أنت غنية .. أنت خائنة .. أنا توفيق الحكيم عدو

المرأة . أحسن منك ..

- مبسوطة ..

قالت هامة :

- على إيه ..

تكذبين ، نعم أنت سعيدة بهذا الزواج .. ربما كانت صداقة .. ربما هى

ليست سعيدة .. هناك بارقة أمل .. خرج الصوت من أعماقى ..

- طيب ح تتجوزى ليه ..

قللت فى لى .

- أعمل إليه يعنى ..

أترجك .. أنطق بالكلمة يابوسف .. قل لها كل شيء .. حارب .. أجندها
من يدها وأطفش .. افعل ما تريد .. للكلام الحقيقى لا يخرج من لسانى .. أبى
عليان .. أوراق القضية فى الصفيحة .. أمى ماتت .. هى التى تستطيع أن
تقول .. الحرب لم تنته .. المعركة لم يجر .. هذا البيت لم يتهدم .. المجاعة
لم تحدث .. لا أستطيع .. سكت ..

دعيت سعاد لتجسر الكتاب .. جارة أمى كانت مثل هذا .. فليس يولون لى
ظهورهم وأنا واقف أترج فى النافذة .. كل ما فى أعماقى يموت ..
هانت ومعها الكتاب .. مدت يدها .. مدت يدي .. ألتقينا عند الكتاب ..
وسحبت يدها وجرت إلى الداخل .. كل ما فى أعماقى مات ..
ليلة زفافها كنت أحمل قبرى بين ضلوعى .. قبر صامت لا يهمس لى
شيء .. حزن مزم .. ألم ليس كالآلم لأنه قديم .. عيونى تتطلع فى ضجر ..
قلماى لا تستقران فى مكان .. خرجت إلى الحديقة أرقب الليل .. الظلام
يريهنى .. ترى ما الذى أنا مقبل عليه ..

●●

عندما جاءت مبروكة إلى بيتنا ذكرتني بالشيء الذى لم أنسه .. ذكرتني
بالميت الذى لا يموت .. قال لى أبى والبشر يقطع من وجهه :

- ح نجيب خدمة عظيمة .. مبروكة ألى يتشتغل فى بيت راتب يك ..
كان يشعر بالفخر ، أنا أيضا شعرت بالفخر ، ولكنى خجلت من قدميها ،
كان سعاد هى التى ستجيب .. أو مدحت .. إن ثأتى لتخدمنا ستفرضنا ..
سترى عيناها الفارق بين بيتنا وميتهم ، لاحظ أبى همضى .. فسألتنى ..

- إيه .. موش مسبوط ..

قلت صادقا :

- مسبوط ..

ودعت أبى عصر يوم .. وعاد ومعها مبروكة ..

عاد أبى ومعها مبروكة ..

لبنى ومبروكة ..

لا .. لنا أتعجيل الأحداث ، أقتزفوقها .. أنت يابوسف لا تعنى إلا بتذكر
ما حدث لك .. الأمر ليس بهذه البساطة يجب أن تتذكر ما حدث لأبيك ..
لا تنس أن حياتك قد أثرت فى حياتك .. أظن هذا .. على أية حال لابد أن أتحدث
بالتفصيل .. كل التفاصيل .. الخطر يكمن فى التفاصيل .. فى تلك الأيام كنت
مشغولا بنفسى ، فلم أنتبه للتحويل الكبير الذى حدث لأمى .. ما أغرب
الحياة .. نحن لى حاجة إلى قدرة إله لفهمها .. لفهم ما يدور فى رؤوسنا
وما يدور فى رؤوس الآخرين ، لننتبأ بالصدام .. بالاحتكاك .. بالذى يؤثر ..
والذى يتأثر .. الآن .. الآن فقط .. تستطيع أن تفهم يابوسف .. بعد أن فلت
مافلت .. بعد أن فلت الأوان .. الله وهدى يعرف ماسيحدث .. أما الإنسان ..
القوى ما يستطيعه الإنسان .. أن يعرف ما يحدث ..

الآن .. كائن لامل من فوق قمة جبل .. على واد لسيح .. أرى أحداث
حياتى الماضية .. أرى ما يحدث وهو يحدث .. أرى ما يقع وهو يقع ..
لا أستطيع أن أمد يدي لأمنع شيئا من الوقوع .. أنا بعيد ..

لافاضة من لى أربع صوتى لأحذر .. أصرخ لأتبه .. الله قد صنع
مالمصنع .. وأنا أترجوع من جديد .. كل القديم .. وأعرف ..

قبل أن يعود أبى ومعها مبروكة كان قد أحيل على المعاش ، لم أهتم كثيرا
بذلك ، وكان شيئا لم يحدث له ، إنه مازال أبى ، ما الذى يمكن أن يحدث
لأمى .. لم أنتبه إلى مايشعر به .. لم أنتبه إلى مايدور فى رأسه .. الآن ..
أستعيد كل التفاصيل .. وأنتبه إلى ما لم أنتبه له .. تصرفاته الغريبة .. ضيقه
المفاجئ .. بيتنا فى شارع المد .. تأففه من دكان الطرشى .. نهاره فى البيت
كالأمس المحبوس فى العرين .. كتب الشطرنج التى اشتراها والقللم الأحمر فى
يده .. يضع للخطوط الحمراء تحت السطور وكانه يصصح الكراسيات ، يقرأ فى
الكتب ويلعب نفسه يكشطرنج الذى اشتراه .. شجاره مع قاطعة
القمامة .. لكتفى يابت .. أممضى يابت .. الجرنال فى يابت .. اغسل

الجرجج يابث .. الاكل شاطي يلبث .. وهربت فاطمة .. وارتفع صوت أبي في السلم غاضباً على اولاد الشيخ سليمة .. وضرب يانع الخيار في الشارع والتف حوله الناس .. كنت لا اكثرت .. وعندما ينصب إلى المقهى لا اكثرت .. حتى عندما أعل رغبته المفاجئة في الانتقال .. لم أدرك أنه ضائع بعيد .. ينهار عاله من أمله .. تطرد الحياة إلى هامش الحياة .. يصرخ كالستيفيت ، ولا لحد يفت .. دهشت لأنه يريد أن يتخل عن البيت الذي عاشت فيه أمي ، ولكن فرحتي بالفرار من ذلك البيت طغت على دهشتي .. أخيراً تخلصنا من حي الفقراء ، وذهبنا لنعيش في شارع الفلكي عند حدود حي الأغنياء .. حيث الهدوء .. حيث لأجران يستلمون بنا وتخلط بهم .. لا أصوات تزعق وتصرخ وتتساجر في الطريق .. لا اولاد حفاة في الشارع .. لا ألم في العين .. ولا إشاعة في الرائحة .. على بعد خطوات تقع سراي محمد باشا محمود رئيس الوزراء السابق .. الأشجار موزقة في الحديقة الواسعة والحراس يقفون عند الباب ، يملأ منظروهم خطواتي بالرهبة والوقار ..

سكننا في شقة صغيرة هائلة بشارع الفلكي ، تضم الاثاث القديم وكنت مرتاحاً إليها ، فالشارع هادئ ، والمعمارة نظيفة .. تختلف تماماً عن بيتنا في حارة زكي .. رغم أنني كنت أشعر أحياناً بالحنين إلى حجرات بيتنا القديم ، الحجرات الواسعة ، والسقوف العالية ، وأشعر بالحنين إلى أمي وهي تتحرك في البيت القديم تملأ بصوتها وأفئسها ..

كنت جالساً في غرفتي ، بعد عودتي من الكلية ، أكل حلالة طحينية عندما دخل أبي البيت ، خرجت إلى الصالة ، فرأيتها معه ، لم أرها .. رأيت أهل بيت راتب بك كلهم .. سعد .. مدحت .. الست للصغيرة .. راتب بك .. إسماعيل الخادم .. عثمان البواب .. وعن وراء الجميع شبح الست الكبيرة ، خرجت من قمرها لتزق هذا الشيء الغريب الذي هو بيتنا ..

اقتحموا البيت معاً .. وجوعهم ساخرة ، شامتة ، مترفة .. تتهمني بالكتب .. تقول لي ، لقد خدعتنا ، لو كنا نعرف أن هذا هو بيتك .. وهذه هي

حقيقتك ، لما سمحنا لك بزيارتنا والاختلاط منا .. سعد تقول ، ما أضيع الساعات التي قضيتها معك .. الست الكبيرة تنظر إلى شقة وضاء ، رأيي وأنا ارتدى البيجاما ..

كان أبي يعمل مبروك وكانوا واحدة منهم يتقدمها إلى حجرته واقتحم معها حجرتي .. نظراتها تذكرني بهم .. نظرات وقوية متروعة كنظراتهم .. لم اسمع ماذا يقول لها أمي .. لم أفهم شيئاً على الإطلاق .. حتى سألت أبي أين تريد أن تنام ؟ عندئذ أفقت عن صورتها وهي تشير إلى حجرة الأكل قائلة ..
.. انام هنا ..

في تلك اللحظة ، اكتشفت أن الفستان الذي ترتديه ، هو فستان قديم لسعاد .. فوجئت .. فستان سعاد في بيتنا .. سألتني أبي عن رأيي ، فوافقت في الحال على اقتراحها ، وأنا أريد أن أهرب من أمامها ..

اختلفت معاملة أبي لمبروك عن معاملته لفاطمة ، خيل لي أنه عي استعداد لأن يخدمها هو .. وأن مجرد وجودها في البيت شيء باهر بالنسبة له ، أما أنا فقد تجاهلتها تماماً ، رفضت أن أفكر في مجيئها .. وجودها معنا في البيت .. لن أعاملها مثل معاملة أبي ، سأتحصن بكبريائي ، سأعلم أعاملها وكأنها لا تعرف حقيقتنا ، وكأنني مدحت أي فرد آخر من بيت راتب بك .. وكنت اسمع صوتها ينطلق ، أو ألاحظ ابتسامته تطوف بوجهها فأهرب بالذئ وأهرب بمعنى ، وأذهب إلى حجرتي وأغلق على نفسي الباب ول الصباح أفر من البيت كأنه ليس بيثي ..

ولكني لاحظت تغيراً مفاجئاً في البيت ، أصبح نظيفاً ، وحجرتي مرتبة ، وملاء السرير بيضاء والبيجاما مطوية بعناية فوق السرير .. وأصبح أبي أكثر هدوءاً ، كنت أراه يشرب الشاي في الصنّاع وعلى وجهه ابتسامة وضاء ، يتبع مبروك في سعادة وفرحة ، عيخيل لي أنه يتوهم نفسه راتب بك ..

كانت صلاتي بمدحت قد أصابها الفتور منذ تزوجت سعاد ، متقابل صدقة في الطريق أمام باب الجامعة فيتهلل وجهانا ، ويرحب بي وأرحب به ، ويتبادل

العتاب لأننا لا نلتقي مثلما كنا بفعل في الماضي ، وأشعر بوحز الألم . إذ أتذكر
سعاد في وجهه ، كنت مازلت أحسها .. ثم يغيب عن مدحت ، ولا أراه . حتى
تتقابل بعد صدمة أخرى ، بعد أسابيع أو شهور ، لم أعد أتربد على بيته ، ولم
بعد هو يسألني أن أزوره ، وكنت واثقاً أنه وجد أصدقاءه الحقيقيين ، من
مفس طليقة .. أعتياء مثله ، يملكون العربات ويعلمون بالتقود ، ويعرفون
البينات ..

أحد الأيام التقيت بمدحت وأنا في طريقني إلى ميدان الجزيرة ، جذبتني من
يدي في حماس ، وفي عينيها بريق غير عادي ، كأنه يتلمصني . أو يبحث عن
شيء ما في داخلي ، ثم سألني في لهفة :

- عامل إيه مع مبروكة ؟
- لم أفهم مغزى سؤاله ، وبخجلت فتللمشت .
- صاح وعلى شفطيه ابتسامة مأكرة .
- اطلع من دول .. مانخبيش عنى حاجة ..
- قلت في خوف :
- أخشى إيه ؟
- قال ضاحكاً في وقاحة :
- باقي يذمك ماعلمتش معها حاجة ؟
- حاجة إيه ؟
- هتف :
- ده أنت خيبة قوى
- ثم عاد يلح وعيناه تتلمصني في غير تصديق :

- عايز تقول إن ماحصلش بينكم حاجة لحد دلوقت ؟
- قلت في حدة
- قصدك إيه ؟

فمضى يبرؤى لي مغامراته مع مبروكة ، استمعت إليه وأنا أكتف بهشتي ،

وقد خللجني شعور غريب بالمروء ، لأن سجناء مبروكة عندنا يثمر حسده
وغيرته ، ويشعره بأن عندي شيئاً يفقده هو .. كان يكلمني وكأنني عندي كرز
محروم هو منه ..

وقال في لهفة

- بنت هائلة يا ابني .. بقي ماحدش بالك من جسمها .. لهلوبة .. والله
أحسن من كل البنات اللي بنخرج معاهم . مافكرتش أبداً أتوسسها . جرب ..
اسمع كلامي ماتبقاش عبيط .. دي فرصة . أنت وهي لوحدكم في البيت ..
عسى ما بيخرجش . آمال أنا أقول إيه . البيت عندنا مليان .. تعرف يوم
ماما مانظفطنا . أنا قلت خلاص . ح يمنعوا عنى المصروف وح يطردوها ..
أفد يرحمها ستي هيه اللي خليتها تتعد .. ماحدش قدر يقولها حاجة ..

وحذق في وجهي وقال مشجعاً

- هه .. ح تجرب النهاردة ؟

فلما لاحظ ارتباككي ، صرخ في حماس

- بشرني .. البت ماعندهاش مانع .. دي قلاحة .. بس أنت ماتتكتشفش ..
- أسمع .. أنا أقولك إزاي .. أسستي لحد ما عسى يخرج من البيت .. وأنده
- لها . اشغط فيها .. وقلولها قلعيلى الهدوم .. ح تسمع كلامك على طول ..
- وامسكها .. وامسكها .. موش ح تقول لك حاجة .. ماتتجكش .
- وشرح لي في اهتمام ، كيف أثمروا وأجعلها تستسلم لي ، كان يشرح وكأنه
- يتخيل كل شيء .. كأنه يتمنى أن يكون مكانى .. ولم يتركني حتى وعدته بأن
- اتعد خطته .

وعدت إلى البيت ، وفي رأسي أفكار جامحة ..

كأنني كنت أنتظر تصريح مدحت لي حتى أغازلها وأفكر فيها كامرأة ..
مادم مدحت قد فعل هذا ، فلأخرج علي ، أن ينقص من قدرى أن أمد يدي
إليها وأقربها ، أولاد الأعتياء يفعلون هذا . مدحت بالذات قد فعل هذا
تقم .. هذه هي فرصتي . سأفعل مثله .

مذ أن كنت في مدرسة الخديوي إسماعيل وأنا أسمع عن مغامرات التلاميذ مع الحاديات ، وأسمع النكات الجنسية ، والقصص المشرقة يروونها بلذّة وشغف ، يتهاشم بها التلاميذ الصغار ، ويحار بها التلاميذ الكبار ويشحكون ، وفي نبرات صوتهم ثقة واعتداد ووقاحة ، كنت أسأل نفسي لماذا لا أفعل مثلهم ، لماذا لا أحاول مع فاطمة .. كنت أراها راقدة في المطبخ تمرى فخذها ، فأسمع طنيناً في رأسي وتتجدد نظراتي فوق جسدها كأنها تتحسسها وتغطف أنفاسي ، ولكن رغبتى تتخطى بمخاوف لحاضرتى ، أتوهم أن عيوناً ترقبني ، وترصد حركاتي ، أرى وجه أمي حزيناً معتراً ، أرى أبي كأنه يهددني ويأمرني بالابتعاد عنها ، وأتوهم رغبة مسعورة في الانتحاء وليس فخذها أو صدرها ، يدأى ترتعشان باردتان ، ورأسي ينضح وفي أعمالي مفس ، ويشدني الألم والخجل ، فأقرر من أمامها وأعود إلى غرفتي مؤرقاً ، ورغبتى قاسية .. وأحلم أحلام اليقظة ..

عندما أحببت سعاد ، كنت أحلم بها ، ولكن الأمل هددت ، لم تكن رغبتى قاسية ، وكان الحب في قلبي أعنف من الحب في أعمالي ، وشوقى إلى رؤيتها وليس يدها ، أهم عندي من أحلام اليقظة التي تهدأ كلما فكرت في أننا سنزوج يوماً ما .

علمتني حبي لسعاد أن أترفع عن مشاركة الطلبة في الكلية في أحاديثهم التي لا تنقطع عن الجنس يتندرون بحكايات عن الحاديات وحكايات عن بنات يقضين الليل في بيوتهم ، كنت أسمعهم من بعيد فأفكر في سعاد ويتطلبني الفزع ، إنها ليست واحدة من أولئك البنات الشريرات ، سأحبها حتى من حواطري ، لن تسقط في خيالي ، ستظل دائماً لللاك الظاهر العفيف ومع ذلك لم يكن الأمر هيباً ، أعود إلى البيت وأرى فاطمة فتتحرك ورغباتي ، ويتكلم عني .. قاوم ، لا تمس هذه الخادمة القذرة الحافية التراب في شعرها ، الرائحة الكريهة تفوح من جسدها ، الشقوق في جلدتها ، احفظ لجسدك نظافته وطهارته .. من أجل سعاد ، ولكن الكلمات تنوب ، والعقل ينهار .

والرغبة تشقّد ، ولا يمتنعني في النهاية من المحلولة ، سوى هذا الرحي الحير ، يأتي خائف ، ويأتى لمي وأبي معي ، يرقباني وينصت إلى خلجات نفسي .

بعد أن تزوجت سعاد أصبحت كالمرضى ، أفكر في رغبتى كالعاجز الضعيف ، كان سدوداً هائلة يبس وبين آية امرأة ، قوة طاغية تدفعني بعيداً ، أرغب في يقيني أنني لن أحقق أبداً ما أرغب فيه ، وقرأت باهتنام وصف توفيق الحكيم لنفسه بأنه راهب فكر .. لنا راهب فوق الجسد ، سأضعف وأضعف ، سأصبح نحيلاً شغافاً كالفكرة .. كالخيال .. سأصبح فتناً عظيماً وأكتب القصص .. وأمسكت بكتب توفيق الحكيم ، وانتهمتها من جديد ، وتاملت وجهي في المرأة ، أبحت عن الشرود في عيني ، ورحبت بالشجن الغامض وبمسحت له بأن يجتاح صدرى ، وسفرت من المرأة وقلت لزملائي في الكلية .. أنا فنان .. وكما رأيت طالبة شعرت بجسدى يتصلب ، وولعت عيني فوقها ، أعيدتها وكلي إحساس غامر بأنها تعرف أنني اتجاهلها ، ولا أكتفّر بأنوثتها ، بل أحتقرها وأترفع عنها .

ولكنني اليوم عائد إلى البيت والأمل الخائف يعاودني من جديد سأحاول مع مبروكة ، فست راهباً تماماً ، فست فتناً كتوفيق الحكيم ، لماذا أدفع بنفسى في طريق العذاب ، سأعيش كما يعيش الآخرون ، سأصبح وكيلاً للنسابة وقاضياً ومستشاراً ، ربما أصبحت وزيراً .. الدنيا كلها تحت أقدامى ، سأحتاج هذا البلد بنفوذى ساطرد الانجليز وأصبح رئيساً للوزارة ، المال ينكس في خزائني ، القصص تحت امرى ، سأنزّج إحدى الأميرات ..

بعد ساعة واحدة ستكون مبروكة ملكى ..

لوصرت .. للقانون .. جريمة هتك العرض .. إنها في مثل سننى .. لقد بلغت العشرين .. رضائها يعفني من العقاب .. لن أستعمل القوة .. لو ادعت أنني اعتديت عليها .. لو .. أصبحت يقول إنها فلاحه .. أبى يصغفها فتسكت .. ولكن موقفى سيكون سيئاً .. فصيحة .. لا يوم .. سيضيع مستقبلى .. لا يوم .. سيحزن أبى .. لا يوم .. سأعبد .. مثل الطلبة الذين

يتندرون بمغامراتهم .. يستعاطى الحشيش منهم .. ساميحي مثل انفس ..
وطنى وريثيس وبراء ويركب هذا .. وكيل نيابة يحقق مع المجرمين وهو
مجرم .. لا يهتم .. لا يهتمى شيء ..

كان أبى فى المفهى ، وعبوكة كثيرة الحركة فى البيت ، قلت لنفسى إنها
تدعرنى إلى نفسها ، لم أجز على النظر إليها ، كنت أنظر إلى الصور المتداخلة
فى خيالى ، جسدها العارى .. كلمات مدبحة .. كل شيء أراه يحدث أمامى أين
يحدث .. فى عرفتى أغلق الباب علينا .. أناديها الآن قبل قوات الألوان ..
ارتفعت الأصوات فى رأسى صاخرة فائرة حتى لم أعد اتحمل .. ذهبت إلى
حجرة الطعام وفتحت الراديو .. امتلأ البيت بالحنن تشاكوفسكى .
الدكتور جريس فى كلية الآداب .. نذهب إليه ظهر كل أربعماء ونسمع الموسيقى
الكلاسيك فى أحد الفصول .. نظراته السمكية فوق عينيه اللصيفتين ..
جسمه النحيل الرشيق .. صوته المنعم وقمه الملء بالعالم .. كان يمدحنا عن
سمو الفن .. التحليل فى عالم الجمال .. أنتم بشر .. أنتم تختلفون عن
الحيوانات ، كان تشاكوفسكى معذبا .. مصابا بالشذوذ الجنسى . كان
يتكلم ويقلهم .. كان يصرخ .. انفعالاته أقوى من انكاره . عواطفه الحادة
أوضح من عقله .. إنه لغنان عظيم ولكن ينقصه شيء .. الموسيقى ودمانى
الغائرة شيء واحد ..

فجأة رأيتها أمامى .. لا أنكر ماذا قالت .. لم أسمعها جيداً .. ولكنها
تعترض على الموسيقى الكلاسيك . تريد سماع شيء آخر من ممثلة مصر ..
وشرت ..

حاولت رغبتى الحامدة إلى حقد محموم .. اندفعت الثورة من فمى أدافع
عن نفسى .. أدفع الخوف عنى .. أهاجم القضيحة التى تصدق بى ..
العصية المسقرة فى رأسى .. ربما لأنها هى التى جاءت تكلمنى .. لو كانت
انتظرت قليلاً .. ربما كان قد تغير كل شيء .. كنت ناديتها .. هى التى
حامت .. تتكلم كسيدة .. تعاملنى كصاحبة بيت .. صاحبة مزاج .. تقول لى
إنها ليست خادمة فى هذا البيت . لمست مدحت .

- أتت فأكبره نفسك إليه .. خدامة ..

طوبتها من الحجرة .. وذهبت إلى حجرتى .. ولكن الرغبة اجتاحتنى
عنيفة مدمرة ، خرجت إليها فوجدتها فى الحمام .. الماء يسيل فى الداخل .
يقسل جسدها .. الجسد الأسمر .. يفوح برائحة اللحم .. لكاد اشمها ..
الماء يسيل .. صوت الماء يثغرى .. جسدها يتحرك تحت الماء .. يداها
تتحسان جسدها .. تحسسان جسدى .. (أطرق الباب .. أناديها الآن ..
اقتحم الباب .. سكنت صوت الماء .. وساد صمت غريب .. عدت متسلسلة إلى
حجرتى ، أخشى سماع صوت خطراتى . أخجل من أن تعرف انى وقفت
بالقرب من الباب .. كانى شحاذ ..

لم استقر فى حجرتى . فتحت الباب .. فسمعت صوتها .. تغنى .. مرحة
قوية مصيطرة .. حيوان غبى .. حيوان شعره طويل . يغنى .. صوتها
يتحداى .. يستفزنى .. يصرخ فى أذنى .. صوتها المرتفع فى البيت يقول لى ،
أنت لاشيء ، أنت فقير ، ليس هذا مكانى .. كنت أعيش فى بيت أحسن من
هذا .. لن أعاملك كسيد .. لا أعترف بمعاملتك لأن تكون سيداً .. لا قيمة
لثقافتك .. إنى أسخر من الموسيقى الغربية التى تسمعها . أترك كل هذا ..
انسه .. ثقلى هنا .. واركع أمامى .. واعترف لى .. أنا وأنت شيء واحد ..
لا تتكبر .. لا ترتفع .. لا تفكر فيما ليس لك .. إنى أهزأ بك .. تعال ...
تعال

نهبت إلى الحمام فوجدت الباب موارباً . الرغبة فى عينى ، وعيائى أنظران
إلى الأرض .. الرغبة فى يدي ويداى متشجعتان خلف ظهري .. الرغبة فى
صدرى وصدرى لا يزفر الهواء ولا يستنشقه ، كان حياتى توقفت .. خرج
للصوت الكلاب من فمى يأمرها بالأنا .. الحيوان الغبى .. قابلت
صراخى ببلاهة .. وضحكت .. لو لم تضحك .. لو تكف عن أمانتى . لو
تجعلنى أشعر بأنى أحسن من هذا .. لو تتركتنى أحلم بأنى مدحت ..

عدت إلى حجرتى مرهقا ، صداع فى رأسى ، وتعب يكدع معاصلى ، لم أعد
أفكر فى شيء .. أمامى منضدة عليها أوراق ، أنا حسد يجلس على مقعد ، هذه

حجرة لها جدران ونافذة . صوت الموقد في المطبخ .. أسمع وأرى ، وكان لا صلة لي بالأشياء . لا علاقة بيني وبين جسدي .. وجاءت مبروكة تحمل الشاي ، وصعدت أمامي .. الشاي لونه أحمر .. هذا هو كل شيء .. للشاي لونه أحمر .. مبروكة بجانبتي .. قالت كلمة أو كلمتين . وخرجت ..

ظهر اليوم التالي ، جاسي مدحت علماً ، والبريق في عينيه ، وابتناسته المأكرة مازالت هناك على شفتيه ، عرفت أنه يريد أن يسمع .

.. هيه . عملت إيه امبارح .. اطرقت برأسي . وابتنسعت ، كنت ابتسم من الحيرة . من الياس . ولكنه قال في انفعال :

.. ما تتكلم .. عملت اللي قلته عليك عليه ..

وخلق لي وجهي مستريباً وسال .

.. انبسطت ؟

انتسعت ابتسامتي ، ماذا أقول له ..

وللمحظة شجهم وجهه وقال :

.. أوصي تكون ما عملتش حاجة . لن أقول لك الحقيقة ، لو أستطيع أن أقولها لك .. لقلتها .. ولكني لا أفهم ماذا حدث لي ، أشياء كثيرة تضاربت في أعماقي شيء محير . لو كان ما حدث واضحاً لاعتبرت لك بكل شيء ...

ولكني لن أستطيع أن أكتب . كل ما أستطيعه هو أن ابتسم ..

.. أياه الابتسامة الخبيثة التي على وشك دى .. ما تتكلم يا أخى .. لازم سويت الهوايل يا ابن الإيه .

ابتسامتي تضده ، تكذب عليه ، لابد أن أقول شيئاً .. همست :

.. ما عملتش حاجة .

.. لا يا شيخ ..

لم يصدقني .. وشعرت براحة كبيرة لأنه لم يصدقني .. ولجأت إلى ابتسامتي الكاذبة من حديد ..

.. مفي متخبي عل .. موش أما ياقولك كل حاجة ..

.. ح أحبي إيه .

ضحك مشجعاً وقال :

.. باين عليك مكسوف من اللي عملته .. نعال انتدى معاً ..

إنه يعلمني كبتال ، يدعوني إلى اللداء بعد كل هذه القطيعة من ميتة ، مهتم بأمرى كنسى صديق حقيقي له ، يريد أن يسمع مني ، ويقول لي ، كل هذا لأنى كذبت ، لأنى ابتسمت ، أه لو يعرف الحقيقة .. الحقيقة التي لا أعرفها .. لو قلت له إنى استمعت إلى تشايكوفسكى فكرت في أنى لا أستطيع أن أكون مثله ، وأن مبروكة ليست خادمة في بيتنا كما كانت خادمة في بيتهم ، لو حدثته عن القانون والفضيحة .. لو حدثته عن رغبتى .. الماء يسيل في الحمام .. خطواتي المتسللة . لون الشاي الأحمر .. سيفتح فمه من الدهشة وينظر إلى كغريب ، كان لا يدعوني إلى اللداء .. الصدق الذي في أعماقي غريب ، متشابك ، معقد ، كيف وصلت إلى هذا .. أين رغبتى في أن احتضن أمي .. أين طفولتي .. أين بساطة نفسي .. اختلطت الأمور .. أريد أن أخرج .. أنا لست أنا .. كم تظن يا مدحت ، أسألك توهنتي ، نظراتك وحكاياك ، تعذبني .. الوقت يضيع معك .. الساعات تتبدد بلا معنى .

ولكن بيت مدحت أراحنى .. جالت عيناى في كل مكان ، حيث كنت أرى سعاد ، ونظرت إلى بداية السلم الذي يصعد إلى السطوح ، من هنا صعدنا إلى فوق ، ونهلمسنا بكلمات الحب ، وقيلتها ، وضعنانا وألمينا البنج بنج .. إنى مستريح لأنى لم أمس مبروكة بالأمس ، جئت إليك يا سعاد نظيفاً ، مازلت أنتيك ، مازلت أحبك .. مازلت أضحي بأفاسي من أجل ذكرياتي معك ..

في هذا البيت ، مبروكة خادمة .. وسأظل كما أنا ، الرجل المترفع ، الذي لا يقصد .. مكانة يا مبروكة هناك في السطوح .. أما أنا فمشغول عنك بهذا الذي في أعماقي .. الفن .. الجمال .. الثقافة .. براعة نفس .. احترامى لنفسي ..

همس مدحت :

.. تيجي معانا الليلة ..

- في .

ضحك ساخرًا وقال .

- ما هو بلوقت الواحد يقدر يقولك تعال .. فقدت عذريتك ..

وايتممت ..

قال مدحت .

- ح نروح بيت سووي .. معاك فلوس ..

- كام .

- تدفع لها جنيه ..

- لاحظ التردد على وجهي ، لم اسرع قائلاً :

- ما تفضي .. ادفع لك انا ..

وايتممت .. هذه هي فرصتي يا يوسف ، اذهب معه وحاول ، تخلف من كل هذا الضجيج الابلية في راسك .. استعد للقاء مبروكة إنها مازالت هناك في البيت .. تنتظرك .. لن تستريح حتى تحول ابتسامتك الكاذبة إلى حقيقة ، وتروي لمدحت ما فعلته مع مبروكة .

كنا خمسة في سيارة أحد زملاء مدحت في كلية الهندسة ، قدمني لهم مدحت وهو يقول في اهتمام لا يخلو من سخرية :

- السامي ده وراء دواهي .. ده خطير ..

وقلت العربية أمام عمارة في شارع جانبي متفرع من شارع الانتكخانة ، وصعدنا إلى الطابق الرابع ، وضبط واحد منهم جرس شقة عليها لوحة نحاسية باسم أحد المعلمين .. ففتح الباب ، رجل أسمر شعره لامع ، يرتدي الروب دى شامير ، نظر إلينا في وجوم ، ثم تهلل وجهه وقد عرف بعض الوجوه ، ورحب بنا ، وتقدمنا إلى صالون فاخر ، كائن في بيت رائب يك .. واختفى الرجل وهو يهمس :

- سووي جاية حالا ..

لم نحلس على المقاعد ، كانوا يتهايمسون ، وبعضهم يصفر في انفعال ، والضحكات متحشجة مكتومة ، والرموس سريعة التلثت والعيون تلمع .

والشفاء مفتوحة ، يتبادلون كلمات حادة ساخرة ، ويفقزون من موضوع إلى موضوع كثر شيئاً يطارد افكارهم .. وأنا أرقبهم في دهشة وصمت ، ولحساس قوي ينقش يتزايد ويتصخم ..

أظلت سووي من الباب ، وقالت في وقار لم اتوقعه !

- بونسمواريا بهوات .. موش قاعدين ليه ..

هجموا عليها واحاطوا بها ، ووقعت بعيداً ، ذاهلاً ، ولكنني صتته إلى كل خلجة في وجهها ، كل حركة في شعيتها ، عياني لاتعرقانها ، حتى التقت عينانا ، فضحكت .. ضحكة جريئة .. وسالنتي ..

- انت واقف بعيد كده ليه

- تكلمت فلم يخرج الكلام من فمي ..

وسألهم ..

- هو ماله ..

صاح مدحت :

- هو كده .. لكن خطير .. خدي بالك منه ..

صويت إلى عيني فاحصتين وقالت بسرعة .

- ده باين عليه لسه صغير ..

تحركت نحوها ، كائن اتحدى كلماتها ، حتى انضمت إليهم .. وصحت بصوت غريب .. ربما حاولت تقليد مدحت في لهجت .

- آه .. لسه صغير ..

وايتممت .. لعلي اخذها بابشامتي ..

تقدمت مني ، ومدت يدها إلى ذقني وداعبتها باناملها ، وافعال ضخم في صدرى .. كائن انتقح بهواء ملتهم .. وقالت ضاحكة .

- دلوقت تشوب .

وعلمت اني لن افعل شيئاً ، حتى المحاولة لن أحاولها ..

سألتني سووي ..

- انت الاول ..

الفصل الرابع

سعد عبد الجواد .. نعم سعد عبد الجواد .. من غيره أذكره الآن ، كان لابد أن تقفز يا سعد من مكانك الذي تخفي فيه بين ذكرياتي وتظهر .. لا أحد يحلم عنك شيئاً .. أنت أجد أسرارى التي لم أبيع بها لأحد .. وجهك الأبيض المستطيل وعيناك الواسعتان العميلتان ، وذقنك المستدير .. الجميع كانوا يعرفونك في الكلية .. أول دفعتنا .. ولكن أحد لم يعرفك مثلي .. وأنت أيضاً عرفتني كما لا يعرفني أحد .

كنت أرافقك من بعيد وأقول لنفسى ماسر تفوق هذا الطالب علينا ، وأشعر بالقيظ .. ربما كنت أشعر بالحسد أيضاً ، رغم فارق ، رغم بدلتك الرمادية التي لا تغيرها أبداً كأنها جزء من جسمك ، كأنها جلدك ..

كان سعد يتحرك بيننا مرهاً ضاحكاً ، لا يبدو عليه أنه يذاكر دروسه ، لم يكن يفعل كطلبة الأوائل الذين يحفظون ما في الكتب والمذكرات عن ظهر قلب ، ويتزودون بعيداً عن بقية الطلبة ، أنوفهم ممدوسة في الكتب ، وجوههم شاحبة ، وتظاريتهم مستكنية جبانة ، بالعكس .. كان سعد يجلس في المدرج يرقب الأستاذ والطلبة كأنه يشاهد مسرحية مسلية ، الجميع يكتبون كل حرف ينطق به الأستاذ ، وهو لا يكتب كطلبة اليائسين من النجاح ، وأحياناً يغيب أسبوعاً أو أسبوعين ، وتفوقه محاضرات كثيرة ، ثم يعود إلى الكلية ، وليس

صاح أحد أصدقاء مدحت ..

- لا ، أنا .

فغضب مدحت وقال :

- يوسف الأول ..

قلت في حده :

- لا .. أنا موش عايز ..

سألتنى سوزى في دهشة واستهزاء ..

- ليه .. هره أنت من الإخوان المسلمين ..

وسمعت مدحت يهمس في أذنى ..

- إيه .. مالك .. في حاجة زعلتك .

قلت في ضيق :

- لا .. موش عايز ..

مضت أيام وأسابيع بعد تلك الليلة .. وأنا أهمس لنفسى بصوت

مسموع .. لا موش عايز .. لا موش عايز .. فأشعر بالأسان .. وأشعر

بالعذاب لأنى لست مثل الآخرين ..

على وجهه أية علامة جزع ، ويقف مع الاسلطة بعد المحاضرات يناقشهم
فيستمعون إليه في اهتمام وكانهم يناقشون زميلاً لهم .

أدهشني من سعد ، اشتراكه في المظاهرات ، وحماسه للمناقشة في
السياسة ، كان يكره الألمان ويقول عنهم إنهم ثاريين ، وينطق بالكلمة كلثها
سبب ، ورغم أن كلمة نازي كان لها تأثير سحري في نفوس الطلبة .. حتى في
نفس .. وكان يكره الانجليز والفرنسيين والأمريكيين ولا يجب إلا الروس ..
كنت اقرب منه أحياناً عندما يقف مع أحد الاساتذة ويناقشه في السياسة
فيجتمع حولهما حلقة من الطلبة لنשמع لها .. وسمعت مدرس القانون المدني
الدكتور عبد الوهاب وهو يقول له ذات مرة :

- أنت باين عليك شيوعي .

وكانت كلمة شيوعي لها وقع غريب في نفوسنا ، وقع غامض له صلة
بالإباحية .. ولسنا الأخلاق واستباحة الأعراض .. وضحكنا ، ولكن سعد
قال في حماس وعناد ..

- موش أحسن ما أكون فاشيستي ولا نازي .

وحدثت مناقشة اشترك فيها بعض الطلبة ، لم أقم منهم شيئاً ، إذا
سرحت وتذكرت حماس أبي للالان وتأكيده أنهم سينتصرون في الحرب ..
وكان سعد لا تفوته مظاهرة ، وكان دائماً يهتف مع انصار الوفد ، رغم أنه
لا يبدو عليه أنه وفدي ، إذا كان في مناسبات كثيرة يطلق النكات على
الوفديين ، ولم يكن يجتمع معهم ، وذات يوم حاصر رجال الشرطة الجامعة ،
وولقوا في طوابير على رؤوسهم الخوذات وفي أيديهم البنادق ، ويصرخ
ويجول أمامهم حسب طريقتي الخيل ، ونسى الطلبة خلافاتهم ، كانوا يهتفون
هتافات مختلفة للوفد لا زعيم إلا النحاس وللألمان .. إلى الامام
يارومييل وللملك يعيش جلالة الملك . وه .. الله اكبر وه الصمد .. ثم
هبطت حمى الهتافات ، وأرتفعت حمى مقاومة حصار الشرطة .. وبدأوا
يكسرون حجارة سور الجامعة ويجمعون الزلط المعد للاستعمال في بناء جديد ،
ويقتفون رجال الشرطة .. ورايت سعد وهو يجذب في يده أحد خراطيم الحريق

ليصوب المياه على الحصار المصري .. وخذت .. فجرئت إلى داخل الكلية
تاجياً بقميصي .. ورايت في المدرج الكثير طالعين يلعبان الشطرنج ، فجلست
بالقرب منهما أفترج وأنصت في وجل إلى الصياح القادم من بعيد .
وأترهم وقوع معركة دامية يسقط فيها قتلى وجرحى ، فإراد انكماشاً ،
وأفكر في الاختباء تحت المقاعد إذا ما هاجم الشرطة الكلية واقتحموها
ليقبضوا علينا .

وفجأة لحت سعد يدخل المدرج ، ونظر إلينا في دهشة وسال .

- هوه كان فيه محاضرات ؟

لم يلتفت إليه أحد سوى .. وقلت له :

- لا ..

فايتسم قائلاً :

- أمال قاعدين هنا يتعلموا إيه ؟

قلت :

- مستنيين الدوشة اللي بره لما تخلص ..

فنظر إلنا طويلاً ، ثم قال في هدوء لا يخلو من المرح :

- يعني احنا نموت نفسنا بره .. وأنتم قاعدين زى البهوات .. هيه دى
موش بلدكم ..

لم يصرخ ، ولم يحد ، كان يتكلم وكأنه يخاطب نفسه ، وشعني على أن
أجيب .

- يعني ح نعمل إيه ..

فقال باسم :

- ولا حاجة .

وتقدم منا ، ووقف يرقب معركة الشطرنج ، كان مثرباً ، وجهه محمر
ينضج بالحر ، ولكنه باسم ، وعبداه العميقان تشعان ببريق نكبي ، ولم يطلق
الكلمات فتدخل بين اللاعبين ، ينصح كل واحد منهما بأن يلعب نقلة معينة ،
فهذا يحاول لللاعب أن ينقل قطعة أخرى مد يده إلى الرقعة وصمم على تنفيذ

اقتراحه . وساد من حولنا صمت كبير ، كأننا في مكان مهجور . وكانت ساعة المدرج تقترب من الثالثة ، والجرع يقرصني . ولكني مستسلم إلى ما أتافيه ، لا أريد مغادرة مكاني . ثم خطرت لي أن سر الصمت ، هو أن سعد قد كف عن التدخل بمصائحه للأعبين ، وأنه قد أمسك بمذكريتي يقرؤها ..
لم أقل له شيئاً ، جلست أرقبه ، وأما في دهشة من قدرته على المذاكرة في مثل هذا الوقت ، حتى التفتت إليّ وسألني ووجهه متجهم .

- الكلام ده قاله الأستاذ امتي ..

- في المحاضرة ..

- أنت متأكد ..

قلت في عناد ، وقد خيل إليّ أنه سيتهمني بلأني لم أفهم المحاضرة :

- يعني ح أجيبه منين ..

شرد قليلاً .. ثم قال في ضيق .

- تصور .. أهى النقطة دي كانت ح تفتوتني .. برضه أحسن الواحد يحضر محاضرات المرافعات ..

كان هذا الحديث هوداية صدقتني له . يومها طلب مني أن أذهب معه إلى بيته لينقل بعض المحاضرات من كراسي . ولم أتردد في موافقته ، إذ شعرت بالفخر لأنني سأساعد أول الدفعة . وكان عندي فضول شديد لمعرفة المزيد عن حياته .. كيف يذاكر ، وكيف يتفرق علينا جميعاً .

كان يسكن في الخليل ، في بيت مهديم يمثل على أرض خراب مليئة بالأكواخ والعشش والقاذورات ومن بعدها النيل ، وكان في البيت أمه قزعة ثلثي السواد حداداً على أبيه الذي توفي منذ سنوات ، وأخوه سيد الذي قال لي متباهياً إنه يقاتل ، وأخوته البنات ، وكان يذاكر وبنام في حجرة تطل على النيل ، فيها سرير واحد له وألحيه سيد ، الذي كان ينام على حصير في الصالة إذا متأخر في المذاكرة ، وصمم على أن اقضي الليلة معه .

كانت طريقته في المذاكرة غريبة ، طمعت منه أمه قراء كل الكتب المقررة عليها قبل أن يبدأ العام الدراسي . وقد حصل على الكتب من أحد مدرسي الكلية . إذ

زاره في بيته ، وقال له إنه فقير وأن يستطيع شراء الكتب ، فأعطاهم له وفي أثناء الدراسة يقرأ المراجع الأجنبية التي يستعيرها من المكتبة ، وكان يفضل القراءة بصوت عال ، مقلداً كل أستاذ في المادة التي يذاكرها ، ويقطع القراءة ليشرح لي ، وكأنه يروي حكاية مسلية ويلقي بالباتات ، ويحدثني طويلاً عن كل لستاذ وحياته الخاصة ، زوجته وأولاده ، هذا تعلم شرب النبيذ في فرنسا ، وهذا طلق زوجته بعد أن ضيقها مع أحد تلاميذه . لذلك فهو يحقد على الطلبة وهذا بنت جميلة ، وهذا شرب في بيته الشاي واكل الجاتوه . فإذا ما انتهينا من المذاكرة انطلق يحدثني في السياسة .

- تعرف يا يوسف .. أنا مافيش حد ياكبره زى الدكتور بيومي بتاع الاقتصاد والسياسة .. راجل صمام .. موش فاهم حاجة من اللي بيقوله .. ثم يقلده قائلاً في صوت مضطرب رتيب :

- وهذه النظرية توجه إليها جميع العيوب التي توجه إلى النظريات الاشتراكية .. وهذه العيوب ، هي إلغاء البائع الشخصي والحائز الفردى على الإنتاج والافضاء على الملكية الفردية ..
ويصبح متعلماً :

- هوه إيه ده يا دكتور . بقي بذكرتك فهمت حاجة .. موش يشرح لنا الأول إيه فيه الاشتراكية .. أنا قرأتها .. كلام عظيم .. وهو اللي حمار ..

كان سعد عبد الجواد هو أول من شرح لي الاشتراكية .. وحدثني عن كارل ماركس ولينين وسوريل وانجلز وأوين .. وعرفت منه الفرق بين النازية والاشتراكية والشيوعية والفاشيستية .. وكنت أخطأ بينهما ، وأظن أحياناً كلمة ، أن كل هذه المذاهب شيء واحد .

ووحدثني في حاجة إلى أن أظهار أمامه أنني أعرف شيئاً ، حتى لا أبذل أمامه كتمليذ يتعلم على يديه .. فحدثته عن توفيق الحكيم ، وقلت له في إصرار إنني فنان لا أفهم في السياسة ولا أشغل نفسي بها .. أنا راهب فكر .. أعيش للفن والجمال .. واحتقر أى شيء آخر .. واحتدمت بيننا المناقشة ذات مرة ، وفضيحت به يصرخ في وجهي :

- أنت ولا فاهم حلجة .. واه مدلع .. روح تقضل لحد ماتكبر وفي بقك
بزازة .

قلت في غباء .

- يعني انت اللي فاهم كل حاجة ..
فصاح متعللاً :

- أبوه .. أنا عرفت الدنيا كويس .. انت عارف لما يسأغيب عن الكلية
بالاسبوعين ياكون فين . ماحدش فيكم يعرف .. أنا بأروح أقف مكان أخويا
في الدكان .. وأبيع بقرش زتون وبقرش جبنة رومي وبقرش سبزو .. بالكيس
الجلابية والقيقاب .. عشان أجيب فلس آخر النهار أوكل بيهم أمي
وأخواتي البنات .. كلهم مجوعين نفسمه عشان اتعلم .. أنا لازم أطلع الأول
والا أموت نفس عشان أخذ المجانية .. أنا موش غني زيك ..

لطمنتي صراحتي ، وكنت أنهار باكيا أمامه ، وأقول إنني لست غنياً كما
يظن ، أنا فقير مثله ، ربما كنت أحسن حالاً منه ، ولكني فقير وأبى يعانني من
دلع مصروفات الكلية .. ولكني لم أقل شيئاً ، اكتفيت بوجومي ، وبالدموع
التي تكاد تظفر من عيني ، وبفرح مخجل لأنه يتوهم أنني من الأغنياء .

ولم تفقد صداقتنا ، بل توثقت وشعرت مع الأيام أنني أنسى أحلامي
القديمة عن مدهت ، وأتمنى أن أكون مثل سعد ، فقيراً مثله . متقوقاً مثله
ولجات إلى النظائر أمامه بأني فنان حتى أقنعه بأني جدير بصداقته . وكنت
أحبس نفسي في البيت وأكتب القصص القصيرة وأذهب إليه وأقرأها عليه
فينصت في صبر واهتمام غير عادي ، ويذاقشني في القصة وتطول المناقشة
وسواء رضى أو لم يرض عن القصة أشعر أنني كاتب وفنان وحقيقي .

قرأت له قصة اسمها « الحب الأول » . كانت عن حبي لسعاد ، لا أشك
أنها كانت قصة ساذجة ، ملأتها بكلمات وتعابير مأخوذة من توفيق
الحكيم .. وقال لي سعد :

- إن أسلوبك حلو .. لكن أنا موش عارف أنت عايز تقول إيه ..
قلت

- عايز أقول إن الحب غلط .. وإن أحسن حاجة في الدنيا إن الواحد يعيش
بعيدا عن الستات .

ضحك قائلاً .

- أنا يا عم رايح أتجوز . وبكرة أنت كمان ح تتحوز .
قلت محتداً

- مستحيل .. أنا أموت بعسي ولا اتحوزش .
فسخر متي قائلاً :

- أهو كلام

وروجدتني أروى له حبي لسعاد ، رويت له كل شيء إلا أنها غنية ، وإنني
فقير ، لم اعترف له بالحقيقة المرة .. فاستمع إلى ثم تمت في حيرة .
تفكرده حب حقيقي .

هتنت

- طبعاً .

هز رأسه وقال :

- على العموم أنا متبها لي أنا موش ح نحب إلا بعيدين .. أنا دلوقت
مليح مركتش إلا غرايزنا . عايزين واحدة . أي واحدة والسلام .
ثم ضحك قائلاً .

- أنا شغفيا كده .

سأله

- ويتعمل إيه ؟

قال في اقتضاب :

- يتصرف .

وأدركت أنه لا يريد أن يتحدثني عن مغامراته . لعله كان لا يعطيه أهمية
كبيرة . وكانت من ناحيتي لأجل من الإحاح في السؤال .. ولكن خمنت أكثر
من مرة أنه ذاهب في إحدى مغامراته . عندما كان يقول لي إنه لن ينتظرني في

البيت ، لانه ذاهب عند صديق له في الفنون الجميلة اسمه شوقي يسكن في إمبابة .

وكان شوقي يزور سعد أحيانا بالليل ، وأكون هناك ، فيتركني سعد ويخرج مع شوقي ويغيب بعض الوقت ثم يعود ولا يقول في شيئا عما كان يفعله ..

إلى أن جاء يوم وكنا في الليسانس ذهبت إلى سعد قابلته وفي يده مجلة لم اسمع عنها من قبل ، اسمها الفجر ، فتحها ورفعها أمام عيني وهو يقول في الامثال :

- شاييف ..

رأيت مقالاً بعنوان « الديمقراطية في الدستور الموقتي بقلم سعد عبد الجواد » دهشت ، وذهقت النظر في الاسم المطبوع وكنتي أشاهد معجزة . كيف فعلها .. وفرت المقال ودارت رأسي بكلمات العمال والفلاحين وأصطلاحات لا أفهمها .. ولكنني شعرت بأن سعد قد ارتكب عملاً خطيراً . قلت له خائفاً :

- ولما يقولوا عليك إنك شيهي ويحبسوا عليك ..

قال في غير ميالة :

- هليدرويش .. روسيا يتحارب مع انجلترا .. والمجلة دي بتطلع والرقابة بتشوفها .. ما حدش قال حاجة ..

برغم ذلك شعرت بالجزع ، وفكرت في الإبتعاد عنه ، لكنني لم يفعل ظلمات أتردد على ميتي ، وأذاكر معه وأسمع كلامه عن الشيوعية ، والكتاب الذين يكتبون في الفجر ، والفرق بين تروتسكي وستالين .. وكنت أسمع هذا الكلام ثم أنشأه بسرعة بمجرد مفادرتي لميتي ، ولكنني أشعر في نفس الوقت أنه يجاهد في محاولة يائسة من أجل أمه وأخته البنات ، وأنه يشعر بأنه فقير ومظلوم في هذه الدنيا ولا يرضى بالفقر والظلم .

وكنت أقول لنفسي أحيانا إن أسي فقير لماذا لا أعمل شيئا من أجله . مثل سعد ، ثم أشعر بضيق بهذا التفكير ، وأرفض بيني وبين نفسي التفكير في

الفقر وأنتع نفسي بأني فنان ، والفنان لا يهتم بالمادة ، ويعيش مضجعا بنفسه ويأمواله ، من أجل خياله الجميل .. كنت انتخلص من الفقر بتجاهله ، وبالتظاهر بأني لست فقيراً ، وكان يشجعني على هذا ، اعتقاد سعد وغيره من زملائي في الكلية إنني لست فقيراً ، وأني أتحدث كالأغنياء وأنصرف مثلهم . وكان يشجعني أن محدث لا يحاملني ككثير ، رغم أنني فقير .

منذ رواعتني الأفكار عن مبروك ، وبدأت الرغبة تصطرع في جسدي كنت أذهب إلى سعد وقد اعتزمت أن أستشيريه ، وأصارحه بارتبلكي ومخاوفي الغامضة والأوصية ، ولكنني لا أجرؤ ..

حتى تلك الليلة التي قضيتها مع محدث وأصحابه في بيت سوزي لم أجرس على أن أروي له عنها . خفت أن يسخر مني ، ويقتنع بأني لست الفنان الراهب كما صورت نفس له .

كنت أحيانا أحدثه عن خادمتنا مبروك ، أقول أي كلام بدون مناسبة ، لمجرد أن أذكر اسمها ، كان أناقشه قائلاً إن أبي يحب التنازي ولكنه يعمل خادمتنا مبروك معاملة ديمقراطية ، يسمح لها بالجلوس معه ، ويجالسها الحديث ، ويضحك معها .. فليس من الضروري إذن أن تكون الطهيوعية وحدها هي التي تعترف بالمساواة بين جميع الناس وتلغي الطبقات ..

فيثور سعد ويقول معتداً :

- يعني قصصك بيصنف عليها ..

الطغف ده حقيقته قسوة .. يعني إيه لما يحاملها كويس ويعدين يطردها من البيت .. وتلاقي نفسها موش لاقية تاكل .. أبوك ده أنااني .. كل اللي بيعملوا الخير ويحبسون على الفقراء أناانيين .. عايزين الناس تفضل زى ما هي .. فقرا وعيلانين عشان يتعتروا معا بالشفقة والإحسان عليهم . احنا مش عايزين شفقة من حد .. مبروك دي لها حقوقها .. لازم تاخذها .. وتعيش زى وزيك ..

وتستمر المناقشة ، لا يعينني منها شيء ، إلا أن اسم مبروك يتردد على ألسنتنا ، والرغبة التي تعذني ترسم لي صوراً وحيالات عنها

وقابلت سعد عصر يوم عند محطة أتوبيس الجيزة وكان معه شوقي ..
سألته في دهشة ، إذ كان من عادته أن يمشي حتى بيته .

- رايح على فين ..
- فكر برهة ، ثم صاح وكان خاطراً طاف مراسه :
- إيه رايك تيجي معانا ؟
- على مين ؟

- بس تعال .. أنا نفسي تتعرج وتشفوف بنفسك .
- أشوف إيه ؟
- قال باسم :
- حفلة
- حفلة إيه ؟ ..

التفت إلى شوقي . وتبادلا نظرات لم أفهم مرادها .. وسأل سعد زميله
إيه رايك أهولة ؟ ..

- فابتسم شوقي ولم يجب ..
- استبد بي الفضول ، فهتف :
- إيه الحكاية ..
- قال سعد :

- خايف أقولك ماتجيش ..
- بس قول لي ..
- قال فجأة بصوت سريع .
- رايحين اجتماع سياسي ..

اصفر وجهي ، لا بد أنه اصفر . إذ شعرت ببرودة مفاجئة تلمسني ،
قلت .

- لا يا عم .. أنا ماليش دعوة بالحاحات دي ..
- ولكن سعد ألح .

- انت ح تفضل لامتني بالشكل ده . تعالي اتعرج .. إن ماعجبكش أبقي

انزل ..

وانتابني شعور بالعيط . لماذا أنا حبان هكذا .. إلى متى سأظل أكره في
نفسى . كان الدنيا كلها في داخل .. لاند أن اتخلص من هذا الخجل الذى
يطوينى .. قلت في انفعال :

- طيب .

وفى الطريق سمعتهما يسخران من إسماعيل باشا يونس صاحب الدعوة
إلى الاجتماع السياسى الذى تقصد إليه . رجل مكرله ميول مع المحور ، يريد
أن تنتصر ألمانيا ليتولى الحكم ، إنه من أنصار الملك الأقوياء ، يخدم الشعب
بالدعاية التى تحبب به عن ذكائه وحكمته . ويحتكر للناس في قرارة نفسه ،
يؤمن بأن اللبلاء وحدهم هم الذين يحكمون .

وقبل أن نصل إلى مقر الاجتماع في إحدى عمارات شارع سليمان باشا
خطر لي أن سعد وشوقي لهما غرض خفى ، ربما أرادا إفساد الاجتماع
والنظائر داخله ضد إسماعيل باشا ، ولكن لحساب من يفعلان هذا ،
وشعرت بالقلق تولعت معركة وتدخل رجال الشرطة وفكرت في الانسحاب .
دخلنا شقة واسعة فخمة ، حجراتها مضاءة بأنوار قوية ، وعشرات من
العمال والطلبة يجلسون على المقاعد الوثيرة ، يدخنون السجائر التى يوزعها
عليهم رجل أنيق رشيق يرتدى بدلة كملية فاخرة ، شعره لامع ويشترته ناعمة ،
ويتكلم بركة مبالغ فيها .. أحسست بالمقور منه ، وكان يردد بين لحظة
وأخرى .

- الباشا جاي حالاً .. أنا سعيد يا اقندم بحضوركم ..

لم أطق البقاء في ذلك المكان ، فانتفضت واقفاً ، وصاح سعد :

- رايح فين ؟

- ماليش ..

- يلجعد انت استنى ..

لوحث بيدي ، وأنا أصرع خارجاً من المكان . فاندفعت هابطاً على السلم .
حتى اصطدمت برجل قصير وجهه مستدير وله شارب مربع . حاولت أن أعبر

الرجل ، ولكنني فوجئت به يعترض طريقي ويمسك ذراعي بقبضة قوية .
ويسألني باسمه .

- رايح فين يا استاذ

لم أفهم ماذا يعني . قلت في حشة .

- مروح ..

قال بصوت هادئ مريب

- تسمح تتفضل معالي .

وتأبط ذراعي ، من يكون هذا الرجل ، ماصلة بي هممت .

- هايز مني إيه .

قال وهو يتحسني في حدة :

- ما معاكش حاجة ..

أدركت فجأة أنني أمام شرطي سري ، وأنه قد قبض علي ..
وضمكت ..

شعرت فجأة بكل مغالاة قزول ، وبأنني قوى .. لست أدري كيف حدث
هذا ، ولكنني أحسست وكان شخصيتي تتغير في فوان .. وأنني اكتشفت في

نفس أشياء جديدة لا أعرفها ..

- قصصك إيه ..

قال الشرطي :

- حاجة كده .. والا كده .. قلت في استهتار أذهشني :

- قصصك حشيش ؟

قال الرجل وقد ضاقت عيناه

- لا . لا سمح الله .. منشورات يعني

- لا .. أنا معالي حشيش

أنا أقول هذا الكلام ، إني اتعمد السخري بالرجل ، وهو يعلم أنني أسخر

منه ، لماذا أقبل هذا ، ولكنني متدفع في تحديه ، في عناده .. فليفعل بي ما

يشاء وسأطال يوسف القوى الذي لا يابيه بشيء ..

مرنا في الشارع ، وهو يتأبط ذراعي ويشدني إليه بقوة . وأنا أسرع
الخطى حتى يجري لامثا بجابني ، لعنه أفكر في أنني سأعرب منه ، أو
سأضربه .. أستطيع أن أضربه .. يوماً ما سأكون شيئاً هاماً في هذا البلد ،
وسأنادي هذا الرجل وأذله .. إني أحقد عليه .. إنه حقير حقير

وصلنا إلى قسم الشرطة ، ودخلنا عند صابيط جلس أمام منضدة صغيرة في
حجرة ضيقة . وهمس الرجل الذي جاء بي بكلمات في أذن الصابيط .. فالتفت
إليّ وسألني .

- كنت بتعمل إيه هناك ..

- بأتفرج

- معاك منشورات ..

لا ..

أشار للرجل ، فالتقرب مني وفتش جيوبى .. كان معي سبعة قروش ومفتاح
البيت ومندبل فذروا شيء آخر ..

وسألني الصابيط عن اسمي وعنواني ولما عرف أنني طالب في كلية الحقوق
سألني عن بطلاني الجامعية .. ولم تكن معي .. تردد برهة .. ثم نادى أحد
المسلكر وأمره بأن يذهب معي إلى البيت لإحضار البطاقة ..

وفكرت في أبي .. ماذا سيفعل .. ومكرت في راتبك .. لا بد أن أبي سيلجأ
إليه ، إنه يستطيع أن يفعل شيئاً ليخرجني من السجن إذا قمضوا عليّ ، ولكن
لا شيء يمس أعماقي .. كان كل ما أفكر فيه شيئاً سطحياً لا معنى له .. كل ما
في داخل رغبة جارفة تعلن تحديها وكبريائها متى سأقابل سعد لأروي له ما
حدث ، ليعرف عن مغامرتي لعنه سيضحك ويسخر .. ولكنني أشعر بأنني
فعلت شيئاً هاماً ، وإنني تفجرت ..

فتحت باب البيت ، ودخلت مسرعاً إلى حجرتي ناحثاً عن البطاقة لمحت أبي
يجلس مع مبروكة في حجرة الطعام ، ولكنني لم أتوجه إليه ، خيل إليّ أنني
أستطيع أن أحضر البطاقة وأعيد مع الشرطي دون أن يشعر بشيء . كأنني
لست في حاجة إليه ، ولا إلى راتبك .. وبما كان خجلي هو الذي دفعني إلى

هذا التصرف ، ربما كان حول منه وخوف عليه هو السبب .. وأنا أبحث عن البطالة سمعت صياحه ، وايقنت أنه قد عرف .

بعد لحظات كان يقتحم الحجرة ، ووجهه يرتعش وعيناه زائغتان ومن خلفه مبروكة شاحبة الوجه ، وسألتني بصوت متهازل .

- إيه اللي حصل ..

أجبت متظاهراً بعدم الاكتراث .

- ولا حاجة يا بابا .. عايزين بطاقة الجامعة ..

- انت عملت إيه ؟

صعقت في تعجب .. كنت أشعر بالتحدي لكل الناس .. حتى نفسي

- بأقولك ما عملتني حاجة ..

وجاء أبى معي ، لم يطق المشي ، فركبنا تاكسي .. وهو لا يكف عن الكلام ،

وأنا أكدر بغير وعي :

- ما حصلش حاجة يا بابا .. معني ح يعملوا إيه ..

وقف أبى ذليلاً أمام الضابط .. العرق يتصبب من جبينه ، انفاسه لاهته ،

يداه مضطربتان .. يتلعثم ويتوسل ، والضابط غير سائل عنه .. اكتفى

بالنظر في البطاقة ، وتدوين بياناتها في ورقة صغيرة بيضاء .. ثم أعاد البطاقة لي قائلاً :

- ابعده أحسن لك عن الحاجات دي ..

هتلق أبى في حرقلة :

- ابني عمره مليععل كده ..

واقسم ، وطفرت الدموع من عينيه .. وخرجنا من القسم . وعندى شعور

غريب ، كأن لم يحدث شيء .. وأبى يترنح في مشيته ، ويتكلم على كفتي حتى

لا يقع على الأرض ..



قال سعد بعد أن استمع إلى قصتي : إن الورقة البيضاء الصغيرة التي

كتب فيها الضابط اسمي ، سيرسلها إلى القسم المخصوص حيث يدورون

اسمي في القائمة السوداء ، ثم يراقبوني ، ويتبعون نشاطي .. ويقتلون

بيتي ويقبضون عليّ كما وقع حادث سياسي .. وصحك قائلاً :

- يعني بقيت مشبوه

قلت في جزع

- وأنا مالي ..

- طول عمرهم كده .. يشتبهوا في أي واحد حتى ولو كان بريئاً .. ويفصلوا

وراء لحد ما يخلوه بعيدهم ..

سألته

- وانت اسمك موش عندهم ..

قال ساخراً :

- لا .. لسه ما يعرفوش عنى حاجة ..

- ولا شوقي ..

- ولا شوقي ..

خفت .. إنى مطلوم ومطارد .. وثارت في رأسي كل المبادئ والنظريات التي

درستها في الكلية .. المهتم يرى حتى تثبت إدانته .. ادعوا الحدود

بالتشبهات ، بطلان التفتيش .. حقوق الإنسان .. الدستور ، مبادئ

قانونية تطمئنها وقالوا لنا إنها مقدسة وإنها دليل على احترام الإنسان ..

احترام آدميته .. ولكننا نعيش في أيام لا يحترم فيها شيء .. أنا لست ضد

إسماعيل باشا .. لست شيعياً .. لست ضد الملك .. لست ضد الوفد ..

لست ضد أحد .. ولست مع أحد ، فلماذا يهاجمونني ؟ لماذا يهجم عليّ

الخوف ، وتحلصرتني التشبهات .. لماذا أشعر أن الغباء والقوة الحقاء ..

يتربصان بي

وانكسعت في البيت ، وبلغت رأسي بين الكتب ، إن كان امتحان الليسانس

قد اقترب ، فتصارعت في داخلي مخاوف السقوط وآمال النجاح . والهمزة

امام مستقل وليس من أن اطمنن إلى شيء .. كنت أرى في صفحات الكتاب
إيدي الشرطة وهي تشدني ، وينادفهم وهي مصوبة إلى صدرى ثم يفتح باب
الزنازنة وادخل مكاناً صيقاً مظلماً فيه دلو ماء ودلو لقضاء الحاجة ، وأنا
جالس القرفصاء ، الركن المعتم ، أفكر في لا شيء ، أتفق من هذا الكلبوس
وأحاول أن أذاكر ، ولكن الكلمات المدوية في كتب القانون قد تحولت إلى شيء
لا معنى له . اقرأ الكاذب .. لماذا نضبط وقتنا في قانون لا يطبق .. من الذي
صنع هذه الكاذب الكبيرة .. وما الذي يضطرني إلى قضاء الليل ساهراً في
مذاكرتها .. وأنا أعلم أنها كاذب .. والجويع يعطون أنها كاذب ..
ليس هذا شيئاً مضحكاً .. أنا الذي لا أحب الكتب . وتعلمت من أمي
وأبي أن الأخلاق الحسنه شيء ضروري .. ليجهل أبي أن الكذب يعاصرنا
ويعيش من حولنا ويتحكم في مصائرنا .. إكان أبي يكذب علي . وهو ينصحنى
بالأ كاذب ..
ما هو المهرب ..

الغن .. كتابة القصص .. لقد فتش أبي حجرتي ليلة عودتنا من قسم
الشرطة ورأى القصص ، وروايات توليف الحكيم ، وغضب ، واتهمنى
بالفساد .. وهددنى بالطرد من البيت ، وهاج وثار .. بكل ما يريد .. وأنجح
في الامتحان وأحصل على ترتيب ممتاز ليوظفني في النيابة .. وهذا أحاول أن
أقرأ .. وأحفظ ما في الكتب ، ولكنى لا أستطيع . السطور يلها . الكلمات
تترلق هاربة من راسي .. عيناى ترفضان القراءة لأنى لا أصدق شيئاً .. لأنى
أعلم أن اسمى في قائمة سوداء .. وجهاز الشرطة يدير طريقة إتهامى ..
وسماد في بيت زوجها . ومحدث راد غنياً . وسوزي ترفع أناملها إلى ذقنى
وتقول انى مارلت صغيراً ، وأمى في القبر .. اكننت تعلمين يا أمى أن الدنيا
هكذا . اتعلمين أن أمى يجلس مع مبروكه ويضحك معها كأنه لم يعرفك
أبداً . كأنك لست في القبر . الدنيا غريبة . كيف يتفوق سعد عبد الجواد .
كيف يحارب الحكومة دون أن تشرى به .. وقلت اسمه من القائمة
السوداء . كيف تنفى مبروكه وتتحرك في البيت دون أن تشعر انها خادمة ..

كانتى تحمل الدنيا فوق راسي . أحملها وحدى ..

كان سعد عبد الجواد قد اعتمد بالبيت .. فذهبت إليه لعل أستطيع
المذاكرة معه ، فوجدته قد حلق رأسه بالويس . عياده عاثرتان ، وشعر ذقنه
طويل ، وقال لي في وقاحة انى سأعوق مذاكرته ، لأنه يتقدمى بمراحل كثيرة ،
وتركته وعدت إلى البيت وبدموع العيظ تحرقنى ..

وبغت الأيام ، وأنا أذهب في الصباح إلى الكلية ، وفي المساء أحتسى
بالبيت ، وأعد الخطط لانتهاه من مذاكرة المقرر قبل الامتحان . وأقبل ساعة
بعد ساعة في أن أذاكر شيئاً ، وأخرج من حجرتى فالأحظ الصمت في البيت ،
وأبحث عن مبروكه في الصالة وفي حجرة الطعام وفي المطبخ وفي الصمام ..
فلا أجدها .. وأعرف أنها تقضى الليل في حجرة أبي . وأفرغ من التفكير ..

أمكن هذا .. مستحيل .. ولكنه حقيقة .. إنها هناك في حجرته ، والظلام
يسود الحجرة .. وتبششم شفتاى ، ولكنى أعلم انى أخدع نفسي بهذه
الابتهامة ، أبى يرتكب شيئاً مضحكاً ، لم ارتكبه أنا .. أبى حقر .. ولكنه
أحسن منى ، أكبر منى . يستطيع أن يفعل ما لا أستطيعه أنا . وأعود إلى
حجرتى وأنظر في الكتاب .. الحريش .. القانون .. لايد أن أنجح في
الامتحان .. سأفتوق على سعد عبد الجواد . لست أقل منه عقلاً .. سأقرأ
مائة صفحة قبل أن أتمام وسأفهم كل ما أقرأه .. وأرى نور الفجر فإذا بى
مارلت أفكر في مبروكه . جسدها ، حركاتها ، صوتها ، إنها لا تفعل شيئاً مع
أبى ، إنه عجوز مشرف . يسمح لها بالنوم في حجرته لأنه خائف من
المقاربت ، لأنه خائف أن يموت وهو في الحجرة وحده . مبروكه ليست لأبى ..
إنها لي .. وأطوى الكتاب وأنام .

حتى جاء الامتحان فانتلعتنى لوماته . وبعد أن فرغت منه ، عدت إلى
سعد عبد الجواد . كنا نقضى الليالى تحت قوابيس النور ومعنا شوقى الذى
يحطنا عن عمله الجديد في جريدة الأيام ..

كنت أستمع لشوقى وأنا أقول لنسى ، يوماً ما ستنتشر جريدة الأيام

قصصى .. الحب الأول بقلم يوسف عبد الحميد السويفى .. ويفلبنى شعور غريب بالاطمئنان إلى أن هذا سيحدث فعلاً .

وكنا نتحدث طويلاً عن محمد ناجى رئيس تحرير الأيام .. وكان شوقى يدعونا أحياناً إلى محل ميخالوفتش في ميدان الإسماعيلية لتشرب القهوة وندخل سجنائه الهوليدى ونتفرج على الرسوم الصغيرة التى يرسمها فى حريدة الأيام ، وسرعان ما ينتهى الحديث إلى محمد ناجى ويكرس سعد رايه فى أنه كاتب نصاب لا مبدأ له ، على استعداد لأن يقضى الشن فيناصر أي حزب ، وكان شوقى يوافقه ، وأنا أنصت لهما دون أن أعلق بكلمة ، كاتى لى شاركتها فى سب محمد ناجى سارتكيب إنمأ ، إذ كيف أسب الرجل الذى سينشر لى قصصى .. وكنت أعجب بينى وبين نفسي كيف يهاجم شوقى محمد ناجى وهو يعمل معه ، وأرى أن هذا الهجوم لا يتفق مع الأخلاق الحسنة .. والقرح سعد ذات مرة على شوقى أن يأخذنا معه إلى جريدة الأيام لتتفرج عليها ، فوافق متردداً ، مضت أسابيع وهو يعننا دون أن ينى بوعده ، ولعل لهفتى على زيادة جريدة الأيام ، هى التى جعلتنى أظن أن شوقى لا يريد ذهابنا معه لأمر ما يخفيه عنا ..

ونجحت فى الاطمئنان ، فرحت لبضع دقائق ، ثم استبد بى القلق إذ حصلت على درجة مقبول وهى لا تمنى سوى أن مصرى هو المحاماة . ولكن أبى فرح أياماً ، كان خلالها يبيد راتب بك فى الصباح والمساء حتى استطاع مقابلته ، وطلب منه أن يسعى لتعيينى فى النيابة ، فسخر منه راتب بك وقال له إن درجتى لا تساعدنى ، وأن الأفضل أن أبحث عن وظيفة معاون إدارة فى وزارة الداخلية ، وأن الوزير صديقه ، وقل أبى على مضض ، أما أنا فلم أكن أشعر بأدى اهتمام كاتى مازلت طالباً فى الكلية ، والوظائف التى يتحدث عنها أبى ، شىء غريب لا صلة لى به ..

وكنا نجلس فى محل « ميخالوفتش » وسعد يتصفح جريدة الأيام التى لا تغارق شوقى ، عندما صاح سعد ثائراً .

- ما ده كلام ... والله العظيم ده ظلم .. يعنى أروح ارتكب جنيتة ..

كان سعد قد قرأ فى الجريدة نبأ تعيين زميل لنا اسمه مصطفى إسماعيل بهنس فى مكتب النائب العام رغم أن درجته مقبول .
وصرخ سعد .

- يبقى ترتبى ممتاز ودرجاتى أحسن درجات ويسيينى .. ويعينوا مصطفى بهنس الواد الخيان الصايح علشان أبوه بهنس باشا . ويتعين لوحده قبل الدفعة كلها

وليلتها علمنا أن سعد قد قدم طلباً ليعمل فى النيابة .. وسأله شوقى فى دهشة :

- ازاي ح تشتغل فى النيابة يا سعد ؟

- وفيها إيه ؟

- ولما يطلبوا منك القبض على الشيوعيين ح تعمل إيه ؟

صاح :

- أرفض ..

قال شوقى ساخرأ :

- يبقى موش ح يوظفوك ...

وعدت إلى البيت ورويت لآبى أن زميلأ لى حصل على درجة مقبول لد عين فى النيابة ، وذهب أبى غاضبأ إلى راتب بك ، وعاد وقد تضاعف غضبه .. قال متفجراً

- أبوك موش باشا .. وأتب بك شايف إنه هيب لو ما اتعينش ابن بهنس باشا فى النيابة ، إنما ابن عبد الحميد السويفى المدرس الخليان .. هه .. معن يسأل عنه ..

وبعد لحظات كان أبى متهمأ فى الحديث مع مبروكة وقد نسينى تماماً .. وأردت أن أهرب إلى الشارع ولم يكن معى مليم واحد فذهبت إلى أبى وقلت له .

- أنا عايز جتية يا بابا ..

فتجهم وجهه بعد أن كان يضحك وهتف غاضبأ :

أنا خلاص .. عملت اللي عليه .. دور ينفسك على شغلة .. أنا ما أقدرش
أصرف عليك طول عمرى .. عايز تقعد معايا في البيت تاكل وتشرب وتنام لهلا
وسهلاً .. لكن فلوس ما عنديش ..

وضايفنى أن مبروكه سمعت هذا الكلام ، فترك البيت وخرجت وسرت في
الشوارع ، وتذكرت أنفش وميدان المحطة .. وفكرت في البحث عن سعد .. ثم
وجدتني قريباً من جريدة الأيام .. فاندفعت نحوها لأزور شوقى ..

قابلتني رجل عند مدخل الجريدة وسألني عما أريد .. قلت له في اضطراب
إنى قادم لزيارة شوقى الرسام ، فالتصّل بالتليفون ثم طلب منى أن أحمده إلى
الطابق الأول .

كان شوقى يجلس في حجرة ضيقة مع شاب صغير يتحدث في التليفون ،
ورهب بي شوقى عى غير ما كنت أتوقع ، وجلسنا نتحدث ، وأنا أنصت إلى
الخواطر التي تملأ رأسي ، وتؤكد لي أنني سأعمل يوماً ما في هذا المكان ،
وسأنتشر قصصي ، وسأصبح رجلاً مشهوراً .. وكان شوقى يرسم بالحمد وجه
امراة وكان الرسم سينشر في الجريدة مع قصة قصيرة كنت أرقب يده وأنا
أتخيله يرسم قصتي ورجاء انتفض الشاب الذي معنا في الحجرة ووقف محدثاً
ضجة بمقعده وانتفض شوقى بدوره واقفاً وكان بالباب رجل لم أشك لحظة
واحدة في أنه محمد ناجى معه رجلاًن يسيران في ركابه ..

محمد ناجى جاء إلى هذه الحجرة ليقابلني ، لأراه ويراني ، قلت هذا
لنفسي وكأنه حقيقة ، أربما لما برأسه وتحدث مع الرجلين ، وكنت مازلت أفكر ،
هل أقف مثلهم أم أطل جالساً ، ومررت لحظات وكان جسمي يتوهج بسخونة
تجتاحه ولم أقف .

لم يعرفنا محمد ناجى أي انتباه كان ينظر إلى الجدران ، ويأمر بإزالة
الحوائط وراء شوقى ليضم الحجرة إلى صالة المحررين ، واستمر في حديثه ، ثم
حابت منه التفاتة إلى وجه المرأة الذي يرسمه شوقى فتأملته ، ومد يده وأمسك
بالورقة وسأل

- إيده

أجاب شوقى هامساً .

- رسم القصة

قط شفته في اعتناص ، ومال في عصبية

- والقارئ يفهم إيمن الرسم ده .. ما ميهش حاجة تلفت النظر

قبل أن يجيب شوقى ، وجدتني أندفع بقوة مشتركاً في الحديث لا أدري
كيف تعلقت علي خجلي ، كنت أحس بنفس الشعور الذي عرفته وأنا أسير مع
الشرطي في طريقنا إلى القسم .. كل مغاير تزلزل ، وكان شخصيتي تتغير في
ثوان ، واكتشفت في نفسي أشياء جديدة لا أعرفها .. كائن ندم لمحمد ناجى .

قلت في جراءة

- أحسن كان يرسم حادثة يتحصل في القصة ..

فالتفت إلى محمد ناجى ، وكأنه يعرفني ، وقال

- موش كده برضه .

ثم صاح في شوقى

- سامع صاحبك بيقول إيه ..

قال شوقى بصوت خافت

- مساحة الرسم صغيرة ..

فقاطعه محمد ناجى :

- أنا ما أفهمش الكلام ده .. قلت حيث مرة .. الرسم وانصورة أهم من
الكلام اللي موش ح ينسطقن الرسم موش ح يقرأ القصة ، وأوكان كاتبها
توفيق الحكيم .. مير اللي كاتب القصة .

- محمود لطفي

رعق محمد ناجى :

- اختصرها

ومرة أخرى تدخلت في الحديث وأنا أبتسم في الضمآن .. قلت .

- أحسن ..

فالتفت إلى وفي عينيه طاق وسألني

- ما يعجبكش

قلت في ثقة

- لا

- مين الل يعجبك

- توفيق الحكيم ..

قال في وجوم

- وفيه عندنا كلام واحد زي .

كدت أقول له إسي اكتب منه ولكني لم أجرو على هذه المبالغة وقلت في غير
اكثرات :

- على العموم أنا ما بيعجبنيش حد ..

فابتسم ابتسامة خفيفة .. وتوعدت أن يقول شيئاً ، لولا أن دخل رجل
يحمل صحيفة مطبوعة ، مبللة بالماء وقدمها لمحمد ناجي ، فتجاهلني وبشغل
بمراجعة الصحيفة ، وشطب سطوراً ، ووضع علامات استقهام وعياني
لا تفارقانه ، ورغبتني في مواصلة الكلام معه تتزايد ، أريد أن يحدثني حتى
يعرف إني اكتب مثل توفيق الحكيم ، وإني لصاص وإني حصلت على
الليسانس واني قريب راتب بك ، لابد أنه يعرف .

وأعطى محمد ناجي الصحيفة للرجل الذي جاءك ، ثم قال لشوقي بلهجة
أمرية :

- أرسـم رسـم تاني .. وخليتي أشوهه

قال شوقي مدعياً

- حاضر ..

وإذا رلما ظهره وخرج من الحجرة .. شبعته بعيني ، وقلبي يخفق ، لعله
يلتفت إلى مرة أخرى ، يقول لي أي شيء ، ولكنه اختفى .. وشعرت باليأس .

صاح شوقي

- أنت اتحمست .. عايز ترعدني .

فارتبكت .. لم يخطر ببالي أنني أريد الإسائة إليه . لم أتصور أن محمد
ناجي قد يطرده من العمل بعد ملاحظة ابديتها على رسمه . هل أخطأت .
أكان يجب أن أسكت .. أكان يجب أن ألقب لمحمد ناجي عند دخوله .. مارا
فعلت .. ما الذي استأنسني ؟

- ستأنس يا شوقي .. حقيقي أنا موش قصدي ..

فقطلعني باسم :

- أنت طول عمرك مدب ..

ولازمت شوقي وهو يعيد الرسم .. رسم راتصة عارية في يدها كأس ، وهو
يردد ساخراً :

- أنا عارف أن الحاجات دي هيه التي بتعجبه .

وتركني وذهب بالرسم إلى محمد ناجي ، وعاد بعد قليل وتاملني برهة ثم هز
رأسه قائلاً

- موش قلت لك أنت عايز ترعدني ..

هتقت .

- حصل إيه ؟

وعجبت لنفسي ، لم يكن يعتنيني إنه قد تعرض للطرد .. كنت في لهفة على
سماع أي شيء يؤكد لي أن محمد ناجي مازال يذكرني ..

قال شوقي :

- سألني عنك .. افكرتك رسام .. وقال لي إنك بفهم أحسن مني !

- وقلت له إيه ؟

قال شوقي هارناً

- قلت له إن عمرك ما رسمت حظ

وحققت على شوقي كأنه هو الذي يطردني من عمل وسألت

- هيه . ويعدين ؟

- ولا حاجة . طبعاً عجبته الرقاصة .

- وفلك إيمتاسي ؟

ماذا قال عنى محمد ناجي .. أريد أن أسمع كل كلمة قالها .. أريد أن أسمع شوقى يكرى ما قاله الآن مائة مرة .. ألف مرة ..
قال شوقى .

- ح يقول إيه تاسي ..

وخرجت من مبني الجريدة ، انتزع نفسي كأن لحم جسدى قد التصق بجدرانها .. صوف أعود .. صوف أقابل محمد ناجي .. صوف أذكر قصصى .. ليست هذه هى نهايتى مع محمد ناجي ..

كان أبى قد خرج من البيت ، ومبروكه تستمع إلى الراديو . هل أحدثها عن محمد ناجي .. ولكنى أريد مراجعة قصصى .. أريد كتابة قصة جديدة .. دخلت حجرتى وجمعت أوراقى ، وقرأت وكأنى أقرأ الحمد ناجي ، وفتح الباب ودخلت مبروكه ، كان في يدها جنبيه تلوح به ، كأنها تنبأه به ، كأنه الكأس في يد الراقصة التى رسمها شوقى .. كأنها تدفع بالجنبيه في عيني وتفقوها .. قال في حنان يجرهني

- أنا جانيبالد الجنيه اللي أنت عايزه ..

في صوتها رنة تأمر ، صوتها يقول لي خذ منى ما رفض أبوك أن يعطيه لك ، أنا أعرف كيف أسوس أباك ، إنه تحت سيطرتى ، وانت أيضاً تحت سيطرتى ، أنا التى تملك مصيرك ، أنا التى معها نقود

رفضت .. لا أذكر كيف رفضت .. كل ما أذكره هو الغمامة السوداء في عيني .. الجنيه يفتأ عيني ، ووضعت مبروكه الجنيه على المصدة وقالت :

- اقرأ لي الحكاية الل كنتها ..

- عايزانى أقرأها ليه ؟

- اسمعها عاجبتى .. اسحب الأول .

إنها تعرف قصصى .. كيف عرفتها .

قلت بسرعة

- ده كلام هارغ .

أخاطبها وكأنها سيدة مثقفة من مستوى ، كأنها سعد عبد الجود ، كأنها أبى . لايد أن أنور . ولكن كيف أنور . إن وجودها في هذه الحجرة خطأ .. الجنيه الذى جاءت به خطأ .. علاقتها بأبى خطأ .. كلامها معى عن القصص خطأ .. هذا لا يحدث بين الخادعات واسيادهن ..

- والدي يقول ..

- لا ..

- يا سلام عليك كده ..

يجب أن أدفعها بيدي .. أطردها . ولكنى عاجز تماماً أمامها ، لم أخف من الشرطه ، ولم أخف من محمد ناجي ، ولكنى حائر خائف من مبروكه ..

- موش ح تقول الحكاية ..

- أنا مشغول دلوقت ..

- مشغول في إيه ..

- ريدت كالحموم .

- عندي شغل ..

- أنت ..

- ما أنت فاضى إيه ..

قلت مقتدراً

- سيبيني دلوقت ..

شمشت بأنفها في الهواء .. وقالت في كبرياء :

- على كيفك ..

وخرجت من الحجرة ..

بعد أيام كنت عائداً إلى البيت ، واقتربت من باب الشقة فسمعت صراخ مبروكه وصوت أبى .. إنهما يتشاجران ، تحت الباب ودخلت فرأيتهما يفتقر في الصلابة صلاتين . هذا الشجار مريب .. مضيت إلى حجرتى . وأنا أشعر بالتعباض يحترق قلبي .. لهذا الحد وصل الأمر بين أبى ومبروكه . تصرح في وجهه .. ما الذى يخفيته عنى . إنى أعلم كل شئ ..

والصبح اليوم الثالث ، جاعتي مبروكة ، وقالت لي وهي تحديق عيني ..
- بابا عايزك ..

وتذكرت ما حدث بالأمس ، فعودي الشعور بالانتفاض ، وشيت إلى
عرفة أبي ومبروكة ورأيت ، خطواتها تطاردني ، التفت إليها ، كانت عيناها
مستعرتين في وجهي ، وأبي راقد في فراشه .. وصاح أبي :
- سيبينا لوحدنا يا مبروكة ..

أبي يريدني وحدي ، إنه يطردها من الحجرة ، الانتفاض الجائم في
صدرى ينزاح عنه .. ونظر أبي إلى الباب ، فالتفت ورأيت ، كانت واقفة عند
الباب متحفظة لشيء ما ، أيفكر أبي في طردها ، لابد أنه سيروى لي عن شجار
الأمس ، ويطلب مني مساعدته .. أبي يعود إلى رشده .. أغلقت الباب ،
وذهبت إلى السرير وابتسمت في وجهه مشجعاً ..

خلفض أبي عينيه ، وأمدت يده تحت الوسادة ، واستقرت مكانها .. ثم
أخرج يده ، كان قابضاً على خمسة جنيهات ، وابتسم ابتسامة ضعيفة
وقال وهو يمد يده بالنقود :

- عايز فلوس ..

ثم أصدق إنني سيعطيني كل هذا المبلغ .. همست

- إذا كان معاك

فمسح يده ، وتنهَّد .. وقال ورأسه منحرف على صدره

- أنا عايز كلكتك يا أبني .. أنت كبير وعاقِل وتقدر تفهم ..

ورفع يده إلى عينيه ومسح دموعه

- حصل إيه يا بابا ..

قال وهو يبكى .

- اعمل إيه .. هيه اللي سالتني .. موش كنت أموت وأستريح زيتها ..
سابتني أعذب .. لكن الحمد لله .. أما ربيتك وعلمتك .. ما حدش يقدر يقول
إسي قصرت في حاجة معاك .. أنت بقيت راجل تقدر تعتمد على نفسك .

ما الذي يريد أن يقوله .. ما الذي حدث .. السري يتزوج أمامي .. وأبي

يتزوج فوق السرير .. لا أفهم شيئاً .. الانتفاض يعاونني قاسياً يكاد يحدق
انتفاسي ..

ومضى أبي قاتلاً :

- أنا راجل عيان .. كلها أيام وأموت ..

- بعد الشر عليك يا بابا ..

- أنا عليز أستريح ..

وبكى بحرقة ..

- فيه حاجة تعبك يا بابا ..

توقعت أن يروى لي أنه سيطرد مبروكة .. هي التي تضايقه .. هي مصدر
متاعبه .. ولكنه رفع صوته معارفاً الغضب على ضعفه وقال وهو ينظر إلي

- أنا ح أتجوز يا أبني ..

ابتسمت . لم أجد شيئاً أعبر به عن إحساسي بالضياع سوى هذه
الابتسامة ، ولم أقل شيئاً لم أكن أشعر بشيء ..

وأشار بيده ناحية الباب .. وهمس

- ح أتجوزها ..

ارتفعت الدماء إلى رأسي .. وتشاجرت مشاعر غاضبة مستعدة في
صدري .. ونظرت إليه في حقد .. هذا المعجوز المغرور الأبله .. ساقطه ..

سأطبق على عنقه وأخنقه .. وأرتمشت يداي .. وصرخت :

- مستحيل يا بابا .. أنت بتخرب .. أنا أموتك .. أوديك في داهية .

وهجمت عليه ، وقبضت يدي على عنقه .. لعمري سأنقش .. حسده
يرتجف .. تكلم مستسلماً على السرير ، أنفاسه تعور وتبهط .. وأنا أصرخ .

وأمره .. وهويتأوه - سيموت .. ستتحطم رقبته .. وفجأة تخارلت يداي -
ووقفت لحظة أرقبه .. ثم اندفعت خارجاً من الحجرة .. ارتطمت بها ،

فصرخت . كنت تلطم وجهها .. وتمرق شعرها .. وعويلها يملأ الدنيا ..

وجريت إلى الباب .. واندفعت إلى الشارع ..

الفصل الخامس

مشيت في الشوارع ، وكأني لا أمشي في الشوارع ، الدنيا كلها بعيدة عني ، أنا لست من هذه الدنيا .. الناس لا يشعرون بي لا يعينهم أمرى ، سواء عشت أو مت ..

كل شيء من حولي وكأنه .. هناك .. وأنا وحدي .. هنا .. معلق في الفضاء ..

أبى هناك مع مبروكة . وسعد عبد الجواد هناك مع الشيرعيين ، وشوقي هناك يرسم في جريدة الأيام ، وسعاد هناك مع زوجها لا تذكرني .
أه لو عرف مدهت أن أبى تزوج مبروكة . الجسد الذي كان يعبث به ، الجسد الذي كان يدعوني إليه . سيضحك مدهت من قلبه ، ما أحقرنا نحن الفقراء ، ناكل فضلات الأغنياء ، نتزوج فضلات الأغنياء .. لن نستطيع اللجوء إلى راتبك ، هو أيضاً سيحتقرنا ، قد يقابلني ، وقد يرفض مقابليتي سيما بلني كمتسول ، يخرج من جيبيه جنيهات ويعطيه لي ، ثم يشتمني ويشتتم أبى .

ما الذي لوقعني في هذا الضياع .

أريد أن أنجو بنفسى من الفضيحة ولكن كيف أنجو .. لا هائدة ، لاند أن أتبع من حياتى الماضية ، كان كل شيء خطأ .. أنا الذى تمسك سخرافة ساذجة ، ظففت أن البراعة تكوم ، توهمت أنى أستطيع أن أحيى بغير ذنب أن أعيش بغير خطأ ، أعوض فقرى بطيبة قلبى ، ولكنى الآن لا أملك سوى



للعصبة ، تلاحقني دون أن ارتكبا ، الدنيا لا ترحم أمثال ، إنها تريد
البهلوان .. الكاذب .. المزيف .. تريد الذي يضحك على الذقن .. تريد
الشرير .. تريد المقاتل ..

الجميع يقاتلون ..

أسي يقتلني من أجل مرور

وسعد يقتلني .. لأن أسي يوم رفض المذاكرة معي بحجة أن الامتحان قد
قرب ، وأني أعطته عن المذاكرة .

مبروكة تقتلني ، ومدهت يقتلني .

لا تخدع نفسك .. أنت أيضاً قاتل .. قاتل غشيم ، ألم تحاول قتل شوقي ،
أحمد محمد ناجي ، انتقلت رسمه لتفوز بأعجاب محمد ناجي .. ولكتلت
رحمت نفسك وندمت .. كأي قاتل مبتدئ .

أهجم على هذه المدينة الكبيرة ، قاتل فيها ، عامل الناس وكأنك أمش
ألفز إلى الترام ولا تدفع ثمن التذكرة ، أبحث عن صديق تخدمه وتحصل على
نقوده . اصبر .. اشتم ، ضرب ، لا تقف مكتوف اليدين .. إلى متى تشغل
نفسك بتلك الرغبة الحمقاء في أن تكون صانفاً مع نفسك . انس نفسك ..
أسي ، أنت موجود ، لا تفكر في الصدق والكذب . وفكر في الخطأ والصواب ..
سخطا الذي هو ضد مصلحتك والصواب الذي يتفق مع مصلحتك . كن
شاهراً معارفاً .

أه . لو استطع ..

وصلت إلى ميدان الاسماء عتيبة ، الناس يلحسون في مقهى ميخا لوقتئذ ..
بشرب القهوة ويقرعون الأيام .. ليس في حبيبي سليم .. ليس لي أب .. ليست
لي ثم .. ليس لي أمل .

أحس وأطلب فحان قهوة وسنوييتش قول ، وأهرب . أشت شاطراً إلى
هد الحد ، سيجري ورائي الحرسون ويقبض عني ويسلمني إلى الشرطة ..
وسأبني ليلتي في السجن ..

ربما كان هذا هو النحل السعيد . إنعلم السرقة في السجن ، وأصبح

مجرماً خطيراً يدوخ الشرطة . يسرق البنك الأمل ، يقتل الناس بالرصاص ،
يرهب المدينة .. ويموت
هل أنتحر ؟

الترام يسير فوق جسدي ، ودمي يلون أسعدت الطريق .. بقعة حمراء
داكنة .. كان يوسف ، ثم أصبح بقعة حمراء داكنة ، وبشيراً من اللحم ،
وعظاماً مهشمة

أواصل الصبر .. إلى أين ؟

لو يموت أسي .. وأرثه .. ماذا أرت منه .. إنه لم ير لا يملك شيئاً أريد
القضية التي رفعها سعد زغلول حارالت في الصحيفة ، كان مهتف ببخارجها
من الصحيفة .. ولكنه تسي .. تزوج مبروكة .. إنه مفلس .. أكرمرة زارن
مبها ابن عمه خليل الفدي ، تشاجرا على نقود ، خليل يسكن في شبرا ، في
جزيرة بدران .. إنه يكرهنا . لو ذهبت إليه فسيشكفي في أسي .. أقارب أسي
في غافوس ، لا أعرفهم ، لا أعلم عنهم شيئاً ، فلاحون فقراء .. كيف عاشت
أسرتنا بلا أقارب .. قتلنا أقاربنا .. لم نحافظ إلا على راتب بك ، لأنه غني .
ولأنه يحتكرنا ..

كلهم يميون .. لا يديرون شيئاً عما حدث . يعيشون في الدنيا انبعية
التي لا تعرفها .. السيارات تعبر الطريق أمامي ، فيها رجوع متجهمة ،
ووجوه ضللكة ، ووجوه تقتحمني في برود .. لا أحد يهتم بك .. لا أحد
يعرف .. سامشي إلى بيت سعد ..

أنا مفلس ياسعد .. ساجوع .. أنا خائف .. أخطأت في فهم كل شيء ..
كنت طفلاً وكنت سخيماً .. نعم أنا الولد المذلل .. ولكي سابدأ من جديد .
سلك عن محاولات الصبيانية ، أن اتظاهر بأنني غني .. لأن أخشي الفقر ، لأن
أحلم بسعاد . ماذا أقبل ياسعد . ليست معي نقود . ليس عدي مكان أمام
فيه .. هل أبكي .. هل أثور . أخرب ذلك الرجل البدين الذي يسير أمامي ..
أصنع هذه المرأة التي تسع في دلال ..

أيقلني سعد في بيته .. أيرضي أن أشاركه طعامه .. وأخوه سيد العنات

أرى أن أعمل معه في مكانه . وإلى متى .. لابد أن أبحث عن عمل .
فتحت الباب لم سعد ، وسألته عنه ، فقالت إنه خرج ، خيل إلى أنها
تعرف كل شيء .. وقعت مترددا ، لا أريد أن تغفل الباب ، وأهبط السلم ،
ويتهى كل شيء ..

- ما تعرفيش راح عين ؟
- لا .. يابني .. أهو خرج .
- أنا كنت عايزه .. ما تعرفيش ح بيحي أمي ؟ ..
- هو .. بيه مواعيد .

هل تقبليني في بيتك .. أقبل يدك . يبدو أنك طيبة رغم قصرك الشديد ..
أشمت في وجهي ، ولكنها أغقت الباب . وهبطت السلم .

سأذهب إلى شوقي ، سامشي حتى تتعلم أنفاسي ، ولكنني لابد أن أصل إلى
شوقي ، سأسأله أن يأخذني معه إلى بيته ، سأسأله أن يبحث في عن
وظيفة .. خادم في جريدة الأيام .. أكتسب وأصبح السلالم .. سأفعل أي
شيء .. أنا في ورطة يا شوقي .. لقد أخطأت يوم انتقدت رسمك أمام محمد
ناجي . سأقول لمحمد ناجي إن رسمك هو أعظم رسم في الدنيا .. أترضى
مساعدتي يا شوقي ؟

جلست على سور النيل أستريح .. التراب يلتصق ببيلتي ، ليس عندي
غيرها . يوم ما ، سأفقد هذه البيلة ، وسأصبح عاريا كالفتسولين ، وسيتهمني
مصري إلى باب مسجد السيدة ، والدلائيم توضع في كفي المرتعشة ، وأكل
رغيف ، وأنام مكاني ، وإن يعرفني أحد ، وسيبحث عني أبي ، وسيتعذب
عندما يراني مريضاً ، فذراً ، متسولاً ، ويتوسل إلى أن أعود معه ، وأرفض ،
أصر على الزحف ، وأطل مكاني ، شحاذاً .. ويتعذب أبي ..

لم أصدق أن رجل وهو يقول لي إن شوقي ينتظرني في حجرته ، صعدت
السلم كاني صاعد إلى السماء .

وسألني شوقي

- إيه اللي جالك دلوقت ؟

- مصيبة

- موش بيني عليك ..

- أنا سبت البيت ..

- بيتكم ؟

- أيوه ..

- إيه اللي حصل ؟

- أبويا اتجنن .

- تجهم وجهه ، محولاً فهم ما أقوله

- قلت وكانني لا أقول :

- ح يتجوز الخدمة اللي بتشتغل عندها ..

- ضحك في دهشة ..

- لا ياشيخ ..

- سبت لهم البيت .. ومشت

- لكن ده برضه أبوك ..

- ح أقعد إزاي ..

- حاول تفهم ظروفه .

- ده راجل عجوز .. سيخرف على المعاش يتجوز خدمة صغيرة ..

- وفيها إيه

- للحظة خاطفة ، خيل إلى أنني سقطت في حق أبي ، سقطت في اعترافي

لشوقي ، لماذا لا يتزوج أبي من يشاء ، حتى ولو كانت مبروكة . ما الذي

يشتريني لماذا كل هذه الثورة .. أنا أحقد .. محمت عليه لاحقته .. إنه أبي رغم

كل شيء .. لماذا أخجل منه .. لماذا أغضب عليه .. إنني تابه .. أريد أن أظهار

بكني غنى ، وأني عظيم . ولكني معدور ..

قفز مدحت إلى مخيلتي ، ابتسامته تملأ عيني ، وهو يروي لي عن معامراته

مع مبروكة ..

- دي بنت لهلوية ..

لا أستطيع أن أقول لك يا شوقي كل ما أعرفه ، أنت لا تعرف منحت
لا تعرف أفكارى ورغباتى محو مبركة .. هذا شيء فطير ..

صمت مفعلاً

- بكرة تعير رأيت ..

- أما موش راجع البيت ..

يجب أن يكذب ، قلت والدموع في عيني ، كذبت لأصدق ما أقول

- هو الذى طردنى من ابنت ..

- موش مغفول ..

- يا قلوبك اتجنن .. عيه الذى خلته طردنى ..

هس مستسلماً ..

- بكرة تفرج ..

- وأنا أعمل إيه دلوقت ..

- خليك معايا ..

ثم فكر يرهه وقال ..

- أسمع .. تعال تدور على سعد ..

ودى جرس التليفون ، رفع السماعة ، فتهلل وجهه ، كان المتحدث هو

سعد وشعرت ببارقة أمل

التفتينا في ميخالفاتش ، وتبادل شوقي وسعد كلمات مبهمه ، ثم التفت

سعد إلى وقال :

- عن إندك يا يوسف ،

وتنفض هو وشوقي ، وجلسا على منصة أخرى ، وأنا أنتظر أيعكران في

الذهاب إلى أبى ليقدماه بالعدول عن زواجه .. ايسخران منى .. اهما ضائقان

بى مرت لحظات قاسية ، وفكرت في أن اتركهما والذهب .. ولكن إلى أين ..

ليس لي مخرج غيرهما .. أنا ذليل .. أنا عاجز تماماً عن فعل شيء ..

وعاداً يتسلمان وقال سعد

- خلاص احنا اتعلقنا .. امت ح تيات معايا .

وقال شوقي معتزلاً :

- أصل أنا بأعزل في بوابة المتولى .. وفيه جماعة قرايبنا بيباتو معايا .

كنت واثقاً أنه يكذب ، وأنه لا يريد أن يأخذنى إلى بيته لسبب آخر ، لعله

يتصل بالشيوخ عيين ..

وقلت في أسف ..

- بس موش ح أضايك ياسعد

هتف في حرارة

- يعنى ح تيات فين .. إلا إذا كنت عاجز ترجع بيتكم ..

كان واضحاً أنه يفصل لولم اذهب معه ، ولكنى تجاهلت ما الفهمه .

وقلت في لهجة يائسة

- أرجع إزاي إذا كانوا طردوني واكثت في العداء وغيث عيش وعليق قول ..

كنت أصعب بقطعة الخبز ، اتحسسها ، كاني المسها لأول مرة ، في حياتي ،

واتأملها بنفوسها البنية ، وأتركها تذوب في فمي على مهل ، وأشعر بها تستقر

في بطني ، إنى اكل نقود شوقي ، وهو يعرف أنى اكل نقوده .. أكل خجلى ..

أكل كدريانى . أكل ما بقى في نفس من سداجة .. إنى محتاج إلى هذا

الرغيف محتاج إليه حتى أموت .. كيف أحصل على هذا الرغيف ، كيف

أحد النقود التى أضعها في جيبي واشترى مثل هذا الرغيف ..

- تآكل مهلبية

سأنى شوقي ..

رسمت ورة أفكر في أنه هو الذى سيدفع الثمن ، فالحل هو ، وصممت على

الرفض ، وفرحت لأنه أصر على الرفض ، وفرحت لأنه أصر على أن نكلل

تنهيلية التهمتها كجنون

في المساء ، وأنا واقف إلى حوار سعد ، كان لا هم لي سوى الجنينيات

الخمسة التى لوح أبى في وجهي .. الورقة الخضراء هى كل خيالى .. أريد هذه

الورقة .. غداً سأنهب إلى المقهى ، وأطلبها منه . سأنهب متصنعاً

للشجاعة ، ومتظاهراً بعدم الاهتمام .. سأنهب إليه وقوراً .. جاداً حزياً ..

وأطلب منه الورقة الخضراء .. واكل الخبز واكل الفول .. واكل المولية
سيسألني أبى أن أعود إليه .. أعود إلى الخبز الذى فى بيتك ، أعود .. ان
أقبل كل الدل .. يكفينى بعض الدل .. بعض الاستسلام .. وبعض
الكبرياء .. وبعض التحدى ..

بعض البراعة .. وبعض الشر .. هكذا سأعامل الجميع ، أبدو لهمهم
الضعيف الخجول ، وكفى فى ذلرة تسمى سأندفع لأحصل على كل شيء
بلا شعف أو شغل . سأحتفظ بالظهور الذى كنت أتعلم به . الصارق الطيب
القلب .. الساذج المنطوى على نفسه . ولكنى سأكون الكاذب القاسى
القلب .. الماكر المتحتم ..

هل جنت ..

الدنيا هى هذا الخليط المريب من كل شيء . ولابد أن أعيش فى هذه
الدنيا .. شوقى يكره محمد ناجى ويعمل معه .. سعد شويعى ويريد أن يعمل
وكيلا للقبالة ليقيض على الشيوعيين .. أبى يمضى متفوقا كالكديك ويتباهى
بأنه قريب لراش بك ويتزوج خادمة راتب بك .. سأقتلكم جميعا .. وسأكون
ملككم .. وأحسن منكم .

فى الصباح ذهبت إلى مقهى الشطرنج ، كانت الوجوه التى عرفتها ، تشغل
أماكنها ، الجميع مواظبون ، يؤدون واجبهم المقدس . ما عدا أبى .. لم
أجده .

وقفت خارج المقهى . كنت قلقا يضايقنى أن يأتى أبى فىرائى أنتظره
ويعلم أنى فى حاجة إليه . انتقلت إلى الرصيف أنقابل . حيث الباب الخلفى
لدار الأوبرا . وفجأة رأيت مجموعة كبيرة من البنات والشبان يخرجون
مهولين إلى الشارع . وعلا صياحهم وصراخهم .. اقتربت منهم ، كانوا
يتحدثون عن حريق فى داخل الأوبرا . بعد لحظات جاءت عربتان للحريق ،
أجرا سهما تصلصل . ورأيت بين الواقفين المعلقة المشهورة سعد رسمى وهى
ترتدى قميص موم شفاف ، وإلى حوارها الممثل العجوز روفى للماسترى
يتلفت حوله شاردا ، والسات الصغيرات يضحكن ثم يطلقن صياحات فرح .

شغلت بعض الوقت بمراقبة رجال المطاوع ، ثم تذكرت أبى فعبثت
الشارع إلى المقهى ، فرائيته جالسا بين اللاعبين يتعرج عليهم ، تقدمت منه
حتى وقفت بجواره ، رفع رأسه ورأسى ، فاستفض واقفا وصاح فى انفعال
.. أهلاً .. إزيك يا ابنى .. أهلاً وسهلاً ..

رحب بى فى احترام مبالغ فيه ، كانى رجل غريب ، وكان يتحاشى النظر
إلى . وصاح متادياً متألا . قلما جاء قال له .

- شوف الأستاذ يشرب بيه

صمت ألا أطلب شيئاً ..

فهمس مدعاً :

- طيب يامفالى .. معلش .

وتلفت حوله ، فرأى منضدة وحيدة بعيدة ، فسألنى فى صوت خائف

- تحب تقعد هناك ..

أومأت برأسى موافقاً ، كنت أعامله أنا أيضاً وكأنه غريب .. وجلسنا عند
المنضدة البعيدة .

وهمس :

- إزيك

- الحمد لله ..

قال فى ارتباك :

- موش هايز كانيزه .. وألا شأى ..

قلت فى جفاء :

- لا ..

ومضت فترة ونحن صامتان ، حتى قال ورأسه محدن :

- قسمته .. وينا عايز كده .. وتنهده ..

لم أقل شيئاً .. وأرأى بصوت غير مسموع :

- أنا اتجوزتها امبارح ..

رفعت رأسى ، أريد أن أنقسم فى وجهه متحدياً .. أعله أبى لم أعد أكثر

شي ، والتفت عيوننا ، فأسرع يخفي عينيهِ ويقال يصعوبة
 - كانت ورملة .. والى كان كان . لمت يا ابني متعرفش ظروفى .. لو كنت
 تعرف كنت رحمتنى .. انا موش وعلان منك .. لك حق في كل الى حصل .
 واكثر كمان .. لكن اعمل ليه ؟
 كفى يا ابى .. لا تحدثنى وكانى انا ابوك .. لقد اخطئت .. ابنى نادى على
 مامعتى .. سامعنى يا ابى ..
 ثم مضى قائلاً :
 - انا غلطت .. كنت طايش .. لكن دى حامل منى .. والى زوى لما يفلط
 ما يقدرش يتصرف .. انا واجل هجوز .. دى بنت صغيرة تقدر تبهدلنى ..
 وتشتكىنى للبوليس ..
 طعنى النبا .. اذن فهمى حاصل .. وسند .. هذا مستحيل .. اقتلها
 يا ابى .. عاربنى الحقد عليه وقتل فجأة .. كانى لم اسمع كلامه
 - انا عايز الخمسة جنيه ..
 امتدت يده بسرعة الى جيبه . كانى أصدرت أمراً لا يقبل المرافعة .. كانه
 خائف منى ، وأخرج الورقة وأعطاه لى .. أخذتها .. وفكرت في القيام في
 الحال .. ولكنى لزممت مكانى ، صامتاً ..
 قال ببسطة -
 - ح ترجع البيت تشدنى سوا
 قلت في حدة
 لا
 قال في أسمى :
 - ح نسيب لك الأكل في لوزك .. تتعشى لما ترجع .
 - انا موش راجع البيت ..
 - ح تمتا فين يا ابنى ؟
 - عند واحد صاحبنى ..
 قال بصوت ضعيف متهالك .

- موش بيتك أولى بيك .
 قاطعته في إصرار .
 - انا عايز أعيش لوحدى .. وارفع صوت أحد اللاعبين .
 - انت سايدينا وقاعد بعيد يا عبد الحميد القندى .. ماتيجي تشوف الربور
 الى اتغلب ..
 ضحك ابى في عصبية ، وصاح
 - جاي حالاً ..
 قمت ، قابضت لى ، ومد يده إلى كتفى وريت عليها . شعرت أنه يبالغنى ،
 ابنى أرشى له ، وانفر منه ، وقال ضاحكاً :
 - انا برضه ابوك .. يمكن ياخرف .. فخليك أنت أبويا .. واقعد جنبى ..
 قلت في ألم
 - ما اقدرش
 وفهمت من قلبى
 - سميدة يابابا ..
 وخرجت من المقهى .
 تسكنت في الشوارع ، وقفت أمام واجهات المحلات ، اتلجج على كل شيء .
 الملابس والأحذية وعلب الشيكولاته والتوتة ، وأراجع الأسعار ، وتراودنى
 رغبة في الشراء .. فانتحس النفود في جيبى ، لن أفرط فيها ، إنها أضمن من
 أى شيء أشتريه ، وارفع الرغبة ، وأواصل السرح ..
 وتذكرت حريق الأوبرا .. وخطر لي أن أذهب إلى شوقى في جريدة الأيام ،
 وأقول له ابنى شاهدت الحريق ، لو كانوا لا يعلمون بالخبر .. فسيهتمون به ،
 ربما قايلت محمد تلجى ..
 وجريت إلى الأيام ، وسألت عن شوقى قلم أجده ، صحت في الموظف :
 - انا عايز أقابل تلجى بيه .. قال في برود :
 - عندك ميماد معاه ؟
 هتقت بلهجة أمرة وقد غلبنى الانفعال :

- قوله يوسف عبد الحميد النجاشي .. عزيزه علشان الحرية اللي في
الأوبرا دلوقت .

وجم الرجل ، وتكلم في التليفون .. وقال هامسا حتى لا يسمعه .

- فيه واحد هنا .. اسمه الأستاذ يوسف عبد الحميد النجاشي .. يقول إن
فيه حرية في الأوبرا وعابز يقابل ناهي بيه

بعد لحظات كنت أطلق بابا .. وسكرتيرة تفتح لي بابا آخر فتدخل حجرة
واسعة فخمة ، وأرى محمد ناجي بقمامة الطويلة ووجهه الهاديء ،
وسيجارته في يده ، يقف في منتصف الحجرة .

أبتسم ابتسامة شاحبة وقال في يده :

- حرية إيه يا أستاذ ؟

- الأوبرا بتتحرق ..

- دلوقت ؟

- أنا لسه جاي من هناك .

كان ينظر لي في حذر ، كأنه لم يرنى من قبل ، فأسرعت أقول

- أنا كنت جاي أقول لشوقي .. حضرتك شوفتني مرة معاه في مكتبه ..
مالتقيتوش .. فقلت اتصل بحضرتك .

حدث في وجهي ، وأبتسم .. تذكرني .

وصالني وهو يولياني ظهره ويدق أحد الأجراس على مكتبه ..

- إيه اللي شفته ..

- الممثلات والممثلين طالعين يصرخوا من الداب الخلعى .. وسعاد رسمي

واقفة بقميص النوم في الشارع ، وجننها رعوب المانسترل في حالة ذهول ..

والبنات الكومبارس مبعيطوا .. وجهه وأبوريين مطلقا علشان يطلعوا الحرية ..

كانت ابتسامته تزداد انشاعاً ، وعيابه تلمعان ببريق ذكي . وقال في

حرارة :

- اتفضل .

وقدم لي سيجارة ، وأشعلها لي .

- وطفوا الحرية ؟

- سيبتهم يطفوا فيها .. وحيث هما .

قال باسم

- احنا نشكرك يا أستاذ ..

أنت غاوى صحافة ؟

قلت تديمنى رغبة حادة في التطاهر بالكبرياء :

- لا .

قال وهو يدق الجرس مرة ثانية

- ليه ؟

- علشان ما أحبش السياسة .. بتجيب مناهب ..

كنت أفكر بسرعة ، يجب أن أبدأ أمامه وكأنني شخص مهم ، سأروى له

حادث القبض علي .. سيظن أنني رجل خطير .

- أنت من أنصار أي حزب ؟

- ولا حزب .. كلهم نصابين .. آخر مرة رحت أحضر اجتماع هاملة

إسماعيل باشا يونس .. البوليس قبض علي ..

تجهم وجهه ، وعادت إلى عيني نظرات الحذر .. وسال في قلق ..

- قبض عليك ليه .

- ممجيش الاجتماع .. فخرجت بدرى .. فالبوليس افتكروا أنني خارج

علشان أعمل حاجة مقعدتش خمس دقائق في القسم .. عمي راتب بك كلم

وزير الداخلية في التليفون وخرجني ..

- حسن بك راتب ..

- أيوه ..

ودخل شباب مليء ، له قوام رياضي ، فقال له محمد ناهي بلهجة ساخرة :

- يا عبيد الفتاح .. يدل ما أنت قاعد نايم .. روح شوف الحرية اللي في دار

الأوبرا ..

فتح الشاب قفه . وصاح

- حريفة

مزعق محمد نالحى .

- ايوه حريفة - انت لسه واقف .. خد معاك مصور .. خد سعيد ..

واسطلق الشاب كالفديفة خارجا من الحجرة ..

والفتحت إني يتألمنى وسأل :

- يتشتغل محامى ..

- ايوه ..

- ما فكرتش تشتغل بالصعافة ليه ..

قلت فى تحد .. كنت على يقين آنى لو تحديته سيزداد تعلقا بى .

- ما جربتتش ..

ودق جرس التليفون .. فأمسك بالسعاعة ، وبدأ يتكلم . ثم قطع حديثه

والتفت إني قائلا ..

- طبيب يا استاذ يوسف .. سلمنى على راتبك .. وأبقى خليفنا نشوفك .. أما

متشكر قوى .. مين عارف .. يمكن حفظنا يبقى كريس وتشتغل معانا ..

خرجت من الحجرة ، وقد أمستولى على زهول .. كيف حدث ما حدث

كيف استطعت أن أفعل ما فعلته ..

الفصل السادس

صهر القرار بتعير سعد عبد الجواد معاوناً للنائبية ، وكنت ما زلت مفلساً عاطلاً ، فشمعوت أن كل الناس تتحرك وتعيش ، وتفتح أمامها الأبواب ، أما أنا فمحكوم على بالشلل ، وأن أبقي كما أنا ، وسرعان ما لاحظت التحول الكبير بطراً على سعد ، رأيته فى الليل يفتش جميع أوداقه القديمة ويحرقها ، حتى المقال الذى كان يفخر به عن دستور السوفيتى الذى نشره فى مجلة الفجر ، أحرقه

وربعض سعد أن يجلس معاً فى ميخافوتش بحجة أن المكان مشبوه ، ويتردد عليه الشبان الشيوعيون ، ورغم ذلك ظل مصداً على أنه لم يغير مبادئه ، كان يتكلم فى عصبية ، ويدافع عن نفسه أمام شوقى ، ويتحدث عن أمانة المهنة والواجب الذى يؤدبه ، ويؤكد أن ضميره مستريح ، فيسخر شوقى وهو يتكلم ، ويرتجك سعد وتزداد عصبية ، ويحدثنى قلمى أن سعد يتعبد عتاً ، فأخاف ، من يدري ، قد يغصب سعد فى إحدى المناقشات ويقطع علاقته بيا ، ويمزقنى من بيته

وكنت إذا انعدت بشوقى نتحدث عن طموح سعد وبكائه ، ويصر شوقى على أن سعد مجرد وصوى ، سار مع الشيوعيين لأنه فقير ، فلما انتفتح المحال أمله ليصبح غنياً ، هجر الشيوعية ولم يفكر إلا فى نفسه ، كنت أستمع لشوقى ولا أجرب على مناقشته حتى لا يغصب منى ، وكنت أستمع لسعد

ولا أجروا على مناقشته حتى لا يعضب منى . وأحاول إقناع نفسى . بأنى
لست مضطراً للاختيار . وأنى صديق الاثنين
وذات ليلة انتظرنا سعد فى جروبى حتى أغلق أبوابه . ولم يحضر سعد .
وسألنى شوقى فى صديق .

- ح تعمل إيه ..

- قلت حائراً .

- ح استاه فى الشارع ..

- قال ساخر

- تعامل بات معايا أحسن .

وذهبت مع شوقى إلى بيته فى بوابة المنوفى . مكان مظلم مرعب . كأنه وكبر
مجرم . بيت عتيق . داخل فناء قذر . وباب خشبى ضخمة صرير . وأشباح
تتحرك . وكان عيون الشرطة تراقبنا من كل مكان . وقضينا الليل نتحدث عن
سعد وعن الشيوعية . وسألنى شوقى لماذا لا أكون شيوعياً . وحاول أن
يفهمنى بأن هذا هو طريق المنقذين ..

قلت متردداً :

موش قادر الفتنة بيها ..

سألنى مهاجماً ..

- ليه .. عاجبك الحال اللي انت فيها ؟

- لا ..

- لو كنت فى مجتمع شيوعى كان زمانك بتشتغل .. وعارف تعيش ..

وانطلق شوقى فى الكلام . كنت أشعر فى قرارة نفسى أن كلامه معقول .

ولكى خائف . خائف من صوته . ومن الحجرة التى نجلس فيها . ومن الأذان

التي تصتت إلينا . كان خولاً قوياً ولكنى لم أجسر على الاعتراف به . لا أريد

أن أعيش معرضاً للقبض عني . لا أريد أن أعيش مطارداً . لماذا كل هذا

العناء . ثم أن هناك أملاً كبيراً يراودنى فى أن أعمل فى جريدة الأيام .. أنا

أحسد سعد وأتمنى أن أكون مثله . إن شوقى يطالبينى بأن أفكر فى الناس

جميعاً . ولكنى غم قلبر على هذا . الناس ليسوا فى حاجة إلى . مبروكة
الخدمة ليست فى حاجة إلى . لقد استطاعت أن تتزوج أنى . استولت عليه .
لا أجد يفكر فى . فلماذا أفكر أنا فى الناس ..

وفى الصباح ذهبت إلى النيابة لأرور سعد . قابلنى بحماس . واعتذرى بأنه
كان مشغولاً بحضور تحقيق استمر حتى منتصف الليل . إذ هجم الشرطة
بيتاً للحدادة . وقبضوا على البنات وبعض الزبائن من الشخصيات المعروفة
وسألنى ..

- بت فى امبارح .

- عند شوقى ..

- أنا قلت كده ..

قلت وأنا ابتسم فى ارتباك :

- عايز يخلينى شيوخى .

- فتلفت حوله وهمس :

- بلاش تورط نفسك .. ح .. تندم .

ثم أردف قائلاً ..

- البلد موش عايزة شيوعية .. دى مرحلة لسه ح تيجى بعدين .. البلد
عايزه ناس عندها ضمير . شعرت أنه نصاب . يحاول أن يخدعنى ويخدع
نفسه . إنه لا يفكر إلا فى وثيافته ولكنى تظاهرت بتصديقه . وكأنه رجل له
مبادئ ..

وحدثنى سعد عن التحقيق بنفس الحساس الذى كان يحدثنى به فيما مضى
عن الشيوعية . كان يتكلم وكأنه يمل . وقال وعيناه تلمعان . إن الشرطة
قبضوا على سيد الوهاسى تاجر الحديد . وعصام رافقت ابن رامت باشا وزير
الزراعة السابق . وأدغم بقى خطبة حماسية عن إحلال الأغنياء
وفسادهم ..

تركته يعد أن وعدته بأن أعود إلى بيته حتى لا أتورط مع شوقى . وذهبت
إلى جريدة الأيام لأقابل شوقى .

كنت قد تعرفت على المحررين ، وتظاهرت أمامهم بأنى شخصية هامة ، حدثتهم أكثر من مرة عن حادث حريق الأوبرا ، وكيف أبلغته لحمد ناجى ، وجعلتهم يشعرون بأنى صديق له ، وحدثتهم عن قرباتى لراغب بك وصد اقته لوزير الداخلية ، وكنت أقابل محمد ناجى أحيانا وأما فى طريقى إلى شوقى ، فيقبل ويتبادل التحية ، ويبتسم فى وجهى ويقول كلمة أو كلمتين ، وتلمحنى عيون المحررين ، فيزداد احترامهم لى ، وترحبهم بى ، ويتحدثون أمامى كأنهم وانفون أن كل كلمة أسمعها سأنقلها إلى محمد ناجى

جلست إلى جوار شوقى ، وأمسكت بسماعة التليفون وقلت للعامل فى هدوء :

- أدينى ناجى بك ..

نظر إلى شوقى فى دهشة .

قلت فى برود

- عندى أخبار ح أقولها له ..

- أخبار إيه ..

قلت فى غموض :

- أخبار ..

وصعدت إلى محمد ناجى ، ورويت له حادث القبض على سيد الوهابى وعصام رأفت ، أثناء روايتى تذكرت كلاماً كثيراً سمعته من سعد .. النائب العام مضطرب عليه وسيخرج من منصبه . المرشح الجديد هو عميد الكلية الحقوق .. وكلما تذكرت شيئاً ، رويته لحمد ناجى فى ثقة ، وكأنى صديق لثائب العام ، وكأنى صديق لعميد الكلية .. استمع إلى فى اهتمام ثم قال بصوت جاد

- أنا عايزك تشتغل معانا .. موش عايز منك أكثر من الأخبار دى . وح أديك ثلاثين حنيه .

أطرقت مرامى وكأنى متردد ثم همست

- پس أنا

- أنت إيه ..

- أنا قمان .

ضحك ساخراً وقال :

- اسمح لى يا استاذ .. عايز تنقلى فدان .. يعنى عايز تنقلى قنبل .. ما تعملش حاجة .. أنت عندك اتصالات كويسه .. وتعرف تجيب أخبار .. والصحافة مستقبها وأوسع . الفن ما يوصلكش لحاجة . أنت لازم تتخلص من الوهم اللي فى راسك . خلاص انا باعترك بتشتغل معانا من النهاردة .. وقبليت

ولما عرف شوقى النبا ، هجم على يقينى ، ولازمنى طوال النهار ، ولكنى كنت أفكر فى اللحظة التى اتخلص فيها منه ، لأذهب إلى سعد ، إن سعد هو الذى يستطيع مساعدتى بنصائحه وأخباره ، أما شوقى فسيغيرهنى للخطر .

وذهبت إلى أبى فى المقهى ، كنت أتردد عليه بين وقت وآخر ، وأطلب منه بقودا ، فيعطينى نصف ريال أو خمسين قرشا .. وقلت له انى وجدت عملا فى جريدة الأيام فظهر الاسم على وجهه ، وقال فى حسرة

- بقى تأخذ الليسانس علشان تشتغل جريالجي ..

وأردف وهو يبتهد

- بكرة تتعدل وتلاقى شغلة أحسن

ضحكت فى سرى ، وقلت وأنا أرقب أفعالات وجهه

- ح بيدونى ثلاثين حنيه .. لم يفهم ما أقوله ، وسأل .

كلام ؟

- ثلاثين حنيه فى الشهر .. اتسعت عياده وبدأ انه لا يصدقنى . ثم ضحك

هجأة ، وهتف .

- مبروك يا ابنى . ألف مبروك

قلت بسرعة :

- پس أنا عايز غلوس دلوقت

نظر إلى دريية ، وكأنه يلومنى ، نظن انى اكتب عليه لاحصل على التتويج ..
هههههههه

- بسع .. لحد ما اقض ..
- سالى فى انفعال ..
- اتعينت خلاص ؟
- أيوه ..
- انت متأكد ..
- أيوه ..
- ح تعمل بالفلوس إيه ..
- عايز أسكن فى بيسيون ..
- عايز فلوس كتير ..
- عشرة جنيه ..

فالتفت إلى الرجل السكر الذى كان يلعب معه الشطرنج ليلة جئت المقهى
لأول مرة .

- وقال له :
- أنا عايزك يازكى بك فى كلمة .
- قام الرجل ، وانتصى بأبى فى ركن المقهى ، ورايته يخرج نقودا من محفظته ، وأعطانى أبى الجنيهات العشرة ، كان يتمتم بصوت مرتعش .
- أنا سالف الفلوس دى ولازم أرجعها .. ده مبلغ كبير ما أقدرش عليه .
- إنه مارال يستغريب فى امرى .

قلت فى ثقة

- ما تخافش يا بابا ..
- وجدت غرفة فى بيسيون مدام روز فى عمارة كبيرة بالقرب من ميدان الإسماعيلية . غرفة تطل على حارة ضيقة ، فيها سرير خشبى صغير ، ودولاب قديم ، وستائر زرقاء اشعثتى بآن الغرفة قذمة ..

الآن ، اتنا لتدفع بكل قرأى فى حياة جديدة ، خلعت ورائى كل شىء .
لا اكترت بالملقى ، ولا افكر إلا فى احلامى المقلدة ، ومحمد ناجى .

كنت افكر كثيرا فى محمد ناجى وشعرت بإعصاب كبير نحوه ، حيل إلى أنه ليس فى هذا العالم من هو اعظم وانكى منه ، ولاحظت أنه يذهب إلى مكتبه كل صباح فى ساعة مبكرة ، فتعمدت أن أسفقه وأنظره ، حتى أعلم بوصوله ، فأتطرق بابه وأدخل عليه ، فأراه يتمصع الجرائد ويدخن سيجارة ، فأجلس أمامه وأضع ساقا على ساقي ، وأروى له ما سمعت من أخبار دوكاتنى أعرف كل شىء

أدلو علم محمد ناجى كيف كنت أحصل على أخبارى ، إنى لا أعرف أحدأ فى هذه الدنيا سوى أبى والمقهى الذى يجلس فيه ، وسعد وشوالى ، ومع ذلك استطعت من خلال هذه الدائرة المصدودة أن أوهم محمد ناجى أن صلاتى ضخمة لا حدود لها .. كنت أذهب إلى أبى فى المقهى وأسمع أى كلام من أحد اللاعبين ، فأحوله إلى خبر خطير ، كان لاعبو الشطرنج خليطاً عجيباً من الناس ، موظف فى الجمرى وسائق قطار فى السكة الحديد ووكيل وزارة التجارة ، ومفتش فى التعليم الثانى وسمسار يهودى .. أستمع إليهم ، لأقول لـ محمد ناجى فى صباح اليوم التالى إنهم خبطوا زوجة أحد النباشوات وهى تهرب العشيش فى حقيبتها فى الجمرى ، وأن الأمر يكن سافراً إلى استنبول ومعه كلابه الخمسة ، وأن القطارات الجديدة التى اشترىها اكتشفوا أنها لا تصلح للسفر على القشبان الحديدية الحالية ، وأن وكيل وزارة التجارة قال إن السماد سيظل مختفياً من الأسواق طوال الشهرين القادمين ، ويستمتع إلى محمد ناجى وهو يقدم فى السجائر ويطلب فى القهوة ، ول رأسه صورة غريبة عني ، كاتنى أعرف كل الناس ، وكاتنى أعمل ليل نهار من أجله .

وتهدت لزيارة سعد ذات مرة فوجدته سيخرج مع وكيل النيابة ليعتمرن على التحقيق فى قضية قتل ، ذهبت معهم إلى بيت متهالك فى بولاق ، وصعدنا سلماً خشبياً ، وبخلفنا حجرة مقروشة بحصير ، فيها سرير نحاس فوقه جثة رجل

عموز نرفت دماؤها من جرح غائر في عنقه .. حضرت التحقيق ، وتحدثت مع سعد عن الجريمة ، ثم عدت إلى الجريدة وكثبت وصفا للحادث احتوى تعليقات سعد وأراءه .. القاتل الحقيقي هو الشرطي المحيطة بالقتيل .. كان مدعنا على الأفيون ، يسرق نقود أولاده ، الاتهام موجه إلى زوجته الجديدة الصغيرة التي ارتكبت الجريمة بمساعدة شقيق لها ..

وقرأ محمد ناجي ما كتبه ولم يصف سوى جملة واحدة في أول الموضوع ..

- كتب يوسف السويدي للحرير الجنائي للأيام ..
- وقال ضاحكا .
- لازم نشتر اسمك بابه عشان القراء يعرفوك .
- هعست فيها ..
- أنا اسمي يوسف عبد الحميد السويدي .
- قال ساخرا :

• ده موش اسم .. ده مقلقة .. لازم يكون اسمك مختصر عشان الناس تتعود عليه ..

وقرأ سعد التحقيق وقال متكهنا .

• ياتيني الفلوس التي بتأخذها .. يا الواحد ما بتكلمش قدامك بابه تنقل كلامي بالحرف ولا تذكرش اسمي ١٩

وبناداني محمد ناجي ذات مساء ، فحدثت في مكتبة الممثل أنور سامي ، فدمني إلي محمد ناجي قائلا :

• أهو يوسف أقدر اطمئن له .. ابن ناس طيب .. وموش ح يحمل معاك فصول من إياها ..

صرخ أنور سامي في لهجة تمثيلية :

• أنا أبوس أهلك يا فلجى بيه .. خلاص .. طلع ديني من ولاد الحرام التي بتبعوهم وروانا الامتوديوها . والله أنا بتكسف .. جعاتين .. صحافة إيه دي . يتسمحو في الواحد . والي يقولك معاك شلن . والي يقولك معاك

سجارة .. وإن ما ادبوش .. ينشروا أخبار هياك .. كتب في كلاب .. دول إرهابين .. أنا بأحلم بيهم بالليل . والله لو مت نلتني في رقبتك يا ناجي بيه .

والنفت أنور إلى وقال متويدا :

• الأستاذ باين عليه صحیح ابن ناس .. انشرفنا يا أستاذ يوسف ..

ثم صاح متألميا محمد ناجي :

لكن ده موش باين عليه صحفی ..

ليه .

- مكسوف ..
- وهتف أنور في وجهي .
- ابروح يا أستاذ ..
- قال محمد ناجي :

• والله أنا خايف عليه منكم .. ما أنتم لجن من الصحفيين ..

كان أنور سامي هو أول من عرفته من الفنانين ، أخذني ليلتها في عربته إلى استوديو مصر ، وعرفني بالمثلة هدى مراد والمخرج حلمي كامل ثم أصر على أن أذهب معه إلى بيته ، وهناك جلس يحدثني عن محمد ناجي ، كان محببا به ، إنه أبرع كاتب عرفه وقرأ له ، يشاهد القصر ، ويشاهد الوزراء ، وتسعى إلى كسب رضا كل الأحزاب بعيش كملك ، استعراضي ، ينطق عن بدخ ، ولكنه فقير ، لا يملك سوى مرتبه ، وضحك أنور قائلا :

• كفاية عليه إنه عرف بطوري شهدي باشا .. تعرف كل الملايين التي يملكها شهدي .. تحت تصرف محمد ناجي - أه فلانري .. لو كنت أعرف أصل لشهدي باشا زى محمد ناجي .. كان رمانى ملك المينما كان زمانى سيسيل دي ميل ..

ومط شفتيه وقال متأففا :

• بس كله كوم .. ولنى أحب شريا هانم كوم .. دي أم قويق يا أستاذ ..

موش ممكن أصل زى محمد . أنا أحمل منه ، وپرضه اصمى معتل سيمما ،

والف واحدة تمنى إنها تعرفنى .. يس ما أقدرش . أم قويق . في سنتين

داهية العلوس . ملاش أبقي سبيل دى ميل .. ده لنا لما بانقوشها واتخيل
أنى ح أبوسها .. تقم على نفسى .. محمد ده نفسه مفتوحة قوى .. أعصابه
حديد

كان أنور يحدثنى وكانى اعرف كل هذه الحقائق ، فتماسكت امامه
متظاهرا بأنى اعرعها فعلا ، ولكنى كنت اخفى ما أشعر به من دوار ، عيائى
على شفا مرة عميقة ، أرى فيها أشياء تذهلى .. ونهض أنور فجأة واختفى
ثم عاد ولى يده رباط عنق أحمر وقدمه فى هدبة منه . رفضت رغم الحاجة ،
وتظاهره بأنه مسيء منى .

لم يمر يوم واحد ، حتى كان محمد ناجى يقول لى ضاحكا :
أنا ميسوط منك يا يوسف علشان رفضت تأخذ الكرافة من أنور .

صمت لى دهشة :

هو ذلك ..

قال :

وهو كمان ميسوط .. قائل إنك صحيح ابن ناس .

شعرت بالغيظ ، الجميع يتظاهرون يكذبون ، ولقت لى حدة :

بس الرجال ده موش كويس ..

أنور .. ليه ؟

موش عاجبنى ..

قال متهمكا لى لهجة أبوية وكأنه ينصحنى :

شوف .. هما بيعرفوا ليه .. علشان ننشر أخبارهم ويتشبهوا ..
بيتظاهروا بأبهم أصدقاء .. رأنهم يحبونا .. ويوافقوا .. ومستعدين يقدموا
هدايا .. ويعملوا أى شيء .. علشان الناس تقرأ أسمهم .. وعلشان مانكتبش
عنهم كلمة وحشة .. بيدوروا على عيشتهم . لكن أوعى تصدق إن واحد منهم
ح يبقى صاحبك حق وحقيق .. لو طال يمرتك علشان يشتهر أكثر .. كان
موتك .

قلت فجأة

- ده بيشتد عليك .

قال لى وحوم ..

- قال ليه ..

اندفعت معترفا بكل ما سمعته من أنور عن شهادى باشا وعلاقة زوجته
بمحمد ناجى .

من رأسه مبتسما ، وفان فى بيته

- أنت لسه صغير وغضيب على جو الصحافة . لسه ولد برىء ونضيف ..
وأنا عايزك تفضل كده على طول .. وما تصدقش اللي بتسمعه . أنا لسه
باتقوك . إنهم بياكلوا فى بعض .. صحيح شهادى باشا بيومل الجريدة . لكن
إحنا كمان بيشتغل .. أمل ح نجيب افلوس منين . أنت فاكرك الجرنال لما
يتوزع كله ح يغطي مصاريفه .. أبداً .. إحنا محتاجين للإعلانات .. وشركات
شهادى باشا هى اللي بتدفع فلوس الاعلانات . وهيه اللي بتشتري لنا
الطابع .. والبلد دى عايشة على انشائعات .. محدش عايز يصدق إن فيه
شغل شريف .. إحنا بنشتغل مع شهادى باشا يبقى لازم محمد ناجى بيعرف
مراته .. رئيس الوزارة بيعتمد على وزير المالية .. لأن وزير المالية على علاقة
بزوجة رئيس الوزراء .. الملك أمر بربط فلان .. علشان زوجة فلان رفضت
تقابل الملك فى الشاليه بتاعه فى لهرم . نصحيتى لك يا يوسف .. إنك تبعد عن
الشائعات دى .. وخليك نصيف - أنا بأعتمد عليك .. ونادر لما الاتى واحد
زيك أثق فيه .. وماتخلفنيش أحس أنى غلطت فى حقه .. يوم ما اتعنك
بالشغل فى الحو القدرده

صدقته ، وكانت الدموع تنظر لى عيني ، ولاحظت تأثيرى ، فتقدم منى
وررت على كفى وقالت متهمكا

- بكرة تكبر . وما تتخصص من المحامات اللي بتسمعه .. انت متعكرنى
بنفس أيام زمان . بس أنا كنت أجرامك . لحد بقولنى حاجة علط . اصرب
باليوكس فى وشه ..

وحررت من مكتبه ، وأما أنوهم أن المحتج الحق يقفوسه الحقيبة يعاصر
جريدة الأيام ، وأن محمد نأحي مثل نيل يقف في قلعة يتلقى الضربات ،
ويحب أن أقف معه ، أحارب وناضل وأدافع عنه .

كان الوقت ظهراً ، وأما جالس إلى مكتبي في الحريدة ، عندما دق جرس
التليفون ، وسمعت صوتاً غريباً يهتف

.. الأستاذ يوسف .

.. آييه يا أقدم .

.. أنا زكى ..

.. زكى مين يا أقدم ..

.. أنا صديق الوالد .. الذي باعد معاه في القهوة .. أنا بأكلمك من هناك ..
خلق قلبى .. إنه يطالبني بالنقد التي أقرضها لأبى ..

.. انتسج يا أبني .. مصيبة وحصلت .. الوالد تعيش أنت .. يا أستاذ
أنت سامعنى ..

وأنا خارج سمعت صوتاً يناديني :

.. ناجي بيه عايزك

وقلت مكانى ساهما ، ثم صعدت إليه ، ما كاد يرانى حتى ساكنى

.. مالك ..

.. ولا حاجة ..

.. فيه حاجة مضايك ..

.. لا

.. أنا كنت عايزك تشوف أخبار الفن بنفسك .. موش عايز هجوم على
أم كلثوم .. ولا عبد الوهاب .

ومضى يتحم .. وأما في دهول ، أن أقول له إن أبى مات ، أن أقول له إنه مات
في المقهى الحبيب ربما كتب الحبر ، مسيال من هو أبى لو انتشر الخبر فسيأتى
معى المحررون ، وسميون أصدقاء أبى وسيعرف محمد ناجى أنى فقير ، قد

يصمم على المشى في الجنارة ، سيحرف حقيقتى ، سيكتشف أمرى . سيدرك
أنى خدعته . سيعلم كل شيء عن مبروك

وجريت إلى المقهى كالطائر ، أبى مات ، أبى أحبك يا أبى ، لو كنت أعلم لما
تركك .. كنت تطلب منى أن أركب ، أن أصبح أبك ، تحليت عنك .. قتلتك
يا أبى .. ولكن موتك قضية .

جسد أبى ممدد على مناضد المقهى يثير غرعى .
مات أبى .

ها هو لحنى على المناضد ، انفصل عنى ، أمام كل هذه التعيون ، هذا فوق
طاقتى ، لو كنت أستطيع إعرار ، لو كنت غائباً عن القاهرة لا أعلم بما
يحدث ، أتركنى لحالى لمست أريد منكم شيئاً ، ما الذى جاء بى إلى هذه الدنيا
ليروطنى في هذه المصائب ، لا تلقوا حول ، ألا ترون أن المقهى يتداعى فوق
رأسى ، وأن جسد أبى ثقيل يرهقنى الزمراً الصمت ، وانصرفوا ، دعونى
وحدى معاه ، حتى ينتهى كل شيء في هدوء . في السر . لابد أن ينتهى كل شيء
في السر .. ولكن كيف .. أصوات مفتحلة تطرق أذنى ، أبى تشدنى ، عيون
تفتش في عيونى .. الأسعاف .. الصانوى .. البوليس .. عربة نقل الموتى ..
لا حول ولا قوة إلا بالله .. البقية في حياتك .. قهوة يا مغالى .. سجاير
سجاير .. أبواق سيارات .. هدير ترام .. ضوء النهار شديد .

ليس معنى نقود ، لعل في جيبه نقوداً ، لم يدى إلى جيبه ، اقتشبه إنه أبى ،
إن الجرو ، من أين تأتى النقود .. أذهب إلى محمد ناجى واقترض منه ..
ممسحيل .. اتصل بسعد .. لابد أن أتحرك .. أفعل شيئاً سريعاً .
سأنتصل يرأتب يك ..

سمعت صوتة في التليفون مطهراً الحزن ، مظهر الأهتمام ، قال إنه
سيصدر أوامره ..

.. اسمع يا أبني .. أنت تحيى هنا على طول .. ووح اكور عملت الترتينات .
والأ أقولك خليك أحسن عندك ما يصحش تسييه لوحده . لا حول ولا قوة إلا
بالله .. ما تعولش هم .. أنا ح أشوف كل حاجة .. ووح ادع كل شيء

ولكنى حزین یا ابی ، کیف توكنتی وهبطت إلى القبر . ترقد سجوارها . أمی ..
تتعرفین ما يحدث الآن .. اتحصین به . لا تسمعین صراخ مبروكة إنها
ليست موجودة معنا .. لم تكن هناك مبروكة في حياتي .. انتمسكت في وجهه
يا أمی فانا لا استطيع

أوراق القضية مازالت في الصفيحة ، كنت تريد إخراجها ، أوراق
تاريخية ، لقد ورثت هذه الثروة ، ولكن مبروكة تشاركني الميراث ومعها ذلك
الطفل الذي تحمله لا أريد هذه الأوراق ، فلتبق في الصفيحة ، إنها
لا تساوي شيئاً الآن ، مات سعد وزغول ، ومات يا بى ، وماتت الأوراق .
هه .. يوم كنت تحدثني عن مستر هولمز فأنظر مدرسة الحفر في السلطنة ،
معارك دخلوا المدرجة وأصبحوا مستشارين ويكوت وياشوات .. أتذكر
يوم دخلت كلية الحقوق صممت على المجيء معي
- أنت مالك ياسيدي أنا عايز أشوف الكلية . افترض إني واحد غريب
وعايز يتقترح عليها ..

أوصلتني حتى باب المدرج ، كنت مستاء منك ، خيل إني لك تعاملتي
كطفل ، وكنت تتلفت حولك مزهوا ، تنظر إلى الطلبة وهم شغيتك ابتسامة وفي
وجهك حنان وأسى .

لم أدرك يومها ما كنت تشعر به الآن عرفت .. إني واثق أنك جئت معي إلى
الكلية لترى المكان الذي أردت أن تبدأ معه حديثك ، وعذرت عن دخوله لأنه
فقير ، أردت أن ترى شبابه وأحلامه التي لم تتحقق كنت فرحاً رغم الحزن
والأسى المرتسمين على وجهك ، رغم تجهمي واستيائى لأك معي ، هاهي
الفرصة تتاح لك من حديد في شخصي .. أما أنت .. أما أنت .

آه يا بلى .. إني أتذكر الآن أشياء كثيرة ، أدركك لأول مرة . صوتك
المرتفع وأنت تودعنا قبل السعر إلى مقر عمك ، صدك المرتعشة وهو تمتد
لتأخذ المظروف الذي يحوي التجهيزات الثلاثة أحمر دروست مدحت ، عاقت
لراتبك بك .. أبى لقد كنت يائساً من نفسك . قصصى بكل شيء من أحي

كل شيء بالنسبة له سهل ميسور حتى الحزن على أبى وفتح نفقات دعته .
أمر سهل ميسور

- أنا ح أقوم بالأوجب يا أبنى .. أطمئن ..
وجاء مبروكة إلى الفقهى ، الغضبية خرجت إلى العراء ، كانت تحمل
منعلاً ، ابنها ، انهارت جدران بيتنا واكتشف المستور ، أصبحنا في الشارع ،
والناس يرون كل شيء ، أبى يضحك مع مبروكة ، تضمهما غمرة النوم ، تدله
ولداً ، شجارى معه ، لقد تعريت ..

لا أملك سوى الاستسلام ، الأذعان التظاهر بالغياء ، خطوط خطوط
مبتعداً ، فانهرج حصار الناس يفسحون لي الطريق ، ورائتي مبروكة فهجمت
علي ، وقالت صراخاً نكست رأسي وابتعدت ..

يومها سمعت الدنيا صراخ مبروكة الغضبية تجلجل بلا داع ، المشيعون
يتلفون نوحها ، لعلمهم يتهايمسون بقصتها مع أبى ، لعلمهم يشيرون إلى ابنها
ويقولون إنه أذى .. لن أكثر .. أنا نعمة تدفن رأسها في التراب .. هه ..
ما الذى يذكرني بالنعام الآن .. أهذا وقت التشبيهات .. كائن اكتب مقالاً ..
أنا لا أكتب مقالاً .. يجب أن ألهم هذا .. أنا ألهم أبى ..

يحملون أبى إلى القبر ، يهبطون به ويغيبون تحت الأرض ، ربما كان هذا
افضل حل . منذ هذه اللحظة ستضيع مبروكة ، ستضيع إلى الأبد .. الدنيا
واسعة ، تنوره هي في مكان ، وأتوه أنا في مكان وكان شيئاً لم يكن .. غداً
ستقدم لي مدام روز الشاي في الصباح ، وستحدثني عن فيلم السينما الذى
سترأه الليلة ، لن تعرف أن أبى مات ، ربما ابتسمت في وجهها لأنها
لا تعرف .. ولأخفى حزني .

يفلون فوهة انقبر بالحجارة ، ويهبلون فوقها التراب ، ويرشونه بللأه ،
الشمس تعيب ، أذان لمعرب يرتفع ، كل ما ساقعه ابتداء من هذه اللحظة
سيخفى حزني ، سأمصع كأنما كبيراً لأخفى حزنى ، سأنسهر وأحصل على
المال لأدعى حزنى . سأمصع إلى علاقة في الدنيا وأسخر من الجميع
لأدعى حزنى . لن يعلم أحد غير هؤلاء المشيعين أن أبى مات .. وأبى حزین

لم يبق لنعسك شيء ، سوى الساعات الطوال الصائغة في المقهى أمام رعدة
الشطرنج .. ومبروكة

سأحقق لك كل ما تريد ، إن أضحي ، صدقتي يأتي ، سأقبل ما لم
تفعله أنت ، سأطرد الحادمة كما كان يجب أن تفعل ، سأعيش لأصبح يوسف
بك .. يوسف باشا .. وسأكون أكثر من كل هؤلاء المحيطين بي ، سأرتفع فوق
العصية التي رأوها ، سأحفر قبرنا وسأحرق قصة مبروكة من ذاكرتهم
بقدر ما هبطت أنت سأرتفع أنا ، وبقدر ما تحسرت أنت سأقوى أنا ، وبقدر
ما مت أنت سأعيش أنا ..

كانت مبروكة لا تزال تصرخ ، ويدى تمسك بعشرات الأيدي ، حتى دفعني
مدحت إلى العربة الكبيرة ، ركبت بجوار راتب بك ، طلبا مني أن أذهب
معهم ، ولكني صممت على العودة إلى الهريدة

وصعد مدحت معي ، إنه يريد أن يقوم بالواجب ، رحبت بمجيئه ، لم أقرر
فيه كصديق قديم ، كنت القول للنسي ، هاهو ابن راتب بك يجلس معي ، تعالوا
لنتأكد من صلتى به .. أنا لا أكتب الآن أستطيع أن أعلن نبأ وفاة أبي
وأنا مطمئن هاهو أحد المعزين ، لقد جاء معي في عربة فخمة كبيرة ، انظروا
إلى وسامته ، تأملوا ملبسه الأنيقة ، اسمعوا كيف يتكلم .. هاهو نوع
اقاربى .

استأذنت من مدحت ، وذهبت إلى محمد ناجي ، وأنا أرسم على وجهي كل
الحزن الذي في الدنيا ، الآن ستهول قضية الموت ، إلى شيء مشرف ..
سألني

- كنت حين .

أطوقت رأسي وقلت بصوت خفيض .

- والذي تولى .

فزع ، وبصر في دهشة ، دخلني شعور غريب ، انى حزين ولكنى أظهار
بالحزن

- امتى

- التهلدة الصبح ..

صرخ .

- وماقولنايش ليه .. أنا سالكك ..

- ما حيتش أزعدك

- انت مجنون .. حد يعمل كده

- خلاص .. للجنازة كانت العصر .. وعنى راتب بك وصلنى هنا ..

قال فى عجب :

- إنا مش قاهم إزاي ماتتلكم .. انت غريب يا يوسف . دى حجة
ماتتلكم أبداً ..

همست ..

- اتفقت مع عسى راتب بك .. إنا نكتفى بالجنازة .

- بس ماتقولوش .. لا . لا .. أنا وأحد على خطرى منك

- مدحت أين راتب بك .. مستنينى فى أوضتى

- راتب بك .. راتب بك .. أريد أن أكرر هذا الاسم مائة مرة .. ألف مرة ..

قال محمد ناجي :

- طيب انشر النعى .. كتيبه ؟

- اريشك ، أى نعى ، ماذا أكتب فى النعى ، أسماء اقارب مجهولين فقراء .

مستحيل

قلت

- حاضر ..

- أكتبه بلوقت ونزله المطبعة ..

- حاضر .

وقالرت الصحرة ، ووقفت مع مدحت عند باب الحريدة ، ستظر محىء
السائق بعريته المستويين .. ولم أكتب النعى .

بعد يومين تذكر محمد نلقى أنه لم يقرأ النعى ..

قلت له :

- ما مقدرتش أكتبه .. مسكت القلم النعوج جت في عيتيه .. وقلت إيه العايذة

تمتم في دهشة

- صحيح أنت شخص غريب .

نعم .. أنا شخص غريب ..

وفي اجتماع المحررين ، قال محمد ناجي في تأثر شديد ..

- إذا كنتم عايزين تعرفوا الصحفي الحقيقي .. شوفوا اللي عمله يوسف .. المرحوم والده توفي الصبح ماقلش لحد .. وراح شيع الجنازة ، وكان قاعد بيشتغل معانا بالليل ..

وحدق في وجوههم .. ثم ثبت عينيه على وقال

- أؤكد لكم .. إنه ح يبقى في مستقبل كبير معانا ..

أطرقت برأسي في خجل ، وعلى وجهي قناع الحزن الزائف . الذي يستتر أحزاني الصادقة .

ودعاني إلى تناول الغداء معه . خرجنا من الدار أمام نظرات المحررين ، واعترض طريقى شوقى وهمس

- رايح فين ؟

قلت وأنا أتابع السير خلف محمد ناجي

- يبعدين أولك ..

بدا على وجهه الضيق ، إن علاقتي به تفسر ، بالامس قضينا الليلة معا وكان معنا سعد ، حاولا مواساى ولكنهما في نهاية الليلة انطلقا يسيران محمد ناجي واكتفيت بالتفكير في الابتعاد عنهما . على أن اختار إما صحبة شوقى ومشاركته في عداوة محمد ناجي وإما صحبة محمد ناجي والابتعاد عن شوقى ..

وربكت بجوار محمد ناجي . انطلقت بنا السيارة إلى بيته في الزمالك .

قصر يحيط به حديقة ، وكب ضخمة نبح ووشب وجرى مبتعداً ثم أقبل مقترباً ولف ودار حولنا ثم تمرغ في أرض الحديقة ..

وبحن جالسان على المائدة ، روى لي محمد ناجي قصة كليه توبى كان كلب صديقته للطرية دلال .

وسألني فجأة .

أنت بتحب .

- لا .

ضحك قائلاً

- وماك بتشخط كده . هو الحب وحش .

أجبت في خجل ..

- أيداً

- ما عرفتش بنات ..

- لا .

- أنت ساكن فين .

- في بنسوين .

- ساكني ..

- تقدر تعزم واحدة صاحبك هناك ..

- ما أظنش ..

قال بصوت جاد

- تعرف أما باسمي اللي زيك إيه ..

نظرت إليه متسانلاً ..

- اللي ما يعرفش بنات .. لى .. جاهل .. عمره ما ح يعرف الحياة زى

واحد ما يعرفش يقرأ ولا يكتب ..

ابتسمت مرتبكاً .. فاستأف كلامه ..

- لكن أنا ح أساعدك ..

ح اديك مفتاح الشقة بتاعتي في شارع ماسيمو .. اعتبرها شقتك بعد

لحظة صحت ، كن يساكني ..

- أنت مكسوف ؟

قلت في خجل

أبدأ .

فضحك ، ونهض من مقعده قائلاً :

فكرنى لديك المفتاح قبل ما تمشى ..

صدق انور سامى ، إنه يعيش كملك ، خادم يرتدى السموكيتج قدم لنا الطعام . سمع موسى ومعه نبيل ابنيش ، وطلق لهم بيكيتا بالشمبونيون ومعه لبيلد احمر ، والعواكه بالكريم شانتى ، والقهوة فيها حبهان .

بعد الغداء جلسنا على مقعدين وثيرين ، وقدم لي سيجاراً .. بارتجاس .. كل هذه الاسماء تعلمتها منه ، كان يشرح لي كل طيق ، وسر صناعته ، ويحدثني عن تاريخ الطهاه الدين علمي في مطبخه ، وأنا انصت بشغف ، وانظواهر احياناً بأنى اعرف ما يقول ، واندفعت فجأة في الحديث عن الطامي في بيتنا ومشاكله .. ورويت له كل ما أتذكره عن حواث الطامي في بيت راتب بك .

وغادرت بيته ومضى مفتاح شقة ماسبيرو ، وتمنياته لي بأن أجد بسرعة اللقطة التي تعلمني الحياة ، وشجمل منى رجلاً ناجحاً يتخلص من خجله وانطوائه على نفسه ..

أطبقت أصابعي على المفتاح في جيبي ، وأنا أسير على غير هدى . اتوقع في أية لحظة ظهور تلك الفتاة المجهولة ، وخطري أن اذهب لزيارة مدحت ، لأبد أن أولد علاقاتي به ويراتب بك . أن أخبرهما وقود ضرورى أوقع به إلى أذن محمد ناهى لينتق لي امتعاني إلى طبقة الاغنياء .

قابلني راتب بك ، كان جالساً في الصلاة والشيخ دسوقي يقف امامه يحدثه عن اخيار العزبة ، وفجأة التفت الشيخ دسوقي إلى وقال بصوت جريء :
- بقى يا استاذ موش حرام عليك تسبب اللولية الغلبانة في البيت .. موش لاقية الي يسال عنها ..

صعدت الدماء إلى راسي . ولزمت الصمت . وتكسل راتب بك قائلاً لي مسخريه

- وعزيزه يعملها إيه يا شيخ دسوقي ..

- يجبر يخلطها يا معادة البيك .. يشوف الواد اللي بتجربى عليه . هوه برضه موش أحوه .

- لم أقل شيئاً ، كائن لم أسمع شيئاً ، ولست أدري لماذا مدت يدي إلى جيبي وتحسست المفتاح ، كائن جائف من ضياعه ..
وقال راتب بك :

- وهو ح يعمل إيه .. ما تحلبها تسافر انبلد وتعيش هناك .. احسن لها ..
متراجع الشيخ دسوقي وقال بسرعة :

- صح يا معادة البيه :

- وأيتسم في مدلة وقال

- تشوفولها المعاش بتاعها في الحكمة .

- صاح راتب بك .

- معاش إيه ياراجل انت .. المرحوم كان فوق الخمسة وستين .. اسمع كلامي .. هيه شروح اليلد غصب عنه . ابنها ح يأخذ ثلاثة أربعة جنيه تقدر تعيش بيوم هناك .. وتشوفولها أى واحد تتجوزه . إنما قعاد لها هنا .. مافيش منه فائدة ..

قال الشيخ دسوقي ساهما :

- يعني مالهاش معاش هيه كمان .. دا بيقرولوا لها معاش ثلاثاشر جنيه ..
أجاب راتب بك في حدة

- لا .. مين قال الكلام الفارغ ده .

وانصرف الشيخ دسوقي ، وتحدثت مع راتب بك عن محمد ناجي ..
استمع إلى في اهتمام ، وصابت عيابه من الدهشة عندما عرف أنني كنت أتناول الغداء معه .. وقلت له كل ما أعرفه من أخبار السياسة ، فحرت وأنا أرقب الانفعالات على وجهه ، لقد استنطعت أن أحذب أشبهه .. وقطع حديثنا منحت . هبط متأنقا وحذبي من يدي لبحرج في الحال .

قال راتب بك .

- اما كنت عابزہ .. نسعم اخبارہ ..

قال مدحت

- مرة ثانية يا بلبا اما مستعجل وخرجت مع مدحت ، فوصلنى إلى الايام ، معتدراً بأنه لن يستطيع قضاء الليلة معى ..

- بعدى ميعاد مع واحدة زى القمر .. ح ابقى اقوت عليك قريب .. يمكن اخليك تشوفها

شعرت اسى وحيد ، لا هلة لى بأحد فى هذه الدنيا ، سوى هذا البناء ، ومحمد ناجى . وتلك الفتاة التى لا أعرفها وانتظرها واستح لها الباب بالمفتاح .

عدت مبكراً إلى البنسيون ، وحاولت القراءة ، ولكن الحزن طغى على ، وفى الصباح زرت قبر أبى وبكى ..

والتقيت بمبروكة فى المحكمة ، كانت مع الشيخ دسوقي جالسة على دكة خشبية ، لم أكن اترفع رؤيتها ، ووقفت بعيداً عنها أتشغل بالمديث مع الشيخ دسوقي ، فجأة كانت واقفة بيننا وابنها ففرق كتفها .

- كتر خيرك ياسى يوسف .. برضه عملت اثنى عليك .. وسألت عنى وعن أخوك ..

وحملت الطفل بين يديها وهزته فى وجهى .

- هو ده موش ابن عبد الحميد .. موش لحمد وبك ..

الفضيحة ما زالت تجلجل ، صرخت فى هددة ..

- انت عابزہ منى إيه .. لو تملات فسأصفعها على وجهها وأخرج ..

- عيب تقول الكلام ده .. خلى أموك يستريح فى نومته ..

- ماليكش دعة بأمويا .. عابزہ إيه أكثر من كده

تراحعت قليلة :

- الله يسامحك ..

لن اضيع حياتى من أهلك ، أبعدى أيتها الخادمة ، لا تعترضى حياتى ،

أنا لا أريد منك شيئاً .. أتريدين قتلى بعد أبى ..

قضيت النهار كله مضطرباً .. اتصلت بمدحت فوعدى بأن يمر على فى المساء ..

وجاء المساء ، وهبطت إليه ، كانت تتركب مع فتاة حلوة . قل أن اركب العربة ، كان خاطراً مجنوناً يقول لى ، هذه هى الفتاة المجهولة التى ينتظرها المفتاح ..

الفصل السابع

مسكينة سامة

كان اسمها في ذلك الوقت ، بهية ، مجرد بنت حلوة تجلس بجوار مدحت في عربته ، لا يخطر ببالها شيء ، ولا تتوقع أي شيء ، ثم جئت أنا .. الغريب الذي هبط من جريدة الأيام ، لا أكاد أجسر على النظر إليها ، يمنعني خجلي من أن أوجه إليها التحية ، وأجلس خلفها ، لا أعرفها ولا تعرفني ، ومع ذلك تراودني بالمسبة لها أغرب الأفكار .

الشيء المخجل حقاً ، الرائع حقاً أن كل ما فكرت فيه قد تحقق فعلاً .

ماذا أقول ..

اليس هذا دليلاً على أننا نعيش في دنيا مضجلة رائعة .

كان لقاءنا سخيلاً ، مرهقاً ، كنت مرتبكاً ، وظنت هي أنني من النوع المغرور ، للتكبر ، وبدا أنها تضيقي بي ، أما أنا ، فكنت أقول لنفسي ، مثل هذه البنت هي التي تصالح لأن تذهب معي إلى شقة محمد ناجي .. كيف أحصل عليها هل أستطيع أن أقنعها بالتخلي عن مدحت والانتفاذ إلى .. أترضى بي ، أو لعل مدحت يرضى بأن أشاركه فيها ..

وكان يحزنني أنني لا أعرف كيف أشرع في تعذيب ما أفكر فيه ، وأشعر بعجز كامل عن التصرف .

قلت لنفسى مشجعاً ، لقد تغيرت الآن ، لم أعد الشاب النريء الساذج أنا



معاصر جديد ، خرج إلى الدنيا حديثاً ، خرج إلى ميدان الحرب ، ليحارب ويصيح قويا وغنيا ، ولقد نصحنى محمد ناجى بأن أبحث عن امرأة تعلمنى الحياة ، وأنا لا أحد هذه المرأة ، ولا أعرف كيف أعثر عليها ، قضيت حياتى بلا نساء لم أعرف سوى أمى وقد ماتت ، وسعاد وقد تزوجت غيرة ، وهربوكا وقد صرعت أبى وترىد أن تصرعى .

عرفت سوزى أيضاً ، ولكنها مبتذلة ، رخيصة ، إنها ليست امرأة ، جست ميت لا يعطى وإن يعلمنى .. إن يعلمنى على الأقل الانتصار .

تجربتى الوحيدة هى حب ساذج لشقيقة مدحت . حب صدمنى وجعلنى أنظرى على نفسى وأنكمش كنت اتوهم أن الحب هو الزواج هو أن أكبر وأصبح أبا مثل أبى وتصبح سعاد أما مثل أمى ، أحلام طفل ، وخیالات مرأق عيبط كان أملاً لا حياً ، صورة أرسمها للمستقبل ، لا حياة أعيشها بلحس ودمى .. وأنا الآن وراء تجربة من نوع آخر ، أريد أن اقتحم الجسد ، لأتعلم كيف اقتحم الحياة أتحدى خوى من الجسد ، لاتحدى خوى من الحياة ، أتعلم كيف انتصر على المرأة ، أعاملها بلا زواج ، بلا هدف ، سوى أن أشعر بأنائيتى . وبقدرتى على أن أبهرها وأسيطر عليها ، ولجعلها تلهث وراءى وتستسلم لانتصارى .

سألتنى بصوت بارد ..

- الأستاذ يجب يروح فىن .. نذهب إلى أى مكان .. لا .. تذهبين معى إلى الشقة ، حيث أخدك ، وأظهر أمامك كعاشق ليس مثله عاشق ، أسدرك ، أجعلك تنظرين إلى فراغة فمك فى بلاهة وغباء ، تتريقين منى الكلمة والإشارة ، تتعرقين عند قدمى فى لذة وآلم وخضوع ..

هل أنا ساذج .. ربما .. على أية حال ، لا وقت عندى للإجابة على مثل هذا السؤال ، لا يفرغنى أن أكون ساذجاً ، لوحيانا ، اللس الذى سيمررك من مدحت كامن فى عنى ، لنعام الذى سيمستلك تحفظ فى داخل ، سألقى عليك ، سأمتص كل حلاوتك ، سأمتصك .. قد أكون ساذجاً .. قد أكون

يائسا ، ولكنى أريد أن أعيش .. لايد أن أعيش مثل الآخرين .. لقد مضى شبابى دون أن أقرب امرأة ، وهذا يعنى أنى شاذ ، وخامل ، وأن الهريمة قد لحقت بى قبل أن أخوض المعركة .. محمد ناجى على حق .. كيف انتصر على الحياة إذا لم أنتصر على امرأة .

ولكن هذه البتة ليست لى ، إنها فتاة مدحت ، لقد تعدت حدود السفالة إلى حدود الجنون ، ما الذى يضطر مثلها إلى التفكيرى ، مدحت أفضل منى فى كل شيء .. العربة التى يقودها .. النقود التى تملأ جيبه .. خبرته وتجارب .. أنا لم أرقص فى حياتى مرة واحدة ، ولو انفرجت بها فستكشف جهلى فى لحظات .. ستفصحنى ..

- الأستاذ بيكتب فى الجرنال ..

- لسه بخبط .. ساعة أكتب جريمة .. ساعة أكتب أخبار فن .. اعنى انى لم أشتهر بعد ، ما زلت مغموراً .. لا .. لمست مثل محمد ناجى الذى تقرأين له .. أتمسخرين منى .. أرى للسخرية فى عينيك ، أسمع التهمك فى ثبرات صوتك .. من أنت ..

- أنا عايزك تكتب عن بهية ..

ما الذى أكتبه يا مدحت .. أمى ممثلة حقاً .. هذا خبر مدهش .. ممست والراحة تفرمنى والدهشة فى صوتى ..

- كده ...

غضبت لأنى لم أصدق أنها ممثلة .. ولكنى استرحت الآن .. لقد ازداد أملى فى استيلائى عليك ، أنا الذى يكتب عن الممثلات . أستطيع أن أرفعك .. أنتشر اسمك وأجعلك تشتهرين . أستطيع أن أقدم لك كل ما تمننيه .. مدحت أن يساعدك فى هذا . إنى محرم . خواطرى حقيرة . تحدر بى إلى الحضيض .. أهذه هى المهارة المطلوبة منى .. ألا يوجد حل شريف آخر .. يجعلنى أعيش شريفاً وناجحاً فى نفس الوقت ..

كانت العربة منطلقة بنا فى طريق الهرم ، والحديث بيننا غريب وإمكارى المحبوبة لا صلة لها بظهورى الجامد المؤرب . والعربة تصعد المرتفع فى

نهاية الطريق ، فانشعر بالاختناق ، عيبي الكبير انى اعى بالجريمة ، انى مازلت اشعر بالحدين إلى أيام اليلامة .. اجمل أيام حياتى هى تلك التى قصيتها مع اعى ، لا أريد أن ألوث هذا الطفل الذى كان ، التنازل عن كل شىء ، اذهب لحمد ناجى وأعترف له بحقيقتى ، اقول له انى لن أستطيع المضى ، وإنى لا أريد شيئا منه ، ولا من أحد غيره ، كانت العرية قد وقعت ، مفضت بابها وانطلقت هاربا من نفسى ، ومضيت فى الظلام .

أما وحيد ..

ثرى ما الذى تهمس به فى أذن مدهت الآن ، أسفر منى .. أنسيتى .. أتقول لمدحت انى مسخيف ، وإنى أسعد ليلتها . فلامش ميتدا .. لعله يقبلها الآن .. أين أنت أيتها الفتاة التى ساقابلها لتعلمنى الحياة .. أخرجين لى من جوف للظلام ، من جوف الهرم .. الطريق موحش .. كالوحشة فى قلبى .. ما الذى يعجب المرأة فى الرجل .. سيارته .. سرعة يديهته ونكاته الضاحكة .. تقوده .. خبرته .. لا أملك شيئا من هذا كله .. ولكنى سأحصل على كل شىء .. لا بد أن أحصل على كل شىء . أو أبعد عن الناس . أخفى بين هذه الصخور وأغيب عنهم إلى الأبد ، يفرسنى ذئب ، أو يقرصنى ثعبان . لو ادفن نفسى فى قبر ..

ساجن ..

لا بد أن أعود للظلام رهيب .. فوجئت أنها قلقة على .. صاحب .

.. وحت فىن .. موش هابف من المفاريت ..

لنا خائف منك أنت ، وخائف من نفسى . ولكنى اعتذرلك عن كل الأفكار السوداء اللينة التى دارت فى رأسى . لن أمسك بسوء . لأشأن فى بك ، فانت بنت طيبة . لآك تقلقين على .. ما أغرب هذا الكلام ، من الذى أخدعه بهذا الكلام ..

أقول انى لن أمسها بسوء ، كأتى قادر على أن أمسها بسوء . انى لا أستطيع ، غير قادر على شىء . . انى لن أمسها بسوء لأنى عليلز ، لأنها

ليست لى ، ولا تفكر فى . لا تدع الطيبة يا يوسف .. لا تتجول إلى شخص مثالى لأنك فضلت فى أن تكون شخصا سامعا .. أه مصيبتى انى افكر انى اعى .. انى أراقب نفسى ، صودتها مرح ، صصك من قلبها . قالت وجدة إنها حامل وتنتشر طعلتها بعد سبعة أشهر ، صصغنى جراتها وفرحت لأن مدهت أصليه ما أصلى ، كم أنا مفع ، أنهم نفسى بكل الشهور ، والباس تصحك متباعدة مشرودها ، إنها تعجز بأصمى انى فى نظنها ، وتعرف بأنها لا تدري من يكون أبوه .. مدهت يوسف .

هذا مستحيل . إنها تقول فى جرة متشابهة بها قد تسمى بنتها يوسف يوسف . كان هناك احتمالا فى أن تكون بين علافة . إنها لا تمناع ..

مستحيل . لا يمكن أن تصربها جرة إلى هذا الحد .. مستحيل .. إنها تحدث بذا . ولكنه عيت فصيح . عيت فتاة بلا حياء .. إنها تتكلم فى وقاحة الرجال ، وأنا أنصت إليها فى ذعر العذارى .. لا . إنها تعنى شيئا آخر .. أه .. إنها لا تبحث عن اسم لجنينها .. إنها تبحث عن اسم سينماتى جديد لها ..

صصت

.. أنت بتدورى على اسم جديد للسينا ..

صصحت مهلة ، وقالت لمدحت انى أذكى منه ، ووجدتني أنظر إليها فى إعجاب ..

ليأتها أصرت على الذهاب إلى الاستوديو ، لأن وعدت المخرج طمس كامل بالمرور عليه . وكانت فرصتى لأتظاهر أمامها بأنى صحفى مهم ، دخلت معها البلاتوه ، معهم على أنور سامى يقبلنى ، ووقعت عامداً مع هدى مراد أضحك معها على غير عادتى ، كنت مرصا ، مروها بنفسى ، أريد أن أثبت لها فى كل لحظة ، انى لست الشخص المعصوم . وأن كل هؤلاء الفنانين الكبار يعرفوننى ويرحبون بى ، وإنها كما لا تعرفنى ، فلما أيضا لا أعرفها .. لأنها مازالت مقصورة ، مجردة كوميارس تامه .

ونجحت في تحقيق هدفى ، إذ وقفت هي بعيداً عنا ، لا تجسر على الاقتراب منا ، حتى رثيت لها وخطر ل أنها قد تكون كاذبة ، لا تعرف احداً في البلادية ، وتملكنى رغبة خبيثة في كشف أمرها ، فتأديتها ، تقدمت منا مضطربة حجلة ، ولكنها كانت صادقة ، كان حلمى كامل يبحث لها فعلاً عن اسم جديد .

واختار لها أنور سامى اسم سامية سامى ، قال في غرور إنه سيتبينها ويمنحها اسمه ، حتى يساعدها وتشتهر ، كان واضحاً أن أنور قد أعجب بجمالها ، وغامطني قدرته الخاطفة على استغلال الموقف ، إنه يفعل في بساطة معبزة ، وفي لحظات سريعة ، كل ما عجزت أنا عن الوصول إليه ، استطاع أن يرتبط بها ، ولأنك في أنه غداً سيأخذها معه إلى بيته كان الجميع يدركون هذه الحقيقة ، هدى مراد تيسم في اشمزأ من شراة أنور ، وحلمى كامل يقول ساخراً لأنور :

- دى موش قدك ..

وأنا الوحيد الذى كتم فيظه ، وتظاهر بأنه لا يفهم شيئاً ، بل إنى صحبت في مرج كاذب معلناً أنى سأنشر الخبر .

عندما يبلغ العجز مداه ، لا يستطيع العاجز إلا أن يهال لانتصارات شره ، نعم سأنشر الخبر .. أنور سامى يتبنى سامية سامى المعلقة النافسة ، النجمة الجديدة ، سأسجل انتصارك يا أنور ، سأساعدك في الوصول إليها ، سأفعل هذا لأنه يؤمنى ، لأنه يعاقبني على ضعفى ، لأنه يفصح تصفى الكاذب ، وأدى العيبى ..

وتركت بهية التى أصبحت سامية مع أنور وحلمى ، وقضيت ليلتى أهذى وأرأسى لحالى ..

مضى يومان ، ويوسف البريء هو الذى يحتل جسدى ، لن أنشر حرفاً واحداً عن هذه الفتاة ، صابيت لها أن أنور لن يساعدها في شيء ، ستفتح جريدة الأيام يوماً بعد يوم ، تبحث عن اسمها فلا تجده ، وستشعر بخيبة أمل ، وستشكولسحت ، فاعترف له بأتى أحميها ، أنور سامى سمعته سيئة

وأورببط اسمها به ، فلذلك تفسر واحد في أذهان الجميع ، إنها أصبحت عشيقته ، وسأقترح عليها اسماً آخر ، مى معبر ، كما كنت تقول هي ، لونيلى فاضل .

لولا مدحت لأخترت لها اسم سعدا راتب .

سألت محمد تاجي ، وكنت مدعياً به كعدائى كل صباح .

- إيه رأيك في اسم منى منير لسيما .

- لعت عيناه في خيث وسالى .

- إيه .. عرفت واحدة ..

- اطرفت في خجل ،

- فصاح مبروك .. هيه .. وخدتها الشفة .

- لا ..

- أمال إيه حكاية الاسم ..

- الحقيقة أنا في ورطة .

- عظيم .. قولى ..

- الحكاية موش زى ما أنت فاهم قال منزعبا

- أمال إيه ..

قلت في ضيق

- أنور سامى بيعمكن بنت كومبارس عايزين يكبروها .. اسمها بهية ..

وأنور عايز يخللي اسمها سامية سامى .. على اسمه .. وأنا عارف أن الخبر

كويس ومشر . كل الناس ح تضحك لما تقراه . وتقول أدب واحدة جديدة أنور

اصطلاحاً ..

قال في وجوم :

- ويعدين ..

قلت في عصبية .

- أنا موش عايز أنشر الخبر . حأمسى زى ما أكون بأساعد أنور على

وقطعت كلامى ، كان الخيط قد ملا نوى

صاح سحراً

- أب مرش ح تنطل مشيخة .. الخير ده عندك من أمتي

- من أول اسارج ..

اصغر وجهه وقال محددا

- يعني كويس لما تنشره الجرايد الثابتة .. إحنا بدهر .. لو كل تفكيرك

بالشكل ده .. روح اشتغل مع شيخ الأزهر .. دي عادة فطبعة الي عملتها

كانت أول مرة يحتد فيها على محفت .. ودعني خوي إلى جرة مجنونة

قلت بصوت قوى .

- أنا موش شيخ ولا حاجة .

- طيب مانشرتش الخبرايه ..

- علشان متفاظ ..

- من إيه .

- البنت دي أنا باحيها .. وأنا اللي معرفها بيه ..

بغته اعتراف .. تراجع يظهره إلى الوراء .. ثم انحنى إلى الإمام وضحك ثم

لمح ضحكته .. ونهض من مقعده وجاء وجلس بجوارى .. وقال مساو لا ان

يحتفظ بمظهر هادى

- يتحبها .. يعني إيه

- باحيها ..

- أيوه .. لكن أنا بأسأل .. فيه عندك مشروعات أكثر من الحب .

- زى إيه ..

- عايز تتحورها مثلا ..

- لا .

ضحك قائلا :

- أمل إيه اللي مرعاك .. عييزها لواحذك . أبص صعب قوى .. أنا لومتك

أروح لما واحدة زى دي تلاقي واحد تاني وقالت .. يشيل عنك شوية من

مصاريها .. ويريحك منها .. تعرف .. مافيش أول من الست المخطئة .

كل شوية تسأل عنك فى التليفون .. ورجعت مين .. وجيت مين .. واستغلة

واستجوابات وتحقيقات .. دوشة .. إيه اللي يخليك تحبها فوق رأسك ..

- بس ...

- لا بس ولا حاجة .. أنا سألتك سؤال محدد صريح .. عايز تتجوزها ..

قلتلى لا ... يبقى خلاص .. انشر الخبر

وريت على كتفى وقال

- أنا متأسف .. اعتذارك .. كان لك حق تتردد فى نشر الخبر .. لو كنت

مكانك .. كنت لترددت .. كده مفهوم .. موش تمتنع عن نشر الخبر علشان

فوق رأسك عمة التلى والورع .. كانت تبقى مصيبة ..

وبشرت الخبر .. وكان أنور سامى أول من اتصل بى فى الصباح ليشكر

لى ..

قلت له وأنا أتحوّل إلى يوسف الشريد

- عايزين أخبار تانية عنك وسامية .

- أنا تحت أمرك ..

قلت وفى نفس مرارة :

- خير مشير .. والا قضية .. صاح .

- يانهل اسود .. يعنى أموتها ..

ثم همس ..

- أنا ح اكلمها دلوقت .. وح اعزمها الليلة .. وح أبات طول الليل أدهى

لك .

ضحكت فى بلاهة .. ومضى هو قائلاً :

- بنت لذينة .. موش كده .

- قعلا .. إنما إيه وأيك فيها كمعطة ..

- ممثلة مين يا عم .. ده كله تمثيل .

كبت أحطم فتجان القاهرة .. تعلم يا غنى . بطركيف يتصرفون .. ها هو أنور

النجم العظيم اللامع المشهور .. يملك درساً فى الحياة .. اكثف أب بالجلوس

في مقاعد المتفرجين ، ألا تعرف إلى أي مدى بلغ فشلك .. إنت تدعى الآن أمام محمد ناحي أنك تحبها ، تدعى أنك على علاقة بها ، تكذب لتتفى عنك تهمة البراءة ، تتظاهر بأنك حينئذ تفكر في سعادتك وانت بعيد عن السفالة . أزعمت الحقيقة أنك مارلت وحلا شريفا .. مارلت فعلا لكن الخديعة لن تدوم ، سينكشف كل شيء .. سيفضح كذبك وسيعلمون أنك صادق .. ستظهر براعتك .. ويطردك . محمد ناحي لتعمل في مشيخة الأزهر .. لو أردت أن تستمر فلا بد أن تذهب بسامية إلى شقة محمد ناحي . هي أو أي واحدة غيرها . تصرف بسرعة .. قبل فوات الأوان ..

سألني محمد ناحي ..

كلمتك ؟

- أنور كلمني ..
- تعرف أنني متفانيك .. أنا عايز أعمل فيه فصل .
- على إيه ..
- يعني أنت موش متضايق ..
- لا ..
- بلاش كذب .. أنت باين عليك بتحبها أكثر ما كنت هاكر .. اسمع .. خذها النهاردة الشقة .
- أنور عازمها بالليل ..
- صاح غاضبا .
- خذها الضهر .. العصر .. إنما لازم تأخذها .. كرامتنا متوقفة عليك .. وضحك

لم أكن أثق أن محمد ناحي سيهتم كل هذا الاهتمام بقصتي التي اخترعتها .. لقد أصبحت معرضا للخطر .. إذا لم أواصل الكذب عليه .. فسيتدخل أكثر وأكثر . وربما فاتح أدور سامي .. وربما اتصل بسامية .. إلى في مأزق .

حاولت أن أقنع نفسي بالاتصال بسامية ، إنها ستحب بي . فقد نشرت

اسمها وصورتها .. ولكنني أشعر بالتقزز . كائني سأضع في فمي طعاما مضغقة غيري .. سأبتلع بصفقات أدور سامي ..

وأنا غارق في حيتي ، حق جرس التليفون ، وسمعت صوت موظف الاستعلامات يقول لي : إن مبروكة هنا .. تنتظر في السور بمدخل البناء .. المصائب لا تأتي فرادى .. كنت أنكر وحودي ، أو أطلب منه أن يطردها ، ولكن ضيئا غامضا دعمني إلى مقابلتها . استأبني شعور مفاجيء بالشفقة عليها ..

لم أصدق أنني ابتسم في وجهها وأمد يدي لها بالقبول ، وعدتها بزيارتها في البيت لأذهب معها إلى إدارة المعاشات .. ودققت النظر في وجه إبراهيم .. أخي .. فيه الكثير من ملامح أبي ، واسترحت لوجهه ، وكدت أمد أصبعي والمس خده ، كانت مبروكة ترتبني في أرتياب ، ولكنني كلمتها في حرارة ، لماذا لا أساعدها ، وأخلصها من ورطتها . ومن يدري ، قد يكون لها معاش ، إن الدنيا كريمة ، والناس تتفائل كالحيوانات المسعورة وهي في حاجة إلى قرش ولقمة عيش .. لا تخاف يا مبروكة .. سأساعدك . سأخلصك من ورطتك .. فقط أريد أن تباعدني ، وأن تخرجني من هنا بسرعة قبل أن يرانا أحد .. فانا أيضا في ورطة . إني أعيش هنا بالأكاذيب . وهي حياة ليست سهلة .. كل يوم أتورط في كذب جديد . إن مهمتي الآن هي أن أقنع نفسي بأن أكاذيبي هي الحقيقة .. وهذا شيء مرهق .. ربما كان الأفضل أن أعترف بك يا مبروكة .. ليتنى أستطيع أن أفعل هذا . ولكن الثمن ضخم . سأخسر عن كل شيء .. وإن أقيمت ، ربما كنت عبئا عليك وعلى ابنتك .. لن أقيمت يا أخي .. لو تخليت عن حياتي هنا فسأشاركك قروشك القليلة التي ستعيش بها .. بل ربما اضطررت إلى خطفها منك .. لا فائدة .. يجب أن نبعد فكلنا يحارب .. ولو اجتمعنا فسنجمع بين ضعفنا وعجزنا . أملنا الوحيد أن نتفوق .. ليتفوق صعبا . ولنستطيع أن نكذب بمرارة وبصوت جهير بعيدا عن الشهود الذين يعلمون أننا نكذب

لم يبقه أحد إلى حضور مبروكة وخروجها ، ولم أكرث كثيرا لمحبتها ، إذ

كنت أستطيع أن أكذب وأقول إنها خادمتي ، ما أسهل الكذب الآن .. إنه لا يكلفني إلا المزيد من الكذب .

وصعدت إلى حجرتي لأجد التليفون يدق في إصرار .. كان المتكلم مدحت .. قال إنه ذاهب مع سامية إلى حمام النادي الأملئ .. ودعاني للحاق بهما .. قبلت في الحال ..

وجريت إلى محمد فاجي ..

- عن إبتك .. أنا خارج ...

- علي فحين ...

- رايح أقبالها ...

- براهو .. اسمع أنا فكرت .. إيه رأيك لو اضرب تليفون .. لكلام واحدة من اللي يعرفهم أنور .. وأقول لهم يريحوه البيت .. وسامية عنده ..

نظرت إليه في فزع .. فقلل .

- موش موافق ..

- أنا خايف عليها ..

تهدد قائلاً ..

- طيب بلاش .. أنا خايف عليك انت .. حيك باين عليه بيتطور .

وتركته مسرعاً إلى النادي الأملئ .. وأنا أعجب من غياب محمد فاجي .

بدأ يخطي من طور حبي لسامية .. وحبي لم يبدأ بعد .

●●

التي مدحت بنفسه في حوض السباحة وتركتني وحدي مع سامية ، كانت ترتدي المايوه ، جسدها العاري يواجهني ، يتحداني ، إنه قوقخرة قاهرة . كيف يتعامل الرجل مع مثل هذا الجسد .. لا أعرف .. إنه يثير خيالي الحامض ، ولكنه يخيفني ويملأني رهبة ..

كانت تضحك ، وتتحدث في بساطة وثقة المرأة صاحبة الجسد الجميل .

سألتني فجأة عن الحب ، فكرت بسرعة . أمي تعالمني ، اتهمد لي الطريق ، الشقاوة في عينيها تؤكد لي هذا ، الفتنة في جسدها تشاكلي أن أرتفع إلى مستواها ، لا بد أن أبحث عن نكتة كلمة ساخرة تضحكها ، انظر في عينيها وأقول لها باحيك .. أقولها كمجرد دعاية .. اعترافاً بجسدها .. بمعجزتها ولكني لا أستطيع .

أنا هو أنا ..

مهما فكرت ، مهما حاولت أن أغير نفسي الشيء الوحيد الذي أجيدوه هو أن أعبرها عن الحب الساذج الذي عرفته يوماً ما ، كل ما أقوله الآن يجب أن يكون جيداً متقناً حتى ولو كان يفضح سذاجتي ..

حدثتها عن سعاد .. عن الفتاة التي أحببتها وتزوجت فمري ، وفوجئت بأن كلامي قد خدعها ، جعلها تتوهم أنني دون جوان خطير يحب المتزوجات ، وغاضبي دهشتها وأنها مترددة في تصديقي .. ولكني والصحة وتكلمت بسرارة وإخلاص .. كنت واثقاً من نفسي .. لأنني أقول الصدق ولأنني أعرف أن كلامي يخدعها ..

فجأة ، سألتني بصوت شارده عن الحنان . نفذ السؤال إلى قلبي .. أمي ساذجة مثل .. ضعيفة مثل .. ما الذي يضطر هذا الجسد إلى السقوط عن الحنان . إنه جسد الحب العنيف ، جسد الرغبات الجامحة جسد اللذة النهمة .. ماله ومال الحنان .. أكل هذه الفتنة والشقاوة مجرد مظهر كاذب لقلب مسكين يبحث عن الحنان ..

اتخذتني كما لخدعها .. إن أنور سامي سمعت بهذا الجسد الليلية . لن أترجع ، أنا لا أملك الآن سوى أن أرسم لها صورة مثالية عنى .. صورة الشاب الذي لا يفكر في مغازلتها الذي ينشر أخبارها وصورها ولا يتقاضي الثمن . الشاب الذي يتكلم في حرارة وصدق ويحب واحدة غيرها ويتعذب في حبه ولا يفكر في خيانتها .. الشاب الجواد الذي لا يضحك ولا يسخر وإنما يقول كلاماً جاداً .

كنت أستطيع أن أكذب وأقول إنها خادمتى . ما أسهل الكذب الآن إنه لا يكلفنى إلا المزيد من الكذب .

وصعدت إلى حجرتى لأجد التليفون يرقق بإصرار .. كان المتكلم منحدث .. قال إنه ذاهب مع سلمية إلى حمام الندى الأهل . ودعانى للحاق بهما .. فقلت فى الحال

وجريت إلى محمد ناجى .

- عن إلتك .. أنا خارج ..

- ملي هين ...

- رايح أقابلها ...

- برافو .. اسمع أنا أفكرت .. إيه رأيك لو اضرب تليفون .. لكلام واحدة من اللي يعرفهم أنور .. وأقولهم يروحوله البيت .. وسلمية عنده .

نظرت إليه فى لزوع .. فقال .

- موش موافق ..

- أنا خايف عليها ..

تنهد قائلاً ..

- طيب يلاش .. أنا خايف عليك أنت .. حيك باين عليه بيتطور ..

وتركته مسرعاً إلى الندى الأهل .. وأنا أعجب من غباء محمد ناجى ..

بدأ يخشى من تطور حبى لسلمية .. وحبى لم يبدأ بعد ...

●●

التقى مدحت بنفسه فى حوش السباحة وتركنى وهدى مع سلمية ، كانت ترتدى الملبه ، جسدها العارى يواحهى ، يتحدانى ، إنه قوة خارقة قاهرة كيف يتعامل الرجل مع مثل هذا الجسد . لا أعرف . إنه يثير خيالى الحامح ، ولكنه يخيفنى ويملأنى رهبة ..

كانت تضحك ، وتتحدث فى بساطة وثقة المرأة صاحبة الجسد الجميل ،

سأقتنى فجة عن الحب ، هكرت بسرعة ، أهى تغارنى ، أتهد لى الطريق ، الشقاوة فى عينها تؤكد لى هذا ، الفتنة فى جسدها تسألنى أن أرتفع إلى مستواها ، لا بد أن أبحث عن مكانة .. كلمة ساخرة تضحكها ، انظر فى عينها وأقول بها يلحك .. أقولها كسجود دعابة .. اعترافاً بحسدها .. بمعجزتها .. ولكى لا أستطيع .

أنا هو أنا ..

مهما فكرت ، مهما حاولت أن أعبر نفسى ..

الشيء الوحيد الذى أجيدوه هو أن أعبر لها عن الحب السالاج الذى عرفته يوماً ما ، كل ما أقوله الآن يجب أن يكون جيداً متلفناً حتى ولو كان يفزع سذاجتى ..

حدثتها عن سعاد .. عن الفتاة التى أحببتها وتزوجت شبرى ، ولوجئت بأن كلامى قد خدعها ، جعلها تتوهم أنى دوين جوان خطير يحب المتزوجات ، وغافلنى دهشتها وأنها مترددة فى تصديقى .. ولكنى الصحت وتكلمت بحرارة وإخلاص .. كنت واثقاً من نفسى .. لانى أقول الصدق ولانى أعرف أن كلامى يخدمها ..

فجأة ، سألتنى بصوت شارده عن الحنان .. نفذ السؤال إلى قلبى .. أهى ساذجة مثل .. ضعيفة مثل .. ما الذى يضطر هذا الجسد إلى السؤال عن الحنان .. إنه جسد الحب العنيف ، جسد الرغبات الجامحة جسد اللذة الزهمة .. ماله ومال الحنان أكل هذه الفتنة والشقاوة مجرد مظهر كاذب لغلب مسكين يبعث عن الحنان ..

أتحدثنى كما أخدمها .. إن أنور ساسى سيحدث بهذا الجسد الليلة . لن أتراجع ، أنا لا أمك الآن سوى أن أرسم لها صورة مثالية عنى .. صورة الشاب الذى لا يفكر فى معارلتها .. الذى ينشر أخبارها وصورها ولا يتقاضى الثمن .. الشاب الذى يتكلم فى حرارة وصدق ويحب واحدة غيرها ويتخبط فى حبه ولا يفكر فى خيانتها .. الشاب الجاد الذى لا يضحك ولا يمسخر وإنما يقول كلاماً جاداً ..

لم أقل له انى قررت ألا أراها .. تحليت بها لأنى لست قادراً على ذلك
الجسد القهار

ولكنى قادر على أن اخترع له الريد من القصص الوهمية عن سامية في
اليوم التالي . قلت له :

- أنا رايح الشقة الدهردة ..

صباح مهللا :

- أخيراً .. امتى ح تروح .

- بعد الظهر ..

- شد حيلك .

وربت على كتفى ، وقضى وقتاً طويلاً ، وهو يشرح لى تفاصيل شقته .

الكلمات تملأفه كطعم لذيق ساجد زجاجات البيرة في التلاجة والويسكى في
البار ، والمناشف في دولاى بالممام .. ونصصنى بالآ أكثر من شرب
الويسكى .. يكفينى كإنسان .. كان قللاً ، كأنه هو الذى سيذهب لأول مرة ،
ضحكى فى سرى ، وقال وأنا أبودعه والحسرة في عيني

- أنا عملت أكثر من كده بكلير وتنهذ ثم قال في عصبية .

- روح .. بلاش ! أخرك لما ترجع أبقي احكى لك

فتحت الباب ، فقابلنى بيت معتم أثاثه ضخم وقور ، ستائره وجدرانه
خضراء . ذهبت إلى التلاجة وأخرجت زجاجة بيرة ، وفتحت البار وأخرجت
زجاجة لويسكى .. وأعددت كأسين وملأت أحدهما بالبيرة ، وصيبت
الويسكى في الآخر ، وذهبت إلى حجرة النوم ، ونزعت الغطاء عن السرير
ورقدت عليه وتعمغت ، كنت أشعر انى فقدت عقلى ، ما هذا الذى أفعله أنا
لا أصدق نفسى ، هل حدث هذا لأحد في الدنيا غيرى ، هذه هى أول مرة في
التاريخ يذهب فيه شاب إلى حرسونية ليتظاهر بانه قضى وقتاً مثيراً مع

مناة

رسى شاد .

شاد إلى درجة أن أحداً لم يصدق شذوى ..

لا أقل من أن أجعلها تحترمنى ، وتشعر برهبة نحوى ، مثل ما أشعر به
من رهبة تحوجسها .

ماذا قلت لها ؟

لا أذكر . كل ما أذكره أن تياراً داغماً من الكلمات خرج من قلبي ، حدثتها
عن الوحدة ، وعن حاجتى إلى الجنان ، وعن ضياعى وحيرتى في هذه الدنيا .
قلت لها كلاماً غريباً والدموع توشك أن تتفرق في عيني ، وانفاسى صاعدة
هابطة حارقة .. كنت أتكلم وكأنى وحدى ، كنت بارعاً في تمثيل انتظامى باني
وحدى ، مع أن كل ثرة في جسدى تشعرنى بأننا قريبة منى ..

يرمها حقت ما أريد ، أرهبتها كلماتى ، ألحقتها حرارتى فضاعت الشقاوة
من عينيها ، وتحول صوتها للروح إلى صوت هامس حائر وكأنها كبرت أعواماً
خلال اللحظات التى قضيناها معا .. ورضيت عن نفسى وتركبتها مع مدحت
وقد قررت ألا اتصل بها مرة أخرى .. لست واثقاً انى أستطيع تمثيل الدور
بنجاح مرتين .

وجريت إلى محمد ناجى ، لأفرغ كل ما عندى من كبت ، اخترعت له
مانميت أن يكون بينى وبين سامية ، الحب الذى جرفنا لى النادى الأمل
القبائل الخاطفة التى تبادلناها ، العين التى والبنتا في جزع وقضب ..
الفضيحة التى ملأت النادى .. كنت أتكلم وعل وجهى قناع البراءة وكان
محمد ناجى سعيداً وهو ينصت لى ، وعل شفثيه سخرية خفية ..

سألنى ..

- ويعدين ..

- ويعدين إيه ؟

- رحت معاهما للشقة ..

- لا ..

فأبدي امتعاضه ..

- ده كلام فارغ .. يعنى تشعلها وتسيبها لأنور .. الحب على طريقة قيس
وليلى بطلوه يا استاذ .

عندى الشقة والفتاح وعدى الفتاة التى أستطيع أن أغارلها وأدعوها ..
وعندى الرضفة .. ثم لا أسمع سوى هذا الجنون .. ماهو ذلك الشيء الغريب
الذى يسيطر على ولا أهمه .. لماذا أدعو سامية إلى هنا .. لماذا لا أدعوا لى
فتاة أخرى .. فرقد إلى جوارى على هذا السرير .. أعلمها كما يعامل الرجال
النساء .. لو تجيىء سامية .. لو كنت أنا محمد نلحى ..
لا .. لن أبدو ضعيفا أمام سامية .. سأطرد ذلك الرجل المترفع المثالى .. لن
أدعوها .. ولكن ما يكون ..

أفرغت نصف البيرة فى جوارى .. ونصفها فى البالوعة .. وتركت بقية من
الويسكى فى الكأس .. وبللت منشفة .. وخرجت من الشقة سعيدا بالمغامرة
التي ارتكبتها ولم ارتكبها ..

فكرت فى الذهاب إلى محمد ناجى لأرى له خيالى ، ولكنى شعرت بالإرهاق
فذهبت إلى البسيرون .. كانت مدام روز تستقبل بعض صديقاتها ، وأرادت
أن تقدم لى كأسا من النبيذ ، ولكنى فزغت ، ذكرونى النبيذ ، بالضر الذى
سكبته فى البالوعة ، أريد الانزواء فى حجرتى ، هاربا من كل شيء
أظفقت بلب حجرتى ، وبحثت عن كتاب أقرأه ، كل الكتب سخيفة
بلا طعم ، حتى روايات توليوق الحكيم .

عثرت على كتاب فلسفة ، فتحت وعذبت نفسى بمحاولة قراءة سطوره
الغامضة .

لا أفرى ما الذى جعلنى أذكر مبروكه ، لقد وعدتها أن أقاليلها هذا
الصباح ، ونسيت ، أتردى حلابسى وأذهب إليها الآن ، ترى ما الذى تقوله
عنى ، هربت منها .. تكبرت عليها .. هه .. ليس فى هذا جديد .. ربما كان هذا
أفضل ، كفىنى ما أنا فيه ..

فى الصباح قال لى عامل التليفون إن مبروكه سألت عنى أكثر من مرة ،
فغضبت ، إنها الحوجة دنيئة ، صحت فيه أنى لا أريد الاتصال بها ، ثم خطر
لى أنها قد تكرر زيارتها للأيام ، فأتصلت بعيدة الستار أعتدى موظف
الاستعلامات ، وطلبت منه أن يطردها إذا جاءت ..

على الرغم من مشاكل النفسية كنت أبذل جهدا مضاعفا فى عملى فلا يمر
الصباح حتى أتصل بكل الفنانين والفنانات ، كل واحد أو واحدة يروى لى
فضائح الآخرين .. وفى هذا الصباح بالذات كنت وراء أخيلر أتوروسامية ..
ماذا تم بينهما بالأمس ..

سألت المخرج حلمى كامل :

- أتور كان فى إمبرارح يا حلمى ؟

- ليه .. أنت سمعت حادثة ..

- يقولوا إنه واقع فى بت كومبارس ..

هتف .

- أنت ح قلب عنى .. ماكان على إيدك الكلام ده ..

- سمعت أنه إمبرارح كان معاه .

- يمكن .

- ماالكش حاجة ؟

- لا .. ماشفتوش ..

ثم سألتنى فى قلق :

- أنت عايز تعمل إيه ؟

- خايف لا يتجوزها ويفوتنى الخير ..

ضحك ضحكة عريضة وصاح ساخرا :

- إيه .. يتجوزها .. هو ده معقول .. أتور موش عبيط ..

- واليبت موش عبيطة ..

- أبدا واھ .. دى غلبانة .. وصعيان عنى حالها ..

استرحت لكلام حلمى ، ليتنى أستطيع أن أصدق .. ليتنى أستطيع أن

أصدق سامية وهى تتحدث عن صاحبها إلى الحنان ..

لوكانت غلبانة كما يقول حلمى .. ففى فى خطر ، بل هى كانت بالأمس فى

خطر ، لقد سألتنى عن الحنان لأنها فى حاجة نائسة إليه ، كنت تبحث نائسة

عنه قبل أن تقايل أتور .. أعلمها ظننت أنى أستطيع مساعدتها ..

إني غيبي

لم أفكر إلا في نفسي ، لم أقل لها شيئاً يساعدها على الصمود ، لو كنت أعلم ..

ماذا جرى لي - إني أفكر .. كما لو كنت أصها .. يجب أن أعرف ما حدث لها بالأمس ..

واتصلت بأبوي ..

- هيه .. عملت إيه مع سامية ..

- قصدك إيه ؟

- أنت موش قلت لي إنك ح تسهر معانا ليلة امبارح .

قال لي غير أكرات

- يا شيخ أنا كنت باهزر ..

- بدمتكم ؟ ..

قال لي استنكار .

- إيه اللي بدمتي .. ودي مين كمان عشان أجري وراها .. بنت جريوة ..

ماتسواش نكله ..

- غريبه !!

- إيه اللي غريب يا أستاذ .. دي بنت نعمات .. فاضي أنا للحاجات دي ..

- نعمات مين ؟

- ماتعرفاش . واحدة فاتحة بيتها للقمار .. حلمي كامل يمكس لك عنها ..

ناس غلابة . وشيلجن .. والله أنا بانتدم اللي رسلت اسمي بيها .. حاجة

تكسف .. إنما عمل إيه . الظاهر أن قلبي طيب أكثر من اللارم .. على العموم

أما سابب لكم البلد ومالتي

- رايح فين .

- مروت .. أكتب الخبر وماتمشاش الصورة والدي ..

ضحك قلبي . فرحت لأن شيئاً لم يحدث لسامية .

بقي مدحت ..

معلقة بيها . أحيوها .. أيعكر في الروح منها ولدانا لا يتزوجها إذا كلن يحيها فعلاً

إن أفكارك غريبة يا يوسف ، تقول انفسك إنك لن ترى سامية ، ثم تفكر فيها والغيرة تنكلك . تفكر فيها بإصرار والحاح .. كي صريحا مع نفسك ..

والذي تريده بالصيغ منها ..

لا أدري .. لا أدري .

واتصلت بمدحت ، وأعلمته بأبي سألوه في بيته ..

سألته كالمحوم :

- إيه حكايته مع سامية ؟

ضحك في بلاهة وقال

- إيه رأيك أنت موش بت لأبذة .

- بتحبها ؟

- يعني ..

- حرام عليك دي غلبانة ..

كان صوتي يحمل أكثر من القلق .. كان ملمعاً بالاتهام ..

نظر لي في دهشة وسأل

- عايزني أعمل إيه ..

- لو كنت بتحبها اتجوزها ..

ضالقت عيناه في خبث وهمس :

- هيه اللي قالتك كده ؟

- لا ..

- أنا شايفها بتكلمك في الزادى .

- ما جيتاش سيرتك

لم يصدقني . وسألني

- تتجوزها أنت ..

- لو ياحبها اتجوزها

.. إزاي تقول لي كلام زي كده .. انت عارف دى بنت مع .. دول جيراننا
وامها سمعتها في الإحثة رى الزمت .. اسأل إسماعيل .. اسأل عم عثمان ..
انا صايدها من الشوارع ..

قلت في ضيق :

.. خلاص .. سيك في الموضوع ده ..

قال في إصرار :

.. لا .. انا متأكد انها كلمتك .. ودى حاجة خطيرة .. دول ناس غجر
ونصابين .. مين عارف .. يمكن دى خطة من امها .. ويكرة نتيجة تكلم ماما ..
والا بابا ..

ثم قال بصوت خفي :

.. انا ح اقطع صلتى بيها ..

واعتصم ..

لم يعنى ، سوى ان صلاتها تنقطع بكل من تعرفهم .

وصاح مدحت في غيظ .. وهو يلاحظ ابتسامة هادئة على وجهي :

.. ترضى إنيك تتجوز ..

والتع كلامه ، وظهر الارتباك عليه ..

أدركت ما طاف برأسه ، فجعله يعدل عن السؤال ، لقد تذكر أبى الذى

تزوج مبروكة .. فقطع سؤاله حتى لا يهرحنى ..

وارتبك أنا أيضا ..

وأضيت بقية اليوم ، والأفكار تراودنى ، إني مندفع إلى حب سامية .
رغم كل ماسمته عنده وعن أمها ، اندفع إلى حبها غير مكرث بشيء ،
لا يعيننى سوى أنها تطلب الحنان .. وأنا أطلب الحنان .. هى وحيدة ضعيفة
تتظاهر بجمالها القوي ، وأنا وحيد ضعيف انتظاري أنى صحفى كبير .. هى
تحل من أمها ، وأنا أخجل من أبى . كلانا متشابهان .. لو كنت عاتلاً

لقررت منها كما قررت من مبروكة ..

سامية ومبروكة وأنا ..

لواجتماعنا ليكننا على انفسنا . إنا صائعون في هذه الدنيا . كل واحد منا

يتظاهر ويتكلم .. لا .. سأتركك ياسامية .. لن أنص بك .. رغم أنى يريد أن

أحبك .. رغم أنى أعلم أنك لن تحصل على الحنان الذى تطلبينه إلا من شخص

مثلى يفقد الحنان ويشعر بأهميته

ولكن لا وقت للحنان إني سيصعبا . سيدلنا ويحمد حماسا

لنكتسب ونظل فقراء تعساء .. لاند أن نحمد الرفقات .. ولا نسمح لها بأن

تصفقنا ..

اقتسم شوقى مكتبى صباح يوم ول عيني ثورة . وهمس في انفسى .

.. مبروكة تحت عايضة تشوكله .

.. من قالك ؟

.. هيه .. كلمتها ..

أغمضت عيني فزعاً .. هذا لوق احتمال . وقتت في عناد :

.. أنا مش عايز أشوفها ..

.. عيب يا يوسف ..

صحت ، محاولاً أن أبدر بكلمة حائز

.. موش عايز أشوفها بأخى .. حد شريكى ..

خيل إني أن شوقى يتلذذ من رؤيتى في هذه الحال ، ويتنقم من تجاهلى له في

الأسابيع الأخيرة . لقد رأتى يتفصل عنه واقترب من محمد ناجى وهامو

ذا يجذبني يريد أن ينحدر في إلى مبروكة . قال في الحاح مرهق :

لأزحم مساعدما .

بأقولك لا .

كنت أصرخ كالجنون ..

.. ولما تعمل لك قضية ..

.. تعمل ..

ولكني تراحت خائفاً مما قد يحدث . فقلت متوسلاً :

- افهمنى يا شوقى هيه فاكدة إن لها فى الحكومة معاش وتصدياتها ميت مرة تروح البلد .. مويش عايزه .. ويتدور على المعاش .. وفى الحقيقة مفيش معاش .. نقول لها كده .. ما بتصدقش .. أعمل إيه يس . ما بتهمش .

صوب إلى نظرة فاسية . وقال من بين أسنانه فى حقد غريب

- أنت وأطى
همست فى ألم
- الله يسامحك ..

وتركنى وخرج .. وتوَقَّعت أن اسمع عن مبروكة .. أسمع صراخها يدوى فى البناء ، وأراها تقتحم الحجر ، وخفت ، فنهضت لاطل عليها من النافذة .

رايتها تتحدث مع شوقى وتسير معه فى الطريق

قبل أن تخفى كنت أرى سامية مكانها ، كأنها هى التى تسير هناك فى نهاية الطريق ..

إلى أين تذهب سامية .. ما مصرها .

إلى أين تذهب مبروكة .. ما مصرها ..

لن أثقل رأسى بالتفكير . كل ما أعلمه انى صامد هنا .. مصرى هنا .. فى المساء ، جاء شوقى يعتذر

- أنا أسف يا يوسف ..

أطارت برأسى ولم أقل شيئاً . لبتة لا يسالحنى .. هذه هى فرصتى لأتخلص منه .

ضحك قائلاً :

- حقتك على .. أنا غلطت

تقابلت عيوننا ، فاضطرت إلى الابتسام .. هذه البسمة اللعينة نقلت بالرغم منى .. تذكرنى بأتى طيب .. ساذج .

قلت

- معلش

- على العموم أنا ح اريحها لك .. أنا عارف ظروفك .

سألت فى قلق -

- قصدك إيه ؟؟

قال متردداً

- يعنى فلوسك على فذك ..

أهذه حقيقة ما تعرفه عنى .. أم أنت تتعابى .. طرونى اسى اضحل منها ،

إنى لا أريد أن يعرف محمد ناجى شيئاً منها .. إنها تلوث صورتى . تلطخ أحلامى .. هى وأنت وكل من عرف حياتى الماضية يجب أن يذهب . يتعد ..

ليفسح لى المجال .. إنى أرسم صورة يوسف العنتيم .. وأنتم تشوهن الصورة ..

جمعته يقول ..

- يمكن الاقى لها شقة على قدها فى بوابة المتولى ..

- عندك ..

- ايوه .. إيه رأيك .

- لا رأى لى .. لإنها لا شىء ..

- ما عنديش رأى ..

- يعنى موافق ..

- تعمل اللي هيه عايزاه

حاول أن يتكلم بهرارة .. يريد أن يعيد الذى لقدسه ..

- أنت ح تسهر فى الليلة دى .

- هنا ..

- ماتيجى معايا الاستوديو ..

- مشغول ..

- أنا عايز أصالحك ..

- خلاص اتصالحنا ..

نظر إلى ل مروه مفاجيء . وقال :

- طيب أنا ماشي . سعيدة ..

- سعيدة

أحسست وهو يخرج من لحجرة بنفس الشعور الذي انتابني وأنا خارج
من بيتي عصبيا بلا عودة صباح ذلك اليوم الذي تزوج فيه أبي من
مروكة

الفصل الثامن

وشهدي باشا

حان الوقت الذي اذكرك فيه يا باشا ، فانت نقطة التحول في حياتي ، أنت
الفصل الحاسم بين طفولتي وسذاجتي ، ومكرى البسيط وبين هذه الحياة
التي أعرفها الآن بكل ما فيها من لسرة وعنف وجراة وطفيان ومكر معقد ..
نعم .. شهدي باشا كان مدرستي الحقيقية التي جعلت مني ما أنا عليه
الآن .. ولكن لا انكر أنني دخلت المدرسة وأنا مستعد ، فتقبلت تعليمها
بلا دهشة .. بلا خوف .. بل تقبلتها متحدياً مصمماً على التفوق .
ما أعجب تلك الايام ، كنت أكثر شباباً وأكثر حيوية ، وكنت قد اقتنعت
نفسى بأنني قد اكتشفت طريق النجاح ، وإن كنت لا أعرف بعد كيف أخوض
فيه ، وأشك في قدرتي ، وينتابني الشريد أحياناً ، والجزع أحياناً الجزع
من الفشل

كانت ثقة محمد ناجي بي ، تزداد يوماً بعد يوم ، فتزداد مسئولياتي ،
ويطلعني أكثر فأكثر على أسرار عمله ، وكان أهم هذه الأسرار تنفيذ أوامر
شهدي باشا ونشر الأخبار التي يرضى عنها ، ومنع الأخبار التي تمنع
وكلفني محمد ناجي بأن أتولى بنفسى مراجعة الجريدة ، وإطلاعاً في الحال
على كل خبر يمس شهدي باشا من قريب أو بعيد ، ليراجعه قبل نشره . حتى
صور الباشا ، كان يراجعها محمد ناجي بنفسه ولا ينشر إلا الصورة
الواقعية ، ويمنع أى صورة للباشا وهو مع سيدة إلا إذا كان في مرتبة روحه

سفير أو مرتبة أرقى من ذلك وكان يسمح أحياناً بتشعر صور الباشا مع
حصانه العائلي في السباق أو هو يتفرج على مباراة لكرة القدم في نادي الرياضة
الذي يرأسه لأن هذه الصور شعبية . وتقرب الباشا من قلوب القراء ..

وكان محمد نحيي يقول لي بين يوم وآخر

- أما عزيز أعرفك بشهيدى باشا .. أنا باعتدك واحد من المسؤولين في
الجنتل .. ولأزم صلتك بالباشا تقى كويسة .

وكنيت أفرح .. وأسأله في بلاهة

- امتسى ؟

فينظر إلى نظرة غريبة .. ويقول في وجوم مفاجيء

- الفرص جاية كثير ..

وأنتظر اليوم الذي ستحين فيه الفرصة لأقابل شهيدى باشا ، للمليونير
المسيطر علينا .. وتمر الأيام ، ولا تجيء الفرصة ، وينسى محمد ناجي
ما قاله .. حتى خيل لي أنه لا يعنى حقيقة ما يقول ..

وفي خلال شهر ، اكتشفت أن أغلب ما تنشره جريدة الأيام له صلة
بشهيدى باشا ، فلا تمر ساعة إلا وصوت محمد ناجي يهتف في التليفون

- يا يوسف خذ بالك من أخبار البورصة ..

- يا يوسف خذ بالك من أخبار وزير المالية .. أتت عارف أنه زعلان مع
الباشا .

حتى التلغرافات الخارجية ..

الباشا يبعمل صفقة مع أمريكا .. اشتر أخبار واشنطن في الصفحة
الأولى ..

حتى أخبار كرة القدم .. كما نشجع نادي الرياضة لنرضي الباشا فيذا فاز
النادي نشرنا نياً الفوز يعاونين بارزة في الصفحة الأولى .. وإذا أصيب
النادي بالهزيمة دفنا الخبر في الصفحة السابعة ..

حتى أخبار المجتمع ..

حفلت مهدي باشا وزير الأشغال بجزعها ونحيبها بدعاية ضخمة ..

- يهتس باشا صديق الباشا .. كل مقاولات وزارة الأشغال عنده .
ايقتن أن شهيدى باشا أخطبوط يمتد نعوذه إلى كل مكان ، وألح علي
التفكير في لقائى به .. وكيف يكون .. كيف أحلب أسنانه لي .. كيف أكسب
ثقتي .. كيف أبهره .

وأشعر بالحيرة

لا أظن أنه سيهتم كثيراً بأتى قريب راتبك بك ، ولا أظن أنه سيهتم
بمظهري المؤنب .. إنه قد لا يلتفت لي على الإطلاق .. من أنا بالنسبة له ..
ربما ينظر عني لورائي .. فتكون نهايتي .. الأفضل أن أبعد عنه ، وأكتفى
بصلتي بمحمد ناجي ..

وحدث ذات ليلة ، وكنيت راقداً على سريرى في البنسيون ، أن امتدت يدي
إلى مسرحية . ماجور بربرار ليزنارد شو . قلبت صفحاتها وأنا أتناوب ..
حتى وقعت عيناي على حوار غريب ، قرأته فطار النوم من عيني .

الحوار بين شاب لقيط ومليونير من تجار الحروب ، صاحب مصانع أسلحة
حربية .. وكان الشاب اللقيط يساوم للمليونير على تولي إدارة مصانعه ، ويثبت
له أنه الوحيد القادر على هذه المهمة ، لأنه سافل ..

كان الحوار لفيدياً ، شاذاً ، والاثنان يتصارعان ويرفعان كل قناع ،
ويكتشفان عن حقيقة نفسيهما .. يسخران من الإنسانية .. من الشهامة
والبرومة .. من الخير .. من العطف على الفقراء ..

وينتهي الحوار باقتناع للمليونير أن هذا الشاب الفقير اللقيط الذي لا خلق
له ، هو الوحيد الذي يصلح لإدارة أعماله ، فمنحه الإدارة فعلاً وحرّم ابنه
الشرعي منها ، لأنه شاب مثقف .. تعلم الأخلاق الفاضلة التي لا تصلح
لإدارة الأعمال الكبيرة .

ليلتها جعلت أحلم ، مفتوح العينين ، حوار بيني وبين شهيدى باشا ..
عندما أتقابله وأختل به .. سأقول له إنى سافل وكاذب مسأصراحه بأنى بلا
لخلاق ، ولتى رجل أثنى طموح ، لا أبحث إلا عن مصالحى الخاصة .
وتخيلت شهيدى باشا ، وهو يتسم ، يبعث دخان سيجارة في وجهي ،

وعيناه تتألفان بالسعادة .. ثم يمد يده ليصافحني ، ويهتني بحرارة قائلاً
لي : أنت الرجل الذي أبحث عنه .. أنت الرجل الذي استطيع أن اعتمد
عليه . لا أحد قادر على حماية مصالحى إلا شاب أمانى بلا ضمير .. مثلك ..
وأعقد معه اتفاقاً ، كأي اتفاق بين لصين شريفيين ..

وصحكت ..

ما هذا الخيال الاحمق ، إنه خيال وائى ، خيال ملذج .. ولكنه خيال
لذيذ ..

وظل الحوار الذى تخيلته عالماً برأسى ، يراودنى ملحاً ، حتى شعرت
وكأنى أدبر جريمة ..

ويظهر أثر ذلك هنً ، عندما عاد محمد ناجى يكرى بغمته في تقديمي لشهدى
باشا يوماً ما ..

أجبت مندفعاً ..

- ح اعرفه ليه ..

قال في دهشة :

- ضروري تعرفه .. والا أنت بتتكشف زى البنات

قلت متصنعاً عدم الاكتراث :

- أبداً .. لكن أنا مالى وماله .. ده راجل مليونير . الواحد يخاف يتكلم
معاه .

ضحك وبدأ عليه الارتياح وقال بصوت فيه اطمئنان

- بالعكس .. ده راجل لطيف خالص .. وابن بلد .. ويعرف يقول النكتة .

قلت لي إصرار :

- برشه .. ماليش دعوة فيه

قلتها عامداً ، وإحساسى غامض يراودنى ، بانى كلما تمنعت ، دفعت
محمد ناجى إلى تقديمي لشهدى باشا ..

ما الذى أريده من شهدى باشا

لا أدري

ليس لي عتده طلب خاص . ولكى أريده مواجته .. أريد أن أرى هذا
الصديق وأعرفه عن قرب لأقارن بينه وبينى . وأرى الشوط الكبير الذى يجب
على أن أقطعه .

وحانت الفرصة ..

ونشرنا تصريحاً لوزير المالية لصالح صغار تجار القطر . وفاتنى ومات
محمد ناجى أن في هذا التصريح هجوماً غير مباشر على شهدى باشا بصفتة من
كبار المصدرين .

وهاج شهدى باشا .. فهاج محمد ناجى .. ورغم أن الخطأ كان خطانا ،
فقد أمر بعقاب إبراهيم متولى المحرر الذى جاء بالتصريح وخضم من مرتبة
خمس أيام ..

وتنادانى محمد ناجى وهو في قمة غضبه ، وأمرنى بأن أذهب فوراً إلى
شهدى باشا واعتذرله ، وأطلعته على خطاب بعقاب إبراهيم متولى لإهماله في
عمله . دون ذكر نوع هذا الإهمال ..

وهمس محمد ناجى وهو يضغط على آسنانه :

- لو الكلب ده سلك اتا عاقبتة ليه .. قولله فى حاجة إلا السبب
الحقيقي .. ده ولد مجرم .. يروح يبلغ الوزير ويعملنا دوشة ..

همست بدورى

حاضر

- وتروح حالاً للباشا .. وتعمل معاه حديث .. لحد المعلومات . وبعدين
هاتها نكتها سوا .

شعرت بالقرص من محمد ناجى أنه كذاب ، وبشير ، ولكى لم أشعر بالقرص
من نفسى لأنى أتخذ أوامر الكذاب الشير .. أقنعت نفسى أنى ألتفج على
الدنيا ، أشعلد أشياء سلبية ، أنا فوق كل هذا ، أنا يوسف الذى يمثل من
خلف النافذة على شارع السد ، ألتفج على أنفسى وأصحابيه وهم يطلقون
التشتائم البذيئة ويلعبون الكرة ، ثم أنا مشغول بهذا الحدث الضخم مقابلة

شهدي باشا ، لن أفكر لحظة واحدة في إبراهيم متولى ، وأنا ذاهب للقاه مليونير

استقرت في مكتب السكرتير لأكثر من ساعة . أقرب لأجانب وسيدات أتيقات يدخلون مكتب الباشا ويخرجون منه . ويدخل علينا حلاق يحمل حقيبة جلدية فيها أدواته . وفتح له السكرتير الباب في الحال فصعد الدم إلى رأسي . وقررت أن أحتج .. ولكن صوتي خرج ضعيفاً متردداً

- الباشا عروب أبنى مستنياه ..

قال السكرتير في وقاحة :

- أيوه يا أستاذ ..

ولنمت الصمت ، لم أقو على مواصلة الاحتجاج ..

ودخلت ، بعد خروج الحلاق . كان جالساً على مقعد وثري بجوار مكتب ، بالقرب من مدخلة ، وحوله أوراق متناثرة على الأرض ، وفي قدميه خفان من الصوف ، ووجهه متورد ، ورائحة الكولونيا تفوح منه . وفي عينيه ابتسامة جريئة .

قال وهو يضع يده على تليفون بالقرب منه .

- انتفضل يا أستاذ .. أقعد ..

كان واضحاً أنه لا يفكر في مصافحتي ، فجلست على مقعد خشبي بعيد حوالي المترين من مقعده الوثير ..
إزى محمد ؟

- كويس يا سعادة الباشا ..

- ايه اللي في إيدك ؟

- ده الجواب اللي بعثناه للمحرر اللي نشر الخبر ..

- وريتي

مد يده في لفه ، وأخذ الخطاب وقراه بعناية ، والابتسامة الجريئة لا تغادر عينيه ..

كان عقلي يفكر بسرعة في لاشيء ونسيت سبب محبيي ، حتى حيل إلى أن مهمتي انتهت بتسليم الخطاب ..

قال وهو بعيد إلى الخطاب

- أنت بتشتغل مع محمد ؟

- آيسوه .

ويلعت ريشي ثم استدركت قائلاً :

- يا سعادة الباشا .

- باين عليك لسه صغير ..

قالها في خسق ، فانتابني خراف مفاجئ ، وقلت لجأة وسخونة تجتاح رأسي

- موش قوى ..

ادهشني صوته .. كان ساخراً .. متعدياً ..

رفع رأسه ، وأطال النظر إلى وأشار بيده إلى مكتبه .. وقال شيئاً لم أتنبئه ..

نظرت إلى المكتب حائراً .. فرفع صوته في حدة

- الصندوق عندك .. أمه ..

رايت صندوق سيجار ، فهجمت عليه ، وقدمته له ، أخذ سيجاراً ، وأعطاني الصندوق لأعيد مكانه .

لم يقدم لي سيجاراً ، ليحتلني .. أم هذه هي عادته .. أشعر بالتحفز لمواجهة .. لن أنهار أمامه .. سادافع عن نفسي ، وليكن ما يكون .

- أنت ماين حديث ؟

- آيسوه ..

- ح تعرف تكتبه ..

- أظن كده ..

لم تعجبه إجابتي ، فبشغل بإشغال السيجار ، وهو يرقبني من خلف الدخان ، كلما التقت عيني .. وعضت في إصرار أن أحول بصرى عنه ..

- اشتعلت هناك إزاي ؟
- قلت ضاحكاً في جراحة للتحر :
- ضحكت على ناجي بك
- انتسم في برود قتل .
- اتصدق مسرحية برنارد شو .. ايعجب مي لو كاشفته بسفالتى ..
- ايتحقق ما في الكتب .. إنها معقدة .. ولكني لا أريد منه شيئاً .. كل ما يهمني الآن ، هو ألا أبدو ذليلاً أمامه ، أن أعامله بمهارة وذكاء ، أن أهاجته وأبهزه ولا أتركه يقتحمني ويهاجمني ويبهمني ..
- أنا في معركة ..
- ضحكت عليه إزاي ..
- سأواجهه بحنون ، سأصارحه بحقيقتي .. سأكشف له عن نفسي بلا خجل ..
- فهمته أني غني .. ولية اتصالات اجتماعية واسعة .. قصدتني ..
- وشغلني .. وبعدين أثبت له أنني بائس وكويس .
- وضحكت ساخراً :
- لكن .. لحد دلوقت ما يعرفني الحقيقة .
- انخرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وبدأ عليه الابتهاج ، وتوقعت أن يتخلى عن وقاره ويضحك من قلبي . ولكنه قاوم بصعوبة ليحتفظ بوقاره .
- فهمته إيه ؟ ..
- أنا المحروم والذي كان مدرس غلبان على قد حاله .. وله قرابين من بعيد .. حسن بك راتب .. فأدعيت أنه عمي .. وأمسى بأجيب أخباري منه .. لأنه زى ما سعادتك عارف .. يبقى صاحب وزير الداخلية ..
- صباح
- يعنى مصبت على محمد ؟
- رفعت صوتي :
- موش في الضغل .

- اتعلمت فين ؟
- في الحقوق ..
- نظر إني متشككاً ، فهتقت ضاحكاً
- ماياككتيش .
- قال فجأة .
- محمد ده اصله معفل .
- كنت أقول له إن محمد ناجي يحبه ، لولا أن تذكرت ما رواه لي أمور سامي عن العلاقة التي بين ناجي وزوجة شهدي بأشياء .. فعدلت عن ذكر الحب ..
- وهممت :
- على العموم أنا مدين له بكل شيء اتعلمت في الصحافة .. استأذنا كلنا من غير شك
- وأنت عايز تبقى إيه ؟
- عايز حديث من سعادتك ..
- لا .. أنا بسأل عن طموحك ..
- برضه عايز حديث من سعادتك ..
- ما عندكش طموح ..
- موش عايز أصعل غير اللي أنا باعنه دلوقت .. وبعد كده اللي يحصل يحصل ..
- قال ، وفدبت الحاررة في صوته لأول مرة
- انت ولد ذكي .. ح يبقى لك مستقبل ..
- متشكك ..
- وسألني فجأة
- عايزتني أقول لك إيه في الحديث
- قلت بمرعة :
- إن جيت للحق يا سعادة الداشا .. أنا شايف إنك تؤيد تصريح الوزير .
- وتفوته ..

سال في بيروت

ليه ؟

علشان دوشة التجار بتوع الارباب .. عندهم كبير .. ويقدرُوا يعملوا
ضحك .. مالهش لزوم في الحرايد الثانية ..

قال ملا تروند .

طيب اكتب حديث بالمعنى ده .. وخلى محمد يقرأهولى في التليفون ..
ووافقى على رأيى بسرعة ، ثم دق الجرس منادياً السكرتير ، وأمسك
بأوراقه وانشغل بها وكأنه لم أجد موجوداً في الحجرة
تراجعت في صمت ، وقيل ان اغادر الحجرة . سمعت صوته ساخراً .

اسمك ايه ؟

يوسف عبد الحميد ..

قال ضاحكاً ..

انا ح اقول لمحمد عنى النصبه اللي عملتها فيه ..

ثم اردف قائلاً وهو يطلق ضحكة عريضة كانت محبوبسة في صدره

لو رغبت ابق لوللى ..

وغازدت مكتب الإخطبوط

قابلى عبد الستار الهندى موظف الاستعلامات عند الباب الخارجى
للجريدة .. كان مضطرباً .

يا استاذ يوسف . مكتب شهيدى باشا عايزك ترجع له ثانى ..

قلت في دهشة :

انا لسه جاي من هناك ..

ايوه .. وعازيزك ضرورى .

عدت مسرعاً ، وليس عدى أدنى فكرة عن سر استدعائى ، وقابلى
السكرتير لينتحنى بي هامساً

الباشا بيقول لك .. ما تجيبش سيرة لحد .. ولا لتاجى بك .. عن الكلام
الى دار مينكم ..

كلام ايه ؟

وايه ما اعرفش . هوه قالى كده ويس ..

كان للرجل يخاطبني بلهجة مهذبة تختلف تماماً عن اللهجة الوقحة التى
قابلىني بها اول مرة ..

شعرت انى قد احزيت انتصاراً عندى شهيدى باشا .. انتصار بلا حطة ،
وبلا هدف . ايقصد شهيدى باشا ذلك الاعتراف بانى خدعت محمد ناجى ..
ايريد ان يحتفظ به سرّاً بينى وبينه .
لساذاً ..



حارلت عبثاً ان اجد اتصال بشهيدى باشا .. تلقيت إجابات مختلفة .
الباشا غير موجود يا استاذ يوسف .. الباشا سافر اسكندرية .. الباشا في
اجتماع .. إجابات مختلفة ، والنتيجة واحدة .. لقد فقدت اتصال بشهيدى
باشا حتى بعد نثر الحديث ، ذهبت إلى مكتبه وقد اعتزمت أن أراقده بجواربائه
حتى يجىء .. ولكنه كان قد سافر إلى بيروت في رحلة مفاجئة تستغرق يومين ..
وأصبحت قلقاً ، انسىني شهيدى باشا ؟ أقال شيئاً لمحمد ناجى ؟ وزاد من
قلقى انى عرفت من محمد ناجى أنه اتصل به أكثر من مرة ، هو الذى أخبرنى
أن الباشا قرأ الحديث وأبدى ارتياحه له ، وهناه عليه ..

سألت في ضيق وأكثر من خاطر يقلقنى :

قاله ايه عنى ؟!

ايستم محمد ناجى وأجاب ..

ولا حاجة ...

ايخفى عنى شيئاً ، أيدبرلى أمراً ، لا فائدة من هذه الأسئلة إنها تريدنى
حيرة وقلقاً ، استولى على شعورى بالدب أى حماقة دوعتنى إلى السمخية من
محمد ناجى أمام شهيدى باشا .. لقد أسأت إلى نفسى دون أن اطربىء .
وها هو شهيدى باشا يتخلى عنى . أه .. كوكف رأسى عن التفكير .

كلفت سامية في تلك الأيام تتصل بي كل صباح ، وكلفت تثرثر معي في كل شيء . تعودت انتظار صوتها ، وقد أعددت حواراً طويلاً درسته بعناية ، ينتهي بأن أدعوها إلى الخروج ، ثم أذهب بها إلى شقة محمد ناجي .. إن قلبي يحدثني أن هذا سوف يحدث ، لابد أن يحدث ..

ويبقى جرس التلفون ، وأسمع صوت سامية ، لفتتني كل خطاي ويضيع من راسي الحوار الذي أعدته يستولى علي إحساس مفاجيء بأنها لا تفكر في .. وأنها تتكلم معي لمجرد أن أكتب عنها خبراً أو أنشر لها صورة ، واضطحت في عصبية ، وتحك أدبي كلماتها الرقيقة ، فأجيبها في غيابه ، وأحول الحديث إلى أخبار الاستوديو ، وأخبار الاملام التي ستعقد فيها مع حلمي كامل وأنور سلسلي .. وينتهي الحديث ، ويختفي صوتها ، وأرى أصابع التلفون الأسود ، يتهداني ويتمني بالمرز

إلى أن جاء يوم ، وطلبت من سامية أن أقابلها ، سألته في غيابه أن تزورني في الجريدة ، ولكنها رفضت وأتلفنا على أن أقابلها بعد ساعة في حديقة جددوي ..

جلست أنتظرها والأفكار تتصارع في رأسي .. كيف أتصرف .. هذه هي فرصتي لأدعوها إلى الشقة .. هل أستطيع .. إنني لم أعرف جسد المرأة حتى اليوم .. ماذا لو ارتبك ، ماذا لو فشلت .. ليس من السهل على أن أقض نفسي أمام سامية .. ولكني يجب أن أخوض الامتحان .. إن القضي بقية حياتي بغير امرأة .. لقد تغيرت ، ولم أعد ذلك الشاب المنطوي على نفسه ، الذي يقبل ويتراجع ، لو تراجع أمام سامية فسأراجع أمام محمد ناجي ، وأمام شهادي بأشأ .. سأراجع أمام الحياة كلها .. سأهبط الدرجات القليلة التي صعدتها .. سأحكم على نفسي بأن أنقل ذلك الشاب المبلذج الشلا .. وجاءت سامية ، وفي لحظات تبخرت جميع أحلامي ، كنت قد تذكرت مدحت ، وعلاقتها به ، وأهلت من لساني سؤال عن مدحت فإذا بها تهاجمني وتصيح في وجهي :

.. أنت متبهياك أني بأبصص لك ..

.. أنت فهمتيني غلط ..

.. لا .. أنا فاهمك وعارفة التي بتفكر فيه .. أنت فاكربي واحدة بتلعب .. تخرج مع أي واحد ..

طلعتني كلماتها .. تعذت إلى أمامي ، التهمة حقيقية .. عرفتني .. جربتني من كل قناع ، أنكرت و حاولت أن أندو متعاسكاً ، وفحاة انهارت هي لأمامي ، واعترفت لي اعترافاً غريباً .. أنور سامي يغازلها ويضيق عليها الضائق ..

ارتبكت في الحال أنها صابغة ، كلامها يعسرني غصب أنور عليها هذه البنت شريفة ، أشرف مما كنت أتصور ، شعرت بالراحة لآني لم أكتشف لها عن شيء مما كنت أفكر فيه ، ولكني شعرت أيضا بخيبة أمل ، لقد تأجل الامتحان ، وعلى أن أبحث عن فتاة غيرها ، قلت لسامية : إن أنور سامي لن يستطيع أن يمسها ، كنت أنكلم في حماس ، كأنني أريد أن أفتح نفسي بما أقول ..

بعد أن تركتني ، اكتشفت أني مازلت أفكر فيها ، ومضت الأيام وصورتها تلاحقني ، وفي صدري عاطفة قوية نحوها .. سألت نفسي هل أنا أوشك على الوقوع في حب سامية ، ولم أجسر على التفكير في الإجابة على هذا السؤال .. وفاجأتني محمد ناجي ذات يوم قائلاً وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة واسعة مأكرة

.. أنت عامل إيه مع سامية دلوقت ..

.. ولا حاجة ..

انتشر الفرح في وجهه وصوته ..

.. أنت عارف أصلاً اللي حصل بينها وبين أنور ..

.. أيوه ..

صوت عيني في وجهي يتقرسه ..

.. عرف أنها جات معاه البيت وجمت .. وأدرك في الحال أنني لا أعرف ..

.. ما عرفتش ..

قلت غاضباً :

صحك وهو يتلذذ بمراقبتي وقال في ثقة ..

.. أنا عندى التفاصيل ..

كف عن الكلام وانتظر أن أسأله عن هذه التفاصيل ، ولكنى صمعت على السكوت ، كان الالم يعترضنى ، فعمى يروى لى بصوت هادئ ، كيف ذهبت سامية مع أمور ، وكيف حاول الاعتداء عليها .. كانت كل كلمة تتفرس فى لحمى ..

.. انور هو الذى قالك ..

.. لا ...

.. آمال عرفت من مين ..

.. منها .. من سامية .. لابد أن شيئاً بشعا ظهر على وجهى .. علامات ياس ، أو ألم حاد .. لأنه ظل يرقبني وفى عينيه قلق ثم همس .. سامية كلمتني فى التليفون ..

.. كلمتك ..

قال فى غرور :

.. كانت بتشكيل من انور .. على العموم .. اسمع .. ما تقولهاش إنى قلت لك ..

قلت فى حدة :

.. ح اقولها ليه ..

.. انت زعلت ؟

.. لا ...

ضحك وقال

.. باين عليك زعلان .. هي ما صعلتش حاجة علط .. مسكينة .. كانت خايبة .. وشايبة لنى اقدر اساعدها .. وارفع صوته

.. طبعاً انا اقدر اساعدها أكثر منك .. يمكن ده يجرح شعورك .. انت عايز تبقى الفارس الوحيد اللي بيدافع عن حبيبته ..

صحت ..

.. هيه موش حبيبتي .. دى مجرد واحدة .. زى أى واحدة غيرها ..
.. شوق انت مفعل إزاي .. ما تنساش اسي زى أحوكم الكبير .. وأنا كان ممكن أخبي عنك

ثم سألنى بصوت جاد

.. إيه وجه اعتراضك أنها كلمتني .. خايف منى ؟

.. شعرت أنه يذلنى ، وشعرت انى ضعيف امامه .. تراجعت ..

.. لا

ابتسم وقال فى برود

.. اظن لازم تكون واثق منى ..

.. طبعاً ..

.. على أية حال أنت لازم تفرح .. اعترفت لى أنها بتحبك ..

كنت واثقاً انه يكذب ، أنه يعرف الحقيقة ويخفيها عني ، قالت له سامية كل شيء ، ليس بيننا حب ، ولم تذهب معى إلى شقته إنه يعرف انى خدعته ، ترى ما الذى يقوله عنى الآن ، ولد مراحم ، ملء بالعقد ، يدعى أنه يعرف النساء .. لماذا لا يصارحنى بما يعرف .. لماذا لا يواجهننى برأيه فى ؟
قلت فى محاولة بائسة لاتخاذ أكاذيبى

.. أنا مقلتش إن الشقة بتاعك

هيه عارفة ..

اصفر وجهى ، واستمر يقول

.. انا متأسف .. ما كاش قصدى أخرجك .. سألته عن الشقة ورأيتها فيها ..

.. قالت لى إنها انيسطت منها ..

.. انا واثق أنك تكذب ، سامية لم تذهب إلى الشقة ، أنت تخشع قصة ، أنت

تعلب عجوز ، أحس منى ، ما الذى تريده الآن ، لمست قادراً على فهم شيء ، ما
أنا إلا مبتدئ عظيم تورط فى عالم الثعالب ، يجب أن أدير خطة انسحابى قبل
أن يفترسنى محمد نأحى .

عشت فى هوان ، العار يفتأ عيني ، الخجل والارتباك يلطخان حياتى
لن يتقدنى سوى أن أستجمع شجاعتي ، وأصمم على دعوة سامية إلى
الشفقة ، أتحاول عليها ، أمكر بها ، أهددها ، أخطفها ، أغتصبها .. أفعل
المستحيل ، لأثبت أنى قادر عليها .. ولكن .. كيف .. كيف ..

اتصلت بسامية وواعدتها على اللقاء فى جروبى فى موعد الغداء .. وجعلت
أفكر كالمعموم .. حتى دق جرس التليفون ، وبسمعت محمد عامل التليفون
يهتف منفعلًا

.. مكتب سعادة شهيدى باشا طالب حضرتك
ارتفعت ..

.. الأستاذ يوسف ؟

.. أيوه يا أفندم ..

.. سعادة الباشا عايز يشوفك النهارده .. الساعة اثناسر الضهر .

.. حاضر .. أنا جاي حالاً .. وموعد سامية .. موعد كرامتى .. لا يهم .. إن
الرجل القوي يطلبنى ، الرجل الذى سقرت معه من محمد نأحى لابد أن
أذهب إليه حتى ولو غضبت سامية .. حتى ولو ماتت سامية
قابلى ضاحكاً .. السيجار متائق فى فيه ، والمرح يشع من عينيه .

.. أنت ساكت عنى يا أستاذ .

.. أيوه يا سعادة الباشا .

.. خير

.. كنت عايز أعرف رأى سعادتك فى الحديث ..

.. لم يصدقنى .. لقد مضى زمن طويل على الحديث ، قال فى وقاحة .

.. أنا كلمت محمد ..

ماذا أقول له ، لقد انتهى الحديث ما الذى أريده ، يجب أن اتكلم ولكنى
عاجز عن الكلام .

ضحك ، وقدم لى صندوق السيجار ..

.. خذ سيجار ..

مددت يدى وأخذت سيجاراً ، وهاتفا يقول لى إن الأزمة قد عبرت ، إنه هو
الذى يريد منى شيئاً .

.. هيه . مبسوط فى الشغل .

.. الحمد لله ..

.. وعامل إيه مع محمد ..

.. كويس

.. لسه ما عرفش إنك نصاب .. كان بيتشم ، فبادلته الابتسام .

.. سعادتك امرئى ما أقولش حاجة ..

تجاهل كلامى ، وقال بصوت منى بالحيوية :

.. محمد ده صديقى .. أنا أهرقه من زمان .. يمكن قول ما أنت تتولد ..

البلد ماقيش فيها اثنين زيه ..

قلبه لأزع وتحطيه بيجمبى بيشرح ويجرح .. ولا إيه رأيك .

.. مضبوط ..

.. صاح بشراسة ..

.. اتكلم بصراحة ..

.. رأى أنه استأذى .. بس .

.. بس إيه ؟

ونظر لى مشجماً ، فتعلبت على تردى وقتت :

.. يس ثقافتك ناقصة ..

.. هز رأسه فى اهتمام .

.. هيه .. اتكلم ..

.. فيه تيارات سياسية كثيرة هو ما عندوش فكرة واضحة عنها .

سألني منعلاً

.. زى إيه ؟

.. زى الشيوعية مثلاً .. دق بيده على المكتب وهتف .

.. أهوده الى أنا عايز أسمعه منك . أنا قريت في الفترة التي فاتت كل كلمة

كتبتها .. قريت تحليلك للجرايم .. بتكلم عن الظروف الاجتماعية .. عن

الفقر .. بتكلم زى واحد شيوعي .. زى الكلام اللي بقراه في منشورات

الشيوعيين وجرايدهم .

.. لكن أنا موش شيوعي ..

.. طبعاً .. وإلا ما كنتش شفقتك .

قلت بأسمي :

.. وكان زمانى في السجن .. حدق في وجهي ، ثم قال :

.. أنت موش شيوعي لأنك طموح .. ولأنك ذكي .. عايز تكبر .. وتوصل

لحاجة ..

.. باحاول ..

صاح في حماس :

.. وچ توصل .. أنت ممكن تبقى رئيس تحرير الأيام ..

بدا على وجهي الذعر .. ولكنه مضى مندفعاً في كلامه

.. إهنا عايزين دم جديد .. وأنا راجل مغامر .. يلعب قمار بطريقتي

مممكن أخلى شباب زيك يتولى إدارة أكبر شركة عندي . لو وثقت فيه .. محمد

تاجي بقدر يحارب الوفد .. يحارب السعديين .. بقدر يكتب فضايح .. بقدر

يشاكس القصر .. لكن البلد موش دول سي .. البلد فيها دلوقة شيوعيين ..

واشترأكيين .. وإخوان مسلمين .. وعاريت زرق .. ملكتاش بنسمع عنهم

قبل الحرب .. ولو سببا محمد ماضي لوحده .. ح يخسر المعركة ، منطقم

بيقع الولاد اللي في الجامعة .. أنا عايز واحد زيك يعرف يتكلم بلغتهم ..

وسكت برهة ثم قال مصوت هادى كأنه وصل إلى قرار

.. أنا عايزك تكتب في السياسة قلت بسرعة

.. موش ضروري السياسة .. أى خبر أو تحقيق صحفى ممكن يبقى له

اتجاه ضد الشيوعية . لا أكتب عن شباب كار فقير ويعدى غامر ونجح وبقي

مليونير .. ماهوده ضد الشيوعية

لمعت عيناه ، وكأنه فهم شيئاً أعجبه وقال :

.. فعلاً ، لك حق .. لكن بوضه من نفسك على الكتابة في السياسة ..

.. وإذا اعترض الأستاذ ماضي ؟ عتج معه ليقول شيئاً ، ثم سكت وسألني

.. تفكر ح يعترض ؟

.. أظن كده ..

.. على أى حال .. الكلام ده بيني وبينك .. وسيني أنا اكلم محمد تاجي ..

من غير ما تجرح شعوره

وسألني فجأة .

.. أنت تعرف شيوعيين ؟

.. أيوه ..

.. أصحابك ؟

.. كانوا أصحابي

.. وبعدين ..

.. واحد منهم بقي وكيل نيابة .. ونسى الشيوعية

صرخ :

.. أنت بتصدق أنه سي .

.. أظن كده

اسمه إيه ؟

.. سعد عبد الجواد .

.. في نيابة إيه ؟

.. الدرب الأحمر

.. قال في هياج .

.. وسأليينه في مصر كان البلد ح تروح في داهية .. دالعب عيال .

وكتب اسمه . وهو يتمم

- ده لازم يترفد . وإلا يتنقل على الأقل .

كدت أغمس يأس سعد مسكين . ولكنى خفت أن يشك في نواياي .. لزمت الصمت وإلى قلبي حزين وخوف وبهجة انتصار .

وتذكرت شوقي فكنتك أنفاسي .. لن أروح له بشيء .. باب عريض يفتح أمامي .. أننى أقوى ، أتخلص من ركوبى ، أتخلص من سذاجتى .. أى مفاجأة تنتظر بك يا نائلى .. أيها الثعلب العجوز .. إنك تتوهم أنى أبه . تتلذذ بضعمى . تذلى بأكاذيبى التى كسفتها .. ولكنى أعد لك المعاجات ..

تأخرت عن موعد سامية ولكنها كانت تنتظرنى . ذهبت بها إلى مطعم ، وأنا أشعر أنى قادر على أن أحصل منها على كل ما أريد

كنا نتحدث عندما بدرت منها مرة لسان . كنت أقول لها إن شهدى باشا أعطانى السيجار الذى أدخنه .. عندما سألتنى فجأة

- هوه شهدى باشا لسه زعلان من الخبر اللى نشرته .

كيف عرفت هذا ؟

سألتها :

- أنت قرأتى الخبر ..

ارتبكت ، وقالت فى كذب ملفوح إنها سمعت من بعض الناس إن شهدى باشا غاضب . ثم قالت إنها قرأت الخبر .. إنها لا تدري إن الخبر لا صلة به بشهدى باشا ..

أيفنت أنها على علاقة بمحمد ناجى إنها عشيقته . أنا المغفل الذى تضحك عليه . أما المغفل الذى يصحك عليه محمد ناجى .. إنها أسفل منى .. عالم قدر . كل من فيه ملوثون بالقذارة

هل أمضى فيما أفكر فيه ، وأذهب معها إلى شقة محمد ناجى ، نفس الشقة التى تعرفها واستحل سذاجتى . استحل وبهها بأتى مارلت سانجاً ..

سألتنى ونحن خارجان من المطعم . إلى أين تذهب . ترددت . إنه ليس

نفس ترددى القديم . إن ما يشغلنى الآن . هو هل الوث نفسى بقدارتها أم ابتعد ..

دعوتها إلى الشقة . فحالت

واقبتها ونحن خارجان من المصعد .. تركتها تتقدمنى ، فاحترمت إلى اليسار . دون أن تسألنى ، ودمعت عينيها إلى رقم الشقة ، ولحت على شفتيها طيف ابتسامة .

كانت تظن نفسها مأكرة ، ذكية . تتسمى بأبلة مثل . سألتها فى غيظ .

- بتضحكى على إيه ؟

قالت فجأة :

- عفشان أنت بتكذب على .. أتعترف .. أتقول لى إنها تضدعنى ..

- الشقة دى موش بتاعتك ..

- أبوه موش بتاعتى ..

- بتاعة مين بيه ؟

كانها لا تعرف ...

- واحد صاحبى .. قالت فى وقاحة امرأة هاجرة

- أنت خليف تقولى اسمه احسن أجى معاه . بذلك .

استولى على النفور . وودت لو اخفئها وعاملتها ببرود حتى ضاقت بى وخرجت . وودعتها وكأنها غريبان .

ولكن خيالى لم يتغسل من سامية . مازلت أفكر فيها ، إنها فرصتى الوحيدة لأعرف الحياة . لأتبع رجولتى . لأنتصر على نفسى كان الليل قد تأخر . وأنا وحيدى فى حجرتى . أحاول كتابة أول مقال سياسى فى حياتى . وفتح الباب . ورايت محمد ناجى واقفاً بقامته المديدة ينظر إلى نظرات طويلة شاردة .

بغير وعى . ظلمت الأوراق . ووقعت مرتكبا :

- يتعمل إيه ؟

كلن ملزال واقفاً عند الباب ..

- أه .. لقد وشيت بسعد عيد الحواد ، ولكنني مضطر إلى أن أشي
بشوقى . إنه يهددنى ، سيقول لشهيدى ياأشا إننى صديق شوقى
الشيوخى .. سيرتاب شهيدى ياأشا لأنى أحقيت عنه اسم شوقى .
ابتسم محمد تاحى وقال فى حسان الثعلب :
- ما تيجى معاى .. كفاية سهر عليك ..
- متشكر . أنا تعبان
- طيب تعال أوصلك ..
يريد أن يتأكد أنى لن أواصل كتابة المقال ..
ركبت معه ، وعدت إلى البنسيون وجدت ورقة تنتظرنى فى حجرتى .
عزيزى يوسف ..

جئت لأزورك فلم أجذك .. سأسافر غدا صياحا إلى سوهاج امر النائب
العام بنقل فجأة ، لا أدرى السبب ، حاول الاتصال بأى شخص تعرفه لأقهم
ما حدث .. سأرسل لك خطاباً مطولاً .. قبلاتى .. والله وحشتنى
يا يوسف ..

أخوك

سعد عبد الجواد

- ولا حاجة
أعلق الباب وتقدم خطوة ، وسألتنى فى هدوء مريب :
- أنت شعت شهيدى داشا ؟
- أيوه
- هبة حاجة ؟
- أبدا .. قدم لى سيجاراً ..
كان شيئاً ما يدور فى رأسه ، ضحك فجأة وقال بصوت ناعم :
- أنا عايز توطد علاقتك بيه
قلت فى غير اكتراث
- هره فاضى ..
قال فى حدة مفاجئة :
- اسمع كلامى .. انت قدامك فرصة كبيرة ..
كان قد وصل إلى مكتبى ، ومد يده وأمسك بالأوراق ، وقرا بعض
النسور ، ثم وضع الأوراق ، وأطرق برأسه . وقال فى ارتباك :
- يا ابنى فيه حكاية سفيلة عايز اكلمك فيها .. الموظفون يتكلم . التست
الى بتيجى الجرنال وشايله على كتفها عيل بتقول إنه أخوك ..
كان شيء ساخن يحرقنى ، نهفت فى ألم
- أيوه .. دى مرأة ابويا ..
رفع رأسه فى كبرياء ، كأنه سيد يخاطب خادمه ..
- أنا عارف كل حاجة .. عارف أنها مع شوقى .
لا أذكر ماذا قلت ، ولكنى أدركت أنه أعلن الحرب على . يريد أن
يفضسنى ، يريد أن يقضى عنى .

سمعته يقول

- أرهد شوقى .
- ما أقدرش ..
- الولد ده شيوخى

قررت ألف مرة أن أترك سامية لحالها ، ولكنى كنت أعود لها ، مدفوعاً بأسباب مقضارية ، كنت أقتنع بنفسي أحياناً بأنه يكفى أن تكون بيننا صداقة .. صداقة بريئة تختلف عن صداقاتها بالآخرين .. لماذا لا تكون أنا الرجل المحترم المهذب في حياتها ، إننى أستطيع أن ألعب هذا الدور بمهارة وأتقن ، وقلوبى يمدننى إننى أستطيع أن أصل بعد ذلك إليها .. ولكنى أفتقد حميرى ، وأتعجل العلاقة بيننا ، إذ تنسرب إلى تلك الرغبة المضمومة التى أكتبتها الرغبة في المرأة سواء كانت سامية أو غيرها .. وأنسى التفكير عن الصداقة والاحترام والتصرفات المهذبة ، وأتهم نفسي بالغباء ، وأندفع في التفكير في سامية كحسد ، أتحين كل تفاصيله وأعيث به في خيالى وألوم نفسي لأننى أضيع وقتاً كبيراً وأنا أتردد فيما يجب ألا أتردد فيه ..

كنت تصرفاتى عجيبة ، ومشاعرى مضطربة ، أقابل سامية كل يوم تقريباً ، ونذهب معاً إلى السينما ونتردد على المطاعم ، ونعيش في الشوارع ، ونتكلم ونثرثر ولا نمر لحظة .. إلا وأنا أعانى من التقلب العنيف الذى يحدث في داخلى .. رغبة في جسدها ، ثم محاولة ليهرب من هذه الرغبة والتفكير في استمرار الصداقة البريئة بيننا

كنا نصير في الشارع ، عرفت أمام فتيرة للأحذية

.. أنا عايزه أشترى لك جزمة غير اللى أنت لابسها ..



ما هي دي كويسة .

صااحت محتجة

- اعوذ بالله . لانا ما احبش الناس المبهدلين .

قلت مدعنا .

- حاضر اجيب الجزمة .

- معاك فلوس دلوقت ..

.. لا .

فنفطرت إلى جذائى من جديد . وهمسست وهي تمط شففتها :

- هل العموم الجزمة بتاعتك موش وحشة قوى . بتقدر تستنى لاول

الشهر .. احسست اننا اصدقاء . كزيميلين فى الجامعة لا تربطنا إلا حريتنا .

وربغيتنا فى التسكع معا فى الشوارع . ومشاهدة الأفلام معا . وقدرتينا على أن

نتبادل الحديث . ونحتد . ونحتج . وننتقد هي ملابس . وأدافع عن نفسى .

وأهاجمها .. كأي صديق .. مجرد صديقين .

وتركنا فترينة الأحذية . وتكلمنا خطوتين . والتفت إلى وعيناها

ضاحكتان ..

- شايف البنت الملى لايسة طرطور احمر ..

شعرت أن عينيها تنفذان إلى قلبى . وتتركزان الرغبة المكبوتة فى

أحشائى .. إنها جميلة . فانتة لى أضعها إلى صدرى . لو اتعرف على

جسدها ..

- سامية .. ما تيجى نروح الشقة ..

- ح نعمل إيه هناك .

- نفعد نتكلم .. ونستريح شوية ..

هرزت رأسها فى دلال وقالت :

.. لا .. أنا أحب أمشى فى الشوارع .. أحب أشوف الناس .. والناس

تشوفنى .

- عايز أفواك حاجة مهمة

- ما تقولها هنا ...

- خايفة تيجى ..

- قائل ضاحكة .

ح أخلف من إيه .. ما إحنا روحنا قبل كده ..

كنت قد توسلت إليها أكثر من مرة أن تذهب إلى الشقة . وكانت ترفض .

وكان رفضها يدفعنى إلى اليأس . وإلى التشبث بالطلب . إياها ترفض لأنها

تخشى ما قد يحدث .. لأنها تعرف أننا لو ذهبنا إلى الشقة فسيحدث ما يجب

أن يحدث ..

- طيب ياللا نروح ..

ووافقت

فى الطريق إلى الشقة . تمازعتنى المشاعر . لم أعد أدرى هل أنا أحبها أم

أحتقرها . سأصمم على الحصول عليها . أم سأعاملها فى برود . كنت ذاهباً إلى

الشقة . لاكتشف حقيقة ما فى داخل . لأعرف بالسيط . نهاية هذا

الاضطراب الذى أعانى منه ..

جلسنا على مقعدين متقابلين . وجاهدت حتى خرجت الكلمات من فمى .

اعترفت لها بحبى . توافقت الكلمات . وأنا أعجب من نفسى . من أين جاءت

هذه الكلمات . إنها تخرج حارة مرتعشة . أهى كلمات صادقة . هل أحبها

حقاً . أم أنا أصنع الوهم الذى يقنعها ويقنعنى لئلا تتركى لى .

ما هي تنصت إلى ساعمة شاحبة الوجه . ونحن فى شقة مغلقة علينا .

وجسدها على امتداد ذراعى . وستأتى للحظة التى أكف فيها عن الكلام . فما

الذى أصنعه بعد ذلك . كيف أقدم على الخطوة الأولى . أتهدس وأقترب منها .

وأقبلها . أترضى . ألا تدفعنى ببديها . ألا تصرخ . أنتسسلم .. ولو

استسلمت . لوتركتنى أضعها إلى وأقبلها . كيف يتصرف العاشق فى مثل هذا

الموقف . أفك أزرار فستانها . أخلع ملابسى كل هذا غريب بالنسبة لى . شيء

عسير .. أشعر بإضطراب فى بطنى . أمعائى تتلوى . وحلقى يجف .. ليس

أمامى سوى أن أستمتر فى الكلام . أمدف أكثر وأكثر فى الاعتراف بحبى .

١٤ - لو اكف عن الكلام .. وأبدأ الفعل ..

تحركت هي مهلع قلبي ، تقدمت من الراديو ، وعيبت بمفاتحه ، تبحث عن محطة ، أدركت أنها قلقة ، كنت وانقأ أن اعتراض لم يفلحها ، ولكنك وضعها في موقف جديد محم ..

ليتني لم أطلب منها المجيء إلى هنا .. إن الأحلام اللذيذة قد ضاعت ، ولم تبقى إلا هذه اللحظات الطويلة القاسية . كل لحظة تمر كأنها عذاب لا نهاية له .

رفعت إلى عينين طاغيتين ، فيها دلع ، جعلهما قاهر ، يشع منهما نوم جرى .

- روح تعمل إبيه دلوقت ؟

صمت .. لم أفهم ما الذي تعنيه ..

سألتني فجأة :

- موش عايز تيوسنى ؟

اكتشفت أنني وأهم ، كل مغاوري لا تعني إلا أنني أبلة ، إنها ليست في مواقف جديد ، ولا موقف صريح ، إنها تعلم جيداً ما يجب أن يحدث في هذه المناسبات ، وتتجملني .

استجمعت كل ما في رأسي من مشاهد السينما ، والحكايات التي سمعتها من الطلبة في المدرسة والجامعة . استجمعت كل الصور التي طافت بخيالي عن الحب ، وطردت مغاوري ، وأندفعت نحوها لأقبلها ارتطم وجهي بوجهها ، وبحث شفتاي عن شفتيها ، شعرت بلمس جديد ، دخلت أنفاسها في أنفاسي .. شععت رائحة عطرها ممزوجة برائحة بشرتها .. انتعشت شفتاي .. وابتهج جسدي ، سرت فيه النشوة ، تختلف تماماً عن كل ما تخيلته طوال سني ومراهقتي .. تختلف تماماً عما شعرت به وأنا أختلس القبلات مع صعاد ..

دفعتنني بيدها ، وظهرت على وجهها مسحة وقار ، أعذا هو كل شيء .. لم هي تمنع لأنها يحب أن تفعل هذا ، إنه الدلال الذي سمعت عنه ، يتمنن

وهن للراغبات - لابد أن أوصل ما بداته .. ولكنها فتحت فمها وسألتني بصوت جاد الزمني مكاني :

- فيه حد يعرف أننا بنحب بعض ؟

إنها خالقة من محمد ناجي ، لا تريد أن يعرف ما تفعله معي ، هذه هي تصرفات كل مثيلاتها لا مانع عندها أن تعرف عشرة رجال ، عشرين رجلاً ، ولكنها تحاول أن تؤكد لكل واحد منهم أنها له وحده ، لا تريد مني أن أبوح بالمر للآخرين .. تريد أن تظل خريفة بريئة معنا جميعاً .. ليكن .. لا يهمني هذا الآن .. كل ما أريده هوأت .. جسدك .. وسأصرف بكاءه .. لن أجعلك تشعرين بأن هذه هي أولي تجاربي .. سأوهبك بأن ترددي ، هو هدم اندفاع .. هو انزاع الرجل الذي يعرف الكثير ..

قلت هامساً :

- مايفش حد يعرف ..

إذا كنت قلت لحد .. فوالى ..

مممكنة ، أهي خائفة إلى هذا الحد ، لن أقول لأحد ، الشمن بسيط .. ماكنت سأحصل على كل شيء .

سألتني فجأة :

- محمد ناجي يعرف ؟

- الغيبة ، كانت تستطيع أن توفر هل نفسها هذا السؤال ، لا داعي لأن تستمر في خداعي ، واستمر في خداعي ، فلننتجأ كل شيء ، ولننفض في قبلاتنا ..

أجبتني با ضيق ، وقد استغزني شأوها :

- بيشك ..

- أرجوك ماتقولشي ..

- حاضر ..

- حتى الشقة دي بلاش ..

إنها تضع شروطها قبل أن تخلص ملابسها ، سأقبل كل الشروط ، لقد فقدت

دكاهما ، ليست ذكية على الإطلاق ، إنها جسد جميل غيبي ، جسد لقيذ ، إني
أهمهم ما يدور في رأسك ، سارزنيك ، إن أثير لك المشاكل ..
قلت ساحراً

- حاصر

وهيمت بها مدقعتني مرة أخرى ، لتضع شرطاً آخر ، طلبت مني أن أبحث
لها عن شقة جديدة ، موعدتها في الحال ، وأنا أكنب لن أصبح وقتي في جدل
عقيم ، ولكني لن أصبح نقودي عليها ، أبلغت بها الجماعة أن تطلب مني
تأنيث شقة كاملة لها ، لها وحدها ، اتفنن إني سأتزوجها ، أم هي تطلب
لمجرد الطلب ، ليجرد أن تراني أبهر نقودي في للهواء بلا حساب ، ومن أجل
مزاجها الخاص ، سأرواها ، حتى أحصل على ما أريد .. هنا .. في هذه
الشقة ..

أردت أن أقبلها ، ولكنها تمنعت

- روح أقعد مكانك .. خليك عاقل ..

أيقنت أنها تثعب بي ، وبدأ الغضب يتمو في صدري ، وسألتني عن حبي
القديم

- الحكاية دي خلصت ..

قالت فجأة :

- إن ما كنتش تقولي .. مش أح أقول لك أنا كمان ،

وضعت في غير أكثرات .. كانها تتحداني .. وقالت إنها أحببت رجلاً
غيري ..

من الذي تعنيه .. محمد ناجي .. أنور سامي ..

قلت متعاباً ،

قصداً مدحت

لا واحد تاني ..

شعرت بمغور كبير نحوها ، ورحمت بهذا المغور ، إنه يتقنني من الخفي في
أهمة العسيرة التي لا أعرف كيف أمضى فيها ..

- إن ما كنتش ح لضر بك .

بدأ طيها الذعر ، صرخت ، وانفجر الكلام العاصب يملأ أدنى ويملا
الشقة ، خيل لي أن كل شيء قد هدم ، ففراحت واعتذرت ، فقامت ، وجاءت
تقبلني .. ثم أسرع إلى الباب ، وخرجنا من الشقة ..

كنت وأنا أن محمد ناجي لن يعرف شيئاً مما حدث بيننا فلما سألني
عنها ، ادعيت أننا قد تشاجرنا ، وأبدى أسفه ، ولكن السرور كان يفصح في
صوته وعينيته .. وبعد أيام ، دعاني محمد ناجي مع سامية لحضور حفل
ساهر في بيته ، وقال إنه أقام هذا الحفل من أجلنا ، لم أصدق له ولكن لم يكن
هناك مقر من الحضور ، قابلنا محمد ناجي في بيته وهو في قمة ذاقه ، كنا
مبهكين ، فدعانا إلى البار وقدم لنا المارتيني ثم بدأ يهاجمني ، قال لسامية إني
نصاب ، أعجبني وصفه لي ..

- يوسف ده إنسان موش حقيقي . مؤذبة زيادة عن اللزوم صريح زيادة
عن اللزوم . عاطفي زيادة عن اللزوم .. موش ممكن واحد في الدنيا يهلي
كده ..

كان واضحاً أنه يشك في أمري وأنه لقي ، ولم تدرك سامية حقيقة ما في
نفس محمد ناجي ، ولكنها دافعت عني ..

بعد قليل ، وجدنا البيت قد امتلأ بالمدعوين ، كنت أراقب سامية من بعيد ،
فلاحظت أنها غير مستريحة ، لا تشعر بأنها في مكانها الطبيعي ، ولما دخل
علينا أنور سامي شحب وجهها ، وتبادلت معي النظرات ، حاولت ألا أقرض
نفسى عليها ، أو أشعرها بالخروج ، فتشاعت عنها ، وبالرغم من ذلك كنت
أبحث عنها بعيني بين لحظة وأخرى ، فتلقتني هيئتنا ، أمي تبحث عني هي
الأخرى ، أم تريد أن تتأكد أنني لا أراقبها .. ووددت لو أترك الحفل ، وأخرج
وحدي ، لعل هذا يريحها ، ولكني أخبرت خروجي حتى أرى شهادي ماذا ..
وجاء الباشا ، فوقف الجميع رجالاً ونساء ، وأحاطوا به ، تبادل معهم
التحيات بسرعة ، ثم انتهى بي جانباً

وسألتني دون أن ينظر إلى سلمية ..

- دى حبيبتيك .

- الطاهر إن الإشاعة ملت البلد

- موش صحيح ..

- همست ضاحكا :

- والله ما أنا عارف .. لسه ما غيش بيننا حاجة ..

- ومحمد رايه إيه .

- أنا متأكد أن فب بينهم حاجة ضحك عالي وقال بصوت خفت أن يسمعه الجميع :

- يعني بتأخذها منه ..

- موش عارف يا باشا .. والله ما أنا عارف ..

- ريت بيده على كتفي قائلا :

- لا .. شد حبلك .. عايزين نفرح بالشباب ..

- وجاء محمد ناجي يطلب من شهادي باشا افتتاح البوفيه ، وتقدم المدعوون ، ووجدتني وحدي مع سلمية ..

- أنا ماضي ..

- قالت :

- وأنا كمان ..

- ما تخليكي انتي .

- قالت لي حزم .

- تعال نخرج ..

مشيتا في شوارع الزمناك ، وأنا أسأل نفسي ، عن سر خروجها معي ، ما الذي يدعوها لأن تتخلي عن كل عشاقتها ، اتهمت بي حقا وقالت :

- محمد ناجي موش بيبحك زى ما انت فاكرك .. شفت كان بيبهاجمك أراي .. يامسافر على عينيه ساعة ما كنت قاعد مع شهادي باشا .. كان بيعص بشكل غريب

لشكرتني ، لكتعرف سرى ، ثم تذهب إلى محمد ناجي وتقول له كل شيء .
ايستقدمها محمد ناجي جاسوسة علي ، لم هي أوامك في رأسي تطاهرت
ياشي أذاع عن محمد ناجي .. فصاحت :

- أنت موش عاجبيني .. مستسلم .. زى ما تكون لعبة في ايديهم .. دول
بيطملوك زى ما تكون أهيل ..

لسمعتي الكلمة ، فشمعرت بالغضب ، وشمعرت بالضعف ، وشمعرت برغبة
في أن ألوي عنقها أو أحملها إلى الشقة وأخصمها لرجولي ..

ونحنينا إلى الشقة ، لم تترك لي فرصة للتردد ، قبلتني في جيبيني كأنها تعتذر
لي ، وقالت :

- أنا عايزاك تبقى أحسن منهم كلهم ..

كانت عاطفتها مشبوبة ، ربما كنوس المارتيني هي السبب ، واندلعت
الرغبة في جسدي فحطمت خجلي وقضيت على مغاوري نسيت كل شيء ..

وأخمدت كل صوت في رأسي ، امتدت يدي تنزع ثيابها ، وأمعدت شفطي تنتزع
منها القبلات ، كنت أرى لأول مرة ما هو الجسد ، أصل إلى المجهول المغطى

أهتك السر الذي عذبتني معرفته أعرف في نفسي أشياء جديدة أتحرك بجسدي
كما لم أتحرك من قبل ، كفى حيرية ، واندفاع ، الحيوية تتفتح ، والنشاط

والانفعال يبدان في ، كاني أنتزع الحب من جولي ، كاني اعصر اللذة مني ..
إنه شيء فوق الحياة ، فوق هذه الدنيا كلها ، لا أستطيع أن أفارق به أي شيء

وقع في في أيامي الماضية .. الآن .. أنا أعرف .. أفهم .. أحس .. أهيض ...
رأيتها تبسم ، غامضات ثقة بنفسي ، كنت سعيداً ، كاني حصلت على كل

ما أتمناه ، لا أريد أكثر من هذا ، لا يهمني سوى ابتسامتها .
همست وعيناها مسيلتان :

- يتحبنى ..

- قلت صادقا :

- يا حبيبي .. يا حبيبي ..

الدموع في عيني سلمية هي الحقيقة ، هي الشيء غير الرائف ، الجسد

الجميل الذي يؤويني ، الذي يتجرد من كل قناع .. من لجلي .. ماذا بهم إن هذا الحسد قد عرف آخرين ، إنهم لا يعرفون قيمته ، لا يقدرين معناه ، لنا وحدي الذي أعرف قيمة ما أخذت ، حتى لها هو الذي سيقعها فوق ملطفيها سيجعل منها سيدتي التي أموت من أجلي .

إنني أتضيق بك يا سامية ، كنت على وشك الغرق ، كنت وحيداً في عالم التعاليل ، لا أحد يقف معي ، كنت أقاتل والعز يجاريني تلجى .. شهدت يا شأنا .. سعد عبد الجواد .. أني .. مبروك .. ما هذا الجنون .. حياة معقدة ناهية وخطتي في شركها .. أنت وحدك التي رخصت بأن تكون لي ، لن أقرطال حتى لك .. حبيك قادر علي أن يقدني ، قبل أن أصل إلى القاع ..

نسيت أننا على سرير محمد ناجي ، طردت من خاطري أنها قد نامت على نفس هذا السرير من قبل ، وثرثرتنا حتى الصباح ..

رويت لي كل شيء عن حياتها ، أبوها الذي طلق أمها ثم انتحر في طنطا .. عشت معها حياتها من جديد ، ندمت على كل لحظة فانت من حياتها وهي بعيدة عني ، ورويت لي قصتها مع ناجي :

.. أنا كنت بأكلمه على أني واحدة متجوزة .. ما كانني يعرف أنا من .. كنت محتارة .. يمكن فكرت في أني أعمل علاقة معاه .. لكن كنت مترددة .. خلت .. والي خوفني أكثر أنور سامي .. حسيت أني بأصعب .. وكنت شغفك .. وحببتك .. تعرف .. أنا رحت مع أنور في شقة .. حاول معاي .. ما أقدرش .. كنت ح الموت .. ومن ساعتها وهو بيكرهني .. شافني مرة في الاستريو بيدلتي وشتمني ولم الناس علي .. كنت عايزة أقولك .. انكسفت .. كلمت محمد ناجي وقلت له اني حصل ..

وكنت عن الكلام ، وارتفع صوت نهيدة عميقة ، فقلت في ألم :

.. موش ضروري تشكى الكلام ده ..

قالت بمساواة محيرة :

.. لا .. أنا عايزة أقولك كل حاجة .. لسه فيه حاجات كتير .. وضحكت قائلة :

.. كويس إن الأمانة ضلما .. لو كانت مور ساكنتش ح أعرف انكم وعانقتني وقلت في إصرار جنون ..

.. أنا يا حبيب .. حقيقي أنا يا حبيب ..

ثم همت

.. بس أنا ظلمتك ..

ابتسمت .

قال في بلمه

.. أنا عارفة من اللي كنت بتحبها .. أسعها مبروك .. موش كده ..

دارت رأسي .. ففتحت فمي لأنكر قسدهت بيدها ..

.. اسمعني الأول دي واحدة كانت بتشتغل عندكم وانت حببتها واتجوزت والدك وفضلت تحبها .. قلت بصوت المذنب :

.. من اللي قالك الكلام ده ؟

.. أمرو سمعته وخلاص ..

.. من .. لازم أعرف ..

.. موش ضروري .. بس هو صميح ..

كان النفي على طرف لسانني ، لولا خاطر غريب طاف براسي ، لو قلت لها اني لم أعرف مبروك ، فكانني اعترف لها بأنني بلا خبرة مع النساء ، أنا في حاجة إلى أن تؤكد لها أنني عرفت للنساء ، هذا هو ما أشعر به الآن ، إن استطع أن أخبرها بالحقيقة ، إنها ستهدم قنعتها بي ، الأفضل أن أكتب عليها ..

.. أبوه دي المصيبة اللي في حياتي .. مبروك دي كانت خدامة عندما .. واجت عارفة .. كنت ولد مراهق .. وخدامة حلوة .. وبعدين لقيت أبويا مهتم بيها ..

وعايز يتجوزها .. كنت ح اتحنن .. خفت أقولك يصمم على أنه يتجوزها برفضه .. وأجل عحوذ فوق الستين .. ما حدش يعرف إيه اللي بيدور في رأسه .. نهايت .. اتجوزها وسيت البيت ..

ليتي استطع ان ابانها الصدق .. ليتنى استطع ان اكشفها بحقيقة
نفسى .. ربما فطنت ذلك يوماً ما .. ولكنى الآن ، اضعب من ان اعترف لها
بضعفى .. لا يمكننى ان اواجهها بسداحتى ، مانها اول امرأة عرفتھا .
بانى لكذب وأرسم الحياتى صورة بضعة ، من أجل ان تصدقنى .. من أجل ان
تثق بى ..



عُثرت سامية على شقة صغيرة من حجرتين ، كان لها شرفة تطل على سينما
بارادى ، استأجرت الشقة فى الحال ، كنت حائفاً من وكيل صاحب العمارة
وأنا أوقع العقد ، سألنى هل سأسكن وحدى ، قلت له ضاحكاً انى استعد
للزواج ، خدعتك ضحكى ، علم يبك فى نواياى ، وتمنى لى زواجا سعيدا .
أخذت سامية كل ما معى من نقود ، واشترت سريراً معدنياً ومرتباً ، وكنا
نقضى ليلائنا جالسين على المرتبة فى الشرفة ننقرج على الأفلام ، ونأكل
الساندويتشات ، وننوه فى الحب .

كانت الشقة سرا لا يعرفه أحد . كأنها مخبأ يخلين عن الدنيا لحلم ، ثم
نعيق من أحلامنا ، فنتذهب هى إلى دنياها ، بيتها والاستديو ، وأعود أنا إلى
دنياى ، المنسيين وجريدة الأيام .

كانت سامية تفكر فى تأثير الشقة بسرعة .

- لازم تسيب المنسيين وتعيش هنا

- حاضر يا حبيبتى

- أنا موش عاجبنى الشقة تبقى لاصية .. دى بيتنا

كانت تقف فى الشقة الحالية ، وتشرير بإصبعها .

هنا كنية ستوديز وهما مضدة موقها راديو ويك أب . علشان نرقص .
وترقص معضمة العيمين ، وتنتج عيبيها ، هترانى وقعا اناملها فنفتح
ذراعها ، وتطوقنى ووجهها يقبض دالشر

- وشفتها بعد كده ١٩

- أندأ

- صحيح والا متكذب ١٥

- بشرق ما شفتهاش

ضحكت قائلة

أنا مصدقك

كانت ضحكاتها مربية ..

فسألتها .

- طيب ومصداقنى إزاي ..

- علشان نوبة سألت عليك فى التليفون .. محمد التليفونست قاللى انت

موش موجود . ويعدين لما كلمته تانى وقلت له أنا سامية .. وصلنى بيه ..

عرفت أنك موش عايز تكلم مبروكة .

- ده صحيح ..

- شفت باه أنا شاطرة إزاي .. بس أنا ظلمتك ..

- لا ظلمتيني ولا حاجة ..

- لا .. أنا ظلمتك .. أنا قلت لمحمد ناجى حكايتك ..

- أنتى التى قلتيله ..

قالت فى خوف :

- ماتزعلش منى .. قبلتها ..

- مستحيل أزلع منك ..

فتنهت قائلة

- أهو أنا دلوقت استرحيت .. خلاص مايفيش حاجة مخبياها عنك ..

صدمتها ، وشعرت ملها بالراحة ، وبالأجل من نفسى ، نعم إنها لشرقت

مما كنت أتصور . أما وائل من صدقها .. لم تكن فى كلمة واحدة مما قلته ..

وتعلم

- بأحسك

أعطيتها أول الشهر كل مرتبة ، أتممكت بالبقود ، وعددها ، ثلاثة وستين
جديها ، وستائتي وهي تصعها في حقيبتها .

- الماني مين ؟

- دفعت حساب البوميه

- أن رايحه أشوف الجار .. ح أخليه يعمل أوضة النوم الأول .

وضعت قائله

- لما نتجوز ح تبقى كده ؟

ولويت بالحقيبة التي وضعت فيها البقود .

أجبتها بدون تفكير :

- طبعا يا حبيبتي

دقت فكرة الزواج من سامية في رأس ، ولم أجدها غريبة عني ، إنها ليست
أغرب من استئجارى لشقة ، ليست أغرب من حبلى لها وعلاقتي بها . من كان
يصدق أن هذا سوف يحدث لي ، لقد تغيرت ولم أعد أخاف من شيء ، نعم
سأتزوجها ، وسأرفع رأسي في مواجهة كل الذين عرفتهم قبل ، لقد تغيرت ولم
أعد أخاف من شيء ، نعم سأتزوجها ، وسأرفع رأسي في مواجهة كل الذين
عرفتهم قبل ، لقد تغيرت سامية ، لم تعد سامية التي عرفوها ، ستأخذني
الجميع ، سأصرخ بملء فمي وسط ميدان الإسماعيلية ، هذه هي سامية
حبيبتي .. زوجتي

كانت علاقتي بمحمد ناجي تتطور في ذلك الوقت إلى شيء غامض ، علاقة
لزجة مريبة .

لم يعترض عني ما أكتبه في السياسة ، ولم يحتك بي في عمل ، ولكني كنت
أشعر بفتوره ، وأنه يترصد بي ، أما أنا فعمصيت في تمثيل دوري ، أتناهى
بالبراعة والسذاجة ، وأتلقى مطراته التي تظن أنه لم يعد يصدق براعتي
ولا سذاجتي .

- ٣٣٤ -

فكرت في الاعتراف له بأنني سأتزوج سامية ، كان لي أكثر من دافع إلى هذا
الاعتراف ، فعل كنت أريد إقناعه بأنني ما زلت ساذجاً حتى أقدم على مثل هذا
الزواج ، فعل كنت أريد أن أتحده ، فعل أريد أن أستمع إلى نصائحه . لست
أدري لماذا فكرت في الاعتراف له ، ولكني ذهبت إليه واعترفت
فأجابه كلامي ، فارتبك ، وظهرت الحيرة عليه .

- يوسف .. مستقبلك يا ابني .. أنا عايرك ما تعكرش في حاجة غير
مستقبلك .

- بأحبها .

- البنيت دي موش بتاعة جواز .. أنا أكبر منك ومريت بتجارب كثير .

- لازم أتجوزها ..

- ليه ؟ ما فيش حاجة اسمها لازم .

- علشان أحترم نفسي .

سألني في قلق :

- حصل حاجة ؟ ما تخافش .. أنا أعرف دكتور صاحيبي .

وابتسم ..

- ما حصلشي غير إنني بأحبها ..

رفع صوته .

- أنت اتجننت .. ملدام ما فيش حاجة بقى تتجوزها ليه . دي ماشية مع

نص البلد .. عارف حكايتها مع أنور ؟

قلت منفعلا

- أنا موش مصدق الكلام ده .

ابتسم ابتسامة حزينة

- ماتيقاش عيب .

- أنا بأحبها . مشيت مع أنور مشيت مع البلد كلها بأحبها

وح أتجوزها .. كل اللي يهمني إنها بتحبي .. ماصيها ماليش دعوه بيه .

تغير صوته ، ضاع منه الآسى وتحول إلى صوت حاد أمر

- أنا مخرج .. لكن لازم أصارحك البنت دى أنا عرفتاه قبلك .. صحيح
ماحصلش بيبدأ حاجة .. بس موش يسببها .. بسببى أنا .. أنا اللي رفضت .
قلت لها أنا موش عيل صغير

لم أصدق حرفاً واحداً مما يقول ، ولكنه فسر صمتى بلى تراجمت
أنا حايك تكون بتحرى وراءك علفان تغيطنى أنا .

الحقير . المعزور . سعد الدم إلى رأسى ، وجمعت الشتائم عند طرف
لسانى ، كدت أنكى من العيط فخرجت من حجرته قبل أن أفتح فمى .
كرهته . وكرهت نفسى . وكرهت سامية .

فى المساء كنت اسمعى إلى لقائنا
وسألنى شهيدى باشا

- أنت ح تتجوز ؟

أجبت ساخراً

- وده معقول يا باشا ؟

كيف لم أجسر على الاعتراف بما أفكر فيه ، هل أنا خائف منه ، أم خائف
من نفسى ؟

قال راضيا

- افكرتك ح تعمبها !

- لا يا باشا

هز رأسه فى اطمئنان وقال :

- محمد ببشمتك عليك

وحدث فى وجهى ثم قال

- الطاهر إنا خدتها فعلا منه

- هو رعلان ؟

سألته وأنا أعجب لحالى ، اكلمه وكأني شخص آخر ، لا صلة له ببوسف
الذى يحب سامية

- ٣٣٠ -

- موش يقول إنه زعلان من الفصل ده .. إنا معاناتك موش عاجباه .
له حق .

قال بصوت قاطع لا يقبل المناقشة

- بس موش معنى كده أنت تحلل .. أنا عايرك تكتب فى السياسة كل يوم .
ولاحظ دهشتنى فقال وعيابه تحدقان فى عصاء الحجرة

- ح يجى وقت قريب وأعورك .

بعد يومين طلبنى شهيدى باشا .

وقال بصوت هزئ

- أنا ح اعتمد عليك .

ولزم الصمت كأنه يراجع نفسه للمرة الأخيرة ، قبل أن يقول ما يريد أن
يقوله ، كانت أعصابى مشدودة ، وبقات قلبى عالية ، والهدوء فى الحجرة
يسد أذننى .

- شوف .. أنا عايز أفهمك اللي ح تعمله .. لكن أنا متردد فى نفس الوقت
إيه رأيك ؟

- الراى رأيك ياسعداء الباشا .

رفع صوته فى عصبية

- كان ممكن أقول لك اعمل كيت .. وكيت .. وتنفذ من غيراى شرح أوتفسر
منى .. لكن دى موش طريقتى .. أنا أحب اللي بعمل حاجة .. يعملها وهو
فاهمها .. علشان يعرف يعملها كويس .

حاولت أن أقول شيئاً . وقتت الكلمات فى حلقى .

- بصراحة أنا موش بأتق فى محمد نهى .

وضحك ضحكة قصيرة ، ومضى يقول

- موش ضرورى الواحد يثق فى اللي ببشغل معاهم . الدنيا كده .. محمد
تاجى راجل كبير .. ومشهور .. ومهم .. وله أطماعه .. وعصالحه الخاصة

بيه .. يمكن يقدر يستفيد من غيرى زى ما يستفيد منى .

ورفع أصبعه وصوبه إلى كأنه يطلق كلماته من مسدس .

وأنت كمان لما تكرر تلقى زى محمد ناجى

متحت همى لأعترض . ولكنك سقنى مقاطعا فى حدة .

- ما تعوش لأ .. انا واثق أنك ح تقف معايا . وح تخلص لى . لكن
عشاين ده فى مصلحتك .. عشاين ح تستعيد . عشاين انا أقدر أعملك نائب
رئيس تحرير .. ورئيس تحرير .

استسم ، وكتب كفيه

- وبعد كده .. يمكن الوضع يتغير . نقى تدور على مصلحك عند حد تانى
غيرى ..

وخبط بقبضة يده على ركبته وقال

- المهم .. أنت عارف إن إحيا ينادي السعديين .. من أسبوع أنا كلمت
محمد ناجى وقلت له يستعد للهجوم عليهم .. وأديته حاجات ضد سعيد ..
وزير الأشغال

سكت ، وجعل يتأملنى ، باحثا فى وجهى عن تأثير كلماته ، ثم قال كأنه
يخاطب نفسه

- بكرة انصبر ح تقرا مقال ل محمد ناجى ضد سعيد باشا .. تراجع
بظهورى إلى الوراء . كانت دهشتى شديدة .

لهمت :

- موش معقول .

صاح شهيدى باشا .

- الى موش معقول إن سعيد باشا عارف إن فيه مقالات ضده بكرة ..
وعارف إنى وراها .. محمد ناجى راح وقاله .. واعتذر له .. وخذ موافقة
كمان .. قاله إنه مدور ما يقدرش يخالف أوامرئ .. محمد فأنكر نفسه
فيه . هايز يكسب الجميع .. يكسب السعديين .. ويكسب الوفديين ..
ويكسب الملاوى انزق .. ويكسبى أنا كمان .

الشراسة فى عييه وحول شفقه ، والاعتراس فى أسنانه وصوته .

رفع رأسه وقال فى لهجة أمرة سريعة :

- أنا عليك تتخانى مع محمد .

- أتخانى !

زار :

- اتخانى .. اشتبه .. خلى كل واحد فى الجنرال يعرف أنك شتمته .
خيل إنى أنه فقد عقله ، خفت أن أنافضه ، وهمست مدعنا .

- حاضر

- أنا ح اعتمد عليك .. وح تكون مسئول أمامى عن الجنرال .

- حاضر .

قال بلهجته السريعة الأمرة :

- وموش عايزك تتأخر باصطاك الى معاك .

- صحابى .

- الولد الشيوعى .. الرسام

- ده موش صحابى ..

صاح .

- أنا عارف كل حاجة .. إذا ما كنتش عايز تردده .. اعتبر نفسك مسئول
عنه .

قلت فى ذعر

- موش عايز أرفده ليه ؟

قال فى قحة

- عشاينك قريبك .

قلت بصوت مختنق

- ماليش دعوه بيهم

قال فى ضيق بلجائى

- طيب .. طيب

وتغلفت مكتبته ذاهلا .

ما أسهل الوصول . ما أقرب الوصول . كل ما هو مطلوب متى هو أن
أقتحم مكتب محمد ناجي وأشتهه بأعلى صوتي ، وأدوسه بقدمي . أظهر أمام
المحررين باني شجاع وجرئ ، وصاحب تقوى . أهذا ممكن ؟ مستحيل
لا فرق بيني وبين أي قاتل محترف يستجرونه للقتل .
ما الذي يعده شهدي باشا لمحمد ناجي ؟ يريد أن يذله .. يريد أن ينتقم
منه وأما السلاح .. أنا مخبط القبط
هل اجرا ؟

هل أستطيع أن أتخلى عن هذه المهمة ؟ سيفتك بي شهدي باشا . لا مقر .
لا بد أن أقتلها . لا مقر .

ستفرح سامية عندما تعلم أنني وصلت إلى منصب كبير ، المقود ستملا
جيبس . سأ تزوجها وتقضي شهر العسل في أوروبا . سأنتصر أمامها على محمد
ناجي . سأبدو أمامها بطلاً كبيراً .

أنا ما زلت صغير السن لم أبلغ الثلاثين بعد ، أستطيع الانتظار ، أستطيع
أن أبحث عن عمل آخر وأبدأ حياتي من جديد .

لن أقتلها . سأفقد احترامي لنفسي . سأفقدني إلى الأبد . سأعيش في
أكتوبة . هذا ليس انتصاراً . إنه هزيمة . صفقة أبيع فيها نفسي حتى
يرفسنني شهدي باشا يوماً ما متلماً يفعل الآن مع محمد ناجي .

لا . لست حقيراً إلى هذا الحد . أقتل ناجي ؟ أقتل شوقي ؟ أقتل نفسي ؟
لا . مستحيل .

لن أذهب إلى الجريدة . سأقدم استقالتني وأبحث عن عمل آخر
كل رأسي يفي ، النقاش لا يهدأ في داخلي ، حتى حسمت سلمية ترددي
محمد ناجي كلمتي في التلفزيون .

عايز إيه ؟

عايز يشومني .

يشورك ؟

- إيداني ميعاد في شارع ماسبيرو
- أمتي ؟
- دالوقت .. دالوقت هوه مستتبني هناك .
- الرجال ده اتجنن .
- أنت مخبي عني حاجة ؟
- صرخت كالمجنون
- بلاش كلام فلضي .. ده شخص مراهق متساكيش فيه
- أمالي بيقول إن مستقبلك في خطر ليه .
- متصدفش . متصدفش .. بيعاكسك .. هاميش أكثر من كده .

كنت أفكر بسرعة مخيفة . سأذهب إليه وأشتهه . لن أتردد . قد أكون
ذاهباً لأنني أذعنت لأوامر شهدي باشا . لأنني سافز . لأنني سأقبض الثمن .
قد أكون ذاهباً لأدافع عن حبي . لأنه اتصل بسامية وأراد مقابلتها في شقة
ماسبيرو . ولكن ، ما هو الشيء الخطير الذي يتهدد مستقبل . أيعرف محمد
ناجي شيئاً مما دار بيني وبين شهدي باشا ؟ سأستدرجه قبل أن أهاجمه .
قابلي في مكتبه باسم متلهلا . الرغد . لم أملك أعصابي والتهبت
رأس :

- كنت فين الساعة خامسة يا أستاذ ناجي ؟

- وضحكت كأنني أتأوه من الألم

- كنت في البيت

- قلت متفعلاً :

- تقدر تقولي إيه الشيء الخطير اللي بيهدد مستقبلي ؟

- قال في برويد ، ووجهه يشحب

- موش فاهم حاجة .

- قلت ولتا لوتجف .

- أنت كلمت سامية في التلفزيون ؟

اجعلت عياده . وقال بصوت خفيض :

- أيوه .

صرخت

- وقتل لها تيجي تقابلك ؟

ابتسم ابتسامة حقيرة ، وثند قائمته ، وبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بهدوء

وجهه :

- هيه قالت لك حاجة ؟

- قالت لي كل حاجة .

قال في استخفاف :

- الظاهر حصل سوء تفاهم .

هتف :

- الي حصل إني عرفتك على حقيقتك .

قال في برود :

- نسمع تهدي نفسك ؟

قلت وأنا اضغط على أسناني :

- أنت حقير .

رفع حاجبيه وأختلج وجهه

رفعت صوتي :

- حقير . حقير .

أنت جري في عقلك إيه ؟؟

- اسمع .. أنا عايز أفوك في وشك رأيي بصراحة .. أنت حمان .. وسافل ..

أستنض فجأة من ذموله ، بهض بقامته المدبدة وقد أصهروحه وخرج من

فمه صوت كالقصح

- اطلع بره

- أنت اللي تطلع بره

اتفضل استقيل

- أنت اللي تستقيل يلمجرم .

صرخ :

- أنت مطرود .

هجمت على مكتبه ، أدق عليه مكنتا يدي

- أنا اللي ح لطردك .. ياكذب .

كان يلهث ، جسده يهتز ، امتدت يده المرتعشة إلى الأجراس تضغط

عليها ، دخل المماعي ، وسخل معه آخرون لم اتين وحومهم وجذبتني

، لايدى . وارتمع الصباح ، وأنا أردد محمومًا :

- يلمجرم .. يلمجرم ..

بعد نصف ساعة ، كان يطرق بابي ، ويطل بوجهه ، ثم يتقدم ذليلا ،

محنى الرأس ، ويجلس على مقعد أمامي ، ويضع رأسه بين كفيه ، ثم يرفع

رأسه ويبتسم ، وقال في هدوء :

- أنا غلطان يا ابني .. باعتذرلك .. شهدي باشا أمرني أعيذك نائب رئيس

تحرير .. وأنا وافقت .. ورفعتنا مرتبك لمائة وعشرين جنيهاً .

الفصل العاشر

أصبحت المسيطر الأمر في جريدة الأيام ، والتف المحررون من حولي يتألفونني ، وكان محمد ناجي هو أول المناهضين ، يلقاني بابتسامة واسعة تزعجني ، ويمتدحني ، ويستشيرني في كل تصرفاته ، ويطلب مني مراجعة مقالاته ، حتى أيقنت أنه يرسم خطة بعيدة المدى للقضاء عليّ ، ويتربط في صبر وأناة الفرصة التي يشب فيها ، بعد أن يخدعني بتعويته واستسلامه ويلدغني ..

كان شوقي هو الوحيد الذي رفض أن يرضخ لي ، إنه لم ينس أبداً أنه كان السبب في دخولي جريدة الأيام ، فضل يعاملني وكأنني ما زلت يوسف الضعيف الذي لا حول له ولا قوة ..

كان يلقاني أحيانا في أحد معمرات البناء ، فيتعهد أن يصبح بصوت مسموع وقع

- إزيك يا يوسف ..

- فأتصم متوهدا ، وأمضي في طريقي ، فيصرخ ..

- يا أخى ما تقف وتكلمني ..

- بس أنا مشغول يا شوقي .. عدى اجتماع ..

- فيتهف ساخراً ..

- أوعى تكون صدقت أنك بقيت راجل مهم ..



- اذنا ..

- انت غلام .. وصعبان على .. يا شيمع سبيك من القنطرة دى فانتظار
بالإستقام ، وافر متعدا ..

وكنت أخبار شوقى تصلنى ، فتزيدنى قلقا ، إنه يشتم شهيدى باشا ..
ويتشدد بكلمات شيوعية ..

الجموع ، إنه يهيه لحمد باحى العزيمة التى ينتظره لينقض على ..
ودعانى المحروون إلى جعل أقاموه في بيت أحد الفنانين بالقاعة ، فقبلت ،
أردت أن أقابل شوقى في الحفل ، واتحدث معه على انفراد ليأخذ حذرہ ،
ويريحنى ..

وعلمت سامية أنى سأقضى ليلتى بعيدا عنها ، فصممت على المجيء معى ،
ولم أستطع رفض طلبها ، وذهبت معا إلى القاعة ، هاتلقى عليها شوقى
وجذبها من يدها إلى سطح البيت ، ترددت كثيرا قبل أن أسمع وراءها ..
وفوجئت بأن شوقى لم يتخل عن وقاحته أمامها فاستمنى ، وقال لها إنى بعث
نفسى لشهيدى باشا ..

صبرت بخسة أيام ، ثم ناديت شوقى في مكتبى ، وحاولت أن أشرح له
خطورة موقفه ، فثار وغضب ، واحترت ، هل ألد عذ نفسى وأشى به عند
شهيدى باشا قبل أن يلقى بنا محمد ناجى ، ربما كان هذا هو أفضل حل ..
ما أسهل أن أرفع سماعة التليفون ، وبعد دقائق يقتحم الشرطة مكتب شوقى
ويقبضون عليه ، لو ترددت فسيشك شهيدى باشا في امرى ، إنه على استعداد
للخضاع على حتى ولو كنت أبه ، لو ارتأيت أن أنى أحصى أحد الشيوعيين ..

مضت بي لحظات قاسية ، وأنا أفكر فيما سببته لسعد عيد الجواد وفى
المصير الذى انتهت إليه ، إنى أحطم أصدقائى واحدا بعد الآخر اتحول إلى
إنسان مقترس لا يكثر بثى .. ولكن شوقى يعمل مبروكه ويعول أخى
إبراهيم ، ترى ماذا يحدث لهما لو قبض الشرطة على شوقى ، سئلجا مبروكه
إلى وتضايقنى مز جديد ..

قبل أن أنتهى إلى قرار ، فوجئت بشوقى يقتحم مكتبى ، ويعتذر لى عن

شوريه ، ويعلم فى ذلة أنه سيتخل عن الشيوعية . فرحت بتراجعه ، ولكنى
شعرت فى نفس الوقت إنى قتلته ، ما أشرع مطر الضحية أمام قاتلها ، كم
كنت أتمنى أو يبقى شوقى كما كان ، ذلك العبيد الذى لا يتراجع ولا يفقد
شجاعته ، كم كنت أتمنى الايمان الذى فى نفسى إلى شوقى ، ويسعد هو
كما أقصد أنا ولكن هامو يتدل ، وهامدا اتخلص من رططى ، ولكنى غير
مستريح ..

فى تلك الأيام ، كان حبى لسامية يتحول إلى عادة مريحة ، كانت أيامى
مستقرة منتظمة ، أعمل وأحب ولا أفكر فى الأيام المقبلة ، لأنى مشغول
بأيامى الحاضرة ، حتى كانت ليلة مطيرة ، وأنا وسامية فى الشقة ، كنت
مجهدا ، أتناهى ، أقوم النوم ، وأحس بالجوع ، ورأسى فوق حجرها ، والمطر
يتساقط فى الخارج ، فأشعر بالطمأنينة والدفء ، وسامية تثرثر فاستمع
إليها فى كسل ، حتى وجدتني أتحدث معها فجأة عن الزواج ، وبكلمات سريعة
وصلنا إلى الحديث عن الخطوات العملية التى يجب أن اتخذها ، وانتبهت
أثناء الحديث إلى أنى اندفعت فى شيء خطير ، ولكنى لم أخف ، بل على العكس
رحبت باندفاعى ، كأننى وجدت شيئا مثيرا مسليا ، يخرجنى من كسل وعلى ،
ولاحظت لدهشتى أنى أتمادى فى الحديث عن الزواج حتى أنى طلبت منها أن
تحدد لي موعدا لزيارة أمها ..

صدمتني سامية ، وكانت منفعلة ، لماذا لا تصدقنى ، ولماذا لا أتزوجها ..
ما الذى أخشاه الآن ، إن معى النقود ، ومستقبل مفتوح ، وسامية تريد
الزواج منى ، فلا أقدم لها نفسى ، سامنحها حبى ، وسأجعلها تعيش حياة
باهرة ، سأتري فى عينيها مفرات الامتنان والحب ، فأنسى ما أراه فى داخل من
بشاعة طارئة ، سأغسل الشر الحديدي الذى اكتسبته ، بأن أكون زوجا مثاليا
لسامية ..

وزرت بيت سامية ، قابلتني أمها ، سيدة غريبة .. أصابعها مصفرة من
تدخين السجائر ، صوتها مسحوح وعيدها جريئتان ، تتظاهر بالعظمة فى بيت
فقير ، كانت تتحدث كمكلمة وتتكلم عن باشوات مانوا ، وتروى قصصا عن

علقات قديمة ، تريد أن تخدمنى بانسحابها إلى أصل عريق ، لم استرح لها ،
وسخرت منها بينى وبين نفسى ، وعندما سألتنى في غيابة عن علقى ، كتبت
اتحادها وأسألها عن عائلتها هى ، ولكنى عدلت عن مهاجمتها ، وفضلت أن
أمثل دور الشاب الشجول الطيب ، لم أشأ إزعاج سامية ، إنى أعلم أنها
لا تطيق الحياة في هذا البيت وساقبل راضياً أن أقيم بدور الفارس التتيل
الذى يخلص حبيبته من المكان الذى تتعذب فيه ..

بعد انتهاء الزيارة ، سألتنى عن شعورى ، فواصلت تمثيل دور الساذج
الطيب ، وقلت لها إمنى كتبت خائفاً من مرض أمها ، بدا أنها مستريحة
لكلامى ، كانت المسكينة تخشى أن أقول كلاماً سيئاً عن أمها .

وحددنا موعد الزواج يوم الخميس المقبل ، واشغلت سامية بالأعداد لهذا
اليوم ، ونسيت الحب ، والعواطف التى تتبادلها ، ولم تعد تتكلم إلا عن البيت
والفستائين ، وترسم خططاً للمستقبل ، ولا تلقى معى أكثر من دقائق ، ثم
تنظر في ساعتها ، وتجرى لاهة إلى الشارع لتشتري شيئاً من دكان ..

كنت أستمع إليها ، وكأنها تتحدث عن زواجها من شخص آخر وأعجب من
انهماكها وانفعالاتها ، ثم أتركها وأنفس في عمل ، وقد أنذكر أثناء عمل إمنى
سأصبح زوجاً بعد أيام ، فادش ، وتقفز إلى رأسى صورة شهيدى باشا ، ترى
ماذا يكون رايه لو علم بما أن مقبل عليه ، ثم أزع التفكير وأعود إلى عمل ..
ولكن تفكيرى في رأى شهيدى باشا إلح عليّ ، فلم أجد مفرأ من الاتصال به ،
وذهبت إليه في مكتبته .

قلت وأنا أبتسم محاولاً أن أصوره الأمر على أنه شيء عادى :

- الظاهر يا باشا إنى ح أعملها وأتجوز بكرة ..
فتجهم وسألنى بصوت حاد :

- إيه الكلام ده ..

- معلش يا باشا ..

- و ح تتجوز مين .

- سامية ..

صاح متفجراً ..

- أهوده اللى كتبت عامل حساب

- إنا يا حبيب

- هز رأسه بعنف ، وقال غاصباً ..

- سافيش فليدة .. كل ما أنور على وأحد فيه أمل .. يطلع فيه عيب ..

- سعادتك زعلان من إيه ..

قال في لهجة يائسة :

- موش زعلان ولا حاجة .. روح اتجوزك ..

ثم رفع صوته متحدياً

- بس أهرق كويس إن ده ح يكون له تأثير كبير على مستقبلك .

انقبض قلبي وقلت وأجفاً

- تأثير إيه ..

قال مؤكداً :

- خطير .. خطير ..

- وإيه دخل سامية بعمل ..

صاح :

- السمعة .. المركز الأدبى .. كل حاجة ..

قلت مستجاً

- إنا يا تجوز .. يعنى بأعمل حاجة صح ..

هتعب ..

- لا ياللى .. أنت غلطان .. ده موش صح .. الصح انتك تعرفها من غير

جواز .. تجفى شاطر .. إنا تتجوزها وتبقى مراتك وأم أولادك قدام الناس

وتأخذ اسمك .. ده اللى موش صح ده اسمه عبط اسمح لى أنا زى

والدك ، ولاتم أصارحك ..

توى ما الذى كان يقوله والذى لو كان حيا ، لا أظن أنه كان يعترض بعد

زواجه من ميروكة ، هجمت الكلمات على لسانى .. أريد أن أقول له إن أبى كان

يوافق على هذا الزواج ، ولكنني لم أجبر ، أبي تزوج خادمة ، وأنا أتزوج معلة
مبتدئة ، فتاة سيئة السمعة ..

وأمسك شهدي باشا بسماعة التليفون .. وعلاجاتي بأن طلب محمد
ناجي

- ح تقول له إيه يا باشا

قال في ضيق

- ح أقوله يحاول يمدك من ارتكاب علة العمر .

ضحكت بالرغم مني ..

- موش كنت تكلم من رواية ..

قال هادئاً :

- ح كلمه من وراك ليه .. أنا اتعودت النعب معاك على المكشوف .

ودق جرس التليفون ، فرفع السماعه ، وانطلق هادراً ..

- يا محمد .. الولد يوسف اتجنن .. عايز يتجوز الكومبارس .. أبوه أنا

هددته .. قلت له إنه لو عمل حاجة زى كده ح ضيع مستقبله .. وح تبقى

غلطة العمر .. فكر معاليا .. لا .. أنا عايزك تشوف طريقة نعوش بيها

الحصيبة دى .. تفكر ما فيش فايدة من التهديد .. خسارة .. على العموم

أنا قلت له يغوت عليك .. فكر لحد ما يجيك .. وأبقى قولنى عملت معاه إيه

ثم صاح ضاحكاً :

- لا يا محمد .. بلاش دى ..

ووضع السماعه . وهو يفقه سألته ..

- إيه اللي بلاش ..

استمر يضحك ثم قال

عايز جروح يكلم سامية ..

الوعد ..

اندفع الدم إلى رأسى وصحت متحدياً

- لو عمل كده .. ح لتحوزها واستقبل ..

قال بصوت كلفصيح :

- شفت .. أول ما فكرت في الجواز بدبت تفكر في الاستقالة .. أنا عايز

أوفر عليك تجربة مرة في حياتك . لسه مصمم .

قلت في إصرار .

- لييه .

وعادرت مكتبه وجسدى يرتجف ورأسى يصيح بأصوات مضمومة .. تزوج

سامية ، لا ، لا تكن مجنوناً .. شهدي باشا على حق ، أنت ترتكب غلطة

العمر ، الحب لا يدوم لا تضيع مستقبلك ، أنت تكرن نفس غلطة أبوك ، أه

يا أبى لقد أسأت إليك ، كنت قطعاً معك ، سأتزوج سلمية مثلاً تزوجت

مبسروكة ، إني أبنيك . وسأرتكب نفس خطاك ، وأواجه الناس ، كما

واجهتني ، عندئذ سأكفر عن قسوتى معك ..

انتفض محمد ناجي وألفا ، ودأر حول مكتبه ، وأسرع يقابلني في منتصف

حجرتي .. كان قلقاً ، وجلس إلى جوارى ، وسألني في أسى ..

- إيه اللي سمعته ده ..

- قصدك كلام شهدي باشا ..

- أنت نويت خلاص .

- أيوه نويت ..

أطرق برأسه ، ثم قال وهو يحدق أمامه ، كالخاطب لنفسه

- طبعا أنت عارف رأي الباشا .. وعارف أنه كلسني علشان أحاول معاك ..

همست :

- كنت معاه وهو بيكلمك ..

أبتسم .

- كده .. طيب انتهت معاه على إيه ..

- على أنني مصمم

رفع يده إلى ذقنه وحكها ، وفتح فمه ليتكلم ، ثم عدل عن الكلام ، ونهمس

يبحث عن عليه سجلته ، قدم لي سيجارة .. لثعلبها بصعوبة ، كانت يده
ترجف رجفة قوية ، لاحظت أن وجهه يشحب . وسألني بصوت شارح :
- تفكر فيه حد ح يدخل علينا ؟

لم أفهم ماذا يعنيه ، وقام وفتح الباب الذي يقضي إلى حرة سكرتيرته ،
وطلب منها ألا تدخل أحدا . ثم عاد إلى مكتبه وطلب من عامل التليفون أن
يقطع كل مكالماته لأنه في اجتماع هام . ووقف ذاهلاً ، خيل لي أنه قد جن .
وأخيراً عاد وجلس بجوارى وقال كالكائنات :

- أنا موهى غريب .. وما فيش أحسن من أني اكلمك بصراحة .. طبعاً أنت
عارف الوضع اللي بيننا هنا الاثنين . أنت عايز تفعد وتبقى رئيس
التحرير .. وشهدى باشا وراك .. عايز يملك رئيس تحرير ..

كدت اعترض ، ولكن ما قيمة الاعتراض ، إنه يقول الحقيقة ، نعم ،
شهدى باشا يدفعني لأطرده من مكانه ، إن صراحته ليست في حاجة إلى
تطبيق ، لزممت الصمت ، ومضى وهو يقول

- وطبعاً أنا من ناحيتي عايز أفضل مكانى .. يادافع عن نفسى ويمكن لو
فكرت .. أقول لنفسي إن ما فيش عندي فرصة أحسن من الفرصة دي .. أنك
تتجوز سامية سامى .. بعد جوازك ح أقدر أطمنك .. أطمنك من ألف ناحية .

يمكن حتى موش ح أحتاج أعمل أى شىء . شهدى باشا من نفسه ح يتخلى
عنه . ح يشوف إن الورقة اللي في ايده اتحرقت . وفيه لحد ملياقي حد
غيرك يضربني بيه ..

كانت صراحته ملفحة ، أذهلتني وشلت تفكيري .. فسألت في بلاهة .
- هو عايز يشرك لي ؟

أفجرت أسناريه .. كأنه سمع كاملاً مضحكاً وقال :
- لسه موش عارف .

قلت صادقاً :

- ٧ ..

- أنت يتعابى يايوسف .

- كل اللي سمعته شائع .

قال في ثقة

- الشائعات اللي سمعتها صحيحة .. آيوه أما عن علاقة موشا .. موش بس
كده ، شهدى نفسه عارف .. دخل علينا في أوضة النوم . وشافنا .. إحنا كنا
سفلة .. لدرجة أن ميقاش فيأحد محتاج لانه يخفى سفاته .. كلنا بطلع على
المكشوف ..

أقد قال شهدى باشا نفس هذا الكلام ، إنه يلعب على المكشوف ..

قلت بلا وعي

- ده صحيح ..

فهتف

- لكن ما فيش حد ح ينتصر غير شهدى باشا .. هو اللي ح يوصل لى
عايزه .. أنا ورقة لعب بيها واتحرقت .. لكن باعزى نفسي . انتقلت ..
ضربته في شرفه .. لما بييجي للذهابدة ويحاربني بأقول خالصين

وحدق في وجهي وقال

- أنت إيه اللي يخليك تدخل في لعبة قدرة بالشكل ده ..

همست

- أنا مادخلتش أنا لقيت نفسي فيها ..

هتف

- أبعد .. فكر في اللي بتعمله .. افرض إنك نجحت .. افرض إنك تعدت على

مكتبي .. ويعدين .. ح يبقى معاك فلوس أكثر .. طيب كويس خالص ..

ويعدين .. ح يبقى لك نفوذ .. طيب .. ويعدين .. ولا حاجة .. ح تفتح عينيك

في يوم وتلاقي أنك بقيت عيب .. عيب قليل لشهدى باشا .. خدام .. شعورك

ح يبقى نفس شعور السفرجى اللي في بيت شهدى باشا .. يمكن السفرجى

حاله أحسن .. لأن دي شغلته .. إنما أنت بتظاھر قدام الناس بآتك موش
خدام .. ح تشعرباحتقار طمع لنفسك .

أنا باحس بالاحترار ده دلوقت .

قال في أسى

- شوب أنا من مصلحتي أنك تعد . من مصلحتي إنك تتجوز سامية
علشان شهدي باشا يسبيك علشان احتفظ بشغلتني . المرمطين الأول عند
سعادة المليونير الكبير لكن تعرف أنا باقولك بكل إخلاص . إن مصلحتك
الشخصية تعرف إيه ؟

- إيه ؟

قلتها في لهفة وأنا على استعداد تام لتصديقه .

- إنك تتجوز سامية ..

- أتجوزها ..

- أيوه .. إذا كنت بتحبها .. دي فرصة عمرك .. أنا ماكنش فيه حاجة
حقيقية في حياتي غير حبى للمرحومة دلال .. لو كانت راضية تتجوزني .. كنت
سبت كل ده . كان زمني فقير يمكن .. موش مشهور يمكن .. موش ناجح
يمكن .. لكن كنت أبقي أسعد إنسان في الدنيا .

نعم .. إنه يقول الصديق .

وقال بصوت حنون فيه شجن

- يايوسف .. اللي بيحب .. مايفكرش كثير .. الحب ماميش كرامة ..
مافيهش اهتمام برأي الناس .. الحب هو أنك تحب ويس
يلت دموعي .. وأنا أنكر لغائي بسامية عند حوض السباحة بالمادي
الأمي . سأنتني عن الحب ، قلت لها نفس هذا الكلام ، لقد تفتحت .. كيف
نسيت كلامي نسيت مشاعري ، أير ذهبت تلك الأيام انقطعت صلتني بها ..
لم أعد كما كنت ، انقطعت صلتني بنفسي .

- أنا ح أتجوز سامية ..

مطار إلى متفحصاً ثم قال .

- أنت متأكد ..

- أيوه متأكد .

- يعني أياخ القرار ده لشهدي باشا ..

- أيوه .. بلغة ..

قال في حزن .

- أنا بالصصك .. أنا بأتمني لو كنت مكاك .. وإسه عندي فرصة زى
فرصتك .. ماكنش وصلت لى أنا فيه دلوقت ..

وجريت إلى التليفون وكلمت سامية ..

قلت لها ملهوقاً

- لازم أشوفك يا حبيبتي ..

صاحت كطرفة

- أنا مشغولة .. رايما ستعين حاجة ..

- لازم أشوفك ..

- مالحننا ح نشوف بعض بكرة

- موش قادر استنى لبكرة ..

لم يخطر ببالها ما أعانيه .. ربما ظلت أرى التل في الوقت غير المناسب .
ولكني كنت خائفاً من نفسي ، أريد لو أتزوجها في الحال .. حتى أتخلص من
مخاطر . وتوعدتنا على اللقاء في المساء . في ساعات العصر بدأت الانتباه
تصل من سوريا . عن انقلاب عسكري قام به ضابط في الجيش السوري
اسمه حسني الزعيم .. كنت مجتهداً بمحرري قسم الأخبار لنتتبع أحداث
الانقلاب ولأوزع عليهم العمل قبل ذهابي للقاء سامية

عندما اقتحم علينا الحجره محمد ناجي . وانتحي به جانباً وهمس .

- أنا كلمت شهدي باشا وقلت له على قرارك .. بس رجح وكلمني دلوقت .
وسكت ، وكأنه يجد صعوبة في مواصلة الكلام .. توقعت من منظره أن

شهدي باشا أمره بفصل . فعدرت رسالته

- كلمك يقول إيه ..

قال ببطء . عيناه مشدودتان إلى شعتي

- عايزك تصافر سوريا .

- امنى

- دلوقت حالاً

شعرت براحة مفاجئة ، إنه لم يعصلى . بل هو يحلول محاولة أخيرة لمنع
رواحى ..

وهمس محمد ناجى :

- طبعاً موش ح تسافر

تريدت وفكرت فى السفر .. وفى الهرب من الزواج ، وأدرك محمد ناجى
ما أخطر فيه ، فظهر القلق فى عينيه . ونظر إلى متوسلاً ..

لو سافرت فمعنى ذلك أنى سامضى فى تنفيذ خطة شهى باشا لن أتزوج
وسأطرده لأحتل مكانه . قلت فى هدوء غريب :

- أنا ياخطر أسافر ..

قال بصوت أجش وفى أدب شديد .

- حاضر .. أنا ح أصعل كل للترتيبات علشان تسافر فى الحال .

وتذكرت موعدى مع سامية .. فقلت فى برود القاتل المحترف .

- ح أسافر بكرة الصبح ..

لم يرد على ، استدار وانصعب وواصلت اجتماعى . وأعلنت المهردين
بسفرى ، وانفض الاجتماع وذهبت إلى الشقة أنتظر سامية ، ليس فى راسى
الخطر ، ولا قلق ، ولا أى شيء . جاءت سامية تثرثر . إنها حائرة تريد دعوة
صديقاتها ، فندم لأنها لم تستعد لفرح كبير . ثم تعود وتقول إنها مرتاحة لأن
كل شيء سيتم فى هدوء ، استمعت بلا خجل ، ولا تأنيب ضمير . إنها تتحدث
عن زواجها من شخص آخر ، أنا لست يوسف الذى أحبها ، أنا يوسف آخر ،
أنا رئيس تحرير الأيام .. أنا صديق شهيدى باشا .. أما المسافر وراء أحداث
سوريا ، دورى فى الحياة أخطر بكثير من هذا العبث الذى يتحدث عنه ..

- بتحبنى

- أيوه يا حبيبتى

- ح تدينى الحنان الوأأأأأأ ..

- أنا معنديش غير حنان .

- تعرف أنا حبيبتك ليه

- علشان أنا بأحبك .

قالت فى مزح :

- علشان أنا متأكدة أنك ح تدينى حنان .. وعلشان يوم ما قلت لى إن الحب
والحنان حاجة واحدة .

لم أعتز لا عتراقها ، إنها مارلت تتحدث عن يوسف آخر عمرى ..
واقترقنا .. وأنا لا أشعر أنى أخدعها أو أكتب عليها .. غدا سيقابلها
يوسف الآخر . ويتزوجها ويمسحها الحنان الذى تريدى .. أما أنا فسامضى فى
طريقي .. سأركب الطائرة إلى دمشق .

تجاهلت همومي الخاصة وأنا أعص في دمشق ، قابلت حسنى الزعيم ، كان معجباً بنباليين ، مزهواً ببذلة الماريشال امزركشة ، والنياشين الكثيرة التي تزين صدره كان يتحدث وهو يرقص كطفل كبير ما أسهر أن يصبح الإنسان حاكماً وما أسهل أن ينجح ويصل إلى القمة ، قارنت بيني وبينه ، أنا أيضاً سأنهض في يوم قريب بجلوسى على مكتب محمد ناجي ، ستجعل الأيام اسمي ، وسأصبح أبرز أعلام الصحافة في مصر ، رغم ذلك أحس أن هناك خطأ ما .

ها هو حسنى الزعيم أمامي ، يتحدث معي ، وأسهر كلماته ، إنه الحاكم ، من المؤكد أنه الحاكم ، ولكنني أشعر أنه حاكم غير حقيقي ، كأنه حاكم في قصة أو حلم
ليحدث لي نفس الشيء ..

أجلس في حجرة محمد ناجي ، ومن حولي التليفونات والأزرار ، وأتسحس خشب المكتب بيدي ، ثم يتقل كل هذا وكأنه حلم ، هذا هو ما أشاهده ، نعم هناك خطأ ما ولكنني أن أتراجع ، سأصمى في المعامرة حتى نهايتها ..

عدت من دمشق ومعى حديث مثير أدلى به حسنى الزعيم ، ومعى أحبار وتحقيقات صحفية ، هناك محمد ناجي ، وهناكى شهدى باشا ، وكان المحررون يلتقون حولي يستمعون إلى حكايتي ، مشهورين كأنى السلاحر الذي



حقوق المعجرات ، ومع ذلك مانا لا لشعرباني حقت أي نجاح ، النجاح ليس في قلبي وليس في رأسي ، هناك خطأ ما

كنت ألقب صفحات الأيام ، ثم أعود إلى مقال وأسمى المنشور بخط أسود عريض ، فرائيت وجه سامية يملأ علئ ويحتل مكاناً اسمي كيف نسيته طوال هذه الأيام ، لا أظن أنني نسيته ، بل كنت أتذكرها في كل لحظة مرت بي ، إني وأنت من هذا ، إنها ذلك الخطأ الذي شعرت به وأم أدرك ما هو أنها المرض الذي يكمن في جسدي ويلوث طعم حياتي ، ويشعري بأن كل شيء ناقص ، كل شيء مجرد حلم ..

ليس هناك خطأ في هذه الدنيا كلها سوى أنني تركت سامية . النجاح سهل ، والوصول سهل ، أن أكون مثل حصني الزعيم أمر سهل ، الشيء الصعب هو أن أسلم نفسي للحب ، أحترم حبي ، لا أتخاذل وأفرمته .. الدنيا غريبة ..

ما كنت أظنه صعباً مستحيلاً ، لا يمكن تحقيقه ، اكتشفت أنه سهل وبخيس ، لقد شققت طريقاً بسرعة مذهلة إلى كل ما كنت أتخيله بعيد المنال ، أما ما كنت أظنه .. سهلاً بسيطاً ، لقد اكتشفت أنه صعب كأنه مستحيل . أحافظ على حبي ، أدايع عن حبي ، أتحدى شهدي باشا ، وأتخل عن مهركتي مع محمد ناجي ، واكتشفت عن حبي ، هذا صعب ، طموح كبير .. أنزوج سامية ، ونعيش مما لي الشقة خلف سينما بارادي ، ولا أفكر في رئاسة التحرير ..

أهذا ممكن .. إنه يحتاج مني إلى قوة هائلة ، يحتاج إلى جرأة حصني الزعيم ، يحتاج إلى بطولة أخطر من بطولة نابليون وهو يفرز أوروبا .. عندما اتخذت قراراً بالسفر إلى دمشق ، اتخذت القرار السهل ، يجب أن اعترف بهذا ، عندما تخليت عن سامية ، أصبحت رجلاً عادياً ، انضمت إلى ملايين اللصوص والكاذبين والطماعين .. لو كان لي طفل من سامية ،

لو أستطيع أن أعلن بصوت جريء ، إن سامية حبيبتي ، لو تم هذا أوجد في الدنيا شيء أجمل منه ، الدنيا تستمر ، والآباء يترجون الأمهات ، ويلدنون الأطفال في حب ، أه ، لو تم هذا ، كنت أفنى حياتي من أجل أن يصحك طفل لحظة ، كنت أحيط سامية بترامي فتشعر بالأمان معي ، وتسند رأسها على كتفي وتستريح ، وأشعر بالأمان معها وأسد رأسي على حجرها وأستريح .. لم أعد أشعر بالأمان مع أحد ، لو خرجت الآن من مكتبي ، ومشيت في الأرض إلى نهايتها ، لو طغت بكل بلد في العالم لما وجدت مخلوقاً واحداً يمنحني الأمان والراحة ..

ما أشد غيائي .. أصحى بنفسي من أجل مكتب أجلس عليه ، وأسم أراء منشوراً بخط بارز عريض في صفحة جريدة ، ما قيمة النقاد المهجين ؟ وحماس شهدي باشا ، وصباح ناجي ، والنقاد التي تملأ جيبني ، والمهينون التي ترمقني ؟ لا شيء من هذا يعرضني عما فقدته ..

لو تعود سامية لي ، هذا هو الشيء الوحيد الذي لا خطأ فيه ، أبوح لها بسرري ، ويتعاقب عيوننا وشفاها ، ويتعاقب جسدانا ، وألحيا .. امتدت يدي إلى التليفون ، وأدبرت القرص ، سمعت صوتها ، فنسيت جريمتي ، غفرتي صوتها كل دنوبي ، كلمتها كما يخاطب المريض طبيبه ليطلنه وهو مبتهج بأنه قد شفى من مرضه ..

- أهلا حبيبتي .. أغلقت السماعة ، أطلعت السماعة على رقبتي تفصلها ، تمنع عنى الحياة ، تمنع عنى الحب ، تمنع عني نفسي .. أدبرت القرص من جديد ، ملهوا فزعاً ، غريقاً يحدث عن النجاة في صوت يسمعه :

- سامية أرجوكي ما تقفيلن السكة .. أنا يوسف .. أنا يوسف الذي يحبك ، أنا يوسف عبد الحميد السويدي ، أمي ماتت

ونحن نسكن في شوارع السد . أبي كان عجوزاً فتزوج خاتمة اسمها ميروكة ، رجل لا يخشى شيئاً ، يفرض نفسه على الحياة ، يتجسس طفلاً بعد المستن . يعشق بعد أن فات سن العشق ، يحيا ، يبتهج ، لا يترك الشر ، أريد أن أكون مثلهم ، مثل أبي وأمي ، مثل الناس الطيبين الذين يملأون البيوت الدموغ في عيني ، صدقي ، أصابعي ترتجف ، إنني أكره كل ما يحيط بي ، تمنائي واقظيني

كانت قد أغلقت السماعه بسعف بمحرد سماعها لصوتي ، قالت قبل أن تمقد حكم الإعدام

.. ما فيش حاجة بيئي وبيئك .. أنا موش بأحبك .. بلاش تزعجني وهبطت السماعه كالمقصلة .. يارب ارحمني ، ليه حماقة ارتكبتها ، محمد ناجي على حق ، نصمعي بالابتعاد عن اللعبة القذرة ..

قال إن حبي لسامية هو فرصة عمري ، وإن حبه لدلال كان الشيء الحقيقي . الوحيد في حياته .. أيتته كل شيء حقيقي في حياتي ، أياي اليوم الذي أعيش فيه بالكذب ، ويبدل إحساسي ، وتقدم هذه الأصوات التي تعذبني وأفرح بما وصلت إليه . كل الظروف من حولي تؤكد أن هذا هو ما سيحدث لي ، حياة المتنازير المنعمة ، حياة القتل الياريد وجرائم الباردة .. لا تزعجني .. لا تزعجني .. أنا لا أحبك .

أوصل الأمر إلى هذا الحد ، أصبحت شريراً تنفر مني ، كيف شرب الشر لي ، من أين يجيء الشر ، وكيف يتسلل إلى النفوس ويحول سامية تصرخ .. لا تزعجني . هذا غريب ..

هأنذا أتذكر حياتي بالتفصيل ، أنبش كل لحظة ، أجدب خيوط حياتي ، يوماً بعد يوم ، ووحها بعد وحه ، بدأت من البداية منذ ولادتي ، منذ سدا جشي وبري ، حتى ، منذ كنت طفلاً خجولاً ، يتدفق إلى حضن أمه ، وفجأة كان الشر يسبق من أطرائي ويسري في دمي فجأة ، أصبحت كبيراً ، أصدر الأوامر ،

واشتيت في مؤامرات ، وأسامر إلى بعشق ، وأحب وأتحل عن الحب ، وأحترق وأتألق ، وأريد وأطمح ، وأفر من نفسي وأعي بالضياح ما السر ، أين تلك اللحظة التي تحولت فيها ، أريد أن أمسك بها وأحياها من حياتي ..

لو اكتشفت تلك اللحظة .. لو اكتشفتها وأدع حياتي تمناً لهذا الاكتشاف .. أعرفها وأنا العظ ألعابى ، وأنا أعض عيني إلى الأبد . أعرف اللحظة التي قتلت فيها ، ليس من حق أن أعرف قتي ؟ .. ولماذا قتلتني ؟ ومتى ؟ ..

لا فائدة .. محكوم علي أن أمضي مع ذكرياتي إننا لا نعرف ، ولكننا نتذكر ، لا ندري شيئاً عن الأسباب التي تحركنا وتصنعنا ، ولكننا نعي أننا نتحرك ونتغير وأن هناك من يصنعنا .

وبعد أن أغلقت السماعه لي وجهي .. ماذا صنعت ؟ .. لا أذكر .. لا أذكر .. أه .. يومها خرجت إلى الشوارع ومشيت ، لا أريد أن أعود إلى الجريدة ، كان ورأي عمل كثير ، ومقال جديد أكتبه ، ولقاء مع شهدي باشا ، فرفضت كل هذا ، وألقت بنفسي في غمار الناس ، حتى وصلت إلى ميدان العتبة ، والشوارع الخلفي لدار الأوبرا ، ومقهى الشطرنج . بحثت عن أبي ..

لم أكن أبحث عن المصونة التي تعيد لي سامية ، إنها قد تعيد لي أبي وأمي ، وتعيد لي حياة جديدة غير التي أحيأها . رأيهم يجلسون على مقاعدهم يلعبون الشطرنج ، مضى وقت طويل ، قبل أن يرففوا رؤوسهم واحداً بعد الآخر ، بعضهم نسيني وبعضهم عرفني ، فابتسم يحييني ثم أطرقي برأسه فوق الرقعة ..

هنا ، سمعت أبي يقول :
.. إننا اتجهزتها أسبارح .. أنا علطت .. لكن دي حامل مني ..
وهنا قلت له :

- اما غير الخمسة جيبه .

وهنا ربت اى على كتفى وقال

- انا مرضه أبوك .. يمكن ياخرف .. فخليك أنت لبويا .. والاعد جتبي ..

بكيت

كانت الدموع تتساقط من عيني بفزارة ، أمامهم جميعاً ، رفع الرجل المعوز الأصابع عينيهِ ، كان يعنى قلم يقطع غناهُ ، ولكنه خفض عينيه بسرعة ، حتى يتيح لي الفرصة للبكاء ..

والتفتت على لمسة لكتفى ، اعاد أبى ؟ .. أمو الذي يلعبس كتفى ، نظرت حلقى فوجدت مغالى يقدم لي فسجان قهوة ..

وصرخ زكى بك من طرف الماضى في نهاية اللهى

- اشرب القهوة يا استاذ .. مغالى عاملها مخصوص .. وحاطط فيها صرصار سمعن ..

وضحك كالمجنون ، وضحكت والدموع تبلل شفتى ، شربت القهوة وخرجت ، وبعد دقائق كنت اجلس في مكتبي اعمل والعزى يكتم انفاسى . ليلتها بحثت عن شوقى ، فكرت في قضاء الليلة معه ، وفكرت في ان أحده ليذهب إلى سامية ليتشفع لي ، وفكرت في ان التقي عنده بمبروكة واعتذر لها ، وأسألها ان تصنع عنى ، وأرى لى إبراهيم .

- شوقى راح فين يا محمد ؟

- ما اعرفش ..

زعلت يائساً .

- راح فين ؟

- ما جاش النهاردة يا سعادة البيه ..

ترى ماذا كان يحدث لو انى وجدت شوقى في تلك الليلة ، ان اعرف ابداً . كان لابد ان أمر بامتحان طويل ، لأعرف من أنا ، هل لنا على استعداد حقيقي للتمسك بحبي ونفسي ، أم أنا أمر بتكسة مؤقتة ، قيل ان اوصد أبواب الماضى ، واسطلق في حاضرى بكل ما فيه من كذب وشور ومجد وتجاج ..

في الصباح بدأت أخوض الامتحان - كلمت سامية ، همت -

- أنا أحبك .

ووضعت السماعة ، قبل ان تعلقها في وجهى ..

سأثبت لها انى أحبها حتى ولو رفضتنى ، سأظل أحبها مهما فعلت ، حتى ولو كرهتنى ، حتى ولو تزوجت رجلاً آخر ، سأتعذب بحبي حتى اموت يائساً ..

ولكن سامية لم تعد ترد على التليفون ، وتولت أمها المهمة .

- عايز سلمية ليه ؟

- أرجوكي تخليني اكلمها . فتسب وتشتتم ، واتعمل الإهانة راضياً ، يكفيني ان تعلم سامية ان أمها سبنتى وشتمتنى ، من حقها ان تؤذى ، ان تتأكد من إصرارى على حبها .

وواصلت محاولتى ، وواصلت الأم اطلاق قذائفها ..

عصريوم كنت أسير في شارع قصر النيل ، فرأيتها على الرصيف المقابل ، ساذب إليها ، واركع عند قدميها أمام الناس ، ساقيل الأرض تحت حذائها ، قفى يا سامية ، أنا قادم إليك ، أمنعيني فرصة القتل لك ..

رائتى ، فتجهم وجهها ، وتسرعت في عصبية ، قفزت من الرصيف إلى الشارع تريد ان تميره ، جريت نحوها . التفتت إلى والقسوة تشع من عينها ، لم أتوقع ان تبلغ كراهيتها لى هذا الحد :

- سامية .. اديني فرصة ..

- أرجوك ما تكلمينش ..

كان صوتها صارماً ، وقسوتها والكراهية في عينها تطردانى ، فتراجعت ، لاستطيع مواجهتها - فتراجعت ، لا أستطيع مواجهتها ، إنها أقوى مما كنت أتصور .

اخترقت سامية الشارع ، وأنا واقف مكاني لا أدري ماذا حل بي ، فجأة . رأيتها تسقط على الأرض ، ودراسة تتأرجح براكبها ثم يسقط الراكب والدراجة بجوار سامية . مشيت نحوها حائفاً متردداً ، مازلت أتوقع ان

تصرخ في وجهي ، والتلف الناس حولنا . مدت يدي وساعدتها على الوقوف .
لمستها ، فارتجعت حسدى ، ها هي سامية . لئس نراها ، لئس فستانها .
إيها لم تصع منى . وإنا لم أصع ، مادامت هي في الدنيا ، مادمت أستطيع أن
أنسها ، فما زال عدى أمل .

استعشت ، وكلمت الناس بحبوبة وثقة ، ووجهت إلى راكب الدراجة كلمات
جارية ، ولكن قللتها بصوت طيب مبهج ، لأن أنسى أنه السبب في وصولي إلى
سامية ..

ذهبت بها إلى صيدلية ، لتعالج خدشاً في ركبتيها ، وخرجنا ، من
الصيدلية ، نمشي متجاورين ، بيننا آلة بغير كلام ، وناديت ناكسي ، ركبته ،
وذهبتا إلى الشقة ..

استقرت على مقعد ، شعرت برغبة في تقبيلها ، لكنني تراجع ، كان عقلي
ينصحنى بأن التمهول ، وإن أفقد كل ما كنت أتخيله عندما ألقاها ، أبكى ،
وأركع أمامها ، نعم ، لا بد أن أفعّل هذا ..
وبكيت ..

كان يكاني تمثيلاً أول الأمر ، كنت راكماً أمرغ وجهي في يديها ، أقبلهما ،
وأجهد نفسي كي تنهمر الدموع من عيني ، لتقبل يديها وتسلطهما ، فتناكس أسى
أبكي حقاً

أنا موش لادر أعيش من غيرك يا سامية ..
وانتهرت الدموع حارة صارقة ، أصبح بكاني حقيقياً ودموعى حقيقية
أنا جبان .. سافل .. خريز
خلاص لما سامحك ..

واندمعت أروى لها كيف ساعرت إلى دمشق وهربت من الزواج ، كان
اعترا لي تحمة غريبة ، لم أكن أعرف لماذا سأقول لها ، قبل أن تخرج الكلمات
من فمي وأسمعها ، كما تسمعها هي .

كلما تذكرت شيئاً قلته ، تذكرت أسى ، فرويت لها زواجه بأسى ، فقطت

الثقة بالزواج بعد أن ملكت أسى وتزوج أسى حادمة ، وتذكرت سعد ، فرويت
لها كيف تركتني وتزوجت طبيباً لا تحبه وفقدت ثقتي مرة أخرى بالزواج . ثم
قلب لها بكلمات متلعثمة إن شهدي يا شأ رهس رواجى ، ولكني تحديته ،
أكدت كلماتي ، وأرتفع صوتي ، قلت لنفسي إسى لا أكذب ، فهذا هي
الحقيقة ، ما أعرب هذه الحقيقة ، لقد تحدثت شهدي يا شأ معكاً ، وصممت
على الزواج ، فلماذا لم أتزوج .. لماذا ؟

قلت وأنا غير مقتنع بما أقول :

- ويعدين جات حكاية السفر .. وافقت . . كنت ح . . شجن . . هربت زى أوى
جبان

لا .. هذا كلام سخييف .. صحت غضباً من نفسي

- سامية .. تعالى نتجوز دلوقت .

- لا .

هتلفت متوسلاً :

- لازم نتجوز دلوقت

فصاحت وقد عادت إليها فسوتها

- أنت موش عايز نتجوزنى ..

- أنا بحبك يا سامية .. ما تشمينيش ..

قالت ساخرة

- احنا موش بنحب بعض .. خلاص .. بلاش جواز دلوقت ..

غمزتني راحة غامضة ، كنت مرهقاً ، لا أدري ما الذي أفعله ، وما هي
ترضى يتأجيل كل شيء ..

تأجيل كل شيء إلا الحب ، وتنادى الحب

وصلت عقتي ، وتنادى الحب

مع مرور الأيام هدأت نفسي ، وشعلت معلى ، وكنت أدرك أرمئى للنفسية
التي مرت بي فاعجب الآن أستطيع التفكير بهدوء ، بمقررات حاسمة ..

! ما الذى يعنى من الجمع بين رئاسة التحرير والزواج ، سانتوز فرصة تأجيل زواجنا ، وأحصل على رئاسة التحرير ، وعندئذ أتزوج سلمية ولا يستطيع أحد أن يعترض .

كيف أصل إلى رئاسة التحرير في الوقت المناسب ، قبل أن يتقد صبر سلمية ، لا بد أن أعمل بسرعة ، هل لنا شريد إذ أفكر على هذا النحو .. لا .. لست شريراً . محمد نحى لا يصلح لعمله ، إنه عقلية قديمة ، وأخلاق قديمة .. انتهت أيامه ، وضميره أكبر من معه .. من مصلحة العمل أن انتقم وأحتل مكانه ، ليس في هذا شر ، إنه سنة الحياة ، ولكن كيف أصل إلى ما أريد ..

فكرت في مصارحة شهدي باشا ثم ترددت .. لم أعود أن أطلب شيئاً من أحد ، عندي إحساس قوى بأن الذي يطلب لا يأخذ ما يطلبه ، لقد تعودت أن أظهار بأنى لا أريد ، فأحصل على ما أريد .. هكذا وصلت إلى مركزى الحال .

عجزت عن التفكير في خطة سريعة لطرد محمد ناجى .. لم أسترح للتفكير في مؤامرة وخفت أن أحاول فأفشل ، لست ماهراً في هذه الأمور ، ومن السهل على رجل مثل محمد ناجى أن يكتشف ما أديره له ، أفضل شئ هو ألا أدير خطة ، وأتسلح بأسلوبي القديم ، أعمل وأعمل ، وأترك محمد ناجى ينهار وحده .. إنه لن يهتمل وجردى ..

صدق ظنى . ثم تمضي شهر قليلة حتى نادانى شهدي باشا في مكتبه كانت عيناه تفيضان بدموع طاع ، وكأنه في يوم عيد .. وضع يده على كتفى وهرزنى برفق وسألنى

- أنت مستعد شقى رئيس تحرير ؟

- أبوه يا باشا .

- خلاص مبروك

- سألتك وقلبي يحقق قلقاً

- ومحمد نحى

- ح يسافر لوروى . ويكتب مقالات من هناك .
قلت خائفاً .

- أظن مش ح يرمى ..

- صاح متلهلاً

- دى فكرته ..

- غريبة .. إزاي ما قانديش .

- قال ساخراً :

- ماقيش داعى إنه ييجى يقولك إلك انتصرت عليه ..

- صحت مستكراً .

- أنا ما انتصرتش .. ما كانش فيه بيننا معركة .. بالعكس انا كنا هادين حالص في الأيام اللي فاتت ..

- ضاقت عيناه وقال بخبث تعمد أن يظهره

- عارف .. عارف .. أنت برىء من كل اللي حصل . أنا السبب
وقهقه كشيطان .

- أسرع إلى الأيام ، واقصصت مكتب محمد ناجى ..

- إزاي ح تسيبنا ..

- قال وهو يبتسم :

- البركة فيك .

- لكن أنا موش ح أعرف اشتغل وأنت بعيد عنا ..

- رفع صوته :

- لا تقدر .. وأنت عارف كويس أنك تقدر ..

- ح تنقصنا خبرتك ..

- بدا عليه التردد ، كأنما يراجع كلماته ، ثم قال :

- شوف يا يوسف .. تأكد إننى موش ح اضايك .. خلاص ، أنا عايز
أستريح ..

وابتسم ثم قال بصوت شارد

- أوعى تفكر إنى بأعمل كده يسببك .. بالعكس .. يمكن ح تعرف في يوم من الأيام إن رئاسة التحرير اللي كنت بتحلّم بيها دى لكبر مقلب شريته في حياتك

وجئت .. كان حالى غريباً .. فرح كبير في قلبي ، وحزن كبير في عقلى .. لم أطلق البقاء في الحجرة .. مهمست

- موش عايز منى حاجة ؟

قال في ادب شديد

- لا .. متشكر .

وقبل أن أغادر مكتبه ، قال باسمأ

- على أى حال إحنا لسه قدامنا شهرين قبل ما أسافر .. طبعاً ده سر ..

جـ طبعاً ..

أهكذا تم كل شيء ، حققت أحلامي ، ووصلت إلى القمة .. لا أصدق . هناك خطأ ما . الذي يلزمنى أن سامية تحبني وساتزوجها ، إنها ليست الخطأ الذي أشعر به .. إنه خطأ ضخم ، طبع ، ولكنى لا أعرف ما هو .. لم أبح اسمية بالسر ، حتى لا يحدث أى خطأ من جانبي يؤدى إلى عرقلة خروج محمد ناجى من رئاسة التحرير .. وكنت أقابل سامية فأحاول أن أستعيد معها أفراسنا القديمة ، ولكننا منذ رجوعها إلّى وهى تعانى من اضطراب أعصابها ، أحياناً تضحك وتصرخ وتسمدنى ، وأحياناً تغضب لأنّنه سيب ..

- أنت كنت فين .

- عندى شهدى باشا يا حبيبتي

- يا مرحتى مشهدى باشا متاعك

وتستعمرى حتى ششاجر ، ثم أعد أهمهما ، وأصبح لقاؤنا مرهقاً تهجم على تقلى ، ثم تدفعنى بيدها ولا تترى أن اسمها .. أسبقها أن تسهر الليلة فترفض ، وتصمم على زيارة صديقتها يولاندا وتعود إلّى لتغيظنى بأنها

راقصت مع شبان لا تعرفهم ، غائور وأغضب ويتأبى الشك في صواب زواجنا .. ثم تصحك فجأة ، وتقول ببساطة -

- أنا ياغيك ..

- يا سامية دى موش طريقة ، احنا ح نتحور ..

تقول بغير اكتراث

- أنا موش بتاعة جوان ..

وتنظر إلّى في إغراء ، أتقدم منها ، محاولاً مصالحتها ، والحب يتجور في

قلبي ، فتصرخ :

- ابعد عنى ..

- إزاي تكلمينى بالشكل ده

- عاجبك ، عاجبك .. موش عاجبك نسيب بعض .

أكتم غضبي ، لن أراجع فيما أعزمته .. لن أتركها أبداً ، إنها لا تثق بي ، وهى على حق ، لا بد أن أتحمل اضطرابها وعنادها حتى أستعيد ثقافتها .

قبل أن ينتهى الشهران بأسبوع واحد طليت منى فجأة أن أتزوجها في

الحال ..

- طيب يا حبيبتي .. بس بعد شوية ..

- ليه ؟ ؟

- الدنيا مقلوبة في الجرنال .. علشان أديكى فكرة .. محمد ناجى ح يسبب

رياسة التحرير ، وأنا ح أبلى مكانه ..

لم تكثرت بالنبا ، كانه لا يمنىها ..

وقالت في عناد :

- لازم نتجوز ولووقت .

- خليكى عاقلة يا سامية ..

فثارت قاتلة :

- دى آخر علاقتى بيك .. راقبتها في ذهول ، وهى تندفع نحو الباب ،

وتصفقه ورأعها ..

كدت أجن ، أهدأ هو الحب الذي من أجله أوشكت أن أضحي بعمل
ومستقبلي . فلتذهب إلى حيث تريد ، ولكنني أعرف الآن جيداً أنها لا تستحق
أن أحلم حياتي من أجلها .

وانشغلت عن سامية بأحداث سريعة ، إذ فوجئت بشهدي باشا يهدد
لرئاستي التحرير ، بإجراءات حاسمة ، كان أبشعها القبض على شوقي .
قال في هدوء شديد

- الواد الشيعوي اللي عندكم .. أما ربحتكم منه .

وهنق في وجهي .. كانت أطراف مثلجة ، وهمست

- أمرك يا باشا ..

- أنا عارف أنك ح تتصايق ، لكن ده احسن .

قلت بصوت مخنوق

- أنا خايف يكون مظلوم

صاح محتداً .

- ماتبقاش أهبل .. أنت داخل على شغلانة كبيرة .. رئيس التحرير ده قائد

جيش بيحارب ما يقدرش يغفل في صفوفه خونة ..

قلت بأنساً :

- أنا موش مستعد اتناقش في الموضوع ده

أطرفت ولدت امتلا رأسي بوجه محمد ناجي بيتسم ساخر أويصيح في

شمامة .

- ح تبقى عبد ذليل ..

بعد يوم أويومين كنت أجس على مكتب محمد ناجي ، أستقبل التهانئ من

المصريين والراشرين ، والتليفونات تدق ، والبرقيات تتكوم على مكنتي ، وأنا

واتق أن هذا غير حقيقي ، مجرد حلم ..

وغادرت المكتب ، ومن خلفي حاشية كبيرة ، وهبطت إلى الباب الخاوي ،

ووقفت أنظر عرسي أشيعرونيه الجديدة ، التي أهداها لي شهدي باشا .



أقبلت العربية ، وفحاة مرق أسامها طفل صغير ، كلفت تدهسه .. انخلع قلبي ، وقيل أن أفيق هجم الطفل عز في يده ورقة ..
حاول بعض من حول أن يظفروا الطفل ، ولكن شيئاً في عيني شدني إليه ، عيانه تنفذان في عيني ، وتحركان حنيناً غامضاً نحوه ، وخوفاً منه ..
مددت يدي وأخذت الورقة منه وهو يرفع رأسه الصغير إلى ، وعيانه ما زالتا خطيرتين بأعذنين .
وقرات .

سيدى المحترم سعادة يوسف بك أدام الله عزه أمين ..
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
.. أما بعد مقدمه إبراهيم عبد الحميد السويقي ..
أخى إبراهيم ...



هربت من وجه إبراهيم إلى الورقة التي في يدي .
شأنيلكم المخلص أبول الأمين .. عطفكم وكرمكم .. فقير يقيم .. ليس
عنده طعام ..
كذب ..

هذا الطفل ليس أخى .. مجرد مقبول جاء بيتز مقودى ، يلوث عريتي الجديدة . يهدم الاسم الكبير الذى صنعت ، يؤذى الهامى ، أن اصدق حرفاً واحداً في هذه الورقة ولكنى محاصر ، كيف أرفع وجهي عن الكلام المكتوب وأواجه عيني ؟ كيف أقول له ما في نفسى ؟

وسمعت صوتها ، صوت سرورة
جاءت الخادمة ..

ابشمت .. لا أمك سوى أن أكون لبقاً ، مراوفاً ، أزمة قصيرة ثم أركب عرسي وأهرب ..
- أزيك يامبروكة .

أخفيت الورقة في جيبى ، ومددت يدي أصابعها ، سيقولون إنى رجل متواضع ، أمد يدي للفقراء إنها تقبل يدي ، حسا فعلت ، لن يدرك أحد أنها زوجة أبى ، سارده لها المحملة .
مددت يدي وتحسست رأس إبراهيم
قلقت

- شفت كبير إزاي ؟

- ماشاء الله .. بأه راجل أمه

كانى واتب بك ، أو شهدي ماشا ، لم يبق إلا أن اتخلص منها ، أخرجت جيبها ، خذيه وإذهبي ، إنى أوقع الثمن ، اشترى لحظة الخلاص ..
صرخت ..

- أنا عوش عايزة فلوس

ما الذى يقوله شهدي ماشا في هذا الموقف .

- آمال عايزه إيه ..

- ح تديني فلوس وتسيبنى

صوتها مجروح ، جرحى أعرق يامبروكة ، بعدى ، لا ، لن أضعف ، لم

يعد هناك مجال للتخاذل

- أنا مستعجل دلوقت

- رايح فين ..

ليس من حقك أن تسألنى ، ذاهب إلى نادى محمد على ، سأقابل شهدي ، سأشرب الويسكى بالصودا ، ذاهب بعيداً عنك ، مكتئب نظيف ، نادى محمد على نظيف ، لا تراب ، ولا فقر ، ولا تسول ..

هجموا عليها يبعدونها عنى ، دخلت عربتي ، كانت تصرخ ، تولول ، تريد إيقاف العربية ، ولكن السائق اقتحم طريقه ، ابتعدت .

يوسف يارخص ، يأسهل ، ياصعب ، تفر من الخادمة من الطفل ، إلى أين تمضى ، لن يخلصك منها إلا سماع بيا مصرعهما ، لن تتخلص منها أبداً ، ستذكرها ، القلب ينحس أنا وحزنا ، الأمانس تصعد وتهبط محرقه ..



- سيادتي راجل ميتعدب
- إحنا مفقد بيك
- تدفقت الكلمات من فمي
- أنا مع الثورة مقلبي موش معنى بس .. لأنى شفت القرف اللي إحنا عايشين فيه ، شعت واحدة زى مبروكة متقى ربرى علشان تعرف تعيش وتهدت مرة أخرى وفمست فى أسى
- تسمح لى ابنه لحمدى ..
- نظر إني فى غير فهم ، ولكنى رفعت السماعه ، وطلبت حضور حمدى على الفور .
- حمدى راجل أمين .. وببشفتل من زمان هما .. فى الإدارة .
- وجاء حمدى ، قلت له
- أنا هايزك ياحمدى تقول للىيه .. الى إحنا عملناه مع مبروكة ..
- فاجاه طلبى ، فتلعثم ، ثم بدأ يروى للضابط .
- يوسف بيه بعثنى .. أعرض عليها نفقة .. مارشيتش .. وشتمتنى ..
- بعثنى تانى وقلت له إحنا مستعدين ندفع لك خمسين جنيه و الشهر ، بس تبعدى . يعنى ما تعملش ابنى بتعمله . برضه شتمتنى ومارشيتش .
- همس الضابط بعد خروج حمدى
- أنت عملت الى عليك .
- هتلف مستدا ..
- أنا باكتب عن الاشتراكية بدمى .. باكتب علشان مبروكة
- قال فى احترام كبير
- أظن ده مفهوم عند المسؤولين .. وأنا هاى هنا علشان نشوف طريقه ندافع بيها عنك ..
- صحت
- موش عاير دهاع .. موش محتاح له .. لو حببت ابنى الف وسط ميدان التحرير واعترف للناس إن ربرى هي مرأة أنويا أنا مستعد .. دى موش

فضيحة .. ده شرف .. أنا متعوز متهان .. لكن يأحارب علشان أسترده
شرف .. مبروكة ما تهمش دلوقت .. المهم .. إن مانيش غيرها يتيهول زيه ..
إحنا بنعمل علشان مجتبع أفضل ..
وأغورقت عيناي ..

وأغورقت عينا ضابط المخابرات خرج مبهورا ، يؤمن بآتي شهيد .. يقسم
بآتي نبى ، العلق الابصر ، ارتفع فوق الامى من أجل وطنى ، من أجل
العاس ..

نقل الضابط ما دار بينى وبينه إلى رجال الثورة ، رأيت الشفقة في
عيونهم ، ورأيت الاحترام والتقى ، ورأيت مستقبلي يتفتح إلى مجد اكبر ..
كذبت ببراءة ، حلمت أحلاما كبيرة وأنا أصنع الشيء الرخيص ، تمرغت في
الغذارة ثم أعلنت في غباء أنها شرف ، نبضات قلبي تنفث الشر والخير ..
وكانت معجزتي ..

صدقوا براحتى ولم يصدقوا كذبي ، وثقوا بأحلامي الكبيرة ولم يروا أفعال
الرخيصة ، رفعوا عني الغذارة وأسبقوا على الشرف ، سمعوا دقات الخير في
قلبي ولم يسمعوا دقات الشر ..

دخلت بثينة سكرتيرتي وقدمت لي بطاقة ..

- يقول إنه صاحبك من زمان .. وعازب تحدد له ميمه ..
قرأت اسم سعد عبد الجواد .. ففكرت من المكتب ، غير مكترث بدهشة
بثينة ، وقمت الباب ..
ثم انقنا ..

السنون دهست وجهه ، الشيب في رأسه ، عيناه ذابلتان ، ظهره مقوس ،
على شعته إبشامة شاحنة ذليلة ..
ضحيتي ، إحدى الجثث التي قتلتها ، ما الذي جعلني أتدفع إلى لقلته ..
لقد تورطت ..
- إزيك ياسعد ..

قال يارتياكه ..

- أرجو ما أكونش بازعجك ..

- أبدأ .. أبدأ .. بالعكس أنا مرحان إلى شفتك .. هيك متعمل إيه .

- زى ما أنا ،

- وكل ثيابة ؟

- قلضى ..

- يعني بقيت حاجة مهمة .. للواحد يحاب منك ..

ما استخف هذا الكلام ، إنه يعلم جيدا إنى أحسن منه ألف مرة ، ما أغرب
مخظه ..

- أنا في المنصورة . باجى مصر كل خميس وجمعة .. وكل مرة أفكر أهوت
عليك .. ويعدن القول لنفسى لازم مشغول .. ولا زمانه نسيك ..

وأتسم في قلق ..

قدمت له طبة السيجار .

- اتفضل سيجار ..

نشر إلى الطبة ، وقال مترددا

خسارة في ..

قلت لي حملس :

- موش خسارة .. إيه الكلام ده ياسعد .

والله لا تأخذ اللعبة كلها .. وألحقت عليه ، حتى أصبحت الطبة بين
يديه .

وزاد ارتياكه ، واتجهت عيناه إلى الباب إنه يفكر في الخروج ..

- متجوز ياسعد ..

- وعندي ثلاثة .. ولدين وبنت ..

المفعل ، يضيع وقته في انتخاب الأرانب ، يوما ما كان هذا المخلوق هو أنبيخ
طلبة الكلية ، إنهم لا يعرفون الحياة ، ضائعون عاديون ، لا أشك أنه
سيقبلهم أمام معارفه بأنه زارنى ، سيداد احترامهم له ، يجب أن احتاط ،

ما يذيرني أنه شخص نظيف ، لقد كان شيعياً ، أليكون هناك سروراء زيارته

ي

- وليس مرضه عندك أفكارك أياها ..

السلامة تطل من عينيه ، إما أنه ممثل ماهر ، أو قد نسي كل شيء

- أفكار إيه ..

- الشيوعية

- صحك في أسي ..

- ده كان زمان ..

- بتشوف شوقي ..

- لا ..

- أنا سمعت لحد ما طلع .. ببشتغل دلوقت هنا .

قال بصوت ميت :

- هنا .. يعني بتشوفه ..

- من وقت للثاني .. موش كثير ..

همس

- طبعا أنت مشغول .. على أي حال هو .. في حمايتك ..

لم يعد هناك ما نقوله ، انقطع الحديث ، وانتابني ملل شديد ، رفعت رأسي وهددت في فضاء الغرفة ، وشردت أفكارى بعيداً به حتى سمعته يستأنن للانصراف .

مددت يدي مصافحاً ، وقلت بصوت شارد ..

- مع السلامة ..

وخرج ، مطرق الرأس ، مقوس الظهر ، حطام ..

شوقي صاحب اللبدا في حمايتي .. سعد الذي تخلى عن مبادئه في حمايتي ، شهدي صاحب المال في حمايتي ، محمد تلجي الذي انهار في حمايتي ، إنتم جميعاً في حمايتي

مبروكة ليست في حمايتي ، إنها تتحدثني ، البغي ، الخادمة .

لو تموت

إني أستغلها ، أعترف بقصتها لاستثير الشفقة ، لأدلل على دافعي الخالص للإيمان بالنووة ، الثورة من أجل مبروكة وأمثالنا الفقراء ..
أه لو يعلمون -

لو يعلمون أنني في حماية مدروكة

كم استعدت من مدروكة ؟

رفعتني سقوطها ، طهرتني دعارتها .

لن أنسى أحداث الشهر الماضي ، البلد ثائرة ، المشاعر خصبية فياضة ، أممنا القتال . الانجليز والفرنسيون يهددون بالقتال . مقالاتي ترتفع إلى مستوى المعركة التاريخية

وأطل حمدي برأسه من حرجة الباب

- أما عايز أكلم سيادتك

وجهه مريب ، صوته فحيح ، دخل كائنصر ، وأخرج من جيبه خطباً ..

- الجواب ده باعته محمد ناجي من باريس .

- مقال .

قال بصوت مكتوم :

- أحسن سيادتك تقراء

وقرات

الشعلب القديم مازال يراوغ ، يطب من حمدي الاتصال بمبروكة لتثير فضيحة ، وترفع هدى قضية بعة

ابتسمت .. كان حمدي مضطرباً ، وجهه أصفر .

قلت هارتا

- مالك يا حمدي .. قلقن ليه ..

- موش عارف اتصرف إزاي ..

.. راحل مجنون .. سبيل العوايب ..

- وأمر له إيه .

- ولا حجة

- ولما يرجع

- قوله بك رحت لها ورهصت ..

كان خطاب ماضي بصرا جديداً لي ، أطلعهم عليه . محمد ناجي يتأمر ، يريد أن يخطمني ، واقتنعوا بكلامي ، وقرروا القضاء عليه .

ستذهب يانا جي إلى السجن ، كما ذهب شوقي ، وستأتي سامية إلى ، كما أتت مبروكة

أنت في السجن ، وسامية في فراشي .

الحياة بهيجة ، القوة نشوة ، النغمة لذيذة ، المبادئ حلوة .. كالسيجار الفاخر .. ما أروع أن يكون الإنسان قوياً ، ما أروع أن يمشي الإنسان القادر فوق أشلاء ضحايا .

يايوسف ، ياخيصر ،

ليس من أجل هذا ، أنت تتذكر حياتك ، لا تنس تلك الليلة التي زارك فيها شهدي ياشا وأنت تتبع برقيات وكالات الأنباء

- الظاهر أنهم ح يعملوها يايوسف ..

- تفكر ياشا

قال بصوت قاطع :

- أكيد .

- ما اهتمكش .

- أنا عارف الانجليز كويس .. والفرنساويين ألحن منهم .. موش ح يستكروا .. مستحيل ..

انتابتني قشعريرة ، خفت ، ماذا يحدث لي لو جاعوا ، أنت يا شهدي ستكون أول المتكلمين ، وياحي ، سيعلقني بيدي في حبل المشنقة . سينشرون قصتي في حلقات يومية في جريدة الأيام . سيفعلون شعار الأخلاق ، سيقولون

إني قريب العاهرة . سيجولون الشهيد إلى ماهر سينشرون الشروبيجيدون أنهم الخبراء في اكتشاف الخمر ..

لو استطيع أن أكسب شهدي ياشا إلى صعي ؟

- ياشا .. أنا متفائل .

- وأنا متشائم .

- تبقى كارثة ..

- طبعاً ..

صوته يرحب بالكارثة ، قلبه يمتظر الكارثة .. لابد أن أذيع عن نفسي ، السبيل الوحيد هو أن أستمز في تمثيل دوري ، أتمسك بشرق بكل ما في قلبي من أطماع ، أقاتل ببسالة لأحتفظ بلجد الشريير ، أرفع رأسي في نبل ، لأظل واقفا فوق أشلاء الضحايا ..

- إحتاح تحارب ياشا ..

- تفكر نقدر ؟

- ح نموت بشرف ..

- ح نموت برصاصة تمنها سليم

- دى بلدنا .. دى مياطينا ..

ابتسامة تمرح في داخله ، الملح طيلها في عينيه ، ولكنه لا يلمصح عن فروجه ، يقول شامتا .

- ربنا يقويك .

مد لي يداً داغمة طرية ، وذهب .

وجلس إلى مكتبي أكتب مقالاً ألحن فيه الانجليز والفرنسيين .

هذه الكلمات التي كنتها ، ستكون يوماً ما رصاصاً يخرق صدري ، حبالاً تلتف حول عنقي . أليس هذا جنون . الشرف يفضي إلى الشرف ، الجبن يفجر الشجاعة ، الأعمال الرخيصة تلتف بالأحلام العظيمة ، الأحلام العظيمة تنصهر على الأعمال الرخيصة ..

جنون ، أم حياة ، لا أدري . لينتي استطيع أن أهم

الفصل الثاني عشر

ذهبنا لاستقبال محمد ناجي في المطار ، كانت مظاهرة ضخمة .. استأذنا
الضابط يعون . الليل مهيب ، السماء صامية ، وانجوم زرقاء ، حلوه بعيدة ..
ترى ماشكل محمد ناجي الآن ؟
وابنه شريف ؟
الطفل الذي لم أنجبه ؟ الطفل الذي ضاع مني ؟
كنت يوماً ما طفلاً مثله ؟
يوماً ما ..
كان هناك طفل اسمه يوسف .
يوسف عبد الحميد السموي .
الوداع يا يوسف ، الوداع لأخر مرة ، فقدتك ، لن تعيدك إنني دموع ،
ولا ذكريات . ولا طنترات تهطم من السماء ..
يا طفلي ، يا حبيبي ، لو ألتصق مرة ، أتحنس خذك ، أسمع صوتك أنظر في
عينيك ، أغرق فيهما .. لو تضحك معاً ، يدي في يدك . يا طفلي .
كم أنت حلو ..
يرى ..
معيد ..

لم تمت يا طفلي ، يوسف عبد الحميد مارل يعيش ، يرتدي بطلونه



القصر ، يمشى خاتفاً في الشارع ، يرقب أنفـس من النافذة يهرب معه إلى
ميدان المحطة ، يتمنى لو يأكل السمك الملقى من الدكان عند الناصية ..
يوسف يحب سعاد ، يوسف يخجل من البنات ، يوسف لا يريد شيئاً من
الحياة

أهـ

الليل مهيب والسماـء صافية ، والمحوم زرقاء ، جلوه ، يعيده ..
السماـء تحاصرني ، الصجـراء تحاصرني ، الدنيا ضيقة ، الفضاء
أكـدوبـة ، البصر يرتد طمعه في القلب ، الخيال يرتطم بجدران الرأس الانقباس
تعود ترتد إلى الصدر ..

- يوسف بيه .. يوسف بيه .. من هذا الهاتف اللاهث ، إنه حمدي ..
- الطائرة وصلت بأسعادة البيه .
- فين ؟ ..
- ح تظهر حالا فوق المطار ..

فوق المطار ، في السماـء ، كنجم ليل ، الأب والأم والأبن ، هابطون يطعمون
القلب ، يرتدون إلى الصدر .
- سعادتك تامر بجاجة .
- لا .. يا حمدي .
- كل شيء جاهز .. الجمرك .. الجوازات ..
- طيب .. طيب ..

لو يتركني ، لا فائدة ، هاهم قادمون يلتفون حولي ، العميون تدور في
السماـء ، العميد يتصاهرون بأنهم مازلوا عميداً ، السيد القديم عائد-أنتم
عبيدي أنا ، بامري تاتعمرون تشمسون حين أبتسم ، فتجهون حين أتجهم ،
كلمة منى تحرككم ، إشارة من يدي تحرككم ، تشيع فكم الاضطراب .
لو دم أكن هنا لما استملك أحد ياباحي ..

المطار فسيح ، الناس كالعمل ، الأنوار الحمراء والزرقاء تمتد حتى نهاية
الأمق .

كل ما أراه يعود إلى صدرى .. يطعنى .
- الطائرة أهى يسعادة البيه .
- وصلت في البعـاد .
- سعادتك متفصل ؟ ..

هذه الأنوار الكاشفة لا تفعل شيئاً ، تدور حول نفسها في ملاءة ، النور
يعمى البصر ..

مرحباً بك يا ضجيج ، ارتعشى بالصوات ، صبحت وهتاف في الميكروفون ،
وأزيز محركات ..
طنين يخمد الهمسات .
لو تخدم الهمسات

- الطائرة على الأرض .. اتفضل يا يوسف بيه ح يدخل عند الطائرة .
هيا نمش كأننا في نزهة .. ابشموا يا أولاد ، الطائرة هبطت ، المعجزة
تمت ، الجريمة تعود إلى فاعلها ، هيا نمش ، سراعاً ، خلفاً نصفر لعن
أفنية ، بعد خطوات سنلتقي بأحبائنا
كان لنا يوماً أحباب .

انظروا كم هذا الفضاء خدعة ، نمش ولا نتقدم ، الجهد في القدم والمسافة
لا تقصر ، الهواء يلفح وجوهنا ، والصدر يبحث لاهثاً عن هواء ..
لو كان هذا حلماً ..

ألمع إنني في مطار .. استقبل محمد نجى ، وسامية ، وشريف ، ويهبطون
من الطائرة ، يهبطون من هذه الطائرة الأربضة أماناً

ويلتقى ..
ولكن ليس طمأ ..
إنه الحقيقة ..

مطار ، وطائرة تهبط مدحاً محمد ناجى ، وسامية ، وشريف ، وتشنك
أبيدنا ، وتختلط كلماتنا ولا تلتقى ..

أنا لا استعبدك يا باجي ، لا أنت ولا سلمية ولا شريف ، لا استعبدكم
أنتهمور ؟

حنت لأعيركم ، لاتعاشاكم

- فتحوا باب الصيارة ياسعادة الله ..

الليل مهيب .. يعن العدد على موت لقاء

- نجى بيه أه .. عى السنم .. المدام وراه

سامية ، الحب مات ياسامية تحول القلب إلى قبر ، تحول الرأس إلى حجر
تتكسر فيه الذكريات ، لا شيء استطيع أن أضيفه إلى الذكريات المكسرة
أيمكن أن أحب من جديد ؟ ..

أين المرأة التي أحبها ؟ أين المرأة التي أدفنتها في المقبرة ؟ لو اتخلص من
حبك ياسامية ، لو اتخلص منك يا باجي ..
لو انتحر يعيش يوسف ..

يا قلبى افرح .. يا وجهى تهلل يا غطوى اسرح ، يا يدى امتدى ، أيتها
الاشياء المركبة في ، تحركوا العيوا دوركم ، أنا سيديكم ، وأنتم عبيدى ،
أطعمكم ، اكسوكم ، أنفق عليكم المال ، لا تذلولنى ، لا تخافوا ..
ها هو الأستاذ ، اتجهى يا القدامى نحوه ، افترى يا شفتائى ابتسامة ،
اتسعى يا عيائى ..

لا .

ها هي سامية .. سامية أولا .

ثبت الابتسامة ..

امتدت اليد ،

اتسعت العيالى

خامسى صوتى ..

- أهلا .. إزيك يا يوسف . ليه كلفت خاطرك .. تعال لما أبوسك .. أنت
واحشنى خالص .

أهذا صوتك يا باجي .. مارلت قادرا على الكلام ؟ الموتى يتكلمون ؟
يعانقون .

لا بد أن أقول شيئا ، تكلم يا معى ، أه .. هذا المور الكاشف الاول ..

- البلد نور

- إزيك يا يوسف

- موش عارفين تعمل حاجة من غيرك .

- البركة فيك ..

- أنا ملخوم قوى

- ده أنا اللي محتاج لك

- أنت أسنادى .. الأمر ..

- عايز اهدك أنكلت معاك ..

- أمشى ؟

- تيجى تتعدى معانا بكرة ؟

- حاضر .

- سامية اعملى حسابك يوسف ح يتعدى معانا بكرة ..

تكلمت ، اندفق الكلام ، كنت أظن أن انكلام محال .

- يوسف .. أنت ماسلمتش على شريف ؟

أهذا سؤال يرى يا باجي ؟ ، تريد أن تواجهنى بطفل ، نحن نلعب لعبة
الموت ، مالنا ولعبة الولادة ؟ أخى إبراهيم لم يعد طفلا ، يقاتل من مال
الدعارة .. دعارة أمه تغذى جسده ، وتغذى روحى ، الويل لى من الأطفال ،
الخطر فى عيونهم ..

- إزيك يا شريف سلم . الله أمت مكسوف ؟

لا . أنت تفهم من أنا

أنا القول

يا حبيبي ، دح العول يتأملك ، اصمح له أن يدعم وجهك ، اتعرف مكان
يوسف ؟ إنه طفل مثلك ، أرايته فى باريس ؟ .



١٨٦٤

- عملت إيه في أوروبا يا شريف ؟
لا يجيب ، سامية تحببته .. تخاطبني خيالة عنه ، أنت أم هذا الطفل
ياسامية ؟ ..

حبيبتي سامية ، أتعرفين مكان ، يوسف الذي أحبك ، لو قابلك لا ترفض
حبه ، إنه يحن ، وسيظل يحنك .

يحنك وهو يرقب السحاب ، كان يوسف يرقب السحاب

يحنك وهو يسمع النغم ، كان يوسف يسمع النغم ..

يحبك في الليل ، يحنك ويطلق عليك جفون عينيه ، كان يوسف ينام .

يحبك وهو ضائع ، يحنك وهو فقير ، يحنك وهو ناجح ، كان يوسف
ضائعاً فقيراً ناجحاً

أوصيك به ، إنه يحنك .. سيظل يحنك ، حتى ولو اختفى كل السحاب من
كل سماء ، حتى ولو لم يعد هناك ضياع ولا فخر ولا نجاح أحبك ياسامية ،
لا تتركيني ..

- عن ذلك الأستاذ محمد مشي .

- انفضي يا فندم كدداً نلتقي ..

●●

جريدة الأيام توزع يومياً مائة وخمسين ألف نسخة ، يقرأها أكثر من
نصف مليون قارئ ، تنقل أخبارها وكالات الأنباء . يتلو المذيع كل صباح
فقرات من مقالاتي ، التليفونات تدق بهنترني يسألوني عن تفاصيل
الأخبار . يرددون مقابلاتي ، المحررون واقفون بالباب ، على مكتبي مرفقات من
لندن وواشنطن وباريس ونيويورك . الأسطول الفرنسي يتحرك من طولون ،
فرقة انشباطين تتجمع في قبرص الجيش المصري في حالة تعبئة .

أحداث ضخمة ، ولكنها لا تمتد إلى القلب ، ترتطم بسطح جلدني وترتد ..
بعد ساعة ، سأذهب إلى بيت محمد ناضي ، وأقابل سامية ، لا شيء أهم
من هذا في العالم كله

أريد أن أبعث يوسف القديم ، العفيف . أنخل بين سامية وتلفها لا ألوثه

فإنفكاري ، أبدأ حياتي من جديد ، ما فات مات .. منذ هذه اللحظة سأنتفس
الصدق ..

ياناس ، يا أهل مصر ، يامن تحتشدون لمحاربة العدو ، يامن تدافعون عن
قنال السويس ، هل أنتم قادرين على الدفاع عن لحظة ذكرى تمر بي ؟ ..
لحظة دم ؟ ..

هل أنتم قادرين على أن تبينوا لي ، ما هو الصدق ؟ وما هو الصواب ؟ ..
أنا أعلم ..

الصدق في نفسي كذب ، الصدق انحطاط يرتفع فيه النيل ، براعة ترتكب
الإثم ، طفولة تشيخ ، جسد يامرئى وأمره ، عقل يحكمنى وأحكمه ، قلب
يفيض بالحب ليقبض بالكرهية ..

الصدق تأفه عظيم ، غال رخيص الصدق هو حياة يوسف ..
الصواب نصف الصدق ، الخير نصف الصدق ، الحب نصف الصدق ،
العطلة نصف الصدق ..

الصدق صواب وخلفا ..
أه لو تعلمون ..

أه لو تعلمون للصدق ، أه لو تواجهون الصدق ..
أنتم تدافعون عن بلدكم بالشرف والنذالة ، تكبرون بالنضحية والجشع
تحبون المبدأ والثمن ..
الشرف الوحيد الذى نملكه ، هو أن نعى الصدق ، أن نواجهه ، ونعيش في
نعاسة عظيمة ..

لو أكتب هذا المقال ..

لست خائفا ، الخوف ضاع ، والمعرفة أقيمت ..
لا يبهزنى الشرف ، ولا يقهقنى الشر ، الكشف تم ..
من الذى علمنى هذا ؟ ..
الليل المهيب فى المطار ؟ ..
وجه شريف ؟ ..



كل الشرور التي ارتكبتها ؟ ..

إلهام مفاجئ ؟ ..

أحداث العالم ؟ ..

مازال ينقصني شيء ..

من الذي علمني هذا ؟ ..

●●

جلسنا إلى المائدة نثرثر ، الكلام تافه والجروح غائرة ..

سألني ناجي ..

أنت مالك ساكت يابوسف ؟

.. أبداً ..

.. دى سامية عندها كلام كثير عن الموضة في باريس ..

سامية عندها كلام كثير ؟ فهنتك يانا جي ، ما أعظمك ، ما أصدقك ، كيف

ارتفعت وسموت إلى هذا المد ؟

أنت لا تقصد الكلام عن الموضة إنني أعرف جيداً ماذا تعنى ..

تريد أن نواصل الكلام الذي انقطع منذ آمد بعيد . نواصله امامك ..

ليس هذا بأساً ولا انهياراً يانالجي ، هذا وعى من نوع غريب ، وعى رجل

عظيم كانك قابض على الصياة بين يديك ، أنت تعلم أن كل شيء قد انتهى

بالنسبة لك ، ومع ذلك لا نريد أن يفوتك ما بعد النهاية ، تريد أن ترى بعينيك

ما سوف يحدث بعد موتك ..

ما سوف يحدث بعد أن تترك سامية وتغيب أنت وتتركها لي .

ما أعظم تعاستك يا ناجي ..

.. سامية ساكنة كمان النهاردة .. مش عارف ليه ..

أجاب سامية في غباء ..

.. الظاهر أنا تعبت يا محمد ..

أفهمي مايرسي إليه زوجك ، إنه في صحوة الموت ، تتكشف له الأسرار ،

يرى ما سوف يحدث ، عودتي لك وعودتك لي ، إنك شك في هذا ، لو كنت

لا تريددين العودة لي ، لا وضيت بالزواج من عجوز ميت ، لو كنت لا أريد

العودة لك لا حاولت قلبى إلى قبر لحبك ..

سيموت ناجي ويبعث حبنا من جديد ..

يموت ناجي ؟ ها هو يصمرغ في حيوية ..

.. بقى الشبابت تعباً والعواجز التي زى حالاتي مليانين نشاط .. سايبني

أتكلم .. وأتحمس .. وأستعد لكتابة مقالات ..

كانه لم يموت ..

مت يانا جي ، نحن في انتظار موتك ..

مت يانا جي ، إنني أفقتك ، بكل ما في نبض من صدق ، أفقتك ..

مت يانا جي .. أذكر أن تموت ، وجهه منىء بالحياة .. الدم ينتشر فواراً في

عروقه ..

لا مكان لعظيمين في هذا البيت ، أنت عظيم ، وأنا عظيم ، أنت صادق وأنا

صادق ..

لا يمكنني أن أؤثرك ، الصديق لا يخون ، إنه يقتل ، إن ترضى سامية أن

تكون عشيقتي وأنت زوجها ، أنت أقوى من الخيانة ، وأنا أقوى من الحياة ..

لو خانت سامية ، فسيكون مع شخص آخر فترنا ، شخص غير عظيم ، غير

صادق ..

اصطدمنا يانا جي ، أنت تعرف ما يحدث وما قد يحدث ، أنت تعرف كل

شيء ، لابد أن تموت ، الذين يصلون إلى كل هذه المعرفة لا يواصلون الحياة ،

أنهم يرتفعون فوقها ..

مت يانا جي ؟ ..

ها هو يصمت ، يبتسم ، الحياة تدب في عروقه ، كأنه يسمع همس

أفكارى ..

إنني معجب بك يانا جي ، أكاأ أصفق لك ، أنت تطربني تدعوني إلى بيتك

لترسم للمستقبل كأنك إله لابد أن تموت يا ناجي ، الآلهة لا تجلس إلى الموائد

وتأكل السمك ما أروع هذا الحديث الصامت بيننا أسمعك تقول إنني المنتصر ،

وتعترف بأنك المنهزم ، أنا الذى جعد ، وأنت الذى سقط .. اسمعك تقول إنك لا تكرهنى ، تشعر وكأنك وأدت من جديد ..

أحقا ولدت من جديد يا ناجى ؟

أنا أيضا وأدت من جديد ..

ولكن العالم لن يسمع لكلينا .. واحد منا يجب أن يذهب ، لو لم تمت أنت فى الحال ، سوف أموت أنا ..

ما زال صامتا ، وجهه يشحب .. هل اقتنعت بكلامى يا ناجى ، أقررت أن تموت ..

صرخ محمد ناجى ..

.. سامية ..

وجهه أزرق ، يفتح فمه بلا كلام ، صرخت سامية ، لوح بيده وقال كلاما بصوت مسموع ، صوته المسموع لا يسمعه أحد ..

أطرق برأسه ، انقطع حديثه الصامت ، الدنيا تضيء بنور ساطع قلبى يرتعش ، الحب الميت ينتفض بيعث جبا ، صوتك الصارخ يأسامية يشجيتنى أنت أنشئ شهية ، جسدت البض يملأ عيني ، كأننا فى شقة سينما بارداى ، انتهى الكابوس ..

الموت مات ..

●●

دفنا الميت ، والأنشئ تنتظر فى البيت ..

أذهب إليها ؟ ..

أم أذهب إلى مبروكة ؟ ..

استطيع أن أفعل ما أريد .. أنا قادر قوى ، أمرت محمد ناجى أن يموت فمات ..

لا أستطيع أن أقتل مبروكة ؟ ..

هى التى صنعت منى الشهيد .. عذبتنى فعرفتتى على الصدق ، إنها الدرس الذى يكمل صدقى ، الخطأ الذى يصحح صوابى ..

افكر كمجنون ، كلماتى محيرة ، كلماتى تشعب ، تغصص ، كأنى طفل ياولدى .. يا فرحتى ..

أنا طفل ، كلماتى كلمات طفل عرفت .. عرفت ..

الذى علمنى ، هو الطفل ..

إنه باق معى ، لم يذهب ، لم يبعد ، حبيبى الطفل يوسف عبد الحميد ، أنت مختبئ ، يا شقى فى داخل ..

وهنا سكنت يوسف عن الكلام ..

وبذلك ينتهى القسم الرابع ، والآخر من الرجل الذى فقد ظله ..



منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

من الحب

إنها قصة شاب مصري يوسف عبد الحميد
الصوفي - الذي باع روحه ليقتل على حساب
اصداقه اليساريين الدامي وعلى حساب رئيسه
الطبيب

وأبرز القصة من ثلاث وجهات نظر: أولاً
ملقوبة مبروكة الفلاح التي تزوجت والد
يوسف المدرس ثم قصة سلمية الممثلة
القاهرة - التي اضطر يوسف إلى أن يتركها
كخفية رائدة عن الورد في رحلته إلى الشهرة
إلى الصورة التي قدمها عنده لحاتم للشخصية
القطعية المسبقة عن الثورة - خصية []
الوانها - ذلك كان وصفه لمطلوبة يوسف
ومبروكة

ولكن خيالات يوسف عن الرأسمالية لم تكن
مفتحة بقدرية لرجل بمستلحاح تدبير الأمور

نيويورك تكيمز - ١٧ يوليو ١٩٦٦